المشروع التأسيسي لعلم الاستغراب

نقد الحضارة الغربية

(الرومان بين القرنين الأول ق.م والخامس ميلادي)

محور التاريخ



الجزء العاشر

مجموعة باحثين

العتبة العباسية المقدسة
المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية

نقد الحضارة الغربيّة (١٠)

(الرومان بين القرنين الأول ق.م والخامس ميلادي)

محور التاريخ

نقد الحضارة الغربية. الجزء العاشر : الرومان بين القرنين الاول ق.م والخامس ميلادي / تأليف مجموعة باحثين.-الطبعة الأولى.-النجف، العراق : العتبة العباسية المقدسة، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، ١٤٤٤ هـ. = ٢٠٢٣.
مجلد : ايضاحيات ؛ ٢٤ سم.-(المشروع التأسيسي لعلم الاستغراب)
يتضمن إرجاعات ببليوجرافية.
ردمك : ٩٧٨٩٩٢٢٦٢٥٥٦٠
١. الحضارة الرومانية. ٢. الرومان--تاريخ--القرون ١ قبل الميلاد - ٥. أ. العنوان.

LCC : DG209 .N37 2023
DDC : 937

مركز الفهرسة ونظم المعلومات التابع لمكتبة ودار مخطوطات العتبة العباسية المقدسة
فهرسة اثناء النشر

نقد الحضارة الغربيّة (١٠)

(الرومان بين القرنين الأول ق.م والخامس ميلادي)

محور التاريخ

مجموعة باحثين

الناشر

العتبة العباسيّة المقدّسة/ المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجيّة

الطبعة: الأولى ٢٠٢٢م/ ١٤٤٣هـ

(إنّ جميع الأبحاث الواردة في هذا الكتاب محكّمة من قبل لجنة علميّة)



هويّة الكتاب

نقد الحضارة الغربية (١١)

(الرومان بين القرنين الأول ق.م والخامس ميلادي)

إشراف

السيِّد هاشم الميلاني

رئيس التحرير

الشيخ حسن الهادي

مدير التحرير العلمي

د. محمد مرتضى



الهيئة العلميّة



المشاركون في هذا الجزء

❋ أحمد حسين المشعل

❋ أحمد الخضر

❋ أعقيل نمير

❋ عمار محمد النهار

❋ إياد فرحان بدرية

❋ أنس أحمد الشامي

❋ نادية الغزولي

❋ مروة محمد نبيل جريدة

❋ هبة شباط

❋ حسين حسن نكلاوي

❋ رفاه البوشي الدباغ

❋ عبد الله السليمان

❋ عباس فرج

❋ محمد السليمان

❋ هشام الرز

❋ محمد السليمان

❋ محمد مرتضى

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات



مقدِّمة

تمثّل هذه الدفعة (ثلاثة أجزاء: ١٠-١١-١٢) المرحلة الرابعة من مشروع نقد الحضارة الغربية، وهي مرحلة تغطّي الفترة الواقعة بين القرن الأول قبل الميلاد، وتحديداً عام ٢٧ق.م تاريخ ولادة الإمبراطورية الرومانية، حتى القرن الخامس ميلادي، وتحديداً عام ٤٧٦م، تاريخ سقوط روما.

وقد جاءت هذه الأجزاء الثلاثة مقسمة حسب الموضوعات التي تمت معالجتها؛

فأختص الجزء العاشر منها بالمحور التاريخي بأبعاده المرتبطة بالحياة الثقافية والاجتماعية، وكذلك بحياة الاباطرة وحروبهم وصراعاتهم.

أما الجزء الحادي عشر، فقد خصصناه لمباحث اللاهوت، حيث بدأ في تلك الفترة تشكُّل اللاهوت المسيحي، مع رحلة المخاض التي سار بها، وقد كان من أبرز شخصيات القديس أوغسطين.

أما الجزء الثاني عشر، فقد عالجنا فيه بعض المباحث الفلسفية المرتبطة بالأسئلة الرئيسة التي طرحت في تلك الفترة.

إننا إذ نشكر جميع الباحثين الذين ساهموا في انجاز هذه المرحلة، فإننا نسأل العلي القدير أن يوفقنا الى إتمام المرحلة الخامسة من هذا المشروع، والتي ستغطي كامل ما يسمى بالعصور الوسطى، أي من أواخر القرن الخامس، حتى أواخر القرن الخامس عشر ميلادي.

المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجيّة

حملات الأباطرة الرومان إلى الشرق
(تراجان، ماركوس أورليوس، سبتيميوس سيفيروس)

أحمد حسين المشعل[١]

مقدّمة

كانت الدَّولة الفرثيّة تقف حجر عثرة في وجه السِّياسة الاستعماريَّة التوسعيَّة الرومانيَّة في الشَّرق، ولذلك كان الأباطرة الرُّومان يتطلَّعون إلى غزو الشَّرق للقضاء عليها، واحتلال أراضٍ جديدة، لتحقيق حلمهم في الوصول إلى سواحل الخليج العربيِّ، والسَّيطرة على طرق التِّجارة العالميَّة بين البحر المتوسِّط غربًا والخليج العربي شرقًا.

وقد دخل الرُّومان في صراع مرير وطويل مع الدَّولة الفرثيّة استمرَّ لمدَّة قرنين ونصف من الزَّمن (٩٢ ق.م- ٢١٧م)، قاموا خلال هذه الفترة بمحاولات عدَّة للاستيلاء على عاصمتهم طيسفون، وأوَّل تلك المحاولات قام بها الإمبراطور تراجان، فقد شجَّعه على ذلك احتلاله لمنطقة حوض الدانوب وإخضاعها له بالقوة. فبعد أن أنهى حروبه في الجبهة الأوروبيّة بدأ بالتجهيز لحملة توسعية كبرى إلى الشَّرق في عام (١١٤م) لاحتلاله.

وقد تمكَّن الإمبراطور تراجان من الوصول إلى العاصمة طيسفون دون أن تحدث أية معركة مع الفرثيين، فقد استخدم أسلوب المكر والخديعة في سبيل ذلك. وتمكّن من الوصول إلى سواحل الخليج العربي في عام (١١٦م)، وهو أوّل وآخر إمبراطور روماني يصل إليه، وبذلك تحقَّق هدفه في جعل الطريق من البحر المتوسِّط نحو الشَّرق الأدنى مفتوحًا. ولكنَّ ذلك لم يستمر طويلاً، فقد تمكَّن الفرثيّون بقيادة خسرو من استعادة عاصمتهم وطرد الرومان منها.

ورغم فشل الحملة سياسيًّا، إلاَّ أنَّها أظهرت ضعف الدَّولة الفرثيّة، والسَّبب في ذلك يعود لانشغالهم في الصِّراعات الداخليَّة والوصول إلى العرش، كما وجَّهت أنظار الرُّومان

---

[١]- أستاذ في جامعة الفرات-سوريا.

إلى غزو بلاد الرَّافدين واحتلالها، بوصفها المركز الرَّئيس لتوزيع منتجات التجارة الشَّرقية، وهذا ما حاول القيام به الإمبراطوران ماركوس أورليوس عام (١٦٢- ١٧٠م) وسبتيميوس سيفيروس عام (١٩٥- ١٩٩م). ولكنَّ حملاتهما الاستعمارية باءت بالفشل ولم تضف أيَّة منطقة جديدة للرُّومان. وقد تكبَّد الرومان خلال هذه الحملات العديد من الخسائر في العتاد والرِّجال.

أوَّلًا: الإمبراطور تراجان tragan (٩٨- ١١٧م)

١. نشأته ووصوله إلى العرش

هو أوَّل إمبراطور يجلس على عرش الإمبراطوريَّة الرومانيَّة ينحدر من أصول غير رومانيَّة وبالتحديد من إسبانيا. فقد ولد في المستعمرة الرومانيَّة إيتاليكا قرب إشبيلية في إسبانيا عام (٥٢ م)، وكان والده عضوًا في مجلس الشيوخ. دخل تراجان إلى السِّلك العسكريِّ صغيراً وتدرَّج في المراتب العسكريَّة حتَّى وصل إلى رتبة قائد (بريتور) عام (٨٥ م)، وخدم في الشَّرق وألمانيا وصار قنصلاً عام (٩١ م). لم يكن للإمبراطور ماركوس نرفا (٩٦- ٩٨م) عند تولِّيه عرش الإمبراطورية وريثٌ، لذلك تبنَّى رسميًّا قائده تراجان الذي كان آنذاك يشغل منصب قائد فرق أعالي الراين وأشركه معه في الحكم عام (٩٧م) ومنحه لقب قيصر، وبعد وفاته عام (٩٨ م) خلفه على عرش الإمبراطورية الرومانيَّة، ويعدُّ وصول تراجان للعرش بداية انتهاء سيادة أثرياء الإيطاليِّين والرومان واحتكارهم الوظائف العليا في الإمبراطورية الرومانيَّة، وبداية توليّ طبقة من النبلاء والأعيان القادمين من الولايات الغربيَّة. وشهد عهد تراجان ثورة اليهود الكبرى في عام (١١٥ م)، التي بدأت في قورينه في برقة، وامتدَّت إلى قبرص ومصر وفلسطين، إلاَّ أنَّه قمعها بكلِّ عنف ووحشية[١].

كان تراجان عسكريًّا ومحاربًا ناجحًا من الطِّراز الأوَّل، وقد انتهج منذ اعتلائه عرش الإمبراطوريّة سياسة قائمة على التوسُّع ووضع يد الرومان على كلِّ منافذ التِّجارة الشرقيَّة من سهول روسيا إلى البحر الأحمر، إلاَّ أنَّ انشغاله بحروبه في جبهة أوروبا (شمالي نهر

[١]- حافظ، احمد غانم، الإمبراطوريّة الرومانيّة من النشأة إلى الانهيار، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة ٢٠٠٧م، ص ٦٦ – ٦٧.

الدانوب) خلال الفترة من (١٠١- ١٠٧ م) جعله يصرف النَّظر عن تحقيق ذلك الهدف، فسيطر على منافذ البحر الأسود وجنوب روسيا[١].

٢. ولاية سورية في عهد الإمبراطور تراجان

عندما احتلَّ الإمبراطور الرومانيُّ بومبي مملكة سورية الطبيعيَّة سنة (٦٤ ق.م) جعلها تحت اسم واحد هو ولاية سورية بدلاً من مملكة سورية. وأصبحت عاصمتها أنطاكية، بينما جعل كيليكية ولاية مستقلَّة بذاتها. وسمح للملوك العرب بالبقاء فيها، على أن تقتصر سلطتهم على ممتلكاتهم الأصليَّة، وأن يدفعوا جزية سنويّة. ومع ذلك احتفظ ملك الأنباط بدمشق مقابل مبلغ ضخم من المال، ومنحت أنطاكية وسلوقية وغزة ومستعمرات أخرى الحكم الذاتيَّ أيضًا، ووضعت تحت حكام الولايات.

وقد عُدَّت ولاية سورية ذات أهميَّة مركزيَّة خاصَّة في الممتلكات الآسيوية، حتَّى إنَّها وضعت تحت الحكم المباشر لنائب القنصل الرومانيِّ الذي يتمتَّع بسلطات التَّجنيد والاشتراك في الحرب، وعهد بها إلى بعض الموظَّفين الرومان البارزين، وكان أوَّلهم أولوس غابينيوس (٥٧- ٥٥ ق.م) مبعوث بومبي.

وفي عام (١٠٥م) احتل تراجان البتراء فألحقت بالإمبراطوريّة الرومانيَّة تحت اسم الولاية العربيَّة. ولمَّا كانت سورية مركز القوَّة الرومانيَّة في الشَّرق الأدنى، فإنَّ الإدارة الرومانيَّة أنشأت سلسلة من المراكز على طول حدود الصحراء، لحماية الأماكن التي كانت ذات حضارة مزدهرة ومأهولة بالسكَّان بصورة خاصَّة. وكان جنود هذه الحصون في الغالب من قوَّات احتياطيَّة جاءت من القبائل الموالية.

وكان الطريق العرضاني بين الشَّرق والغرب الذي يصل مدن دجلة والفرات بمدن البحر المتوسِّط مارًّا بتدمر يجتاز هذه المنطقة، وكان يعبرها طريق طولاني كبير سمَّاه الرومان طريق الملك. ويبدأ هذا الطَّريق من دمشق فيمرُّ في حوران إلى جلعاد ومنها إلى مؤاب ثمَّ إلى الجنوب ليتَّصل بطريق قوافل الجزيرة العربيَّة. وهذا الطَّريق الرئيس في شرقي الأردن

[١]- جواد النوري، ميثم عبد الكاظم، العلاقات الفرثيّة - الرومانيّة ٢٤٧ ق.م - ٢٢٦ م، ط١، دار عدنان للطباعة والنشر، بغداد ٢٠١٧م. ص ١٠٠.

الذي يعود إلى أواخر الألف الثَّاني ق.م قد رصفه تراجان واستخدمه طريقًا عسكريًّا لفرق الجيش، ثمَّ استعمله الحجَّاج المسلمون بعد ذلك. وشجَّعوا البدو على الاستقرار، وجعلوا سورية سوقًا عالميًّا[١].

٣. حملة الإمبراطور تراجان إلى الشَّرق ١١٤– ١١٦م

استمرَّ السَّلام قائمًا بين الطَّرفين الفرثي[٢] والروماني عقب معاهدة رانديا[٣] مدَّة (٥٠ عامًا). وبوفاة تيرداد الأوَّل الملك الفرثي على أرمينيا عام (١٠٠م) انتهت مدَّة السَّلام بين الفرثيين والرومان، وعلى إثر ذلك أجلس الملك الفرثي باكور الثَّاني (٧٨ – ١٠٨م) على العرش الأرميني ابنه اكسيدارس (١٠٠ – ١١٣م) دون استشارة روما، أو حتَّى أخذ موافقة إمبراطورها تراجان، وبهذا يكون الفرثيّون قد خرقوا معاهدة رانديا.

بعد فترة من إنهاء تراجان غزواته في داكيا «داقية» وجَّه اهتمامه لاحتلال الشَّرق، مستغلاًّ الفوضى التي تعيشها الحكومة الفرثيّة، ولتأكيد السَّيطرة الرومانيَّة على أرمينيا من جديد. وكان أوَّل أهدافه إعادة توطيد النفوذ الرومانيِّ على أرمينيا والسَّيطرة على منافذها التجاريَّة وطرد النفوذ الفرثي منها، متَّخذًا من خرق الفرثيين معاهدة رانديا ذريعة لاستئناف نشاط روما الحربي ضدَّهم[٤].

[١]- حتّي، فيليب، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج١، ط٢، ترجمة د. جورج حداد و د. عبد الكريم رافق، دار الثقافة – بيروت ١٩٥٨م. ص ٣٠٩ – ٣١٩.

[٢]- الفرثيّون: أقوام آريّة بدويّة رعويّة تسكن أواسط آسيا، عرفوا بهذا الاسم نسبة إلى الإقليم الذي نزلوا عنده بارثافا (parthava)، وقد استطاعوا أن يشكّلوا دولة خاصّة بهم عنده هناك وبتتويج أرساس أوّل ملك عليهم سنة ٢٤٧ ق م، واستمرّت قوّتهم في تزايد حتّى باتوا خطراً محدقاً بالسلوقيين، إلا أنّ حكم الفرثيين لم يستتب إلا بعد مجيء الملك أرطبان الثاني سنة ١٢٦ ق.م، وعُدَّ هذا التأريخ عند بعض المؤرّخين هو بداية الحكم الفعلي للفرثيين للعراق والذي دام قرابة ثلاثة قرون ونصف وكانت بدايته من سنة ١٢٦ ق م حتّى نهايته سنة ٢٢٧م. واتسمت هذه المرحلة الممتدّة بين هذين التاريخين بصراع مستمرّ بين قوّتين،الأولى الإمبراطوريّة الرومانيّة في الغرب، والثانية المملكة الفرثيّة في الشرق، حيث كانت كلّ قوّة تسعى جاهدة للسيطرة وبسط النفوذ على المنافذ الرئيسة التي تتحكّم بطرق التجارة العالميّة والمؤدّية إلى بلاد الشام و بلاد الرافدين وكانت أرض الجزيرة ميداناً لهذه الحرب عندما تدور رحاها بين الطرفين. انظر: Frye،R،N:The heritage of persia،London،1966.p 71.

[٣]- عقدت هذه المعاهدة بين ملك أرمينيا الفرثي تيرداد الأوّل والقائد الروماني كوربولو عام(٦٣ م) في بلدة رانديا(قرب مدينة خربوط): وبموجبها اعترف الجانب الروماني بالملك الفرثي تيرداد الأوّل ملكاً على أرمينيا، بشرط أن يتمّ تتويجه من قبل الإمبراطور نيرون في روما نفسها. ومعنى ذلك أنّ أرمينيا أصبحت تابعة للنفوذ الروماني وأنّ الملك الفرثي يحكمها بصفته تابعاً لروما. انظر : جواد النوري، ميثم عبد الكاظم، المرجع السابق، ص ٩٥.

[4]- Debevoise. N. C., A political history of Parthia, The university of Chicago, 1938. Pp 217 – 219.

وقد أعدَّ تراجان العدَّة للغزوة بدرجة عالية من الدقَّة والتَّنظيم، وفي خريف عام (١١٣م) أبحر الإمبراطور تراجان من روما، وعند وصوله إلى مدينة أثينا[١] قابل وفدًا من أوزرويس الذي عرض عليه السَّلام. وعندما وصل تراجان بجيشه البالغ (١٠٠) ألف جنديٍّ إلى مقدونيا أرسل إليه الملك الفرثي خسرو (١٠٨- ١٣٠م) وهو أخو الملك باكور الثاني رسوله محمَّلاً بالهدايا، وقدَّم إليه فروض الطاعة، وأنَّه سيعزل اكسيدارس ويعيِّن بدلاً منه بارتامازيريس ابن ملكها السابق تيرداد الأوَّل، وأنَّه سيتسلّم التاج من يد الإمبراطور مثلما فعل والده من قبل. ولكي لا يترك للفرثيين مجالاً للاستعداد لمواجهته، قبل تراجان الهدايا إلَّا أنَّه لم يعط جوابًا شافيًا لرسوله، وإنَّما اكتفى بالإجابة بأنَّه سينظر في المسألة بعد دخوله سورية[٢]. ومن خلال ذلك يبدو أن تراجان كان مراوغاً- محتالاً ويخفي نية الغدر ضد خسرو.

كانت المرحلة التَّالية لغزوة تراجان عبر بحر إيجة إلى إفسوس Ephesus، المركز التجاريِّ العظيم إلى الغرب من جبال طوروس، ومن أفسوس توجَّه بالطَّريق البري عبر أنطاليا، ثمَّ تابع تراجان بالسفن عبر الطريق الساحلي لمدن آسيا الصغرى إلى سلوقية بيريا (Pieria Samandage)، ميناء أنطاكية، وعندما وصل في نهاية شهر كانون الأوَّل حضر هادريان لمقابلته، ثمَّ ذهبوا سوية إلى قرب جبل كاسيوس، حيث كرَّس الإمبراطور الغنائم من حرب داكيا إلى الإله زيوس بالابتهال للإله من أجل الوقوف إلى جانبه في غزوته القادمة، ودخل بعد ذلك إلى أنطاكية في شهر كانون الثاني عام (١١٤م)[٣].

وقد تمكن هادريان من جمع جيش كبير من مناطق مختلفة من سورية عند أنطاكية[٤]

[١]- أثينا : هي عاصمة اليونان وأكبر مدنه، يعود اسم المدينة إلى آلهة الحكمة الإغريقية أثينا. تقع في جنوبي اليونان على سهل أتيكا بين نهري إليسوس وكيفيسوس محاطة بثلاث جهات بالجبال والجهة الرابعة تطلّ على خليج زارونيش الواصل إلى البحر المتوسّط. انظر: مرعي، عيد، رحلة في عالم الآثار «آثاريّون ومدن أثريّة، ط١، دار روافد للثقافة والفنون، دمشق ٢٠١٠م، ص ٨١ - ٨٢.

[2]- Griffin. M., Nerva to Hadrian,, the Cambridge ancient history, second edition, volum XI, Cambridge university press 2008. P 124.

[3]- Bennett. J., Trajan Optimus Princeps, A life and times, Routledge, London and New York, 1997. P 194.

[٤]- أنطاكية: هي مدينة أنطاكية الحاليّة في شمال غربي سورية في منطقة لواء إسكندرون بالقرب من ساحل البحر المتوسّط. وقد كانت في العصر الامبراطوري الروماني ثاني أكبر مدينة في العالم بعد روما. أسّست المدينة من قبل القائد العسكري سلوقس الأوّل نيكاتور (٣٥٨ - ٢٨٠ ق.م) على الضفّة اليسرى لنهر العاصي قبل مصبّه في البحر المتوسط بمسافة قصيرة في سنة ٣٠١ ق.م. انظر: مرعي، عيد، المرجع السابق، ص ١١٥.

للغزوة القادمة، ومن المحتمل أنَّ تراجان بقي في المدينة حتَّى بداية نيسان، ثمَّ عبر شمالاً إلى أرمينيا عبر جبال طوروس. خلال هذه الفترة استخدمت أنطاكية مركز عاصمة للإمبراطوريّة الرومانيَّة في الشَّرق، وكان الإمبراطور مشغولاً بالتَّجهيز للغزوة ضدَّ الفرثيين، ودخل أيضًا في مفاوضات دبلوماسيَّة مع الممالك التي تقع في طريقه إلى الفرثيين، وفي البداية استلم رسالة من أبجر السابع ملك أوسروين[١] الذي تقاعس في المجيء شخصيًّا على أمل أن يبقى محايدًا، لكنَّه أرسل هدايا ورسالة صداقة، وجاء رسل آخرون من مانوس ملك الجزيرة السوريّة وسبوراسيس Sporaces حاكم مملكة قريبة من انثيموسيا Anthemusia. بعد ذلك ترك الإمبراطور الفرق العسكريَّة للتوجُّه إلى ساتالا (في منطقة البحر الأسود في تركية (Satala Kelk)، لجعلها قاعدة لغزوته المختارة لمدَّة سنة، وترك هادريان في المؤخِّرة لإدارة المنطقة المهمَّة استراتيجيًّا ولوجستيًّا في سورية[٢].

وقد انطلق تراجان من أنطاكية إلى ساتالا في مرحلتين، المرحلة الأولى التي أخذها تراجان عن طريق حلب إلى قلعة البيرة (أو بيره جك في جنوب شرقي تركية حاليًّا، كانت تابعة لحلب)، بعد عبوره إلى الضفة اليسرى للفرات زحف إلى ملطيّة، ووصل إلى قلعة ملطيّة Melitene فاحتلها ونهبها. وفي هذه الأثناء استلم تراجان رسالة من بارتامازيريس يقترح فيها أن يأتي إلى الإمبراطور مع التاج الملكي الأرميني، ولم يقبل الإمبراطور بهذا، لكن بدلاً من ذلك أرسل ابن جونيوس هومولوس وفوَّضه للمناقشة وللتأكُّد من الرسائل المقدَّمة من قبل بارتامازيريس، واستمرَّ تراجان في المرحلة الثانية في مسيره إلى ساتالا، عبر الفرات مرَّة ثانية، وبعد ذلك تجاوز معبر إيلزيك إلى جنوبي مدينة أرمينيا أرساموساطا (ArsamosataPalu) التي احتُلَّت دون مقاومة، ثمَّ تابع طريقه إلى الشمال عبر معبر بولومور، وعبر الفرات مرَّة أخرى، وبعد مسيرة يوم وصل إلى ساتالا في نهاية شهر أيار عام (١١٤م)[٣].

وفي ربيع السَّنة نفسها توجَّه الإمبراطور إلى أرمينيا، ولمَّا علم ملك أرمينيا بارتامازيريس

[١]- مملكة أوسروين: كانت هذه المملكة تقع في شمال غربي الجزيرة السوريّة بين نهري الفرات والخابور، وقد استقلت عن السلوقيين في القرن الثاني قبل الميلاد، وصارت مملكة مستقلة وعاصمتها مدينة الرها. انظر: الجنزوري، علية عبد السميع، إمارة الرها الصليبيّة، الهيئة المصريّة العامة للكتاب - القاهرة ٢٠٠١ م، ص ٢٨.

[2]- Bennett. J., op. cit, pp 194 – 195.

[3]- Ibid., p 195.

بمسيره إلى بلاده أرسل إليه عرض عليه أن يُتوِّجه ملكًا عليها، فقام تراجان بخداعه وتظاهر قبوله بذلك العرض، وسار إليه بارتامازيريس ليعلن ولاءه، فالتقى به في بلدة اليكيا[١] الواقعة إلى الغرب من مدينة أرضروم، فقام بارتامازيريس بخلع التاج عن رأسه ووضعه عند أقدام تراجان معتقدًا أنَّه سيعيده إليه ويتوِّجه به ملكًا على أرمينيا، إلَّا أنَّ تراجان لم يُعده إليه بل عزله عن الحكم، ولم يكتف تراجان بذلك بل أرسل كتيبة من الفرسان الرومان خلفه وأمرهم بقتله في طريق عودته، بالإضافة إلى صفات المكر والخداع التي تميز بها تراجان فلم يكن ينقصه الغدر، وواصل بقوَّاته المدجَّجة بالسِّلاح والرِّجال إلى أرمينيا التي لم تستطع قوَّاتها المقاومة، فاحتلها وعيَّن عليها قائده الرومانيَّ كاتليوس سفيروس، وأعلن أرمينيا ولاية رومانية في صيف عام (١١٤م)، وأطلق عليه مجلس الشيوخ لقب اوبتيموس optimus أي العالي[٢].

وبعد أن وطَّد تراجان الأمن في أرمينيا قرَّر الزحف جنوبًا باتِّجاه العاصمة طيسفون[٣]، وفي بداية عام (١١٥م) احتل ماردين ونصيبين وتوجَّه نحو الرها[٤]، وعندما وصل تراجان هذه المدينة سارع أبجر السابع حاكمها لاستقباله بالهدايا النَّفيسة التي تضمَّنت (٢٥٠) حصانًا وفارسًا مدرَّعين، تعبيراً عن ولائه وخضوعه له، وهذا يعني أنَّ الرها استسلمت طوعاً لتراجان[٥].

ثمَّ تابع تراجان طريقه ووصل في صيف عام (١١٥م) إلى شمال بلاد الرَّافدين، وتجهَّز لضمِّها إلى الإمبراطوريَّة الرومانيَّة، وخلال هذه الفترة احتل القائد لوسيوس كيوتوس ماردي، وتابع جنوبًا إلى مملكة اديابين (حدياب، مملكة قديمة شبه مستقلَّة موالية للفرثيين

[١]- أليكيا : تقع على بعد ١٨٠ كم شرق ساتالا، و٣٠٠ كم غرب عاصمة أرمينيا أرتاكساتا (أرتاسات Artasat.
انظر : Ibid., p 196

[٢]- جواد النوري، ميثم عبد الكاظم، حملات الأباطرة الرومان (تراجان، ماركوس أورليوس، سبتيميوس سيفيروس) على العراق، مجلّة الأستاذ، ملحق العدد الخاصّ بالمؤتمر العلمي الثالث، جامعة بغداد - كليّة التربية ٢٠١٥. ص ١٩٢ - ١٩٣.

[٣]- مدينة طيسفون: تقع طيسفون (المدائن) في وسط العراق على نهر دجلة مقابل مدينة سلوقية (تل عمر). بناها الفرثيّون في القرن الثاني قبل الميلاد وبقوا فيها حتّى العصر الساساني.انظر: مظلوم،طارق عبد الوهاب :المدائن (طيسفون)، مجلّة سومر - مج ٢٧، الجزء ١-٢، منشورات مديريّة الآثار العامّة العراقيّة- بغداد ١٩٧١،ص١٢٩.

[٤]- مدينة الرها: كانت عاصمة مملكة أوسروين، وقد حملت عدّة أسماء عبر تاريخها، فقد عرفت في العصور الكلاسيكيّة باسم إديسا، واسمها السرياني أورهي والاسم الآرامي أورهاي، ومنها اشتقت التسمية العربيّة القديمة الرها. واسمها الحالي أورفا التي تقع جنوب شرق تركية اليوم. انظر: الجنزوري، علية عبد السميع، المرجع السابق، ص ٢٨.

[5]- Debevoise. N. C.,A political history of Parthia, The university of chicago, 1938. P 227.

تقع شمال بلاد الرافدين)، حيث قاتل وهزم الملك ميبارسابيس Mebarsapes، وبعد ذلك زحف تراجان إلى جنوبي بلاد الرافدين[١].

وفي طريقه أرسل إليه مانوس Mannus ملك قبائل الجزيرة العربيّة رسلاً للتَّرحيب به وعرض السَّلام عليه، لكنَّ عروضه كان فيها بعض الشكِّ؛ لأنَّه كان قد ساعد ودعم ميبارسابيس ضدَّ لوسيوس كويتوس، وقد اقترح مانوس على تراجان ضرورة الوقوف معًا ضدَّ عدوِّهم المشترك اوزرويس، الذي استولى على أجزاء من أرمينيا وبلاد الرافدين، لكنَّ تراجان رفض التَّفاوض مع مانوس حتَّى يأتي إليه شخصيًّا، ولكنَّ الأخير رفض ذلك أيضًا خوفاً من غدر تراجان، بعد ذلك ترك الأمر إلى لوسيوس كويتوس في أديابين، الذي اقترح على مانوس أن يقابله هناك، وفي النهاية توصَّلوا إلى نتيجة يبدو أنَّها كانت مرضية للجميع، وقد سمح له لوسيوس أن يمتلك بسلام مدينة القبائل العربيّة سنجارا ومدنًا أخرى، ومن المحتمل أنَّها شملت مدينة دورا أوروبس[٢]، وهكذا أكمل تراجان احتلال بلاد الرافدين[٣].

وعند نهاية صيف عام (١١٥م) ترك تراجان في مدينة نصيبين مجموعة من المهندسين لبناء سفن لعبور نهر دجلة، وعاد إلى أنطاكية لقضاء فصل الشتاء فيها، وخلال إقامته فيها حدث زلزال مدمِّر في شهر كانون الثاني من السنة نفسها، ويقال إنَّه أهلك نصف أهلها، وكاد تراجان أن يفقد حياته فيه، واضطرَّ أن يخرج منها ويعسكر في ساحة في الهواء الطلق[٤].

لكنّ تلك الكارثة لم تمنعه من متابعة غزوته باتِّجاه العاصمة طيسفون، ولذا سار في عام (١١٦م) إلى نصيبين، وأمر أن تُحمل القوارب التي صُنعت فيها على عربات إلى جزيرة بازبدى، وقد مكَّنته تلك القوارب من عبور نهر دجلة والوصول إلى كوكميلا التي لم تقو على مقاومته، فاستسلمت له كما استسلمت له مملكة أديابين (حدياب) التي هرب عنها

[1]- Debevoise. N. C.,A political history of Parthia, The university of chicago, 1938, p 226.

[٢]- دورا أوروبس: تقع أطلالها اليوم التي تعرف باسم آثار الصالحيّة على الضفة اليمنى لنهر الفرات، على بعد نحو ٣٠ كم غربي مدينة البوكمال السوريّة. بناها الملك السلوقي سلوقس الأول (٣٢٣ - ٢٨٠ ق.م). استولى عليها الفرثيّون في سنة ١٠٠ ق.م وصارت في عهدهم مدينة قوافل مزدهرة. وفي عام ١٦٥ م استولى عليها الرومان وأصبحت حصناً حدودياً. وبعد عام (٢٥٦ م) استولى عليها الملك الساساني سابور الأوّل (٢٤١ - ٢٧٢ م) ودمّرها. وفي الوقت الحاضر تعرّضت للتخريب والتدمير على يد العصابات الإرهابيّة. انظر: سلهب، زياد، آثار العصور الكلاسيكيّة الإغريقيّة، منشورات جامعة دمشق ١٩٩٨م، ص ٩١.

[3]- Bennett. J., op. cit, p 199.

[4]- Debevoise. N. C., op. cit, p 230.

ملكها، وبدلاً من أن يزحف مباشرة إلى العاصمة طيسفون عبر نهر دجلة واتَّجه غربًا قاطعًا الصَّحراء التي تفصل بين النهرين جنوبي الموصل مارًّا بمدينة الحضر[١]، وبعد أن قدَّمت ولاءها واعترفت بسيطرته، تركها ووصل إلى نهر الفرات، فاتَّصل بأسطول ثان كان قد انحدر في النهر، ثمَّ أقلع به إلى مدينة بابل[٢].

وقد بقي الملك الفرثي باكور يراقب الأحداث عن كثب، ودخل تراجان طيسفون في ٢٠ شباط عام (١١٦م)، فهرب الملك الفرثي باكور عنها تاركًا عرشه وكنوزه وأفرادًا من عائلته، ومنهم ابنته التي أرسلها تراجان مع التاج الفرثي الذَّهبي وغيره من الكنوز التي نهبها إلى أنطاكية، وفرض تراجان جزية من جديد على المنطقة التي احتلها، وأصدر عملة حوالي هذا الزَّمن تحمل عبارة (ARTHIA CAPTA)، وبعد احتلال طيسفون أبحر الإمبراطور تراجان إلى أسفل دجلة باتِّجاه الخليج العربي بأسطول يتألَّف من خمسين سفينة[٣]. وكان الإمبراطور تراجان أوَّل وآخر إمبراطور روماني يصل إلى الخليج العربي، وبذلك حقَّق هدفه في جعل الطريق من البحر المتوسِّط نحو الشَّرق الأدنى مفتوحًا.

إلَّا أنَّه لم يلبث أن يلتقط أنفاسه بعد هذه الغزوة الطويلة ويقطف ثمارها، حتَّى سمع في السَّنة نفسها بأخبار عن هجوم جيش الملك الفرثي خسرو على القوَّات الرومانيّة في جميع المناطق التي كانوا قد احتلوها. ويذكر أنَّ خطَّة الملك الفرثي خسرو قامت على تقسيم جيشه إلى ثلاث فرق تهاجم القوَّات الرومانيّة من ثلاث جهات؛ الفرقة الأولى كانت بقيادة ابنه بارتامازيريس، ومهمَّتها مهاجمة القوَّات الرومانيَّة الموجودة في ميديا وأرمينيا وأديابين، والفرقة الثَّانية أوكل قيادتها إلى أخيه مهردار، ومهمَّتها مهاجمة القوَّات الموجودة على طريق

[١]- مدينة الحضر: (الحضر مدينة الشمس) كتبت هذه العبارة على أحد أوجه العملة الحضريّة مع صورة نسر رمز إله الشمس الذي نسبت إليه هذه المدينة، وعلى الوجه الآخر من العملة صورة الإله شمس بهيئة شاب حوله هالة مشعّة. وهي مدينة عربيّة النشأة وحاضرة مملكة عربايا (العرب). برزت أهمّية هذه المدينة من موقعها الاستراتيجي على الطريق بين العاصمتين سلوقية على نهر دجلة وأنطاكية في لواء إسكندرون على البحر المتوسّط شمال سورية. ونظراً لموقعها الاستراتيجي المهم فقد سيطرت على قوافل التجارة العالميّة التي تمرّ بأرض الجزيرة العربيّة. كما تعدّ مركزاً دينيّاً رئيساً يضم أكبر المعابد والمزارات الدينيّة. بالإضافة إلى ذلك كانت تمتلك قوّة عسكريّة وسياسيّة ممّا جعلها تقف سدّاً منيعاً في هذه الفترة الفرثيّة الرومانيّة، وكانت مصدر قلق لكلّ قائد روماني يحاول الوصول إلى العاصمة طيسفون. انظر: القيسي، منى عبد الكريم حسين، أسوار المدن والقلاع في بادية الجزيرة في عصر ما قبل الإسلام، دراسة عماريّة، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، كليّة الآداب ٢٠٠٧م. ص ٤٥ – ٤٧.

[٢]- جواد النوري، ميثم عبد الكاظم، حملات الأباطرة، المرجع السابق، ص ١٩٤.

[3]- Debevoise. N. C., op. cit, pp 233- 234.

الفرات، وقطع الاتِّصال بينها وبين القوَّات الموجودة في سورية، أمَّا الفرقة الثَّالثة فكانت بقيادة خسرو نفسه، ومهمَّتها الهجوم على طيسفون العاصمة، ويبدو أنَّ الهجمات الفرثيّة قد أوقعت خسائر فادحة في صفوف الجيش الرومانيِّ وأخذت منهم الأسلاب والغنائم التي كانوا قد نهبوها في غزوتهم. وقد أسرع تراجان بالعودة إلى طيسفون، واستفاد من وفاة مهرداد أخي الملك خسرو والخلاف الذي دار بين ابنه سنتروك الذي تولىَّ قيادة الجيش بدلاً منه وبين ابن الملك خسرو المدعو بارتامازيريس، فأوعز إلى قائديه كلاروس ولوسيوس كويتوس بإعادة احتلال المناطق التي حررها القائدان الفرثيّان فتمكَّنا من إعادة أرمينيا إلى تبعيَّة الرومان، وتعرَّضت سلوقية[١] ونصيبين والرها للنهب والحرق والتدمير على يد القوات الرومانية [٢].

وبعد ذلك الانتصار قرَّر تراجان العودة إلى بلاده خوفًا من أن يتعرَّض إلى هجوم جديد من قبل الفرثيين، إلاَّ أنَّه أراد تأكيد تبعيَّة ملك الفرثيين له، فاستمال إلى جانبه بارتامازيريس ابن الملك خسرو ونصَّبه على العرش في طيسفون، وتأكيدًا لتلك التبعية سكَّ نقودًا نقش عليها عبارة (Rex Parthis Dtus بادشاهي اعطايي به بارث) أي حكومة بارت العطائيَّة، ومنح لقب بارثيكوس (أي فاتح بارثيا) من قبل مجلس الشيوخ، وقدّم الابتهالات لأجل سلامته، وبعد ذلك عاد تراجان إلى سورية، وقبل وصوله إليها عرَّج على مدينة الحضر فضرب عليها حصاره محاولاً احتلالها، فاستغلَّ الملك الفرثي خسرو ذلك، وعاد في ربيع عام (١١٦م) إلى طيسفون، وتمكَّن من استعادة سلطته عليها بعد أن فرَّ عنها ابنه بارتامازيريس إلى الرومان، واستطاع استعادة سيطرته على المناطق الجنوبيّة من أرض الجزيرة الفراتيّة، أمَّا المناطق الشماليَّة منها، وكذلك إقليما اديابين وأرمينيا، فلم يتمكَّن من استعادتها إلاَّ بعد وفاة تراجان عام (١١٧م)[٣].

لقد كان تراجان طموحًا إذ اندفع في غزواته التوسُّعية الاستعمارية، لكنَّ هذا التوسُّع

[١]- سلوقية: تقع مدينة سلوقية على الضفّة اليسرى لنهر دجلة مقابل مدينة طيسفون، أسّسها السلوقيّون لتكون عاصمة لهم وأسموها سلوقية نسبة إلى الإمبراطور سلوقس الأوّل الذي خلف ألكسندر المقدوني. وتعدّ مركزاً رئيساً للتجارة في المنطقة آنذاك. انظر: القيسي، منى عبد الكريم حسين، المرجع السابق، ص ٤٢.

[٢]- جواد النوري، ميثم عبد الكاظم، حملات الأباطرة، المرجع السابق، ص ١٩٥.

[3]- Bennett. J., op.cit, p 199.

كلَّفه حياته وكلَّف الإمبراطوريّة شللاً عسكريًّا بعد أن اتَّسعت كثيراً، وأصبحت بحاجة إلى طاقة عسكريَّة لتدافع بها عن ممتلكاتها تلك[١]، وعلى الرغم من فشل حملة تراجان في السَّيطرة على أرض بلاد الرَّافدين إلاَّ أنَّها أثمرت نتائج مهمَّة، منها تحقيق حلم الرومان في السَّيطرة والإشراف على طرق التجارة المارَّة بمناطق نفوذ الفرثيين، ومن جانب آخر كشفت عن ضعف الدولة الفرثيّة، وولَّدت فكرة غزو بلاد الرافدين عند الأباطرة الرومان بوصفها المركز الرَّئيس لتوزيع منتجات التجارة الشَّرقيّة، وهذا ما حاول القيام به الإمبراطور ماركوس أورليوس ثمَّ الإمبراطور سبتيميوس سيفيروس[٢].

ثانيًا: الإمبراطور ماركوس أورليوس ١٦١ - ١٨٠م

١. نشأته ووصوله إلى العرش

هو ماركوس اينوس فيروس من أصل إسبانيٍّ ولد في روما، وينحدر من أصول ملكيَّة، فجدَّته لأبيه روبيلة فاوستينا كانت الإمبراطورة الرومانيَّة وزوجة الإمبراطور هادريان (١١٧-١٣٨م)، وعمَّته فاوستينا الكبرى كانت زوجة الإمبراطور أنطونيوس بيوس، الذي تبنَّاه وزوَّجه من ابنته وصار يعرف بماركوس إيليوس أورليوس[٣].

في عام (١٣٩م) أنعم أنطونيوس بيوس على ماركوس أورليوس بلقب قيصر، فكان ذلك بمنزلة إعلانه خليفة له رسميًّا، وكان ماركوس مريدًا مخلصًا للرواقيَّة التي كان قد تلقَّى دروسها في شبابه ورغم فكره الرواقي، الا أن ممارسته للسلطة لم تنسجم مع هذا الفكر، فقد كان شديد التعلق بالحكم، مستبداً برايه، متعنتاً في توريث ولده للجكم رغم عدم صلاحيته.

بعد وفاة الإمبراطور أنطونيوس بيوس عام (١٦١م) تولَّى ماركوس أورليوس عرش الإمبراطوريّة، وخلال السَّنوات الأولى من حكمه أشرك معه في الحكم أخاه بالتبنِّي لوكيوس أورليوس فيروس الذي كان قد تبنَّاه الإمبراطور أنطونيوس بيوس أيضًا، وقد حكما بصورة مشتركة وبالتَّعاون خلال السَّنوات (١٦١- ١٦٩م)[٤].

---

[١]- حافظ، احمد غانم، المرجع السابق،ص ٦٦ - ٦٧.

[٢]- جواد النوري، ميثم عبد الكاظم، حملات الأباطرة، المرجع السابق، ص ١٩٦.

[٣]- المرجع نفسه، ص ١٩٦.

[٤]- حافظ، احمد غانم، المرجع السابق، ص ٧١- ٧٢.

٢. حملة ماركوس أورليوس إلى الشرق ١٦٢– ١٧٠م

في شتاء عام (١٦١م) وصلت إلى روما أخبار عن ثورة في الشَّرق ضد الاحتلال الروماني، فقد أعلن الملك الفرثي بلاش الثالث (vologese III ١٤٨– ١٩١م) الحرب على الرومان، فأوعز إلى قائده خسروف لمهاجمة أرمينيا وتحريرها من يد الرومان، فاستولى على عاصمتها أرتاكساتا، وطرد منها ملكها سوهيموس (١٤٠– ١٧٨م) وعيَّن بدلاً منه الأمير الفرثي باكور (١٦١– ١٦٤م)، وسار حاكم كبدوكيا الرُّوماني سفريانوس للتَّصدي للثوَّار، ولكنَّه هُزم عند أليكيا القريبة من أرضروم، وبعد هذا النصر وفي عام (١٦٢م) عبرت القوَّات الفرثيّة نهر الفرات غربًا واندفعت نحو سورية، وأجبرت حاكمها الرومانيَّ أتيدوس كورنلينوس (١٥٦– ١٦٢م) على التَّقهقر والهرب من أمامهم[1]. وقرَّر الأخوان ماركوس ولوسيوس أنَّ واحدًا منهما يجب أن يذهب في حملة إلى الشرق شخصيًّا، وقد وافق مجلس الشيوخ على ذهاب لوسيوس إلى الشَّرق وأن يبقى ماركوس في روما.

بدأ لوسيوس الغزوة إلى الشَّرق في صيف عام (١٦٢م) على رأس جيش بلغ تعداده (٧٥) ألف جنديٍّ، وكانت الرِّحلة إلى الشَّرق عن طريق كورينثة وأثينا، بعد ذلك أخذ لوسيوس سفينة عبر بحر إيجة وأخيراً وصل إلى أنطاكية عن طريق المدن الساحليَّة في آسيا، ويبدو أنَّ لوسيوس أورليوس لم يكن أهلاً لتلك القيادة، فقد كان ماجنًا لاهيًا ينجرف وراء شهواته ومداعبة النِّساء، فأرسل ماركوس أورليوس بدلاً منه ستاتيوس بريسكوس ليأخذ قيادة الغزوة إلى الشَّرق، إذ وصل إلى كابدوكيا في عام (١٦٣م) وتمكَّن في طريقه من تحقيق مكاسب للجيوش الرومانيَّة، فبينما كان ستاتيوس بريسكوس يحتلُّ أرمينيا قام الفرثيّون بخلع مانوس، الحاكم الروماني على أوسروين، الإمارة الشماليَّة الغربيَّة لبلاد الرَّافدين مع عاصمتها الرها، وكان الردُّ الرومانيُّ الأوَّل أن تتحرَّك القوَّات عبر الفرات باتِّجاه أسفل المجرى، وقد دخلت قوَّات رومانيَّة أخرى إلى أوسروين من أرمينيا، واحتلَّت أنثيموسيا Anthemusia، جنوب غرب الرها، وكانت هذه القوات بقيادة م. كلاوديوس فرونتو وقائد آخر يدعى ب. مارتيوس فيروس الذي خدم تحت إمرة بريسكوس. وكان بريسكوس في الوقت نفسه يقود إحدى القوَّات السوريَّة.

[١]- جواد النوري، ميثم عبد الكاظم، حملات الأباطرة، المرجع السابق، ص ١٩٦.

وقد شهدت العمليَّات العسكريَّة بعض الهدوء في عام (١٦٤م)، فقد كانت القوَّات الرومانيَّة تستعدُّ للهجوم على أرض الفرثيين، وكانت أرمينيا تحت السَّيطرة الرومانيَّة، إذ أسَّسوا فيها عاصمة جديدة تُدعى كاني بوليس لتحلَّ محلَّ القديمة أرتاكساتا التي تبعد عنها نحو (٣٠ ميلاً)، وقد كان موقعها أكثر استراتيجيّة، وتمكَّنت القوَّات الرومانيَّة من أسر ملكها الفرثي، وأعادوا إلى عرشها حاكمها السَّابق سوهيموس، الذي توِّج ملكًا على أرمينيا من قبل الرومان[١].

وفي عام (١٦٤م) هاجم بريكسوس منطقة أديابين، وبعد أن تمكَّن من احتلالها هاجم مملكة أوسروين واحتلَّها أيضاً، فأصبح شمال غرب الجزيرة الفراتيَّة تابعًا للرُّومان، وأصبحت حدودهم تصل إلى نهر الخابور، وحقَّق الرُّومان انتصارات أخرى على الفرثيين في سورية، إذ تمكَّن القائد الرومانيُّ الذي أصبح حاكمًا على سورية فيما بعد أفيديوس كاسيوس عام (١٦٤م) من التَّصدي للفرثيين في سورية، وأجبرهم على الانسحاب منها إلى مدينة دورا أوروبس على نهر الفرات، وهم في حالة من الفوضى والإرباك في الصُّفوف، فاستغلَّ القائد الرومانيُّ ذلك، واستمر في ملاحقتهم، وبعد عدَّة معارك معهم تمكَّن من احتلال المدينة[٢].

وفي عام (١٦٥م) اندفع الرُّومان نحو بلاد الرافدين، وكانت الرها في الشمال محتلَّة، وأعاد الحاكم الرومانيُّ مانوس احتلال إمارة أوسروين، وطارد جيش رومانيٌّ الفرثيين شرقًا إلى نصيبين التي كانت محتلَّة أيضًا، وعندما انسحب الفرثيّون وصل إلى دجلة قائدهم خسرو Chosrhoes الذي تمكَّن من الهرب بالسباحة في النهر والتجأ إلى كهف، وكان هذا القسم من الحملة بقيادة مارتيوس فيروس، وفي هذه الأثناء زحف أفيديوس كاسيوس إلى الفرات الأوسط، وحدثت المعركة الرئيسة في دورا أوروبس، المدينة الإغريقيّة الأصل التي أعيد تحصينها من قبل الفرثيين، وخلال نهاية السنة جلب كاسيوس رجاله إلى الجنوب وتحرَّك عبر بلاد الرافدين عند نقطة ضيِّقة غربًا للهجوم على المدينتين التوأمين على دجلة، سلوقية على الضِّفة اليمنى والعاصمة الفرثيّة طيسفون على الضِّفة اليسرى، وقد رحّبت سلوقية بالرُّومان وفتحت لهم أبوابها، ما جعل الطَّريق مفتوحًا أمام أفيديوس كاسيوس الذي

[1]- Birley. A., Marcus Aurelius A biography, Routledge,Taylor- francis e – library, 2000. Pp 123 – 131.

[٢]- جواد النوري، ميثم عبد الكاظم، حملات الأباطرة، المرجع السابق، ص ١٩٧.

تمكَّن من احتلال طيسفون ونهب وإحراق قصر ملكها بلاش الثَّالث، لكنَّ كاسيوس سمح للجيوش الرومانيَّة بتدمير سلوقية ونهبها[١].

وفي هذا دليل على أن الرومان انتهجوا في سياستهم ضدَّ الشَّرق سياسة الكذب والخداع والغدر من أجل تحقيق سياستهم الاستعماريَّة في التوسُّع على حساب الشُّعوب الأخرى، كما فعل تراجان من قبل عندما أعطى الأمان لملك أرمينيا الفرثي بارتامازيريس، وبعد ذلك أمر بقتله، واحتلَّ أرمينيا وأعلنها ولاية رومانيَّة.

في عام (١٦٦م) اقتحم الرُّومان المملكة الفرثية للمرَّة الثَّانية، وهذه المرَّة كان الهجوم عبر شمالي دجلة إلى داخل ميديا، وقد حقَّقوا عدَّة انتصارات لجيوش كاسيوس بقيادة لوسيوس لتأخذ عنوانًا آخر ميديكوس، وأرسل الرُّسل إلى روما لإعلان النَّصر، وقد لُقِّب ماركوس أورليوس من قبل مجلس الشيوخ (بارثيكوس ماكسيموس) أي أعظم منتصر على الفرثيين أو سيِّد الفرثيين[٢].

في هذه الأثناء بدأ جيش أفيديوس كاسيوس يعاني من نقص في المؤونة والتجهيزات ومن وباء الطاعون الذي فتك بالجيش الرومانيِّ في سلوقية، وقد حاول ماركوس أورليوس الذَّهاب إلى الشمال شخصيًّا في عام (١٦٧م)، لكنَّه توقَّف عن ذلك بسبب انتشار وباء الطاعون في جميع أنحاء بلاد الرافدين، فاضطرَّ كاسيوس إلى إنهاء عمليَّاته العسكريَّة والانسحاب من العاصمة طيسفون، ويقال إنَّ كاسيوس جلب وباء الطاعون معه إلى تلك المناطق التي مرَّ فيها في طريق عودته حتَّى إلى روما.

ويذهب بعض المؤرخين إلى أنّ هذا الوباء كان عقوبة إلهيّة للجيوش الرومانيّة، الذين انتهكوا الاتفاقية مع سلوقية بعد أن كانت المدينة قد فتحت أبوابها للجنود الرومان كأصدقاء، فقد قام كاسيوس وجنوده بسلب ونهب سلوقية. وبعد فشل حملة ماركوس أورليوس إلى الشرق وعودة الجنود الرومان إلى روما، بعد بضع سنين توفيّ ماركوس أورليوس في روما عام (١٧٥ م)[٣].

[1]- Birley. A., op.cit, p 140.

[2]- Ibid., p 144.

[3]- Ibid., pp 144 – 149.

وعلى الرغم من ذلك لم يحاول الفرثيّون استعادة أراضيهم، فقد اكتفى الملك بلاش الثَّالث باستعادة عرشه في طيسفون، وبقيت أرمينيا والمناطق الشماليَّة الغربيَّة من أرض الجزيرة الفراتيَّة خاضعة لسيطرة الرومان حتَّى عام (١٩١م) وهي سنة وفاة بلاش الثَّالث[١].

ثالثًا: لإمبراطور سبتيميوس سيفيروس ١٩٣- ٢١١م

١. نشأته ووصوله إلى العرش

هو مواطن رومانيٌّ من أصل فينيقيٍّ من طبقة الفرسان، ولد عام (١٤٥م) في مدينة ليبتس ماجنا (مدينة لبدة في طرابلس حاليًّا) التي كانت جزءًا من ولاية إفريقيَّة الرومانيَّة، وبالرغم من أصله الفينيقيِّ إلاَّ أنَّه تلقَّى تعليمًا رومانيًّا وثقافة لاتينيَّة، فقد درس الفلسفة في أثينا والقانون في روما، وكان طموحًا متعطِّشًا للجاه والسلطان، وكان كذلك شديد الإعجاب بماركوس أورليوس، تولى عرش الإمبراطوريّة وعمره ثمان وأربعون سنة، على إثر الفوضى التي عمَّت أرجاء الإمبراطوريَّة الرومانيَّة بعد مقتل الإمبراطور كومودوس (١٨٠- ١٩٢م) على يد الحرس البريتوري، إذ تنافس القادة العسكريُّون جوليانوس وجايوس وكلاوديوس البينوس وسبتيميوس سيفيروس فيما بينهم على عرش الإمبراطورية، وأخذ جنود كلِّ إقليم بمبايعة قائدهم إمبراطورًا، فأعلن جيش الشَّرق قائدهم نيجر (١٩٣- ١٩٤م) المقيم في سورية إمبراطورًا، في حين وقف الجيش المرابط في إقليم بانونيا إلى جانب قائدهم سبتيميوس سيفيروس، ونادوا به وريثًا على العرش الرومانيِّ، وقد حسم الأخير الأمر عندما دخل بجيشه إلى روما، وأعلن نفسه إمبراطورًا وعُرف هذا العام باسم عام الأباطرة الأربعة[٢].

رأى سيفيروس أنَّ الجيش هو جوهر السُّلطة والحكم، وبناء على ذلك أعطى الجنود وضعًا متميِّزًا، وقد حصل الجنود في عهده على مزايا كثيرة منها زيادة رواتبهم ومنحهم الوظائف العليا المدنيَّة والعسكريَّة ومنحهم أراضيَ زراعيَّة... وغيرها[٣].

٢. حملة الإمبراطور سبتيميوس سيفيروس إلى الشَّرق ١٩٥- ١٩٩م

في عام (١٩١م) تولىَّ عرش الدَّولة الفرثيّة بلاش الرَّابع (١٩١- ٢٠٨م)، التي كانت

---

[١]- جواد النوري، ميثم عبد الكاظم، حملات الأباطرة، المرجع السابق، ص ١٩٧.

[٢]- حافظ، أحمد غانم، المرجع السابق، ص ٧٣.

[٣]- م.ن، ص ٧٤.

تعاني من ضعف شديد، وقد حاول بلاش الرَّابع استغلال الظُّروف والحرب الأهليَّة التي كانت تشغل الرومان بطريقة دبلوماسيَّة، فقد أرسل بلاش الرابع إلى الإمبراطور نيجر الذي أعلن نفسه إمبراطورًا في سورية عام (١٩٣م) رسله محمَّلين بالهدايا، وعرضوا عليه تقديم المساعدة ضدَّ منافسيه على أن يتخلَّى عن سورية للفرثيين، ويبدو أنَّ السَّبب في حملة سبتيميوس سيفيروس العسكريَّة إلى الشَّرق هو وقوف الفرثيين إلى جانب خصمه نيجر[١].

بعد أن تمكّن سيفيروس من إنهاء الحرب الأهليَّة في روما والقضاء على منافسيه وخصوصًا القائد نيجر عام (١٩٤م)، قرَّر في ربيع عام (١٩٥م) التوجُّه إلى الشَّرق للقضاء على الثوار وإعادة احتلال مناطق شمال غرب الجزيرة الفراتيَّة ووضعها تحت سيطرة الإمبراطوريَّة الرومانيَّة، فعبر سيفيروس الفرات وزحف إلى منطقة الفرثيين، وعندما عَلِم حكَّام تلك المناطق بذلك سارعوا إلى إرسال رسلهم إليه ليعلنوا الولاء، وأنَّ ثورتهم كانت ضدَّ نيجر، وسيعيدون الغنائم والأسرى الرومان بشرط خروج الحامية الرومانيَّة من أراضيهم، لكنّ العروض رُفضت؛ لأنَّ الحكَّام لم يأتوا بأنفسهم، وعندما وصل الإمبراطور إلى الرها انضمَّ حاكمها أبجر التَّاسع إلى سيفيروس، وأعطى أبناءه رهائن، وكان المسير التَّالي للحملة إلى نصيبين، حيث أسَّس سيفيروس مراكزه الرئيسة.

بعد أن تمكَّن سيفيروس من احتلال نصيبين وضع فيها حامية عسكريَّة رومانيَّة، وبقي في نصيبين، وقسّم جيشه إلى عدَّة فرق لإخضاع بقيَّة المناطق الثَّائرة تحت إمرة القادة ت. سيكستيوس لاتيرانوس وتيب كلاوديوس كانديوس وب. كورنيليوس أنوليوس وبروبوس ولاتيوس. وكانت ثلاث فرق عسكريّة من تلك تحت إمرة أنوليوس وبروبوس ولاتيوس، أرسلوا إلى مناطق بلاد الرافدين، فتمكَّنوا من الاستيلاء على منطقة أديابين ومملكة أوسروين وجعلهما ملحقتين بالإمبراطوريَّة الرومانيَّة، وبذلك عادت مناطق شمال غرب الجزيرة الفراتيَّة إلى الاحتلال الروماني مرَّة أخرى، وقد منح سيفيروس عدَّة ألقاب إمبراطوريَّة من قبل مجلس الشُّيوخ (Parthicus Arabicus – Parthicus Adiabenicus) بسبب هذه الانتصارات التي حقَّقها في منطقة الفرات الأوسط وأديابين[٢].

وما كاد سيفيروس ينهي غزوته في الشَّرق حتَّى اضطرَّ إلى العودة إلى بلاده لمحاربة

[1]- Debevoise. N. C., op. cit, p 256.

[2]- Ibid., pp 256 – 257.

منافسه الثَّاني كلاوديوس البينوس، الذي استغلَّ غياب سيفيروس وأعلن نفسه امبراطورًا عام (١٩٦م)، فقد تمكَّن سيفيروس من هزيمته وقتله في عام (١٩٧م)، وانتهز الملك الفرثي بلاش الرَّابع ذلك فعاود مهاجمة الحاميات الرومانيَّة الموجودة في أديابين ومملكة أوسروين وتمكَّن من استعادتهما وتحريرهما من الاحتلال الروماني[١]، ولكنَّ بلاش الرَّابع لم يستطع تحرير نصيبين بسبب دفاع لاتيوس المستميت عنها، الذي حوصر داخل المدينة، ولكن بلاش الرَّابع تمكَّن من استعادة أرمينيا مرَّة ثانية، ثمَّ تابع بلاش الرَّابع زحفه بجيش كبير ضدَّ العدوِّ الروماني الغادر والتقى به في خراسان، ولكنَّ قوَّاته حوصرت من جميع الجهات، وأُخذوا على حين غرَّة وأُجبروا على ترك خيولهم وانسحبوا، لكنَّ القوات الرومانيَّة حاصرتهم في الجبال وقتلت عددًا كبيرًا منهم، وعندئذ قام الجنود الفرثيّون المخلصون بإعادة تنظيم الجيوش، والتفُّوا على العدوِّ وواجهوه بهجوم ساحق وأجبروه على الانسحاب إلى حدود بحر قزوين، وعاد الفرثيّون إلى طيسفون بعد هذا الانتصار[٢].

بعد ذلك توجَّه بلاش الرَّابع لمعاقبة ملك أديابين المدعوِّ نارسيس Narses، الذي رفض الانضمام إلى بلاش الرَّابع في حملته على الجبهة الشرقيَّة، ووقف إلى جانب القوَّات الرومانيَّة المعادية، إذ اقتحم بلاش الرَّابع أديابين وأغرق نارسيس في نهر الزاب العظيم، وبعد إنهاء الإمبراطور سبتيميوس سيفيروس المشاكل في روما، ونتيجة لهذه التطوُّرات في الشرق، بدأ في عام (١٩٧م) التَّجهيز للهجوم على الفرثيين أنفسهم، وعندما سمع الفرثيّون بذلك استعدُّوا للتَّصدي لهذه الحملة، وشكَّلوا ثلاث فرق عسكريَّة، وفي نهاية عام (١٩٧م) غادر سيفيروس مع جيشه ميناء برونديسيوم Prundisium وأبحر مباشرة إلى سورية[٣].

وما إن سمع ملك أرمينيا ساناترويكس بذلك حتَّى سارع إلى الخروج لمصالحته معلنًا خضوعه ودولته للرومان، ثمَّ توجَّه سيفيروس جنوبًا في طريقه إلى مملكة أوسروين التي ما إن علم ملكها أبجر التَّاسع (١٧٩- ٢١٦م) بزحف الإمبراطور نحوه حتَّى خرج لاستقباله تعبيرًا عن خضوعه وتبعيَّته له، ولتأكيد تلك التبعيَّة أبقى أولاده رهائن عند الإمبراطور، وبعد أن

[١]- جواد النوري، ميثم عبد الكاظم، حملات الأباطرة، المرجع السابق، ص ١٩٨.

[2]- Debevoise. N. C., op. cit, p 258.

[3]- Ibid., p 259.

أصبحت أوسروين ولاية رومانيَّة تقدَّم واستولى على مملكة أديابين[١]، وسار لإعادة احتلال نصيبين، وعندما سمع الفرثيّون بوصوله انسحبوا أمامه دون مقاومة، وكان برفقة سيفيروس أخو الملك الفرثي بلاش الرَّابع الذي كان يطمح بالعرش الفرثي بمساعدة الرُّومان، وعاد إلى الفرات، وهناك جهَّز سيفيروس القوارب لعبور دجلة إلى العاصمة طيسفون[٢].

وبعد أن جعل سيفيروس شمال بلاد الرَّافدين الغربي مقاطعة رومانية للمرَّة الثَّالثة بدأ بتجهيز نفسه لاحتلال طيسفون، وفي عام (١٩٨م) قاد جيشًا نزل به في وادي دجلة وأسطولاً نزل به في وادي الفرات، فتمكَّن من احتلال مدينتي بابل وسلوقية، ثمَّ اقترب من طيسفون وفرض عليها حصارًا، وقد حدثت معركة حامية الوطيس بين سفيروس وبلاش الرَّابع، وسقطت العاصمة في النهاية بأيدي الرومان عام (١٩٨م)، وقد نكل الإمبراطور بسكان المدينة بكل وحشية، ولم يسلم منه حتى الأطفال والنساء والشيوخ الطاعنين في السن, فبعد أن نهبها أسر وقتل الكثير من رجالها، ويقال إنَّ القتلى والأسرى من الرِّجال والأطفال والنِّساء وصل إلى نحو (١٠٠) ألف شخص، وهكذا خلال قرن واحد تمكَّن الرومان من أن يشقُّوا طريقهم إلى داخل العاصمة طيسفون ثلاث مرَّات[٣].

وبسبب عمليَّات النَّهب والتَّدمير الوحشي التي ألحقها الجنود الرُّومان بمدينة طيسفون أصبحت المنطقة مهجورة وفقدت المنطقة مواردها الاقتصاديَّة ومؤونتها، ولذلك فضَّل الإمبراطور سبتيميوس سيفيروس ترك العاصمة طيسفون والانسحاب عن طريق نهر دجلة إلى أنطاكية عاصمة سورية، وقد سار الجيش الرومانيُّ مرَّة بالقوارب ومرَّة على الأقدام على طول دجلة، وحاول سيفيروس في عام (١٩٩م) احتلال مدينة حاترا في طريقه ولكنَّه فشل، وقد خسر الإمبراطور العديد من الجنود ودُمِّرت أدوات الحصار، لذلك انسحب سيفيروس إلى نصيبين لاستئناف الهجوم مرَّة أخرى في السنة التَّالية بمخازن طعام أفضل وآلات حصار إضافيَّة، ولكنَّ الحملة الثَّانية لم تكن أكثر نجاحًا من الأولى، فقد استطاعت القوَّات الرومانيَّة في البداية تدمير سور حاترا، ولكنَّهم تشتَّتوا بسبب هجوم معاكس من قبل شعب حاترا، ودُمِّرت جميع أدوات الحصار الجديدة، وهدّدت حياة الإمبراطور نفسه، وأعاد شعب حاترا

[١]- جواد النوري، ميثم عبد الكاظم، حملات الأباطرة، المرجع السابق، ص ١٩٩.

[2]- Debevoise. N . C., op. cit, p 260.

[٣]- جواد النوري، ميثم عبد الكاظم، حملات الأباطرة، المرجع السابق، ص ١٩٩.

بناء السُّور في اللَّيل، وكان الجنود الرُّومان غاضبين بسبب الخسائر التي لحقت بهم في اليوم السَّابق، ورفضوا الاستمرار في حصار حاترا، وقتل عدد كبير من القوَّات السوريَّة الرومانيَّة التي شاركت في الهجوم على حاترا، وبعد عشرين يومًا من النكسات قرَّر سيفيروس ترك حاترا والعودة إلى أنطاكية[١].

وقد تزامنت عودة سيفيروس إلى أنطاكية مع الاحتفال بالذكرى المئويَّة لدخول تراجان إلى هذه المدينة، فأعلن أمام جنوده منح ابنه باسيانوس انتونينوس لقب أغسطس ليكون شريكه في الحكم وهو في سنِّ الثَّالثة عشر، وألبسه العباءة الإمبراطوريَّة، ومنح أخاه الأصغر جيتا لقب قيصر، وأغدق بهذه الاحتفالات المنح والعطايا على جنوده، ونادوا به لقب بارثيكوس ماكسيموس (أي الفاتح العظيم لمدن بارثيا وفاتح بارت الكبير)، وسكَّ نقودًا عليها صورته واسمه[٢].

٣. نتائج حملة سبتيميوس سيفيروس إلى الشَّرق

لا يمكن أن ترضي حملة سيفيروس إلى الشَّرق أيَّة وجهة نظر سياسيَّة أو شخصيَّة، فلم تضف أيَّة منطقة جديدة إلى الجانب الرومانيِّ، وخسرت روما الكثير من الرجال والعتاد، وانتهت الحملة بفشل ذريع عند حاترا، وعانى الفرثيّون الكثير من المتاعب، وتكبَّدوا خسائر فادحة، وقد كانت العواصم الغربيَّة والمناطق المحيطة بها أكثر تعرُّضًا لغارات الجيش الرومانيِّ، فقد شهدت تلك المناطق الكثير من الدَّمار والخراب الذي أدَّى إلى انهيارها وسقوطها بأيدي الرُّومان بسهولة[٣].

ومن النَّتائج الأخرى التي أظهرتها هذه الحملة أنَّ العلاقات الرومانيَّة مع الشُّعوب الشرقيَّة كانت مشحونة دائمًا بالعداوات الخطيرة، وقد اعتمد الرُّومان في سياستهم على دويلات أساسيَّة تابعة لهم، كان أكبرها أرمينيا، فقد حاول الرُّومان جاهدين الحفاظ على طرق التِّجارة بين آسيا الوسطى والفرثيين في الشَّرق، واعتمدوا على المدينة التجاريَّة العظيمة تدمر التي

[1]- Debevoise. N . C., op. cit, pp 260 – 261.

[٢]- جواد النوري، ميثم عبد الكاظم، حملات الأباطرة، المرجع السابق، ص ٢٠٠.

[3]- Debevoise. N . C., op. cit, p262.

تقع على الحدود الشرقيَّة لمنطقة سورية، والتي حافظت على مكانتها وتنظيمها على طريق التِّجارة البريَّة بين سورية وبابل، وقد وُضعت تحت حكم فولفيوس تيتانوس الرومانيِّ، وهو أحد الرِّجال الذين أدُّوا دورًا مميَّزًا في الحرب الشرقيَّة[١].

ومنذ احتلال الإمبراطور الروماني بومبي لسورية جعلها ولاية رومانيَّة في سنة (٦٤ ق.م)، لكنَّ المناطق الجنوبيَّة الشرقيَّة ومنطقة تدمر بقيت بعيدة عن متناول السُّلطة الرومانيَّة، فالعرب الأنباط الذين امتدَّ سلطانهم من عاصمتهم البتراء إلى حوران، وصل نفوذهم إلى دمشق لفترة محدَّدة من الزَّمن، إلَّا أنَّ الرُّومان استطاعوا القضاء على تلك الأسر المحليَّة تدريجيًّا، وجرّدوا مناطقهم من السِّلاح وجعلوا القبائل البدويَّة حرَّاسًا عليها.

وفي عام (١٠٦م) حوَّل الحاكم الرومانيُّ على سورية كورنيليوس بالما المناطق الشماليَّة للأنباط إلى ولاية عربيّة خاضعة لسلطة روما، وجعل من بصرى الشَّام في جنوبي حوران عاصمة للولاية الجديدة، أمَّا الأراضي التي سلبها الرُّومان من الفرثيين إلى الشَّرق من نهر الفرات فقد ضُمَّت إلى ولاية ما بين النهرين. وقد طرأ تعديل جديد على نظام الولايات الشرقيَّة في عهد القيصر سبتيميوس سيفيروس عام (١٩٥م)، إذ أراد هذا الإمبراطور تقليص الصَّلاحيات الواسعة التي منحها أسلافه من الأباطرة لحكَّام الولاية السوريَّة الغنيَّة، فقسّم تلك الولاية إلى ولايتين، سمَّى الأولى ولاية سوريَّة الداخليَّة، وتمتدُّ من جبال لبنان إلى تدمر التي قضى على استقلالها، وسمَّى الثَّانية ولاية سورية الفينيقيَّة، ثمَّ قام بتوسيع الولاية العربيَّة بأن ضمَّ إليها فلسطين وأقصى جنوب بلاد الشَّام[٢].

[1]- Birley. A., op.cit, p 148.

[٢]- كلينغل، هورست، آثار سورية القديمة، آثار ما قبل الإسلام في الجمهوريّة العربية السوريّة، ترجمة قاسم طوير، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٥م. ص ٦٢.

الخاتمة

من خلال هذا الاستعراض لحملات الأباطرة الرُّومان الثَّلاث إلى الشَّرق، نجد أنَّ جميع هذه الحملات باءت بالفشل، فلم تستطع إضافة أيَّة مناطق جديدة للسَّيطرة الرومانية، بل كبَّدت الرومان خسائر فادحة في العتاد والرجال، وأنهكت قوَّتهم في الشَّرق.

سعى الرومان من خلال هذه الغزوات إلى احتلال مناطق واسعة في الشرق، وذلك يندرج ضمن سياستهم الاستعمارية التوسعية على حساب الدول والشعوب الأخرى. وقد فرضوا الضرائب والجزى الباهظة على المناطق التي احتلوها، وحاولوا استنفاذ خيرات تلك البلاد وإهلاكها اقتصادياً مما يؤدي إلى ضعفها العسكري حتى تصبح لقمة سهلة، وغير قادرة على التصدي لهم أو الثورة عليهم. بالإضافة إلى تجنيدهم للشباب من المناطق التي احتلوها، وخصوصاً في سورية ليكونوا وقوداً لغزواتهم وزجهم في معارك كبيرة.

ونلاحظ أنَّ الرومان انتهجوا سياسات مختلفة في تعاملهم مع الدُّول الشرقيَّة، فقد اتَّبعوا سياسة الحزم والعنف تارة، وأحياناً السِّلم، كما عمدوا إلى أسلوب المراوغة والخداع والغدر، إذ قاموا بعقد المعاهدات والاتِّفاقيات مع هذه الدَّولة ليتفرَّغوا لضرب تلك الدولة، وما إن ينتهوا من تلك الدَّولة حتَّى يعودوا لضرب الدَّولة التي عقدت معهم اتِّفاقية السَّلام. وهذا هو الأسلوب الَّذي يعتمده المحتلُّ في سياسته، فالرومان لا يمكن الوثوق بهم أو بمعاهداتهم، لأنهم لا ذمة لهم ولا عهد.

ومن الأساليب الأخرى التي اتبعوها لإرهاب المنطقة وبث الذعر في قلوبهم، هي القتل والذبح والتنكيل بالمدن المغلوبة، ولم يسلم منهم لا الأطفال ولا الشيوخ ولا النساء.

كما اتبع الرومان سياسة (فرِّق تسد) بين حكَّام الدَّولة الواحدة أو بين الدول المختلفة في الشَّرق، إذ اعتمدوا على إثارة الفتن بين الحكام والدول والمساعدة في إشعال فتيل الحرب بينهم لإنهاكهم عسكريًّا واقتصاديًّا، ليصبحوا فريسة سهلة.

لائحة المصادر والمراجع

المراجع العربيَّة والمعرَّبة

١. الجنزوري، علية عبد السميع، إمارة الرها الصليبية، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب- القاهرة ٢٠٠١ م.

٢. جواد النوري، ميثم عبد الكاظم، حملات الأباطرة الرومان (تراجان، ماركوس أورليوس، سبتيميوس سيفيروس) على العراق، مجلّة الأستاذ، ملحق العدد الخاص بالمؤتمر العلمي الثالث، جامعة بغداد- كليّة التربية ٢٠١٥.

٣. جواد النوري، ميثم عبد الكاظم، العلاقات الفرثيّة - الرومانيّة ٢٤٧ ق.م - ٢٢٦ م، ط١، دار عدنان للطباعة والنشر، بغداد ٢٠١٧م.

٤. حافظ، أحمد غانم، الإمبراطوريّة الرومانيّة من النشأة إلى الانهيار، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة ٢٠٠٧م.

٥. حتّي، فيليب، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج١، ط٢، ترجمة د. جورج حداد و د. عبد الكريم رافق، دار الثقافة - بيروت ١٩٥٨م.

٦. سلهب، زياد، آثار العصور الكلاسيكيّة الإغريقيّة، منشورات جامعة دمشق ١٩٩٨م.

٧. القيسي، منى عبد الكريم حسين، أسوار المدن والقلاع في بادية الجزيرة في عصر ما قبل الإسلام، دراسة عماريّة، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، كليّة الآداب ٢٠٠٧م.

٨. كلينغل، هورست، آثار سورية القديمة، آثار ماقبل الإسلام في الجمهوريّة العربيّة السوريّة، ترجمة قاسم طوير، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٥م.

٩. مرعي، عيد، رحلة في عالم الآثار «آثاريّون ومدن أثريّة، ط١، دار روافد للثقافة والفنون، دمشق ٢٠١٠م.

١٠. مظلوم، طارق عبد الوهاب :المدائن (طيسفون)، مجلّة سومر - مج ٢٧، الجزء ١-٢، منشورات مديريّة الآثار العامّة العراقيّة- بغداد ١٩٧١.

المصادر والمراجع الأجنبيّة

1. Bennett. J., Trajan Optimus Princeps, A life and times, Routledge, London and New York, 1997.
2. Birley. A., Marcus Aurelius A biography, Routledge,Taylor- francis e – library, 2000.
3. Campbell. B.,The roman army 31 B.C – 337 A.D, A sourcebook, Routledge, taylor francis group, London and New York 1994.
4. Debevoise. N. C., A political history of Parthia, The university of chicago, 1938.
5. Frye,R,N., The heritage of persia,London,1966.
6. Griffin. M., Nerva to Hadrian, the Cambridge ancient history, second edition, volum XI, Cambridge university press 2008.

الحملة الرومانيّة الاستعماريّة على بلاد العرب السعيدة

أحمد الخضر[1]

مقدّمة

تُعد الحملة الرومانيّة على بلاد العرب السعيدة (اليمن) سنة ٢٤ ق.م، حملةً استعماريةً رومانيّةً بأهداف مركّبة سياسيّة واقتصاديّة وعسكريّة، ولا شكّ أنّ الهدف الاقتصادي كان أهمّها، تماشياً مع رغبات الرومان في التوسّع وضمّ أراض جديدة للتاج الإمبراطوري، وإمعاناً في سلب مستعمرات جديدة ونهبها وإفقارها، هذا ناهيك عن ثروة اليمن التي وصلت أخبارها إلى أسماع الرومان، ومن قبلهم الإغريق، عن طريق الكتّاب والرحالة والمؤرّخين والجغرافيين الكلاسيكيين، لذلك قبل الحديث عن الحملة الرومانيّة على اليمن تتوجّب علينا الإشارة إلى مدى معرفة الغرب الأوروبي (اليونان والرومان)، باليمن أو بلاد العرب السعيدة Arabia Eudaimon كما أسموها هم، فلا شكّ أنّ ما ورد في المصادر الكلاسيكيّة من وصف جميل لها، يفوق حدّ الخيال، هو الذي دفع الإسكندر المقدوني ومن بعده الإمبراطور الروماني أغسطس بإرسال حملة عسكريّة إلى اليمن، ضمن إطار سياساتهم الاستعماريّة، التي ما فتئت تقضم أراضي جديدة في مشارق الأرض ومغاربها بهدف استغلال مواردها. ولمّا كانت اليمن الواقعة في الركن الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربيّة، والمتحكّمة بأهمّ الطرق البريّة والبحريّة باتجاه الهند والشرق الأقصى، وسمعتها المميّزة بثرائها وموارد تجارتها ومحاصيلها من المواد العطريّة، كان هذا سبباً محفّزاً لاستعمارها، وإذا كانت حملة الإسكندر المقدوني على الجزيرة العربيّة لم تتعد الحملات الاستكشافيّة، حيث تعطّلت بعدها كلّ النشاطات العسكريّة المنوي القيام بها، بسبب وفاته قبيل انطلاق حملته بقليل، فإنّ الحملة الرومانيّة على اليمن، والتي انطلقت من مصر، تابعت طريقها حتّى وصلت إلى مأرب بفضل مساعدة الأنباط، إلاّ أنّها فشلت ومنيت بخسائر فادحة، جعلت روما تكفّ عن التفكير بأيّ محاولة جديّة لاستعمار بلاد العرب مرّة أخرى، أو حتّى غزوها. فما دوافع هذه

[١]- الرئيس السابق لقسم التاريخ بجامعة دمشق.

الحملة؟ وما هي أخبارها؟ وما هي أسباب فشلها؟ إنّ هذه التساؤلات الثلاثة التي يثيرها البحث تمثّل بنيته الأساسيّة، فالإجابة عليها تعطي صورة بانوراميّة كاملة للموضوع، لكن تجدر الإشارة إلى أنّ المصدر الأهمّ عن هذه الحملة هو كتاب سترابون (الجغرافيا)، الذي كان معاصراً لها، وصديقاً لقائدها أيْلِيُوسجَاللُوس (والي مصر الروماني في حينها)، والذي كان منحازاً للرومان كونه كان يعيش في كنفهم، ما ضاعف صعوبات الكتابة والبحث.

أوّلاً: معارف الرومان عن اليمن قبل غزوها

لم يكن لليمنيين خصوصاً، وللعرب عموماً، أيّ مطامع عسكريّة بالتمدّد خارج جزيرتهم، بل صرفوا جلّ اهتمامهم إلى إنماء تجارتهم، والسيطرة على أسواق العطور والبخور والتوابل في العالم القديم، محتكرين معرفتهم بخطوط التجارة الدوليّة، ولمّا كانت هذه المواد ذات أهمّية كبرى في ذلك العالم، بحكم أنّها كانت تُعدّ ضروريّة للقيام بطقوس العبادات الوثنيّة، وفي استعمالات أخرى متنوّعة في الدواء والمطبخ، فإنّ الطلب عليها أخذ بالتزايد. وقد عرف الغرب الأوروبي القديم (اليونان والرومان) أنّ مصدر هذه المواد هو بلاد العرب، بحكم أنّ الذي كان يحملها لهم هم تجّارٌ عرب، وهكذا تولّدت رغبةٌ عميقةٌ عند عددٍ كبيرٍ من الفضوليين والجغرافيين والمؤرّخين والكتّاب الكلاسيكيين (اليونان، والرومان) للتعرّف على هذه البلاد التي «**تفوح منها رائحة عطر سماوي**»[1] على حدّ وصف هيرودوت Herodotus (٤٨٥- ٤٢٥ ق.م)، والذي أسهب في الحديث عن كثرة بخور بلاد العرب، حتّى ادّعى أنّهم كانوا يرسلون في كلّ سنة هديةً منه إلى ملك الفرس الأخميني قدرُها ألف تالينت «**وكانَ العربُ يقدّمونَ ما يُعَادِلُ وزنُه ألف تالينتٍ من اللبان كلَّ سنة**»[2].

وبعد هيرودوت تواترت الكتابات الكلاسيكيّة عن الثراء العربي عند الكتاب الإغريق والرومان، وأبرز الكتّاب الذين تحدّثوا عن الجزيرة العربيّة وثرائها الرحّالة **يوهيمروس المسّيني** Euhemeros de Messine نحو سنة ٣٠٠ ق.م، والذي أرسله كاساندروس ملك مقدونيا واليونان باتجاه البحر الأحمر وما بعده، فوصلت رحلته حتّى الجزر المقابلة

---

[١]- هيرودوت، تاريخ هيرودوت، تر: عبد الإله الملاح، تقديم: حمد محمّد بن صراي، المجمع الثقافي في أبو ظبي، أبو ظبي ٢٠٠١م، ص٩.

[٢]- هيرودوت، الكتاب ٣، الفصل ٩٧، الفقرة ٥.

للشواطئ اليمنيّة، ومن خلال الكتاب الذي نشره عند عودته، عَرَفَ العالم الغربي أجزاء نجد، كما أتى على ذكر العربيّة السعيدة، أو العربيّة الغنيّة، وقد وصفها بأنّها أجمل جزء من بلاد العرب، وهو جزء مخصّب تنتشر فيه المباني الجميلة. ومن الجزر يذكر (حيره)؛ أي (المقدّسة) وفيها وفرة من البخور والمرّ، أمّا جزيرة (بانخيا) وتشبه الفردوس، فإنّها تمثّل أقدم نموذج معروف للمدينة الفاضلة المنشودة[١].

وربّما كان أجاثارخديس Agatharchides أشهر كتّاب مدرسة الإسكندريّة، هو الكاتب الذي أسهمت كتابته عن الجزيرة العربيّة في تكريس صورة معيّنة عنها، ترسخّت في أذهان الإغريق والرومان لقرون، فقد خصّ البحر الأحمر، وخليج السويس، وباب المندب، واليمن بشيء من التفصيل، وتحدّث عن كميّات الذهب الكبيرة في الجزيرة العربيّة، والتي كانت موجودة على شكل كتل من الذهب الخالص، أو المخلوط خلطاً يسيراً، وروى أنّه كان يباع بثمن بخسٍ، حتّى أنّ وزنة الذهب تستبدل بمثلها من الحديد، وبثلاثة أمثالها من البرونز، وعشرة أمثالها من الفضّة[٢]، وتحدّث عن أنّ عرب اليمن (السبئيين) اعتمدوا في معاشهم على الثروات الحيوانيّة، وعلى زراعة أنواع من النباتات العطريّة، وأنّ بعض السكّان يعيشون في بطالة وتكاسل بفضل ما هم عليه من عيش رغيد، وهذا الثراء الكبير مصدره تجارتهم وبعدهم الذي جعلهم في منأى عن الغزوات والنهب. أمّا زينة مساكنهم وأثاثها ومواعينهم المحلاّة بالذهب والفضّة والأحجار الكريمة فإنّها بديعة فاخرة. أمّا عاصمتهم سبأ فهي تقع على ربوة جميلة، ويتوارث ملوكها الحكم، ويتمتّعون بسلطة كبيرة[٣].

ومن الكتّاب الكلاسيكيين من كتب عن الجزيرة العربيّة بدوافع علميّة، فأغنى معلومات الغرب الأوروبي القديم (الإغريق والرومان) عنها، من أمثال عالم النبات الشهير ثِيُوفْرَاسْتُوس الإيروسيTheophrastes d Eresos (٣٧٢ – ٢٨٨ ق.م) الذي تولّى إدارة مدرسة أرسطو من بعده، ففي مؤلّفه الكبير عن النبات تطرّق إلى البقاع العربيّة التي تنتج اللبان والمرّ

[١]- مكسيم رودنسون، بلاد اليمن في المصادر الكلاسيكيّة (دراسات ومختارات)، ترجمة حميد العواضي، ضمن كتاب الثقافة الشهري الذي تصدره وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء ٢٠٠١م، ص٢٧، ٢٨.

[٢]- عبد الله العبد الجبار، نظرة الكتّاب الكلاسيكيين لتجارة الجزيرة العربيّة، مجلّة الدرعية، العددان الحادي والثاني والخمسون، السنة الثالثة عشرة، يناير٢٠١٢م، ص٢٣٤.

[٣]- مكسيم رودنسون، بلاد اليمن في المصادر الكلاسيكيّة، م.س، ص٣١، ٣٢.

والصمغيّات بشكل عام، وأعطى إيضاحات دقيقة عن عمليّة جمعها، وتحدّث عن اليمن القديم وما يصدره من تلك المواد، كما تحدّث عن السبئيين بأنّهم رجال حرب وزراعة وتجارة، وذكر الممالك اليمنيّة القديمة (سبأ وقتبان وحضرموت). وذكر ثِيُوفْرَاسْتُوس أنّ مصادره هي تقارير البحّارة الذين ذهبوا إلى برزخ السويس[١].

وكان من الكتّاب الكلاسيكيين الذين تحدّثوا عن الجزيرة العربيّة إرَاتُوسْثِينِس Eratosthenes (٢٧٦- ١٩٤ ق.م)، ودِيُودُورُوس الصقلي DiodorusSiculus (المتوفّى سنة ٤٠ ق.م) الذي نقل الشيء الكثير من كتابات أجاثارخديس وإرَاتُوسْثِينِس عن جزيرة العرب. وكان الجمهور المثقّف في روما لا يرى حاجة لتجديد أو لتوسيع ذلك الإسهام المعرفي، فالصورة التي انطبعت في أذهانهم منذ عهد أجاثارخديس استمرّت دون أن تتمكّن المعلومات الجديدة والأكثر دقّة والتي تراكمت، رغم تناقضها جزئيّاً مع تلك الصور القديمة، من زعزعتها، حتّى بعد حملة الرومان على اليمن، فـ بطليموسPtolmey نفسه ركن إلى تلك الصورة البرّاقة في مصطلحاته حين اعتبر العربيّة السعيدة هي جزيرة العرب كلّها، واستمرّ في الحديث بإعجاب عن هذه البلاد[٢]. ولا شكّ أنّ السياسيين الرومان قد قرؤوا جميع المؤلّفات وما دوّنه الكتّاب الكلاسيكيوّن، فأثارت لعاب أطماعهم لتلك البلاد، ورغبتهم في احتلالها والسيطرة عليها.

ثانياً: دوافع الحملة الرومانيّة لاستعمار اليمن

١. دوافع سياسيّة-استعماريّة

لقد اتّصفت السياسة الخارجيّة للدولة الرومانيّة بأنّها سياسة استعماريّة هدفها التوسّع، وضمّ أراضي وبلدان الغير، وتحويلها إلى ولايات (مستعمرات) رومانيّة، تحت شعار وحجّة واهية هي الدفاع عن النفس، مغلّفين هذا الشعار الكاذب بنظريّة المؤامرة، وأنّهم في خطر محدق، يتطلّب منهم القيام بمهاجمة الخصم قبل أن يكمل استعداده للهجوم عليهم. وهكذا وجد الرومان المبرّرات الكافية لاحتلال آسيا الصغرى، ومن ثمّ الدخول لشرق المتوسّط

[١]- أسمهان سعيد الجرو، موجز التاريخ السياسي القديم لجنوب شبه الجزيرة العربيّة (اليمن القديم)، جامعة عدن ١٩٩٦م، ص٥٣.

[٢]- مكسيم رودنسون، بلاد اليمن في المصادر الكلاسيكيّة، م.س، ص٥٢.

واحتلال سوريا في سنة ٦٤ ق.م، على يد القائد الروماني الشهير بومبي (١٠٦ – ٤٨ ق.م)، وإسقاط الدولة السلوقيّة التي كانت تحكمها، ونهب ثرواتها. واحتلال مصر سنة ٣٠ ق.م في أعقاب معركة أكتيوم البحريّة، وإسقاط دولة البطالمة فيها والتحكّم باقتصادها[١]. ولما وجد الأنباط في شرقي نهر الأردن ما لا طاقة لهم بالرومان، تخلّوا عن كثير من سيادتهم وقبلوا تقديم فروض الطاعة والولاء للرومان[٢]. وهكذا لم يبق على الخريطة العربيّة سوى العراق الذي كان تحت السيطرة الفارسيّة، واليمن صاحب الثروات المشهورة، لذلك كان من الطبيعي أن تتّجه أنظار الرومان باتجاهه. وهكذا كانت البلاد العربيّة من أزل التاريخ محطّ أطماع الطامعين بسبب غناها وموقعها.

٢. دوافع إستراتيجيّة

لقد مثّلت الدوافع الإستراتيجيّة لاحتلال اليمن الفكر الاستعماري في الإمبراطوريّة الرومانيّة أدقّ تمثيل، فبعد أن سيطر الرومان على جميع الأقطار المطلّة على البحر المتوسّط، وتحويله إلى بحيرة رومانيّة، أخذوا يتطلّعون للسيطرة على اليمن، وتحويل البحر الأحمر إلى بحيرة رومانيّة، وما غذّى هذا الطموح أنّ احتلال اليمن كان يُرسّخ الترابط بين ولاياتهم (مستعمراتهم) في سوريا ومصر وشمال إفريقيا، وبذلك تترسّخ سيادتهم على هذه البقعة المهمّة على طرق التجارة الدوليّة، محقّقين نصراً اقتصاديّاً وعسكريّاً وسياسيّاً في آن، في مواجهة عدوّهم التقليدي (الإمبراطوريّة الفارسيّة) التي كانت تمثّل القوّة العظمى الثانية في العالم القديم آنذاك بعد الرومان، وبالتالي كان لا بدّ للرومان من بسط نفوذهم على هذه البقعة الإستراتيجيّة من العالم القديم (اليمن) قبل أن يسبقهم الفرس إليها[٣].

وكان من جملة الدوافع الإستراتيجيّة هو ملء الفراغ في البحر الأحمر، فبعد سقوط دولة البطالمة، وإحراق أسطولها من قبل الأنباط في محاولة منهم لمنع كليوبترا من الهروب

---

[١]- حول استعمار الرومان لسوريا ومصر وإسقاط دولة البطالمة في مصر والسلوقيّة في سوريا انظر: مفيد رائف العابد، دراسات في تاريخ الإغريق، دراسة في التاريخ السياسي والحضاري الباكر والكلاسيكي، ج٢، ط٤، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٢م.

[٢]- حول علاقات الرومان بالأنباط، انظرجواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط٢، ج٢، بغداد ١٩٩٣م.

[٣]- محمّد عبد الله باوزير، الحملة الرومانيّة على العربيّة الجنوبيّة أو السعيدة، مجلّة كليّات التربية، جامعة عدن، العدد ٩، آب٢٠٠٨م، ص٢٣٦، ٢٣٧.

بواسطته عبر البحر الأحمر، كانت سياسة أغسطس ترمي إلى تقليم أظافر دويلات البحر الأحمر، التي ما انفكّت تتصارع فيما بينها على فرض سيطرتها عليه كاملاً، لذلك كان عليه أن يقوم بحملة عسكريّة رومانيّة على أكبر قوّة عسكريّة ممثّلة بالدولة السبئية-الحميريّة فيه، لاسيّما أنّه لم يكن لهذه الدولة أيّ اتصال سياسي أو دبلوماسي أو صداقة أو تحالفات مع الرومان تشفع لها أو تُعيق غزوها، وهذا هو الدافع الذي جعل أغسطس يخرج عن السياسة الإستراتيجيّة العامّة التي وضعها لنفسه، وهي سياسة عدم التوسّع[١].

٣. دوافع اقتصاديّة

تُعد الدوافع الاقتصاديّة من أهمّ محرّضات الغزو والاستعمار، سواء في تاريخ الدول الكبرى في العصور القديمة أم الحديثة، في الواقع لم تكن الأوضاع في مصر (المتحكّم بالشاطئ الغربي من البحر الأحمر) خلال القرن الأوّل قبل الميلاد على ما يرام، فقد كان حُكم البطالمة حُكماً ضعيفاً هزيلاً، وقد شغلهم ضعفهم عن التجارة البحريّة وعن الاهتمام بالبحار، فقلَّ عدد السفن الذاهبة إلى المحيط الهندي، وتزايد عدد اللصوص في البحر الأحمر، الشريان الأهمّ للتجارة بين آسيا وأوروبا، في ظلّ توتّر الأمن على الطريق البرّي عبر أراضي الدولة الفارسيّة. كما أنّ الصراع على السلطة السياسيّة في روما نفسها أثّر بصورة سلبيّة على شراء المواد الشرقيّة من مصر، بحكم أنّ أغلبها مواد كماليّة، فأثّر ذلك على الاقتصاد الدولي الذي كان يمرّ بمرحلة ركود عالميّة، لذلك أسهم احتلال مصر من قبل الرومان على يد يوليوس قيصر Julius Caesar في إحداث تغيّر بارز، تبلور معه مشروع استعماري روماني للسيطرة على الجزيرة العربيّة، بهدف السيطرة على طرق التجارة الدوليّة المارّة بها باتجاه المحيط الهندي وشرق آسيا[٢]. ولا يستبعد الدكتور العبادي أن يكون لتُجّار الإسكندريّة دورٌ فعّال في التأثير على الدولة الرومانيّة وتحريضها على غزو الجزيرة العربيّة، بما يخدم مصالحهم التجاريّة[٣]، التي تقاطعت مع مصالح الرومان في السيطرة على خطوط التجارة الدوليّة، ولاسيّما بعد أن سيطر الرومان على نصف شاطئ البحر الأحمر الغربي، بعد

---

[١]- سيّد أحمد علي الناصري، الرومان والبحر الأحمر، الدارة، العدد ٢، الرياض١٩٨١م، ص٢٤.

[٢]- جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط٢، ج٢، بغداد ١٩٩٣م،ص٤٣.

[٣]- مصطفى العبادي، محاضرات في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت١٩٨١م، ص١٣٠.

سيطرتهم على مصر، ورغبتهم في الوصول إلى أماكن زراعة اللبان والمرّ مباشرة في جنوب شبه الجزيرة العربيّة[١].

بعد أن أنهى أغسطس الحرب الأهليّة في الجمهوريّة الرومانيّة، وحوّل النظام فيها من النظام الجمهوري إلى نظام الحاكم الفرد (الإمبراطوري)، ليحكمها كأوّل إمبراطور منذ سنة ٢٧ ق.م، كان من الطبيعي أن تتّجه جهوده إلى تحقيق مصالح دولته الاقتصاديّة، من أجل العبور بها إلى عصر الرخاء، ولاسيّما بعد الأزمات والحروب المتتالية التي هزّت اقتصادها[٢]. ولما كان المؤرّخون الكلاسيكيّون قد رسموا صورة برّاقة عن ثراء بلاد العرب في الشرق، نتيجة تجارتها بالمواد العطريّة[٣]، كتجارة التوابل، والقرفة، والبلسم، واكتناز أهلها للذهب والفضّة والأحجار الكريمة العائدة عليهم من ممارسة هذه التجارة، رأى الإمبراطور في كنوز العرب الحلّ الأمثل، وقرّر أن تنال الإمبراطوريّة نصيباً من هذا الثراء بأيّة طريقة كانت، سواء بمحالفتهم أو عن طريق إخضاعهم بالسلاح[٤]، ولا يجد سْتَرَابُونStrabo (٦٤ ق.م - ١٩م) مؤرّخ الحملة الرومانيّة على اليمن، حرجاً من التعبير عن الدوافع الحقيقيّة للحملة إذ يصرّح أنّه «**كانت هناكَ روايةٌ منذ مدّة طويلة أنّهم أغنياء، وأنّهم يحصلون على الذهب والفضّة مقابل النباتات العطريّة والأحجار الكريمة، ولكنهم لا يدفعون شيئاً ممّا يحصلون عليه للناس في الخارج. وكان يأمل أن يستفيد** [أي أغسطس] **من أصدقاء أغنياء، أو أن يتغلّب على أعداء أغنياء**». وهكذا تجلّى الدافع الأهمّ للحملة[٥]. وبالفعل كان العرب اليمنيّون تجّاراً مهرة مثلهم مثل الفينيقيين في المتوسّط، حيث امتدّت تجارتهم من اليمن حتّى الهند شرقاً، ومن اليمن حتّى مصر شمالاً، كما أنّ موقع بلادهم أتاح لهم السيطرة على جنوب البحر الأحمر، وساحل شبه الجزيرة العربيّة الجنوبي حتّى الخليج العربي شرقاً، كما سيطروا على باب المندب وعلى ساحل إفريقيا المواجهة لبلادهم[٦].

---

[١]- محمّد باوزير، الحملة الرومانيّة، م.س، ص٢٣٦.

[٢]- شعبان علي أبو راس، الأنباط وعلاقتهم بالإمبراطوريّة الرومانيّة (٣٠ق.م - ١٠٦م)، رسالة معدّة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، جامعة صنعاء ٢٠٠٤م،ص٤٧.

[٣]- محمّد باوزير، الحملة الرومانيّة، م.س، ص٢٣٧.

[٤]- شعبان علي أبو راس، الأنباط وعلاقتهم بالإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س،ص٤٨.

[٥]- سترابون، الجغرافيا، ترجمة حسان إسحق، منشورات دار علاء الدين، دمشق ٢٠١٧م،الكتاب ١٦، الفصل ٤، الفقرة ٢٢.

[٦]- سيّد أحمد علي الناصري، الرومان والبحر الأحمر، م.س، ص٢٣.

والأهمّ أنّه في الوقت الذي كان فيه يسمع عن ثروات اليمن والجزيرة العربيّة وما تنتجه من لبان وبخور، كانت فيه الإمبراطوريّة الرومانيّة تعاني من نزيف حادّ في الأموال، بسبب استيراد هذه المواد غالية الثمن خفيفة الوزن عن طريق التجّار العرب، ولما كان استيراد هذه المواد، التي كانت تحرق في معابد الغرب الروماني، يغطّى بالذهب، فقد تسبّب بتكاليف وإنفاق أموال باهظة للدولة كان لا بدّ من تعويضها[١]. لا بل تسبّب في استنزاف السبائك الذهبيّة من خزينة الدولة الرومانيّة، فقد قُدّر الإنفاق الروماني على تجارة الجزيرة العربيّة والهند والصين بحوالي ١٠٠ مليون سيسترز، لاستيراد مواد كماليّة يتمّ استعمالها في الاحتفالات والمعابد والزينة، والأسوأ من ذلك أنّها كانت تباع في الإمبراطوريّة الرومانيّة بثمن يبلغ مئة مرّة ضعف ثمنها الأصلي[٢]. وربمّا أنّ أغسطس أراد أن يضع حدّاً لهذا الانهيار الاقتصادي في الدولة عن طريق وضع يده على تجارة هذه المواد الثمينة.

٤. دوافع شخصيّة

لا شكّ أنّ هناك دوافع شخصيّة عند الإمبراطور أغسطس لاحتلال اليمن، حيث أراد أن يحقّق ما همَّ الإسكندر المقدوني/ الإسكندر الثالثAlexander III (٣٥٦- ٣٢٢ ق.م) للقيام به، إلاّ أنّ عمره لم يطل به لتحقيقه[٣]، فقد أعلن الحرب على العرب، وأراد أن يحتلّ بلادهم بعد أن رفضوا الإذعان له وإرسال الهدايا إليه كبقيّة أمم الأرض وشعوب العالم الأخرى[٤]. كما كان أنطوخيوس الثالث Antiochus III (٢٢٣- ١٨٧ق.م) قد شنّ حملة عسكريّة على ملكة الجرهاء* على الساحل الشرقي للجزيرة العربيّة سنة ٢٠٥ ق.م، بهدف السيطرة عليها. لكنّ أغسطس أراد أن يبني مشروعاً أوسع من مشروع أنطوخيوس، مقتفياً فيه سيرة الإسكندر، لا يهدف فيه إلى السيطرة على مركز تجاري واحد مثل الجرهاء، وإنّما

---

[١]- محمّد باوزير، الحملة الرومانيّة، م.س، ص٢٣٦.

[٢]- عبد الله العبد الجبار، نظرة الكتّاب الكلاسيكيين، م.س، ص٢٣٦، ٢٣٧.

[٣]- محمّد باوزير، الحملة الرومانيّة، م.س، ص٢٣٨.

[٤]- شعبان علي أبو راس، الأنباط وعلاقتهم بالإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س،ص٤٨.

* الجرهاء مملكة عربيّة تقع على الساحل قبالة جزيرة البحرين، سيطرت على تجارة الخليج العربي خلال القرن الثالث قبل الميلاد لمزيد من المعلومات عن الجرهاء انظر: عبد الرحمن السحيباني، تحديد موقع الجرهاء على ضوء المكتشفات الأثريّة الحديثة، مجلّة أدماتو، العدد السابع والثلاثون، ربيع الآخر ١٤٣٩ هـ، يناير ٢٠١٨م.

كان يهدف للسيطرة على المناطق المنتجة للطيوب نفسها[١]، وكسر احتكار العرب للتجارة الشرقيّة، وتحويل مسارها إلى صالح الموانئ المصريّة التابعة رسميّاً للإمبراطوريّة الرومانيّة، وهذا ينسجم مع سياسة الدولة الرومانيّة الاستعماريّة، وأساليبها الانتهازيّة في نهب الموارد والأموال، تلك السياسة التي سار عليها جميع الأباطرة الرومان، بما فيهم أغسطس نفسه، ولاسيّما أنّ تجارة العطور والتوابل كانت من وجهة نظر أغسطس يمكن أن تدرّ للدولة الرومانيّة مصدر دخلٍ دائم يمكن أن يعوّض نزيف أموالها الحاد[٢]. ولما كان هناك غموض يلفّ بلاد العرب وطرق التجارة التي يسيطرون عليها منذ القديم، أراد أغسطس أن يستكشف بلاد العرب ويتعرّف على قبائل المنطقة، ورغب في إقامة علاقات وديّة مباشرة معهم، وإن تعذّر الأمر لإخضاعهم، وأن يكسر احتكارهم للبخور والمواد العطريّة الأخرى، أهمّ المواد تبادلاً في العالم القديم[٣].

وقد جاء عند سترابون: «**عَرَّفَتْنَا حملة الرومان على بلاد العرب والتي حدثت مؤخّراً في وقتنا الحاليّ والتي كان أيْلِيُوسجَالُّوس قائداً لها بكثير من السماتِ المميزةِ لهذه المنطقة. وكان قيصر سِيبَاسْتوس/ المعظّم[أغسطس] قد أرسله ليستكشف القبائل والأماكن الموجودة بها، هي والإثيوبيّة؛ لأنّه لاحظ أنّ منطقة تروجلوديتيكا، القريبة من مصر ملاصقةٌ لهذه الأماكن، وأنّ الخليجَ العربيَّ الذي يَفْصِلُ بين العرب والتروجلوديتيين ضَيِّقٌ جداً. وفي الحقيقة فإنّه فَكَّرَ في أن يقيم علاقاتٍ معهم، أو أن يخضعهم لنفوذه**»[٤]. وهكذا تبلورت أهمّ أسباب للحملة، وتجمّعت فيما بينها وتكاملت، حيث يجد الباحث أنّ الدوافع المختلفة (الشخصيّة، الاقتصاديّة، السياسيّة، الإستراتيجيّة) متضافرةً فيما بينها، بهدف القيام بعمل استعماري جديد، بناءً على معلومات تراكميّة دوّنها الكتّاب الرحّالة والجغرافيّون الكلاسيكيّون (الإغريق والرومان). فما هو نصيب هذه الحملة من التوفيق والنجاح؟

---

[١]- مكسيم رودنسون، بلاد اليمن في المصادر الكلاسيكيّة، م.س، ص٣٦.

[٢]- سيّد أحمد علي الناصري، الرومان والبحر الأحمر، م.س، ص٢٤.

[٣]- شعبان علي أبو راس، الأنباط وعلاقتهم بالإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٤٨.

[٤]- سترابون، الجغرافيا، الكتاب ١٦، الفصل ٤، الفقرة ٢٢.

ثالثاً: الاستعداد للحملة

لا شكّ أنّ أيّ حملة استعماريّة قبل إطلاقها تحتاج إلى دراسات وخطط وإستراتيجيّات، ورصد أموال لتأمين النفقات، وإعدادات عسكريّة، وتأمين خطوط الإمداد والتموين. ولاشكّ أنّ الرومان الذين حوّلوا البحر المتوسّط إلى بحيرة رومانيّة، كانوا يأملون أن يحوّلوا البحر الأحمر إلى بحيرة رومانيّة ثانية، لم لا ونصف الشاطئ الغربي منه (الظهير المصري تحت سيطرتهم)، أمّا الظهير الشرقي (ساحل الجزيرة العربيّة) فكان نصفه المقابل للشواطئ المصريّة تحت سيطرة أتباعهم الأنباط. وقد وجد الرومان بأنّ والي مصر هو خير قائد للحملة بحكم موقع ولايته، ورؤوا أن يعتمدوا على الأنباط في عمليّات الاستطلاع والإمداد والتموين. ويتحدّث سترابون عن علاقات الصداقة التي ربطت أغسطس بالأنباط: «وكان أمله في مساعدة الأنباط لأنّهم كانوا أصدقاء له، ووعدوه أن يتعاونوا معه في كل الأمور»[١].

إذاً، لقد علّق الرومان آمالهم على الأنباط في تحقيق مشروعهم الاستعماري، الذين كانت تربطهم بالرومان معاهدة تبعيّة، منذ أن احتلّ الرومان سوريا وفلسطين، فأصبحوا بذلك على اتصال مباشر بالأنباط في شرق نهر الأردن، وكان ملكهم عبادة الثالث Obadas III (٢٨ – ٩ ق.م)، قد وعد الرومان بتقديم الدعم اللوجستي والعسكري في سبيل إنجاح الحملة الرومانيّة على اليمن، والمزمع إرسالها في المدى المنظور، ووعدهم بتقديم كلّ المساعدات لهم، بإرسال المرشدين والأدلّاء إليهم لإرشادهم إلى أهدافهم، وبتقديم الرجال لشدّ أزرهم، حيث قدّم فرقة عسكريّة نبطيّة بلغ عدد مقاتليها ألف رجل، وقام بوضع وزيره المدعو سُللايُوسSyllaeus صالح تحت تصرّفهم ليكون لهم دليلاً ومستشارا[٢]. وبهذا الحليف العربي، اعتقد الرومان أنّهم وجدوا خير داعم لحملتهم، وأنّ غزوهم لبلاد العرب السعيدة لن يكون إلّا نزهة سعيدة، سيجنون منها ثروة كبيرة.

أمّا على المستوى العسكري فقد أسند أغسطس قيادة الحملة لـ **أيْلِيُوسجَالُّوس**Aelius Gallus (٢٦ – ٢٤ ق.م) ثاني ولاته على مصر، فما كان من هذا الوالي إلّا أن قام بتجهيز قوّة عسكريّة مكوّنة من ١٠ آلاف جندي، من بينهم فرقة رومانيّة مجهولة الاسم، وبعض

[١]- سترابون، الجغرافيا، الكتاب ١٦، الفصل ٤، الفقرة ٢٢.

[٢]- جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب ، م.س،ص٤٤.

الوحدات المساعدة التي سحبت من القوّات الرومانيّة المعسكرة في مصر، بالإضافة إلى ألف جمّال نبطي، وخمسمائة رامي سهام من اليهود، وهذه أرقام كبيرة في عالم العصور القديمة[١]. ولما كان جَالِلُوس يعتقد أنّه سيلقى مقاومة بحريّة شديدة من العرب، قرّر بناء أسطول قويّ يتألّف من عدد كبير من السفن الحربيّة الكبيرة، وعدد من ناقلات الجند، وشرع بإعدادها في ميناء قفطKleopatris على قناة النيل القديمة، ولما تبيّن له من المعلومات الاستطلاعيّة أنّ العرب لا يملكون أسطولاً بحريّاً في البحر الأحمر، أسرع فنقل جيشه على ظهر أسطول مؤلّف من ثمانين بارجة حربيّة و ١٣٠ سفينة من حاملات الجنود إلى ميناء لوكي كومي النبطي[٢]/ ميناء القرية البيضاء، وهو ميناء كان البطالمة قد بنوه فيما سبق[٣]. إلّا أنّ الاستعدادات الأخرى لم تكن كافية، ولا بالمستوى المطلوب، حيث خُطّط للحملة على عَجل دون دراسة علميّة لطبيعة حرب الصحراء، ولا لطبيعة الطريق الذي ستسلكه الحملة، ودون الاتعاظ أو استقراء الدروس من ذكرى هزيمة كراسوس Crassus في كارهاي Crahae (حرّان) في سنة ٥٣ ق.م، وكأنّ الحملة على اليمن قامت على أساس الاعتماد الكامل على معونة الأنباط[٤].

رابعاً: سير الحملة

يحدّثنا سترابون بالتفصيل عن نقل القوّات من قفط المصريّة إلى ميناء ليوكي كوماي النبطي على شاطئ الجزيرة العربيّة في شهر آب سنة ٢٥ ق.م فيقول: «وفي ظلّ هذه الأوضاع قاد أَيْلِيُوسجَالِلُوس حملته، ولكن سُللايُوس Syllaeus [صالح]، وزير الأنباط خدعه، إذ أنّه وعده أن يدلَّهُ على الطريق، وأن يساعده في تنفيذ أهدافه كلّها، ولكنّه فعل عكس الخطّة في كلّ شيء: فلا هو أبحر بالأسطول في أمان، ولا هو دلّه على الطريق، ولكنّه قادهم عبر أراض لا طرق فيها، وذات مسالك دائريّة، وعبر مناطق فقيرة بكلّ شيء، وقاد الأسطول عبر سواحل صخريّة، لا موانئ فيها، أو ملأى بالصخور المختفية تحت المياه، أو عبر أماكن

---

[١]- سيّد أحمد علي الناصري، الرومان والبحر الأحمر، م.س، ص٢٤.

[٢]- جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب، م.س، ص٤٦.

[٣]- سليمان الذيب، الحملة الرومانيّة الأولى على جنوب غرب شبه الجزيرة العربيّة، الرياض ١٤٣٦هـ، ص٥٤.

[٤]- سيّد أحمد علي الناصري، الرومان والبحر الأحمر، م.س، ص٢٥.

ضحلة. وقد تسبّب المدّ والجزر في ضرر كبير خصوصاً في هذه الأماكن. وتمثّل أوّل خطأ في أنّهم أعدّوا سفناً طويلة للحرب في وقت لم تكن تحدث فيه حربٌ بحريّةٌ، ولم تكن متوقّعة الحدوث؛ لأنّ العرب لم يكونوا محاربين أقوياء بل كانوا بدرجة أكبر بائعين وتجّاراً ناهيك أن يحاربوا في البحر. وقد بنى جاللوس ما لا يقلّ عن ثمانين سفينة، ما بين سفينة ثنائيّة المجاديف، وثلاثيّة المجاديف، وسفينة خفيفة بمدينة قفط/ كليوباتريسCleopatris بالقرب من القناة القديمة التي تتفرّع من النيل. وعندما أدرك أنّه خدع أقام مئة وثلاثين سفينة لنقل الجنود، وأبحر فيها مصطحباً معه نحو عشرة آلاف من المشاة الذين جمعهم في مصر من الرومان وحلفائهم، وكان من بينهم خمسمائة من اليهود، وألف من الأنباط مع سُللايُوس [صالح]. وبعد أن واجه كثيراً من المصاعب وصل بعد خمسة عشر يوماً إلى ليوكي كومي LeukeKome وهي سوق تجاريّة كبيرة في أرض الأنباط، وفقد في أثناء ذلك عدداً كبيراً من السفن، بعضها برجالها، بسبب صعوبة الملاحة وليس على يد أحد من الأعداء. وقد تسبّبت التدابير الشرّيرة لسللايوس في ذلك؛ لأنّه ادّعى أنّه لا يوجد طريق برّي للجيش إلى ليوكي كومي التي يأتي إليها ويفد منها تجّار الجِمال بأعداد كبيرة سائرين بأمان وبسهولة من البتراء وإليها حتّى إنّه لا فرق بينهم وبين الجيش. وقد تسبّب ذلك أيضاً أنّ الملك عبادة لم يكن يوجّه اهتماماً كبيراً إلى الشؤون العامّة. وبخاصّة فيما يتعلّق منها بالحرب، ولكنّه وضع كلّ شيء تحت ولاية الرجل الذي عيّنه وزيراً، وقد تولّى هذا الرجل أمور الحملة كلّها، وكان يسعى على ما أعتقد إلى أن يستطلع الأراضي وأن يُدمّر بعض مدنها وجماعاتها مع الرومان، وأن يقيم نفسه سيّداً عليها جميعاً بعد أن يكون أولئك الرومان قد فنوا من الجوع والتعب والمرض وكلّ الشرور التي دبرّها هذا الرجل بخديعته»[1].

لا شكّ أن سترابون أراد أن يرفع اللوم عن كاهل صديقه أيْلِيُوسجَاللُوس، عندما عزا أنّ جميع الخسائر التي مُنيت بها الحملة البحريّة في البحر الأحمر سببها خيانة صالح (كما يدّعي طبعاً)، لا بل إنّ سترابون جعل من صالح الشمّاعة التي علّق عليها جميع إخفاقات الرومان طوال مراحل الحرب، والتقدير المنطقي أنّ السفن التي بناها الرومان في مصر لنقل الجيش إلى الحجاز، كانت سفناً حربيّة كبيرة من طراز السفن الرومانيّة التي تمخر في البحر

[١]- سترابون، الجغرافيا، الكتاب ١٦، الفصل ٤، الفقرة ٢٣.

المتوسّط، وهذا النوع من السفن لا يناسب الملاحة في البحر الأحمر الذي تكثر فيه الشعب المرجانيّة[١]، ولاسيّما خطّ الشعاب المرجانيّة بالقرب من خليج السويس، وكذلك بسبب وجود الجزر الصخريّة في شمال البحر الأحمر والمياه الضحلة عند الشواطئ التي لا تصلح لرسو الناقلات الكبيرة، ما تسبّب في إتلاف أكثرها[٢]. ثانياً من غير المنطقي أنّ جاللوس فضّل أن يبدأ رحلته من الساحل الشرقي للبحر الأحمر ومن ميناء نبطي يبعد ما يقارب من ٩٠٠ ميل عن أرض سبأ، بدلاً من أن يبدأها من ميناء بيرينيكي على الساحل المصري وموانيه، وذلك لإرهاب الأنباط والسبئيين معاً؛ لأنّ مخطّط الحملة هو أن تسير أكبر قدر ممكن عبر أراضي الأنباط والعرب الجنوبيين[٣]. وإمعاناً من سترابون في إلقاء اللوم على الأنباط في فشلهم، لم يكتف بإلقاء اللوم على صالح وحده، بل تعدّاه في اللوم إلى الملك عبادة الذي حسب وصفه لم يكن يهتمّ بالشؤون العامّة[٤].

وبالعودة لسير الحملة فقد وصلت بعد خمسة عشر يوماً إلى ميناء ليوكي كومي النبطي، كما أشار سترابون، وما إن نزلت القوّات الرومانيّة فيه حتّى تفشّى فيها المرض وفتكت بها الأوبئة، حيث يقول: «ومع ذلك وصل جالليوس إلى ليوكي كومي، وكان الجيش يعاني بالفعل مرض الإسقربوط Stomacacce ولين العظام Scelotyrbe وهما من الأمراض المتوطّنة، ويتسبّبان في نوع من الشلل الذي يصيب في حالة المرض الأوّل الفم، وفي الحالة الأخرى السيقان، بسبب طبيعة المياه والعشب. وهكذا فإنّه اضطر لقضاء الصيف والشتاء في هذا المكان حتّى يستردّ المرضى عافيتهم»[٥]. ويظهر أنّ الرومان هيمنوا على هذا الميناء أمداً طويلاً، أو احتلّوه، إذ ورد في الأخبار أنّهم وضعوا فيه حامية رومانيّة Centurio، لحماية السفن من لصوص البحر، ولحماية الطرق البريّة من قطّاع الطرق ولصوص البرّ. كما أنّهم أنشأوا فيه دائرة لجباية المكوس من السفن والتجّار، وقد تقاضوا ما مقداره ٢٥ ٪ من أثمان البضائع التي تدخل الميناء[٦].

---

[١]- شعبان علي أبو راس، الأنباط وعلاقتهم بالإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٥١.

[٢]- عبد اللطيف أحمد علي، مصر والإمبراطوريّة الرومانيّة في ضوء الأوراق البرديّة، القاهرة ١٩٦٥م، ص٦٥

[٣]- سيّد أحمد علي الناصري، الرومان والبحر الأحمر، م.س، ص٢٥.

[٤]- شعبان علي أبو راس، الأنباط وعلاقتهم بالإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٥١.

[٥]- سترابون، الجغرافيا، الكتاب ١٦، الفصل ٤، الفقرة ٢٤.

[٦]- جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب، م.س، ص٤٥.

ونظراً للمرض الذي فتك بالجيش الروماني لم يتسنَ لجاللوس أن يستأنف المسير إلاّ في ربيع سنة ٢٤ ق.م وسلك دروب الصحراء مستخدماً الجمال لنقل المياه والمؤونة والعتاد بالطبع، وكان الأدلّاء النبطيّون يرشدون الحملة عبر مجاهل الصحراء[١]، ويصف لنا سترابون استئناف المسير فيقول: «ومرّة أخرى واصل جاللوس مسيرته من ليوكي كومي، وقاد جيشه عبر أماكن صعبة حتّى أنّه اضطر إلى حمل المياه على ظهور الجمال، بسبب خديعة أدلّاء الطريق. ولهذا فإنّه وصل بعد أيام طويلة إلى إقليم الحارث، أحد أقرباء عبادة، وقد استقبله الحارث بالترحاب، وقدم له الهدايا وزوّده بالمياه، لكنّ خديعة سللايوس جعلت هذا الإقليم أيضاً صعب العبور، لأنّه استغرق في عبوره ثلاثين يوماً، وهو ينتج الشعير وقليلاً من النخيل، ويستعمل سكاّنه الزبد بدلاً من الزيت بسبب بعده عن الطريق. وتخصّ المنطقة التي عبرها جماعات من الرعاة، وكانت أغلبها في حقيقة الأمر صحراويّة، وكانت تسمّى عراريني Ararene [نجد]، وكان ملكها يسمّى سابوسSabus، وقد استغرق خمسين يوماً في عبور هذا الإقليم بسبب عدم وجود طرق فيها، حتّى وصل إلى نجران Negranoi وهي أرض مسالمة وجيّدة، وقد فرّ ملك المدينة التي استولى عليها من أوّل هجمة»[٢].

يشير الدكتور سليمان الذيب إلى أنّه فرّ متخوفاً من قوّة الجيش الروماني، وخوفه من السقوط في الأسر، وهذا النهج أمرٌ طبيعي يَهدف منه القادة والملوك في الأغلب إلى إعادة رصّ الصفوف للمواجهة ضمن ظروف أفضل وشروط أحسن لهم، رغم أنّنا لا نعلم على وجه التحديد ما حصل للملك، أو لنجران بعد الحملة[٣]. إنّ ما يؤخذ على رواية سترابون عن خطّ سير الحملة ضمن الصحراء العربيّة، أنّ هناك مواضع كثيرة مرّ بها الجيش الروماني بين ليوكي كومي ونجران، إلاّ أنّ سترابون لم يذكرها، ولا يحدّثنا عمّا واجه الجيش الروماني فيها[٤]، ما جعل أخبار الحملة في معظمها وطريقها غير معروف، لكنّ عدداً من الباحثين قد أشار إلى أنّ الحملة الرومانيّة ربمّا قد مرّت بنجد، ومن مدينة عنزة تحديداً، ثمّ اتجهت إلى عاصمة اليمامة آنذاك (الحجر)، ومنها زحف الجيش الروماني باتجاه الجنوب الغربي،

---

[١]- سيّد أحمد علي الناصري، الرومان والبحر الأحمر، م.س، ص٢٥.

[٢]- سترابون، الجغرافيا، الكتاب ١٦، الفصل ٤، الفقرة ٢٤.

[٣]- سليمان الذيب، الحملة الرومانيّة الأولى، م.س، ص٦٠.

[٤]- جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب، م.س، ص٤٩.

مسافة ٢٠ مرحلة إلى أن وصل إلى مدينة نجران. وهكذا يكون الجيش قد قطع خلال هذه الأراضي ١٤٠٠ كم من الشمال إلى الجنوب، وتحديداً حتّى وصل إلى مدينة نجران، في مدّة بلغت ٦ أشهر، منها ٨٠ يوماً في الصحراء العربيّة (بلاد الملكين: الحارث، وسابوس)، فقد استغرق في الأولى ٣٠ يوماً وفي الثانية ٥٠ يوماً[١].

ويتابع سترابون الحديث عن الحملة فيقول: «ومن هناك [أي نجران] وبعد مسيرة ستّة أيام وصل إلى نهر، وواجه العرب في معركة، وسقط منهم نحو عشرة آلاف، في حين سقط اثنان من الرومان، لأنّهم [أي العرب] كانوا يستعملون الأسلحة من دون خبرة، ويفتقرون إلى الدراية بأمور الحرب. وكانت أسلحتهم تتمثّل في السهام والرماح والسيوف والمقلاع، وإن كانت أغلبيّتهم تستعمل فأساً ذات حدّين. وبعد ذلك بمسافة قصيرة وصل إلى مدينة تسمّى أسكا Aska[نشق المعينيّة] التي غادرها ملكها، ومن هناك وصل إلى يثل/ أثرولةAthroula [براقش] واستولى عليها دون مقاومة، وأقام حامية له هناك. وبعد أن جمع مؤناً للمسير من قمح وتمور، تقدّم حتّى مدينة مارسيايا Marsiaba[مأرب-سبأ] مأرب*، التي تخصّ قبائل الرامّانتيين**، الذين كانوا خاضعين لـ إيلاساروس/ إليشرحIlasaros ***»[٢]. ويذكر بطليموس أنّ الرامّانتيين «كانوا يسكنون جبل كليماكس Climax/Klimax* أي الجبل المدرّج»[٣].

---

[١]- سليمان الذيب، الحملة الرومانيّة الأولى، م.س، ص٥٨.

*** تجدر الإشارة إلى أنّ عدد من الباحثين المختصّين بتاريخ العرب قبل الإسلام يرون أنّ مأرب هذه أو مارسيايا هي غير مأرب عاصمة السبئيين، وأنّها مدينة مجهولة الموقع في الجوف، في بلاد المعينين، انظر: جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب، م.س، ص٥٤.**

**** من غير المعروف من هي هذه القبيلة العربيّة، وربمّا هم قبيلة ردمان أو ريمان، فردمان من الأسماء المشهورة المعروفة وقد ورد في الحديث (أملوك ردمان)، أمّا ريمان فقبيلة عربيّة معروفة ورد اسمها في نقوش المسند، انظر: جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب، ص٥٤**

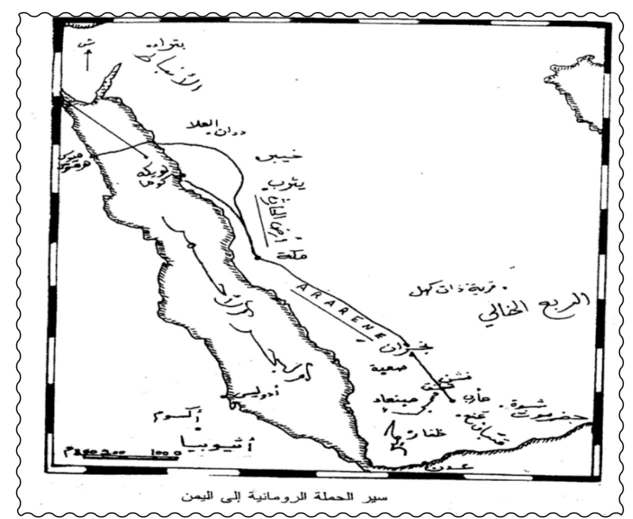
***** لقد عرف عدد من ملوك العرب الجنوبيين باسم الشرح، ويعتقد كثير من الباحثين أنّ الملك اليمني الذي عاصر هذه الحرب هو (الشرح يحضب الثاني) ملك (سبأ وذي ريدان)، انظر: سيّد أحمد علي الناصري، الرومان والبحر الأحمر، م.س، ص٢٥.**

[٢]- سترابون، الجغرافيا، الكتاب ١٦، الفصل ٤، الفقرة ٢٤.

*** الظاهر أنّه يقصد سلسلة جبال السراة، التي يعمل سكان اليمن سفوحها مدرّجات لتصلح لزراعة الكرمة انظر: جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب ، ١م.س،ص٥٦.**

[٣]- بطليموس، الجغرافيا، الكتاب ٦، الفصل ٧، الفقرة ٢٣. ترجمة السيّد جاد، إشراف وتعليق عبد الله العبد الجبار، ضمن مشروع الجزيرة العربيّة في المصادر الكلاسيكيّة (١١)، دارة الملك عبد العزيز، الرياض ٢٠١٧م.

إنّ اللافت للانتباه هو حجم التهم التي يكيلها سترابون لوزير الأنباط صلاح بالتضليل، وفي الوقت نفسه يقدّم معلومات تناقضها، فكيف لجيش غريب في أرض غريبة عنه يخوض فيافيها للمرّة الأولى، يتمكّن من قطع صحرائها دون معونة الأنباط، وكيف لجيش مضلّل به أن يحقّق النصر على النجرانيين بمجرّد أن خرج من تلك الصحراء الحارّة، وفي محاولة فاشلة منه لتبرير هذا التزوير المفضوح في الأحداث، ادّعى أنّ العرب عديمو خبرة بالقتال واستخدام السلاح، فأتى هذا التبرير مناقضاً لما ساقه سترابون نفسه في موضع آخر عن شراسة العرب[١]، ومناقضاً لما كتبه دِيُودُورُوس الصقلي الذي تحدّث عن أن بلاد العرب تزخر بالرجال الشجعان، وأنّ العرب يعشقون الحريّة ولا يقبلون الخنوع لحكم الأجنبي، ومناقضاً لما تحدّث به هيرودوت من أنّ العرب هم الأمّة الوحيدة التي لم ترضخ لأحد، بل عقدت المعاهدات على قدم المساواة[٢].



سير الحملة الرومانية إلى اليمن

ضرب جاللوس الحصار على مأرب ولكنّه فشل في الاستيلاء عليها بسب نفاد الماء والمؤونة، فاضطر إلى فكّ الحصار عنها، وعرف جاللوس أنّه على بعد مسيرة يومين من أرض أروما (سهل حضرموت)، وبعد مسيرة ستّة أشهر قرّر الانسحاب عائداً إلى نجران، ثمّ سار أحد عشر يوماً أخرى حتّى وصل إلى منطقة الآبار السبعة*، ثمّ اخترق الصحراء والحضر حتّى وصل إلى ميناء أجره على البحر الأحمر، ومنه ركب البحر عائداً إلى ميناء ميوسهورموس في مصر، ثمّ

[١]- شعبان علي أبو راس، الأنباط وعلاقتهم بالإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س،ص٥٥.

[٢]- هيرودوت، تاريخ هيرودوت، مقدّمة المترجم، م.س، ص٩.

*- يذهب بعض المختصين أنّ الآبار السبعة هي الحصبة، وهو موقع يقع على مسافة ١٥٠ ميلاً إلى الغرب من نجران، بينما رأى آخرون أنّه موضع خيبر الذي اشتهر بكثرة مياهه، أو موضع بيشه، لكن على العموم الموقع موجود في منطقة الحجاز، انظر: جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب ، م.س،ص٥٢.

عبر طريق القوافل حتّى قفط ومنها ركب النيل إلى مدينة الإسكندريّة وقد استغرقت رحلة العودة ستين يوماً[١].

ويقدّم لنا سترابون حديثاً مفصّلاً عن هذه التحرّكات فيقول: «هاجم جاللوس مدينة مأرب، وحاصرها مدّة ستّة أيام، ولكنّه رفع الحصار بسبب قلّة المياه. وكان عندئذ يبعد يومين من الأرض المنتجة للبخور طبقاً لما سمعه من الأسرى، وبعد أن قضى في هذه [أي في بلاد العرب]ستّة أشهر بسبب سوء الأداء. وقد اكتشف ذلك عندما سلك طريق العودة، فعندئذ كان قد أدرك المؤامرة، وسلك طرقاً أخرى مختلفة؛ لأنّه وصل إلى نجران- حيث دارت المعركة- في تسعة أيّام. ومن هناك وصل في أحد عشر يوماً إلى منطقة تعرف باسم هيبتا فرياتا/ الآبار السبعة HyptaPhreata بسبب وجود سبعة آبار فيها. ومن هناك سار عبر منطقة مسالمة حتّى وصل إلى قرية تعرف باسم خاءالا Khaala[كهالة]، وبعدها إلى قرية تسمّى مالوثاس Malothas تقع جوار نهر*. وبعد ذلك سار في طريق صحراوي به موارد قليلة حتىّ وصل إلى قرية إجراEgral التي توجد في إقليم عبادة، وهي على ساحل البحر، وقد استغرق في رحلة العودة ستين يوماً، على الرغم من أنّه كان قد قضى في رحلة الذهاب ستّة أشهر. ومن هناك قاد الجيش في أحد عشر يوماً إلى ميوسهورموس، ومن هناك عبر الطريق البرّي إلى كوبتوس/ قفط، ثمّ وصل إلى الإسكندريّة سالماً مع من تبقّى من قوّاته. وأمّا الذين فقدهم فإنّ ذلك لم يكن على يد الأعداء بقدر ما كان بسبب المرض والتعب والجوع وسوء الطريق، إذ أنّ سبعة فقط هم الذين حدث أن سقطوا في أثناء القتال. ولهذه الأسباب فإنّ هذه الحملة لم تفد كثيراً في معرفة هذه الأماكن، وأسهمت ببعض المعلومات القليلة. أمّا سللايوس[صالح] المسؤول عن كل هذه الأشياء فقد لقي جزاءه في روما. كان يدّعي الصداقة ولكنّه أدين لأنّه ارتكب جرائم أخرى إضافة إلى هذه الجريمة وقطع رأسه»[٢].

خامساً: النقد الذي يوجّه لرواية سترابون

أوّلاً وقبل كلّ شيء كان سترابون صديق أَيْلِيُوسجَاللُوس والي مصر وقائد الحملة

[١]- سيّد أحمد علي الناصري، الرومان والبحر الأحمر، م.س، ص٢٥، ٢٦.

*-لا شكّ أنّ هذه المدينة تقع في وادي الدواسر، انظر: جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب، م.س،ص٥٢.

[٢]- سترابون، الجغرافيا، الكتاب ١٦، الفصل ٤، الفقرة ٢٤.

الرومانيّة على اليمن، ثانياً هناك أخبار متناقضة في رواية سترابون، ممّا يثير الشكّ في نقل المعلومات الصحيحة، فمثلاً ذكر أنّ رحلة الذهاب للحملة إلى اليمن استغرقت ستّة أشهر، ثمّ ذكر أنّ رحلة الإياب لم تستغرق إلّا ستين يوماً، والفرق كبير رغم كلّ الاحتمالات، أمّا الأغرب فهو ذلك الإدلاء بأنّ السبب الوحيد لرفع الحصار عن مأرب، واتخاذ قرار التراجع والعودة إلى مصر هو نقص الماء، لكنّه يبدو سبباً غير مقبول؛ لأنّ حصار مأرب يعني وجود الحملة الرومانيّة قرب سدّ مأرب، ومن المعروف أنّ السدّ كان قائماً على بعد ثمانية كيلومترات من أسوار المدينة، فهل تُعقل مثل تلك الأباطيل التي يدّعي بها مؤرّخ الحملة وصديق قائدها؟[1].

كما أنّ الوصف والصورة اللتين يقدّمهما سترابون للحملة توحي بأنّ اليمن كانت مفكّكة في ذلك ا

[١]- محمّد باوزير، الحملة الرومانيّة، م.س، ص٢٤١.

لوقت، فلم تحدث مواجهة كبيرة بين الرومان والسبئيين، بل إنّنا لا نجد في حديثه إشارة إلى سبأ، ونجد بدلاً من ذلك مدناً يحكمها ملوك مختلفون، ومع ذلك فإنّ المعركة التي حدثت في مكان ما بين نجران ونشق تدلّ على تجمّع يمني كبير؛ لأنّ عدد القتلى العرب-كما يدّعي سترابون- بلغ عشرة آلاف قتيل، فمن يا ترى كان يقود هذا الجيش العرمرم من المقاتلين؟ ولأيّ مملكة من ممالك اليمن ينتمون؟ وهل تصدّى اليمنيّون للزحف الروماني في معركة واحدة غلبوا فيها ففرّوا إلى عاصمتهم وعادوا إليها ليتحصّنوا فيها ويدافعوا عنها؟ في الواقع إنّ زحفاً يستغرق ستّة أشهر في الصحارى العربيّة لا يمكن أن يفاجأ به أهل اليمن، ولا يسمعون به قبل أن يصل إلى حدودهم. فما هي يا ترى حقيقة فشل تلك الغزوة؟ وما هو سبب هذا الانسحاب الكلّي من بلاد العرب السعيدة؟ ولماذا لم يحتفظ جَاللُوس بالمدن الشماليّة التي سيطر عليها مثل نجران ونشق ويثل؟ تساؤلات لم يقدّم سترابون عنها أيّة إجابة.

يكتفي سترابون بتوجيه اللوم لصالح والأنباط ويعتبر أنّهم السبب الحقيقي في إخفاق الحملة، ويدّعي أنّه تمّ إعدام صالح في روما عقوبة له على خيانته في أعقاب الحملة، «أمّا سُوللايُوس[صالح] المسؤول عن كلّ هذه الأشياء فقد لقي جزاءه في روما. وكان يدّعي الصداقة ولكنّه أُدِينَ لأنّه ارتكب جرائم أخرى إضافة إلى هذه الجريمة، وقطع رأسه»[١]. إلاّ أنّ المصادر الكلاسيكيّة الأخرى تبيّن أنّ سترابون كذب حتّى في هذه، وخلط الأحداث ببعضها، ومن بينها كتاب يوسفيوس فلاڤِيُوسJosephus Flavius (٣٧- ١٠٠م) الذي تحدّث فيه أنّ صالح امتدّ به العمر بعد الحملة، ودخل في صراع مع ملك اليهود هيروديس، بعد أن رفض هيروديس تزويجه من شقيقته سالومي، ما تسبّب في توتّر العلاقات بين الأنباط واليهود[٢]. وأنّه كان يطمع في حكم بلاد الأنباط بعد موت عبادة، إلاّ أنّ تزامن وجوده في سفارة في العاصمة روما مع وفاة عبادة، أفشل مشروعه ومكّن الحارث من اعتلاء عرش الأنباط، فسعى صالح للكيد له: «وكَانَ سُوللايُوس[صالح] يتطلّعُ إلى خلعِهِ، والاستيلاءِ

[١]- سترابون، الجغرافيا، الكتاب ١٦، الفصل ٤، الفقرة ٢٤.

[٢]- يوسفيوس، تاريخ اليهود القديم، الكتاب: ١٦، الفقرات: ٢٧١- ٢٩٤. ترجمة: إبراهيم السايح، تعليق: فتحيّة حسين عقاب، إشراف: عبد الله العبد الجبّار، ضمن مشروع الجزيرة العربيّة في المصادر الكلاسيكيّة (٨)، دارة الملك عبد العزيز، الرياض ٢٠١٧م.

على الحكمِ، ولهَذَا السببِ دفع كثيراً من الأموالِ للحاشية، ووَعَدَ أغسطس بأموالٍ كثيرة، وهو الذي كَانَ غاضباً؛ لأَنَّ الحارثة لم يرسِل إليه قبلَ أنْ يحصلَ على المملكة. إلاّ أنَّ الحارثة أرسلَ خطاباً وهدايَا إلى أغسطس، وتاجاً ذهبيّاً يزنُ عدَّةَ تالينت واتَّهَمَت الرسالةُ سُوللايُوس[صالح] بأَنَّهُ خادمٌ شريرٌ، وأَنَّهُ قَتَلَ عُبادةَ بالسُّمِّ وكَانَ يحكُمُ مملكتَه في حياتِه كيفَمَا شاءَ»[1] وبما أنّ الحملة انتهت في سنة ٢٤ ق.م، وعبادة مات مسموماً بيد صالح-كما تدّعي بعض المصادر الكلاسيكيّة- في سنة ٩ ق.م، وأنّ صالح كان يدير مملكة الأنباط طوال تلك السنوات، ويسعى لأن يتوجّ بتاج الملك بعد موت عبادة الثالث، يؤكّد كلّ هذا زيف رواية سترابون جملة وتفصيلاً عن مسؤوليّة صالح عن فشل الحملة الرومانيّة، فلو كان فشلها بسبب صالح لما تردّد الرومان عن إعدامه فوراً بعد نهاية الحملة.

سادساً: وجهة نظر نقديّة

لقد أخفقت الحملة الرومانيّة أمام مأرب، واتخذ قائدها قراراً بالعودة من أمام مأرب بعد أن كان يفصله عن بلاد الطيوب الحقيقيّة مسيرة يومين فقط، حيث أشجار المرّ واللبان، فلماذا عدل عن التقدّم وهو شديد القرب من غايته؟ في الواقع لقد لقيت الحملة الرومانيّة فشلاً ذريعاً؛ لأنّها بُنيت على جهل فاضح بحالة جزيرة العرب، وبواقع صعوبة السيطرة عليها من البرّ[2]، وبعد أن تورّط الجيش الروماني بغزوها، خشيت روما أن يهلك الجيش بكامله، ولاسيّما أنّه تكبّد خسائر ماديّة وبشريّة جسيمة منذ اليوم الأوّل للحملة، هذا ناهيك عن المقاومة اليمنيّة العنيفة التي واجهته، وطبيعة البلاد الجبليّة، وميل القبائل العربيّة التي تقطنها ونزعتها إلى الحريّة، حيث وجدت في هذا الجيش المنهك لقمةً سائغةً، فأخذت تتخطّفه على طول طريق التقدّم والعودة. ومن المحتمل أن يكون أيْلِيُوسجَاللُوس قد أيقن أنّه من الانتحار التقدّم بالجيش إلى أبعد من ذلك، لا سيّما وأنّ السبئيين المائعين MollesSabaei كما وصفهم الأدب الروماني، قد تبينّ أنّهم ليسوا كذلك، بل هم قوم شديدو البأس والمراس، كما اكتشف جَاللُوس، وحسبما يروي بيلينوس، أنّ عدّة أقوام في بلاد اليمن ومنهم الحضارمة (سكان حضرموت- منطقة اللبان) كانوا

[1]- يوسفيوس، الكتاب: ١٦، الفقرات ٢٩٥- ٢٩٦.

[2]- جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب، م.س،ص١١.

مهرةً في فنّ الحروب[١]،«يتفوقُون بوصفهم محاربين»[٢].

إنّ ما يُثير الدهشة أنّ المصادر الكلاسيكيّة هي وحدها التي تفرّدت بذكر أخبار الحملة، بالإضافة إلى نقش أغسطس الذي تحدّث فيه أنّ قوّاته وصلت إلى حدود مأرب[٣]، في حين أنّنا لم نعثر في نصوص على ذكر لها، ويبرّر الدكتور جواد علي الأمر أنّ جميع نصوص المسند لم تكشف بعد، وأنّ جُلّ ما عثر عليه كان على ظاهر الأرض، أمّا المطمور منها والذي يحتاج إلى الكشف عنه من خلال التنقيبات الأثريّة هو أكثر بكثير[٤]. لكنّنا متأكّدون أنّ أيْلِيُوسجَاللُوس كان قد وصل فعلاً إلى مدينة مأرب، ولقي عندها هزيمة نكراء، ورفع الحصار عنها بعد ستّة أيام فقط لأنّه أيقن استحالة اقتحام أسوارها دون امتلاكه لأسلحة ومعدّات حصار المدن، وبعده عن موقعه روما، وعن ولاية مصر الرومانيّة، وانقطاع طرق الإمداد والتموين في صحراء مترامية الأطراف، وأنّ الأنباط لم يظهروا الجدّ والإخلاص الحقيقي للمشروع الروماني، الذي عوّل فيه الرومان عليهم كثيراً.

فطريق الذهاب كان تهلكة للجيش الروماني، قضى فيه أفضل الجنود نحبهم دون قتال، فلما صار الفريقان وجهاً لوجه لاقت الحملة الرومانيّة مقاومةً عربيةً باسلة أثناء مرورها ببعض المدن اليمنيّة، وربّما كانت المواجهة غير متكافئة، لكنّها استمرّت حتّى وصول الحملة إلى أسوار مدينة مأرب أو بالقرب منها، وربّما أنّ هذه المقاومة التي واجهت الحملة الرومانيّة، كانت تحجم من قوّتها الشيء الكثير، لكنّ اللافت للانتباه أنّ جميع المدن التي واجهت الحملة تقع في أرض معين بالجوف. وربّما كانت أقصى نقطة وصلت إليها الحملة هي أثيل (براقش)، أو أبعد من ذلك بقليل بالقرب من أسوار مأرب، ويبدو أنّه قد اتّضح لقائد الحملة أنّ جرّ الجيش الروماني إلى أبعد من ذلك يُعد مغامرة انتحاريّة، فارتأى ضرورة التراجع، أو ربّما طلبت منه روما التراجع وعدم الانجرار وراء تلك المغامرة والعودة بما تبقّى من جنود الجيش. ويظهر أنّ ما ردّده سترابون بأنّ الرومان قد واصلوا تقدّمهم حتّى مأرب (مارسيايا)

[١]- محمّد باوزير، الحملة الرومانيّة، م.س، ص٢٤١.

[٢]- بلينيوس، التاريخ الطبيعي، الكتاب: ٦، الفصل: ٣٢، الفقرة ١٦١. ترجمة علي عبد الجيد، تعليق زياد السلامين، إشراف عبد الله العبد الجبّار، ضمن مشروع الجزيرة العربيّة في المصادر الكلاسيكيّة (٧)، دارة الملك عبد العزيز، الرياض ٢٠١٧م.

[٣]- مكسيم رودنسون، بلاد اليمن في المصادر الكلاسيكيّة، م.س، ص٣٧.

[٤]- جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب، م.س،ص٥٨.

وحصارها، قد ترك أثره في كتابات المعاصرين، ورغم ذلك تساءل البعض، هل كانت هي أقصى نقطة يصلها الجيش الروماني؟ وهل هي مأرب عاصمة السبئيين؟ إنّ الإجابة على هذه الأسئلة مازالت موضع جدلٍ حتّى يومنا هذا، ولكنّ الأرجح أنّ الحملة وصلت حقّاً إلى أسوار مأرب وتراجعت مخذولةً بفعل مقاومة السبئيين[١].

وهكذا كان من أهمّ أسباب فشل الحملة سوء تقدير الرومان للمشروع، واستهانتهم بطبيعة جزيرة العرب، وعدم إدخالهم في حسابهم قساوة الصحراء هناك، وعدم تمكّن الجيوش النظاميّة من المحاربة فيها[٢]، حيث لاقى الرومان في الجزيرة العربيّة الحرّ الشديد والجوع والعطش والمرض، ما تسبّب في إهلاك أكثرهم، وأجبر الباقين على التراجع والانسحاب، كما كان للخسائر الجسيمة التي منيت بها الحملة منذ انطلاقها من مصر قبل وصولها إلى أراضي الجزيرة العربيّة، دورٌ كبير في تثبيط الهمم وإيهان العزم، ولاسيّما تلك الهزائم التي مُنيت بها الحملة في ميناء لوكي كومي، والتي كان سببها جهلهم بخطوط الملاحة إلى الميناء النبطي[٣]. كما أنّ قيام القبائل الأثيوبيّة بمهاجمة حدود ولاية مصر الجنوبيّة والحاميات الرومانيّة المنتشرة على طول تلك الحدود، بعد أن سحب جالليوس أعداداً كبيرة من جنود تلك الحاميات وزجّ بها في أتون الحملة على اليمن، فغابت كليلا عن حماية تلك الحدود[٤]، دور في قرار العدول عن الحملة والتركيز على حماية مصر. إنّ كلّ هذه الأمور أدّت إلى خيبة أمل عامّة منذ اللحظة الأولى للغزو، وانتكاسة شديدة في هيبة روما وفي مشاريعها الاستعماريّة التي خطّطت لها وأرادت تنفيذها في جزيرة العرب[٥]. وهكذا نجد أنّ لعوامل الطبيعة بالإضافة للعوامل الجيوسياسيّة دوراً أساسيّاً في الدفاع عن بلاد العرب السعيدة، بما فيها مأرب العاصمة السبئيّة، حيث دافعت عنها أفضل من دفاع أسلحة أبنائها عنها أمام هجوم الغزاة الرومان، الذين سبق لهم أن نجحوا في فرض سيطرتهم على سوريا ومصر وقرطاجة، ولم يكن قد قهرهم أحد من قبل[٦].

---

[١]- محمّد باوزير، الحملة الرومانيّة، م.س، ص٢٤٢.

[٢]- جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب، م.س،ص٤٣.

[٣]- محمّد باوزير، الحملة الرومانيّة، م.س، ص٢٤٣.

[٤]- سليمان الذيب، الحملة الرومانيّة الأولى، م.س،ص٥٨.

[٥]- جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب، م.س،ص٤٣.

[٦]- محمّد باوزير، الحملة الرومانيّة، م.س، ص٢٤٣.

الخاتمة

أوّلاً: لقد كان لبلاد العرب السعيدة سمعة طيّبة عن ثراء فاحش وتجارة مزدهرة تحدّثت عنها النصوص الكلاسيكيّة بإسهاب، ما أثار مطامع الطامعين. ثانياً: لقد لقيت الحملة الرومانيّة على اليمن سنة ٢٤ ق.م فشلاً ذريعاً حتّى الرومان كفّوا عن فكرة استعمار الجزيرة العربيّة أو حتّى غزوها، وهكذا غيّر الرومان كلّ خططهم الإستراتيجيّة. ثالثاً: لقد هزّت هذه الحملة الفاشلة هيبة الدولة الرومانيّة، وتسبّبت في مقتل العشرات من الجنود الرومان، فغضبت السلطات الرومانيّة على قائدها ووالي مصر، فتمّ عزله من منصبه مباشرة بعد عودة الحملة. رابعاً: بدأ الرومان بالتكيّف مع واقع الأمر الدولي خلال القرن الأوّل الميلادي عن طريق الاعتماد على الطرق البحريّة (البحر الأحمر والخليج العربي)، للوصول إلى المنتجات الشرقيّة الثمينة، دون السعي لفرض سلطتهم السياسيّة على الأراضي العربيّة، لا بل حسّنوا علاقاتهم مع الإمارات العربيّة (ميسان، تدمر، البتراء) في سبيل تحقيق أهدافهم الاقتصاديّة، ومع القبائل العربيّة، بالإضافة إلى مملكة أكسوم (الحبشة)، هذا بالإضافة إلى نقل النشاط التجاري الروماني في البحر الأحمر من الموانئ العربيّة على الساحل الشرقي إلى الموانئ المصريّة الموجودة على الساحل الغربي منه، ممّا أدّى إلى ضرب طوق روماني شديد حول بلاد العرب السعيدة (اليمن) وتحوّل جزء كبير من التجارة الشرقيّة عن اليمن.



الملك النبطي عبادة الثالث الوزير النبطي صالح

لائحة المصادر والمراجع

١. أسمهان سعيد الجرو، موجز التاريخ السياسي القديم لجنوب شبه الجزيرة العربيّة (اليمن القديم)،جامعة عدن ١٩٩٦م.

٢. بطليموس، الجغرافيا، ترجمة السيّد جاد، إشراف وتعليق عبد الله العبد الجبّار، ضمن مشروع الجزيرة العربيّة في المصادر الكلاسيكيّة (١١)، دارة الملك عبد العزيز، الرياض ٢٠١٧م.

٣. بلينيوس، التاريخ الطبيعي. ترجمة علي عبد الجيّد، تعليق زياد السلامين، إشراف عبد الله العبد الجبّار، ضمن مشروع الجزيرة العربيّة في المصادر الكلاسيكيّة (٧)، دارة الملك عبد العزيز، الرياض ٢٠١٧م.

٤. جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط٢، ج٢، بغداد ١٩٩٣م.

٥. سترابون، الجغرافيا، ترجمة حسان إسحق، منشورات دار علاء الدين، دمشق ٢٠١٧م.

٦. سليمان الذيب، الحملة الرومانيّة الأولى على جنوب غرب شبه الجزيرة العربيّة، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنيّة ١٤٣٦هـ.

٧. سيّد أحمد علي الناصري، الرومان والبحر الأحمر، الدارة، العدد ٢، الرياض١٩٨١م.

٨. شعبان علي أبو راس، الأنباط وعلاقتهم بالإمبراطوريّة الرومانيّة (٣٠ق.م - ١٠٦م)، رسالة معدّة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، جامعة صنعاء ٢٠٠٤م.

٩. عبد الله العبد الجبّار، نظرة الكتّاب الكلاسيكيين لتجارة الجزيرة العربيّة، مجلّة الدرعية، العددان الحادي والثاني والخمسون، السنة الثالثة عشرة، يناير٢٠١٢م.

١٠. عبد الرحمن السحيباني، تحديد موقع الجرهاء على ضوء المكتشفات الأثريّة الحديثة، مجلّة أدماتو، العدد السابع والثلاثون، ربيع الآخر ١٤٣٩ هـ، يناير ٢٠١٨م.

١١. عبد اللطيف أحمد علي، مصر والإمبراطوريّة الرومانيّة في ضوء الأوراق البرديّة، القاهرة ١٩٦٥م.

١٢. محمّد باوزير، الحملة الرومانيّة على العربيّة الجنوبيّة أو السعيدة، مجلّة كليّات التربية، جامعة عدن، العدد ٩، آب٢٠٠٨م.

١٣. مصطفى العبادي، محاضرات في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت ١٩٨١م.

١٤. مفيد رائف العابد، دراسات في تاريخ الإغريق، دراسة في التاريخ السياسي والحضاري الباكر والكلاسيكي، ج٢، ط٤، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٢م.

١٥. مكسيم رودنسون، بلاد اليمن في المصادر الكلاسيكيّة (دراسات ومختارات)، ترجمة حميد العواضي، ضمن كتاب الثقافة الشهري الذي تصدره وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء ٢٠٠١م.

١٦. هيرودوت تاريخ هيرودوت، تر: عبد الإله الملاح، قدّم لها حمد محمّد بن صراي، المجمع الثقافي في أبوظبي، أبوظبي ٢٠٠١م.

١٧. يوسفيوس، تاريخ اليهود القديم، ترجمة: الإراهيم السايح، تعليق: فتحيّة حسين عقاب، إشراف: عبد الله العبد الجبّار، ضمن مشروع الجزيرة العربيّة في المصادر الكلاسيكيّة (٨)، دارة الملك عبد العزيز، الرياض ٢٠١٧م.

الاحتلال الروماني لمصر والمغرب العربي القديم وتداعياته

أعقيل نمير[١]

مقدِّمة

لكلّ دولة ـ على مرّ العصور ـ ما لها وما عليها، والدولة الرومانيّة لم تشذ عن هذه القاعدة، فعلى الرغم ممّا قد يزعمه البعض عن تقديم الحضارة الرومانيّة في البلاد التي سيطرت عليها وعلى مدى قرون عديدة، انجازات في مجال الفن والعمارة والإدارة، إلا أن المآخذ التي تسجّل على الدولة الرومانيّة أكبر بكثير مما قدمته، والتي كانت بمثابة سلبيّات وقع بها رجال السياسة والإدارة الرومان في حكم البلاد التي احتلّوها، وكانت هذه السلبيّات المحور الرئيس في هذا البحث، وتتناول السلبيّات الحياة الاقتصاديّة، وخاصّة الجانب الزراعي، والقليل عن الجانب الاجتماعي، لأنّنا لا نستطيع في هذه الصفحات القليلة أن نغطّي ما تركه الرومان من سلبيّات في جميع مناحي الحياة، وكان تركيزنا على الجانب الاقتصادي الزراعي؛ لأنّ الزراعة كانت تشّكل الركن الأساس في الحياة في تلك الفترة، ومن هنا عمل الرومان على مصادرة الأراضي الخصبة من أصحابها في مصر وشمال أفريقيا (محور الدراسة)، وشجّعوا المستثمرين الرومان على استغلال الأراضي الخصبة في كلا الولايتين، وخاصّة المنتجة للحبوب، وبصورة خاصّة القمح والشعير، ولم تمر عمليّات مصادرة الأراضي من أصحابها بسلام، إذ نتج عنها قيام الثورات في مصر وشمال أفريقيا، ولكنّ سلطات الاحتلال الروماني قضت عليها بوحشيّة تامّة، وخضع من تبقّى من الفلاحين على أراضيهم للأمر الواقع.

وقبل الحديث عن السلبيّات التي رافقت الاحتلال الروماني، بدأنا بحثنا بالحديث عن الاحتلال الروماني لمصر، وقدّمنا له بلمحة عن العلاقات التي كانت تربط روما بدولة البطالمة الحاكمة في مصر، وكيف تطوّرت هذه العلاقات من اقتصاديّة وتحوّلت إلى

[١]- أستاذ تاريخ المغرب العربي في جامعة دمشق.

سياسيّة، وبالنتيجة التدخّل في السياسة الداخليّة والمنازعات الأسريّة للبطالمة، وانتهى هذا التدخّل إلى احتلال مصر بعد هزيمة البطالمة في معركة أكتيوم البحريّة سنة ٣١ ق.م، وعلى أثرها تمكّن الرومان من احتلال مصر، وقضوا على أسرة البطالمة الحاكمة فيها.

أمّا فيما يتعلّق بالمغرب العربي القديم -شمال أفريقيا- فقد تحدّثنا عن تنبّه الرومان لدولة قرطاجة في تونس، ومنافستها للرومان في الحوض الغربي للمتوسّط وعلى القارة الأوروبيّة نفسها، الأمر الذي دفع الرومان إلى الدخول مع القرطاجيين في حروب أطلق عليها المؤرّخون اسم الحروب البونيّة، وعددها ثلاثة حروب، ولكن لمّا شعرت روما بقوّة قرطاجة بزعامة القائد العسكري هانيبال الذي هزم روما في عقر دارها، هنا تنبّهت روما ولجأت إلى الحيلة والفتنة بين دولة قرطاجة ودولة نوميديا (في الجزائر الحاليّة) وتمكّنت من نقل المعارك إلى شمال أفريقيا، واستطاعت في النهاية القضاء على دولة قرطاجة وتدمير معالمها، ثمّ مدّت نفوذها على حساب حلفائها النوميديين، الذين ساعدوها على إسقاط قرطاجة وضمّوا دولتهم إلى النفوذ الروماني، ثمّ توسّعوا على حساب موريتانيا، وشكّلوا من هذه البقاع ولاية شمال أفريقيا الرومانيّة، وقاموا بمصادرة الأراضي الزراعيّة وتهجير الأهالي ونقل منتجات هذه الأراضي إلى روما ضاربين عرض الحائط بحاجة الفلاحين والسكّان المغاربة من الاستفادة من إنتاج أراضيهم وما تدرّه من غلال، ولم تراع السلطات الحاكمة الرومانيّة سنوات القحط والأوبئة التي تعرّضت لها الولاية.

أوّلاً: لمحة عن تطوّر العلاقات بين الرومان ومصر البطلميّة قبيل الاحتلال الروماني لمصر سنة ٣٠ ق.م

خرجت العلاقات بين مصر البطلميّة وروما عن مظهرها الاقتصادي، وبدأت تأخذ مظهراً سياسيّاً، وذلك منذ نهاية القرن الثالث قبل الميلاد. فبعد انتهاء الحرب البونيّة الأولى سنة٢٤١ ق.م (التي دارت رحاها بين الرومان وقرطاجة والتي بدأت سنة ٢٦٤ ق.م، والتي سنتحدّث عنها بالتفصيل عندما نتناول الاحتلال الروماني للمغرب القديم).

عرضت روما مساعدتها على مصر في حربها ضدّ الدولة السلوقيّة الحاكمة في سورية

إلّا أنّ الملك بطليموس الثالث رفض المساعدة متذرّعاً بأنّ الحرب بينه وبين السلوقيين في سورية قد انتهت[١].

أرسلت روما إلى البطالمة في مصر سفارة بعد انتهاء الحرب البونيّة الثانية مع دولة قرطاجة سنة ٢٠١ ق.م، تطلب من الملك بطليموس الخامس الوقوف على الحياد في حال إعلان روما الحرب على الملك المقدوني فيليب الخامس الذي وقف ضدّ روما في حربها مع قرطاجة (الحرب البونيّة الثانية) [٢].

هنا أرادت روما من طلبها هذا أن تبقي على الوضع الراهن في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسّط، والقضاء على أيّ محاولة لإيجاد دول قويّة جديدة قد يشكّل وجودها خطراً بشكل أو بآخر على الدولة الرومانيّة، التي بدأت تتوسّع في هذه المنطقة؛ أي الحوض الشرقي للمتوسّط[٣]، أو محاولة جعل الأوضاع السياسيّة القائمة لمصلحة روما أوّلاً وقبل كلّ شيء، والدليل على ذلك لم يأت القرن الثاني قبل الميلاد حتّى كانت العلاقات بين روما ومصر قد دخلت مرحلة جديدة من التدخّل السياسي من جانب الرومان في الأوضاع الداخليّة لأسرة البطالمة الحاكمة في مصر، بالمقابل كانت دولة البطالمة في مصر تزداد ضعفاً بينما كان الرومان يزدادون قوّة[٤]، وخير دليل على ضعف مصر البطلميّة في هذه الفترة (بسبب المنازعات الأسريّة) قيام الممالك المجاورة لمصر بالتنافس على ممتلكاتها الخارجيّة، وخاصّة التفاهمات التي حدثت بين ملك مقدونية فيليب الخامس وأنطيوخس الثالث ملك الدولة السلوقيّة في سورية، حيث كان هناك حديث عن معاهدة عقدت بن الملكين لاقتسام ممتلكات الدولة البطلميّة [٥].

أعطى هذا التحوّل- في سياسة المنطقة – للرومان الفرصة الذهبيّة للتدخّل في شؤون أسرة البطالمة الحاكمة في مصر بحجّة حمايتها من أطماع الملكين المقدوني والسلوقي،

[١]- أحمد، عبد اللطيف: مصر والإمبراطوريّة الرومانيّة في ظلّ الأوراق البرديّة ، ص١-٣.

[٢]- الشيخ، حسين: مصر تحت حكم اليونان والرومان، دراسات في تاريخ الحضارة القديمة، جمهورية مصر العربيّة، جامعة الإسكندريّة، كليّة الآداب ١٩٩٧، ص٥٤.

[٣]- الشيخ: المرجع السابق، ص٥٥.

[٤]- عبد اللطيف: المرجع السابق، ص٥.

[٥]- الشيخ: المرجع السابق، ص٥٥.

وكان الهدف الحقيقي من هذا التدخّل منع قيام أيّ دولة جديدة تهدّد خطط روما في التوسّع، سواء في الحوض الشرقي أو الغربي للمتوسّط، إذ إنّ قيام أيّ دولة مثل مقدونية أو سورية السلوقيّة بغزو مصر والسيطرة عليها سيؤدّي إلى اختلال التوازن، وإلى قيام دولة قويّة تكون ندّاً للرومان أو تتفوّق عليهم، وهذا يدفعنا إلى فهم موقف روما إلى جانب دولة البطالمة عندما غزاها الملك السلوقي أنطوخيوس الرابع وحاصر مدينة الإسكندريّة، حيث وقفت روما إلى جانب مصر في هذه الحرب، وأجبرت الملك السلوقي للانسحاب والعودة إلى سورية[١].

ودخلت العلاقات – على إثر ذلك- بين دولة البطالمة وروما مرحلة جديدة، إذ بدأت روما تعمل على استغلال المنازعات التي حدثت بين أفراد أسرة البطالمة؛ وذلك لإضعاف مصر والسيطرة على ممتلكاتها في برقة وقبرص، وبلغ نفوذ روما درجة كبيرة من السيطرة على ملك البطالمة بطليموس الثامن لدرجة أنّ الأخير طلب (أثناء صراعه على العرش مع أخيه بطليموس السادس) أن تؤول مملكة البطالمة في مصر إلى روما إذا مات دون وريث حتّى لا يعتلي عرش المملكة شقيقه بطليموس السادس[٢].

بالنتيجة، إنّ تدخّل روما في الحياة الخاصّة لملوك البطالمة في مصر ساعدها في الاطلاع عن قرب على المشكلات التي وقعت فيها هذه الأسرة ونقاط ضعفها، ممّا أدّى بالنهاية إلى دخولهم إلى مصر واحتلالها سنة ٣١ ق.م بعد خوضهم معركة أكتيوم البحريّة مع كليوبترا، والتي تمكّن فيها القائد الروماني أوكتافيانوس (أوغسطس) من شلّ حركة جيوش الملكة كليوباترا السابعة وصديقها الروماني أنطونيوس، واضعاً بذلك نهاية لآخر ملوك البطالمة في مصر (بعد أن فضّلت الانتحار على أن تقع أسيرة في يد الرومان)، حيث كانت الشخصيّة السياسيّة والعسكريّة التي تركت أثرها في نفوس الرومان بعد هانيبال القرطاجي، وتغنّى ببطولاتها بعض الشعراء الرومان.

أضيفت مصر ـ بسقوط دولة البطالمة ـ إلى سلطان «الشعب الروماني»، وهذه الجملة كانت للقائد أوكتافيانوس الذي سجّلها في سجلّ أعماله (المعروف: بأثر أنقرة) بعد دخوله

[١]- عبد اللطيف: المرجع السابق، ص٧.

[٢]- الشيخ: المرجع السابق، ص٥٦.

إلى مصر سنة ٣٠ ق. م على إثر معركة أكتيوم البحريّة[١].

ولتثبيت الوجود الروماني في مصر تنبّه أوغسطس لتأمين حدودها المشتركة مع جيرانها، وذلك لكي يتمكّن الرومان من استغلال مصر اقتصاديّاً، وكان ممّا ساعد القائد الروماني أوغسطس على ذلك، الطبيعة الجغرافيّة لمصر بسبب عدم وعورة أراضيها، الأمر الذي سهّل على القوّات الرومانيّة أن تتحرّك بسرعة لضرب أيّ ثورة داخليّة تندلع ضدّ الحكم الروماني للبلاد، بالإضافة إلى طبيعة الحدود المصريّة التي تجعل من الصعب مهاجمتها، إذ يحدّها من الشرق البحر الأحمر وصحراء سيناء، والصحراء الغربيّة من جهة الغرب، والبحر الأبيض المتوسّط من جهة الشمال، وتوجد في الجنوب بعض العوائق الطبيعيّة لصحراء النوبة[٢].

وفي الداخل استطاع كورنيليوس جالوس أوّل والٍ روماني أن يقمع بعض الثورات التي اشتعلت في منطقة شرق الدلتا المصريّة والإسكندريّة وصعيد مصر، وذلك في سنة ٢٩ ق.م مباشرة بعد مغادرة القائد الروماني أوكتافيانوس (أوغسطس) لمصر، كما استطاع الوالي الأوّل أن يسيطر على حدود مصر الجنوبيّة، وأن يجعل منطقة جنوب أسوان تحت حماية الدولة الرومانيّة[٣].

في الوقت نفسه، خصّص القائد الروماني أوغسطس عدداً من قطع الأسطول الروماني في مدينة الإسكندريّة لحمايتها على اعتبارها ميناء أساسيّاً ومهمّاً يمكن عن طريقه غزو مصر، كما أدّى هذا الأسطول دوراً مهمّاً في حماية الساحل الجنوبي للمتوسّط، وتأمين السفن المحمّلة بقمح مصر والمتّجهة إلى روما.

ترك أوغسطس-بالإضافة إلى قطع الأسطول الروماني- اثنين وعشرين ألفاً من الجنود والفرسان لحماية ولاية مصر الرومانية، مع العلم أنّ هذا العدد ليس بالقليل بالنسبة لتلك الفترة هذا من جهة، ومن جهة ثانية يقدّم لنا هذا العدد من الجنود والفرسان الرومان الدليل على أهمّية ولاية مصر كإهراء من إهراءات روما؛ لذلك يتوجّب على الدولة الرومانيّة حمايته وتأمينه ضدّ

[1]- Chapot, Victor: L'Egypte romaine, histoire, De la nation égyptienne, tome 3, pp. 242- 243.

[٢]- الشيخ: المرجع السابق، ص٦٠.

[٣]- الشيخ: المرجع السابق، ص٦١، ٦٢.

الثورات الداخليّة، وأيّ تحرّكات غزو خارجي قد يؤثّر على الوجود الروماني في مصر[١].

ثانياً: الاحتلال الروماني للمغرب العربي القديم وسقوط دولة قرطاجة[٢]

كان من بين الأسباب التي دفعت روما إلى احتلال المغرب القديم هو الوجود الفينيقي ممثّلاً بدولة قرطاجة، والذي كان ينافسها في الحوض الغربي للمتوسّط، فبعد أن تمكّنت روما من القضاء على النفوذ الإغريقي في الجنوب الإيطالي، واستطاعت بسط نفوذها على كامل التراب الإيطالي، فقد أصبحت دولة قرطاجة هي العائق الوحيد أمام روما لبسط نفوذها على الجزء الجنوبي من البحر المتوسّط، هذا بالإضافة إلى أطماع روما بالسيطرة على أراضي المغرب القديم وثروته الزراعيّة الغنيّة بمختلف أنواع المنتجات الخام بالنسبة لروما، وخاصّة القمح والشعير[٣].

١. مراحل الاحتلال الروماني لبلاد المغرب العربي القديم

كانت قرطاجة من ألدّ أعداء روما، المدينة المنيعة الواقعة في شمال أفريقيا بالقرب من مدينة تونس الحاليّة، لذلك شنّت روما سلسلة من الحروب ضدّ قرطاجة، والتي عرفت في التاريخ باسم الحروب البونيّة، وتمّت على ثلاث مراحل هي:

أ. الحرب البونيّة الأولى عام ٢٦٤ ق.م

برز في هذه الحرب القائد القرطاجي هملقار واستمرّت هذه الحرب ٢٢ سنة، وكانت أغلب المعارك التي جرت بين الدولتين في هذه الحرب بريّة، وقد انتصرت روما على قرطاجة فيها وفرضت شروطاً قاسية أهمّها:

- إجبار دولة قرطاجة على تحديد قطع أسطولها البحري.
- التخلّي عن جزيرة صقلّية بأكملها وبشكل نهائي.

---

[١]- زغيري، أحمد: المقاومات المغاربيّة القديمة ضدّ الاحتلال الروماني في نوميديا، المغرب ٢٠٢٠-٢٠٢١م، ص ٤٠.

[٢]- قرطاجة: مدينة فينيقيّة بناها بحّارة من مدينة صور اللبنانيّة عام ٨١٤ ق. م، وقويت هذه المدينة وأسّست إمبراطوريّة شملت شمال أفريقيا الحاليّة وإسبانيا والحوض الغربي للمتوسّط، لمزيد من المعلومات، انظر وهيب أبي فاضل موسوعة التاريخ والحضارة.

[٣]- زيدان، جرجي: خلاصة تاريخ اليونان والرومان، مؤسّسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر ٢٠٢١، ص ٢٠.

- انسحاب قرطاجة من جميع الجزر القريبة من جزيرة صقلّية.
- دفع ضريبة حربيّة ضخمة لخزينة روما.

ولكن استطاعت دولة قرطاجة - بالرغم من هزيمتها وخسارتها في الحرب الأولى- أن تستعيد قوّتها وتلتف حول القائد الجديد هانيبال الذي خلف هملقار وذلك عام ٢٢١ ق.م لتبدأ الحرب البونيّة الثانية.

ب. الحرب البونيّة الثانية ٢١٩-٢٠٢ ق.م

كان القرطاجيّون في الحرب البونيّة الثانية تحت قيادة زعيمهم هانيبال، والذي كان من أشهر قادة العالم في ذلك الوقت.

سار هانيبال بجيشه وقطع البحر المتوسّط حيث وصل إلى إسبانيا وعبرها باتجاه إيطاليا، واستطاع قطع جبال الألب بالرغم من صعوبتها، واشتبكت قوّاته مع قوّات الرومان بعدّة معارك كان الفوز بها لصالحه، وتمكّن الرومان من جمع جيوشهم بقيادة قنصلين، ولكنّ هانيبال انتصر عليهم في معركة كاناي، وقتل منهم حوالي سبعين ألف جنديّ وضابط، هنا تنبّه الرومان إلى صعوبة الانتصار على القائد القرطاجي هانيبال، فلجؤوا إلى الحيلة ونجحوا في إثارة الفتنة والعمل على توتّر العلاقات بن قرطاجة ونوميديا[١] (في الجزائر اليوم)، وتمكّنوا بالتالي من إشعال الحرب بين قرطاجة من جهة والقادة المغاربة في نوميديا، وتحالف الرومان مع القائد النوميدي ماسينا ضدّ القرطاجيين، وتمكّنوا بالتالي من نقل الحرب إلى شمال أفريقيا[٢]، وحسموا الحرب لصالحهم في معركة زاما[٣]التي جرت سنة

---

[١]- نوميديا: دولة بربريّة قامت في الجزائر الحاليّة والمغرب العربي وكانت تنافس قرطاجة وروما في الحوض الغربي للمتوسّط، استطاع الرومان استمالتها في حربهم ضدّ دولة قرطاجة فقدّمت لهم المساعدة ، ولكن الرومان لم يحفظوا لهم الجميل فكانت الدولة النوميديّة هدفهم الثاني في شمال أفريقا بعد قضائهم على دولة قرطاجة عام ١٤٦ ق.م.

[٢]- محمّد الهادي، الشريف: تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال ، الطبعة الثالثة، تعريب الشاوش محمّد وعجينة محمّد ، تونس ، دار السراس للنشر والطباعة ، د.ت.

[٣]- زاما: مدينة نوميديّة هَزم فيها القائد الروماني سيبيونال إميلي القائد القرطاجي هانيبال وأجبر دولة قرطاجة على الاعتراف بهزيمتها، لمزيد من المعلومات، انظر عبد القادر بن جغلول، مقدّمات في تاريخ المغرب العربي القديم، الجزائر، دار الحداثة ١٩٨٦م.

٢٠٢ ق.م، والتي ألحقت الهزيمة بالقرطاجيين وخضوعهم لشروط الرومان[١].

ت. الحرب البونيّة الثالثة ١٤٩-١٤٦ ق.م

انفجرت هذه الحرب بعد حوالي خمسين عاماً تقريباً على انتهاء الحرب الثانية، فقد صمّمت روما على القضاء على دولة قرطاجة بعدما بثّت النزاعات في المغرب القديم، ووجدت لها حلفاء في دولة نوميديا – كما ذكرنا سابقاً- وتمكّنت روما من سحق الجيش القرطاجي، ودخل جيشها إلى مدينة قرطاجة منتصراً، وانتهت الحرب بتدمير وتخريب قرطاجة على يد القوات الرومانيّة، واستمرّت النار تأكل بها ما يقارب من الشهرين ونيف وذلك عام ١٤٦ ق.م[٢]، وأمر الرومان بإعطاء أراضيها لحلفاء روما، ثمّ استولى الرومان على جميع المناطق الساحليّة لقرطاجة، وضمّوا المنطقة لهم وسمّوها ولاية أفريقيا[٣]. وهكذا استطاعت روما القضاء على قرطاجة الدولة والحضارة، والتي كانت ترى فيها العائق في وجه توسّعها الاستعماري في الحوض الغربي للمتوسّط، ولكن لم يكتف الرومان بعد سقوط قرطاجة بممتلكاتها في المغرب العربي القديم بل توجّهوا نحو حلفائهم النوميديين الذين ساعدوهم في القضاء على دولة قرطاجة، ووجدوا فيهم العائق الأكبر في وجه التوسّع الروماني في المغرب العربي القديم، فبعد أن أصبحت روما ونوميديا (الجزائر الحاليّة) متجاورتين في الحدود، بدأت روما بالتدخّل في الشؤون الداخليّة لنوميديا لإسقاط عرشها واحتلال أراضيها، حيث بدأت روما باتباع سياسة الاحتلال التدريجي لنوميديا، وذلك باتخاذ الوصاية على العرش النوميدي[٤]. هذا يقدّم لنا الدليل على أنّ التحالف الذي حدث أثناء الحرب البونيّة الثانية قد مكّن روما من السيطرة على الدولة النوميديّة الحاكمة.

ثمّ تبع ذلك تدخّل عسكري لروما للسيطرة على نوميديا، وإزالة الدولة من خريطة أفريقيا وإقامة مقاطعة رومانيّة على ترابها سمّيت أفريقيا الجديدة.

---

[١]- زغيري: المرجع السابق،٤٦.

[٢]- زيدان: المرجع السابق،٤٢، ٤٣.

[٣]- سيّد أحمد علي الناصري: تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة السياسي والحضاري، الطبعة الثانية ، دار النهضة العربيّة ، مصر ١٩٦٣، ص ٦٧-٦٨.

[٤]- جغلول، عبد القادر: مقدّمات في تاريخ المغرب القديم والوسيط، الجزائر، دار الحداثة ١٩٨٦، ص١٣.

وأنهى الاحتلال الروماني تدخّله في المغرب العربي القديم بالقضاء على دولة موريتانيا، التي كان ملوكها أوفياء لروما من خلال تحالفهم مع الرومان على أمل أن تبقى دولة مستقلّة، لكنّ قادة الرومان لم يفوا بعهودهم، حيث قضوا على مملكة موريتانيا لتكتمل بذلك سيطرتهم على كامل تراب المغرب العربي القديم، ما عدا المناطق الجنوبيّة، التي بقيت مستعصية على الرومان، وقاد سكّانها معارك شرسة أقضّت مضاجع الرومان على مدى تواجدهم في بلاد المغرب العربي القديم[١].

ثالثاً: سلبيّات الحكم الروماني لمصر في الحياة الاقتصاديّة والاجتماعيّة

لم يمر الاحتلال الروماني لمصر من دون معارضة حقيقيّة له، فقد اشتعلت الثورات المصريّة ضدّه في كلّ من شرق الدلتا والإسكندريّة والصعيد وذلك عام ٢٩ ق.م مباشرة بعد مغادرة القائد الروماني أوكتافيانوس لمصر، لكنّ الوالي الروماني الجديد لمصر استطاع أن يقمع هذه الثورات بوحشيّة، ويثبّت سيطرة الرومان على حدود مصر الجنوبيّة، وكذلك على المنطقة الواقعة جنوب مدينة أسوان [٢].

وترتّب على احتلال الرومان لمصر وتحويلها إلى ولاية رومانيّة فقدان مصر استقلالها السياسي، وذلك على عكس ما كانت عليها خلال الحكم البطلمي، حيث كانت مصر دولة مستقلّة لها سياستها الخاصّة[٣].

لقد وضع احتلال مصر بيد الرومان أكبر مركز لإنتاج القمح، وكان القمح الذي يشكّل الجزء الأساسي من غذاء الشعب محور مزايدات فيما يتعلّق بأغلب الإجراءات السياسيّة في روما[٤].

ويمكننا هنا أن نستعرض أهمّ سلبيّات الحكم الروماني لمصر في الجانبين الاقتصادي والاجتماعي وإلى حدّ ما الإداري في النقاط الآتية:

[١]- شنتيتي، محمد البشير: أضواء على تاريخ الجزائر القديم ، بحوث ودراسات ، الجزائر دار الحكمة ٢٠١٣، ص ٧٠-٧١.
[٢]- الشيخ : المرجع السابق، ص٦١.
[٣]- الشيخ : المرجع السابق، ص٦٣.
[٤]- الشيخ : المرجع السابق، ص٦٤.

١- فرض القائد الروماني أوكتافيانوس ضريبة الرؤوس على معظم مكوّنات الشعب المصري، وبشكل خاصّ الذكور ما بين سن الرابعة عشر والستين، وكان هذا القرار هو السبب الرئيس في اشتعال ثورة ٢٩ ق.م ضدّ سلطات الاحتلال الروماني [١].

٢- كانت الأراضي الزراعيّة في مصر في عهد البطالمة تقسم إلى قسمين: أراض تعود ملكيّتها للدولة، وأراض تعود ملكيّتها للشعب، ولكن بدأ البطالمة في أواخر حكمهم يقلّصون الأراضي التي تعود ملكيّتها للشعب، ولكن عندما جاء الاحتلال الروماني توسّعت مساحة الأراضي التابعة للدولة وجيشها بشكل ملحوظ، ولم يبق بيد الشعب المصري سوى مساحات قليلة من الأراضي الزراعيّة. هنا وضحت الفكرة عن سبب احتلال مصر وبعدها سورية، وذلك لاستغلال الأراضي الزراعيّة الخصبة ومنتجاتها ونقلها إلى عاصمة الإمبراطورية الرومانيّة روما على حساب سكّان البلاد الأصليين.

٣- قيام سلطات الاحتلال الروماني في مصر بمصادرة الأراضي الزراعيّة الموقوفة على المعابد المصريّة، وكان الهدف الرئيس من ذلك القضاء على الدعامة الاقتصاديّة والإستراتيجيّة التي يستمدّ منها الكهنة المصريّون قوّتهم، والمتمثّلة في أراضيهم الزراعيّة الموقوفة على معابدهم.

٤- توزيع الأراضي الزراعيّة التابعة للدولة ومنذ بداية عصر الاحتلال الروماني- عهد أوغسطس- على الجنود الرومان، ويبدو لنا أنّ الهدف من ذلك هو ترسيخ وتثبيت أقدام الجنود الرومان في مصر ولإغرائهم بهذه الامتيازات ليبقوا فيها[٢].

٥- السماح للجنود الرومان بشراء الأراضي الزراعيّة الخاصّة والعامّة بأسعار زهيدة واستغلالها، وذلك في محاولة من سلطات الاحتلال في إنقاذ الاقتصاد الروماني المغتصب من مصر من الانهيار.

٦- أدّت هذه السياسة الرومانيّة والإجراءات الجائرة التي اتّبعتها أدواتها إلى تضخّم في الملكيّة الخاصّة حتّى ظهر ما يعرف في تلك الفترة باسم الوسية.

---

[1]- Chapot, Op. Cit, p.240

[٢]- الشيخ : المرجع السابق، ص٦٥.

٧- أدّت السياسة الاقتصاديّة الرومانيّة في مصر إلى هبوط قيمة العملة وارتفاع الأسعار بالتدريج، وأصبح التعامل على أساس عيني، وكان وقع هذه الأزمة الاقتصاديّة أكثر أثراً على سكّان المدن من سكّان الأرياف؛ لأنّ هؤلاء قد اعتادوا من قديم الزمان على التعامل بشكل عيني، وما حدث في ولاية مصر كان مثالاً لما أصاب غيرها من الولايات الرومانيّة الأخرى، وذلك بسبب الإجراءات الإداريّة التي اتبعها حكّام الإمبراطوريّة الرومانيّة [١].

٨- قيام الحكام الرومان في مصر- بناءً على توجيهات من قياداتهم في روما- بفرض ضرائب باهظة على العديد من الحرف المصريّة، وكان لهذه الضرائب نتائج سلبيّة على أصحاب هذه الحرف.

٩- ترك عدد كبير من الفلاحين المصريين – بسبب الضرائب الباهظة والمجحفة من قبل سلطات الاحتلال الروماني – أراضيهم الزراعيّة، وذلك للاختفاء من جباة الضرائب الرومان الذين كانوا يتّبعون أساليب وحشيّة أحياناً في طريقة تحصيل الضرائب المفروضة على الفلاحين المصريين.

١٠- احتفظ الرومان بالعديد من الضرائب التي كانت تطبّق في مصر أثناء حكم البطالمة، والتي كانت أساليب جبايتها أقلّ قسوة وشدّة من أيام الرومان[٢].

١١- من اللافت للنظر، أنّ جميع الضرائب التي كانت تجبى من قبل سلطات الاحتلال الروماني في مصر ترسل مباشرة إلى روما عاصمة الإمبراطوريّة، ولا يستفيد منها أبداً الشعب المصري المحكوم والمظلوم، في حين كانت دولة البطالمة تنفق هذه الضرائب داخل مصر، الأمر الذي كان يعود بالفائدة منها على البلاد والعباد[٣].

١٢- دفعت الإجراءات الإداريّة الرومانيّة المجحفة بحقّ الرعيّة المصريّة، وبشكل خاصّ الفلاحين، إلى ترك عدد من هؤلاء لأراضيهم؛ لعدم قدرتهم على دفع الضرائب الثقيلة للدولة

[1]- Chapot, Op. Cit, pp.312, 313.

[٢]- الشيخ : المرجع السابق، ص٦٦.

[3]- Chapot, Op. Cit, p.318.

الرومانيّة، ممّا شكّل خطراً على الاقتصاد المصري في العصر الروماني، وبلغ الخطر ذروته من خلال توجيه الأباطرة الرومان عن طريق حكّامهم في مصر الدعوة للفلاحين بالعودة إلى أراضيهم والعمل فيها.

١٣- أصدر الإمبراطور الروماني كاركلاّ الحمصي أثناء زيارته إلى مصر قراراً يقضي بترحيل المصريين سكّان البلاد الأصليين من مدينة الإسكندريّة، ماعدا ما تحتاجه المدينة منهم مثل: تجّار اللحوم، العاملين في السفن وخاصّة الكبيرة منها، ومتعهّدي وقود الحمّامات.

١٤- من مساوئ الحكم الروماني في مصر اجتماعيّاً قيام السلطات الحاكمة بتقسيم المجتمع المصري إلى ثلاثة أقسام وهي:

أ- الرومان ب- الإسكندرانيّون- المصريّون

وقيامها بفرض ضريبة الرأس فقط على المصريين (كما بيّنا سابقا) بعد أن أعفي منها سكّان مدينة الإسكندريّة من الإغريق الذين كانوا يدفعونها في السنوات الأولى للاحتلال الروماني، الأمر الذي يؤكّد السياسة العنصريّة للسلطات الرومانيّة في فرض الضريبة على سكّان المدن من المصريين كما هو الحال في الأرياف[١].

١٥- استمرّت أحوال المزارعين المصريين – كما هو الحال في جميع الولايات الرومانيّة الأخرى- دون تغيير جوهري في إصلاح أحوال الفلاحين فيما عدا زيادة الضرائب عليهم، وكان الجباة الرومان أكثر كفاءة من أسلافهم السلوقيين في عمليّة فرض وجباية هذه الضرائب[٢].

١٦- تمتّع جميع المواطنين الرومان المقيمين في عواصم الأقاليم الإداريّة المصريّة، وكان عددها ثلاثين إقليماً [٣]، برغد العيش، فقد كانت كلّ أسرة تمتلك منزلاً في المدينة ومزرعة في الريف على الأقلّ، وازدهرت مشروعاتهم الاستثماريّة، وقد بلغت الضرائب الزراعيّة

[١]- نافتالي، لويس: الحياة في مصر في العصر الروماني ، ترجمة آمال الروبي، مراجعة محمّد حمدي إبراهيم، عين للدراسات والبحوث الاجتماعيّة والإنسانيّة، ط١، مصر ١٩٩٧م، ص ٤٩.

[٢]- نافتالي، لويس: مرجع سابق، ص ٤٩.

[٣]- جغلول، عبد القادر: التغيرّات الاجتماعيّة والاقتصاديّة في المغرب أثناء الاحتلال الروماني، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر ١٩٨٤م، ص ٣٣-٣٤.

لأحد ضياع مواطني أحد عواصم الأقاليم ١٥٪ من مجموع ضرائب القرية بأكملها[١].

١٧-استمرّت الدولة الرومانيّة في شراء العبيد وجلبهم إلى مصر للعمل في الأراضي الزراعيّة وذلك من جميع أنحاء الإمبراطوريّة، حيث بيّنت لنا أوراق البردي أسماء المناطق التي كانت الدولة الرومانيّة تشتري العبيد منها وهي: تراقيا- فريجيا- أووسيروبيا- بامفيليا- بلاد العرب- أثيوبيا وموريتانيا[٢].

١٨- قامت السلطات الإداريّة الرومانيّة في مصر بتشجيع الأشخاص الذين التقطوا المواليد الذين كان أهليهم يرمونهم في أكوام السماد، وأصدرت أوامرها بتحويلهم إلى عبيد ـ أي سياسة جائرة بحقّ البشر ـ وفرضت عقوبات رادعة بحقّ من يقوم بتبنّيهم وتحويلهم إلى أبناء وبنات[٣].

رابعاً: سلبيّات الحكم الروماني لشمال أفريقيا اقتصاديّاً واجتماعيّاً

اضطهد الرومان سكّان شمال أفريقيا بقراراتهم المجحفة بحقّ الأهالي منذ سقوط دولة قرطاجة ونوميديا، ولكن ظهرت هذه الإجراءات بشكل أسوأ مع أزمة القرن الثالث الميلادي الاقتصاديّة، فقد احتفظت لنا كتب المعاصرين للقرن أو شهود هذا القرن والمؤرّخين الرومان أمثال: هيروديان وديوكاسيوس صورة حقيقيّة عن الاضطهاد الذي ذاق الناس مرّه، وبشكل خاصّ في شمال أفريقيا ومصر، المموّلين الرئيسيين لروما في الحبوب المختلفة، وخاصّة القمح والشعير.

وتميّزت سنوات كثيرة من القرن الثالث الميلادي بانتشار الأوبئة الفتّاكة والحروب الطاحنة، وسوء التغذية والأعمال المرهقة، وهلاك خلق كثير من جراء الطاعون وغيره، وهروب الكثير من الناس من المدن والقرى طلباً للنجاة بأنفسهم من اضطهاد الحكام الرومان والأوبئة الفتّاكة، فتزايدت مساحات الأراضي المجدبة يوماً بعد يوم، وأهملت أعمال الريّ

[١]- فترف، دوستو: تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة الاجتماعي والاقتصادي، الجزء الأوّل، ترجمة زكي علي ومحمّد سليم سالم، مكتبة النهضة المصريّة بدون تاريخ، ص ٤٧٦.

[٢]- جغلول، مرجع سابق، ص ٣٨.

[3]- Julien, Charles André : Histoire de l’Afrique du Nord , tome 1 des origine à la conquete arabe, payot, Paris 1986, p.104.

والصيانة، وتقلّصت القدرة الإنتاجية للأراضي الزراعيّة، وحدث القحط، وحاولت السلطات الحاكمة في شمال أفريقيا تفادي هذه الكوارث بإجراءات وقائيّة مثل: وضع أسرى الحرب في المؤسّسات الإنتاجيّة، فلاحيّة كانت أم حرفيّة، ومنع الفرار من المؤسّسات الزراعيّة وغيرها، واعتبار الفرار جريمة يعاقب عليها القانون[١].

كان جهاز الأنونا الروماني (المؤونة) يملك أسطولاً بحريّاً يضمن نقل احتياجاته من ولايات ما وراء البحر، وخاصّة من ولايتي شمال أفريقيا ومصر، وجاهرت الدولة الرومانيّة في زيادة الضرائب المرهقة على الفلاحين في شمال أفريقيا، وتعسّف موظّفيها، ومبالغتهم في جبايتها، ممّا أرهق كاهل الفلاح المغربي ودفعه إلى ترك أراضيه والالتجاء إلى الجبال والصحارى، وعلى مرأى ومسمع الحكّام الرومان الذين لم يرق قلبهم إلى وضع الفلاح المغربي، ومطالبة حكومتهم بتخفيف الضرائب[٢].

ويبدو لنا أنّ هذا الضغط الكبير على صغار الفلاحين المغاربة ساهم به كبار الملاّكين الذين استغلّوا الظروف الطبيعيّة التي تعاني منها منطقة شمال أفريقيا، وذلك في محاولة لزيادة ثرائهم على حساب الفلاحين عن طريق ضمّ أراضيهم؛ لعجزهم عن دفع ضرائبهم بسبب سنوات القحط والكوارث الطبيعيّة، والأوبئة القاتلة، وخاصّة الطاعون والملاريا. ولعلّ الأسقف الأفريقي فيريانوس قد أحسن التعبير عن هذه الظاهرة بقوله: «... يضيف الأغنياء أملاكاً لأملاكهم، ويطاردون الفقراء على حدودهم، وتتّسع أراضيهم بلا قياسات ولا حدود...»[٣]. وأضاف الأسف الأفريقي الورع الذي كان مندهشاً ممآ آلت إليه الأمور فأضاف قائلاً: «نضبت مناجم الفضّة والذهب.......، أصبحت الأراضي أقلّ خصوبة والمنتجات الفلاحيّة في تناقص...»[٤].

فقد ارتفع سعر القمح بشكل كبير في شمال أفريقيا، حيث اعتبر الرومان شمال أفريقيا ـ كغيرها من المستعمرات مثل مصر وسورية ـ كمستعمرة للاستغلال والعمران، فقد كان التنافس واضحاً على الأراضي الزراعيّة الأفريقيّة من قبل الراغبين في استثمارها من أصحاب

---

[1]- Julien., Op. Cit,, p.184.

[٢]- جغلول، مرجع سابق، ص٣٧.

[3]- Julien., Op. Cit,, p.108.

[٤]- جغلول، مرجع سابق، ص٥٢.

الرأس المال الرومان، وذلك منذ القضاء على دولة قرطاجة عام ١٤٦ ق. م[١]. وقد تمكّنت هذه المجموعة من المستثمرين الرومان من امتصاص ثروات شمال أفريقيا الزراعيّة دون رقيب أو حسيب وعلى مدى قرن من الزمن، وعارض هؤلاء المستثمرون الرومان وبوسائل متعدّدة سياسة الدولة الرامية إلى استيطان أفريقيا استيطاناً رسميّاً منظّماً، فقد تمكّنوا من إفشال حملة الاستيطان الكبرى التي تزعّمها نائب العوام كيوسغراكوس عام ١٢٢ ق.م، وهكذا صفا لهم الجوّ، وتابعوا استثماراتهم في أراضي ولاية أفريقيا الشماليّة وخارجها دون عائق ومراقبة [٢].

قدّر عدد الرومان الإيطاليين في الولاية الأفريقيّة وحدها في عام ٤٦ ق. م باثنى عشر ألف شخص، كانوا جميعاً تقريباً يمارسون مهمّة الإشراف على استغلال الأراضي وجمع محاصيلها، وتنظيم عمليّات شحنها وتصديرها إلى أسواق روما كي تصل عائداتها إلى جيوب أسياد روما المقيمين فيها[٣]، وكان كلّ ذلك على حساب فقر ومعيشة الفلاحين المغاربة المسحوقين من هذه السياسة الاستعماريّة الجائرة. ودفع هذا التنافس المستمرّ بين المستثمرين الرومان الإمبراطور الروماني تيبريوس إلى توسيع حدود الولاية الرومانيّة الأفريقية نحو الجنوب، وذلك بضمّ أراضي القبائل النوميديّة المنتشرة إلى الشرق من جبال الأوراس، وهذا ما أثبته مقاومة تلك القبائل للتوسّع الروماني على حساب أراضيها، وأعلنت المقاومة بقيادة تاكفاريناس الذي اشترط على الإمبراطور الروماني إمكانيّة وقف المقاومة في حال أعاد الإمبراطور الأراضي التي احتلّها جيشه، ولكنّ الإمبراطور الروماني رفض إعادة الأراضي التي استولى عليها جيشه، وفضل الاستجابة لرغبات الطامعين الرومان في توسيع رقعة استغلال واستثمار الأراضي الأفريقيّة مهما كانت الظروف ومهما كلّفت من ثمن [٤].

واعتمدت السلطات الإداريّة الرومانيّة في الولاية الأفريقيّة أسلوباً استعماريّاً جديداً وفعّالاً يقوم على مسح الأراضي وتنظيمها واستثمارها واستعمارها؛ وذلك من أجل الاحتفاظ بهذا الأراضي وإلى الأبد، ضاربة عرض الحائط بالمقاومة الأفريقيّة التي طالبت باستعادة أراضيها المغتصبة بقوّة السلاح.

---

[١]- جغلول، مرجع سابق، ص٥٥.

[٢]- دستو، مرجع سابق، ص٤٨٢.

[٣]- جغلول، مرجع سابق، ص٦٢.

[٤]- الشيخ، مرجع سابق، ص٧٧.

وكان المكلّفون بمساحة هذه الأراضي- من موظّفي الإدارة الاستعماريّة الرومانيّة- يسيرون خلف جيش احتلالهم، ويقومون بمسح الأراضي التي يستولي عليها الجيش من أصحابها بالقوّة، ويقومون بتقسيمها إلى قطع متساوية كي يسهل توزيعها على المستثمرين وتأجيرها، مضيفين بذلك طابعاً قانونيّاً على الأراضي المحتلّة وتجزئتها، وكان المستفيدون الأوائل من سياسة التقسيم الجنود الرومان المتقاعدين الذين كان الإمبراطور يمنحهم الأراضي القريبة من المدن ذات الموقع الاستراتيجي وفقاً للضرورة العسكريّة [١]. كما أطلقت الدولة الرومانيّة أيدي كبار المموّلين في أراضي الولاية الأفريقيّة المعروفة بخصوصيّتها النادرة وبمردودها الكبير بقصد استثمارها والإكثار من إنتاجها، وهذا ما ساهم في انخفاض سعر الغلال عند إرسال المحصول الأفريقي إلى أسواق روما وإيطاليا [٢].

يرى بعض المؤرّخين أنّ السرّ في احتلال نوميديا عام ٤٦ ق.م من قبل الرومان ثمّ موريتانيا يكمن في الاعتبارات السالفة الذكر، إذ كان على الرومان التوسّع في الاستيلاء على الأراضي الأفريقيّة ووضعها أمام الاستثمارات الرومانيّة بدون أدنى تحفّظ، كما كان من واجب الدولة الرومانيّة أن تعمل على توفير الأمن في هذه الأراضي، وتسهّل على المؤسّسات الرومانيّة عمليّة الاستثمار وإنجاز مهامها على أكمل وجه وبشكل مرض للحكومة الرومانيّة [٣].

كما اتّبعت سلطات الاحتلال الروماني مع أصحاب الأراضي الشرعيين سياسة تتوافق ومتطلّبات فكرها الاستعماري، فانتزعت منهم الأراضي عنوة، وقامت بترحيل القبائل الكثيرة من الأراضي الخصبة التي ترنو عين المستعمرين إليها، وهذا ما حدث مع قبائل كثيرة في الجنوب النوميدي مثل قبيلة موزولاملي، والتي قام الجيش الروماني بتشتيت أفرادها إلى أقاليم سهبيّة فقيرة، وكذلك فعل مع قبيلة نوميديا بإقليم مداوروش وحيدره التي نقلت وطردت من أراضيها إلى مناطق أخرى في جنوب الولاية الأفريقيّة، وكذلك قبيلة النبجني التي كانت تقطن جنوب الولاية الأفريقيّة فقام الاستعمار الروماني بتشتيت شملها وتوزيع أراضيها على المستثمرين الرومان[٤].

---

[١]- نافتالي، مرجع سابق، ص٧٥.

[٢]- جغلول، مرجع سابق، ص٦٦.

[٣]- شنتيتي، مرجع سابق، ص١٣٧، ١٣٨.

[٤]- روستوف، مرجع سابق، ص٣٧٥.

وقام الاستعمار الروماني في ولاية أفريقيا بتقسيم الأراضي التي استولى عليها من القبائل عنوة إلى قسمين:

القسم الأول: بقي بيد القبائل الأفريقيّة (وهي الأراضي الأقلّ جودة في إنتاجها) التي كانت تقيم عليها كيانها المتداعي، ذلك الكيان الذي ما لبث أن انهار بفعل ابتلاع المؤسّسات الزراعيّة الاستعماريّة لليد العاملة الموجودة داخل الحدود.

القسم الثاني: وهو من أخصب وأوسع الأراضي الأفريقيّة حيث قسم إلى مساحات كبيرة، وأخذت عائلة الإمبراطور منها ما رغبت، باعتبار هذه الأراضي أخذت بقوّة السلاح من أصحابها وتحت لواء الإمبراطور، كما أخذت العائلات الأرستقراطيّة من طبقة الشيوخ ما طاب لها من هذه الأراضي الخصبة لاستغلالها تحت نظام الحيازة، بالإضافة إلى ذلك قام الإمبراطور الروماني بمنح جزء من هذه الأراضي إلى جنوده القدماء ليقيموا عليها مستعمراتهم الخاصّة، وربمّا تمكّن قسم من أعيان الأهالي من أخذ قسم من هذه الأراضي واستثمارها نيابةَ عن الإمبراطور الروماني[١].

وكانت الصفة القانونيّة للأراضي الرومانيّة الواقعة خارج إيطاليا تتمثّل في كونها ملكاً للشعب الروماني، ويحدّد القانون الروماني هذه الأراضي بأنّها أراضي الأعداء المهزومين[٢]. بهذا الوصف تدخل الأراضي في المغرب القديم ضمن أملاك الدولة الرومانيّة، وهي عبارة مرادفة لأملاك الشعب مع بعض الاستثناءات القليلة، كأراضي المدن الحرّة التي تحالفت مع الرومان أثناء حربها ضدّ دولة قرطاجة وخاصّة في الحرب البونيّة الثالثة التي أسقطت الدولة.

ونختم هذه السياسة الزراعيّة الرومانيّة الاستعماريّة، أنّه بمصادرة هذه الأراضي من أصحابها الأصليين أصبحت أراضي الولاية الأفريقيّة- التابعة لروما- عنصراً مهمّاً من عناصر الاستثمارات التي نشطت بالقيام فيها طبقة من الأثرياء الرومان الكبار، الذين وصفهم المؤرّخ ليون هومو بالإمبرياليين[٣].

[1]- Julien., Op. Cit,, p.247.

[2]- Picord: La civilisation de là l'Afrique romaine , Paris 1959, p. 66.

[3]- L, Homo: L'Italie primitive et le début de l'impérialisme romaine, Paris 1953, p. 318.

خاتمة

قامت سلطات الاحتلال الروماني في كلّ من ولايتي مصر والمغرب العربي (شمال أفريقيا) باتّباع سياسة زراعيّة جائرة في مصادرة أراضي الفلاحين الخصبة الصالحة للزراعة، وخاصّة القمح، لتغذية عاصمة الإمبراطوريّة الرومانيّة روما، ممّا انعكس سلباً على حياتهم المعيشيّة، فأمسوا غرباء في بلادهم.

ولم تسلم الأراضي التابعة للمعابد المصريّة من السياسة الرومانيّة الجائرة في المصادرة لصالح السلطات الرومانيّة الحاكمة.

لقد دفعت هذه السياسة الزراعيّة الرومانيّة إلى فرض ضرائب ثقيلة أرهقت كاهل المواطنين، فتمّردوا في ثورات عارمة قمعت بالحديد والنار بوحشيّة تامّة.

ولم يراع الرومان سنوات الجفاف والأزمات الماليّة من أجل التخفيف عن كاهل المواطنين في هاتين الولايتين، بل اتّبعوا معهم أساليب قاسية في جمع الضرائب.

كانت السفن الرومانيّة تمخر موانئ مصر والمغرب العربي محمّلة بالقمح لإطعام سكّان العاصمة الرومانيّة، على حساب سكّان هاتين الولايتين، دون مراعاة سنوات الجفاف والقحط والكوارث التي قد تتعرّض لها.

بالتأكيد كانت السلطات الرومانيّة الحاكمة تعتمد على بعض المواطنين الأصليين في هاتين الولايتين وتسخيرهم في خدمتها (وهم قلّة قليلة)، حيث كانوا عملاء وأذناباً للمستعمر على أبناء بلادهم، وضدّ مصالح أوطانهم.

لائحة المصادر والمراجع

١. أحمد، عبد اللطيف: مصر والإمبراطوريّة الرومانيّة في ظلّ الأوراق البرديّة.

٢. الشيخ، حسين: مصر تحت حكم اليونان والرومان، دراسات في تاريخ الحضارة القديمة، جامعة الإسكندريّة، كليّة الآداب ١٩٩٧.

٣. جلغول، عبد القادر: مقدّمات في تاريخ المغرب العربي القديم والوسيط، الجزائر ، دار الحداثة ١٩٨٦.

٤. جغلول، عبد القادر: التغيّرات الاجتماعيّة والاقتصاديّة في المغرب أثناء الاحتلال الروماني، الجزائر، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب ١٩٨٤.

٥. زغيري، أحمد: المقاومات المغاربيّة القديمة ضدّ الاحتلال الروماني في نوميديا، المغرب ٢٠٢٠-٢٠٢١.

٦. زيدان، جرجي: خلاصة تاريخ اليونان والرومان ، مصر مؤسّسة هنداوي للتعليم والثقافة، بون تاريخ.

٧. سيّد أحمد علي، الناصري : تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة السياسي والحضاري، الطبعة الثانية ، دار النهضة العربيّة مصر ١٩٦٣.

٨. شنتيني، محمّد البشير: أضواء على تاريخ الجزائر القديم، بحث ودراسات، الجزائر، دار الحكمة ٢٠١٣.

٩. فترف، دوستو: تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة الاجتماعي والاقتصادي، الجزء الأوّل، ترجمة زكي علي، محمّد سليم سالم، مصر، مكتبة النهضة المصريّة، بدون تاريخ.

١٠. نافتالي، لويس: الحياة في مصر في العصر الروماني، ترجمة الدكتورة آمال الروبي، مراجعة محمّد حمدي إبراهيم، الطبعة الأولى ١٩٩٧، مصر، عين للدراسات والبحوث الاجتماعيّة والإنسانيّة.

١١. محمّد الهادي، الشريف: تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، الطبعة الثالثة ، تعريب الشاوش محمّد وعجيبة محمّد ، تونس، مؤسّسة دار السراس، بدون تاريخ.

المراجع الأجنبيّة

1. Chapot, Victor:L'Egypte Romaine , histoire de la nation egyptienne, tome 3, Paris, sans date.
2. Julien, Charles André: Histoire de l'Afrique du Nord des origine à la coquetearabe, Tome 1, Payot Paris 1986.
3. L, Hamo: L'Italie primitive et le début de l'impérialisme romaine, Paris 1953.
4. Picord: La civilisation de l'Afrique romaine, Paris 1959.

الصراع بين الشرق والغرب
(دراسة نقديّة للصراع الفارسي الروماني والصراع التدمري الروماني)
الخلفيّات والأهداف والنتائج

عمّار محمد النهار[١]

مقدّمة

يلخّص هذا البحث الأطماع الاستعماريّة الرومانيّة في الشرق القديم، سواء في عصر الجمهوريّة أم في عصر الإمبراطوريّة الرومانيّة، تلك الأطماع التي تمثّلت في رغبة أقوى وأكبر دولة في العالم القديم، في قضم مزيد من الأراضي، وضمّ مستعمرات جديدة لها في بلاد الرافدين وأرمينيا والهضبة الإيرانيّة. ولئن كانت جميع شعوب الأرض قد خرَّت راكعة أمام سطوة روما الاستعماريّة، إمّا أمام قوّة النار والحديد كما حدث في قرطاجة وسورية ومصر، وإمّا بالخنوع والخضوع كما حدث مع أتالوس الثالث Attalus III ملك برغامون Pergamun (على الشاطئ الغربي لآسيا الصغرى)، وهو الذي كان قد أوصى بمملكته لروما بعد موته، لكن قُدِّر لروما في هذه المرّة قوّة فتيّة استطاعت أن تمُرِّغ أنف روما في التراب، وقضت على أحلامها في التوسّع شرق الفرات، فعلى الرغم من أنّ الفرس لم يكن لهم أيّ نيّة في حرب الرومان، القوّة العظمى في العالم القديم، حسب شهادة سترابون الجغرافي الروماني في الهوى والشعور، إلّا أنّ مطامع روما فرضت حتميّة المواجهة على طول نهر الفرات لسنوات طويلة. وهكذا فإنّنا سنقوم بتتبّع التسلسل التاريخي للأحداث للوقوف على ظروف كلّ مناسبة.

---

[١]- رئيس قسم التاريخ في جامعة دمشق.

المبحث الأوّل: الصراع الفارسي الروماني

أوّلاً: الدولة الفرثيّة

الفرس هم من الأقوام الهندو - أوروبيّة، سكنوا الرقعة الممتدّة شرق جال زاغروس، التي تفصل بلاد الرافدين Mesopotamia عن الهضبة الإيرانيّة. أسقط الإسكندر الثالث Alexander III (٣٥٦- ٣٢٣ ق.م) إمبراطوريّتهم الأخمينيّة سنة ٣٣٣ ق.م، وفي منتصف القرن الثالث قبل الميلاد عاد الفرس واتحدوا بزعامة الأسرة الفرثيّة- الإيرانيّة، وشكّلوا مملكة جديدة امتدّت حدودها من الفرات إلى الهند، ومن المحيط الهندي إلى بحر قزوين[١].

وسرعان ما مدَّ الفرثيّون نفوذهم إلى بلاد الرافدين ودخلوا عاصمتها (سلوقية دجلة)، مستغلّين ضعف الدولة السلوقيّة (التي كانت تحكم سورية وبلاد الرافدين)، إلاّ أنّهم لم يرغبوا في الإقامة فيها، «**وعلى مقربة منها تقع مستوطنة كبيرة تدعى طيسفون، وقد جعل الملوك الفرثيّون من هذه المستوطنة عاصمتهم الشتويّة... لكن جبروت الفرثيين حوَّل المستوطنة إلى مدينة كبيرة فيها أعداد كبيرة من السكان، وبنى فيها الملوك لأنفسهم أبنية ضخمة**»[٢].

كما تمكَّن الفرثيّون من وضع يدهم على الطريق التجاري العظيم عبر قارة آسيا؛ من الصين إلى البحر المتوسّط، وهو الطريق الذي اشتهر بتجارة الحرير والتوابل. وتجدر الإشارة إلى أنّ أوّل سفارة استقبلها العاهل الفرثي هي سفارة صينيّة قدمت إلى بلاد فارس عن طريق باكتيرية[٣].

ثانياً: الاتصال الأوّل بين الرومان والفرس

لقد كانت سياسة الدولة الرومانيّة تهدف إلى الحيلولة دون قيام أيّ دولة قويّة مجاورة لأملاكها في آسيا الصغرى، خوفاً من أن يتزايد نفوذ تلك الدولة، وبالتالي تشكّل خطراً على

---

[١]- نعيم فرح، تاريخ بيزنطة السياسي، ط٤، منشورات جامعة دمشق، دمشق، ٢٠٠٦م،ص٦٩.

[٢]- سترابون، الجغرافيا، الكتاب ١٦، الفصل ١، الفقرة ١٦، ترجمة حسان إسحق، منشورات دار علاء الدين، دمشق ٢٠١٧م.

[٣]- محمّد حرب فرزات، مدخل إلى تاريخ فارس وحضارتها القديمة، منشورات جامعة دمشق، دمشق، ٢٠٠٥م، ص١٣٦.

روما ومصالحها في الشرق، لذلك أرسلت سنة ٩٢ق.م القائد الروماني المعروف سولا Sulla (٩٣- ٧٨ ق.م) لمحاربة مثراداتيس Mithradates السادس ملك بونتوس Pontus على البحر الأسود، وطرده من إقليم كبدوكيا. ولمّا علم الملك الفرثي مهرداد الثاني بقدوم القائد الروماني سولا نحو الشرق سارع إلى إرسال رسوله المسمّى أروبازوس Orobazos ليعرض عليه إقامة معاهدة تحالف وصداقة بين الطرفين، فكان ذلك أوّل اتصال رسمي بين الفرثيين والرومان، وقد جعلنا من سنة هذا اللقاء ٩٢ ق.م السنة التي يبدأ بها البحث.

ومهما يكن من أمر، فإنّ القائد الروماني سولا لم يعر رسول الملك الفرثي أهمّية تذكر؛ ذلك أنّه لم يحصل من مجلس الشيوخ الروماني على أمر لإقامة مثل ذلك التحالف من ناحية قانونيّة، كما أنّه (أي سولا) لم يكن يرغب في عقد مثل ذلك التحالف، مدفوعاً بصلفه وغروره على المستوى الشخصي، كما أنّه كان يؤمن بقوّة الدولة الرومانيّة وقدرتها على مواجهة ما يعترضها من أخطار[١]. ولو عقد هذا التحالف وقامت الصداقة بين القوّتين العظميين، اللتين تنازعتا سيادة العالم القديم، لوفَّر ذلك الأمر على الرومان آلاف القتلى والجرحى والمصابين ومئات الأسرى.

ثالثاً: حتميّة المواجهة

لقد كانت الأطماع الاستعماريّة للدولة الرومانيّة لا تعرف حدًّا، فبعد أن سيطروا على الحوض الغربي للبحر المتوسّط بنهاية الحروب البونيّة (٢٦٤ – ١٤٦ ق.م)، سيطروا على شرق المتوسّط، بعد أن تمكّن القائد الروماني بومبي (١٠٦ – ٤٨ ق.م) من إسقاط الإمبراطوريّة السلوقيّة سنة ٦٤ ق.م. وهكذا ورث الرومان الموقف السلوقي في الجبهة الشرقيّة[٢]، وصار نهر الفرات يمثّل الحدّ الفاصل بين روما والفرس، ويصف لنا سترابون واقع الحدود فيقول: «يشكّل الفرات والمناطق الواقعة منه على الجانب الآخر حدود الدولة الفرثيّة، أمّا الأراضي الواقعة على هذا الجانب منه فهي للرومان ولزعماء القبائل العربيّة

[١]- ميثم النوري، العلاقات الفرثيّة الرومانيّة ٢٤٧ ق.م- ٢٢٦م، دار مكتبة عدنان، بغداد، ٢٠١٧م، ص٤٠.

[٢]- محمّد حرب فرزات، مدخل إلى تاريخ فارس، م.س، ص١٣٨.

وصولاً إلى بابل»[١]. وقد نجم عن هذا التغيرّ الكبير في خارطة المنطقة، وانقسام المشرق القديم بين القوّتين القائمتين في المنطقة، روما من جهة وفرثيا من جهة أخرى، حتميّة المواجهة على امتداد جبهة طويلة كان نهر الفرات واجهتها الإستراتيجيّة[٢].

فروما لم تتوقّف راضية عند هذا الحدّ، فذكرى مجد الإسكندر المزعوم تراود مخيلة معظم ضبّاط جيشها وقادته، وروما لا تجهل خصوبة العراق ووفرة تجارته، حيث تنتهي له معظم طرق تجارة الشرق الأقصى، هذا بالإضافة إلى أنّ تجربتها في الشرق قد أتاحت لها تقدير الخطر الذي تمثّله فارس على ممتلكاتها في ولاية سورية الرومانيّة، لذلك ستقوم روما بعدّة محاولات لاستعادة إرث الدولة السلوقيّة منذ عهد باكر. وإن كان بومبي بصيراً واكتفى بالمساومات، فإنّ غيره امتثل لسياسة روما الاستعماريّة دون حساب عواقب مغامراته. أمّا الفرس فقد تصدّوا لهذه الأطماع الرومانيّة الاستعماريّة، وأذاقوا روما هزيمة قاسية ومرّغوا أنفها في التراب، ولم يسمحوا لها أن تتوسّع أبعد من نهر الفرات[٣]. وسيتمحور بحث العلاقات الفارسيّة – الرومانيّة كلّه حول الأطماع الرومانيّة في الشرق وتصدّي الفرس لها.

إذا كان من الطبيعي أن تؤدّي سياسة الدولة الرومانيّة التوسعيّة وأطماعها الاستعماريّة إلى اصطدام محتّم بالفرس الفرثيين[٤]، ومثلما كان الرومان يطمعون بمزيد من الأراضي شرق الفرات، ويرنون ببصرهم للوصول إلى حرير الصين مباشرة، دون وساطة فارسيّة، كان الصينيّون في المقابل يتطلّعون لطرح بضائعهم في أسواق البحر المتوسّط، دون مكوس وضرائب فارسيّة، ويبدو أنّ الفرس الفرثيين الذين سيطروا على طريق الحرير المشهور، قد ساورتهم شكوك حول تحالف صيني روماني محتمل، يمكن أن يضعهم بين فكيّ الكماشة، فسعوا إلى استخدام كلّ وسيلة لإحباطه[٥].

---

[١]- سترابون، الجغرافيا، الكتاب ١٦، الفصل ١، الفقرة ٢٨.

[٢]- محمّد حرب فرزات، مدخل إلى تاريخ فارس،م.س، ص١٣٦.

[٣]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام، ج٢، روما وإمبراطوريّتها، ترجمة فريد داغر وفؤاد أبو ريحان، ط٢، منشورات عويدات، باريس-بيروت، ١٩٨٦م، ص١٠٤.

[٤]- محمّد حرب فرزات، مدخل إلى تاريخ فارس، م.س، ص١٣٨.

[٥]- محمود فرعون، وأرواد العلان، دراسات في تاريخ فارس وحضارتها حتّى الفتح العربي، منشورات جامعة دمشق، دمشق، ٢٠١٢م، ص٢١٢.

وتجدر الإشارة إلى أنّه على الرغم من انتصارات الرومان العسكريّة، وتمكّنهم من السيطرة على منطقة شرق المتوسّط، إلّا أنّه كانت تواجههم عدّة إشكالات سياسيّة، داخليّة وخارجيّة، شكّلت ضغطاً حقيقيّاً على الدولة الرومانيّة، لذلك لم تكن هذه المنطقة لتقبل بسهولة سيادة الرومان عليها بقوّة السلاح. وهكذا وجد الرومان صعوبات شتّى في عمليّاتهم الحربيّة في شرقي البحر المتوسّط، وبخاصّة في منطقة أرمينيا وبنتوس وفرثيا وسورية؛ وذلك لأنّ هذه المناطق كانت ماتزال مراكز للفكر والحضارة رغم ضعفها في المجال السياسي[١].

رابعاً: العلاقات الفارسيّة - الرومانيّة في عصر الجمهوريّة الرومانيّة

١. الصدام الأوّل بين الفرس والرومان سنة ٥٣ ق.م

يؤكّد لنا سترابون أنّه لم يكن عند الفرثيين أيّ رغبة في إثارة العداوة مع الرومان، الذين كانوا يشكّلون الدولة العظمى في العالم القديم آنذاك، «**بل سعوا من قبل إلى إقامة علاقات صداقة مع الرومان، بيد أنهم أُرغموا على الدفاع عن أنفسهم ضدّ كراسوس الذي بدأ حربه معهم**»[٢].

فإذا كان الفرثيّون لا يرغبون في عداوة الرومان، وكراسوس هو الذي شنّ الحرب عليهم، فما هي دوافع هجوم كراسوس على الدولة الفرثيّة؟ لقد كانت الدولة الرومانيّة تمرّ بمرحلة دستوريّة حرجة، فبعد أن فرض ثلاث شخصيّات متنفّذة فيها سطوتهم على الدولة، وهم: بومبي صاحب المجد الحربي والشهرة العسكريّة، وكراسوس صاحب الثروة الضخمة، ويوليوس قيصر صاحب العقل المدبّر والطاقة التي لا تنضب. وكان القاسم المشترك بينهم هو عداء مجلس الشيوخ، وشكّلوا ما يعرف بالتاريخ الروماني بالحكومة الثلاثيّة الأولى، واستبدّوا بالدولة وتقاسموا ولايتها، فكانت سورية من نصيب كراسوس[٣]، ولمّا كان كراسوس يرغب في الحصول على مجد عسكري وتخليد تاريخي يوازي ما حصل عليه

[١]- وفاء الساعدي، النتائج السياسيّة للتوسّع الروماني في شرق البحر المتوسط، مجلّة بحوث الشرق الأوسط، العدد ٣٨، ج١، د.ت، ص٣٤١.

[٢]- سترابون، الجغرافيا، الكتاب ١٦، الفصل ١، الفقرة ٢٨.

[٣]- مصطفى العبادي، مذكّرات في التاريخ الروماني، جامعة بيروت العربيّة، بيروت د.ت، ص٩٧.

القائد بومبي، قام في صيف سنة ٥٤ق.م بالإغارة على الأراضي الفرثيّة، ربمّا قصد منها استطلاع قوّة عدوّه والوقوف على مدى استعداداته الحربيّة، إذ تذكر المصادر أنّه اكتفى بتخريب موضع فرثي على الحدود، ثمّ عاد في السنة نفسها إلى سورية ليقضي فصل الشتاء في عاصمتها أنطاكيا[١].

أمّا في السنة التي تلتها؛ فقد تقدّم كراسوس بجيش مكوّن من أربعة فرق عسكريّة، لمحاربة الفرثيين والاستيلاء على عاصمتهم وتخريبها، وهكذا جرّ كراسوس على نفسه قتالاً كان هو بغنى عنه. ويبدو أنّ الفرثيين كانوا مستعدّين لتلك المعركة استعداداً تامّاً، وقد انطوت خطّة القائد سورينا Surenas الذراع الأيمن للملك الفارسي، على إخفاء القسم الأكبر من الجيش وأسلحته والخروج للعدو بعدد قليل، وقد ظنّ كراسوس بأنّه سيحسم المعركة لصالحه في وقت قصير، لذلك أوعز إلى جيشه بأن يبدأ الحرب، وما إن تحرّكت صفوف الجيش الروماني حتّى تعالت دقّات طبول الجيش الفرثي التي كان لها الأثر الكبير في إرباك صفوف الجيش الروماني، وتجمّع الفرسان المختبئون من كلّ جانب وأحاطوا بالمربّع الروماني قبل أن ينتبه لهم الرومان، وأدرك هنا كراسوس خطر الفرثيين، وأعطى أوامره للمشاة ببداية الهجوم، غير أنّهم ما إن تقدّموا حتّى انهالت عليهم السهام الفرثيّة كالمطر فاضطروا إلى الانسحاب، وكان ذلك أوّل مظاهر الخلل في الجيش الروماني.

وبينما كان القتال على أشدّه وصل لمساعدة كراسوس ابنه فابيوس Fabius على رأس جيش مكوّن من ستة آلاف مقاتل من الجنود الغاليين، وعلى الرغم من استبسال الغاليين في القتال إلّا أنّ الفرثيين أبادوهم، فلم يبق منهم إلّا عدد قليل جداً، ولمّا رأى فابيوس ما حلّ بفرقته أمر أحد جنوده بقتله تخلّصاً من العار متجنّباً قتله من قبل الفرثيين، ولم يستمر الأمر طويلاً فسرعان ما قُتل فابيوس، ولم يعرف من قتله، أهو أحد جنوده أم أنّه قضى بسيوف الفرس، وقد زاد هذا النصر من عزيمة الفرس وشجّعهم على مواصلة القتال وتضييق الخناق على الجيش الروماني، وقاموا بإطلاق الهتافات متفاخرين بأنّهم سوف يتكرّمون على كراسوس بليلة واحدة يبكي فيها ابنه، وأنّهم لن يتوقّفوا عن القتال إلّا إذا توجّه كراسوس

[١]- ميثم النوري، العلاقات الفرثيّة الرومانيّة، م.س، ص٥٥.

بنفسه إلى ملكهم أرد الأوّل ليطلب منه الصلح، وهم يعلمون أنّ ذلك لن يحدث[١].

عندما أحسّ كراسوس بقوّة خصومه انسحب من أرض المعركة بانتظام، حيث لم يجد قادة الجيش الروماني مخرجاً لهم للتخلّص من هجمات الفرسان الفرثيين سوى الانسحاب صوب الشمال، أي إلى أرمينيا Armenia، فصدرت الأوامر للجنود في الانسحاب، وحرصوا على أن يتمّ ذلك ليلاً، وأن يسيروا بحذر حتّى لا يُشعروا الفرثيين بانسحابهم ومن ثمّ يتعقّبونهم، وقد واجه الجيش الروماني في انسحابه صعوبات كبيرة أجبرته على تغيير خطّة سيره، فقسم منهم على رأسه كراسوس وصلوا إلى مدينة حرّان، وقسم آخر وكان يقودهم فارغينتيوس Varghintius ضلّوا الطريق، فتمكّن الفرثيّون من اللحاق بهم، وفتكوا بهم، ولم يتمكّن النجاة منهم إلاّ عدد قليل جداً بلغ نحو عشرين رجلاً وصلوا بشقّ الأنفس إلى حرّان.

ولمّا علم القائد سورينا بنجاة كراسوس قام بتدبير مؤامرة للإيقاع به، إذ دعاه إلى الاجتماع، واشترط أن يكون اللقاء لتوقيع اتفاقيّة الصلح في حرّان بالقرب من نهر البليخ[٢]، فوقع كراسوس في الشرك المنصوب له، ولا أحد يعرف كيف كانت نهايته في خيمة الاجتماع، ويبدو أنّ كراسوس لم يكن مطمئناً لنوايا سورينا فأوعز لقادة الجيش باللحاق به، إلاّ أنّ ذلك لم ينفعه، فمن المؤكّد أنّ سورينا قتله ثمّ قطع رأسه وأرسله إلى بلاط الملك الفارسي،و كان ذلك في التاسع من حزيران سنة ٥٣ ق.م، وهكذا لم تدم مدّة ولاية كراسوس على سورية أكثر من سنة واحدة (٥٤- ٥٣ ق.م)[٣].

وتتحدّث كتب التاريخ أنّ رأس كراسوس حُمل إلى أرد الأوّل، الذي كان في ذلك الوقت في أرمينيا يحتفل بزواج ابنه باكور Pacorus من أخت الملك الأرميني بعد أن تصالح معه، وقد قام الملك الأرميني بإعداد احتفال كبير تضمّن مجموعة من البرامج؛ كان من ضمنها العروض التمثيليّة الإغريقيّة القديمة، وأثناء مشاهدة الملك الفارسي لإحدى تلك العروض،

[١]- أحمد فيصل اللهيبي، الحكومة الثلاثيّة الأولى في بلاد الرومان، دراسة تاريخيّة (٥٩- ٤٤ ق.م)، رسالة معدّة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، جامعة بغداد، ٢٠١٥م، ص١٠٣.

[٢]- أحمد فيصل اللهيبي، الحكومة الثلاثيّة الأولى، م.س، ص١٠٤.

[٣]- عبد الله السليمان، سورية في عهد الإمبراطوريّة الرومانيّة، مجلّة المعرفة الصادرة عن وزارة الثقافة في سورية، العدد ٦٧١، دمشق، ٢٠١٩م، ص١٦٩.

وضع رأس كراسوس أمامه، فأمر أن يسكب الذهب المصهور في فمه، وقال عبارته المشهورة في ذلك الوقت مخاطباً رأس كراسوس «اشبع نفسك بما لم تشبع منه في حياتك». أمّا الجيش الروماني فقد ظلّ بلا قيادة فانحلّت عراه فتشتّت شمله[١].

وتختلف المصادر في تقدير خسائر الجانب الروماني، فبعض المؤرّخين يشير إلى أنّ الجيش الروماني خسر في تلك المعركة ثلاثة أرباعه، وحدّد بعضهم الآخر عدد القتلى من الجنود الرومان بعشرين ألف رجل قضوا نحبهم في القتال، بينما بلغ عدد الأسرى الرومان عشرين ألفاً أيضاً، في حين يحدّد آخرون عدد الأسرى بعشرة آلاف جندي نقلوا إلى مدينة مرو[٢].

وعلى الرغم من هزيمة الرومان ومعهم العرب الذين كانوا في جيش كراسوس للمعركة، إلّا أنّ الفرثيين لم يهاجموا سورية في أعقاب هذا الانتصار مباشرة، بل تريّثوا حتّى سنة ٥١ ق.م حيث اجتاحوا أراضيها حتّى وصلوا إلى عاصمتها أنطاكية، لكنّهم عجزوا عن الاستيلاء عليها، بعد أن تصدّى لهم كاسيوس (الذي خلف كراسوس في إدارة ولاية سورية) وردّهم على أعقابهم[٣].

عموماً لقد كان لهذه الهزيمة نتائج هامة:

من بينها أنّها وضعت حدّاً لمحاولات الرومان للتوسّع في آسيا الصغرى، كما أنّها كانت سبباً في انفصام عرى التحالف الثلاثي في روما، فبعد مقتل كراسوس تحتّم الصراع بين بومبي وقيصر.

كما عُدَّت تلك الحملة من أسوأ الحملات في تاريخ الدولة الرومانيّة، وظلّت عالقة في الذاكرة الجمعيّة للشعب الروماني كحادث موجع[٤].

---

[١]- أحمد فيصل اللهيبي، الحكومة الثلاثيّة الأولى، م.س، ص١٠٦.

[٢]- ميثم النوري، العلاقات الفرثيّة الرومانيّة، م.س، ص٥٩.

[٣]- عبد الله السليمان، سورية في عهد الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص١٦٩.

[٤]- أحمد فيصل اللهيبي، الحكومة الثلاثيّة الأولى، م.س، ص١٠٧.

وقد سعت الدولة الرومانيّة ما في وسعها لاستيعاب الأمر، وصوّرت الهزيمة _ على فداحتها _ بأنّها مغامرة شخصيّة لكراسوس؛ وذلك لتخفيف وقعها على نفوس الرومان ومعنويّات الجيش، وبالتالي لم ير بها ساسة الرومان إخفاقاً أو فشلاً خطيراً أو مباشراً يهدّد كيان الدولة الرومانيّة، لكنّها في الحقيقة كانت كذلك، كما كانت ضربة موجعة لهيبة روما في الشرق، ما جعل الولايات الرومانيّة في الشرق تحت رحمة الفرس طوال القرون الثلاثة التالية، كما عبرَّت عن مدى تغلغل الفوضى في الإدارة الرومانيّة، وتراخي حكومتها، حتّى إنّها لم ترسل الإمدادات إلى الشرق على وجه السرعة لتلافي النتائج الكارثيّة التي حلّت بباقي الجيش الروماني[١].

٢. العلاقات الفارسيّة – الرومانيّة في عهد يوليوس قيصر

بعد أن قضى كراسوس نحبه على يد الفرس، وبعد أن قضى بومبي نحبه على يد قيصر، خلا الجوّ لهذا الأخير للاستفراد بحكم الدولة الرومانيّة، وقبل عودة قيصر من مصر إلى روما، مرَّ بآسيا الصغرى، حيث أحرز نصراً سريعاً على فارناكيس ممّا جعله يسخر من أن يمنح بومبي موكب النصر لانتصاره على العدو الآسيوي الهشّ. ووصل إلى روما في شهر أيلول سنة ٤٧ ق.م، وقد انتخب دكتاتوراً بعد انتهاء عام قنصليّته[٢]. وأخذ أتباعه يدعون إلى ضرورة المناداة به ملكاً على الشعوب الخاضعة لروما، وذلك لتنفيذ ما جاء في النبوءة، إذ لا بدّ من محاربة قيصر للفرثيين بوصفه ملكاً على الشعوب التابعة إلى روما، لكن دون أن يكون ملكاً على روما مراعاة لمشاعر الرومان[٣].

وكان القيام بحملة ضدّ الفرثيين من أهمّ المشروعات التي ينوي قيصر القيام بها[٤]، لكنّ دعوة أنصاره بتتويجه ملكاً على الشعوب التابعة لروما قبيل الشروع في الحملة على الفرثيين، أقنعت الجمهوريين أنّ قيصر فيما لو أخَّر إعلان ملكيّته على روما إلى حين، فإنّه

[١]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني (عصر الثورة)، دار النهضة العربيّة، بيروت، ١٩٨٨م، ص٢١٦، ٢١٧.

[٢]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، م.س، ص٢٠٦.

[٣]- أحمد فيصل اللهيبي، الحكومة الثلاثيّة الأولى، م.س، ص١٦٨.

[٤]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، م.س، ص٢٠٦.

لن يتأخّر عن الجهر بها بعد عودته من فرثيا فيما لو قُدِّر له الانتصار على الفرس في الشرق. وهكذا أخذ أعداؤه يدبّرون المؤامرات لاغتياله؛ لإنقاذ الدولة من عودة النظام الملكي إليها، وبالفعل تمّ اغتياله قبل أن يخرج لحرب الفرثيين بأربعة أيام فقط[١]، بعد أن كان قد أعدّ لذلك الغرض ستّ عشرة فرقة عسكريّة رومانيّة، وهكذا ذهبت محاولة قيصر للثأر من الفرثيين أدراج الرياح في حمَّى الصراع على السلطة في روما[٢].

٣. العلاقات الفارسيّة – الرومانيّة في عهد أنطونيوس

لقد أعقب مقتل يوليوس قيصر فوضى واضطراب في الدولة الرومانيّة سببها النزاع بين أوكتافيانوس الذي سيطر على غرب الإمبراطوريّة، وعلى أنطونيوس الذي سيطر على الولايات الشرقيّة. في تلك الأثناء اجتاح الفرثيّون سورية (عدا مدينة صور) بقيادة باكوروس pacorus وحكموها سنة كاملة، مستغلّين إهمال أنطونيوس لها، ولقوا تجاوباً من اليهود بقيادة أنتيغونس، إذ تحالفوا معهم ضدّ الرومان، وساعدوا الفرس في الهجوم على مدينة أورشليم، التي كانت تحت زعامة هيرودس حليف الرومان. كما قامت ثورة في أرواد ضدّ أنطونيوس في سنة ٤٠ ق.م، بينما قدّم الأنباط كامل الدعم والتسهيلات لتقدّم القوات الفرثيّة، نكاية بالرومان الذين كانوا فيما مضى قد قدّموا كامل الدعم للدولة المكابيّة بقيادة هيرودس[٣]. لقد وتَّر اجتياح الفرس لسورية الجوّ في روما، كما سافر ملك المكابيين هيرودس إلى روما، للاحتجاج على تصرّف الفرس، وهناك قابل أنطونيوس وأوكتافيانوس، وشرح لهم الموقف وما لقيه من الفرس وأنتيغونس الموالي لهم، وشرح حجم الصعوبات التي واجهها في رحلته إلى روما، وتحطّم السفينة التي استقلّها، وعلى الرعم من أنّه قد قام بهذه التضحيات من أجل محاربة الفرثيين فقط، استمع له الرومان وباشروا على الفور بتقديم المساعدة له، بحكم تقاطع المصالح فيما بينهم[٤]. ثمّ توجّه أنطونيوس بنفسه إلى الشرق بعد

[١]- أحمد فيصل اللهيبي، الحكومة الثلاثيّة الأولى، م.س، ص١٦٨.

[٢]- ميثم النوري، العلاقات الفرثيّة الرومانيّة، م.س، ص٦٣.

[٣]- عبد الله السليمان، سورية في عهد الإمبراطوريّة الرومانيّة، ص١٧٠.

[٤]- بركات محمّد إمحميد، حكم هيرودس الكبير على فلسطين (٤٠- ٤ق.م)، رسالة معدّة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، جامعة الخليل، ٢٠١٣م، ص٣٧.

أن عالج بعض مشكلاته في الغرب، حيث عاد إلى مصر مرّة أخرى في سنة ٣٩ ق.م وكان الفرثيّون مايزالون يحتلّون سورية[١].

لقد أدرك القائد الروماني أنطونيوس من موقعه في مصر حجم الخطر الذي يتهدّد الدولة الرومانيّة، فأخذ يستعدّ لتأديب الفرثيين، وإعادة توطيد النفوذ الروماني في الشرق، غير أنّ تصرّفات منافسه أوكتافيانو سيفيرو جعلته يؤجّل مشروعه ذلك ويعود إلى إيطاليا لتصفية حساباته مع ذلك المنافس، وأمام هذا الواقع الجديد عهد بولاية سورية إلى قائد جيشه المدعو فنتيديوس باسوس Ventidius Bassus (٣٩ – ٣٧ ق.م) [٢]، وبالفعل نجح هذا القائد في مهمّته في أواخر سنة ٣٧ ق.م، حيث استطاع أن يفرض النفوذ الروماني في سورية، ونجح في إجبار الأنباط على دفع تعويضات ماليّة كبيرة عقوبة على موقفهم في دعم تقدّم القوّات الفرثيّة، إلاّ أنّه في المقابل فشل في القضاء على حاكم سورية الكوماجينيّة بتهمة ميوله للفرثيين. ولم تختلف سياسية أنطونيوس في إدارة ولاية سورية الرومانيّة عن سياسية سابقيه، إذ أعطى الزعماء المحلّيين قدراً كبيراً من الحكم الذاتي مقابل وعود بعدم قيامهم بأيّ اتصال مع الفرثيين أو مع منافسيه في مدينة روما، والتعهّد بدفع الضرائب المترتّبة عليهم كاملة[٣].

لقد كان أنطونيوس عازماً على إكمال ما بدأ به واليه على سورية، وأن يقود شخصيّاً حملة كبيرة يستولي بها على بلاد الفرثيين، ليُكوِّن لنفسه ولملكته كليوباترا السابعة التي تزوّجها سنة ٣٧ق.م إمبراطوريّة كبرى في الشرق[٤]، وبالفعل فقد توجّه في مطلع سنة ٣٦ ق.م إلى سورية، إذ كانت فكرة غزو الإمبراطوريّة الفرثيّة ما تزال تستحوذ على جميع اهتماماته، لكنّ اللافت للانتباه أنّ أنطونيوس لم يتعظ من تجارب كراسوس الفاشلة، وهزيمة الجيوش الرومانيّة الشنيعة على يد الفرثيين، إذ راح يعدّ العدّة لحربهم[٥]، وبعد أن أعدّ القائد أنطونيوس

[١]- عبد الله السليمان، سورية في عهد الإمبراطوريّة الرومانيّة، ص١٧٠.

[٢]- ميثم النوري، العلاقات الفرثيّة الرومانيّة، م.س، ص٦٧.

[٣]- عبد الله السليمان، سورية في عهد الإمبراطوريّة الرومانيّة، ص١٧٠.

[٤]- ميثم النوري، العلاقات الفرثيّة الرومانيّة، م.س، ص٦٩.

[٥]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج٢، في العصور الملكيّة الجمهوريّة الإمبراطوريّة حتّى عهد الإمبراطور قسطنطين، دار الفكر الحديث، لبنان، ١٩٦٧م، ص ١٧.

جيشاً مكوّناً من مئة ألف مقاتل روماني وثلاثة عشر ألف مقاتل أرمني ضمّهم إليه ملك أرمينيا أرتافاردس الثالث مع ما تطلّبه ذلك الجيش الكبير من المؤن وآلات الحصار قرّر مهاجمة الفرثيين[١].

تقدّمت القوّات الرومانيّة في ربيع سنة ٣٦ ق.م صوب بلاد الفرثيين، إلاّ أنّها لم تستطع الثأر لمقتل كراسوس، ولم يتمكّن أنطونيوس من استرداد الرايات الرومانيّة التي كانت في حوزة الفرس، حيث لم يكن حظّه أفضل من سلفه، فاضطر للانسحاب من أرمينيا بعد أن ادّعى أنّ ملكها قد خانه، في محاولة واضحة منه لتبرير فشله[٢]، وقد أكّد سترابون هذه الرواية بقوله: «**لقد خسر أنطونيوس الحرب مع الفرثيين لأنّه أخذ بمشورة الملك الأرمني ووقع ضحيّة خيانة هذا الأخير**»[٣].

وتجدر الإشارة إلى أنّ خسائره بلغت في الانسحاب أكثر من عشرين ألف جندي روماني، عدا عن وصمة العار التي جلبها لروما، ممّا جعل الجوّ يتوتّر من جديد بينه وبين أوكتافيانوس الذي رفض إرسال الفرق الرومانيّة الأربع التي كان وعده بها لمساعدته في حربه ضدّ الفرس، فما كان من أنطونيوس إلاّ أن رفض السماح لزوجته أوكتافيا (شقيقة أوكتافيانوس) باللحاق به إلى الشرق، كما أنّه أعلن عن زواجه الرسمي من كليوبترا، وبذلك تحطّمت عرى الصداقة بين الركنين الأساسيين في الحكومة الثلاثيّة الثانية في روما[٤].فاستغلّ الملك الفرثي فرهاد الرابعPhraates V (٣٧- ٢ق.م) فرصة اشتداد الخلاف بين أنطونيوس وأوكتافيانوس، واضطرار أنطونيوس إلى سحب معظم قوّاته الموجودة في أرمينيا استعداداً لمواجهة منافسه، فهاجم سنة ٣٣ق.م أتروباتين وتمكّن من أسر ملكها أرتاوزاد، وتمكّن من القضاء على الحامية الرومانيّة التي كانت بقيادة ستاستيانوس_ أحد قادة أنطونيوس _ونصَّب أرتاكسيس ملكاً على أرمينيا، وبذلك عادت أرمينيا إلى تبعيّة الدولة الفرثيّة[٥].

---

[١]- ميثم النوري، العلاقات الفرثيّة الرومانيّة، م.س، ص٧٠.

[٢]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج٢، م.س، ص١٧.

[٣]- سترابون، الجغرافيا، الكتاب ١٦، الفصل ١، الفقرة ٢٨.

[٤]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج٢، م.س، ص١٧.

[٥]- ميثم النوري، العلاقات الفرثيّة الرومانيّة، م.س، ص٧٠.

خامساً: العلاقات الفارسيّة - الرومانيّة في عصر الإمبراطوريّة الرومانيّة

١. العلاقات الفارسيّة – الرومانيّة في عهد أغسطس

لقد استطاع أوكتافيانوس إنهاء الصراع بينه وبين أنطونيوس على السلطة سنة ٣٠ ق.م في أعقاب معركة أكتيوم، وأن يستولي على مصر البطلميّة في السنة نفسها. ثمّ قام بقلب نظام الحكم في روما من جمهوري إلى إمبراطوري سنة ٢٧ ق.م، واتخذ لنفسه لقب أغسطس (بمعنى المبجّل والمقدّس).

أمّا فيما يتعلّق بالسياسة الخارجيّة للدولة الرومانيّة خلال تلك المدّة، فإنّ الإمبراطور أغسطس اتعظ من تجارب غيره في الهجوم على الدولة الفرثيّة، واتخذ لنفسه سياسة ماكرة في التعامل معها، فبعد أن تمكّن من السيطرة على مصر، وجعلها ولاية رومانيّة، ركّز اهتمامه نحو الوصول إلى أسواق الشرق الأقصى مباشرة، دون الحاجة إلى وساطة الفرس التجاريّة، وذلك من خلال الاستيلاء على الممالك العربيّة المطلّة على البحر الأحمر، لضمان مصالح الرومان في ذلك الجزء المهمّ من العالم، قبل أن يسبقهم الفرس إليه، وجعل البحر الأحمر بحراً رومانيّاً.

ويصف الدكتور حرب فرزات تلك الحملة بأنّها عمليّة التفاف على الخطوط الفرثيّة، وطرق التجارة الدوليّة، بالتوجّه إلى شواطئ شبه الجزيرة العربيّة وإلى موانئ البحر الأحمر، وكان هذا التحرّك جزءاً من خطّة واسعة ومحدودة تجاه مشكلة الحدود الشرقيّة للإمبراطوريّة الرومانيّة[١].

فلمّا تولّى أغسطس زمام الحكم وعرف ما تصرفه روما سنويّاً من الأموال على البخور والتوابل والمواد العطريّة الأخرى، أدرك خطورة أن تبقى طرق تجارة هذه المواد الثمينة بيد أعدائه الفرس، فأوعز إلى حاكم مصر الروماني أيليوس جاللوس Aelius Gallus (٢٦ – ٢٤ ق.م)، أن يسير على رأس حملة لاحتلال اليمن سنة ٢٥ ق.م[٢]، والسيطرة على

[١]- محمّد حرب فرزات، مدخل إلى تاريخ فارس، م.س، ص١٣٨.

[٢]- نبيه عاقل، تاريخ العرب القديم والعصر الجاهلي، مطبعة الداوودي، منشورات جامعة دمشق، ١٩٨٣م،ص٩٢.

هذه البقعة الإستراتيجيّة من العالم القديم (اليمن)، قبل أن يسبقهم الفرس إليها، والتي فيما لو قُدِّر لهم السيطرة عليها، سيرسّخ الترابط بين ولاياتهم في سورية ومصر، وسيرسّخ موقعهم على طرق التجارة الدوليّة، محقّقين نصراً اقتصاديّاً وعسكريّاً وسياسيّاً في آن، في مواجهة عدوّهم التقليدي، الفرس، الذين كانوا يمثّلون القوّة العظمى الثانية في العالم القديم آنذاك بعد الرومان، لكنّ هذه الحملة منيت بهزيمة فادحة، إذ تراجعت بعد أن رفعت الحصار الذي ضربته على مأرب بعد ستّة أيام فقط. ورغم فشل هذه الحملة إلّا أنّها مثّلت الفكر الاستعماري الروماني أدقّ تمثيل[١]. أمّا عن موقف الإمبراطور أغسطس من أرمينيا فيبدو أنّ استيلاءه على مصر، وسيطرته على قسم من تجارة الشرق، ولاسيّما مع الهند عن طريق البحر الأحمر، جعله يغضّ الطرف عنها، فلم يحاول الانتقام من ملكها أرتاكسيس الذي أجلسه على عرشها الملك الفرثي فرهاد الرابع، ولم يحاول ضمّ مملكته إلى الأملاك الرومانيّة[٢].

ولما كان أهمّ خطر واجه الدولة الرومانيّة في ولاية سورية، هو الخطر الفرثي، فقد شغل بال القادة الرومان، فما كان من الإمبراطور أغسطس إلّا أن عقد اتفاقيّة سلام مع ملك الفرثيين فرهاد الرابع، ينصّ على جعل نهر الفرات الحدّ الفاصل بين الدولتين[٣]. ويتحدّث سترابون أنّ فرهاد «**بلغ حماسه لنيل صداقة أغسطس حدّاً دفعه أن يرسل له النصب التذكاري الذي أقامه الفرثيّون تخليداً لذكرى انتصارهم على الرومان، وعندما دعا ملك الفرثيين فرهاد حاكم سورية الروماني، تيتيوس عندئذ، ليتفاوض معه، سلَّمه أبناءه الشرعيين الأربعة رهائن، ومعهم زوجتاه، تأكيداً على حسن نواياه... وكان أبناؤه الذين يعيشون في روما محاطين بالتشريفات الملكيّة**»[٤].

ولتوطيد العلاقات بين الطرفين أرسل الإمبراطور أغسطس للملك الفرثي فرهاد الرابع أميرة إيطاليّة تسمى موزا Muse أنجب منها ولده فرهاد الخامس. والواقع أنّ الرومان وجدوا

[١]- محمّد عبد الله باوزير، الحملة الرومانيّة على العربيّة الجنوبيّة أو السعيدة، مجلّة كليّات التربية، جامعة عدن، العدد ٩، آب٢٠٠٨م، ص٢٣٦، ٢٣٧.

[٢]- ميثم النوري، العلاقات الفرثيّة الرومانيّة، م.س، ص٧٨.

[٣]- خليل سارة، تاريخ الوطن العربي القديم في العصور الكلاسيكيّة، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٩م، ص٣٧٩.

[٤]- سترابون، الجغرافيا، الكتاب ١٦، الفصل ١، الفقرة ٢٨.

بذلك الزواج طريقة لإضعاف وتقويض الدولة الفرثيّة من الداخل، إذ كان ذلك الزواج سبباً في أن يذهب أولاد الملك فرهاد الرابع إلى بلاد الرومان ويقيموا فيها، فاستفادت الدولة الرومانيّة من وجودهم، إذ طوت تحت أجنحتها طالبي السلطة، فكلّما اقتضى الأمر لجأت إليهم لإشعال الحرب الداخليّة في الدولة الفرثيّة[١].

٢. العلاقات الفارسيّة – الرومانيّة في عهد كلوديوس

بعد أن انفرد الملك الفرثي كودرز بعرشفارس،لم يبذل أيّ محاولة لاستعادة أرمينيا، ولعلّ السبب في ذلك يعود إلى أنّ مركزه كملك داخل دولته كان مضطرباً، لذلك حرص على العرش وعلى تثبيت سلطانه من الداخل، فما إن اعتلى عرش الفرس سنة٤٥م حتّى قضى على أقاربه، وعلى كلّ من شعر أنّه يشكّل خطراً عليه من كبار رجال الدولة، فأغضب بتصرّفاته هذه الجميع، عندها طالب رجال الدين في الدولة الفارسيّة، وأرسلوا إلى الإمبراطور الروماني كلوديوس Claudius (٤١- ٥٤م) سنة٤٩م، يطلبون منه أن يرسل إليهم حفيد الملك فرهاد الرابع المدعو مهرداد Meherdat بن وانون الأوّل، الذي كان يعيش في روما، ولأنّ ذلك كان يتوافق مع مصالح الرومان في إثارة الفتنة في الدولة الفارسيّة، وافق الإمبراطور الروماني على إرسال مهرداد برفقة عدد من الزعماء إلى العاصمة الفارسيّة طيسفون.وما إن وصل إلى أدسامن أرض الجزيرة الفراتيّة حتّى خرج له كودرز لقتاله، وبالفعل تمكّن من أسره، ويبدو أنّه أراد إغاظة الرومان فلم يعمد إلى قتله، وإنّما أمر بقطع أذنيه، وبذلك لايتمكّن من المطالبة بالعرش والتاج، وفق العادات والتقاليد الملكيّة الفارسيّة، ولم يحرّك الرومان ساكناً في الأمر[٢].

٣. العلاقات الفارسيّة – الرومانيّة في عهد نيرون

ما إن جلس بلاش الأوّل Vologese I(٥١- ٧٨م) على العرش الفارسي حتّى عزم على الاستيلاء على أرمينيا فهاجمها سنة٥١م، أي في السنة الأوّلى من حكمه، وتمكّن من

[١]- ميثم النوري، العلاقات الفرثيّة الرومانيّة، م.س، ص٨٠.

[٢]- م.ن، ص ٩١.

الاستيلاء عليها، ولم تتدخّل الإمبراطوريّة الرومانيّة لمنع ذلك، ولم تحرّك ساكناً، إلاّ أنّه رغم ذلك النجاح العسكري للملك بلاش الأوّل إلاّ أنّه اضطر إلى الانسحاب منها في بداية سنة ٥٢م بسبب تفشّي الوباء فيها، لكنّه عاد واحتلّها في سنة ٥٤م. أي في السنة ذاتها التي تولّى فيها نيرون Neron (٥٤- ٦٨م) عرش الإمبراطوريّة الرومانيّة، والذي أغاظه الأمر وقرّر استعادة النفوذ الروماني على أرمينيا وطرد الفرثيين نهائيّاً منها، فأوكل تلك المهمّة في سنة ٥٨م إلى أحد ضبّاط جيشه، المدعو دوميتيوس كوربولوDomitius Corbulo [١].

وبعد قتال مرير استمرّ على شكل سجال، تمكّن الفرس من هزيمة جيش روماني كان تحت قيادة باتيوس Paetus فغضب نيرون وعزل باتيوس، ومنح قائده كوربولو صلاحيّات واسعة، وأمره بالتوجّه إلى أرمينيا لمحو عار الهزيمة عن العرش الروماني المغلوب، فعبر الأخير في سنة٦٣ م نهر الفرات شرقاً قاصداً أرمينيا، ويبدو أنّ محاولته تلك لم تكن غير مناورة عسكريّة، إذ إنّه كان يدرك أنّ محاولة تجربة الحظّ بقوّة السلاح ضدّ عدو منتصر مجازفة مجهولة العواقب، وأنّ هذه التجربة إذا فشلت، فإنّ أرمينيا ستخرج نهائيّاً من يد الرومان، لذلك رأى أنّ أفضل طريقة لحلّ مسألة أرمينيا هي التفاهم وديّاً مع الملك الفارسي، وعلى أساس هذه المعطيات التقى كوربولو ملك أرمينيا الفارسي تيرداد الأوّل (شقيق الملك الفارسي) في سنة ٦٣م، في بلدة رانديا Randeia، وعقد معاهدة سمّيت معاهدة رانديا، وبموجبها اعترفت الإمبراطوريّة الرومانيّة بالملك الفارسي تيرداد الأوّل ملكاً على أرمينيا، بشرط أن يتمّ تتويجه من قبل الإمبراطور نيرون في روما نفسها[٢].

٤. العلاقات الفارسيّة – الرومانيّة في عهد تراجان

لم تكن حرب تراجان ضدّ الفرس الفرثيين واضحة الأسباب، لكنّها تندرج ضمن سياسة روما الاستعماريّة التوسعيّة، في سبيل كسب أراض جديدة باتجاه الشرق بعد النجاحات التي حقّقها في الغرب. كما كان هدف تراجان تأمين الحدود الشرقيّة في وجه الفرس والقبائل القوقازيّة، ووضع يد الرومان على منافذ وطرق التجارة الرئيسة القادمة من الشرق الأقصى.

[١]- ميثم النوري، العلاقات الفرثيّة الرومانيّة، م.س، ص ٩٢.

[٢]- م.ن، ص ٩٥.

ولمّا كان لا بدّ من سبب مباشر، تمّ التعذّر بأنّ الفرس قد خرقوا اتفاقيّة رانديا للسلام الموقّعة معهم منذ أيّام الإمبراطور نيرون حول أرمينيا[١].

ولمّا كان ضمّ أرمينيا قد فرض عليه ضمناً ضمّ بلاد الرافدين أو العراق القديم، ولاسيّما أنّ ضمّ بلاد الرافدين يؤمّن خطوط التجارة الرومانيّة، عبر تراجان هذه المنطقة، واستأنف توغّله سنة ١١٥م داخل الأراضي الفارسيّة، فاستولى على نصيبين وعلى سنجار، ولمّا تقدّم تراجان صوب أرمينيا، خرج ملكها الفارسي لاستقباله، فلم يكتف تراجان بطرده وعزله، بل أوعز بقتله، فقُتل في طريق عودته، ثمّ واصل تراجان تقدّمه بقوّاته المتفوّقة عدّة وعتاداً إلى أرمينيا، التي لم تستطع قوّاتها مقاومته، فاستولى عليها وأجلس على عرشها قائده الروماني كاتيلوس سفيروس. وبعد أن ثبّت تراجان النفوذ الروماني في أرمينيا، وبعد أن اطمأن على مؤخّرة جيشه أنّها أصبحت في مأمن من الهجمات التي قد يقوم بها الفرثيّون، قرّر الزحف جنوباً باتجاه العاصمة طيسفون، لتحقيق الهدف الذي طالما سعت الدولة الرومانيّة إلى تحقيقه، وهو التوسّع الاستعماري في شرق الفرات؛ للسيطرة على طرق التجارة الدوليّة باتجاه الشرق الأقصى[٢].

لقد كان تقدّم تراجان سريعاً لأنّ خسرو Khusrau (١٠٨- ١٣٠م) تخلّى عن هذه المناطق، ولم يفكّر في الدفاع عنها، فتقدّم بها تراجان بسرعة كبيرة فيها، وربّما تعرّض لبعض المقاومة البسيطة في بعض الحاميات. وقضى تراجان شتاء ١١٥- ١١٦م في إعداد أسطول لعبور نهر الفرات الأوسّط ثمّ تحركّت القوّات الرومانيّة في ميديا، التي أصبحت ولاية آشور الرومانيّة، عندئذ قسم تراجان جيشه إلى قسمين سارا بحذاء النهرين، ثمّ اتحد الجيشان من جديد للقيام بهجوم على العاصمة الشتويّة طيسفون على نهر دجلة بالقرب من سلوقية دجلة[٣].وما إن أصبح على تراجان مقربة منها سنة ١١٦م حتّى سارع الملك خسرو بالهروب

---

[١]- محمّد الزين، محمّد محفّل، دراسات في تاريخ الرومان، ج٢، ط٨، منشورات جامعة دمشق، دمشق، ٢٠٠٥م، ص١٣٢.

[٢]- فوزي مكاوي، الشرق الأدنى في العصرين الهلنستي والروماني، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، ١٩٩٩م، ص٢٤٧. ميثم النوري، حملات الأباطرة الرومان على العراق، مجلّة الأستاذ، ملحق العدد الخاص بالمؤتمر العلمي الثالث، بغداد ٢٠١٥م، ص١٩٣.

[٣]- فوزي مكاوي، الشرق الأدنى، م.س، ص٢٤٨.

منها، تاركاً كنوزه وأفراداً من عائلته، ومنهم ابنته التي أرسلها الإمبراطور تراجان مع التاج الفرثي الذهبي وغيره من الكنوز إلى أنطاكية[١].

وبعد أن استولى الإمبراطور تراجان على العاصمة طيسفون قام بتتويج بارثاماسباس ابن الملك الفرثي خسرو مكان والده ملكاً على فارس، ثمّ مخر نهر الفرات جنوباً حتّى وصل إلى الخليج العربي، فكان أوّل وآخر إمبراطور روماني يصل الخليج العربي[٢].

وبالقرب من مدينة عبدان الحديثة وقف تراجان، وهناك رأى سفينة تمخر عباب الماء باتجاه الهند، فذرفت عيناه دمعاً وبكى، لأنّه في سنّ لا يمكنه فيها متابعة سياسة روما الاستعماريّة بنفسه، والسير على خطا الإسكندر المقدوني، وتمنّى لو كان بسنّه ليحذو حذوه ويتابع السير إلى الهند، وكانت حملة تراجان تمثّل ذروة سياسة روما الاستعماريّة في مواجهة الفرس، وفي سبيل التوسّع في مناطق نفوذهم[٣].

لكنّ تراجان كان قد عدا طوره، فذهب كما ذهب أنطونيوس إلى أبعد ممّا يحب وبأسرع ممّا يجب، وأهمل تنظيم فتوحه وخطوط اتصاله، فلما وصل إلى أنطاكية علم أنّ خسرو ملك الفرثيين الذي خلعه قد حشد جيشاً جديداً لاستعادة بلاد الرافدين، وأنّ نار الفتنة قد اشتعلت سنة ١١٧م في جميع الولايات الجديدة، الولايات الفارسيّة المهزومة، فيما قام اليهود بإثارة البلبلة خلف خطوط الرومان في قبرص ومصر وقوريني وخرجوا عليه، وأشعلوا نار الثورة في البلاد، وأنّ الاستياء قد عمّ بلاد موريتانيا وبريطانيا، أراد تراجان أن ينزل إلى ميدان القتال مرّة أخرى، لكن قوّته لم تسعفه، ذلك أنّه أنهك جسمه بأن عاش في الشرق الحارّ بنشاط الغرب البارد، فأصيب بداء الاستقاء، وعادت عليه ضربة شلل جعلت إرادته القوّية لا حلّ لها ولا طول في جسمه المهدّم، ثمّ وافته المنيّة وهو في الرابعة والستين من عمره، وحمل رماده إلى روما حيث دفن تحت العمود الضخم الذي اختير ليكون قبراً له[٤].

---

[١]- ميثم النوري، حملات الأباطرة الرومان على العراق، م.س، ص١٩١.

[٢]- ميثم النوري، حملات الأباطرة الرومان على العراق،م.س، ص١٩١.فوزي مكاوي، الشرق الأدنى، م.س، ص٢٤٨.

[٣]- محمّد الزين، محمّد محفّل، دراسات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٣٢.

[٤]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح أو الحضارة الرومانيّة، ج٢، مج٣، ترجمة محمّد بدران، بيروت، ١٩٨٨م،ص٤٠١.

وسرعان ما استعاد الملك الفرثي خسرو الأوّل سلطته في طيسفون وطرد ابنه التابع للرومان. في الواقع لقد نفّذ تراجان المشروع الذي كان يخطّط له يوليوس قيصر قبل اغتياله، وهو مشروع كان مآله حتماً الفشل، فأخطاره دائماً كثيرة، والمؤون فيه قليلة، ولا فوز فيه إلّا بعد نصر ساحق، ومتى كان هذا النصر يضمن دائماً النجاة[١].

غير أنّ حملة الإمبراطور تراجان، وإن فشلت في السيطرة على بلاد الرافدين، إلّا أنّها أثمرت عن نتائج مهمّة، فمن جانب نجحت إلى حدّ ما في تحقيق حلم الدولة الرومانيّة في السيطرة والإشراف على طرق التجارة المارّة بمناطق الفرثيين[٢]. كما ضمن تراجان _ على الأقلّ _ إنهاء المسألة الأرمنيّة لصالح روما، وهي المسألة التي شغلت روما منذ أيام بومبي، كما أنّه حرم الفرس بلدين متطوّرين، ومن ثمّ حرمهم من دخلهما[٣].

ومن جانب آخر كشفت حملة الإمبراطور تراجان عن ضعف الدولة الفارسيّة، وولدت لدى الأباطرة الرومان من بعده فكرة غزو العراق، المركز الرئيس لتوزيع منتجات التجارة الشرقيّة، وهذا ما حاول القيام به الإمبراطور ماركوس أوريليوس سنة ١٥٦م والإمبراطور سبتيموس سيفيروس سنة ١٩٧م[٤].

وأخيراً يمكن القول إنّ الثمن الذي دفعه الإمبراطور مقابل ولاياته الجديدة التي حصل عليها من الفرس، ولاسيما أرمينيا، كان ثمناً باهظاً، فمن أجل حشد القوات ضدّ فرثيا وأرمينيا اضطر الإمبراطور إلى إضعاف الولايات الأخرى إلى حدّ أدنى من حدّ الأمان، بالإضافة إلى ذلك أنّ الحدود الجديدة في الشرق لم تتبع أيّ حدّ طبيعي يرسّخها أو يصلح للدفاع عنها، وتتطلّب وجود حاميات دائمة أكبر عدداً للدفاع من وادي الفرات[٥].

لقد أدرك الإمبراطور هادريان خليفة الإمبراطور تراجان صعوبة الاستمرار في سياسة

[١]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، أسباب النهوض والانحطاط، ترجمة عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ٢٠١١م، ص١٤٢.

[٢]- ميثم النوري، حملات الأباطرة الرومان على العراق، م.س، ص١٩١.

[٣]- فوزي مكاوي، الشرق الأدنى، م.س، ص٢٤٨.

[٤]- ميثم النوري، حملات الأباطرة الرومان على العراق، م.س، ص١٩١.

[٥]- فوزي مكاوي، الشرق الأدنى، م.س، ص٢٤٨.

التوسّع الاستعماري باتجاه الشرق، أو حتّى الاحتفاظ بالأقاليم المستولى عليها حديثاً، فقرّر التخلّي عن كلّ المناطق التي استولى عليها تراجان، والتنازل عن المناطق الواقعة شرق نهر الفرات[١]، وبالفعل كان العمل الأوّل له هو الانسحاب من كلّ انتصارات سلفه، حتّى أنّه سمح لخسرو بأن يستولي على أقاليمه المفقودة[٢]، جاعلاً من نهر الفرات حدّ الإمبراطوريّة الرومانيّة الشرقي. وإن كان كثير من الباحثين يفسّر هذا التصرّف بجبن جبلت عليه نفس هادريان، إلاّ أنّ الحقيقة هي أنّ الرومان لمّا أدركوا استحالة الاستمرار في السيطرة على تلك الأقاليم، بعد أن خاضوا من أجلها هذا العدد المذهل من الحروب، فضّلوا أن ينسحبوا منها بمحض إرادتهم، خيرٌ لهم من أن يُطردوا منها صاغرين[٣]، لا بل إنّ هادريان أعاد لخسرو سنة ١٢٩م، ابنته التي كان تراجان قد أسرها[٤]. ويقال إنّه فكّر في التخليّ عن داكيا (على البحر الأسود) إلاّ أنّ حركة الاستعمار فيها كانت تسير سيراً حسناً، كما أنّه لم يرد أن يكون العرش الأرمني للفرس[٥].

وتجدر الإشارة أخيراً إلى أنّ مشكلة الحدود الشرقيّة للإمبراطوريّة الرومانيّة، التي كانت مشكلة متجدّدة، كانت بحاجة لحلّ في عهد تراجان، فطالما تعرّضت هذه الحدود لغارات البدو، ما كان يهدّد أمن الإمبراطوريّة الرومانيّة وهيبة الدولة ومواصلاتها، وقد تطلّب هذا الوضع من الرومان إنشاء خطوط دفاعيّة اخترقت البوادي العربيّة الشماليّة وجعلتهم وجهاً لوجه مع الفرثيين. وفي ظلّ هذه الظروف الدوليّة الجديدة في الشرق القديم، اتجهت روما إلى الدول العربيّة القائمة آنذاك، وهي مملكة الأنباط وتدمر ومملكة الحضر واليمن، وكان الفرثيّون يحاولون هم أيضاً توسيع حدودهم من الغرب، أي في الأراضي العربيّة الواقعة تحت السيطرة الرومانيّة، وقد ردّت روما على هذه السياسة بترسيخ أقدامها في الأراضي العربيّة بإنهاء استقلال الأنباط والسيطرة على البتراء والعقبة، وإنشاء الولاية العربيّة الرومانيّة

---

[١]- محمّد الزين، محمّد محفّل، دراسات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٣٤.

[٢]- فوزي مكاوي، الشرق الأدنى، م.س، ص٢٤٨.

[٣]- مونتسكيو، تأملات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٤٤.

[٤]- فوزي مكاوي، الشرق الأدنى، م.س، ص٢٤٨.

[٥]- محمّد الزين، محمّد محفّل، دراسات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٣٤.

في جنوب بلاد الشام وفي سيناء وشمال الحجاز. ثمّ انتقل مركز ثقل المواجهة بين الرومان والفرثيين إلى تدمر التي كانت مقرّ إمارة عربيّة مستقلّة، قامت بدور مهمّ في التوازن الإستراتيجي بين روما والإمبراطوريّة الفرثيّة[١].

٥. العلاقات الفارسيّة – الرومانيّة في عهد ماركوس أورليوس

لقد غزا الملك الفرثي الجديد أرمينيا سنة ١٥٥ م أثناء مطاردة أحد أقاربه، لكنّه عاد وانسحب منها بعد أن تلقّى تهديداً شديد اللهجة من الدولة الرومانيّة. أمّا في سنة ١٦١م وهي السنة التي تولّى فيها الإمبراطور ماركوس أورليوس عرش الإمبراطوريّة الرومانيّة، فقد أعلن الملك الفارسي بلاش الثالث Vologese III (١٤٨ - ١٩١م) الحرب على الرومان[٢]، وعينّ ملكاً تابعاً له على العرش الأرميني يدعى باكور Pacorus. وبعد أن انتصر على حاكمي كبادوكيا وسورية الرومانيين، اللذين اندفعا لملاقاته دون قوّات كافية، وبعد المكاسب التي حقّقها الملك الفرثي، كان يرغب في عقد اتفاقيّة سلام مع الرومان في سبيل الحفاظ على تلك المكاسب، ويقيناً منه أنّ الإمبراطور الروماني غير راغب في رفع السلاح في وجه الفرثيين، لكنّ الإمبراطور الروماني لم يستطع أن يستوعب فكرة ضياع العرش الأرمني من قبضة الدولة الرومانيّة، فسيَّر جيشاً كبيراً سنة ١٦٣ - ١٦٤م تحت قيادة قائده وصهره وشريكه في الحكم فيروس Verus، وكان في الجيش جنرالات كبار من أمثال أفيدوس كاسيوس Avidius Cassius، وسرعان ما تمكّن هذا الجيش من اجتياح أرمينيا وبلاد الرافدين بنفس أسلوب تراجان، إذ استولى الرومان سنة ١٦٣م على عاصمة أرمينيا وأحرقوها. ثمّ خاض كاسيوس (الذي أصبح فيما بعد والياً على سورية الرومانيّة)، معركة انتصر فيها على الفرس عند دورا أوروبس نحو سنة ١٦٥م[٣]، فانسحب الفرس وهم في حالة من الفوضى وإرباك في الصفوف، فاستغلّ ذلك واستمرّ في ملاحقتهم، وبعد عدّة معارك معهم دخل المدينة واستولى عليها. ويبدو أنّ كاسيوس رغب في أن يصل إلى ما وصل إليه تراجان، فاجتاز نهر الفرات وتمكّن من الاستيلاء على بابل وسلوقية

[١]- محمّد حرب فرزات، مدخل إلى تاريخ فارس، م.س، ص١٣٨، ١٣٩.

[٢]- ميثم النوري، حملات الأباطرة الرومان على العراق، م.س، ص١٩٦.

[٣]- فوزي مكاوي، الشرق الأدنى، م.س، ص٢٥٠.

وطيسفون التي هرب منها الملك الفرثي بلاش الثالث، فأضرم النار فيها وهدم قصر الملك الفرثي، ودمّر المدينة في سنة ١٦٥ - ١٦٦م[١].

ثمّ أكمل طريقه باتجاه ميديا التي كانت تمثّل الشرق الأبعد بالنسبة للرومان، لكن ونتيجة انتشار وباء الطاعون ومرض الجدري في الجيش الروماني الذي فتك بجنوده، اضطر كاسيوس إلى إنهاء عمليّاته العسكريّة والانسحاب من العاصمة طيسفون[٢]، وقد أجبر على إبرام السلام مع الفرس.

وبمقتضى هذا السلام وافق الفرس على تنصيب ملك جديد لأرمينيا هو سوهايموس Sohaemus، وكان صنيعة الرومان، حيث قضى هذا الأرمني طوال عمره في روما، ووصل إلى مرتبة عضو في مجلس الشيوخ الروماني[٣].

فما قصّة هذا الوباء الذي فتك بالجيش الروماني؟ لقد بدأ هذا المرض سنة ١٦٦م، وانتشر كالنار في الهشيم، حتّى وصل إلى ولاية بريطانية غرباً، وتذكر المصادر الصينيّة أنّ هذا المرض قد بدأ في الصين ومنه انتشر إلى الدولة الرومانيّة، بينما تتحدّث المصادر الرومانيّة عن أنّ المرض كان مصدره منطقة آسيا الغربية، حيث أكّد المؤرّخ ديوكاسيوس أنّ المرض بدأ في أرمينيا وبلاد الرافدين، حيث غضب الإله أبولون على الجنود الرومان الذين نهبوا مدينة سلوقية بعد منحها الأمان، لذلك ما إن قام أحد الجنود الرومان بفتح تابوت ذهبي في معبد الإله أبولون في سلوقية حتّى هبّت منه ريح وبائيّة انتشرت بين الجنود الرومان بسرعة كبيرة. ولاشكّ أنّ هذا الحديث أسطوري، وربمّا كان السبب الحقيقي هو أنّ هذا الوباء قد انتشر بين الصينيين أوّلاً، ولما كانت سلوقية دجلة نهاية الخط التجاري لخط الحرير كان من الطبيعي أن يصل الوباء إليها، وبالتالي إلى الجنود الرومان الذين أعملوا النهب والسلب فيها[٤].

---

[١]- ميثم النوري، حملات الأباطرة الرومان على العراق، م.س، ص١٩٧.

[٢]- فوزي مكاوي، الشرق الأدنى، م.س، ص٢٥٠. ميثم النوري، حملات الأباطرة الرومان على العراق، م.س، ص١٩٧.

[٣]- فوزي مكاوي، الشرق الأدنى، م.س، ص٢٥٠.

[٤]- محسن محمّد، الأوبئة في الإمبراطوريّة الرومانيّة (وباء أنطوني أنموذجاً ١٦٦ - ١٨٩م)، مجلّة جامعة البعث، سلسلة العلوم التاريخيّة والاجتماعيّة، مج ٤٣، عدد ٨، ٢٠٢١م، ص١٢، ١٣.

إذاً كان انسحاب الجيش الروماني من سلوقية دجلة وطيسفون بسبب الوباء الذي فتك به، ما جعل الجيش الروماني يواجه صعوبات عدّة عند عودته إلى الإمبراطوريّة الرومانيّة، كان من أبرزها نقص الإمداد الصحي والغذائي، لكنّ الكارثة الكبرى تمثّلت في عودة أعداد كبيرة من الرومان باتجاه بلادهم، فغالباً ما كان يقضي نحبه في روما وحدها أكثر من ألف شخص في اليوم الواحد، ومات عدد غفير من أشخاص آخرين، ليس في العاصمة فحسب، بل في جميع أرجاء الإمبراطوريّة، لا بل إنّ الإمبراطور فيروس نفسه توفيّ بسبب الطاعون[١].

٦. العلاقات الفارسيّة – الرومانيّة في عهد سبتيموس سيفيروس

رغم أنّ الفوضى التي عصفت بالإمبراطوريّة الرومانيّة، إذ تنافس على العرش ثلاثة من كبار ضبّاط الجيش الروماني، كان سبتيموس سيفيروس Septimius Severus أحدهم، إلاّ أنّ الدولة الفرثيّة كانت تمرّ هي الأخرى في مرحلة هوان وضعف شديدين، منعتها من التفكير في استعادة أمجاد الدولة الأخمينيّة أو الثأر لنفسها من حملات الرومان عليها، وأمام حالة الهوان هذه حاول ملك الفرثيين بلاش الرابعVologese IV استغلال الفوضى التي عمّت الإمبراطوريّة الرومانيّة بالوسائل الدبلوماسيّة، فما إن أعلن نيجر Nigr قائد القوّات الرومانيّة المرابطة في الشرق نفسه إمبراطوراً سنة ١٩٣م حتّى أرسل له بلاش الرابع رسالة لتقديم التهاني، يعرض فيها عليه المساعدة ضدّ منافسيه بشرط أن يتنازل لهم عن سورية، ولم يكن نيجر كان يتصوّر أنّه يواجه منافساً قويّاً، لذلك رفض عرض ملك الفرثيين. ويبدو أنّ هذا العرض كان السبب الذي دفع الإمبراطور سبتيموس سيفيروس إلى مهاجمة العاصمة الفرثيّة طيسفون فيما بعد[٢]، إذ استطاعت فيالق سيفيروس أن تعبر البوسفور وتحقّق نصرين سريعين على نيجر قبل أن تباشر معركتها المشهودة في سهل إيسوس على أبواب كليكيا، وإيسوس كما هو معروف شهيرة في التاريخ القديم بمعركتها الحيّة في النفوس، تلك المعركة التي هزم فيها داريوس، الملك العظيم ملك الإمبراطوريّة الفارسيّة الأخمينيّة على

[١]- أبو بكر سرحان، أثر الأوبئة والأمراض على الإمبراطوريّة الرومانيّة (الطاعون الأنطوني أنموذجاً ١٦٥- ١٩٠م)، مجلّة كلية اللغة العربيّة، العدد ٣٤، د.ت، ص٣٠٩٠، ٣٠٩١.

[٢]- ميثم النوري، حملات الأباطرة الرومان على العراق، م.س، ص١٩٨.

يد الإسكندر المقدوني، وهكذا تجدّد الماضي، وهزم نيجر على يد سيفيروس، ولجأ إلى أنطاكية حيث لاحقه أعداؤه واجتزّوا رأسه وأنهوا أمره في تشرين الأوّل ١٩٤م[١].

هذا في الميدان، أمّا في روما فقد ضيّق سيفيروس على زوجة نيجر وأولاده وأتباعه وزجّهم في السجون يسامون فيها سوء العذاب، وعادة الفتك بالخصوم السياسيين والتنكيل بهم أو نفيهم هي عادة لم يتورّع عنها الأباطرة الرومان، وهي عادة مشؤومة لم تزل تطبّق منذ أن سنَّها سولا أواخر أيام الجمهوريّة، لا يتحاشاها إلّا قيصر فاضل، فبعد أن فتك سيفيروس بـنيجر نفى عدداً كبيراً من أنصاره، فالتحقوا بالفرس الذين لقّنوهم كلّ ما كانوا يجهلون من فنون الحرب، ودرّبوهم على استعمال أسلحة الرومان، بل صنعوها لهم، وهذه الشعوب التي كانت في موقع الدفاع عن نفسها فيما مضى، صارت مستعدّة للإغارة على أراضي الإمبراطوريّة الرومانيّة تسلب وتنهب دون رحمة[٢].

وبالعودة لسير العمليّات العسكريّة، قرر سيفيروس التوجّه جهة الشرق سنة ١٩٥م لتأديب الثائرين وإعادة مناطق شمال غرب الجزيرة الفراتيّة إلى تبعية الدولة الرومانيّة ثانية، وعندما علم حكّام تلك المناطق بذلك التوجّه، سارعوا إلى إرسال رسلهم إليه ليخبروه أنّ ثورتهم كانت ضدّ منافسه نيجر، وأنّهم يعلنون ولاءهم له، وسوف يعيدون ما حصلوا عليه من الغنائم والأسرى الرومان الذين وقعوا في أيديهم إذا ما تمّ إخراج الحمايات الرومانيّة من أراضيهم. رفض سيفيروس طلبهم، وفي ربيع سنة ١٩٥ عبر بجيوشه نهر الفرات متوجّهاً إلى مدينة نصيبين، وبعد أن تمكّن من الاستيلاء عليها وضع فيها حامية عسكريّة رومانيّة، ثمّ تابع زحفه لتأديب بقيّة المناطق الثائرة، فتمكّن من الاستيلاء على إقليم أديابين، وكذلك مملكة أرسوهيني في الرها، وجعلهما ملحقتين بالإمبراطوريّة الرومانيّة، وبذلك عادت مناطق شمال غرب الجزيرة الفراتيّة إلى تبعيّة الدولة الرومانيّة مرّة أخرى[٣].

---

[١]- جان بابليون، إمبراطورات سوريّات، تاريخ فترة التأثير السوري في الإمبراطوريّة الرومانيّة، ترجمة يوسف شلب الشام، العربي للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٨٧م، ص٨٠.

[٢]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٤٧.

[٣]- ميثم النوري، حملات الأباطرة الرومان على العراق، م.س، ص١٩٨.

وما كاد الإمبراطور سيفيروس ينهي عمله في الشرق حتّى اضطر إلى العودة إلى بلاده لمحاربة منافسه الثاني ألبينوس، وتدلّ نقود ألبينوس التي ضربت بين سنتي ١٩٥-١٩٧م ونقش عليها صورته على الطريقة الرومانيّة، على أنّه لم يكن مستعدّاً للتنازل أو للاستسلام، فهو كان يعتمد إلى جانب فيالقه البريطانيّة الثالثة وفيلق غاليا وإسبانيا، على تأييد الأرستقراطية الرومانيّة ممثّلة بمجلس الشيوخ[١]،وقد استغلّ ألبينوس غياب سيفيروس وأعلن نفسه إمبراطوراً سنة ١٩٦م، فانتهز الملك الفارسي بلاش الرابع ذلك الانشغال ثانية، فأعاد مهاجمة الحاميات الرومانيّة الموجودة في شمال الجزيرة الفراتيّة، وتمكّن من استعادتها، وانضمّ له الأرمن حتّى أنّ ملكهم أرسل ابنه وثلّة من قوّاته لتشارك في الحرب ضدّ الحاميات الرومانيّة[٢].

وبعد أن قضى سيفيروس على ألبينوس في الغرب، عاد مرّة ثانية للشرق. ففي سنة ١٩٧م غادر الإمبراطور روما مع زوجته وولديه، وبرفقته أخو الملك بلاش الرابع، لا بدّ وأنّه كان من المطالبين بالعرش والتاج الفرثي وكان يعيش في روما. أبحروا من برانديزي إلى سورية، وكان سيفيروس يخطّط في ذهنه للانتقام من الفرس الذين كانوا في الماضي حلفاء لنيجر، واستغلّوا غيبته في حربه مع ألبينوس، إضافة إلى أنّ الفرصة كانت مناسبة للقضاء على أمّة ضعف أمرها بسبب انحلال أسرتها المالكة التي كان نجمها يهوي إلى الأفول، ولم يكن ملكها بلاش الرابع على مستوى قيادة الرجال، فجيوشه لم تكن مهيأة لأكثر من غارات مداهمة يقوم بها الفرسان، دون أن يكون لها أيّ جدوى في مواجهة الفنون العسكريّة الرومانيّة[٣].

لقد اتخذ سيفيروس من أرمينيا ذريعة لهذا الزحف، وما إن علم ملك أرمينيا بذلك الزحف حتّى خرج مسرعاً لمصالحة الدولة الرومانيّة وإعلان خضوعه لها، وقبل سيفيروس هذا الخضوع وعقد معه معاهدة مع الملك الأرميني ليحمي مؤخّرة جيشه. ثمّ توجّه سيفيروس جنوباً إلى مملكة أسروهيني التي ما إن علم ملكها أبجر التاسع حتّى خرج لاستقباله تعبيراً

[١]- جان بابليون، إمبراطورات سوريّات، م.س، ص٨٥.

[٢]- ميثم النوري، حملات الأباطرة الرومان على العراق، م.س، ص١٩٨.

[٣]- جان بابليون، إمبراطورات سوريّات، م.س، ص٩٥، ٩٦.

عن خضوعه وتبعيّته له، ولتأكيد تلك التبعيّة أبقى أولاده كرهائن عند الإمبراطور، وبعد أن أصبحت أسروهيني ولاية رومانيّة استولى على مملكة أديابين، وبعد أن جعل العراق الغربي مقاطعة رومانيّة للمرّة الثالثة أخذ بتجهيز نفسه للاستيلاء على العاصمة طيسفون[١].

اجتاز سيفيروس الفرات مع كتائبه من الفرسان ومن الهجّانة التدمريين واتجه نحو سلوقية دجلة، ومنها إلى بابل ومن ثمّ إلى طيسفون[٢]، التي فرض عليها الحصار، متمّمًا بذلك ما بدأ به الإمبراطور تراجان والإمبراطور مارك أوريل. وتشير المصادر إلى أنّ الملك الفرثي بلاش الرابع دخل مع الإمبراطور سيفيروس في معركة حامية الوطيس، وأنّ الإمبراطور لم يتمكّن من السيطرة عليها إلّا بهجوم مفاجئ وذلك في ٢٨ كانون الثاني سنة ١٩٨م. وقام الإمبراطور بقلب عاليها سافلها، بعد أن قتل رجالها وقاد منهم ألفاً من الأسرى دون كبير عناء، ويتحدّث المؤرخون أنّ عدد من قتل وأسر من الرجال والنساء والأطفال كان بحدود ١٠٠ ألف إنسان. وهكذا وخلال قرن واحد تمكّن الرومان من شقّ طريقهم ثلاث مرات إلى قلب العاصمة طيسفون[٣].

ثمّ اتخذ سبتيموس سيفيروس سبيله إلى سورية، ولكنّ حصاره للمكلة هاترا (الحضر)، اضطره إلى البقاء حتّى خريف سنة ١٩٨م، وخلال هذا الحصار تكشف لنا واقعة بمعبد الإله بعل في الحضر، عن جشع الإمبراطور سبتيموس سيفيروس، وعن زيف ادّعاءاته بالردع الذي كان يمارسه على جيوشه ليمنعها من النهب، إذ ظهر لجميع جنوده أنّه كان يريد نهب الكنوز المكدّسة في المعبد، ويريد أن يستأثر بها لنفسه، أمّا أن يسلمها لانتهاب الجنود، فهذا ما لم يكن يستطيع أن يتسامح به، وما إن تمّ فتح ثغرة في السور بواسطة آلات الحصار حتّى أسرع إلى إصدار الأوامر إلى الجنود بالانسحاب، لكنّه بالغ بالمراهنة على طاعة جنود لم يتمكّنوا من إرواء نهمهم من الأموال، في وقت أرهقتهم فيه سهام العرب وسيول النفط التي كانوا يصبّونها فوقهم، وهكذا اضطر سيفيروس للانسحاب ورفع الحصار بعد عشرين يوما[٤].

---

[١]- ميثم النوري، حملات الأباطرة الرومان على العراق، م.س، ص١٩٩.

[٢]- جان بابليون، إمبراطورات سوريّات، م.س، ص٩٦.

[٣]- ميثم النوري، حملات الأباطرة الرومان على العراق، م.س، ص١٩٩.

[٤]- جان بابليون،إمبراطورات سوريّات، م.س، ص٩٦، ٩٧.

سادساً: العلاقات الفارسيّة - الرومانيّة في عصر الساسانيين

في سنة ٢٢٤م قام أحد الأشراف الإقطاعيين في مقاطعة فارس (في جنوب إيران) بثورة كبرى ضدّ حكم الأسرة الفرثيّة الحاكمة في إيران، وهذا الإقطاعي المتمرّد هو أزدشير الأوّل، وكانت أرمينيا قد شطرت إلى شطرين، أرمينيا الرومانيّة في الغرب وهي تدور في الفلك البيزنطي، وأرمينيا الفارسيّة في الشرق وهي تدور في فلك النفوذ الفارسي، ودخل المناذرة في فلك الفرس، بينما دخل الغساسنة في فلك الروم، ولم تكن كلّ من الدولتين البيزنطيّة والفارسيّة قانعة بحصّتها، بل تحاول توسيع حصّتها على حساب الدولة الأخرى، ولاسيما الموانئ القفقازيّة الواقعة على البحر الأسود، وهذا ما أفضى لإعادة اشتعال الحرب في الشرق مجدّداً[١].

لقد كانت أكبر ضربة تلقّتها السياسة الخارجيّة الرومانيّة سنة ٢٦٠م حين سقط الإمبراطور فاليريانوس Valerien أسيراً قرب حمص بيد شابور Shapur I (٢٤٠- ٢٧٢م) ملك الفرس الساسانيين، ولم يستطع جالينوس (٢٦٠-٢٦٨م) القيام بأيّ شيء لتحريره، لا بل إنّ جالينوس أخذ يتشبّه بالملوك الفرس مظهراً إعجاباً خفيّاً فيهم، فصار يرتدي التاج، وأخذ يحيط نفسه بمراسيم معقّدة مستمدّة من البلاط الفارسي. أمّا الكارثة التي غضّ الطرف عنها، فكانت ضربة قاسمة للسمعة والهيبة والجبروت العسكري الروماني، وسرعان ما ظهرت أصداؤها في سيادة روما، إذ استقلّت عنها بلاد الغال، ولم يعد بوسع الإمبراطوريّة الرومانيّة الردّ على كلّ الجبهات، فصارت ضحيّة توسّعها، وقد بدا أنّ قدرها قد آل إلى التفتّت الإقليمي، فخسرت بلاد الرافدين، وبلاد داسيا/ داكيا، والأراضي الممتدّة بين الراين والدانوب[٢].

وعلى الرغم من أنّ فاليرانوس قد سقط في أيدي الفرس، وأهمل جالينوس شؤون الدولة، لكنّ أذينة ـ أمير تدمر وحليف الرومان ـ استطاع أن يطرد الفرس بعد أن استولوا على معظم آسيا[٣].

---

[١]- نعيم فرح، تاريخ بيزنطة السياسي، م.س،ص١٠٧.

[٢]- باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، ترجمة جورج كتّوره، دار الكتاب الجديد المتّحدة، بنغازي، ٢٠٠٨م، ص١١٣، ١١٤.

[٣]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٥٦.

لقد تضاعفت هجمات الفرس على أراضي الإمبراطوريّة الرومانيّة، متّخذة في كلّ مرّة أشكالاً عنيفة، ولم يعد بالإمكان الإمساك بالعدو، فأعمال النهب وحرائق مدن محصّنة تخضع لحروب لم تألفها، لا هدف لها إلّا الغنيمة والأسرى. ولم تكن الأعمال التي نظّمها أعداء روما على مختلف الجبهات أعمالاً منظّمة، وإن كانت متشابهة ومتزامنة، لقد مسّت هذه الهجمات بسلامة أراضي الإمبراطوريّة الرومانيّة وهيبتها وبسياستها الرقابيّة على الشعوب المجاورة بما فيهم الفرس، لا بل إنّ بعض الأباطرة قتلوا بأيدي جنودهم، أو ماتوا في المعارك، وهي حوادث كثيرة منها أنّ ماكسيمان جُرح في المعركة ضدّ الفرس بقيادة شابور الأوّل، بينما مات غودريان الثالث على بعد ٤٠ كلم إلى الشرق من موضع بغداد في ساحة المعركة ضد الفرس. وبعد وفاته نادى الجند بفيليب العربي إمبراطوراً واستمرّ حكمه مدّة خمسة أو ستّة أعوام. ولقد كانت قمّة اضطراب روما حين سقط فاليرانوس أسيراً قرب حمص على يد شابور، ولم يستطع جالينوس القيام بأيّ شيء لتحريره[١].

المبحث الثاني: الصراع التدمري- الروماني

أوّلاً: تدمر قبل السيطرة الرومانيّة

نشأت تدمر في قلب البادية حول نبع ماء غزير، وتقع وسط واحة في البادية السوريّة الواسعة والممتدّة من منعطف الفرات حتّى وادي السرحان في شمال شبه الجزيرة العربيّة، وبقيت مرتبطة اقتصاديّاً وثقافيّاً بكلّ من حمص وحماه وحلب غرباً وشمالاً، وبمدينة دمشق وسهل حوران جنوباً. وقد استفادت من موقعها في الألف الأوّل قبل الميلاد، حيث كانت مركزاً أموريّاً. أمّا في الألف الأوّل قبل الميلاد فقد صارت محطّة للآشوريين باتجاه قطنة[٢]. ويعدّ الأساس الجغرافي لمدينة تدمر، وجود نبع عزير المياه يتفجّر من الصخر عند معبر جبلي اضطراري في قلب البادية السوريّة، ومياه هذا النبع صالحة للشرب، وكانت تجرّ إلى المدينة بواسطة قنوات مسافة عشر كيلو مترات[٣].

[١]- باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص١١٣.

[٢]- فيصل عبد الله، تاريخ الوطن العربي القديم (بلاد الشام: سوريا ولبنان وفلسطين والأردن)، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٤م،ص١١٧.

[٣]- حواء ميلاد عليوان، الحياة الاقتصاديّة والاجتماعيّة في مدينة تدمر (١٠٦ - ٢٧٣م)، رسالة معدّة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، جامعة المرقب، ليبيا ٢٠٠٧م، ص١٠.

بعد أن تغلّب الإسكندر المقدوني على الشرق نحو سنة ٣٣٣ ق.م، كانت تدمر من ضمن البلدات التي خضعت لسيطرته، فأطلق عليها اسم بالميرا Palmyra أي مدينة النخيل[١]. ورغم ذلك بقيت المعلومات التاريخيّة عن هذه المدينة شحيحة جدّاً، والواقع أنّ أكثر ما كُتب عنها يعود إلى ما بعد الميلاد. وعلى العموم كان أغلب أهل تدمر من العرب، على رأي أكثر الباحثين، مع أنّهم كانوا يكتبون بالآراميّة والقلم الآرامي، وأقدم كتابة عثر عليها في تدمر لا يتجاوز تاريخها سنة ٣٠٤ من التأريخ السلوقي أي سنة ٩ ق.م[٢].

وبعد وفاة الإسكندر المقدوني كانت سورية من حصّة سلوقس، فخضعت تدمر للسيطرة السلوقيّة، وانتعشت من الناحية الاقتصاديّة، إذ سعى الملوك السلوقيّون إلى تنشيط طرق التجارة الدوليّة، ولاسيّما طريق القوافل المارّ عبر أراضيهم، ومن المحتمل أنّ قلعة سلوقية أنشئت في تدمر سنة ٢٨٠ ق.م على يد أحد القادة السلوقيين؛ لأهداف اقتصاديّة وعسكريّة[٣]. وعندما عمّ الاضطراب وساد الارتباك في مملكة السلوقيين، أسّس العرب إمارات مستقلّة لهم، ليس للملك السلوقي في أنطاكية ولا للملك الفارسي سلطان عليها، وكانت تدمر من بينها. لكنّ هذا لم يدم طويلاً؛ لأنّ الرومان سرعان ما احتلّوا سورية سنة ٦٤ ق.م بقيادة بومبي، الذي أعلن بذلك بداية عصر جديد في تاريخ الشرق القديم، انتهت معه الدولة السلوقيّة إلى الأبد، وأصبحت سورية ولاية رومانيّة[٤]. وهكذا صارت تدمر تقع بين الإمبراطوريتين الفارسيّة والرومانيّة اللتين تنازعتا السيادة على المنطقة، وساعد موقعها المعزول في وسط البادية السوريّة على عدم تمكّن الفرق الرومانيّة والفرثيّة من السيطرة عليها، وحصلت تدمر على إذن من زعماء القبائل العربيّة على مرور قوافلها التجاريّة[٥].

وبما أنّ أطماع الرومان الاستعماريّة لم تكن تقف عند حدّ فقد قاموا بمهاجمة تدمر

[١]- جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٣، ط٢، بغداد ١٩٩٣م، ص٧٢.

[٢]- نبيه عاقل، تاريخ العرب القديم م.س، ص ١١٩.

[٣]- حمد محمّد بن صراي، منطقة الخليج العربي من القرن الثالث ق.م إلى القرنين الأوّل والثاني الميلاديين مع التركيز على العلاقات الاقتصاديّة والسياسيّة بين تدمر وميسان ومنطقة الخليج العربي، المجمع الثقافي في أبو ظبي، أبو ظبي ٢٠٠٠م، ص١١٥.

[٤]- عبد الله السليمان، سورية في عهد الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص١٦٩.

[٥]- نبيه عاقل، تاريخ العرب القديم، م.س، ص ١٢٠.

سنة ٤١ ق.م، إذ تعرّضت المدينة لهجوم القائد الروماني ماركوس أنطونيوس (٨٣ - ٣٠ ق.م)، الذي كانت تربطه علاقات غراميّة مفضوحة مع كليوبترا ملكة مصر البطلميّة، ولمّا كان هذا الجنرال الروماني يطمع في الأموال والثروات والكنوز ليصبّها في خزانته الخاصّة، فقد أخذ فرسانه وخيّالته وهاجم المدينة في أثناء عودته من غزو الفرثيين بحجّة أنّه يريد أن يريح جنوده في هذه الواحة. إنّ هذا الحدث يدلّ على أنّ تدمر كانت مشهورة ومعروفة في تلك المدّة، وهكذا كان ثراؤها وازدهارها وتجارتها أحد الأسباب الرئيسة التي أدّت للهجوم عليها[١]. لكن لا أحد يعلم ما هي نتائج حملة أنطونيوس عليها. ويذكر المؤرّخون أنّ سكّان المدينة أخذوا ثرواتهم وتواروا في البادية خلف نهر الفرات، واستعدّوا للمقاومة وأعدّوا سهامهم التي اشتهروا باستخدامها، وعندما لحق بهم الرومان كانت الغلبة للتدمريين. بينما عدّ الفرثيّون هذه الغزوة الرومانيّة على أنّها نوع من أنواع العداء. وهكذا يتّضح أنّ المدينة لم يكن لها سور يحميها، بدليل أنّ أهلها غادروها بمجرّد سماعهم خبر قدوم الحملة الرومانيّة، ولم يبقوا فيها للدفاع عنها وفضّلوا الفرار بأموالهم[٢].

بعد هذه الغزوة عاد أنطونيوس إلى مصر ليقضي شتاء سنة ٤١ ق.م مع كليوبترا. غير أنّ ذلك الفشل لم يثن الرومان عن عزمهم في الاستيلاء عليها والسيطرة على نشاطها التجاري، وفي إطار السيطرة على الشرق قام أنطونيوس بالزواج من كليوبترا رسميّاً في سنة ٣٧ ق.م، وقام بإهدائها أجزاء من سورية مقابل حصول الدعم منها في حملته على الفرثيين، تلك الحملة التي انطلقت سنة ٣٦ ق.م، وكانت خطّة أنطونيوس كخطّة باقي القادة العسكريين الرومان؛ ألا وهي مهاجمة الفرس عبر أرمينيا، لكن بعد تقدّمه السريع في هذه المنطقة الجبليّة، انقطعت خطوط الإمداد والتموين، واضطر مع قدوم الشتاء إلى الانسحاب في ظروف قاسية متكبّداً خسائر كبيرة، ولا شكّ أنّ خسارة هذه الحملة أجَّلت السيطرة الرومانيّة على تدمر، كما كانت درساً بليغاً للرومان، وهو استحالة السيطرة على الإمبراطوريّة الفرثيّة[٣].

[١]- حمد محمّد بن صراي، منطقة الخليج العربي، ص١١٦.

[٢]- م.ن، ص١١٩.

[٣]- محمّد الزين، محمّد محفّل، دراسات في تاريخ الرومان، ج٢، م.س، ص٢٤.

ثانياً: تدمر تعترف بالسيادة الرومانيّة

بعد أن وضعت الحرب الأهليّة أوزارها في روما، وخلص الحكم لأغسطس (٣٠ ق.م-١٤م) لم يقم بأيّ تحرّك عسكري سوى الحملة الفاشلة التي شنّها على اليمن سنة ٢٤ ق.م، ولمّا أيقن الرومان استحالة السيطرة على الجزيرة العربيّة، يمّموا وجههم صوب تدمر، والتي تجمع المصادر أنّها اعترفت بسيادة روما عليها في عهد الإمبراطور تيبيروس Tiberius (١٤م – ٣٧م)، والراجح أنّ هذا الاعتراف كان اعترافاً اسميّاً أملته ظروف وطبيعة مصالح تدمر الاقتصاديّة، وارتباطها وتقاطعها مع مصالح الرومان، الذين أصبحوا منذ عهد الإمبراطور أغسطس يسيطرون على الطرق والموانئ في سورية ومصر وآسيا الصغرى[١]. أمّا في عهد الإمبراطور فسباسيان Vespasian (٦٩- ٧٩م) فقد تمّ ربط تدمر بطريق الرصافة ودورا أوروبوس على نهر الفرات، وهذا الطريق المهمّ مكّن الرومان من الوصول إلى الفرات بسهولة، وربطها بولاية سورية وبلاد الرافدين، وقد استخدمه الرومان في حملاتهم العسكريّة ضدّ الفرثيين، وينسب عدد من علماء الآثار بناء سور تدمر إلى عهد هذا الإمبراطور، ولكن يبدو أنّ هذا السور ربمّا بني على يد التدمريين أنفسهم، وليس للرومان دخل فيه[٢].

لكن من المرجّح أنّ تدمر اعترفت بالسيادة الرومانيّة بعد هذه الغزوة، ودخلت ضمن منطقة النفوذ الروماني، وإن كان بصورة شكليّة أكثر ممّا هو بصورة رسميّة، فالحامية الرومانيّة التي وضعت فيها لم تشكّل شيئاً بالنسبة لأهل المدينة والقبائل المحيطة بها، وقد ظلّت على هذه الحال في التبعيّة الصوريّة لروما حتّى عهد الإمبراطور تراجان الذي ألحقها بالمقاطعة العربيّة سنة ١٠٦م[٣].

وقد خدم الرماة التدمريّون في الجيش الروماني أثناء حملة الإمبراطور تراجان على بلاد فارس، وفي العهود التالية أصبحوا فرقة مهمّة في الجيش الروماني، وهناك عدد من الوثائق تؤكّد ذلك، إذ خدموا ستّ سنوات إضافيّة في البادية في بداية حرب تراجان مع

[١]- ميثم النوري، التنافس الروماني الساساني ٢٢٦- ٤٧٦م، دار مكتبة عدنان، بغداد ٢٠١٧م، ص١٥٨.

[٢]- حمد محمّد بن صراي، منطقة الخليج العربي، ص١٢٢.

[٣]- نبيه عاقل، تاريخ العرب القديم، م.س، ص ١٢٢.

الفرثيين، وحتّى بعد تراجان خدم الرماة الرومان في الجيش التدمري[١].

وعندما تولّى هادريان الحكم في روما قام بزيارة المدينة ليكون ثاني مسؤول يقوم بزيارتها بعد جرمانيكوس Germanicus، ممثّل الإمبراطور الروماني أغسطس في بلاد الشرق نحو سنة ١٨/ ١٩ق.م، حيث عثر على كتاب في معبد الربّ بعل في تدمر يؤكّد ذلك[٢]، وقد رحّب به التدمريّون وعدّوه المؤسّس الثاني لمدينتهم[٣]، فقد منحها لقب هادريانا بالميرا Haderiana Palmyra أو هادريانا بوليس Haderiana Polis، كما منح أهلها حقوق أهل روما كحقّ الملكيّة المطلقة والحريّة الكاملة في إدارة سياستها[٤]. وفي عهد الإمبراطور سبتيموس سيفيروس (١٩٣- ٢١١م) تزايدت التدخّلات الرومانيّة في البادية السوريّة، وقام الإمبراطور بحملته المشهورة ضدّ الفرثيين، أمّا تدمر فقد ضمّت إلى ولاية سورية الرومانيّة، ورفعت إلى مرتبة مستعمرة رومانيّة، ولكنّها لم تفقد الحكم الذاتي[٥].

لقد دخلت العلاقات التدمريّة – الرومانيّة مرحلة جديدة من التقدّم في النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي تمثّلت بحصول تدمر على الحقوق التي تمتّعت بها المستعمرات الرومانيّة[٦]، وذلك خلال حكم الإمبراطور سبتيموس سيفيروس Septimius Severus (١٩٣- ٢١١م)، الذي أنشأ ٤٢ حصناً على الطريق الواصل بين دمشق وتدمر، وتحدّث في أحد نقوشه عن حيران أمير تدمر الذي تعاون مع سيفيروس لهدايته إلى المواقع العسكريّة، وتقديم المؤن لفرق الجنود[٧]، كما منح تدمر لقب معمرة رومانيّة عليا RomanColonia تكريماً لأهلها الذين وقفوا إلى جانبه في حربه ضدّ الفرثيين سنة ١٩٨م، وبموجب ذلك

[١]- حمد محمّد بن صراي، منطقة الخليج العربي، ص١٢٣.

[٢]- حمد محمّد بن صراي، العلاقات الحضاريّة بين شبه الجزيرة العربيّة والساحل الشرقي لإفريقيا من القرن الثالث قبل الميلاد إلى القرن السابع الميلادي، سلسلة كتاب الأبحاث ١٩، إصدار مركز الدراسات والتوثيق، رأس الخيمة ٢٠٠٩م، ص٥٨.

[٣]- حمد محمّد بن صراي، منطقة الخليج العربي، ص١٢٤.

[٤]- نبيه عاقل، تاريخ العرب القديم، م.س، ص ١٢٢.

[٥]- حمد محمّد بن صراي، منطقة الخليج العربي، ص١٢٦.

[٦]- ميثم النوري، التنافس الروماني الساساني، م.س، ص١٥٩.

[٧]- منير الذيب، الإمبراطور الحمصي ماركوس سيفروس أنطونيوس في نقوش اللجاة، مجلّة مهد الحضارات، الصادرة عن المديريّة العامّة للآثار والمتاحف- دمشق، العدد ١٣- ١٤، ص١٦٧.

اللقب أصبحت تدمر مساوية للمدن الرومانيّة في الحقوق، فأعفيت من دفع الضرائب، ومنحت الحريّة التامّة في إدارة سياسة المدينة، وأصبح لها عملتها الخاصّة من معدن البرونز كتب عليهاPalmyra ، ولكن هذا لايعني أنّها صارت مقاطعة رومانيّة خالصة، بل يمكن القول بأنّها أصبحت حكومة مستقلّة ذات سلطة واستقلال في إدارة شؤونها خاضعة خضوعاً اسميّاً للرومان[١].

ثالثاً: أسرة آل أذينة والمواجهة مع الرومان والفرس

لقد قامت إحدى الأسر التدمريّة بإضافة اسم سبتيموس أمام اسمها الأصلي، ممّا يدلّ على نوالها حقّ الرعاية الرومانيّة في عهد الإمبراطور الروماني سبتيموس سيفيروس، ويرجّح أنّ ذلك كان اعترافاً من الرومان بالخدمات التي قدّمتها في الصراع الدائر ضدّ الفرس. وقد ارتقت هذه الأسرة إلى مرتبة الزعامة في منتصف القرن الثالث، ألّا وهي أسرة أذينة التي تمكّنت من حكم تدمر حكماً واعياً حقيقيّاً. فقد كانت هذه الأسرة الثريّة الأرستقراطيّة ذات الثروة ورؤوس الأموال تحكم تدمر على طريقة مجلس الشيوخ. وقد جنّدت هذه الأسرة قوّة عسكريّة مؤلّفة من أبناء تدمر، ومن أبناء القبائل العربيّة المتحالفة معها، واستفادت من الخبرات العسكريّة لأبناء تدمر، الذين خدموا في الفيالق الرومانيّة، وكانت مهام هذه القوّة العسكريّة القيام بالواجبات التي تعجز الحامية الرومانيّة العسكريّة عن القيام بها، وهي حماية طرق التجارة والقوافل التدمريّة في أوقات الشدّة التي يضطر فيها الرومان إلى سحب حامياتهم العسكريّة من المدينة[٢].

غير أنّ مفاجأة غير متوقّعة كانت تنتظر تدمر، ففي سنة ٢٢٤م قامت الدولة الساسانيّة، وكان من نتائج ظهورها تجدّد الحرب بينها وبين الرومان، إذ كان الساسانيّون يرغبون في تجديد المملكة الفارسيّة القديمة. ولم تلبث أن استولت على مصبّات دجلة والفرات، ووضع أزدشير أوّل ملوك الساسانيين حدّاً لمرور تجارة القوافل في بلاد الرافدين، وبالتالي أغلقت أهمّ الممرّات التجاريّة في وجه القوافل التدمريّة، ما أدّى إلى خنق تجارتها وتكدّس

[١]- ميثم النوري، التنافس الروماني الساساني، م.س، ص١٥٩.

[٢]- نبيه عاقل، تاريخ العرب القديم، م.س، ص ١٢٣.

بضائعها، الأمر الذي دفعها إلى تغيير طرق تجارتها نحو الشمال. ومن أجل إيقاف مشاريع الساسانيين التوسعيّة، ولمنع تفاقم الكارثة التي بدأت تقترب من بلادهم، اندفع التدمريّون إلى مؤازرة الرومان والتحالف معهم، غير أنّ إخفاقات هؤلاء الأخيرين المتكرّرة أمام الساسانيين، وانشغالهم في الوقت نفسه بصدّ هجمات القبائل الجرمانيّة في الغرب، شجّعت حاكم تدمر أذينة بن حيران بن وهب اللات (٢٣٥- ٢٥١م) على استغلال الفرصة، فأخذ يعمل سرّاً على استقلال بلاده، والتخلّص من الحكم الروماني نهائيّاً[١]، فعمد إلى استغلال الاضطرابات السياسيّة والعسكريّة، والفوضى التي عمّت المنطقة، بأن جمع فلول التدمريين الذين سرّحوا من الخدمة في الجيش الروماني المرابط هناك، أو الذين أجبرتهم الفوضى وضعف قادة الجيش على ترك الخدمة، وألّف منهم جيشاً نظاميّاً بكلّ معنى الكلمة[٢].

هذا على المستوى العسكري، أمّا على المستوى السياسي فقد عمد إلى التخلّي عن عضويّته في مجلس الشيوخ الروماني، واتخذ لقب ملك من دون موافقة مجلس الشيوخ أو الإمبراطور تريبنيانوس جاللوس Trebonianus Gallus (٢٥١- ٢٥٣م) وذلك نحو سنة ٢٥٠م، ولمّا شعر الرومان بخطورة مايسعى إليه أذينة على مصالحهم أوعزوا إلى قائدهم روفينوس Rufinus في الشرق بقتله، فقتله في سنة ٢٥١م في ظروف غامضة[٣].

خلفه ابنه سبتيموس خيران في رئاسة مجلس شيوخ مدينة تدمر، ولمّا توفيّ خيران تولّى أخوه أذينة الثاني إدارة شؤون تدمر، فركّز معظم السلطات في يديه، وكانت له خبرة عسكريّة اكتسبها منذ عهد والده، الذي أشركه معه في الحكم، وعهد إليه بمسؤوليّة قيادة الجيش، وكان أذينة هذا على جانب كبير من الفروسيّة والشجاعة، وقد خبر الرومان فيه هذه الصفات، والحقّ أنّ تدمر لم تؤد دوراً مهمّاً في قضايا الساعة الدوليّة حتّى زمن أذينة الثاني هذا. وقد حدث أن طلب أذينة الثاني من الإمبراطور فاليريان Valerien مساعدته للثأر من قتلة أبيه أذينة الأوّل (الجنرال الروماني روفينوس)، ولكنّ فاليريان لم يعره أذناً صاغية[٤]، واكتفى

[١]- ميثم النوري، التنافس الروماني الساساني، م.س، ص١٦٠.

[٢]- نبيه عاقل، تاريخ العرب القديم، م.س، ص ١٢٣.

[٣]- ميثم النوري، التنافس الروماني الساساني، م.س، ص١٦٠.

[٤]- نبيه عاقل، تاريخ العرب القديم، م.س، ص ١٢٤.

بمنحه درجة قنصل لتحسين العلاقة معه، وقدَّم له بعض الهدايا بعد أن تجاهل شكواه، فغضب أذينة الثاني وغاظه ذلك وأثار نقمته، حتّى إنه لم يحفل بتلك الخلع والهدايا ففرّقها في مشايخ قبائل تدمر فكسب ولاءهم، وأخذ يتحيّن الفرصة للانتقام من الرومان، ودفع غضبه على الرومان إلى التفكير في الاتصال بالساسانيين ليكون وإيّاهم يداً واحدة على الرومان[١].

لقد جاءت الفرصة حينما اتبع الساسانيّون سياسة التوسّع، وقامت بينهم وبين الإمبراطوريّة الرومانيّة مشاحنات وخلافات. فخرج لهم الإمبراطور فاليريان يريد أن يصدّهم، فجرت معركة حامية الوطيس في شمال سورية قُرب الرها سنة ٢٦٠ ق.م بين الرومان والفرس، الذين كانوا بقيادة ملكهم شابور Shapur I (٢٤٠- ٢٧٢م)، وتمكّنوا من إبادة الجيش الروماني، كما وقع الإمبراطور فاليريان نفسه في الأسر مع سبعين ألف رجل، ولم يستطع جاللينوس Gallinus القيام بأيّ شيء لتخليصه. ووصل الفرس بعد انتصارهم هذا إلى مشارف أنطاكية وطرطوس على الساحل السوري، وأصبحت بلاد الشام في وضع خطير، وتضرّرت بعض مدن بلاد الشام ومنها تدمر[٢].

في الواقع لقد كانت تلك الهزيمة أكبر ضربة تلقّتها السياسة الخارجيّة الرومانيّة، حتّى إنها كانت كارثة على السمعة والهيبة العسكريّة الرومانيّة، وسرعان ما ظهرت أصداء ذلك في سيادة روما، إذ انسلخت عنها إمبراطورية الغال، ولم يعد بوسع روما الردّ على كلّ الجبهات، فصارت ضحيّة توسّعها، وقد بدا أنّ قدرها قد آل إلى التفتّت الإقليمي، فخسرت بلاد الرافدين وبلاد داكيا Dacia، والأراضي الممتدّة بين الراين والدانوب[٣]. أمّا على صعيد تدمر، فقد أثلج خبر وقوع الإمبراطور الروماني أسيراً في يد الفرس الساسانيين صدر أذينة الثاني، فما كان منه إلّا أن اغتنم الفرصة وأرسل رسله إلى الملك سابور الأوّل حاملين إليه الهدايا الثمينة وكتاباً يتودّد فيه إليه، ويظهر رغبته في التحالف معه ضدّ الرومان، لكن يبدو أنّ الغرور قد

[١]- ميثم النوري، التنافس الروماني الساساني، م.س، ص١٦٠، ١٦١.

[٢]- نبيه عاقل، تاريخ العرب القديم، م.س، ص ١٢٤. جمعة الطلبي، نعيم الزيدي، آثار الخليج والجزيرة العربيّة، دار الحداثة، بغداد ٢٠٢١م، ص٣٣٦، ٣٣٧.

[٣]- باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، ص١١٣، ١١٤.

أعمى بصيرة الملك الساساني، فعدّ مخاطبة أذينة له وعرضه التحالف معه، إهانة، فلم يكن أذينة في نظر سابور إلّا شيخ قبيلة بدويّاً يعيش في قفر من الأرض بين حفنة من الأعراب، لذلك أظهر تعجرفاً تعجّب فيه من جرأة ذلك الأمير العربي فتساءل: «من هو أذينة هذا الذي تبجّح هكذا وكتب إلى مولاه؟! إذا كان يُمَنِّي نفسه بتخفيف عقابه، فدعوه يخرّ راكعاً تحت أقدام عرشنا، ويداه مغلولتان إلى ظهره، أمّا إذا تردّد، فلتصبّوا الخراب فوق رأسه وبني جنسه وبلده». ثمّ مزّق رسالته ورمى بها تحت قدميه، وأهان رُسل أذينة وأمر برمي الهدايا التي بعث بها إليه في نهر الفرات[١].

أثار هذا التصرّف غضب أذينة، فقرّر الانتقام، لذلك تناسى ما بينه وبين الرومان، بل أرسل إلى الإمبراطور الروماني جاللينوس يخبره العزم على محاربة الملك سابور الأوّل. فسُرَّ الإمبراطور بهذا التحوّل في سياسية أذينة، ومدّه ببعض الكتائب الرومانيّة، التي ضمّها الملك التدمري إلى جيشه المكوّن فضلاً عن أهالي تدمر، من رجال القبائل العربيّة الموالية له، وعهد بقيادتهم إلى ابنه سبتيميوس هيرودس HerodesSeptimius واثنين من كبار قوّاده هما (زبدا) على فرقة الفرسان و(زبّاي) على فرقة الرماة، وضمّ إلى جيشه فلول جيش فاليريان، وسار بنفسه قاصداً العاصمة الفارسيّة طيسفون للانتقام لكرامته وكرامة رسله، ويبدو أنّه لم يكن قاصداً العاصمة طيسفون بالذات، وإنّما أراد إجبار الملك الفارسي على الانسحاب من سورية، والتوجّه لإنقاذ عاصمته، ممّا سيسبّب لجيشه التعب والإنهاك بسبب بعد المسافة أوّلاً، وسيتيح لأذينة أن يصبح سيّد الموقف؛ فيختار المكان والزمان المناسبين لملاقاتهم ومحاربتهم ثانياً.تقدّم أذينة صوب العاصمة الفارسيّة في سنة ٢٦٢م فذعر سابور من الأمر، وجمع كلّ ما عنده من قوّات، وخفّ للدفاع عن عاصمته، غير أنّ تدابيره لم تستطع إيقاف زحف التدمريين، الذين وصلوا العاصمة ونصبوا عليها آلات الحصار من منجنيقات وغيرها، فانهار سابور وأوشك أن يطلب الأمان من أذينة، غير أنّ الأخير اضطر إلى رفع الحصار عن المدينة والعودة إلى سورية لمعالجة الوضع فيها، حيث تمرّد على الإمبراطور جاللينوس اثنان من قادة جيشه، هما كاليستوسCallistus نائبه الأعلى في مدينة

[١]- ميثم النوري، التنافس الروماني الساساني، م.س، ص١٦٢.

بومبي، والقائد مكريانوس Macrianus في مصر، وقد أعلن هذا الأخير نفسه إمبراطوراً على آسيا الصغرى وسورية كلّها ماعدا تدمر، التي ظلّت موالية للإمبراطور جاللينوس، واستعدّ أذينة الثاني للقضاء عليه إلاّ أنّ مكريانوس قُتل، فنشط ابنه كياتوس في مواجهة أذينة الثاني الذي حاصره في مدينة حمص، وبعد أن اشتدّ حصاره على المدينة، ورأى أهلها عدم جدوى المقاومة، قتل القائد كاليستوس سيدهكياتوس، وفتح أبواب المدينة أمام أذينة الثاني بعد أن استأمنه، إلاّ أنّ الأخير ما لبث أن قتله لخروجه عليه وإعلان نفسه ملكا[١].

ولمّا كتب أذينة للإمبراطور الروماني بنتيجة انتصاره على الساسانيين، وعلى الضبّاط الرومان المتمرّدين، سُرّ الإمبراطور ومنحه لقب قائد عامّ على جميع جيوش الشرق Dux Orientis سنة ٢٦٢م[٢]، أخذ أذينة بعد ذلك يعمل على استرجاع أراضي الإمبراطوريّة الرومانيّة من الفرس، فهاجمهم وهزمهم في معارك عدّة في الشمال السوري، وطاردهم إلى ما وراء الفرات، كما استردّ منهم حصن دورا أوروبوس في الصالحيّة على الفرات، واسترجع الحصن الشمالي من نصيبين، وتقدّم حتّى وصل إلى العاصمة الفارسيّة طيسفون، واستطاع أن يأسر عدداً من أفراد الحاشية الملكيّة، لكنّه لم يستطع أن يحرّر الإمبراطور الروماني من الأسر، الذي قضى نحبه أسيراً[٣].

لقد كان أذينة الثاني يتصرّف وفق مصالح تدمر ولحسابها، يعمل بحزم وسرعة من أجل تأمين تلك المصالح[٤]، ولعلّه كان يهدف من تحرّكاته على جبهة الساسانيين؛ تأمين السيطرة على طرق التجارة الدوليّة المارّة في الشمال السوري، التي اضطربت بعد ظهورهم في بلاد فارس. ومهما يكن من أمر كان لهذه الانتصارات أثر كبير في نفس الإمبراطور الروماني، فكافأه مرّة ثانية على إخلاصه في سنة ٢٦٤م، بأن منحه لقب إمبراطور عموم الشرق Imperator Totius Orientis[٥]، وهذا يعني أنّه صار برضا روما مساويّاً للأباطرة الرومان

[١]- ميثم النوري، التنافس الروماني الساساني، م.س، ص١٦٢، ١٦٣، ١٦٤.

[٢]- فيليب حتّي، تاريخ العرب، دار غندور للطباعة والنشر، بيروت لبنان، د.ت، ص١١٣.

[٣]- جمعة الطلبي، نعيم الزيدي، آثار الخليج والجزيرة العربيّة، م.س، ص٣٣٧.

[٤]- عدنان البني، تدمر والتدمريّون، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٨م، ص٧٦.

[٥]- نبيه عاقل، تاريخ العرب القديم، م.س، ص ١٢٥.

في مناصبهم، إلّا أنّ أذينة الثاني اختار لنفسه لقباً أكثر قرباً إلى نفوس الشرقيين، وهو لقب ملك الملوك، ويبدو أنّه أراد بهذا اللقب منافسة الساسانيين، وانتزاع أقوى الألقاب منهم بعد انتصاراته المتكرّرة عليهم، إذ إنّ الملك الساساني كانيت لقّب باللقب ذاته[١].

وإمعاناً في إذلال الملك سابور الأوّل ولتوثيق عرى الصداقة مع الإمبراطور الروماني جاللينوس، قرّر أذينة الثاني سنة ٢٦٥م الزحف على العاصمة الساسانيّة طيسفون، والقضاء على ملكها سابور الأوّل نهائيّاً، فأعدّ لتحقيق هذه الغاية جيشاً كبيراً سار على رأسه نحو طيسفون بعد أن عيّن ابنه سبتيميوس هيرودس (من زوجته الأولى وهي غير زنوبيا)، نائباً عنه في تدمر ليدير شؤونها، ولم يجد في طريقه أيّ مقاومة من الساسانيين حتّى وصل إلى طيسفون فحاصرها حصاراً شديداً اضطر معه الملك سابور الأوّل إلى إظهار استعداده لقبول الصلح[٢]. وقد حدث في أثناء حصاره لطيسفون أن انتهز القوط الفرصة، فعبروا البحر الأسود وزحفوا باتجاه آسيا الصغرى، محتلّين فريجيا وبثينيا وكبادوكيا، كما أملوا احتلال بلاد الشام في أثناء غياب أذينة ووجوده بعيداً عنها، فما كان منه إلّا أن ترك حصار طيسفون وعاد مسرعاً إلى بلاده، حين ذلك ولّى القوط الأدبار هاربين، وعادوا عن طريق ميناء هيراكليا من حيث جاؤوا، وبينما كان أذينة يتحضّر للعودة إلى العراق لإكمال مشروعه، جمع قوّاته في مدينة حمص، ليريحها قبل الزحف بها، وفي حمص قرّر أن يعدّ وليمة كبيرة للجنود ليحتفل بعيد ميلاده، وليمة حضرها كبار رجال الدولة، فتعرّض للاغتيال مع ابنه على يد معني ابن أخيه خيران؛ لأنّ أذينة كان قد اغتصب السلطة من والده خيران سنة ٢٦٦م[٣]. ولا يستبعد أحد أن تكون هناك مؤامرة عليه، كان للرومان يد فيها، لاسيّما بعد أن تلمّسوا قوته[٤].

رابعاً: زنوبيا والصراع مع الرومان

كان وهب اللات حين توفيّ أبوه صغير السن، فتولّت أمّه زنوبيا Zanobia الوصاية عليه،

---

[١]- ميثم النوري، التنافس الروماني الساساني، م.س، ص١٦٥.

[٢]- م.ن، ص١٦٥.

[٣]- نبيه عاقل، تاريخ العرب القديم، م.س، ص ١٢٥.

[٤]- جمعة الطلبي، نعيم الزيدي، آثار الخليج والجزيرة العربيّة، م.س، ص٣٣٨.

وحكمت باسمه، وقد سهرت الملكة على تربية ابنها وأخذت بإعداده للمهام الجسام التي تنتظره، فعلَّمته اللاتينيّة والفروسيّة ومختلف العلوم التي كانت معروفة في عصرها، وهيّأته ليكون ملكاً لمملكة تسعى لمنافسة الروم والفرس على السواء، كما قامت بأعباء الحكم على أكمل وجه[١]. ومع تلك الشهرة التي نالها أذينة، فإنّه لم يبلغ ما بلغته أرملته من العظمة، فلم تكن زنوبيا امرأة عاديّة، بل كانت -كما يظهر في المنحوتات- امرأة ذات جمال وذكاء، وثقافة عالية وموهبة عسكريّة وتدريب جيّد، حتّى إنّها كانت تشارك الجنود في الحروب وتسير معهم مسافات طويلة، حتّى استولى عليها شعور بأنّها ملكة الشرق، وفعلاً أطلقت على نفسها هذا اللقب، وقد تفوّقت في طموحاتها وتأثيرها على كلّ ملكات الشرق القديم[٢]. وسعت للتوسّع على حساب الرومان، وبسط نفوذها على أماكن واسعة لم تكن من أملاك التدمريين فيما مضى، ما تسبّب في الصدام معهم[٣].

لقد بدأت المواجهة بينها وبين الرومان على إثر صدام مسلّح بين التدمريين وبعض جنود الإمبراطور الروماني جاللينوس في أواخر عهده، وكانت تلك الوحدات الرومانيّة متوضّعة على حدود الإمبراطوريّة الساسانيّة، ورغم أنّ زنوبيا حلّت المعضلة ببراعتها وحسن تدبيرها، إلّا أنّ عدم الثقة تسرّب إلى الطرفين، إذ أخذ الرومان يرتابون من أيّ حركة تأتي بها هذه الملكة التدمريّة[٤]، حتّى إنّهم خافوا منها، وعزم جاللينوس بتحريض من مجلس الشيوخ الروماني على التخلّص منها قبل استفحال أمرها، فأرسل الإمبراطور جيشاً إلى الشرق تظاهر أنّه يريد من إرساله محاربة سابور، إلّا أنّه من المؤكّد أنّه كان يريد محاربة تدمر، فلمّا بلغ خبره مسامع زنوبيا استعدّت لمقابلته وخرجت إليه والتحمت بكتائب الرومان وانتصرت عليها انتصاراً باهراً، فولّت هذه الكتائب هاربة تاركة قائدها هرقليانوس قتيلاً في أرض المعركة[٥].

وجدت زنوبيا أنّ الفرصة مناسبة بعد مقتل الإمبراطور الروماني لإعلان استقلال تدمر

---

[١]- نبيه عاقل، تاريخ العرب القديم، م.س، ص ١٢٧.

[٢]- جمعة الطلبي، نعيم الزيدي، آثار الخليج والجزيرة العربيّة، م.س، ص٣٣٨.

[٣]- نبيه عاقل، تاريخ العرب القديم، م.س، ص ١٢٧.

[٤]- جمعة الطلبي، نعيم الزيدي، آثار الخليج والجزيرة العربيّة، م.س، ص٣٣٨.

[٥]- نبيه عاقل، تاريخ العرب القديم، م.س، ص ١٢٧.

تحت راية ابنها، وفكّ ارتباطها بروما، فأطلقت عليه لقب ملك، ووجّهت قائد جيشها المدعو زبدا Zabda نحو مصر لإخضاعها وضمّها للتاج التدمري بجيش قدّر عدد جنوده بسبعين ألف رجل[١]، كما أنّ المعارضين للحكم الروماني في مصر، وعلى رأسهم فيرموس Firmus، كتب إلى زنوبيا يشجّعها على تخليص مصر من الحكم الروماني، ولاسيّما أنّ قائداً رومانيّاً يسمّى بروبانوس Probunos استغلّ هو الآخر الإرباك الذي أصاب الإمبراطوريّة الرومانيّة، فاستولى على مصر معلناً نفسه ملكاً عليها، وأظهر فيرموس استعداده لتجهيز جيوشها بكلّ ما تحتاج إليه، عندئذ أرسلت زنوبيا جيشها إلى مصر[٢]. وبالفعل تمكّن زبدا من دخول الإسكندريّة وطرد الرومان منها بعد هزيمة جيشهم المؤلّف من خمسين ألف رجل. بعدها توجّهت الجيوش التدمريّة نحو آسيا الصغرى، وتمكّنت من السيطرة على أجزاء واسعة منها، حتّى وصلت إلى مضيق البوسفور، وأقامت لنفسها حاميات هناك. وهكذا أنشأت زنوبيا لنفسها إمبراطوريّة تدمريّة في وقت قصير امتدّت من النيل حتّى مشارف القوقاز في الشمال[٣]. وبذلك وضعت تدمر تحت سلطانها جميع منافذ التجارة البريّة والبحريّة والنهريّة في الشرق القديم، وهكذا أحكمت قبضتها على شرايين التجارة ما بين روما الشرق الأقصى[٤].

أدركت روما عبث محاربة زنوبيا وهي على هذا الجانب من القوّة، بينما ينشغل الجيش الروماني في حماية حدود الإمبراطوريّة عبر الراين والدانوب، لذلك اضطرّت إلى عقد معاهدة معها نصّت على أن يكون حكم مصر مشتركاً بينهما، وقد استمرّ هذا الاتفاق حتّى بداية حكم الإمبراطور أورليان Aurelian (٢٧٠- ٢٧٥م). والراجح أنّ إقرار روما بحقّ زنوبيا في حكم مصر،كان يراد منه تهدئة الجبهة الشرقيّة ريثما يتسنّى لروما أن تنتهي من قتال القوط في الغرب، ذلك القتال المرير الذي لم ينته إلاّ بعد عقد هدنة ومعاهدة معهم، منحتهم روما

[١]- جمعة الطلبي، نعيم الزيدي، آثار الخليج والجزيرة العربيّة، م.س، ص٣٣٨.

[٢]- ميثم النوري، التنافس الروماني الساساني، م.س، ص١٦٨.

[٣]- جمعة الطلبي، نعيم الزيدي، آثار الخليج والجزيرة العربيّة، م.س، ص٣٣٨.

[٤]- عدنان البني، تدمر والتدمريّون، م.س، ص٨٢.

بموجبها مقاطعة داكيا[١]. وإنّ ما يؤكّد صحّة هذا الخبر هو العثور على عملة تدمريّة ضربت في الإسكندريّة سنة ٢٧٠م، أي بعد اعتلاء الإمبراطور أورليان العرش، نقش عليها صورة وهب اللات، إلى جانب صورة وجه أورليان، والجمع بين الصورتين يدلّ على التساوي في حكم مصر[٢]. وإذا كانت الملكة زنوبيا قد قبلت أن يشاركها الرومان في حكم مصر، فإنّ سيادتها كانت مطلقة على بلاد الشام وآسيا الصغرى والجزيرة الفراتيّة، وهي من الممتلكات التابعة لولاية سورية الرومانيّة، انتزعها أذينة عنوة وسيطر عليها، فحافظت زنوبيا عليها ثمّ أضافت إليها ممتلكات جديدة، هي مصر والجزء الشمالي الغربي من الجزيرة العربيّة[٣].

وما إن تمكّن الإمبراطور أورليان من إنهاء مشكلاته في الغرب، حتّى اندفع بجيش روماني جرّار في مطلع سنة ٢٧٢م نحو الشرق يريد إخضاع تدمر، وبالفعل تسنّى للإمبراطور الروماني إخضاع الحاميات التدمريّة في آسيا الصغرى، ثمّ واصل مسيره لاحتلال سورية، فانسحب الجيش التدمري بقيادة زبدا إلى أنطاكية، ثمّ إلى حمص، وفيها حدثت معركة حامية الوطيس، ربح فيها التدمريّون الجولة الأولى، ولكنّهم غلبوا في النهاية بسبب تفوّق فرق الفرسان والمشاة الخفيفة الرومانيّة، مقابل المشاة التدمريين الثقال. في الوقت نفسه الذي سيطر فيه بروبوس على مصر، تركت زنوبيا حمص وعادت إلى تدمر، فوجد الرومان كلّ الطرق المؤدّية إليها مفتوحة[٤]. لم تكن طريق أوليان إلى تدمر معبّدة بالزهور كما توقّع، إذ عانى جيشه عناء كبيراً من غارات العرب، ومن القيظ والحرارة المرتفعة، ونقص المياه والمؤمن، حتّى إنّه استغرق أسبوعاً كاملا[٥].

لقد أدرك أورليان أنّ النصر الحقيقي لا يتمّ إلاّ بإلقاء القبض على زنوبيا، إذ لم تقبل روما سيطرة زنوبيا على الشرق، فقام أورليان بحصار مدينة تدمر، التي لم تتلق أيّ مساعدات

---

[١]- ميثم النوري، التنافس الروماني الساساني، م.س، ص١٦٩.

[٢]- نبيه عاقل، تاريخ العرب القديم، م.س، ص ١٢٩.

[٣]- ميثم النوري، التنافس الروماني الساساني، م.س، ص١٦٩.

[٤]- نبيه عاقل، تاريخ العرب القديم، م.س، ص ١٣١.

[٥]- عدنان البني، تدمر والتدمريون، م.س، ص٨٤.

حتّى من الفرس[١]، ولمّا طال أمد الحصار وأظهرت المدينة صموداً باسلاً، وقع أورليان في الحرج، ولاسيّما أنّ جماعته هزئوا بإمبراطور عجز عن الاستيلاء على مدينة صحراويّة والتغلّب على امرأة[٢]، فكتب شارحاً إلى مجلس الشيوخ الروماني عظم المهمّة الملقاة على عاتقه: «إذا تحدّث الشعب الروماني باستهزاء وسخرية عن الحرب التي أشنّها ضدّ امرأة، فذلك لأنّهم يجهلون شخصيّة زينب وقوّتها، فاعلموا أنّها إذا قاتلت كانت أرجل من الرجال، وإنّه لمن العسير أن تحصى معدّاتها الحربيّة من الحجارة والسهام وكلّ أنواع القذائف»[٣].

رفضت زنوبيا كلّ عروض الاستسلام التي عرضها عليها الرومان، إذ كانت تأمل أن تحلّ المجاعة بالجيش الروماني، لكن سرعان ما وصلت الإمدادات للجيش الروماني، وكانت كفيلة بإطالة أمد الحصار[٤]. ولما كانت زنوبيا في مقاومتها للحصار قد علّقت الآمال في الحصول على مساعدة من الفرس الساسانيين، إلاّ أنّها أصيبت بخيبة أمل أيضاً، فالساسانيّون على الرغم من أنّهم كانوا توّاقين لمساعدتها ضدّ خصمهم اللدود، إلاّ أنّهم كانوا يعانون من اضطرابات داخليّة، إذ توفيّ ملكهم سابور الأوّل سنة ٢٧٢م، وكان ابنه هرمز الأوّل (٢٧٢-٢٧٣م) الذي تولّى العرش من بعده رجلاً ضعيفاً، فتمّ عزله بعد سنة واحدة من تولّيه العرش، واشتعلت نيران الفتن الداخليّة التي لم تسمح لهم وهم في هذه الحالة أن يقدّموا أيّ مساعدة لزنوبيا[٥].

لقد كان على زنوبيا أن تدافع بجيشها الخاصّ، فضرب حصاراً حول المدينة، ثمّ قدّم شروطاً للتفاوض رفضتها زنوبيا، لكنّها أدركت أنّها تحارب في معركة خاسرة، فقرّرت الهروب للفرس بنفسها على ظهر هجين سريع، لتحثّهم على نجدتها، لكنّ فرسان الرومان أدركوها[٦]، وتمكّنوا من إلقاء القبض عليها وهي تهمّ بركوب زورق لعبور نهر الفرات، وكان ذلك في أوائل سنة ٢٧٣م، وقد نتج عن أسر زنوبيا أن اضطر أهل تدمر إلى الاستسلام، فدخل الإمبراطور أورليان المدينة، واستولى على مافيها من ثروات وكنوز غنيّة وزخارف

[١]- نبيه عاقل، تاريخ العرب القديم، م.س، ص ١٣١.

[٢]- ميثم النوري، التنافس الروماني الساساني، م.س، ص١٧٣.

[٣]- إدوارد جيبون، اضمحلال الإمبراطوريّة الرومانيّة وسقوطها، تعريب محمّد علي أبو درة القاهرة، د.ت، ص٢٦٩.

[٤]- فيليب حتّي، تاريخ العرب، م.س، ص١١٣.

[٥]- ميثم النوري، التنافس الروماني الساساني، م.س، ص١٧٠.

[٦]- نبيه عاقل، تاريخ العرب القديم، م.س، ص ١٣١.

ثمينة، والتي أخذوا بعضها لتزيين معبد الشمس الجديد في روما، وفرضوا على السكّان غرامة ماليّة كبيرة، وعيّنوا على المدينة حاكماً رومانيّاً، واستبقوا في المدينة حامية عسكريّة رومانيّة مؤلّفة من عدد من الرماة. وغادر أورليان تدمر ومعه زنوبيا إلى مدينة حمص، وفي حمص أعدم مستشاري زنوبيا أمام عينيها، وعلى ملأ من الناس، ثمّ تابع طريقه إلى روما، لكنّه ما كاد أن يصل إلى تراقيا، حتّى سمع عن أخبار ثورة جديدة قامت في تدمر، وأنّ الثوار تمكّنوا من قتل أفراد الحامية العسكريّة الرومانيّة والحاكم الروماني[١].

وفي الوقت نفسه خرج أهل مصر أيضاً على السيادة الرومانيّة، وأخذوا يسعون للتعاون مع أهل تدمر لتشكيل جبهة موحّدة هدفها الاستقلال عن الرومان[٢]. فاستشاط الإمبراطور غضباً وخفّ مسرعاً مرّة أخرى إلى الشرق، ووصلها بسرعة مذهلة أربكت سكاّن المدينة الثائرة، فأعمل فيها السيف وأباحها لجنوده[٣]. ثمّ توجّه بعد ذلك إلى مصر، وتمكّن من القضاء على تمرّدها، ثمّ عاد إلى روما سنة ٢٧٤م، بعد أن أعاد فرض سلطان روما من جديد على أقاليم الشرق، فنال لقب «معيد الشرق إلى روما»[٤].

أمّا زنوبيا فقد أُخذت إلى روما مع أحد أبنائها، وسارت في عربتها الذهبيّة التي أعدّتها لتدخل على متنها روما منتصرة، محمّلة بالجواهر، في موكب النصر الذي أعدّته روما لأورليان، فازدان بها مركبه عند دخوله إلى روما في رمزيّة واضحة إلى إذلال الغرب للشرق. وبعد انتهاء احتفالات موكب النصر، فرض على الملكة زنوبيا أن تقبع في بيت خصّص لها على ضفاف نهر التيبر مع أولادها، وأن تعتزل السياسة والشرق، وهناك أمضت بقيّة سني عمرها. أمّا تدمر فإنّها زالت من الأهمّية باستثناء أوقات قصيرة ومتقطّعة من عهد الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤- ٣٠٥م) وجستنيان (٥٢٧- ٥٦٥م)، الذي بنى سوراً حولها مازالت آثاره قائمة، ثمّ دخلت تدريجيّاً عالم النسيان، إلى أن أعادتها معاول الآثاريين الفرنسيين إلى الواجهة في التاريخ المعاصر[٥].

---

[١]- ميثم النوري، التنافس الروماني الساساني، م.س، ص١٧٣. نبيه عاقل، تاريخ العرب القديم، م.س، ص ١٣١، ١٣٢.

[٢]- ميثم النوري، التنافس الروماني الساساني، م.س، ص١٧٤.

[٣]- نبيه عاقل، تاريخ العرب القديم، م.س، ص ١٣٢.

[٤]- ميثم النوري، التنافس الروماني الساساني، م.س، ص١٧٤.

[٥]- نبيه عاقل، تاريخ العرب القديم، م.س، ص ١٣٢.

خاتمة

لقد كانت حروب روما بدوافع السيطرة وبسط رقعة الإمبراطوريّة الرومانيّة رغبة منها بضمّ مقاطعات جديدة لها طمعاً بخيراتها الوافرة، فقد رغب الإمبراطور كلوديوس بمناجم بريطانيا، فأرسل الفرق الرومانيّة لتحتلّها. كذلك طمع الإمبراطور تراجان بمناجم داكيا/ داسيا، فيمّم شطرها وعبر إليها مجتازاً نهر الدانوب، بينما قام في الشرق باحتلال شبه جزيرة سيناء وما وراء نهر الأردن وضمّ بلاد الأنباط، وأنشأ ولاية رومانيّة جديدة، التي عرفت بالولاية العربيّة، كما راح يحاول تقليم أظافر الفرثيين ويستخلص من أيديهم بلاد الرافدين وبابل في سبيل السيطرة على طرق التجارة مع الشرق الأقصى، بعد أن أرهق الفرثيّون الإمبراطوريّة الرومانيّة بالرسوم الباهظة على البضائع المستوردة، وهكذا كانت الأسباب الاقتصاديّة الباعث الأقوى لهذه الحروب[١].

لكنّ الفرثيين شكلّوا عائقاً حقيقيّاً أمام سياسة الرومان الاستعماريّة في العولمة والضمّ والتوسّع، وفرض سيطرتهم الاقتصاديّة السياسيّة على العالم القديم، وأهمّ طرق التجارة الدوليّة، ولاسيّما طريق الحرير[٢].

فالصعوبات التي واجهها الرومان في محاولاتهم احتلال البلاد الفارسيّة تأتي من موقعها، ومن اختلاف أساليب القتال عند الشعبين، فالوصول إلى أرض فارس والاشتباك معهم كان بالنسبة للجيش الروماني مهمّة صعبة، فإذا سلك الجيش طريق الشمال عبر أرمينيا عند ينابيع دجلة والفرات، وجد جبالاً وعرة لا تخترقها الجيوش الجرّارة، بحيث يهلك نصف الجيش قبل أن يلحق أرض ميديا، وإذا اختار الجيش طريق الوسط مروراً بنصيبين توغّل في بادية مقفرة، أمّا إذا مال إلى الجنوب ومنطقة ما بين النهرين وجد بلداً بعضه أجرد قاحلاً وبعضه غارقاً تحت المياه، ثمّ إنّ وجهة بلاد الرافدين هي من الشمال إلى الجنوب، وبالتالي لا يمكن للمهاجم أن يتوغّل في القطر إلّا بمفارقته، وهذا هو عين الهلاك[٣].

[١]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، روما وإمبراطوريّتها، م.س، ص٢٧٣.

[٢]- علي أبو عساف، طريق الحرير والطرق التجاريّة الأقدم، مجلّة دراسات تاريخيّة، عدد خاصّ طريق الحرير – طريق الحوار، دمشق، كانون الأول ١٩٩١م، العدد ٣٩- ٤٠، ص٧٧.

[٣]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٤٣.

أمّا عن اختلاف أساليب القتال بين الشعبين، فقد أثبتت حروب القرن الثاني الميلادي أنّ الفرثيين بوسعهم أن يحقّقوا بعض الانتصارات المبهرة على الرومان، لكنّ مشكلة الفرثيين أنّهم لا يقوون على حروب النفس الطويل[١]. لا شكّ أنّ هناك اختلافاً فارقاً في أساليب القتال بين القوّتين العظميين، وهذا الاختلاف قائم على أنّ عماد الجيش الروماني هو سلاح المشاة الأكثر تلاحماً وثباتاً وانتظاماً في العالم القديم. أمّا عند الفرس، فالعكس هو الصحيح، فمشاتهم ليسوا ذوي قيمة، لكنّ فرسانهم من أعلى طراز، يقاتلون من بُعد فلا تدركهم أسلحة الرومان، حتّى الحربة لا تصيبهم، وعدّتهم المفضّلة القوس والنبال الفتّاكة، يحاصرون أعداءهم أكثر ممّا ينازلونه، لا تنفع فيهم المطاردة، إذ إنّ الكرّ عندهم نوع من القتال، كلّما اقترب العدو من ديارهم أجلوا السكّان وتركوا في القلاع جنود الحامية وحدهم بحيث من يستولي على تلك المواقع يضطر إلى تخريبها، ثمّ لهم مهارة في اتّباع سياسة الأرض المحروقة خلف الغزاة، فيحرمونهم حتّى من العشب[٢].

وبالتالي كانت الانتصارات التي حقّقها الرومان على الفرثيين باهظة الثمن والتكاليف[٣]. زد على ذلك أنّ الكتائب الرومانيّة المجنّدة من إليريا وجرمانيا لا تفيد في تلك البقاع، إذ يحافظ الجنود على عاداتهم في الإكثار من الأكل حتّى التخمة فيهلكون كلّهم تقريباً. وما عجزت عنه جميع الدول في الانفلات من ربق الرومان، حقّقه الفرس وحدهم، لا لأنّهم لم يهزموا بل لأنّهم لم يدركوا[٤].

وهكذا لم تستطع الحملات الرومانيّة على منطقة الجزيرة العليا أن تغيّر ميزان القوى بين الدولتين على هذه الجبهة، فعلى الرغم من استيلاء الرومان على نينوى العاصمة الآشوريّة السابقة لجعلها رأس جسر لتوسّعهم على نهر الفرات، فقد تمتّع الفرثيّون بقوّة عسكريّة كبيرة تجلّت في أعداد الجيوش الضخمة، التي كانت تضمّ فرقاً وكتائب من رماة السهام ومن الفرسان الخفاف والثقال المدرّعين بالزرد والحديد[٥].

---

[١]- فوزي مكاوي، الشرق الأدنى، م.س، ص٢٥٠.

[٢]- مونتسكيو، تأملات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٤٣.

[٣]- فوزي مكاوي، الشرق الأدنى، م.س، ص٢٥٠.

[٤]- مونتسكيو، تأملات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٤٣.

[٥]- محمّد حرب فرزات، مدخل إلى تاريخ فارس، م.س، ص١٣٦.

لقد كان العامل الاقتصادي هو العامل الأكثر أهميّة في العلاقات الدوليّة في ذلك الوقت، وليس السلام الروماني Pax Romana المزعوم، الذي بشّر به الإمبراطور الروماني أغسطس، فالأصل في العلاقة مع روما هو الحرب، أمّا فترات السلام فهي من أجل استمرار الاتصال الاقتصادي الوثيق بين الشرق والغرب، الذي لا غنى عنه، فالحاجة المتزايدة للسلع القادمة من الهند والشرق الأقصى في الأسواق الغربيّة، كانت عاملاً مهمّاً في تكريس بعض فترات السلام والهدوء. هذا من جهة، أمّا من جهة ثانية فقد كانت الحماية العسكريّة لحدود الإمبراطوريّة الرومانيّة ضدّ أيّ عدوان خارجي غير منتظمة، بل كانت قاصرة إلى حدّ كبير، فالحروب المتتالية على الجبهة الشماليّة لشبه جزيرة البلقان، وحروب ردع الإمبراطوريّة الفارسيّة، وحتّى حروب ردع قوى مثل أرمينيا والأنباط أثبتت قصور القوّة العسكريّة الرومانيّة، لا بل إنّ الانتصارات الجزئيّة التي تمّ تحقيقها، لم تكن تتمّ إلّا بتكاليف باهظة، وجهود مضنية تتحمّلها كلّها هذه المدن[١].

لقد كان اعتراف تدمر بالسيادة الرومانيّة لأسباب ومصالح اقتصاديّة، فصارت ضمن منطقة النفوذ الروماني، وإن كان بصورة شكليّة، وحصلت تدمر نتيجة لذلك على مصالح عديدة، منها حصولها على الحقوق التي تمتّعت بها المستعمرات الرومانيّة.

ثمّ إنّ أسرة آل أذينة حكمت تدمر حكماً حقيقيّاً، لكنّ المواجهات الرومانيّة الفارسيّة أضرَّت بتجارتها وطرقها، وهذا ما دفع التدمريين لمؤازرة الرومان، لكنّ انهزامات الرومان دفعت أذينة الأوّل نحو محاولة الاستقلال، وعلى الرغم من قوّة خلفه وابنه أذينة الثاني، لكنّ الرومان لم يعيروه اهتماماً، ممّا دفعه للتفكير بالتعاون مع الساسانيين، وجاءت الفرصة حين انهزم الرومان أمامهم، لكنّ الساسانيين قابلوا محاولة التقرّب التدمريّة باستعلاء وغرور، فعاد أذينة الثاني يطلب التعاون مع الرومان ضدّ سابور الأوّل الساساني، وحاصر التدمريّون العاصمة طيسفون، وانتصر أذينة الثاني على الساسانيين، وأعاد أراضي رومانيّة من الساسانيين، فنال مكافأة الإمبراطور الروماني.

---

[١]- وفاء الساعدي، النتائج السياسيّة للتوسّع الروماني، م.س، ص٣٤٢.

ثمّ قرّر أذينة الثاني سنة ٢٦٥م الزحف على العاصمة الساسانيّة طيسفون والقضاء على ملكها سابور الأوّل نهائيّاً، لكنّ تحركات القوط منعته، ثمّ اغتيل في حمص.

ونتيجة لهذه التطوّرات وصلت زنوبيا للحكم، وبدأت تتحرّك للتوسّع على حساب الرومان، وبسط نفوذها على أماكن واسعة، ممّا تسبّب في الصدام معهم، وكان أن انتصرت على الجيش الروماني، وأعلنت استقلال تدمر، وسعت للسيطرة على مصر، ونجحت، ثمّ توجّهت الجيوش التدمريّة نحو آسيا الصغرى، وتمكّنت من السيطرة على أجزاء واسعة منها، حتّى وصلت إلى مضيق البوسفور، فاستطاعت زنوبيا تشكيل إمبراطوريّة تدمريّة في وقت قصير امتدّت من النيل حتّى مشارف القوقاز في الشمال.

ونتيجة بروز القوّة التدمريّة وقّع الرومان معهم اتفاقيّة تعترف بالسيطرة المشتركة على مصر، وما إن تمكّن الإمبراطور أورليان من إنهاء مشكلاته في الغرب، حتّى اندفع بجيش روماني جرّار في مطلع سنة ٢٧٢م نحو الشرق واستطاع إخضاع الحاميات التدمريّة في آسيا الصغرى، ثمّ واصل مسيره لاحتلال سورية، وفي حمص حدثت معركة حامية الوطيس، ربح فيها التدمريّون الجولة الأولى، ولكنّهم غلبوا في النهاية.

وقد رفضت زنوبيا كلّ عروض الاستسلام، وبعد فشل محاولاتها، قرّرت الذهاب للفرس بنفسها لطلب المساعدة، لكنّ الرومان ألقوا القبض عليها في الطريق، وسيطروا على تدمر، التي دخلت بعد ذلك عالم النسيان.

لائحة المصادر والمراجع

١. أبو بكر سرحان، أثر الأوبئة والأمراض على الإمبراطوريّة الرومانيّة (الطاعون الأنطوني أنموذجاً ١٦٥- ١٩٠م)، مجلّة كليّة اللغة العربيّة، العدد ٣٤، د.ت.

٢. أحمد فيصل اللهيبي، الحكومة الثلاثيّة الأولى في بلاد الرومان دراسة تاريخيّة (٥٩- ٤٤ ق.م)، رسالة معدّة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، جامعة بغداد ٢٠١٥م.

٣. أدوارد جيبون، اضمحلال الإمبراطوريّة الرومانيّة وسقوطها، تعريب محمّد علي أبو درة القاهرة، د.ت.

٤. أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام، ج٢، روما وإمبراطوريّتها، ترجمة فريد داغر وفؤاد أبو ريحان، ط٢، منشورات عويدات، باريس-بيروت ١٩٨٦م.

٥. باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، ترجمة جورج كتّوره، دار الكتاب الجديد المتّحدة، بنغازي ٢٠٠٨م.

٦. بركات محمّد إمحميد، حكم هيرودس الكبير على فلسطين (٤٠- ٤ق.م)، رسالة معدّة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، جامعة الخليل ٢٠١٣م.

٧. جان بابليون، إمبراطورات سوريّات، تاريخ فترة التأثير السوري في الإمبراطوريّة الرومانيّة، ترجمة يوسف شلب الشام، العربي للطباعة والنشر، دمشق ١٩٨٧م.

٨. جمعة الطلبي، نعيم الزيدي، آثار الخليج والجزيرة العربيّة، دار الحداثة، بغداد ٢٠٢١م.

٩. جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٣، ط٢، بغداد ١٩٩٣م.

١٠. حمد محمّد بن صراي، منطقة الخليج العربي من القرن الثالث ق.م إلى القرنين الأوّل والثاني الميلاديين مع التركيز على العلاقات الاقتصاديّة والسياسيّة بين تدمر وميسان ومنطقة الخليج العربي، المجمع الثقافي في أبو ظبي، أبو ظبي ٢٠٠٠م.

١١. حمد محمّد بن صراي، العلاقات الحضاريّة بين شبه الجزيرة العربيّة والساحل الشرقي لأفريقيا من القرن الثالث قبل الميلاد إلى القرن السابع الميلادي، سلسلة كتاب الأبحاث ١٩، إصدار مركز الدراسات والتوثيق، رأس الخيمة ٢٠٠٩م.

١٢. حواء ميلاد عليوان، الحياة الاقتصاديّة والاجتماعيّة في مدينة تدمر (١٠٦ - ٢٧٣م)، رسالة معدّة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، جامعة المرقب، ليبيا ٢٠٠٧م.

١٣. خليل سارة، تاريخ الوطن العربي القديم في العصور الكلاسيكيّة، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٩م.

١٤. سترابون، الجغرافيا، ترجمة حسّان إسحق، منشورات دار علاء الدين، دمشق ٢٠١٧م.

١٥. عبد الله السليمان، سورية في عهد الإمبراطوريّة الرومانيّة، مجلّة المعرفة الصادرة عن وزارة الثقافة في سورية، العدد ٦٧١، دمشق ٢٠١٩م.

١٦. عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني (عصر الثورة)، دار النهضة العربيّة، بيروت ١٩٨٨م.

١٧. عدنان البني، تدمر والتدمريّون، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٨م.

١٨. علي أبو عساف، طريق الحرير وطرق التجاريّة الأقدم، مجلّة دراسات تاريخيّة، دمشق، العدد ٣٩- ٤٠، عدد خاصّ طريق الحرير - طريق الحوار، كانون الأوّل ١٩٩١م.

١٩. فوزي مكاوي، الشرق الأدنى في العصرين الهلنستي والروماني، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة ١٩٩٩م.

٢٠. فيصل عبد الله، تاريخ الوطن العربي القديم (بلاد الشام: سورية ولبنان وفلسطين والأردن)، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٤م.

٢١. فيليب حتّي، تاريخ العرب، دار غندور للطباعة والنشر، بيروت لبنان، د.ت.

٢٢. محسن محمّد، الأوبئة في الإمبراطوريّة الرومانيّة (وباء أنطوني أنموذجاً ١٦٦-١٨٩م)، مجلّة جامعة البعث، سلسلة العلوم التاريخيّة والاجتماعيّة، مج ٤٣، عدد ٨، ٢٠٢١م.

٢٣. محمّد حرب فرزات، مدخل إلى تاريخ فارس وحضارتها القديمة، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٥م.

٢٤. محمّد الزين، محمّد محفّل، دراسات في تاريخ الرومان، ج٢، ط٨، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٥م.

٢٥. محمّد عبد الله باوزير، الحملة الرومانيّة على العربيّة الجنوبيّة أو السعيدة، مجلّة كليّات التربية، جامعة عدن، العدد ٩، آب٢٠٠٨م

٢٦. محمود فرعون، وأرواد العلان، دراسات في تاريخ فارس وحضارتها حتّى الفتح العربي، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠١٢م.

٢٧. مصطفى العبادي، مذكّرات في التاريخ الروماني، جامعة بيروت العربيّة، بيروت د.ت.

٢٨. منير الذيب، الإمبراطور الحمصي ماركوس سيفيروس أنطونيوس في نقوش اللجاة، مجلّة مهد الحضارات، الصادرة عن المديريّة العامّة للآثار والمتاحف- دمشق، العدد ١٣- ١٤.

٢٩. مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، أسباب النهوض والانحطاط، ترجمة عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ٢٠١١م.

٣٠. ميثم النوري، العلاقات الفرثيّة الرومانيّة ٢٤٧ ق.م- ٢٢٦م، دار مكتبة عدنان، بغداد ٢٠١٧م.

٣١. ميثم النوري، حملات الأباطرة الرومان على العراق، مجلّة الأستاذ، بغداد، ملحق العدد الخاص بالمؤتمر العلمي الثالث ٢٠١٥م.

٣٢. ميثم النوري، التنافس الروماني الساساني ٢٢٦- ٤٧٦م، دار مكتبة عدنان، بغداد ٢٠١٧م.

٣٣. نبيه عاقل، تاريخ العرب القديم والعصر الجاهلي، مطبعة الداوودي، منشورات جامعة دمشق ١٩٨٣م.

٣٤. نعيم فرح، تاريخ بيزنطة السياسي، ط٤، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٦م.

٣٥. هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج٢، في العصور الملكيّة الجمهوريّة الإمبراطوريّة حتّى عهد الإمبراطور قسطنطين، دار الفكر الحديث، لبنان ١٩٦٧م.

٣٦. وفاء الساعدي، النتائج السياسيّة للتوسّع الروماني في شرق البحر المتوسّط، مجلّة بحوث الشرق الأوسط، العدد ٣٨، ج١، د.ت.

٣٧. ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح أو الحضارة الرومانيّة، ج٢، مج٣، ترجمة: محمّد بدران، بيروت ١٩٨٨م.

قراءة نقديّة في تاريخ أبرز شخصيّات الإمبراطوريّة الرومانيّة

حسين حسن نكلاوي[١]

مقدّمة

حتّى يتسنّى لنا التعرّف على أهمّ الشخصيّات في تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، لا بدّ لنا من التعرّف على طبيعة النظام الجديد الذي حكم الدولة، فأهمّ الشخصيّات التي أثّرت في تاريخ الجمهوريّة الرومانيّة (٥٠٩ – ٢٧ ق.م)، ولاسيّما في قرنها الأخير، كانت من فئة القادة العسكريين الطموحين أو حتّى المغامرين، الذين سعوا وراء المجد والشهرة والسلطة والثروة، فأودوا بالدولة في أتون حرب أهليّة طاحنة، أدّت في النهاية إلى سقوطها. لكنّ الأمر كان مختلفاً تماماً في العصر الجديد، لقد كان العصر الإمبراطوري (٢٧ق.م- ٤٧٦م) هو عصر الحاكم الفرد، فالإمبراطور الروماني هو قائد الجيش، وهو القاضي الأوّل، وزعيم مجلس الشيوخ Princeps Senatus، وهو المواطن الأوّل في الدولة، وقد جمع مختلف الصلاحيات في يده، لا بل انتهى به الأمر إلى تأليه نفسه. بينما كانت زوجته هي السيّدة الأولى، لذلك كان من الطبيعي أن تشاركه في نهب أموال الدولة، على الرغم ممّا كان عليه الرومان من تحفّظ في قضيّة ولوج النساء إلى حقل السياسة وعالم المال والأعمال. وعندما كان إمبراطور روماني يطيح بإمبراطور روماني آخر ويتسلّم زمام السلطة مكانه، أو كانت أسرة حاكمة في روما تطيح بأسرة حاكمة أخرى، فإنّها كانت تسترسل في قذفها ولعنها وشتمها، مقدّمين للمؤرّخين مادّة دسمة في كتابة تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة. لذلك كان من الطبيعي أن تكون أهمّ الشخصيّات في تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة هم الأباطرة أنفسهم فقط؛ لأنّ كلّ من لمع اسمه إلى جانبهم كانت نهايته على أيديهم، حتّى لو كانت أمّ الإمبراطور عينها. ولم يتورّع هؤلاء الأباطرة عن النهب والسلب، والقتل والإجرام والفتك بالناس لمصادرة

---

[١]- كاتب سوري، وطالب في مرحلة الدكتوراه في جامعة دمشق قسم التاريخ.

أموالهم، واللهو وممارسة الموبقات، متفلّتين من كلّ عقال، ومتحرّرين من كّل قيد من قيود الأخلاق والفضيلة والاستعصام بالعادات والمثل العليا. إنّ الشخصيّات التي حكمت روما منذ قيام الإمبراطوريّة حتّى نهاية عهد كركلاّ وتسلّط الجيش على السلطة، مروراً بـ تيبيروس، وكاليغولا، وكلوديوس، ونيرون، وفسباسيان، ودومتيان، وكلوديوس الثاني، وسبتيموس سيفيروس. جميعها أسهمت بشكل أو بآخر في تقويض دعائم الدولة ونهب شعوبها، ومصادرة أموال مواطنيها. حتّى أمست روما التي خاضت كلّ تلك الحروب، وسفكت كلّ تلك الدماء، وأخضعت شعوب العالم القديم في مشارق الأرض ومغاربها، تحت سلطان حاكم فرد، ولا همَّ لها إلاّ أن تشبع في النهاية نهم خمسة أو ستّة وحوش تربّعوا على عرشها ونفراً من أعضاء مجلس شيوخها الذي خرّ راكعاً لأخسّ أباطرتها.

أوّلاً: أغسطس ونظام الحكم الجديد

إنّ جميع قرارات وأفعال أغسطس منذ أن وصل إلى السلطة تشير إلى مسعى واحد، وهو إقامة نظام حُكم ملكي. فعندما فرض سولا Sulla (١٣٨- ٧٨ ق.م) فيما مضى نظام حكم دكتاتوري على روما، كان يهدف منه إعادة إحياء الجمهوريّة، لا بل إنّه عندما ارتكاب أفظع جرائمه ظلّ جمهوريّ الهوى، قراراته تعسفيّة عند التطبيق، لكنّ الباعث عليها إحياء النظام الجمهوري، كان سولا في طبعه رجلاً حادّ المزاج، كان يدفع روما بعنف في سبيل الحريّة، وعندما شعر أنّ إصلاحاته قد أسهمت في تدعيم نظام الحكم الجمهوري تنازل عن السلطة. أمّا أغسطس الطاغية الماكر فقد قاد روما بلين نحو العبوديّة، تحت حكم الأول كانت الجمهوريّة تتماثل للشفاء والكلّ يندد بالطغيان، وفي قبضة الثاني كان الطغيان في تنام مستمرّ والكلّ لا يلهج إلاّ بالحريّة[1].

لقد كان من نتائج حصر ملء القيادة العليا بصاحب السلطان الأول (الإمبراطور)، أن يُنسب للإمبراطور كلّ فضل، أو خير، أو نفع، أو كسب مادي كان أم سياسي يؤمّنه للإمبراطوريّة قائد من قادة الجيش، حتّى لو لم يخرج الإمبراطور إلى جبهات القتال، فالفضل

[1]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، أسباب النهوض والانحطاط، ترجمة عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ٢٠١١م، ص١٢٣.

يعود للإمبراطور؛ لأنّه له وحده حقّ ترؤس حفلات زجر الطير واستطلاع الطالع، واستخراج الفأل، والقيام بالمراسيم الطقسيّة التي تسبق المعركة وتهيّئ لخوضها. كما أنّه هو حامل بركة الآلهة وموضع مسرّتها ورضاها، وهو وحده أبو النصر وسبب كلّ ظفر، ومع كلّ نصر فرصة مناسبة للهتاف باسم صاحب الأمر (الإمبراطور)[١]. لا بل تمّ التخليّ عن حفلات النصر (التي ساهمت كثيراً في ترسيخ عظمة روما في أذهان مواطنيها)، حيث لم يعد حفل النصر حقّاً مكتسباً لكلّ قائد انتصر في المعركة، بل صار نعمة يتفضّل بها صاحب الأمر عليه. في أيام الجمهوريّة لا يطالب بموكب النصر إلّا من أُخذ فأل الحرب باسمه، وبعد أن أسندت قيادة الجيوش للإمبراطور أصبح الفأل دائماً باسمه، وبالتالي أضيف كلّ انتصار إليه[٢].

إنّ القادة الذين استحقّوا شكر الدولة والوطن كانوا في حظوة البلاط، لم يكن يترك لهم سوى الطواف أو الفخر الأصغر بالملابس المظفّرة دون أن يرتفعوا إلى درجة الأبطال الأوائل في مثل هذه الحفلات الفخمة. وهذا ما يفسّر لنا سرّ الأرقام التي يباهينا بها أغسطس عندما يتحدّث أنّه وقع عليه الاختيار للطواف مرّة، وإعلان النصر ثلاث مرّات، وأنّه حصل ٢١ مرّة على لقب إمبراطور... وأنّ مجلس الشيوخ أمر في عهده بإقامة الصلوات العامّة شكراً للآلهة وإقراراً برعايتها وعرفاناً بجميلها ٥٥ مرّة، وهكذا بلغ عدد الأيام التي عيَّدَ فيها الشعب مبتهجاً ٨٩٠ يوماً بناء على أوامر مجلس الشيوخ[٣]. إنّ المدقّق مليّاً بهذه المعلومات سيكتشف كم فقد مجلس الشيوخ من هيبته وجلالته بوصفه السلطة التشريعيّة في الدولة الرومانيّة، فبعد أن كان يسيّر دفّة الأمور ويضع للدولة سياستها، صار مجلساً للدمى يلهو به حاكم فرد. ففي الثالث من كانون الثاني سنة ٢٧ ق.م أعلن أغسطس عن رغبته في التخلّي عن كافّة السلطات الاستثنائيّة التي كان مجلس الشيوخ قد منحه إياها، ورغبته في وضعها ثانية تحت تصرّف هذا المجلس والشعب الروماني، ولكنّ مؤيّديه وأنصاره قابلوا خطواته (المسرحيّة) هذه بالاستنكار والاحتجاج، وطلبوا أن لا يتخلّى عن إدارة أمور الدولة، ونزولاً

[١]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام، ج٢، روما وإمبراطوريّتها، ترجمة فريد داغر وفؤاد أبو ريحان، ط٢، منشورات عويدات، باريس-بيروت ١٩٨٦م، ص٢٩٣.

[٢]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٢٤.

[٣]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام، ج٢، م.س، ص٢٩٣.

عند رغبة المجلس قبل بتسلّم السلطة البروقنصليّة لكلّ من إسبانيا وغالية وسوريا لمدّة عشر سنوات، وبذلك ضمن أغسطس القوّة العسكريّة بحكم أن معظم قطع الجيش الروماني كانت تعسكر في هذه المقاطعات، كما ضمن القوّة الاقتصاديّة بحكم أنّ هذه الولايات كانت أغنى ولايات الإمبراطوريّة الرومانيّة، وهكذا تهيّأت له السبل لوضع يده على مؤسّسات الدولة الدستوريّة. ولم يكتف أغسطس بهذا القدر من السلطة والسيادة الفعليّة في الدولة، فعمد إلى إنشاء لجنة عرفت باسم أصدقاء قيصر Amici Caesaris تتولّى إعداد جدول بأعمال مجلس الشيوخ، وتتألّف من القناصل وممثّل من كلّ سلطة حكوميّة أخرى بالإضافة إلى ١٥ شيخاً ينتخبون لمدّة ستّة أشهر، وبذلك يكون قد ضيّق مجال بحث القضايا في مجلس الشيوخ وجعلها بمشيئته. إنّ هذه القرارات التي اتّخذها أغسطس تبيّن بما لا يدع مجالاً للشكّ أنّ مجلس الشيوخ الروماني فقد سلطته الحقيقيّة وتحوّل إلى مجلس صوري الهدف الأوّل والأخير له تأييد قرارات الدكتاتور والتهليل والتصفيق له، حقّاً إنّ أغسطس قضى على روح العمل الديمقراطي في الدولة الرومانيّة[١].

كما حال نظام الحكم الاستبدادي في العصر الإمبراطوري دون قيام معارضة حقيقيّة، حتّى لو على مستوى الثقافة والفكر، لا بل إنّ تدوين التاريخ الذي لا يعدو سوى أنّه توثيق أحداث الماضي وأخباره، لم ينج من هذا القمع، بعد أن أثار هواجس السلطات العامّة وشكوكها، فقد قام أغسطس في أواخر أيام عهده بإحراق كتاب في تاريخ الرومان، كان قد وضعه مؤرّخ عرف بنزعته الموالية للعصر الجمهوري[٢]. حتّى ضبّاط الجيش الروماني تحاشوا المشاريع الكبرى، حدّوا من مطامحهم لتظلّ إنجازاتهم في مستوى يلفت انتباه الأمير من دون أن تثير في نفسه الغيرة، حرصوا ألاّ يظهروا أمام سيّدهم بهالة تغشي البصر[٣]. والأهمّ من كلّ ما تقدّم أنّ الإمبراطور كان على رأس الجيش الروماني، فمهما نأت معسكراته وتباعدت مخيّماته وحاميته عن العاصمة روما، ظلّت المؤسّسة العسكريّة في يده سيفاً مسلّطاً على الحياة

[١]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، دار مرايا للطباعة والنشر والتوزيع، دبي ٢٠٢٠م، ص٢٢٣.

[٢]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام، ج٢، م.س، ص٤٤٨.

[٣]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٢٤.

المدنيّة والسياسيّة في روما. وهكذا بتسليم السلطة إليه وإلقاء مقاليد الحكم بين يديه، تأمّنت له أسباب السؤدد والسيادة وسلس له الأمر ولان. وكان عند الإمبراطور حاشية كبيرة من الولاة والمندوبين أو المعتمدين، وكان الولاة والمعتمدون في العصر الإمبراطوري يستمدّون سلطتهم من مشيئة الإمبراطور وإرادته المعبرّ عنها بقرار أو مرسوم، لذا فهم سيحاسبون من قبله متى شاء وكيفما شاء، وجميعهم مسؤولون أمامه عن أمور وظائفهم، التي يقومون بها، يؤدّون له الحساب، ويأتمرون بأمره دون نقاش[١].

ثانياً: تيبيروس Tiberius (١٤م – ٣٧م)

لقد كان الإمبراطور أغسطس واضع أسس هذا النظام السياسي الجديد، لكن واجهته مشكلة حقيقيّة في أواخر عهده؛ هي إيجاد وريث للعرش، وبعد شدّ وجذب اختار تيبيروس Tiberius لوراثة العرش، وكان اختياره قد جاء بعد فوات الفرصة، فحين كان يعمل تيبيروس على إنقاذ الإمبراطوريّة وسمعتها من الهزائم التي منيت بها الجيوش الرومانيّة في ألمانيا، نأى عنه أغسطس وقرّب إليه أحفاده من ابنته جوليا Julia أرملة أجريباAgrippa ، لا بل أجبره على تطليق زوجته فيبسانياVipsania ، ليزوّجه ابنته جوليا، ليمسي ديّوثها، حيث اشتهرت بمغامرتها الغراميّة الفاجرة في روما، وغضب منه حين لم يرض عن سلوكها، فغادر تيبيروس إلى جزيرة رودس Rhodes، وفي تلك الجزيرة النائيّة تركه الإمبراطور يبلغ سنّ الشيخوخة، وهو يدرس الفلسفة، طوال الفترة الممتدّة ما بين (١٢ ق.م – ٢م). لكن وفاة أحفاد أغسطس من ابنته جوليا فتّت في عضده وأضعفت قواه[٢]، وبالتالي لم يكن أمامه إلاّ أن يتبنّى تيبيروس، وتمّ ذلك في سنة ٤م، وهكذا صار الوارث الشرعي للعرش[٣]. وعندما لفظ أغسطس أنفاسه الأخيرة أمرت ليفيا درسولا Livia Drusilla (زوجة أغسطس وأم تيبيروس) بإخفاء الخبر عن الجميع وأحاطت القصر بالحرس ومنعت الدخول والخروج، وأرسلت وراء تيبيروس ليأتي على عجل، فرغم أنّ تيبيروس كان الوريث الشرعي والوحيد، إلاّ أنّ دعائم النظام

[١]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام، ج٢، م.س، ص٢٩٢.

[٢]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح أو الحضارة الرومانيّة، ج٢، مج٣، ترجمة: محمّد بدران، بيروت ١٩٨٨م، ص٩٧.

[٣]- أشرف صالح سيد، تيبيروس ثاني أباطرة الرومان ٤٢ ق.م- ٣٧م، شركة الكتاب العربي الإلكتروني، بيروت ٢٠٠٨م، ص٢٨.

الإمبراطوري لم تكن قد تمتّنت بعد، وكان يخالطها الكثير من المفاهيم الجمهوريّة، وبالتالي كانت خشية ليفيا من وثوب الطامعين في العرش عليه ما يبرّرها[١].

كان تيبيروس على المستوى النفسي رجلاً شريراً، سريع الغضب، أقرب إلى العزلة والانطواء، يفتقر إلى الحب، طُبع على هذه العادات مُنذ الصغر. أمّا على المستوى الأخلاقي فكان رجلاً براغماتيّاً، لا يرعى عهداً ولا ذمّة، تعلّم من أوغسطس أنّ المصلحة هي مقياس العلاقات، كما كان رجلاً متهكّماً، كثير المجون، يهوى هتك الأطفال، ويطارد سيّدات روما بعروض قذرة، كان له جواريه المتخصّصات في تعليمه فنون الجنس، وعبيده المخصوصون لتعليمه فنون القتال، كان يتمتّع بتعذيب الآخرين ليكونوا وقوداً لمزاجه الدمويّ[٢]. إنّ فهم صفات هذا الرجل وأخلاقه يسهّل علينا فهم سياسته وأساليبه في الحكم، فكيف كانت سيرته في السلطة؟

لمّا تولىّ تيبيروس رئاسة الدولة كان في الخامسة والخمسين من عمره، كره المجتمع ولم يعد يرى في السلطان سعادة[٣]، صار رجلاً شديد الحذر من كلّ من يُحتمل أن يطمع في العرش أو ينافسه السلطة، كان دائم المتابعة لأخبار ونوايا الجميع، ولمّا كانت والدته ليفيا هي التي سهّلت له سُبل الحصول على ولاية العهد ومن بعده العرش، ولما كانت قد تعوّدت على ممارسة شؤون الحكم مع زوجها أوغسطس، فإنّها أنفت أن تترك السلطة، حتّى أنّ الواقفين على بابها كانوا أكثر من الواقفين على باب ابنها الإمبراطور، لا بل كان أوّل منشور إمبراطوري أصدره تيبيروس يحمل توقيعه وتوقيعها معاً[٤]. وسرعان ما بدأ الشقاق بين الأم وابنها، حيث ظهرت شخصيّة تيبيروس الحقيقيّة؛ دكتاتور متفرّد برأيه لم يأذن لأمّه التي ناهزت الثمانين أن تشاركه الحكم، قلّص من حضورها، وفرض عليها الإقامة الجبريّة في قصرها، ورفض زيارتها حتّى ماتت، وإمعاناً في الانتقام منها رفض دفن جثتها حتّى تعفّنت.

---

[١]- نور قطرميز، المرأة الرومانيّة في العصر الإمبراطوري من ٣١ ق.م إلى ٣٣٠م، رسالة معدّة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، جامعة دمشق ٢٠١٤م، ص١٦٧.

[٢]- أشرف صالح سيّد، تيبيروس ثاني أباطرة الرومان، م.س، ص٢٠، ٢١.

[٣]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٢، مج٣، م.س، ص٩٧.

[٤]- نور قطرميز، المرأة الرومانيّة في العصر الإمبراطوري، م.س، ص١٦٨.

وهكذا تفرّد تيبيروس في الحكم، ومنذ أتيح له ذلك فرض جوّاً من الإرهاب على روما من خلال تفعيله لقانون الخيانة العظمى Maiestas، الذي أورثته الجمهوريّة للإمبراطوريّة، إذ كان هذا القانون في العصر الجمهوري يعاقب بشدّة وبلا رحمة كلّ من تجرّأ على النيل من جلال الشعب الروماني، ولمّا كان النظام الإمبراطوري الدكتاتوري الجديد قد أفرغ الشعب الروماني في شخص الإمبراطور، وقضى بتفويض السلطة إليه، وتجسّدت الدولة فيه، فقد أضحى الإمبراطور الممثّل الحقيقي للشعب الروماني. هذا ناهيك عن أنّ صلاحيات التريبون (نقيب العوام) التي تمتّع بها الإمبراطور جعلته الممثّل المكّرس والمقدّس للطبقة الكادحة، والوارث الأدبي لوظيفة نقيب العوام، تلك الوظيفة التي استخدمت في الماضي وما كان لها صلاحيات واسعة للوقوف في وجه أعداء هذه الطبقة الكادحة الممثّلة بالشعب الروماني. وبما أنّ الإمبراطور صار ممثّلاً لهذا الشعب، كان لهذا الأمر من الطواعية والمرونة ما يجعل منه أداة رهيبة في يد الأباطرة الذين تنتابهم وساوس الظنون والشكوك. يشهد على ذلك التهم الداخلة في هذا الباب، حيث كانت من السخرية بما يثير التعجب، فكلّ مخالفة أو عبث لقسم أدّاه الإمبراطور، والإخلال بواجب الاحترام نحو شخص الإمبراطور، وإبداء أيّ رأي معارض ينتقص من إدارة الإمبراطور ومشيئته، من قريب أو بعيد، كان كافياً لملاحقة المتّهمين قضائيّاً، والحكم عليهم بالموت في أكثر الأحيان[١]، حتّى أنّ تيبيروس قام بمحاكمة رجل باع تمثال الإمبراطور ضمن أثاث منزله بتهمة الخيانة العظمى[٢]. لذلك كان من الطبيعي أن يكثر السعاة والوشاة والعيون حتّى ظهرت منهم طبقة من المحترفين Delatores، راحوا يشون بالناس فيساق المتّهمون منهم إلى المحاكم، وكانت مكافآت هؤلاء المخبرين تصرف لهم من مصادرة أموال المحكوم عليهم[٣].

وهكذا تمسّك تيبيروس بقانون الخيانة العظمى، وطبّقه لا في الحالات التي وضع من أجلها بل للتنكيل بمن كان يبغضه أو يخشاه. لم يؤاخذ به أصحاب الأفعال وحسب، بل

[١]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام، ج٢، م.س، ص٢٩٧.

[٢]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٣٢.

[٣]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام، ج٢، م.س، ص٢٩٧.

حتّى أصحاب الأقوال والإشارات وربمّا الهواجس (فما يناجي به الصديق صديقه هاجس لا غير)، عندها فقط اختفت الصراحة، وشاع جوّ من الإرهاب، وانعدمت الثقة بين الأهل والأقارب، وعزّ الوفاء لدى الخدم والأتباع. إنّ ما جبل عليه تيبيروس من كآبة وتكتّم وحبّه للانعزال والانطواء، انعكس بظلاله الثقيلة على المجتمع، فصارت الصداقة عبئاً، والصراحة طيشاً، والفضيلة تكلّفاً يثير في الأذهان ذكريات ماض سعيد. لقد كان شرّ طغيان هذا الإمبراطور يمارس في ظلّ القانون وتحت رداء العدالة، في هذه الحال يغرق الشقي باللوح الذي يتمسّك به[١].

إنّه لمن المخجل أنّ القانون الذي كان يراد به الحفاظ على حرمة الشعب الروماني من المسّ، استحال في عصر الإمبراطوريّة إلى سيف مسلّط فوق رؤوس الشعب الروماني نفسه[٢]. والناس مذنبون مهما كانت التهم ملفقّة، فالرجل يقتل فقط لأنّه رأى في الحلم الإمبراطور يضع إكليلاً ذابلاً على رأسه، فيفسّر على أنّه فأل شرير، وامرأة تنفى لأنّها أظهرت الامتعاض لمصير زوجها، وأخرى تعدم لأنّها بكت على إعدام ابنها، العاطفة الطبيعيّة كانت جناية، ودمعة الأم كانت خيانة[٣]. وبواسطة هذا القانون أيضاً ضيّق تيبيروس على الكتّاب والمفكّرين، وقيّد حريّة الكلمة والفكر، حتّى أنّه أحرق أحد كُتب التاريخ الروماني أيضاً (كما فعل سلفه أغسطس من قبل)؛ لأنّ صاحب الكتاب وضع كتابه بتجرّد، لا بل أوذي الرجل واضطر أن ينتحر ليتخلّص ممّا بُـيّـت له من أذى وضرر أكبر[٤].

لم ير التاريخ أبداً طاغية افتقر إلى مساعد ومساند، لذا وجد تيبيروس من يعينه على تكريس سطوته على الدولة، ويشدّ على ساعده للفتك بالناس، لكنّ الغريب في الأمر أنّ قضاة روما وشيوخها كانوا من أعانوه على ذلك، فبدل أن يناضلوا لتكريس المفاهيم الجمهوريّة، ويسعوا لإعادة الحياة لها، كانوا على أتمّ الاستعداد لإدانة كلّ من يوجّه له إصبع الاتهام بجرم

[١]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٢٩.

[٢]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام، ج٢، م.س، ص٢٩.

[٣]- أديث هاملتون، الأسلوب الروماني في الأدب والفنّ والحياة، ترجمة: حنا عبود، منشورات وزارة الثقافة- المعهد العالي للفنون المسرحيّة، دمشق ١٩٩٧م، ص٢٢٥.

[٤]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام، ج٢، م.س، ص٤٤٨.

الخيانة العظمى. لم يكن مجلس الشيوخ في العصر الجمهوري يفصل كهيئة قضائيّة في مسائل الخواص، لكنّه بتفويض من الجمعيّة الشعبيّة كان ينظر في التهم الموجّهة إلى حلفاء روما. فقرّر تيبيروس أن يكلّفه بالنظر في جرم الخيانة العظمى وبتهمة المسّ بحرمة الشعب الروماني المجسّدة في شخصه، فقبل الشيوخ المهمّة وسايروه في الأمر، رضخوا وخنعوا حتّى انزلقوا إلى خسّة لا توصف[١]، انحدروا إلى أدنى درجات الجبن والخنوع، رضوا بدناءة وطاعة عمياء في تنفيذ رغبات الإمبراطور، وتصفية من تحوم حولهم الشكوك، الأمر الذي غذّى الحقد والبغضاء في قلوب الناس عليهم، كما يشهد على ذلك أدب العصر[٢]. لا بل إنّ أكابر أعضاء مجلس الشيوخ تملّقوا للوزير لوكيوس سيانوس Lucius Sejanus (وزير تيبيروس)، وتحوّلوا إلى مخبرين عنده على زملائهم[٣]. وهكذا انحطّ مجلس الشيوخ من مؤسّسة ترسم سياسة الدولة وتديرها إلى مؤسّسة مترهّلة يربو عدد أعضائها عن الألف عضو، تنبع تصرّفاتهم من وحي مصالحهم الشخصيّة وأنانيّتهم الفرديّة[٤].

لم يتعمّد تيبيروس إذلال الشيوخ، أكبر شكواه كان من إقبالهم الحثيث على سُبل الذُل والمهانة، لم ينفك طيلة حكمه يعبرّ عن اشمئزازه من هذا السلوك المهين[٥]، بينما هم تسابقوا فيما بينهم ليروه من هو أعظم خنوعاً، حتّى أنّه اعتاد كلّما خرج من مجلس الشيوخ أن يحدّث نفسه قائلاً: «كم أنّ هؤلاء الرجال مستعدّون أن يكونوا عبيداً؟!»، لقد هبط شيوخ روما إلى أعماق لا قاع لها[٦]، وصل التملّق معهم أنّ أحد المنافقين منهم تحدّث عن «واجبات الإمبراطور المقدّسة»، فسأله تيبيروس أن يقصد ألوهيّة المستقبل لا ألوهيّة

---

[١]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٣٠.

[٢]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام، ج٢، م.س، ص٢٩.

[٣]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٣٠.

[٤]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج٢، في العصور الملكيّة الجمهوريّة الإمبراطوريّة حتّى عهد الإمبراطور قسطنطين، دار الفكر الحديث، لبنان ١٩٦٧م، ص٢٦.

[٥]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٣١.

[٦]- أديث هاملتون، الأسلوب الروماني، م.س، ص٢٢٥.

الحاضر[١]. ولمّا أراد مجلس الشيوخ أن يسمّي أحد الأشهر باسمه، كما سمّى من قبل شهرين باسم قيصر وأغسطس، ردّ هذه التحية ردّاً ينطوي على السخرية فقال: «وماذا تفعلون إذا وجد لديكم ثلاثة عشر قيصراً»[٢]. لكنّ تيبيروس كسائر البشر كان يريد الأمر وضدّه، كانت سياسته في واد ورغبته في واد. ودّ لو وجد بجانبه مجلساً موقّراً حرّاً يضفي الحرمة على حكومته، في الوقت نفسه كان يخشى أن يحاربه المجلس في كلّ نزواته ورغباته، أمام هذا التناقض بين ما يجب أن يكون والمصلحة الشخصيّة الضيّقة فيما هو كائن، تغلّب الفرد الدكتاتور الذي في داخله على منطق رجل الدولة السياسي القدير[٣].

منذ أن توفّيت ليفيا (والدة تيبيروس) سنة ٢٩م، فقد الإمبراطور إرشادها وردعها، فتمادى الوزير سيانوس في غروره[٤]، وهو فارس من عائلة أتروسكيّة، وصل إلى مرتبة قائد الحرس الإمبراطوري (البريتوري)، استغلّ الظروف، فأوحى إلى تيبيروس ببناء ثكنات دائمة في روما، وهكذا أصبح هو قائد القوّات الوحيدة الموجودة في العاصمة[٥]، كما قام باستبدال بعض القادة العسكريين بآخرين من أتباعه وأصدقائه، ونجح في إقناع تيبيروس في أن يشاركه منصب القنصليّة لسنة ٣١م بعد انتخابات شكليّة، وهكذا كانت مطامعه في السلطة تتدرّج في الظهور على الملأ، فما كان من أنطونيا أرملة دروسوس (شقيق الإمبراطور) إلّا أن وضعت الإمبراطور في صورة خيانة ونفاق وكذب وخداع سيانوس، وعندما قلّب الإمبراطور الأمور جليّاً أدرك صحّة كلام أرملة شقيقه[٦]، وفي ١٨ تشرين الأول من السنة ذاتها تلي في جلسة خاصّة لمجلس الشيوخ خطاب مطوّل اختتم بإعلان خيانة سيانوس، فحمل إلى السجن وأعدم، ومزّق الغوغاء في روما جثّته إرباً إرباً[٧]. لقد كان الإمبراطور يُسند لكلّ من يريد التخلّص منه تهمة الخيانة

[١]- جفري بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، مراجعة عبد الغفار مكاوي، مجلّة عالم المعرفة، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد ١٧٣، الكويت ١٩٩٣م، ص٧٩، ٨٠.

[٢]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٢، مج٣، م.س، ص١٠٠.

[٣]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٣٢.

[٤]- نور قطرميز، المرأة الرومانيّة في العصر الإمبراطوري، م.س، ص١٧١.

[٥]- محمّد الزين، محمّد محفّل، دراسات في تاريخ الرومان، ج٢، ط٨، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٥م، ص١٠٨.

[٦]- نور قطرميز، المرأة الرومانيّة في العصر الإمبراطوري، م.س، ص١٧١.

[٧]- محمّد الزين، محمّد محفل، دراسات في تاريخ الرومان، ج٢، م.س، ص١٠٩.

العظمى والمسّ بحرمة الإمبراطور على اعتبار أنّه يقوم بدور نقيب العوام في حماية الشعب[١]، لكن في قضية سيانوس لم يقف الأمر عند شخص هذا الوزير، لقد قُتل كلّ إنسان له علاقة به، ولم ينج من القتل حتّى ابنته الصغرى، ولمّا كان القانون الروماني يحرّم قتل العذارى، فقد فضّت بكارتها قبل خنقها. وانتحرت مطلّقته أبكاتا Apicata، ولكنّها أرسلت قبل انتحارها خطاباً إلى الإمبراطور تشرح فيه أنّ ليفيللا Livilla (ابنة أخيه) قد اشتركت مع سيانوس في تسميم ابن عمّها وزوجها دروسوس (أي ابن تيبيروس الوحيد)، فأمر الإمبراطور بمحاكمة ليفيللا، لكنّها امتنعت عن الطعام حتّى ماتت[٢].

لقد لاحق تيبيروس جماعة سيانوس وضربهم بقسوة، وكان دروسوس بن جرمانيكوس Germanicus ابن أخيه دروسوس أحد الضحايا الذين لاقوا حتفهم في هذه القضيّة، فبعد أن اقتنع تيبيروس أنّ أغريبينا الكبرى Agripina (أرملة جرمانيكوس) ومن شدّ على يدها من أعضاء مجلس الشيوخ يتآمرون على سلامة شخصه، استعان بقانون الخيانة العظمى وقام بنفيها من روما بعد أن استصدر قراراً من مجلس الشيوخ بذلك، وأدخل ابنها دروسوس السجن، فامتنعت المرأة عن الطعام حتّى مات[٣]. لقد عاش تيبيروس ستّ أعوام بعد سقوط سيانوس بطيش تام، وأكبر الظنّ أنّه أصيب بخبال في عقله، وبغير هذا الافتراض لا نستطيع أن نفسّر ما قام به من أعمال القسوة التي لا يصدّقها عقل، فنحن نسمع أنّه كان في ذلك الوقت يؤيّد تهم الخيانة العظمى التي توجّه للناس، بدل أن يعارض فيها كما كان يفعل من قبل، حتّى بلغ عدد الذين أدينوا بتلك التهمة ثلاثة وستين شخصاً. وبينما كان يستريح في بيت لوكلس في ميسنوم في سنة ٣٧م، انتابته حالة إغماء، وخيّل إلى كلّ من حوله أنّه قضى نحبه، والتفّت بطانته من فورها حول جايوس كاليغولا الذي سيصبح في ظنّها إمبراطوراً بعد قليل، ولكنّهم روّعوا حين رؤوا تيبيروس يفيق من نوبته، ثم أنجاهم من هذه الورطة صديق لهم جميعاً، بأن كتم أنفاسه بوسادة[٤].

[١]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٣٢.

[٢]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٢، مج٣، م.س، ص١٠٦.

[٣]- نور قطرميز، المرأة الرومانيّة في العصر الإمبراطوري، م.س، ص١٧١، ١٧٢.

[٤]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٢، مج٣، م.س، ص١٠٦.

ثالثاً: كاليغولا Galigula (٣٧ - ٤١م)

بعد تيبيروس تولّى السلطة كاليغولا الذي قيل عنه إنّه كان خير خادم وشرّ مخدوم، الأمران مرتبطان، فمن بهرته السلطة وهو مأمور لا بدّ له من الإفراط في استخدامها وهو أمير[١]. كان اسمه الحقيقي جايوس، وهو ابن جرمانيكوس وأغريبينا، تربىّ منذ طفولته في معسكرات الجيش، فأطلق عليه اسم مستعار هو كاليغولا، أي ذو الحذاء الصغير، كان يتمتّع بشعبيّة كبيرة بين الجنود، أمّا على المستوى الثقافي فإنّ تيبيروس لم يفعل شيئاً لتعليمه، فتلقّى دروساً لا تليق من هيروديس أجريبا، ومن بعض الأمراء الشرقيين الشبّان، الذين سمح له بالاختلاط بهم[٢]، لذلك لن تجد عنده ثقافة رجل مُناط به حكم إمبراطوريّة كبرى، بل تراه مفتوناً بالتمثيل، أعان كثيراً من الممثّلين، حتّى أنّه هو نفسه كان يمثّل ويرقص سرّاً، وإذا رغب أن يشاهده الناظرون كان يدعو أعضاء مجلس الشيوخ متظاهراً أنّه يدعوهم لأمر جلل، فإذا ما حضروا يريهم رقصه[٣].

لقد بادر كاليغولا إلى إلغاء كلّ قرارات تيبيروس، ثمّ أمر بإحياء الجمعيّة الشعبيّة (ثمّ ألغاها فيما بعد)، ومن ضمن قراراته كان إبطال القانون البغيض قانون الخيانة العظمى، الذي يعاقب كلّ من يمسّ بحرمة الإمبراطور. ومن هنا يظهر أنّ الأمراء الأشرار يبدؤون بما انتهى إليه الأخيار، إذ إنّ ما يفعله من سبقهم بدافع الفضيلة يفعلونه هم بنيّة المعاكسة لا غير. هذه النزعة كثيراً ما تؤدّي إلى قرارات مفيدة جداً، لولا أنّها تؤدّي أحياناً للأسف إلى أخرى مضادّة جداً. ماذا جنت روما من قرارات كاليغولا؟ ألغى المسطرة (قانون الخيانة العظمى)، لكنّه اغتال على يد العسكر كلّ من سخط عليه، ولم يقتصر سخطه على بعض الشيوخ بل شمل المجلس بكامله[٤]، فصار يصدر الأوامر إلى مجلس الشيوخ ويطلب إليه الخضوع لهذه الأوامر بعد أن كان يظهر لهم عظيم الاحترام، وصار يسمح للشيوخ أن يقبّلوا قدميه تعظيماً

---

[١]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٣٩.

[٢]- محمّد الزين، محمّد محفل، دراسات في تاريخ الرومان، ج٢، م.س، ص١١٠.

[٣]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٢، مج٣، م.س، ص١٠٨.

[٤]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٣٩.

له وتبجيلاً، ثم يتقبّل منهم الشكر على تشريفه إيّاهم بهذا التقبيل[١].

لقد كان هناك شيء واحد يؤمن به، هو أنّ العالم ملك له يفعل به ما يشاء، وكان رجلاً يبحث عن اللذة والشهوة الساديّة، وقد صرّح ذات مرّة قائلاً :«كم أتمنى أن يكون للإنسانيّة رقبة واحدة فقط، حتّى أتمكّن من فصلها بضربة واحدة فقط»[٢]. ومن المؤكّد أنّه كان مضطرباً عقليّاً، يشهد على ذلك نوبات الصرع التي كانت تنتابه، حتّى يكاد أن يعجز أحياناً عن المشي أو التفكير، كان يختفي أسفل سريره إذا سمع هزيم الرعد، ويفرّ مذعوراً إذا شاهد اللهب فوق بركان إتنا، وكان مصاباً بالأرق يطوف به ليلاً في جنبات قصره الواسع يصيح طالباً طلوع الفجر[٣]. ولذلك فإنّ أعماله ومشاريعه السياسيّة تبدو وكأنّها صادرة عن رجل مجنون، مثل انتصاره المضحك على الألمان بأسرى مأجورين لهم شعر أشقر مستعار، وحملته الفاشلة على بريطانيا بجنود تلقّوا أمراً بجمع قواقع البحر[٤]. أمّا عن سياسته الماليّة فقد تمثّلت في تبديد الأموال، التي كان قد جمعها تيبيروس، بإنفاقها على الملذّات والولائم وبناء قوارب النزهات وما شابه، كان يستحمّ بالعطور بدل الماء. كان الأغنياء في عهده يتّهمون بالخيانة ويحكم عليهم بالإعدام لتصادر أموالهم لصالح الخزينة العامّة. دُبّرت بعد ثلاث سنوات مؤامرة للتخلّص من هذا العبث المذلّ، ولكن كاليغولا كشف سرّ المؤامرة وانتقم لنفسه بأن فرض على البلاد جوّاً من الإرهاب زاده وحشيّة حبّه الجنوني للأذى، فكان يأمر الجلّادين بأن يقتلوا الضحايا بـإثخانهم بجراح صغيرة كثيرة حتّى يشعروا بأنّهم يموتون[٥].

إنّ هذا الطغيان الفظيع الذي اتّسم به سلوك الأباطرة يعود إلى طبع متأصّل في الرومان، ذلك أنّهم مرّوا مباشرة من سلطة القانون إلى حكم الهوى، كانوا أسياداً ثمّ بغتة وجدوا أنفسهم عبيداً، من دون أن يعرفوا حالاً وسطاً يبثّ فيهم روح الوداعة والرأفة. ظلّت الشراسة غالبة على أخلاقهم. عامل حكّامهم المواطنين وحتّى الأشراف منهم كما كان هؤلاء يعاملون

---

[١]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٢، مج٣، م.س، ص١٠٩.

[٢]- محمّد الزين، محمّد محفل، دراسات في تاريخ الرومان، ج٢، م.س، ص١١٠.

[٣]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٢، مج٣، م.س، ص١٠٨.

[٤]- محمّد الزين، محمّد محفل، دراسات في تاريخ الرومان، ج٢، م.س، ص١١٠.

[٥]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٢، مج٣، م.س، ص١١٠، ١١١.

الأعداء بعد أن تغلّبوا عليهم، أداروا شؤون الجميع بالأسلوب نفسه[١]. عموماً ما كاد هذا الإمبراطور يبلغ التاسعة والعشرين من عمره حتّى أضحى شيخاً مُنهك القوى من كثرة الإفراط بالموبقات والملذّات، ولعلّه أصيب ببعض الأمراض السارية، كان وجهه كالحاً، عيناه غائرتان، ونظراته خبيثة تنمّ عن الغدر والخيانة، وافته المنيّة على غفلة سنة ٤١م على يد الحرس الإمبراطوري الذي طالما ابتاع ولاءه بالهدايا[٢].

رابعاً: كلاوديوس Claudius (٤١- ٥٤م)

لقد اغتيل كاليغولا، اجتمع مجلس الشيوخ لينظر في أمر الخلافة، وبينما كان يناقش المسألة اقتحم القصر بعض الجنود بنيّة النهب، عثروا في أحد مخابئه على شخص خائف ترتعد فرائصه من الخوف، هو كلوديوس، فنادوا به إمبراطورا[٣]. كان كلوديوس هو الأخ الأصغر لجرمانيكوس (أي ابن أخ تيبيروس)، وكان مصاب بعاهات جسمانيّة، وكان مهملاً من والديه[٤]. ولمّا كان مجلس الشيوخ يخشى صولة الجند، وافق على مقترحهم، كما أنّه فضّل أن يتعامل مع إنسان متحذلق عديم الأذى بدل أن يتعامل مع رجل مجنون مستهتر لا يعبأ بشيء، لذلك أيّد المجلس الجنود في اختيارهم، وارتقى كلوديوس عرش الإمبراطوريّة في تردّد وخشية[٥]. لقد كان هذا الإمبراطور مولعاً بمشاهدة المجالدة، التي كانت تنتهي دائماً بسيول من الدماء، فتطبّع على الضراوة، قيل عنه أنّه كان شديد الحبّ لإراقة الدماء بسبب مداومته على مشاهدة تلك الألعاب العنيفة، إنّ حال هذا الرجل الذي نشأ وديعاً وانتهى به الأمر بارتكاب فظائع يندى لها جبين الإنسانيّة يدلّ على المشكلة التي كان يعاني منها الرومان في تربيتهم[٦].

كانت أولى خطواته أنّه منح كلّ جندي من جنود الحرس الإمبراطوري، الذين رفعوه إلى

[١]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٣٩.

[٢]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٢، مج٣، م.س، ص١١٢.

[٣]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٣٩.

[٤]- محمّد الزين، محمّد محفل، دراسات في تاريخ الرومان، ج٢، م.س، ص١١١.

[٥]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٢، مج٣، م.س، ص١١٤.

[٦]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٣٦.

العرش، خمسة عشر ألف سسترس، وكان كاليغولا قد وهبهم من قبل هبات من هذا النوع، لكنّه لم يهبها لتكون ثمناً صريحاً لعرش الإمبراطوريّة. لقد اعترف كلوديوس وقتئذ بسلطان الجيش وسيادته، في الوقت الذي ألغى فيه مرّة أخرى حقّ الجمعيّة الشعبيّة في اختيار كبار الحكام[١]. أمّا خطوته الثانية كانت أنّه صوّب ضربة قاضية للخطط التقليديّة عندما أسند لضبّاط الجيش السلطة القضائيّة، مع أنّ النزاع بين جايوس ماريوس Gaius Marius وسولا Sulla ، ذلك النزاع الطويل المرير في عصر الجمهوريّة الرومانيّة، لم يقم إلّا بسبب هذا الأمر بالذات، من يتولّى سلطة القضاء؟ الشيوخ أم الفرسان؟ وهنا جاء رجل أبله في إحدى نزواته لينزع من أيدي الجميع هذه السلطة الخطيرة، ويضع بكيفيةٍ مثيرةٍ جدّاً حدّاً لحرب اكتوت بنارها كلّ جهات الأرض[٢]. وهكذا بدأت ترتسم ملامح نظام سياسي حاكم جديد يسيطر الجيش على جميع مفاصله.

أمّا داخل القصر الإمبراطوري فلم تكن الصورة أكثر إشراقاً، حيث لم يقصر حبك المؤامرات على وراثة العرش على عهد تيبيروس، بل بلغت ذروتها في عهد كلوديوس[٣]، فأوّلاً تآمرت عليه زوجته مسيلينا Messalina الطموحة والمسرفة مع عشيقها سيلوس Silius، فحكم عليها بالإعدام في سنة ٤٨م. تلتها أغريبينا الصغرى بنت أغريبينا الكبرى[٤]، فلمّا أبعدت هذه الأخيرة عن روما بأمر تيبيروس، نُقل ابنها كاليغولا إلى القصر، ودُبّر لشقيقاته الثلاث أزواجاً، كانت أغريبينا الصغرى كارهة لزواجها من أكنيوس المنتمي لعائلة الأهينوياربين Ahenobardi (وقد لقّبوا بهذا اللقب لأنّ رجال هذه الأسرة كانت لهم لحية شبيهة بلون البرونز). وكان الزوج شخصاً فظّاً، قاتلاً، خليعاً، متهكّماً، ساخراً، لكنّها أنجبت منه قبل وفاته بطفلها نيرون. أمّا زواجها الثاني فإنّه لم يطل، حيث توفيّ زوجها الثري الكبير غايوس كريسبوسCrispus، تاركاً لأغريبينا مالاً وفيراً، إلّا أنّ الشائعات تردّدت بأنّها دسّت

[١]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٢، مج٣، م.س، ص١١٥.

[٢]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٣٩.

[٣]- نور قطرميز، المرأة الرومانيّة في العصر الإمبراطوري، م.س، ص١٧٣.

[٤]- محمّد الزين، محمّد محفل، دراسات في تاريخ الرومان، ج٢، م.س، ص١١٥.

له السمّ"[١]. لقد كان هدف أغريبينا أن تتزوّج كلوديوس، وأن تتخلّص من ابنه برتيناكس Pertinax، وأن تجعل ابنها نيرون بعد أن يتبنّاه كلوديوس وارثاً للعرش، ولم يعقها عن تنفيذ قصدها أنّها ابنة أخته، بل أتاحت لها علاقة القربى هذه أن تتردّد عليه بحجّة أنّه خالها، وتودّدت له، وسحرته بفتور أجفانها وبنظرات عينيها، ولم يكن منه إلاّ أن وقف فجأة أمام مجلس الشيوخ، وطلب إليهم أن يأمروه بالزواج مرّة أخرى لخير الدولة، فوافق المجلس على طلبه وسخر منه رجال الحرس الإمبراطوري، وتمّ زواج المحارم هذا، وصارت أغريبينا السيّدة الأولى[٢].

كانت هي في الثانية والثلاثين من عمرها، أمّا كلوديوس فكان في السابعة والخمسين، كانت قواه آخذة في الانحلال، وتغلّبت عليه بما وهبت من سحر وفتنة، فأقنعته أن يتبنّى نيرون، وأن يزوّجه وهو في السادسة عشر من عمره بابنته أوكتافيا وهي في الثالثة عشر من عمرها، ثمّ استدعت الفيلسوف سينيكا، وكان منفيّاً بأمر كلوديوس، وجعلته مربيّاً لابنها، وأفلحت في تعيين صديقها بروس Burrus في الحرس الإمبراطوري، وأطلقت العنان لجشعها ونهمها لحبّ المال. ولم تتردّد عن قتل لوليا بولينا؛ لأنّ كلوديوس امتدح رشاقتها ذات مرّة، ثمّ أمرت بدسّ السمّ لماركس سلانسMarcus Silanus لخوفها من أن يعيّنه الإمبراطور وريثاً له من بعده. وتآمرت مع بلاس ونارسس، وبذلك زُجّ بملك المال في السجن، والذي لم يكن وفائه يقلّ عن تلوّث يديه، وفي السجن قضى بقيّة حياته. كان الإمبراطور قد أضعفه اعتلال صحّته ومغامراته النسائيّة، فترك زوجته أغريبينا وصديقها بلاس يروّعان البلاد بحكم إرهابي آخر، كان الناس يُنهبون وينفون أو يقتلون؛ لأنّ الخزينة خوت من المال، وبالتالي كان لا بدّ من ملئها بالمصادرات، وكان من نتيجة هذا أنّ خمسة وثلاثين رجلاً من أعضاء مجلس الشيوخ وثلاثمائة من الفرسان حكم عليهم بالإعدام في الثلاثة عشر سنة التي حكم فيها كلوديوس[٣].

[١]- نور قطرميز، المرأة الرومانيّة في العصر الإمبراطوري، م.س، ص١٧٣.

[٢]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٢، مج٣، م.س، ص١٢٣.

[٣]- م.ن، ص١٢٣.

تنبّه كلوديوس أخيراً إلى ما كانت تفعله زوجته أغريبينا، فاعتزم أن يضع حدّاً لسلطانها ويفسد خططها بتعيين برتيناكس وارثاً للملك من بعده. لكن لم يطل به الأمد، حيث كانت زوجته أغريبينا قد أعدّت له السمّ، ودسّت له جرعة قاتلة في فطيرة، فأعياه السمّ وغاب رشده، ثمّ استفرغ وبدأ يتماثل للشفاء، فطلب أغريبينا من الطبيب المتآمر بتعجيل الوفاة، وكان هذا الطبيب قد استعجل الاستفراغ بواسطة ريشة أوز، فما كان منه إلّا أن صار يدهن حلق كلوديوس بما تبقّى من السمّ بذات الريشة، فمات الإمبراطور في سنة ٥٤م مسموماً[١]. ولم تجد أغريبينا صعوبة في تثبيت ابنها في العرش، ولاسيّما بعد أن ضمن له بروس تأييد الحرس الإمبراطوري بكامل قوّته[٢]. إنّ كلّ ما فعله مجلس الشيوخ أنّه وافق على جلوس الابن-الذي من أجله ارتكبت أغريبينا جريمتها- على العرش[٣]. وبعد أن تمكّنت أغريبينا من تنصيب ابنها على عرش الإمبراطوريّة دسّت السمّ لكلّ من يمكن أن يفضح أمرها، أو أن ينافس ابنها، لا بل وصل بها الشطط أنّها أرادت أن تحضر جلسات مجلس الشيوخ، فرفض الشيوخ ذلك مؤكّدين أنّ العُرف يقضي بعدم السماح لأيّ امرأة مهما كانت أن تحضر جلساته[٤].

خامساً: نيرون Nero (٥٤ - ٦٨م)

ينتمي نيرون إلى أسرة الأهينوياربين كما أسلفنا، وكان أفراد العائلة هذه قد اشتهروا في روما مدى خمسة قرون بقدراتهم وغطرستهم وقسوة قلوبهم، وكان جدّ نيرون لأبيه مولعاً بالمجالدة وقتال الوحوش وركوب العربات والمسرح، وقد اضطر الإمبراطور أغسطس إلى تأنيبه لقسوته في معاملة موظّفيه وأرقائه. وقد زاد ابنه أكنيوس (والد نيرون) من شهرة العائلة عندما انغمس في الفسق، ومضاجعة المحارم، والوحشيّة، والخيانة. وقد تزوّج في سنة ٢٨م من أغريبينا الصغرى وهي في ١٣من عمرها، فأنجبت له ابنه الوحيد نيرون[٥]. بعد أن تولّى

[١]- نور قطرميز، المرأة الرومانيّة في العصر الإمبراطوري، م.س، ص١٧٧.

[٢]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٢، مج٣، م.س، ص١٢٦.

[٣]- أديث هاملتون، الأسلوب الروماني، م.س، ص٢٢٦.

[٤]- نور قطرميز، المرأة الرومانيّة في العصر الإمبراطوري، م.س، ص١٧٧.

[٥]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٢، مج٣، م.س، ص١٢٥.

نيرون العرش ظلّ يظهر الإكرام والاحترام لوالدته، فكان يواكبها في المواكب الرسميّة ماشياً إلى جانب هودجها، وكان يجلس في المآدب عند موطئ قدميها، لكنّه بدأ يستثقل ظلّها، في الوقت الذي كانت تحيّيه الناس كإمبراطور، وكبارهم يسجدون أمامه صاغرين، فصار يحرجه تدخّل أمه في قضايا السلطة والحكم. وكان سينيكا، الذي درّب نيرون وعلّمه، يرى أنّ وقار روما يقضي أن يمثّلها ذكر لا أنثى، وحدث أنّه بعد أن تولّى نيرون بفترة قصيرة، رتَّبَ هذا الفيلسوف الوزير لقاء للإمبراطور مع وفد أرمني دون علم أحد، وجاء الوفد الأرمني في الموعد المحدّد[١]، وعندما كان الاجتماع قائماً مع السفراء الأجانب، دخلت أمّه أغريبينا المجلس وتقدّمت صوب الحاضرين، مع قصد واضح لاتخاذ مقعدها هناك والمشاركة في الحديث. إنّ كلّ الذين رووا المشهد استولى عليهم الخوف والدهشة. كان سينيكا وحده في هذا الاضطراب الشامل يمتلك زمام العقل، فطلب من الإمبراطور أن يتقدّم ويحيّي أمه إعلاناً منه أنّه يقبلها بين الحضور، ثمّ عيّن للوفد موعداً آخر لإتمام الجلسة، فخرج الأرمن مكبّرين محبّة نيرون لأمّه واحترامه لها. وهكذا تحت مظهر الاحترام البنوي أُنقذ شرف الدولة[٢].

لما كان سينيكا وبروس يريدان أن يستأثرا بالسلطة كلّها لنفسيهما، فإنّهما تركا نيرون ينهمك في ملذّاته الجنسيّة كما يهوى، وكان عند نيرون ميل كبير لتلك الحياة الفاجرة، حتّى أنّه كان يتخفّى ويزور المواخير، ويطوف في الشوارع، ويتردّد على الحانات في الليل بصحبة أمثاله من رفاق السوء، يسطون على الحوانيت ويسيئون إلى النساء، ويفسقون بالغلمان، ويجرّدون من يقابلون ممّا معهم ثمّ يضربونهم ويقتلونهم. كما حاول سينيكا أن يحوّل شبق الإمبراطور نحو معتوقة تدعى كلوديا أكتي CludiaActe [٣]. لكنّ نيرون لم يعد يقبل بعد ذلك أن يكون لعبة بيد غيره، كان بلاس حبيب أغريبينا ويمينها ما يزال مديراً المال، فلمّا بدأ الرجل يتردّد في إجابة طلبات نيرون لإنفاق المال على حبيبته كلوديا، ثار غضبه وقام بصرفه من مهمّته وأخرجه من البلاط، فثارت ثائرة أغريبينا وبدأ الشقاق بين الأم وابنها[٤].

[١]- نور قطرميز، المرأة الرومانيّة في العصر الإمبراطوري، م.س، ص١٧٨.

[٢]- أديث هاملتون، الأسلوب الروماني، م.س، ص٢٢٧.

[٣]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٢، مج٣، م.س، ص١٢٩.

[٤]- نور قطرميز، المرأة الرومانيّة في العصر الإمبراطوري، م.س، ص١٧٩.

أعلنت الأم أنّ برتيناكس (ابن كلوديوس) هو الوريث الشرعي للعرش، وأنذرت ولدها بأنّها ستسقطه بنفس الوسائل التي أوصلته بها إلى العرش، فردّ نيرون على هذا التهديد بدسّ السمّ لـ برتيناكس، فما كان من أغريبينا إلاّ أن آوت إلى قصرها الصغير وكتبت فيه مذكراتها، فضحت فيها ما خفي في أروقة القصر الإمبراطوري، فكان مادّة دسمة للمؤرّخين فيما بعد، عندها فقط قرّر نيرون أن يقتل أمّه وفعل. إنّ المرء يصعب عليه أن يصدّق أنّ هذا الإنسان الذي قتل أمّه، هو شاب في الثانية والعشرين من عمره، مغرم بالشعر والموسيقا والفنون الجميلة، والتماثيل والألعاب الرياضيّة، وأنّه كان معجباً باليونان لمباراتهم الرياضيّة التي تنمّي فيهم القوّة الجسميّة والمهارة الفنيّة، وأنّه عمل على إدخال هذه المباريات في روما[١]، وأنّه كان يذهب إلى بلاد اليونان ويشارك في الألعاب الأولمبيّة، ودعا إلى مسرح يوناني في روما وأغدق في سبيل ذلك الأموال بسخاء، وكان يمثّل في المسرحيات اليونانيّة. لكنّ تتبّع أخباره حتّى في هذه يكشف لنا عن طيشه الجنوني، فعندما قام محدثو النعمة بإحراق أحياء الفقراء في روما مستغلّين غيابه في بلاد اليونان (أنتيومAntium) سنة ٦٤م، عاد مسرعاً إلى روما، وقام هو بإحراق الأحياء الفخمة لهؤلاء الأثرياء الجدد، وبالتالي صار يعرف بالتاريخ بأنّه من أحرق روما[٢].

لقد دبّرت المؤامرات لخلعه، لكنّ عيونه كشفوا أمرها، فكان جوابه كجواب أسلافه، وهو فرض جوّ من الإرهاب الشديد على البلاد، فأعيد قانون الخيانة العظمى والمسّ بحرمة الإمبراطور، ووجّهت التهم إلى كلّ من كان موتهم مرغوباً فيه من الناحية الأمنيّة أو الماليّة؛ ذلك أنّ نيرون كان قد أفقر خزانة الدولة كما أفقرها كاليغولا من قبل بإسرافه وتبذيره[٣]. لكن سرعان ما ستتمرّد بلاد الغال، وسيدعم تمرّدها قائد الجيش الروماني المرابط في إسبانيا، ويتمرّد أعضاء مجلس الشيوخ على هذا الفتى المنحلّ، وفي محاولة إلقاء القبض عليه، طعن نفسه بخنجره في عنقه ومات غير مأسوف عليه.

---

[١]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٢، مج٣، م.س، ص١٢٧.

[٢]- أديث هاملتون، الأسلوب الروماني، م.س، ص٩.

[٣]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٢، مج٣، م.س، ص١٣٣.

سادساً: فسباسيان (٧٠ ـ ٧٩م)

لقد مرّ على عرش الإمبراطوريّة الرومانيّة سيفيروس غالبا Servius Galba ثمّ ماركس أوتوMarcus Etho ثمّ أولس فيتليوس AulusVitillius مرور الأشباح[١]. ففي شهر أكتوبر سنة ٦٩م، زحف أنطونيوس قائد قوّات فسباسيان وهزم قوّات فيتليوس في معركة كرمونا، حيث سالت الدماء كما لم تسل من قبل، وزحفت الجيوش الظافرة على روما، وتصدّت لها فلول قوّات فيتليوس، بينما كان هو مختبئاً في قصره احتشد الشعب ليشاهد المعركة، كأنّ منظر القتال وإراقة الدماء لم يكن إلّا منظراً يعرض عليهم لتسليتهم، وبينما كانت المعركة حامية الوطيس كان البعض ينهبون المتاجر والمنازل، وكانت العاهرات يمارسن مهنتهن كأنّ الحياة تسير على ما يرام، وبعد النصر سحلت جثّة فيتليوس في شوارع روما، بينما نصّب الجيش فسباسيان على العرش، وذلك في سنة ٧٠م [٢].

لقد استهدف فسباسيان أمراً واحداً، هو تجديد الإمبراطوريّة بعد أن توالى على إدارتها ستّة حكام طغاة، كلّهم قساة غير موفّقين في معظم مشاريعهم، والأدهى من كلّ هذا كلّه أنّهم مبذّرون إلى حدّ الجنون[٣]. بينما كان فسباسيان رجلاً بخيلاً خسيساً، حتّى أنّه أرغم أحد الأكارين العاملين في اسطبلاته أن يدفع له نصف ما قبضه من صاحب قضيّة تعويضاً لتسهيل مقابلة له مع الإمبراطور، كما كان يبيع المقاعد بواسطة إحدى محظياته، هي أنطونيا تشانيس، وهي أَمَةٌ معتقة[٤]. ولم يعن كثيراً بالأخلاق، فمن آرائه أنّه لم يكن يرى أنّ من الضروري أن يتزوّج الرجل خليلته، وقد ظلّ هو نفسه بعد وفاة زوجته يعيش مع جارية معتوقة، ولم يعنَ قطّ بأن يعقد عليها، ولمّا ماتت وزّع قلبه بين عدّة محظيّات[٥].

---

[١]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٤٢.

[٢]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٢، مج٣، م.س، ص١٤٤.

[٣]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٤٢.

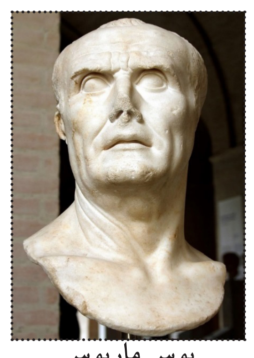
[٤]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام، ج٢، م.س، ص٣٦٣.

[٥]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٢، مج٣، م.س، ص١٥٠.

سابعاً: دومتيان Domitianus (٨١- ٩٦م)

لقد خلف فسباسيان ولده تيتيوس Titus (٧٩- ٨١م) فاستبشر الشعب بتولّيه السلطة، ثمّ جاء بعده أخوه دومتيان الذي كان ذا طبع خجول، وربّما لهذا السبب أبدى وحشيّة أكبر، أو بعبارة أدقّ إصراراً أكبر على الأذى[١]. كان في البداية شديداً لا يلين، ثمّ انحدر نحو قسوة وحشيّة، عمل على إذلال مجلس الشيوخ، وبثّ روح الانتقام في نفوس أعضائه[٢]، كفّر عن قلّة هيبته بالسخاء المفرط للجيش، رفع جراية الجنود بنسبة ٢٥ ٪ فصارت تقدر بـ ١٣,٥ أوقية نحاس، وهكذا ألحق بالدولة كسراً لا جبر له. في مثل هذا الوضع ليست الكارثة أن ينتشر الترف، بل أن يحصل في وقت يجب أن يقنع المرء فيه بالضروري[٣].

لم يقف غرور دومتيان عند هذا الحدّ، والغرور من صفات الوضيعين، بل وصل الأمر به أن ملأ الكابيتول بتماثيله، ونادى بتأليه أخيه وزوجته وأخته، كما نادى بتأليه نفسه. وأنشأ طائفة من الكهنة للإشراف على عبادته. وفي سنة ٨٩م طرد الفلاسفة من روما، ثمّ أخرجهم من إيطاليا كلّها في سنة ٩٥م، وشمل القرار طرد المنجّمين لأنّهم تنبؤوا بموته. وكان قبل ذلك بسنتين (٩٣م) قد أمر بإعدام بعض المسيحيين لأنّهم رفضوا أن يقدّموا القرابين أمام تمثاله[٤]. أعاد العمل بقانون الخيانة العظمى، وسام بواسطته الناس سوء العذاب، حتّى أنّه استصدر قراراً حكم فيه بالإعدام على امرأة نزعت ثيابها أمام صورته، وعلى مواطن زيّن غرفته بخارطة الأرض[٥]. لكنّ عداوته الأعنف انصبّت على الطبقة الارستقراطيّة ولا سيّما في السنوات الثلاثة الأخيرة من حكمه (٩٣- ٩٦م) حيث ساد جوّ من الإرهاب المخيف، وانتشرت



يوس ماريوس

[١]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٤٢.

[٢]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٢، مج٣، م.س، ص١٥٧.

[٣]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٥١.

[٤]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٢، مج٣، م.س، ص١٥٧.

[٥]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٣٢.

الوشاية بصورة لم يسبق لها مثيل[١]، فلماّ أن تضاعف عدد الوشاة، لم يكن أحد من المواطنين ذوي المكانة يأمن على نفسه وهو في عقر داره من الجواسيس؛ لأنّ دومتيان كان يأخذ الوشايات على محمل الجد، فنفى الأشراف أو قام بقتلهم، وفتك بالمتآمرين عليه أو المشكوك فيهم، كما كان يسوم المتّهمين بأبشع صنوف العذاب، حتّى أنّه كان يدخل النار في أعضائهم التناسليّة[٢]. ولمّا امتدّ أذاه إلى أهل بيته، سارع إلى التخلّص منه جمعٌ من أقرب مواليه بموافقة زوجته في سنة ٩٦م، بعد أن اقتنع الجميع أنّ خطره واحد على من يواليه وعلى من يعاديه، إذ كان يخشى الجميع ويتّهم الجميع. قبل أن ينفّذوا مشروعهم بحثوا عن خلف فوقع اختيارهم على شيخ جليل هو نيرفاNerva (٩٦- ٩٨م)[٣].

ثامناً: وقفة مع عصر الطغاة (٢٧ق.م- ٩٦م)

بموت دومتيان ينتهي «عصر الطغاة»، عصر اتّسم بالقتل والاجرام، وخلف هذه الصورة البشعة لهذا العصر، كان هناك أباطرة هم ضحايا سلطانهم، فقد كان مرضٌ من نوع ما يجري في دمائهم، أشعلت نار حرارته شهواتهم الطليقة، وسلطان لا حدود له[٤]، إنّ أكبر سلطة يمارسها أمير، هي السلطة التي يمارسها بعد انهيار نظم جمهوري؛ لأنّه يرث بالكامل سلطة الشعب[٥]. وهكذا كان تاريخ خلفاء أغسطس أو عصر الطغاة، هو تاريخ أباطرة يخلقون الجنون بقوّتهم التي لا حدود لها، أن تكون سيّد العالم، أن تكون حرّاً بكل معنى الكلمة، أن تحقّق أيّ رغبة تخطر على بالك، أن تنفّذ أيّ نزوة من نزواتك دون الاهتمام بمدى تطرّفها، ألاّ يكون هناك شيء في طريق أيّ رغبة من رغباتك مهما كانت، لا شخص ولا عادات ولا قانون، سيجعل منك رجلاً أعمى البصيرة، وهذا كان حال أباطرة روما[٦].

لا يحقّ لنا أن نغفر لأباطرة هذه الحقبة ما اقترفوه من الجرائم الخسيسة الدنيئة، فرغم

[١]- محمّد الزين، محمّد محفل، دراسات في تاريخ الرومان، ج٢، م.س، ص١٢٥.

[٢]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٢، مج٣، م.س، ص١٥٧.

[٣]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٤٢.

[٤]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٢، مج٣، م.س، ص١٥٩.

[٥]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٣٩.

[٦]- أديث هاملتون،الأسلوب الروماني، م.س، ص٢٢٤.

أنّهم نشروا السلام في ربوع الإمبراطوريّة، لكنّهم بسطوا حكم الإرهاب على روما، أفسدوا الأخلاق بما ضربوه من أمثلة القسوة المروّعة والفجور الطليق، قطّعوا أوصال إيطاليا بإشعال نار الحرب الأهليّة التي كانت أشدّ هولاً من حروب قيصر وبومي، ملؤوا الجزائر بالمنفيين، أفنوا خيرة شباب روما وأشدّ رجالها بأساً وأقواهم قلوباً، نشروا الغدر والخيانة بين الأقارب والأصدقاء بإجزال العطاء للجواسيس الشرهين. لقد استبدلت روما حكم القانون بطغيان الأفراد، وشادت صروحاً ضخمة بجمع أموال الضرائب من الولايات، أضعفت النفوس بإرهاب ذوي المواهب والابتكار حتّى لاذوا بالصمت. وشرّ هذا كلّه أنّها جعلت الجيش صاحب السلطة العليا في البلاد. وهذا ما سيمهّد لعصر جديد، عصر سيشقّ فيه الجنود عصا الطاعة على أباطرتهم ويستبدّون هم بالحكم[١].

تاسعاً: كومودوس الثاني (١٨٠– ١٩٧م)

بعد أن توفيّ مارك أوريل Marcus Aurelius (١٦١- ١٨٠م) تولّى ابنه كومودوس العرش، وحش في صورة إنسان، عبد لأرذل الغرائز، منقاد لأهوائه ووزرائه وبطانته، كان رجلاً فاسقاً بكلّ ما تعنيه الكلمة من معنى، بدأ حكمه بتخلّيه عن غزوات أبيه ومشاريعه على حدود الدانوب حتّى يتسنّى له التمتّع بالملذّات في روما، كما وقع في حلقة من أصدقاء السوء التافهين. بدأ في عهده قادة الحرس الإمبراطوري يديرون عمليّة مخجلة لبيع الوظائف العامّة في الدولة، وأمام كلّ هذه الانحطاطات ساد في روما جوّ إرهابي شبيه بأسوأ أيام حكم كاليغولا ونيرون، وقد كان كومودوس يتمتّع بنصيب من الشعبيّة بين غوغاء العاصمة بوصفه رجلاً يشاركهم ملذّاتهم الوضيعة، ولم يجرؤ أحد على اغتياله إلّا في سنة ١٩٧م[٢]. تآمرت عليه جماعة خلّصت الدنيا من شرّه، ثمّ أجلست على العرش شيخاً وقوراً يسمى برتيناكس Pertinax، فأحاط به في الحين حرس القصر وفتكوا به[٣]، حزن عليه الجميع بعد هذه الجريمة النكراء، والتي لم يستطع جمهور روما أن يجد لها تفسيراً، لقد كان من الصعب فهم

[١]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٢، مج٣، م.س، ص١٦٠.

[٢]- محمّد الزين، محمّد محفل، دراسات في تاريخ الرومان، ج٢، م.س، ص١٤٢.

[٣]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٤٧.

كيف يمكن أن يستقبل شخص مثله بموجة من الفرح والسرور باعتباره رجلاً شريفاً، ثمّ لا يلبث بعد قليل أن يُقتل بخنجر طغمة مارقة من الجنود، لم يكن لجشعها حدود[١].

بعد ذلك حدث صراع على السلطة بين عدد من قادة الجيوش انتهى باستيلاء يوليانوس على السلطة، الذي لم يكن على قدر من المسؤوليّة، فأهمل شؤون الإمبراطوريّة والجيش، وكان ميّالاً للترف والمجون، ما أدّى إلى إسقاطه ومناداة جيوش الولايات الرومانيّة لتنصيب قادتها أباطرة، فأعلنت القوّات الرومانيّة في بانونيا (المجر) سبتيموس سيفيروس Septimius Severus إمبراطوراً، ونصّب جيش غالة (فرنسا) كلاوميوس ألبينوس Albinus إمبراطوراً، كذلك قامت الفرق الرومانيّة في سوريا بتتويج بيسينيوس نيجرNigr إمبراطوراً ثالثاً[٢].

عاشراً: سبتيموس سيفيروس (١٩٣- ٢١١م)

لقد سقطت هيبة روما وشيوخها وحرمتهم المقدّسة وذهبت أدراج الرياح ولن تعود بعد أن فتك سبتيموس سيفيروس بـ ألبينوس، حمل رأسه على رمح إلى مجلس الشيوخ الذي أصيب بالخزي وخيبة الأمل، واستمع إلى رسالة وجّهها إليه المنتصر المتعالي، يمتدح فيها ماريوس وسولا، وكأنّه أراد فيها أن يرسم لها خطّته ويمتدح طرائقه. أمّا المتمرّدون ورجال السياسة الماكرون واللاعبون الحاذقون وبقيّة الخصوم فقد علاهم الرعب والذهول، ووجّهت تهم الخيانة إلى أربعة وستين من أعضاء مجلس الشيوخ، ونفّذ حكم الإعدام في تسعة وعشرين منهم. أمّا في الشرق لم تكن معاملة أنصار نيجر بأفضل من ذلك، إذ أصبحت زوجته كما أصبح أولاده رهائن، كيلت لهم كلّ أنواع العذاب والانتقام[٣]. إنّ من محرّضات الطغيان عند أباطرة الرومان أنّهم كانوا يتقلّدون في الوقت عينه جميع المناصب، ويتمتّعون بجميع الصلاحيات، فهم القيصر والدكتاتور ونقيب الشعب والمحتسب ورئيس الكهان،

[١]- جان بابليون، إمبراطورات سوريّات، تاريخ فترة التأثير السوري في الإمبراطوريّة الرومانيّة، ترجمة يوسف شلب الشام، العربي للطباعة والنشر، دمشق ١٩٨٧م، ص٧٧.

[٢]- موسى زايد، إصلاحات الإمبراطور سبتيموس سيفيروس العسكريّة، مجلّة جامعة الزيتونة، العدد (٣٠) يونيو ٢٠١٩م، ص٢٣٠.

[٣]- جان بابليون، إمبراطورات سوريّات، م.س، ص٨٦.

وحتّى القنصل إن رغب الإمبراطور بهذا المنصب أيضا[١]. كما أضحت للإمبراطور سلطة إصدار القوانين بعد أن أصبحت له السلطة المطلقة في الدولة. ومنذ عهد كاليغولا حصل الإمبراطور على مجموعة من الامتيازات بموجب قانون الجلوس على عرش الإمبراطوريّة، ذلك القانون الذي صوّت عليه مجلس الشيوخ، وصدّق عليه من قبل مجلس الشعب، والذي خوّل الإمبراطور تشريع القوانين ووضع الدساتير الإمبراطوريّة[٢].

لقد أقام سبتيموس سيفيروس حكمه على تأييد الجيش بعد أن قاد انقلاباً عسكريّاً على السلطة السياسيّة ممثّلة بمجلس الشيوخ، وحوّل الزعامة إلى ملكيّة عسكريّة وراثيّة، وزاد عدد عناصر الجيش، ورفع مرتّبات الجنود، وعمد إلى الإسراف في أموال الدولة، وتكديس الأموال في خزانته هو، وجعل الخدمة العسكريّة إلزاميّة، لكنّه حرّمها على أبناء إيطاليا[٣]. لقد نشر سبتيموس سيفيروس سلطته على الإمبراطوريّة كشبكة ملقاة عليها من أقصاها إلى أقصاها، ولم يكتف بكلّ الألقاب الرسميّة، حتّى راق له أن يطلق على نفسه لقب «المسيطر»، وفرضه على الرومان الذين كانوا حتّى ذلك الوقت يقاومون سلطانه، فأهانهم وأذلّ بهذا اللقب كرامتهم، وأخذ يمارس القضاء في قصره لا في الساحة العامّة[٤].

ولم يخفّف هذا الدكتاتور من غلواء ساسته إلّا بعد أن فتّت في عضد السنين، حيث فقد الإمبراطور نشاطه الوحشي عندما تقدّم به العمر، ووجد طريقاً وسطاً مع مجلس الشيوخ الذي أفزعته المذابح في السنوات الأولى من حكمه. وتحسّنت الحالة الاقتصاديّة بعض الشيء، لكنّ الطبقات الارستقراطيّة العليا لم ترض عن نظام الحكم العسكري الأوتوقراطي الجديد، وأخذت تتحيّن الفرصة للخلاص من هذا الوحش الهرم[٥]، الذي بدأ ينقاد لآراء حاشيته ووزرائه. إنّ كثيراً من الأباطرة الذين سبقوه أو خلفوه فعلوا الأمر عينه، فلا يوجد

---

[١]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٤٧.

[٢]- شفيق الجرّاح، دراسة في تطوّر الحقوق الرومانيّة ومؤسّساتها، ط٧، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٥م، ص٥٣.

[٣]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٣، مج٣، م.س، ص٣٢٣.

[٤]- جان بابليون، إمبراطورات سوريّات، م.س، ص٨٧.

[٥]- رستوفتزف، تاريخ الإمبراطورية الرومانيّة الاجتماعي والاقتصادي، ترجمة زكي علي ومحمّد سليم سالم، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة ١٩٥٧م، ص٤٩٢.

إمبراطور أشدّ غيرة على منصبه من تيبيروس أوّلاً وسبتيموس سيفيروس ثانياً، ومع ذلك انقاد كلاهما كليّاً لكبير أعوانه، كان الوزير سيانوس يدير تيبيروس، بينما كان بلوتيانوس Plautianus يدير سبتيموس سيفيروس[١].

كي يسيطر بلوتيانوس على الإمبراطوريّة زوّج ابنته بلوتيللا من كركلاّ Caracalla ابن الإمبراطور، الذي ما كاد أن يقارب سنّ الرشد، حيث لم يزد عمره على ١٧ ربيعاً، لكنّ مزاجه ونقائصه المرضيّة، التي تكشّفت فجأة عند خروجه من فترة المراهقة، جعلت الجميع يتوقّع الصدام بين الصهر وحميه، ففي الوقت الذي كان فيه هذا المليونير المغرور يعتقد أنّ كلّ شيء مسموح له، وأعطى لنفسه حقّ توبيخ هذا الأمير الجموح السيّئ التهذيب، وأراد أن يجعل منه زوجاً، كان هذا الشاب قد استسلم لكلّ أنواع المجون، حتّى أنّه كان يبدي لزوجته اشمئزازاً، ورفض أن يعيش معها في مسكنها. بينما كان العمّ المغرور الوقح ينفق بسخاء على أنصاره المتحمّسين، وقد شاء حظّ هذا المغرور أن يقوم بخطوة ناقصة، فركب إلى القصر بعربة تجرّها البغال، وكان هذا امتيازاً لا تستحقّه وظائفه، حيث لا يحقّ للخواص استعمال هذه العربة إلاّ لتأمين العلاقات العائليّة مع الأباطرة، وزيادة في الحذر لبس درعاً لم يتمكّن من إخفائه تحت جلبابه فخانه، وكان مطعناً جديداً بيد أعدائه، وما إن دخل على الإمبراطور حتّى انقضّ عليه كركلاّ وخلّصه سيفه وأهانه وأغلظ عليه القول، فتدخّل الإمبراطور ليكبح جماح هذا الغضب، ولكن كركلاّ الذي كانت ضغينته قد أسكرته، استدعى جنديّاً من حملة الفؤوس وأمره بقتل، فامتثل الجندي للأمر دون أن يتمكّن الإمبراطور من التدخّل لإيقاف الجريمة، ثمّ قذفت جثّة بلوتيانوس إلى الشارع فوراً عبر النافذة، وبقيت معروضة هناك أمام أنظار المارّة حتّى أمر سيفيروس أخيراً بدفنها في شهر حزيران سنة ٢٠٥م[٢].

بعد أن فرغ هذا الشاب المختلّ من قتل والد زوجته بدأ يخطّط لقتل والده، حيث لم يمض وقت طويل حتّى سئم الابن العاق كركلاّ من والده، ولم يعد يحتمل سلطة هذا العجوز العليل، فسعى لتدبير مكيدة له، يريد أن يقتله بعد الانتهاء من حملة بريطانيا، كان

---

[١]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٤٧.

[٢]- جان بابليون، إمبراطورات سوريّات، م.س، ص١٤٧- ١٥٨.

الوالد متهالكاً عليلاً قد هدّه داء النقرس، بينما كان الابن معاقاً في عقله، لكنّ التدابير التي اتخذها كانت فاشلة، هذا ولم تنجح المؤامرة، فأوقع الإمبراطور عقوبة قاسية على المتآمرين بعد أن استثنى منهم ابنه مدبّر المؤامرة ومقدّم السمّ لوالده. لم يكفّ هذا الابن المختلّ عن محاولات قتل أبيه، لكن في هذه المرّة استهدف كاستور أحد المقربين من والده للنيل بطريقة غير مباشرة من أب مازال يفرض نفسه، بحجّة أنّ كاستور حاول أن يعتدي على كركلاّ. أمّا المؤامرة الثالثة فكانت في الحملة الكتلونيّة عندما سمع الإمبراطور بصيحات الاستنكار من فرسان حرسه الخاصّ، فالتفت يريد أن ينظر ما الأمر، فإذا بابنه على بعد خطوتين منه يندفع والسيف في يده، لكن ما إن وقعت عينه في عين والده حتّى تراجع وتخلّى عن حركة التهديد، بينما وقف الأب يشاهد الموقف دون أن ينطق بحرف، وعند الرجوع إلى المعسكر كشف الأب عن صدره وطلب من ابنه أن يضربه بالسيف، لكن الفتى لم يجرؤ[١]. وهكذا صار بوسعنا أن نتنبّأ بأخلاق الإمبراطور الجديد الذي سيخلف أباه على العرش.

حادي عشر: كركلّا (١٨٨- ٢١٧م)

لم يكن كركلاّ طاغية عاديّاً بل يستحقّ أن ينعت بلقب مُبيد الإنسانيّة، لم يتعد ظُلم كاليغولا ونيرون ودميتيان ساحة روما، أمّا جرائم كركلاّ فإنّها شملت البريّة كلّها[٢]، كان كركلاّ قد قضى معظم طفولته ووقته بين أعضاء أعلى الطبقات الارستقراطيّة في روما، وأدرك إدراكاً تامّاً أنّ آراء آبيه وخططه كانت بغيضة تجاه الطبقات المثقّفة في الإمبراطوريّة، لكنّه أظهر من أوّل لحظة في حكمه أنّه سيسير على سياسة أبيه، وأنّه عازم على ألاّ يتراجع أو يمنح الطبقات العليا أيّ امتياز، ولما كان قد بدأ عهده بالنزاع الذي دبّ بينه وبين شقيقه جيتا Geta وجد مجلس الشيوخ الفرصة مناسبة لينحاز إلى جانب جيتا[٣]، في الواقع لم يكن جيتا خيراً من شقيقه، لكنّ فترة ظهوره القصيرة على المسرح لم تسمح له بإظهار مخازيه. وأيّاً يكن فإنّ كلاً من الشقيقين مارس سيرة فاسدة، وحياة منحلّة تشبه حياة

---

[١]- جان بابليون، إمبراطورات سوريّات، م.س، ص١٧٤، ١٧٥.

[٢]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٤٩.

[٣]- رستوفتزف، تاريخ الإمبراطورية الرومانيّة، م.س، ص٤٩٢.

كاليغولا ونيرون، فالموبقات التي ارتكبوها هي ذاتها وتشمل: القمار، ومعاشرة العاملين في السيرك، وجولات ليليّة فاجرة في الأحياء المنحطّة، إنّ ذلك العار هو الذي نخر الأسر الأرستقراطيّة في روما ونشر الوهن في جسد الدولة[١]. ورغم أنّ مجلس الشيوخ كان يعلم أنّ جيتا على شاكلة أخيه، إلّا أنّ أكثر القادة انحازوا إليه، وكشفوا لكركلّا عن عداء سافر، وكانت النتيجة اغتيال جيتا في سنة ٢١٢م وهو بين ذراعي أمّه فخضّب ثوبها بالدماء، والشقيق القاتل فرض جوّاً من الإرهاب على روما وعلى الولايات الرومانيّة على السواء[٢]، ويقال إنّه حكم بالموت على عشرين ألفاً من أتباع جيتا، وعلى كثير من المواطنين، وعلى أربع كاهنات من عذارى الربّة فستيا اتهمهن بالزنا[٣].

لقد جمع سبتيموس سيفروس أموالاً طائلة أثناء حكمه الطويل عن طريق النهب والتعسّف ومصادرة أملاك الخصوم دون وجه حقّ، وبما أنّ كركلّا فتح عهده بقتل شقيقه جيتا، شريكه في الحكم وصديق الجنود، كان لا بدّ من شراء ذمم هؤلاء الجنود، لقد أنفق كركلّا كنوز أبيه لاسترضائهم، لقد كان تبذير كركلّا الأخرق كارثة على الدولة؛ فلم تعد الجمهوريّة تستطيع أن تدوم لا مع الجنود ولا من دونهم، وهكذا فما أتت به الريح ذهبت به الزوابع. هذه الأموال التي يكدّسها الأمراء كثيراً ما تجلب الدمار لورثتها، ينبهر المرء بضخامتها فتعمي بصيرته، إن لم تفسد شعوره، يخطّط لمشاريع عظيمة اعتماداً على قوّة عارضة غير عاديّة، هي في العين أضخم منها في الواقع. وبالفعل فقد زاد كركلّا من مرتّبات الجنود، حتّى أنّها بلغت سبعين ألف ألف درهم، ما عجّل في انهيار اقتصاد الإمبراطوريّة الرومانيّة، وأفضى إلى ظهور أزمة اقتصاديّة في القرن الثالث[٤]، كما أفضى لأزمة حقيقيّة في السيادة والسلطة السياسيّة، فالجيش الروماني الذي كان في الأمس خادماً للدولة أصبح سيّدها بعد أن أصبح صاحب القرار الأوّل والأخير في تعيين الأباطرة وعزلهم[٥].

---

[١]- جان بابليون، إمبراطورات سوريّات، م.س، ص١٦٧.

[٢]- رستوفتزف، تاريخ الإمبراطورية الرومانيّة، م.س، ص٤٩٢.

[٣]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٣، مج٣، م.س، ص٣٢٥.

[٤]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٤٩.

[٥]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، م.س، ص٢٤٨.

لقد ظنّ كركلاّ أنّه يكفّر عن جرمه المقيت برفع أخيه المغتال إلى درجة إله، لكنّ من حكمة القدر أنّ المصير ذاته سيلقاه، وخشية أن يثور عليه الحرس انتقاماً لأميرهم المغدور أغدق كركلاّ عليهم العطاء، وشيّد له معبداً، وعيّن عليه قيّمين من كبار الكهنة. بهذا الإجراء تفادى كركلاّ اللعنة وسوء الذكر على ما اقترفت يداه، فلم يتسن للشيوخ فحص سيرته، لم ينعتوه بالطاغية كما فعلوا في حقّ كلوديوس الأوّل، مع أنّ هذا لم يكن أكثر استحقاقاً بالوصمة منه. لقد شهدت الأعوام التي تلت وفاة سبتيموس سيفيروس أفظع الجرائم، بالغ كركلاّ في السخاء مع الجنود؛ لأنّ أباه نصحه، وهو على فراش الموت، أن يعمل على إثراء المقاتلين ويهمل غيرهم، «أجزلوا العطاء للجند ولا تهتمّوا للآخرين»[١]، وقد أكد كركلاّ في أكثر من مناسبة أنّه «لا أحد سواي يجب أن يمتلك المال حتّى أعطيه لجنودي». لم يقم الأباطرة الرومان من بعده بأكثر من إغداق الأموال على الجيش، حتّى يتسنّى للإمبراطور أن يحتفظ بكرسيه أوّلاً وبرأسه ثانياً. لكنّ هذه السياسة لم تغن في شيء، ولم تفد في الحفاظ على الإمبراطوريّة[٢]، وإذا كانت متاحة لإمبراطور واحد فقط، فمن يأتي بعده لا يستطيع أن يجاريه في السخاء، فيفتك به الجيش. وبالفعل حيث سنرى على التواتر أباطرة روما يهلكون بسيوف جنودهم وسفهائهم على إثر مؤامرة أو إدانة من مجلس الشيوخ[٣].

بعد أن هلك كركلاّ بطعنة ماكرينوس Macrinus ومكائد، يئس الجنود إذ فقدوا أميراً سخيّاً بلا حساب، فانتخبوا ألغبال Elagabal حفيد كركلاّ ذا الأربعة عشر ربيعاً، والذي نصّب على العرش بمساندة الفرق الشرقيّة التي اشتراها بأموال المعبد، تلك الأموال التي أطلق يده فيها دون حرج، وقد تحوّلت الحياة في روما خلال السنوات الثلاث التي تولّى فيها الحكم إلى ألوان من مظاهر الانحراف التي باركها الدين[٤]، ولمّا أيقن الجنود أنّه لهى عنهم وانغمس في ملذّاته الخسيسة، سئموا منه ومن حكمه، وقتلوه هو وأمّه، كما قتلوا خلفه وابن

---

[١]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٥١، ١٥٢.

[٢]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، م.س، ص٢٤٩.

[٣]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٥٢.

[٤]- دونالد.ر. ددلي، حضارة روما، ترجمة جميل الذهبي وفاروق فريد، مراجعة صقر خفاجة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠٠٤م، ص٣٣٨.

عمّه إسكندر سيفيروس Alexander Severus(٢٢٢- ٢٣٥م) لأنّه رام العودة إلى النظام وأومأ بمعاقبتهم[١].

تعتبر السنوات التي تفصل بين مقتل إسكندر سيفيروس سنة ٢٣٥م وارتقاء دقلديانوس (٢٨٥ – ٣٠٥م) من أحلك الفترات في تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة[٢]، في مثل هذا الوضع لا يعمّر الطاغية طويلاً، يحلّ له فقط أن يرتكب ما شاء من الجرائم قبل أن يلقى حتفه[٣]. بعد اغتيال اسكندر سيفيروس نادى الجنود بأحد قادتهم إمبراطوراً، كان رجلاً من أصل وضيع، كان فلّاحاً من تراقيا، وضابطاً لا يحتلّ مركزاً عالياً، ذلك الرجل هو ماكسيمان Maximinus، ميزته الوحيدة قامته العملاقة وقوّته الجسمانيّة الخارقة، كانت فترة حكمه فترة لم تنقطع فيها الحروب الخارجيّة، لم يكن هذا الإمبراطور بحاجة إلى أن يطلب إلى مجلس الشيوخ أن يوليه الثقة، لا بل إنّه لم يظهر في روما، كان عليه مواجهة مقاومة عنيفة له في إيطاليا وإفريقيا، مقاومة لتلك المبادئ التي يقوم عليها حكمه، وأخيراً قتله جنوده بصحبة ابنه سنة ٢٣٨م، ونودي في إفريقيا بعضو هرم من أعضاء مجلس الشيوخ هو جورديان Gordianus والتفّت حوله الطبقات العليا من السكّان، غير أنّه وابنه جروديان الثاني هلكا في حربهما ضدّ جيش إفريقيا النظامي. تلاهما على العرش ماكسيموس Maximus، ثمّ بالبينوس Balbinus ثم غورديان الثالث (٢٣٨ – ٢٤٤م) [٤]، إلّا أنّ أحداً منهم لم ينج من نقمة الجيش، الذي ملّ الحروب وفقد الانضباط، ولم يعد يهمّ قادته وضباطه إلّا مصالحهم الخاصّة ونهب الأقاليم دون رحمة، والإطاحة بالإمبراطور البخيل، يكفينا أن نعلم أنّه في الفترة الواقعة ما بين سنتي ٢٣٥ – ٢٨٥م، تولىّ فيها عرش الدولة ستة وعشرون إمبراطوراً رومانيّاً قتلوا جميعاً نتيجة الصراع الداخلي على الحكم وتمرّد عناصر الجيش، إلّا إمبراطوراً واحداً مات ميتة طبيعيّة[٥].

---

[١]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٥٢، ١٥٣.

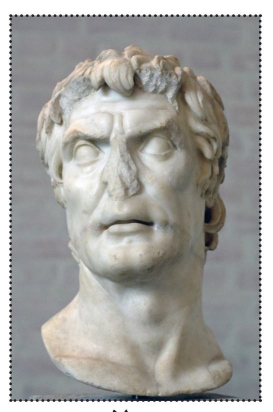
[٢]- رستوفتزف، تاريخ الإمبراطورية الرومانيّة، م.س، ص٣١٥.

[٣]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٥٣.

[٤]- رستوفتزف، تاريخ الإمبراطورية الرومانيّة، م.س، ص٥٢١.

[٥]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، م.س، ص٢٤٩.

خاتمة


سولا

إنّ الدارس لتاريخ الرومان سيجد أنّ النظام الجديد الذي وضعه أغسطس بعد أن قوّض أركان الجمهوريّة الرومانيّة، جعل من الإمبراطور الحاكم الفرد محور حياة الدولة، بمعنى أنّه ركّز جميع الصلاحيات التشريعيّة والتنفيذيّة وحتّى القضائيّة في يده، وبالتالي كان من الطبيعي أن تكون أبرز الشخصيّات في تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة من هؤلاء الأباطرة أو من وزرائهم الذين تحكّموا بهم. أمّا الملاحظة الثانية التي يسجّلها الدارس أنّ الإمبراطوريّة الرومانيّة كانت إمبراطوريّة الشرّ في العالم القديم، فتكت بمن فتكت، وأذلّت من أذلّت، نهبت ما تسنّى لها، صادرت وسرقت وفرضت الضرائب والأتاوات دون رحمة، وهكذا تكتمل الصورة: دولة عملاقة نهبت موارد العالم القديم، وبعد كلّ هذا وذلك يلهو بها مجموعة من الأباطرة التافهين، أباطرة يخاصمون كالأطفال، وينهبون كاللصوص، ويقتلون كالوحوش، أباطرة لم يتورّعوا عن قتل كلّ من عارض سلطتهم حتّى لو كان المعترض أمّهاتهم، دسّوا السمّ لمنافسيهم حتىّ لو كان منافسوهم أشقّاءهم أو من أبناء أشقائهم، لا همّ لهم سوى ملذّاتهم الجنسيّة وغرورهم ومصالحهم الخاصّة. إنّ المتابع لأفعال هذه الشخصيّات التي تعتبر الأبرز في تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة يدرك حجم اللامسؤوليّة عند هؤلاء الأباطرة، فانهارت في عهدهم القيم الجمهوريّة، وروح الجنديّة والانضباط، وتلاشى وقار الشيوخ، ولم يعد على رأس هذه الدولة سوى الأنذال، وكأنّ العصر الإمبراطوري لم يكن سوى تاريخ حفنة من الأباطرة الجشعين المخمورين القتلة، ومجلس شيوخ من محدثي النعمة عديمي الكرامة، وجماهير من الغوغاء كانت تميل للكسل كلّما تقدم بها الزمن، يكفيها أن تحصل على حصّتها من القمح كلّ شهر مجّاناً من الأباطرة الماجنين الذين كان يطيب لهم أن يشاركوا هؤلاء الغوغاء تسلياتهم البشعة. لذلك كان من الطبيعي في ظلّ سلسلة من هذه الشخصيّات على رأس الإمبراطوريّة الرومانيّة أن تنهار القيم الأخلاقيّة، وأن ينهار الاقتصاد، وأن تنهار الروابط الأسريّة، وأن ينهار الجيش ويتحوّل لسيف مسلّط عليها لا على أعدائها، وأن ينهار رجال السياسة ويتحوّلوا للإتجار بالوظائف والدولة وأموالها، بدل أن يصونوا مؤسّسات الدولة وهيبتها وسيادتها، لقد أسهمت أبرز الشخصيّات في تاريخ الإمبراطوريّة في انهيارها، إنّه الانهيار بكلّ ما تعني هذه الكلمة.

لائحة المصادر والمراجع

١. أديث هاملتون، الأسلوب الروماني في الأدب والفنّ والحياة، ترجمة: حنا عبود، منشورات وزارة الثقافة- المعهد العالي للفنون المسرحيّة، دمشق ١٩٩٧م.

٢. أشرف صالح سيّد، تيبيروس ثاني أباطرة الرومان ٤٢ ق.م- ٣٧م، شركة الكتاب العربي الإلكتروني، بيروت ٢٠٠٨م.

٣. أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام، ج٢، روما وإمبراطوريّتها، ترجمة فريد داغر وفؤاد أبو ريحان، ط٢، منشورات عويدات، باريس-بيروت ١٩٨٦م.

٤. جان بابليون، إمبراطورات سوريّات، تاريخ فترة التأثير السوري في الإمبراطوريّة الرومانيّة، ترجمة يوسف شلب الشام، العربي للطباعة والنشر، دمشق ١٩٨٧م.

٥. جفري بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، مراجعة عبد الغفار مكّاوي، مجلّة عالم المعرفة، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد ١٧٣، الكويت ١٩٩٣م.

٦. دونالد.ر. ددلى، حضارة روما، ترجمة جميل الذهبي وفاروق فريد، مراجعة صقر خفّاجة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠٠٤م.

٧. رستوفتزف، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة الاجتماعي والاقتصادي، ترجمة زكي علي ومحمّد سليم سالم، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة ١٩٥٧م.

٨. شفيق الجراح، دراسة في تطوّر الحقوق الرومانيّة ومؤسّساتها، ط٧، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٥م.

٩. عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، دار مرايا للطباعة والنشر والتوزيع، دبي ٢٠٢٠م.

١٠. محمّد الزين، محمّد محفّل، دراسات في تاريخ الرومان، ج٢، ط٨، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٥م.

١١. موسى زايد، إصلاحات الإمبراطور سبتيموس سيفيروس العسكريّة، مجلّة جامعة الزيتونة، العدد (٣٠) يونيو ٢٠١٩م.

١٢. مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، أسباب النهوض والانحطاط، ترجمة عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ٢٠١١م.

١٣. نور قطرميز، المرأة الرومانيّة في العصر الإمبراطوري من ٣١ ق.م إلى ٣٣٠م، رسالة معدّة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، جامعة دمشق ٢٠١٤م.

١٤. هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج٢، في العصور الملكيّة الجمهوريّة الإمبراطوريّة حتّى عهد الإمبراطور قسطنطين، دار الفكر الحديث، لبنان ١٩٦٧م.

١٥. ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح أو الحضارة الرومانيّة، ج٢+ ج٣، مج٣، ترجمة: محمّد بدران، بيروت ١٩٨٨م.

نظرة نقديّة لحقيقة بطش الإمبراطورين نيرون ودوميتريان

رفاه البوشي الدباغ[١]

مقدّمة

مهما كان الجبروت يسكن روح وعقل الإنسان، لا بدّ من يقول له قف لا تفعل، فإنّ كان كلّ من حول الطاغي يقول له افعل لقد أصبت، فحتماً قد أصاب. إنّ الطغاة يحتاجون من يدعمهم ويساعدهم على الطغيان، فهم لا يصنعون هباء، لا بدّ لهم من صانعين، تصنع البداية بتراخي وإهمال المحكومين في مراقبة حكّامهم وصدّهم عن الملهيات والمسكرات، عندها يتحوّل الحاكم إلى دكتاتور يرى كلّ ما يفعله صحيحاً ولا يهمّه سوى ما يريد. وهنا يظهر خطر المنافقين، الذين يهيئون لأسيادهم كلّ الأفعال ويتخذون كلّ القرارات ويسنّون التشريعات، فهم آفة المجتمعات التي توشك على الانهيار.

أضف إلى ذلك لا بدّ من القول إنّ الظروف الأسريّة والنشأة الأولى لأيّ شخص تلعب دوراً كبيراً في تكوين شخصيّة وسلوك أيّ إنسان، فالأسر المبنيّة على التفاهم والمحبّة والأخلاق لا بدّ من أن تنشئ جيلاً مشبعاً بروح المحبّة والعدل والأخوة، والأسر القائمة على الشرّ والكره والعدوانيّة تكون نتيجتها جيلاً متفكّكاً، يحمل الكره والبغضاء.

وهذا ما ظهر جليّاً في روما التي رزحت تقريباً حوالي ثمانين عاماً تحت نير الطغاة، من تيبريوس الجبار الغامض وكاليجولا الشرس وكلوديوس الضعيف وصولاً إلى نيرون المبذّر الغاشم ودوميتيان الجبان الغليظ القلب.

---

[١]- دكتوراه في تاريخ الشرق القديم، سوريا.

أوّلاً: الإمبراطور نيرون وحكمه لروما

١. نشأة نيرون وأثرها في تكوين شخصيّته

حياة نيرون جزء من المنظومة البشريّة التي كانت سائدة في روما، فقد أثّرت الظروف والأحوال المتلاطمة، التي تعاظمت فيها الأهواء قبل ميلاده وبعدها، على تكوين شخصيّته، فالروايات التي نمت إلى مسامعه أثّرت على حياته تأثيراً سلبيّاً، وغدت محرّكاً ودافعاً خفيّاً للكثير من تصرّفاته، التي اتصفت بالمجون وارتكاب الجرائم[١].

نشأ نيرون في أسرة تتمتّع بمرتبة عالية من الجاه والامتياز بين طبقة النبلاء الرومان، وكانت الأسر الغنيّة في تلك الفترة تقتني، إضافة إلى قصورها في المدينة، قصوراً ريفيّة كأمكنة للاستجمام، ومن أجمل المناطق كانت أنتيوم، وهي تقع على شاطئ البحر، تبعد ثلاثين ميلاً إلى الجنوب من نهر التيبر. ولد نيرون بأحد هذه القصور، وكان والده ينتسب لعائلة غنيّة من النبلاء الرومان، لكنّه كان شرّيراً فاسداً أشدّ الفساد، ولم تكن زوجته – أغريبينا- والدة نيرون أقلّ منه شرّاً[٢]. ومن هنا لنا أن نتوقّع نشأة وشخصيّة نيرون.

وقد قيل إنّه عندما جاء الرسول ليخبر والد نيرون بولادة طفله تفوّه مستغرباً بشيء من التجهّم وقال ما ينجبه هو وأغريبينا لا يمكن أن يجلب لروما إلّا الدمار والخراب[٣].

وكانت أغريبينا أعلى مرتبة من زوجها، فهي شقيقة الإمبراطور كاليجولا، الذي اتسم بانصرافه إلى ملذّاته الخاصّة، وكان يكره الناس ويتلذّذ في تعذيبهم.

وقد اتهم كاليجولا أغريبينا بالتآمر عليه مع شقيقتها، فنفى شقيقتها، وأمر بسجن أغريبينا، ولم يطلق سراحها إلّا بعد اغتيال كاليجولا[٤]. وتمّ بعدها تنصيب كلوديوس عمّ أغريبينا إمبراطوراً، وعاشت أغريبينا عنده في القصر. وكان في ذلك الوقت قد مات والد نيرون،

---

[١]- محمّد عصمت: الطاغية نيرون، دار مشارق، القاهرة، ط١، ٢٠٠٩م ص ٤.

[٢]- جاكوب أبوت، نيرون، دار الروائع، بيروت، ١٩٧٠م، ص ٧.

[٣]- سيّد أحمد علي الناصري: تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة السياسي والحضاري، دار النهضة العربيّة، القاهرة، ١٩٩٨م،ص ١٥٩ انظر أيضاً: إتين دي لابويسيه: مقال في العبوديّة المختارة، ترجمة مصطفى صفوان، دار العلم للطباعة، بيروت ط١، ٢٠٠٢م ص ١٦٠.

[4]- MARIO.Levi; Neroneeisuoi tempi ,Milano 1949,P69.

وكان عمر نيرون ثلاث سنوات، أمّا كلوديوس فقد تزوّج ابنة أخيه علماً أنّ القوانين الرومانيّة تمنع ذلك، لكنّه استطاع أن يقنع مجلس الشيوخ أن يحوّر القوانين لصالحه، فتزوّجها وتبنّى ابنها، وهذا ما أثار نقمة زوجة كلوديوس ميسالينا[١].

وفيما كانت أغريبينا تتخبّط في ألوان العذاب والألم وصروف الدهر، كان ابنها نيرون شاباً نشيطاً ذكيّاً، رغم أنّه كان فوضوي الطباع شاذّ العادات، فعندما نفيت أمّه لم يذهب معها بل بقي تحت رعاية خالته، وعاش معها فترة من الوقت مهملاً مغموراً ومحتقراً، ولم يهتم أحد بتثقيفه، فماذا نتوقّع من كلّ هذا التضارب في التأثير على شخصيّة غلام لم يكتمل نضجه، وليس لديه خبرة؟. وعندما عادت أمّه من المنفى، خرج نيرون من غمرته، وشرع يعيش مع أمّه في ترف، واختارت له أمّه خيرة الأساتذة لتعليمه[٢]، منهم كرمون الرواقي الذي علّمه اللغة اليونانيّة، وسينيكا الذي علّمه الأدب والأخلاق، لكنّه لم يعلّمه الفلسفة بناء على طلب والدته؛ لأنّها كانت تزعم أنّ الفلسفة تجعل من نيرون غير صالح لتولّي عرش الإمبراطوريّة[٣].

وفيما بعد أصبح نيرون محطّ إعجاب القوم، وكان خصمه في تلك الفترة بريتانيكوس، وهو ابن كلاوديوس وميسالينا، وكانت دائماً أغريبينا تقلّل من شأنه، وفي ذات الوقت لكلوديوس ابنة تدعى أوكتافيا، وهي أصغر من نيرون، وأغريبينا تحبّها وقامت بخطبتها لابنها نيرون ليتمكّن من خلالها الوصول للحكم[٤]، وفعلاً تزوّجها، وكان في السادسة عشرة من عمره، وهي كانت في الحادية عشرة، وبعد زواجه بسنة مرض كلوديوس، وشعر بالندم لتبنّيه نيرون وحرمان ابنه من الحكم، فخشيت أغريبينا من أن يتنازل عن الحكم لابنه، فدبّرت مؤامرة مع أحد أطبّاء كلوديوس ودسّت له السمّ[٥].

[1]- B.Baldwin , Excecutions under Claudius ;Seneca ‘S Ludus de morteclaudii phoenix vol ,18 ,1964.p 42.

[٢]- جاكوب أبوت: نيرون، ص ٧٠.

[٣]- ول ديورانت: قصّة الحضارة، ترجمة محمّد بدران، ج١مج ٣، دار الجيل، بيروت،١٩٨٨م،ص ١٢٥.

[4]- V.M. Scramuzza, the Emper Claudius Harvard.university press,1940,p92

[٥]- جاكوب أبوت: نيرون، ص ٧٤.

٢. وصول نيرون للحكم وصراعه مع والدته

بعد وفاة كلوديوس مسموماً تولّى نيرون الحكم، وأصبح يسمّى نيرون كلوديوس قيصر، وتقدّم للجيش والشعب على أنّه خليفة شرعي للإمبراطور الراحل، وكان قد وعد الجيش بمكافأة ضخمة[١].

استطاعت أمّه بداية أن تسيطر على زمام الأمور لفترة قصيرة، ولكن سرعان ما نهض الابن نيرون بأعباء الحكم الإمبراطوري، وحاول القيام ببعض الإصلاحات، لكنّه انغمس في ملذّاته الشخصيّة[٢].

بدأت علاقة نيرون بأمّه تسوء، وخاصّة بعد أن اكتشفت أغريبينا أنّ هناك علاقة بين نيرون وإحدى فتيات القصر اسمها آكتي، إذ إنّ نيرون لم يكن يحبّ زوجته أوكتافيا ابنة كلوديوس، وحاولت إبعاده عنها ففشلت، وأرادت أن تنتقم منه بأن تعيد للعرش الوريث الحقيقي بريتانيكوس الابن الحقيقي ل كلوديوس، وعندما علم نيرون بذلك غضب كثيراً، ودبّر مؤامرة قتل من خلالها بريتانيكوس ودسّ له السمّ.

وزاد الكره بين نيرون وأمّه، وكلّ واحد منهما سعى للانتقام من الآخر، وهنا لنا أن نحكم على شخصيّة نيرون، ودور أمّه في تكوين هذه الشخصيّة، التي بنيت على الحقد والكره.

وقد جنّت أمّ نيرون نتيجة تربيتها السيّئة، حيث قام نيرون بالتآمر مع أنيكيتوس، الذي كان مرافقاً شخصيّاً لنيرون منذ طفولته، وتميّز بكرهه لأمّ نيرون، وحاول الاثنان إغراقها في مركب لكنّهما فشلا، فذهب أنيكيتوس ومعه فرقة من الجنود، وهاجموا قصر أغريبينا وتمكّنوا من قتلها.

ليس هناك ثمّة جريمة في الدنيا أفظع من أن يقتل الابن أمّه، الشعور الأوّل الذي أحسّ به نيرون هو الارتياح التامّ، وهذا يدلّ على الوحشيّة والحقد، ثمّ ما لبث أن تملّكه شعور الرعب والخوف، وبقي فترة في مدينة نابولي لا يجرؤ على العودة إلى روما؛ خوفاً من ردّة فعل الشعب ولكن لفترة قليلة، وعاد بعدها إلى روما ليكمل بطشه، وطلّق زوجته أوكتافيا

[١]- حسين الشيخ: الإمبراطوريّة الرومانيّة من النشأة إلى الانهيار، دار المعرفة الجامعيّة، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص ٥٩

[٢]- محمود ابراهيم السعدني: حضارة الرومان منذ نشأتها وحتّى نهاية القرن الأوّل الميلادي، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، ط١ ١٩٩٨م ص ١٧٣.

البريئة، وتزوّج من بوبايا السيّئة السمعة، والتي تآمرت على أوكتافيا واتهمتها بتهم باطلة، فأصدر نيرون الحكم عليها بالموت، وقتلت بطريقة وحشيّة، وبعدها ازداد انغماس نيرون في التهتّك والفجور، وازدادت جرائمه حتّى بوبايا لم تسلم منه، وقتلها وقتل عدد كبير من أقاربه وضبّاطه[١].

٣. الأوضاع السياسيّة في عهد نيرون

شخصيّة تتمتّع بكلّ هذه الصفات من الاستبداد والطغيان، لنا أن نتوقّع مسبقاً الأوضاع بشكل عامّ في البلاد.

شهدت فترة حكم نيرون تدهوراً في الإدارة العامّة للولايات الرومانيّة، كما شهدت تدهوراً في علاقة روما مع الولايات العميلة الموالية لها في الشرق، فلم يهتم نيرون بأيّ شعب من شعوب إمبراطوريّته سوى الإغريق، الذي ولع بهم وتيّم بفنّهم، كما تاقت نفسه لزيارة الإسكندريّة، التي ازدهرت فيها الحياة الثقافيّة والفنيّة، فأراد زيارتها ليعرض فيها مواهبه في الغناء والموسيقا ـ كما أعلن أثناء رحلته إلى بلاد اليونان قراراً بمنح الحريّة لجميع اليونانيين، أي أنّ نيرون قد أعطاهم الاستقلال المحلّي والإعفاء من ضريبة الرأس، والتي كانت ترمز للخضوع والمذلّة[٢].

يصعب على المرء أن يصدّق أنّ الإنسان الذي قتل أمّه، شاب في الثانية والعشرين من عمره مغرم بالشعر والموسيقا والفنون الجميلة والتمثيل والألعاب الرياضيّة، وقد أدخل العديد من المباريات اليونانيّة إلى روما، وأنشأ ما يسمّى بالألعاب النيرونيّة على نمط الاحتفال الذي يقام كلّ أربع سنوات في أولمبيا، وكان أهمّ ما يرغب فيه هو أن يكون فنّاناً عظيماً.[٣]

عندما تولّى نيرون الحكم، كان الناس يعتبرون أنّه لا يليق برجل روحاني ذي رتبة عالية أن يغنّي أو يمثّل، لكنّ نيرون آمن أنّ لديه مواهب عظيمة تؤهّله ليصبح مغنّياً وشاعراً، ورضخ بصبر عجيب لكلّ أنواع التدريب القاسي، وظهر في البدء في معارض ومسارح خاصّة أقامها

[١]- جاكوب أبوت: نيرون، ص ١٦٥- ١٦٧.

[٢]- عبد اللطيف أحمد علي: الناس والحياة في زمن الرومان، دار النهضة العربيّة، القاهرة، ١٠٧٣ م، ص ١٣٠.

[٣]- ول ديورانت: قصة الحضارة ج١، مج ٣، ص ١٣٠.

في الحدائق والقصور، ثمّ ظهر على المسرح العام، وطبيعي أن يهلّل له الناس تهليلاً حارّاً، وإن كان معظمها تافهاً، ويبدو أنّ غرور نيرون المضحك واعتداده بنفسه كانا يملآنه بالرضا التام وهو يتسلّم الجوائز[١].

وقد حرص نيرون على أن يكون له، في المسارح التي عليها جماهير تسانده تصفّق وتهتف له، وكان يكلّف ناساً معيّنين ليهتفوا ويصفقّوا له ويدفع لهم رواتب. ولم يقف الأمر بنيرون عند هذا الحدّ بل اعتقد أنّه متسابق لا يبارى، ودخل ساحات السباق وألعاب المبارزة بوصفه مبارزاً متحمّساً، وكان طبيعيّاً أن يحصد كلّ الجوائز، فلا أحد يجرؤ أن يتقدّم عليه.[٢]

ونتيجة لانغماس نيرون في ملذّاته وإهماله للولايات، اندلعت عدّة حركات تمرّد في العديد من أرجاء الإمبراطوريّة، أخطرها الثورة التي قامت في إيطاليا عام ٦١م تحت قيادة بوديكا، وكان المحرّك لها هو جشع محصّلي الضرائب الرومانيين، وقتلوا العديد من الجنود الرومان، إلى أن قام القائد الروماني باوليوس بإخضاع الثوّار وهزيمتهم.

وفي الشرق اندلعت صراعات في مملكة أرمينيا انتهت بتتويج ملك باريثي لعرش روما، ثمّ تتويجه بعد موافقة نيرون، كما قامت في فلسطين ثورة شاملة على الرومان عام ٦٦م.

إنّ سياسة نيرون الفاشلة، وجهل موظّفيه، وقسوة جنوده، وجشع جامعي الضرائب،[٣]وسياسة اللهو والبذخ الخرافي، والأزمات السياسيّة، نتج عنه إفلاس الخزينة العامّة، لهذا عمد نيرون إلى خفض قيمة العملة الذهبيّة والفضيّة،[٤]كما لجأ إلى عمليّات المصادرة من أجل تعويض هذا الإفلاس[٥].

وهذا نتيجة طبيعيّة لسياسة نيرون الفاشلة، ولما كان نيرون عسكريّاً فاشلاً، فقد كان من الطبيعي أن يهمل كلّ أمور وشؤون إمبراطوريّته، وبالتالي تتراجع الأحوال السياسيّة والاقتصاديّة في عهده.

---

[١]- جاكوب أبوت: نيرون، ص ١٧٥.

[٢]- محمّد عصمت: الطاغية نيرون، ص ١٠٢-١٠٣.

[٣]- دونالد ررلي: حضارة روما، ترجمة جميل يواقيم الذهبي – فاروق فريد، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٩م، ص ٢٦٥- ٢٦٦.

[٤]- باتريك لورو: الإمبراطوريّة الرومانيّة، ترجمة جورج كتّوره، دار الكتاب الجديدة المتّحدة، بيروت ط٢٠٠٨،١م ص ٨١.

[5]- Levick Barbara; the Governement of the Roman Empire, croomheln London,1985,p 16.

فكلّما كانت أحوال نيرون تزداد ظلماً وجوراً على الشعب الروماني، كانت نفوس الناس تزداد حنقاً وغضباً، لكنّه لم يكن ليظهر في صورة عمل انقلابي؛ خوفاً من بطشه وطغيانه. ولمّا كان هذا الشعب ضعيف الحيلة، فطبيعيّ أن تكون الثورة أو الانقلاب ممّن هم أكثر قدرة، ومقرّبون من الإمبراطور حتّى تتمكّن خطّتهم من النفاذ والوصول إلى أهدافها والإطاحة بنيرون. فقام انقلاب كبير في روما بقيادة رجل ينتمي إلى أشهر العائلات، ويتمتّع بصفات نبيلة، يدعى بيزو، وانضم إليه عدد كبير من ضبّاط الجيش وكبار رجالات البلاد، لكن تمّ كشف أمرهم، وقام نيرون بتنفيذ محاكمة دمويّة قتل فيها أكثر من خمسة آلاف قتيل، وكان من بينهم سينيك معلّم نيرون، الذي قطع شرايينه قبل أن تصل إليه جنود نيرون، وكذلك فعل بيزو[١]. وهكذا تمكّن من السيطرة على هذا الانقلاب.

٤. حقيقة إحراق نيرون لروما

من أشهر الحوادث المرعبة التي جرت خلال حكم نيرون ما يعرف بـ (حريق روما) حيث نشبت نار هائلة في المدينة التهمت قسماً كبيراً منها، وأحدث هذا الحريق رعباً وهلعاً بين النساء والأطفال، وهلك عدد كبير من الناس، وتنوّعت الأقاويل عن سبب هذا الحريق[٢]، وقد اعتقد الناس آنذاك اعتقاداً راسخاً أنّ ذلك الحريق، الذي دمّر روما وشوّهها، لم يكن إلّا عملاً من أعمال نيرون، وثمرة من ثمرات طيشه وفجوره، ولا يستغرب عن شخص اتصف بتلك الصفات أن يقوم بهذا العمل المرعب. ويُجمع عدد من المؤرّخين من أمثال تاستسوس وتونيوس وديوكاسيوس على اتهام نيرون بأنّه هو من أشعل النار، وأعاد إشعالها لكي يستطيع بناء روما من جديد، وليس هناك أدلّة قاطعة على إثبات التهمة أو نفيها، لكنّ معظم الوقائع وتصرّفات نيرون تثبت تورّطه، فنيرون يزعم أنّه فنان، وكان يضايقه ما في القصور التي ورثها من عيوب، ولذلك صمّم على بناء قصر جديد لنفسه[٣].

وعندما شبّت النيران في روما عام ٦٤م، والتي استمرّت لمدّة ستّة أيام، كان نيرون حينها في أنتيوم، ولم يأت إلى روما إلّا بعد مضي عدّة أيام، وعندما وصل إلى روما والنار تضرم

---

[١]- محمّد عصمت: الطاغية نيرون، ص ١٠٩- ١٢٥.

[٢]- نيرون الطاغية : مجموعة من المؤلّفين، تعريب محمّد حبيب مصطفى، المكتبة الملوكيّة، القاهرة، ١٩٣٠م، ص ٤.

[٣]- ول ديورانت: قصّة الحضارة، ج ١ مج ٣ ص ١٣٥-١٣٦.

فيها، وأنين المحترقين وعويل الأمّهات يشقّ عنان السماء،[١] أعجب نيرون بالمنظر وذهب إلى إحدى المسارح وراح يرقص طرباً، ونظم قصيدة تعبّر عن طغيانه يقول فيها:

أنا نيرون الجبّار!

أقتل من أشاء، وأملك ما أريد.

وأقطع الأعناق وأسفك الدماء

ولا يجرؤ أحد على أن يرفع في وجهي سيفاً

والأرض التي أحبها لاتغيب عنها الشمس

والناس جميعاً يخضعون لمشيئتي

لأنّني سيف حادّ يقصم ظهورهم قصماً

ونار هائلة تحرق أجسادهم حرقاً !

أنا نيرون الجبّار

أنا نيرون الجبّار

أنا نيرون الجبّار

كلمات هذه القصيدة تعبّر عن إنسان مستبدّ وحاقد، ونتيجة لهذا أصبح هدفاً لكره ومقت يتأجّجان في صدور أبناء الإمبراطوريّة الرومانيّة كلّها[٢]. وبعدها قام نيرون بمشروعه الخرافي في استغلال الأرض الخالية في بناء عدد من القصور والحدائق الغنّاء المزيّنة بالبحيرات الصناعيّة، وبالفعل بنى نيرون قصره الكبير المسمّى بالبيت الذهبي، وأقام في حديقته الغنّاء تماثيله الكثيرة، التي كان من بينها تمثال عملاق بلغ طوله مئة وعشرين قدماً، بالإضافة إلى «روائع» النحت الإغريقي، التي جلبها الإمبراطور من بلاد الإغريق[٣].

[١]- نيرون الطاغية: تعريب محمّد حبيب مصطفى، ص ٩٨.

[٢]- جاكوب أبوت: نيرون، ص ١٨٥-١٨٦.

[3]- 209 Jerard Perkins, Antiquity , Roma,1956, p.

٥. اضطهاد نيرون للمسيحيّة

لم تأخذ السلطات الرومانيّة المحليّة أمر المسيحيين على محمل الجدّ في بادئ الأمر، إلّا أنّها أخذت تبدّل موقفها، ومع ذلك كانت ترى في المسيحيين فريقاً من اليهود المتذمّرين وحسب، ولكنّ تبدلاً جذريّاً حصل على الوضع عام ٦٤م بعد الحريق الكبير الذي نشب في روما. وذكر المؤرّخ تاسيت: لقد كان من غير الممكن قطع دابر الإشاعات التي اتهمت الإمبراطور نيرون بإشعال الحريق، عندئذ عزم نيرون أن يجد كبش الفداء، وكان طبيعيّاً أن يكون المذنبون أجانب غرباء، أي المسيحيّون، الذين كانوا خارج العلاقات والمعتقدات التقليديّة. على أيّ حال لم يكن نيرون مناهضاً للمسيحيّة من حيث المبدأ، وإنّما اعتبرهم كبش فداء ملائم[١].

فوجّه لهم تهمة إحراق روما، وأخذ يتفنّن في اضطهادهم حتّى إنّه لم يدع وسيلة من وسائل القسوة والتعذيب إلّا وارتكبها، وقد قرّر اعتبار كلّ من يعتنق المسيحيّة جناية تستوجب الموت، وقد أصدر هذا المرسوم استناداً إلى الجريمة التي ألصقها بهم، وهي حريق روما.[٢]

وزيادة في التنكيل برعيّته، وغلواً في القسوة والظلم، أمر بقتل الكثير من أقطاب المسيحيّة في عصره، من بينهم بولس وبطرس الرسوليّان المسيحيانّ وغيرهما، وقد أثارت هذه الوحشيّة ردّ فعل معاكس، فتحوّل عدد كبير من الرومان للتعاطف مع المسيحيين[٣].

٦. نهاية الإمبراطور نيرون

استمراراً لانغماس نيرون في ملذّاته الشخصيّة، سافر إلى بلاد اليونان؛ ليمارس هوايته المفضّلة في المشاركة في الألعاب الأولمبيّة والغناء في ربوع مدنها، وترك أمور الحكم في روما إلى أحد رفاقه المكروهين ويدعى هيليوس، الذي عكف على نهب الثروات، وأرهب السكّان بشتّى الوسائل، فامتلأ الناس سخطاً، وبدأت بوادر ثورة شعر بها هيليوس، فأخبر

---

[١]- إ.س. سفينسيسكايا: المسيحيّون الأوائل والإمبراطوريّة الرومانيّة، ترجمة حسان مخائيل إسحق، منشورات دار علاء الدين، دمشق، ط١، ٢٠٠٦م، ١١٦- ١١٧.

[٢]- أندريه إيمار – جانين أوبوايه: تاريخ الحضارات العام، روما وإمبراطوريّتها، ترجمة فريد م. داغر – فؤاد أبو ريحان، عويدات للطباعة والنشر، بيروت، ط١ ٢٠٠٦م، ص ٤٢١.

[٣]- إ.س. سفينسيسكايا: المسيحيّون الأوائل والإمبراطوريّة الرومانيّة، ص ١١٨.

مباشرة نيرون، الذي لم يكترث في البداية، ثمّ قرّر العودة إلى روما عائداً بجيش من الراقصين والممثّلين وثمانمائة جائزة، وأخذت أحوال روما تزداد سوءاً، ووسط هذه الأحوال أرسل فيندكس Vindex أحد زعماء فرنسا إلى غالبا Galba أحد أبناء العائلات الرومانيّة الشهيرة في إسبانيا، وكان يكبر نيرون بأربعين سنة، وكان نيرون قد عيّنه قائداً لإحدى المقاطعات المهمّة في إسبانيا، فظلّ له خادماً ومطيعاً إلى أن قام برحلته الماجنة إلى بلاد اليونان وما تبعها من انحطاط كبير في البلاد، فأرسل له فيندكس يدعوه للثورة، في البداية رفض غالبا، لكن فيما بعد وافق الانضمام إليه، وعندما علم نيرون بالثورة، قابلها بداية بالاستهتار والاستهزاء، لكن بعد تقدّم الثورة، وخاصّة بعد أن أعلن فيندكس نفسه سيّداً على بلاد الغال وانضمام غالبا إلى جانبه بكامل فرقه العسكريّة وإعلان اتجاهه نحو روما، عندها أيقن نيرون أنّ هلاكه آت لا محالة، فقرّر الفرار من قصره، وقد تخلّى عنه كلّ رفاقه وحاشيته، فحاول الهرب مع بعض خدمه الذين حاولوا إنقاذه، واصطحب معه السمّ الذي اعتاد على استخدامه لقتل كلّ من يريد، لكنّه لم يجرؤ على استخدامه لنفسه، فشخص كنيرون يعشق الحياة، لا يقوى على قتل نفسه بالسمّ أو بغيره، وأصيب نيرون بحالة من الهذيان، فأخذ الخدم يهدّؤون من روعه، وعندما شعر أنّ الخطر يحدق به، نصحوه أن يقتل نفسه، فشعر نيرون أن لا مفرّ له، وخاصّة بعد أن نادى المجلس التشريعي بغالبا إمبراطوراً على روما، وأصدر أولى قراراته باعتبار نيرون عدوّاً للإمبراطوريّة والحكم عليه بالإعدام، عندها طلب من أحد خدمه ويدعى فاون أن يعطيه خنجراً ليقتل نفسه، وعندما لم يجرؤ نيرون على ذلك، وسمع صوت حوافر الخيول تقترب من مكانه، قام أحد الخدم والتقط الخنجر وطعن نيرون طعنة الموت القاضية، وما كادت تصل تفاصيل الساعات الأخيرة إلى مسامع العامّة حتّى ساد الابتهاج والسرور روما، وهلّلوا لمجيء الإمبراطور الجديد[١]. فكان انتحار نيرون نهاية لسلالة أغسطس، ونهاية لظلمه واستبداده[٢].

---

[١]- محمّد عصمت: الطاغية نيرون،١٥٥- ١٦٠ انظر أيضاً: ول ديورانت: قصّة الحضارة، ج١ مج ٣ ص ١٤١.

[٢]- أ. ب. تشارلز ورث : الإمبراطوريّة الرومانيّة، ترجمة رمزي عبده جرجس، القاهرة ٢٠٠٣م، ص ١٣.

ثانياً: الإمبراطور دوميتيان وحكمه لروما

١. نشأته وشخصيّته

والده فسباسيان الذي انحدر من أصل ريفي عريق، وكان ميّالاً للبساطة، نزّاعاً للفكاهة. تمّ وصوله للحكم بعد نهاية الحرب الأهليّة، التي نتجت عن انتحار نيرون. بدأ عهده بالتعمير والتدعيم، وتمكّن من إعادة السلام والهدوء للإمبراطوريّة[١]، وبثّ في المجتمع الروماني روحاً جديدة، وخلفه ابنه تيتوس، الذي تميّز بأنّه كان إداريّاً حازماً. اعتبره المؤرّخون نموذجاً لما يجب أن يكون عليه الحاكم. اهتمّ أيضاً بالمشاريع العمرانيّة، ولكنّ فترة حكمه كانت قصيرة لا تتعدّى العامين ٧٩- ٨٠م.

ورغم الجهود التي بذلها فسباسيان وتيتوس في تنظيم الإمبراطوريّة على نحو جديد، جاء دوميتيان ابن فسباسيان ليقلب أوضاع الإمبراطوريّة رأساً على عقب، جالباً على نفسه السخط والكراهية لاستبداده[٢].

تميّز دوميتيان في صغره بأنّه كان شاباً متواضعاً لطيفاً، ولكن فيما بعد أصبح محبّاً للسلطة والنفوذ، متعطّشاً للقوّة والجبروت، وكان أبوه وأخوه قد أدركا ذلك من قبل، فحاولا الحدّ من نهمه بتحديد سلطاته، وإبعاده عن المناصب العسكريّة بالذات؛ وذلك لما أظهره منذ الوهلة الأولى لتأسيس أبيه لحكم الأسرة، فقبل أن يصل أبوه من الشرق لتولّي عرش الإمبراطوريّة رسميّاً، بدأ باستخدام السلطة باندفاع الشباب وطموحه المجنون، وفي هذا الوقت حاول فسباسيان ومن بعده تيتوس كبح جماحه قدر الإمكان، فقد تمّ منحه سلطات مدنيّة لا تتعدّى القنصليّة [٣]. وخلال فترة العزل وجّه دوميتيان كلّ طاقته وجهوده إلى ميدان الدراسة، وانكبّ على دراسة أعمال وسيرة تيبريوس، الذي كان يقارن نفسه به، كما شغل نفسه بالشعر والقراءة، وخاصّة في مجال الحضارة الإغريقيّة، حتّى خرج وهو يرى الحياة الرومانيّة من منظار إغريقي[٤].

---

[١]- م. رستوفتزف: تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة الاجتماعي والاقتصادي، ج١، ترجمة زكي علي، محمد سليم سالم، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة، ١٩٥٧م، ص ١٣٠.

[٢]- تشارلز ورث: الإمبراطوريّة الرومانيّة، ص ١٤.

[٣]- سيّد أحمد علي الناصري: تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة السياسي والحضاري، ص ٢١٤.

[4]- Ronald Syme, The Roman Rrvolution Oxford ciarendon, press,1939,p 509.

ربمّا كان سبب التحوّل في شخصيّته من إنسان لطيف خجول إلى إنسان مستبدّ ووحشي، هو غيرته من أخيه، حيث كان يحاول دائماً أن يدبّر المكائد له سرّاً لإسقاطه، وعندما مرض أخوه عجّل له منيّته، فهناك من يذكر أنّه أحاط جسم أخيه المريض بالثلج[١].

٢. وصوله للحكم وعلاقته بمجلس الشيوخ

بعد وفاة تيتوس هرع دوميتيان مباشرة إلى ثكنات الحرس الإمبراطوري، وحصل من الجنود على موافقتهم في ترشيح نفسه كإمبراطور حتّى قبل أن يبدي مجلس الشيوخ رأيه في ذلك، وربمّا كان هدفه في ذلك وضع مجلس الشيوخ أمام الأمر الواقع، وقطع خطّ الرجعة على المعترضين على فكرة الخلافة بالتوريث، وربمّا أراد تقليد أبيه. إنّ فسباسيان اعتبر انتخاب قوّات الشرق له هو التاريخ الرسمي لتولّيه الإمبراطوريّة، وبالفعل لم يجد مجلس الشيوخ بدّاً من الموافقة على هذا الترشيح، والإنعام على دوميتيان بالسلطات اللازمة والألقاب التقليديّة عام ٨١م[٢].

كانت فترة حكم دوميتيان استبداديّة سافرة، ولم يكن الجيش موالياً له قلباً وقالباً بالرغم ممّا أسبغه عليه دوميتيان من أعطيات[٣]. لم يخف دوميتيان منذ الوهلة الأولى نواياه في التحكّم والتسلّط الأوتوقراطي، فحرص على أن يتولىّ منصب القنصل في كلّ مرة، بل غيرّ منصب الرقيب إلى الرقيب الأبدي منذ عام ٨٥م، وكذلك حرص على أن ينادى عرفيّاً بلقب المولى والربّ Dominus et Deus، خاصّة من جانب موظّفيه وكتّاب عصره، وجعل القسم بعبقريّة الإمبراطور شرطاً في كلّ عقد أو وثيقة، كما أنّه قلّد خلفاء أغسطس في تأسيس كهنة لعبادة أبيه وأخيه على غرار الهيئة الأوغسطيّة، إذ أسّس الهيئة الفلافيّة.

وبالرغم من أنّه نظر إلى مجلس الشيوخ نظرة وقار واحترام، إلاّ أنّه لم يترك له الفرصة في التلاعب أو الخروج عن الحجم الذي أراده له مستغلاً في ذلك سلطته كرقيب[٤]. ففي عهده فقد مجلس الشيوخ سلطته، فبثّ روح الحقد والانتقام لدى أعضاء مجلس الشيوخ، هذا إلى أنّ

[١]- دونالد ررلى: حضارة روما، ص ٢٧٣ انظر أيضاً ول ديورانت: قصّة الحضارة، ج١ مج٣، ص ١٥٤.

[٢]- سيد أحمد علي الناصري: تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة السياسي والحضاري، ص ٢١٧.

[٣]- رستوقنزف: تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة الاجتماعي والاقتصادي، ج١، ١٧٥.

[٤]- سيّد أحمد علي الناصري: تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة السياسي والحضاري، ص ٢١٨.

غرور دوميتيان لم يقف عند حدّ، فالغرور هو صفة من صفات الوضيعين، ومن مظاهر غروره أنّه ملأ الكابيتول بتماثيله، ونادى بتأليه أبيه وأخيه وزوجته وأخته، كما نادى بتأليه نفسه.[١]

ومعلوم أنّ مجلس الشيوخ الروماني يرفض تأليه الأباطرة، وهذا هو السبب في السخط والنفور اللذين لقيهما نيرون ودوميتيان لمحاولة كلّ واحد منهما الخروج على هذا التقليد[٢].

٣. اضطهاده للمسيحيّة

عند أواخر القرن الأوّل الميلادي، وعلى امتداد القرن الثاني، أخذت تتزايد أعداد معتنقي المسيحيّة في أوساط المجتمع الروماني العليا، فاضطهد دوميتيان أعداداً كبيرة منهم بتوجيه تهم الكفر بآلهة روما، فعلى سبيل المثال أعدم قريبه كليمينت وغيره الكثير[٣].

أبى اليهود والمسيحيّون أن يعبدوا دوميتيان ويتّخذوه إلهاً، وأقسم الفلاسفة الرواقيّون ليقاومن كلّ مستبد جبّار، ويكرمنّ قتلة المستبدّين.

وفي عام ٨٩م طرد دوميتيان الفلاسفة من روما، ثمّ أخرجهم من إيطاليا كلّها عام ٩٥م، وكان قرار طردهم يشمل معهم المنجّمين؛ لأنّهم تنبؤوا بموت الإمبراطور، فوقع الرعب في قلب رجل خال من الإيمان ومستعدّ لقبول الخرافات والأوهام.

وفي عام ٩٣م أعدم دوميتيان بعض المسيحيين؛ لأنّهم أبوا أن يقرّبوا القرابين بين يدي تمثاله، وكان دوميتيان قد تأثّر بمرسوم نيرون الذي اعتبر فيه أنّ كلّ من يعتنق المسيحيّة جناية تستوجب الموت[٤].

من جهة أخرى يذكر أنّ دوميتيان أنشأ معابد في روما لكلّ من إيزيس وسرابيس، ورغم أنّ هذه الآلهة، وخاصّة إيزيس، معروفة ومعبودة من قبل في روما وإيطاليا، إلّا أنّه أنشأ معابد خاصّة بها، وذلك بمثابة اعتراف رسمي بها[٥].

---

[١]- ول ديورانت: قصّة الحضارة، ج١ مج٣،ص ١٥٧.

[٢]- تشارلز ورث: الإمبراطوريّة الرومانيّة، ص ٢٢.

[٣]- إ.س. سفينسيسكايا: المسيحيّون الأوائل والإمبراطوريّة الرومانيّة، ص ١٥٤.

[٤]- أندريه إيمار – جانين أوبوايه: تاريخ الحضارات العام، روما وإمبراطوريّتها، ص ٤٢١.

[٥]- مصطفى العبادي: الإمبراطوريّة الرومانيّة، دار المعرفة الجامعيّة، بيروت، ١٩٩٩م، ص ١٣٦.

٤. نهاية دوميتيان

كان من الأخطاء التي وقع فيها دوميتيان أن قذف الرعب في قلوب آل بيته أنفسهم، من ذلك أنّه أمر عام ٩٦م بإعدام إيفرديتس Epaphraidtus أمين سرّه؛ لأنّه أعان نيرون على الانتحار قبل ذلك بسبع وعشرين سنة، وشعر كلّ من في بيته بالخطر، فاعتزموا أن يتّقوا شرّه بقتله.

ونتيجة لسياسة دوميتيان الوحشيّة وأسلوبه المتسلّط، سارع أقرب مواليه للتخلّص منه، وانضمّت إليهم زوجته بعد أن اقتنعوا جميعهم أنّ خطره واحد على من يواليه وعلى من يعاديه، إذ كان يخشى الجميع ويتّهم الجميع، وقبل أن ينفّذوا مشروعهم بحثوا عن خلف له، فوقع اختيارهم على شيخ جليلي يدعى برنا[١].

وفي الليلة السابقة لليلة مقتله، قفز من فراشه مذعوراً، ولمّا حلّت الساعة المتّفق عليها، وجّه أحد الخدم الضربة الأولى، واشترك معه أربعة عشر غيره في الهجوم.

قاوم دوميتيان هذا الهجوم مقاومة المجنون، ثمّ خرّ صريعاً، وكان ذلك في السنة الخامسة والأربعين من عمره، والخامسة عشرة من حكمه عام ٩٦م، وعندما علم مجلس الشيوخ بالنبأ، مزّقوا ما كان له في قاعة المجلس من صور، وحطّموا ما وضع له فيها من تماثيل، وأمروا أن يحطّم كلّ ما في الإمبراطوريّة بأجمعها من تماثيل له، ومن نقوش يذكر فيها اسمه[٢].

ثالثاً: تعليق على حقيقة بطش الإمبراطورين نيرون ودوميتيان

خلاصة القول نجد أنّه مهما حاول المستبدّ أن يفرض هيمنته وسلطته لا بدّ لجبروته من الزوال، فلا ظلم يدوم.

من جهة أخرى لا يوجد إنسان يخلق مستبدّاً بالفطرة، لكنّ ظروف نشأته الأولى والمحيط الاجتماعي الذي عاش فيه، هو السبب الرئيس في تكوين شخصيّته.

---

[١]- مونتسكيو:: تأمّلات في تاريخ الرومان، ترجمة عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،المغرب، ط١، ٢٠٠١م، ص ١٤٢.

[٢]- ول ديورانت: قصّة الحضارة، ج ١ مج٣، ص ١٥٨.

فنشأة نيرون في جوّ من المؤامرات والطغيان والمكائد، وكذلك دوميتيان وغيرته العمياء من أخيه، هذه الظروف جعلت منهما شخصيّات مستبدّة تبطش كيفما اتجهت، وهذا لا يعني أنّهما مجرّدان من كلّ خير، فنيرون كان مرهف الحسّ بالجمال، ودوميتيان في بداية حكمه كان قديراً في حكمه، صارماً فيه، وقام من خلف مظاهر الفجور والتقتيل نظام إداري حفظ للولايات قسطاً كبيراً من النظام ربمّا لفترة من الزمن. لكن مهما كان للإنسان من أعمال نيّرة إيجابيّة، جميعها تمحى بمجرد قيامه بظلم أو بطش بالعباد وقتل للأبرياء، فلا يجتمع سلام وطغيان، خير وشرّ. ونرى أنّ الغباء صفة ملازمة دائماً للطغاة حتّى حين يريدون إسداء الحسن، إذا أرادوا إسداءه.

فنيرون ودوميتيان قرّب إليهما المتملّقين الذين لا يراعون أيّاً من قيم الأخلاق، واستبعدوا كلّ من سعى للمجد والحريّة، تميّزوا بغرورهما وعدم قبول النصيحة واستقلالهما في الرأي، وهذه هي صفات الإنسان المستبدّ، الذي يتحكّم في شؤون الناس بإرادته لا بإرادتهم، ويحكمهم بهواه، ويحوّل المجتمع إلى جثّة هامدة.

الخاتمة

إنّ الاستبداد داء تبتلى به الشعوب في بعض مراحل التاريخ، وهو أسوأ أنواع السياسة، وأكثرها فتكاً بالإنسان، وينتج عنه مجتمع محكوم بالظلم والطغيان، ممّا يؤدّي إلى التراجع في مرافق الحياة ووجوهها كافّة، وإلى تعطيل الطاقات وهدرها، وإلى سيادة النفاق والرياء بين مختلف فئات الشعب.

ونجد أنّ معظم الطغاة يلاقون حتفهم على أيدي المقرّبين إليهم، الذين إذا عرفوا طبيعة الطغيان، لم يستطيعوا الاطمئنان إلى إرادة الطاغية بقدر ما حذروا قوّته.

فنيرون قام بالثورة ضدّه غالبا Galba، أحد أبناء العائلات الرومانيّة الشهيرة في إسبانيا، وكان خادماً ومطيعاً لنيرون، عندها قرّر نيرون الفرار من قصره، فتخلّى عنه كلّ رفاقه وحاشيته.

ودوميتيان سارع للتخلّص منه أقرب مواليه، وانضمّت إليهم زوجته بعد أن اقتنعوا جميعهم أن خطره واحد على من يواليه وعلى من يعاديه.

وهنا يظهر خطر المنافقين الذين يهيئون لأسيادهم كلّ الأفعال، ويتخذون كلّ القرارات ويسنّون التشريعات، حتّى يجعلوا منهم طغاة مستبدّين، ثمّ يسعون للتخلّص منهم.

أضف إلى ذلك، كما ذكر سابقاً، أنّ الظروف الأسريّة والنشأة الأولى لأيّ شخص تلعب دوراً كبيراً في تكوين شخصيّة وسلوك هؤلاء الطغاة.

لائحة المصادر والمراجع

-العربيّة

١. **السعدني:محمود ابراهيم: حضارة الرومان منذ نشأتها وحتّى نهاية القرن الأول الميلادي**، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، ط١ ١٩٩٨م.

٢. **الشيخ:حسين: الإمبراطوريّة الرومانيّة من النشأة إلى الانهيار**، دار المعرفة الجامعيّة، القاهرة، ٢٠٠٧م.

٣. **العبادي:مصطفى: الإمبراطوريّة الرومانية**، دار المعرفة الجامعية، بيروت، ١٩٩٩م

٤. **عبد اللطيف أحمد علي: الناس والحياة في زمن الرومان**، دار النهضة العربيّة، القاهرة، ١٠٧٣ م.

٥. **عصمت: محمد: الطاغية نيرون**، دار مشارق، القاهرة، ط١، ٢٠٠٩م.

٦. **الناصري: سيّد أحمد علي: تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة السياسي والحضاري**، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٨م.

- المعرّبة

١. **أبوت، جاكوب: نيرون**، دار الروائع، بيروت، ١٩٧٠م.

٢. **إيمار، اندريه-أوبوايه: جانين، تاريخ الحضارات العام**، روما وإمبراطوريّتها، ترجمة فريد م. داغر - فؤاد أبو ريحان،عويدات للطباعة والنشر، بيروت، ط١ ٢٠٠٦م.

٣. **ديورانت، ول: قصّة الحضارة**، ترجمة محمّد بدران،ج١، مج٣، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨م.

٤. **ررلى، دونالد: حضارة روما**، ترجمة جميل يواقيم الذهبي - فاروق فريد، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٩م.

٥. **-سفينسيسكايا:إ.س.المسيحيّون الأوائل والإمبراطوريّة الرومانيّة**، ترجمة حسّان مخائيل إسحق، منشورات دار علاء الدين، دمشق، ط١، ٢٠٠٦م.

٦. **قنزف: مرستو، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة الاجتماعي والاقتصادي**، ج١، ترجمة زكي علي، محمّد سليم سالم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٧م.

٧. **لابويسيه:إتين دي: مقال في العبوديّة المختارة، ترجمة مصطفى صفوان، دار العلم للطباعة،بيروت ط١، ٢٠٠٢م.**

٨. **لورو،باتريك: الإمبراطوريّة الرومانيّة**، ترجمة جورج كتّوره، دار الكتاب الجديدة المتّحدة، بيروت ط٢٠٠٨،١م.

٩. **ورث: أ. ب. تشارلز،الإمبراطوريّة الرومانيّة**، ترجمة رمزي عبده جرجس، القاهرة ٢٠٠٣م.

١٠. **مونتسكيو: تأمّلات في تاريخ الرومان**، ترجمة عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،المغرب، ط١، ٢٠٠١م.

١١. **نيرون الطاغية**: مجموعة من المؤلّفين، تعريب محّمد حبيب مصطفى، المكتبة الملوكيّة، القاهرة، ١٩٣٠م.

المراجع الأجنبيّة:

1. **Baldwin,B**; Excecutions under Claudius; Seneca ‘S Ludus de morteclaudii phoenix vol 18 ,1964.
2. **Barbara,Levick**; theGovernement of the Roman Empire, croomheln London,1985.
3. **Levi; Mario** ; Neroneeisuoi tempi ,Milano, 1949- **3.**
4. **Perkins,Jerard;**Antiquity , Roma,1956, **4.**
5. **Scramuzza, V.M** the Emper Claudius Harvard.university press,1940
6. **Syme, Ronald**The Roman Rrvolution Oxford ciarendon, press,1939- **6.**

أسباب سقوط الإمبراطوريّة الرومانيّة

عبد الله السليمان[١]

مقدّمة

تقوم الإمبراطوريات وتزدهر ثمّ تهوي، فهذه صيرورة التاريخ، ولكلّ مرحلة من مراحل عمر الإمبراطوريّة مسبّباتها ودوافعها. إنّ خصوصيّة الإمبراطوريّة الرومانيّة أنّها كانت أكبر إمبراطوريّة من حيث المساحة، ومن حيث المدّة الزمنيّة التي حكمت خلالها شعوب العالم القديم. ونحن في البحث نرمي لمعالجة أسباب سقوط الإمبراطوريّة الرومانيّة ودوافعه.

لا شكّ أنّ إمبراطوريّة بحجم الإمبراطوريّة الرومانيّة، تنوّعت أسباب ضعفها وتداخلت فيما بينها، مُفضية إلى أمراض مزمنة لم يكن هناك مجال للتخلّص منها، وإن استمرّت مرحلة الانحلال والانحطاط زمناً طويلاً من عمر الإمبراطوريّة الرومانيّة قُدّر بقرنين ونصف، فهذا أمر طبيعي؛ لأنّ تلك الثمرة اليانعة لم تجد من يقطفها. كانت روما على وشك السقوط منذ القرن الثالث، فقد عصفت فيها جميع الكوارث السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، كانت بحاجة إلى قوّة عسكريّة منظّمة لتسقطها، تلك القوّة التي لم تكتمل أطرها ومشروعها-ممثّلة بالشعوب الجرمانيّة- إلّا في منتصف القرن الخامس. إنّ كلّ من يقرأ تاريخ روما في القرن الثالث يدرك أنّ هذه الإمبراطوريّة محكوم عليها بالزوال، وأنّها في طريقها إلى الهاوية، فالسلطة السياسيّة كانت فيها فاشلة، والجهاز الإداري فاسد، والديانات الوطنيّة مهملة، والأباطرة غير مؤهّلين، أهملوا شؤون الدولة وبحثوا عن بروتوكولات ومظاهر زائفة من ثياب وتشريفات، وانغمسوا في أدنى الملذّات والموبقات، وتملّقوا غوغاء روما، أحاطوا أنفسهم ببطانة فاسدة متملّقة، ومؤسّسة عسكريّة منحلّة، سرعان ما تحوّلت من مؤسّسة هدفها حماية الدولة إلى مؤسّسة تسلّطت على الدولة، فقمعت الابتكار واغتالت الإبداع وأفشلت كلّ محاولة للإحياء، تاجرت بكرسي العرش كما تاجرت بحدود الدولة، وعندما يفقد المقدّس

[١]- مدرّس في جامعة دمشق- قسم التاريخ.

رمزيّته يعافه الناس، فصار ينظر للجيش على أنّه أصل الشرّ وسبب البلاء، وأحجم الناس عن الالتحاق به، وانعدمت الروح القتاليّة؛ ولمّا كان لا بدّ من عناصر وجنود جدد لتغذية الحروب الأهليّة والصراعات الداخليّة على العرش بين ضبّاط الجيش، تمّ تطويع عناصر جرمانيّة، وهكذا فَقَدَ الجيش صبغته الرومانيّة، وأمست الدولة المترهّلة دون حرس يحميها، بل حرس يعيث فيها فساداً، يسلب وينهب ويصادر الأرزاق ووسائل العمل، ويفرض السخرة والإتاوات والضرائب، فانهار الاقتصاد وارتفعت الأسعار وفقدت العملة قيمتها، ولم يكن ينقص هذا المشهد سوى دعوة دينيّة جديدة. وهكذا كانت أزمة الإمبراطوريّة أزمة مركّبة تدخّلت فيها الأسباب العسكريّة بالسياسيّة بالاقتصاديّة بالدينيّة.

أوّلاً: صيرورة التاريخ

لا توجد إمبراطوريّة عمّرت أبد الدهر، فحركة التاريخ مستمرّة، وهذه حقيقة كان يصعب على الرومان فهمها، فهم رغبوا أن تبقى إمبراطوريّتهم للأبد، حتّى أنّ الشاعر الروماني فرجيل الذي عاش في القرن الأوّل قبل الميلاد جعل جوبيتر Jupiter يقول في الإنياذة عن مجد روما في المستقبل: «**لشعب رومولوس لم أضع هدفاً محدّداً يحقّقه لذلك لا نهاية للإمبراطوريّة، لقد منحتهم سلطة لا حدود لها**[١]». لكنّ دولاب التاريخ اعتذر من فرجيل ومن روما ومن جوبيتر على حدّ سواء. في الواقع إنّ أسباب سقوط الإمبراطوريّة الرومانيّة كانت من القضايا التي أثارت نقاشاً طويلاً بين المؤرّخين، والكثير من البحوث التخصّصية، وحول هذه القضيّة يقول المؤرّخ ول ديورانت: «**إنّ أعظم ما يواجه التاريخ من مشاكل مشكلتان أوّلهما كيف نفسّر قيام الدولة الرومانيّة، وثانيهما كيف نفسّر سقوطها**»[٢]. لا شكّ أنّ ديورانت بالغ في هذا الصدد، فالإمبراطوريّة الرومانيّة لم تكن أوّل إمبراطوريّة وآخر إمبراطوريّة في التاريخ. وهل حقّاً كان تأسيس روما وسقوطها حدثان لا يبرّران؟! لنتمهّل قليلاً قبل أن نقف حائرين أمام سقوط روما. إنّ نظرة حاذقة على تاريخ الشرق القديم وأباطرته، الذين حكموا العالم بجهاته الأربع، وممالكهم التي تحوّلت إلى تلال أثريّة، يرينا أنّ دولاب التاريخ لا يقف لأحد. لذلك

---

[١]- فرجيل، الإنياذة، ترجمة عنبرة سلام الخالدي، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٥م.

[٢]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح أو الحضارة الرومانيّة، ج٣، مج٣، ترجمة: محمّد بدران، بيروت ١٩٨٨م، ص٤٠٤.

يجب علينا أن نتحلّى بنظرة المؤرّخ الناقد، وأن نتروّى في دراسة أسباب سقوط الإمبراطوريّة الرومانيّة بعيداً عن أيّ مشاعر مسبقة، مقدّرين صيرورة التاريخ وتقلّب الأيام، فنحن لا ننكر أنّ روما كانت إمبراطوريّة فريدة، إمبراطوريّة عسكر وحروب، ارتوت بالدماء وارتفعت أسوارها بالجثث لا بالحجارة[١]، لم تعرف العمل بالزراعة والصناعة بقدر ما كانت إمبراطوريّة عالميّة رأسماليّة، إمبرياليّة، استعماريّة، أخضعت لحكمها مستعمرات (ولايات) عديدة في سبيل نهب ثرواتها، وككلّ الدول الاستعماريّة حتّى في العصور الحديثة، سخّرت شتّى سُبل الحياة في ولاياتها لخدمة اقتصادها، حيث مارست أبشع أشكال الأنظمة الرأسماليّة الإمبرياليّة ليتمتّع سكّانها بهناء العيش[٢]، لكنّنا نتيقّن أنّها حملت بذور انهيارها في أسباب قوّتها.

فإذا فهمنا تلك النشأة وهذه السيرة، سيسهل علينا فهم أسرار السقوط، الذي حدث في القرن الثالث الميلادي قبل أن يقع في سنة ٤٧٦م، والذي حدث في الولايات قبل أن يقع في روما نفسها، فسقوط روما كان عندما انتهك الغزاة ضفاف الراين والدانوب وانساحوا في أراضي الإمبراطوريّة، لا عندما اخترقوا أسوار العاصمة واستولوا عليها[٣]. لاشكّ أنّ احتلال روما لأوّل مرة في تاريخها سنة ٤١٠م قد أذهل المعاصرين، لكنّ الرمز الذي يشكّله هذا الاحتلال يستخلص قيمته الوحيدة من ماضي المدينة لا من حاضرها آنذاك[٤]، حيث أنّ هناك أسباباً عامّة أدبيّة أو ماديّة تعمل في قلب كلّ دولة؛ تتسبّب أوّلاً في نهوضها، ثمّ في استمرارها، وأخيراً في انهيارها. والحوادث العارضة خاضعة دائماً لتلك الأسباب العامّة، فإن حدث أنّ معركة واحدة، أو أنّ عارضاً واحداً حطّم دولة ما، فلا شكّ أنّ هناك أسباباً عميقة استدعت أن تهلك الدولة عقب هزيمة واحدة، بإيجاز: إنّ الاتجاه العام متحكّم في الحوادث الجزئيّة[٥].

---

[١]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، دار مرايا للطباعة والنشر والتوزيع، دبي ٢٠٢٠م، ص٢٢٩.

[٢]- نور الدين حاطوم، أحمد طربين، صلاح مدني، نبيه عاقل، موجز تاريخ الحضارة، ج١: حضارات العصور القديمة، مطبعة الكمال، دمشق ١٩٦٥م، ص٥٩٨.

[٣]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، م.س، ص٢٢٩.

[٤]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام، ج٢، روما وإمبراطوريّتها، ترجمة فريد داغر وفؤاد أبو ريحان، ط٢، منشورات عويدات، باريس-بيروت ١٩٨٦م، ص٥٥٣.

[٥]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، أسباب النهوض والانحطاط، ترجمة عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ٢٠١١م، ص١٧٠.

لقد كان مؤرّخو القرن الثامن عشر، وعلى رأسهم فولتير (١٦٩٤- ١٧٨٨) وإدوارد جيبون (١٧٣٧- ١٧٩٤)، يعتقدون استناداً لآراء مؤرّخي عصر النهضة أنّ سبب انهيار الإمبراطوريّة الرومانيّة يرجع إلى الكوارث التي تعاقبت عليها خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين، وإلى تأسيس الممالك الجرمانيّة في الغرب الأوروبي. لكن في الواقع لم تكن الغزوات الجرمانيّة التي اجتاحت الغرب الأوروبي وحدها المسؤولة عن سقوط الإمبراطوريّة الرومانيّة، بقدر ما أسهم الفساد الداخلي في إضعافها ونخرها من الداخل قبل أن تدمّرها غزوات الجرمان من الخارج[١]، فالإمبراطوريّات الكبرى لا يُقضى عليها من الخارج إلاّ بعد أن تَقضي هي على نفسها من الداخل. وشاهد ذلك أنّنا نجد الأسباب الجوهريّة لسقوط روما في شعبها وأخلاقه، وفي النزاع بين طبقات سكّانها، وفي سُلطاتها السياسيّة الفاشلة، وأباطرتها التافهين، وبطاناتهم المتملقين، وفي حكومتها الاستبداديّة البيروقراطيّة، وفي ضرائبها الفادحة الخانقة، وفي كساد تجارتها، وحروبها المهلكة، ومؤسّستها العسكريّة المتداعية[٢].

وهكذا يتّضح من صيرورة التاريخ أنّ انهيار روما لم يأت فجأة أو نتيجة كارثة واحدة، إنّما أتى تدريجيّاً خلال أزمات امتدّت قروناً عديدة، وأخطاء متراكمة، وأمراض مزمنة[٣]، وإن كان المؤرّخون قد بالغوا كثيراً في أهمّية سنة حدوث السقوط، التي عدّوها جداراً فاصلاً ما بين العصور القديمة والعصور الوسطى. تجدر الإشارة إلى أنّ حدث عزل آخر إمبراطور روماني (رومولوس أغسطس) سنة ٤٧٦م لم يُحدِث تغييراً كبيراً في الإمبراطوريّة الرومانيّة، إذ كانت قد تشكّلت ستّ ممالك أجنبيّة على أراضيها قبل ذلك التاريخ[٤]، ومن الواضح أنّ الفترة الواقعة بين وفاة الإمبراطور ماركوس أوريلوس Marcus Aurelius سنة ١٨٠م وأواخر القرن الخامس الميلادي شهدت الإمبراطوريّة الرومانيّة خلالها انحطاطاً في جميع مناحي النشاط السياسي والعسكري والاقتصادي والاجتماعي والثقافي والديني[٥]، في وقت كَثُرَت

---

[١]- محمود محمّد الحويري، رؤية في سقوط الإمبراطوريّة الرومانيّة، ط٣، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٥م، ص١٨٢.

[٢]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٣، مج٣، م.س، ص٤٠٤.

[٣]- محمود محمّد الحويري، رؤية في سقوط الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص١٨٧.

[٤]- نعيم فرح، تاريخ أوروبا السياسي، ط٦، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٥م، ص٣٢.

[٥]- محمود محمّد الحويري، رؤية في سقوط الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص١٨١.

فيه الفتن الداخليّة والحروب الأهليّة بين الطامعين بالعرش، والمطالبين فيه، وحاملي لقب إمبراطور في وقت واحد، وفي هذه المأساة المروّعة، مأساة دولة إمبراطوريّة تتقطّع أوصالها، كانت الأسباب الداخليّة هي العامل الحقيقي الخفي. أمّا الغزاة فلم يدخلوها إلّا بعد أن فَتح لهم ضَعفها الأبواب على مصاريعها، وهيأ لهم السُبل، فقد أسلم ضعف السلطة السياسية وانهيار الاقتصاد واضمحلال المؤسّسة العسكريّة المسرح إلى الفوضى واليأس والانهيار[١].

ثانياً: الأسباب السياسيّة لسقوط الإمبراطوريّة الرومانيّة

١. فشل السياسة الداخليّة:

لقد خيّمت الفوضى واليأس على جميع ربوع الإمبراطوريّة الرومانيّة منذ القرن الثالث، وكان ذلك نتيجة الحروب الأهليّة الدائمة بين الطامعين بالعرش، والغزوات الخارجيّة، وقد زاد الموقف سوءاً سياسة الإرهاب والقسر التي جرت عليها الحكومة في معاملتها للشعب، حيث استُعمِلت كأداة اضطهاد من قبل الأباطرة، الذين لجؤوا في معاملتهم للأهالي إلى طرق الإرهاب والجبروت، التي تطوّرت تدريجيّاً حتّى أضحت نظاماً إداريّاً منظّماً تنظيماً متكاملاً[٢]. لقد بدأت سياسة الإرهاب هذه بصورة سافرة منذ عهد سبتيموس سيفيروس Septimius Severus (١٩٣- ٢١١م)، الذي أذلّ الأشراف-بهدف ضرب الطبقة الارستقراطيّة النبيلة- وصادر كثيراً من ضيعهم، حتّى آلت إليه نصف أملاك إيطاليا، وبسط سلطانه الكامل على أموال الدولة على اختلاف مصادرها ثمّ ملأ الأماكن، التي خلت في مجلس الشيوخ بأعضاء اختارهم بنفسه من الولايات الرومانيّة الشرقيّة التي كانت تدين بالنظام الملكي، وأخذ كبار رجال القانون في ذلك العصر من أمثال بابنيان Papinian وبولس Pulus، وألبيان Ulpian، يتملّقون ويجمعون الحجج التي يؤيّدون بها هذه السلطة الدكتاتوريّة المطلقة، ورغم ذلك أغفل سيفيروس شأن المجلس إلّا حين كان يبعث إليه بأوامره[٣]، وهكذا بدأ مجلس الشيوخ-الذي أنيط به رسم سياسة روما لقرون- عدّه العكسي، ليتحوّل في عهد

---

[١]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٣، مج٣، م.س، ص٤١٣.

[٢]- رستوفتزف، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة الاجتماعي والاقتصادي، ترجمة زكي علي ومحمّد سليم سالم، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة ١٩٥٧م، ص٥٨٨.

[٣]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٣، مج٣، م.س، ص٣٢٣.

دقلديانوس Diocletianus (٢٨٤ – ٣٠٥م) إلى طبقة من المترفين التي تتمتّع بالإعفاء من الضرائب دون أن تكون لها أيّ سلطة حقيقيّة، فقد سُحب منه حقّ الإشراف على الانتخابات العامّة، وتحوّلت العضويّة فيه إلى لقب شرفي يمنّ به الإمبراطور على من يشاء من أتباعه، كما أصبح من حقّ الإمبراطور أن يضمّ له من تثبت جدارته من المواطنين، بعد أن كان أعضاؤه طوال العهدين الملكي والجمهوري من الأرستقراطيين. وتحوّلت اجتماعاته من اجتماعات لرسم سياسة الدولة الداخليّة والخارجيّة إلى لقاءات ودّية لا خير منها ولا طائل، ثمّ انقطعت هذه الاجتماعات وأصبح الإمبراطور مصدر السلطة التشريعيّة الأوحد، يسنّ القوانين ويصدر المراسيم، التي أصبحت نافذة دون عرضها ومناقشتها في مجلس الشيوخ، الذي أمسى مجلساً لا حول له ولا طول[١].

إنّ الطريقة الغاشمة التي سلكها الأباطرة الرومان ولاسيّما ماكسيمان Maximianus (٢٨٦- ٣٠٦م) وخلفاؤه الذين اتبعوا سياسته، قد أصابت الروح الوطنيّة للطبقات العليا بضربة مميتة، وحملتهم على ترك العمل في السياسة، ودفعتهم لإخفاء ثرواتهم والتظاهر بالفقر المدقع. لا بل إنّ إرهاب ماكسيمان لم يقتصر على أشراف ونبلاء الدولة، بل شمل الجميع، كان دافعه في ذلك حاجته إلى المال، تلك الحاجة قادته إلى مهاجمة برجوازيي الإمبراطوريّة عامّة، والطبقة الوسطى في المدن خاصّة، قام بسلبهم ونهبهم كما لو أنّهم رعايا حكومة أجنبيّة مقهورة، وليسوا مواطنين رومان، حتّى إنّ البعض عبرَّ عن الحال التي آلت إليه الأمور بالقول: «بإمكانك أن ترى أغنى الناس في الأمس شحاذين اليوم». كما أشاع جوّاً من الإرهاب بين جميع المواطنين الرومان، تماماً كما كان عليه الأمر أيام سبتيموس سيفيروس، حيث تمّ الاعتماد على جيش من المخبرين والعيون والشرطة الحربيّة، ولم تتغيّر الحال بعد هذا الإمبراطور لا بل زادت سوءاً[٢].

وأمام هذه السياسة القمعيّة الإرهابيّة تجاه طبقات المجتمع الروماني، لم تتوقّف النزاعات والحروب الأهليّة بين الطامعين بالعرش، فإن ترامي الإمبراطوريّة الرومانيّة والمهام المناطة بالإمبراطور، من حيث أنّ وجوده في كلّ الجبهات كان أمراً مستحيلاً، حتّم بأن

---

[١]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، م.س، ص٢٢٥.

[٢]- رستوفتزف، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٥٣٦- ٥٣٨.

يرى منافسين جداً حيثما تجمّع جيش وسنحت فرصة لاكتساب مجد أو شعبيّة ما لدى الجنود، فإذا ما تغيّب لمحاربة عدو كان ذلك كافياً لبروز منافسين جدد[١]. وإذا كان هناك عدد من الأباطرة الذين تنافسوا على العرش منذ عهد ماركوس أوريلوس (١٦١- ١٨٠م)، إلّا أنّ الإمبراطوريّة نفسها ظلّت موحّدة. كلّ الأقاليم كانت تعترف بسلطة المرشح متى ما وصل إلى كرسي العرش. السلطة إذاً ظلّت موحدة، وإن اضطلع بها عدّة أشخاص[٢]، فلمّا جلس جاليّنوسGallien (٢٦٠- ٢٦٨م) على العرش، كان ثلاثون قائداً يحكمون ثلاثين إقليماً من أقاليم الإمبراطوريّة حكماً يكاد يكون مستقلاً عن السلطة المركزيّة، لكن دون لقب شرعي[٣]. أمّا عندما استحكم الخلاف بين غايوس غاليروس Gaius Galerius (٢٩٣- ٣١١م) وكونستانتوس Constantius الملقّب بالشاحب Chlorus اقتسم الاثنان الإمبراطوريّة بالفعل ثمّ سار على هذا النهج قسطنطين الذي عدل عن خطة دقلديانوس وطبّق برنامج غاليروس، ولمّا أصبحت المشاكل الحربيّة أعظم خطراً من الشؤون الداخليّة، تكرّست التجزئة التي لم تكن مجرّد تغيير بقدر ما كانت ثورة حقيقيّة على جوهر النظام الساسي الحاكم في روما[٤].

لقد اتخذت المدن القريبة من الحدود مركزاً للحكم، وأضحت روما رمزاً للانتصارات ومظهراً للعمائر الإمبراطوريّة، ومتحفاً للآثار والأنظمة السياسيّة. لكنّ تعدد العواصم وانقسام السلطة حطّما وحدة البلاد الإداريّة، فلمّا أصبحت الإمبراطوريّة أوسع من أن يحكمها حاكمها، ومن أن تحميها جيوشها، بدأت تتفكّك. لقد ظهرت أوّل نتائج هذا التحوّل في الأطراف، فلمّا تركت غالة وبريطانيا وشأنها تحميان نفسيهما بمفردهما من الألمان والاسكتلنديين دون معونة من الحكومة المركزيّة، اختارت كلتاهما إمبراطورها الخاصّ بها، وخلعت عليه السلطة العليا والسيادة الكاملة، ثمّ انفصلت تدمر (في البادية السوريّة) عن الدولة الرومانيّة

[١]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، روما وإمبراطوريّتها، م.س، ص٥٥٥.

[٢]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٥٩.

[٣]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٣، مج٣، م.س، ص٤١٢.

[٤]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٥٩.

في عهد ملكتها زنوبيا، ولم تلبث إسبانيا وإفريقيا أن خضعتا لحكم البرابرة[١]، بينما كان هناك عشرة أشخاص في العالم الروماني يحملون لقب إمبراطور بحلول سنة ٣١٠م[٢]. وهكذا يدرك المرء مسلسل الانهيار الذي أصاب وحدة البلاد السياسيّة.

وإذا كان ميل الأباطرة الرومان حتّى القرن الثالث متّجهاً نحو الاستبداد وسفك الدماء بدافع الاستمرار في الهيمنة على العرش، فإنّ المتأخّرين منهم (وكانوا صنيعة ضبّاط الجيش) مالوا إلى البطالة والراحة، احتجبوا عن رجال الحرب وقبعوا عاطلين تحت رحمة الخدم والأعوان، ركنوا إلى القصور بقدر ما هجروا مشاغل الإمبراطوريّة[٣]، تجلّت سياستهم في الرضوخ لرغبات الجيش وقادته، لا سيّما أن جُلّهم اتصف خلال هذه الفترة بقلّة الطموح[٤]. تركوا دفّة الحكم لبطانة فاسدة، وكلّما ابتعد الأباطرة عن شؤون الحكم سعياً وراء شؤونهم المنحطّة استشرت سُموم أعضاء البطانة، نهجهم الدائم عدم التصريح بشيء والتلويح بكلّ شيء، يحطّمون سمعة كلّ ذي هيبة وكفاءة، بأيديهم مستقبل كلّ وزير ومسؤول، لا يخدمون الدولة ولا يرضون أن يخدمها غيرهم. وفي إهمال الأباطرة المتأخّرين لشؤون الحكم اختفت كليّاً من على وجوههم تلك البشاشة التي ميّزت الأباطرة الأوّلين، الذين استطاعوا بواسطتها أن يقابلوا وفود الولايات، ليطّلعوا على كلّ ما يجري فيها، فالمتأخّرون منهم أصبحوا لا يعلمون إلّا ما يرويه لهم عدد قليل من المقرّبين منهم، وهؤلاء دائماً على اتفاق، يظهرون اختلافاً في الرأي في حين أنّ هدفهم واحد[٥].

إنّ جميع الأباطرة الرومان، الذين أقرّوا عقيدة عبادة الإمبراطور، ورضوا أن يرفعوا إلى مصاف الآلهة، لم يكونوا ينشدون من وراء عبادتهم من قبل رعاياهم، سواء في الولايات الشرقيّة أم في الغربيّة، سوى هدف سياسي بحت، هو إبقاء تبعيّة هذه الولايات للإمبراطور

[١]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٣، مج٣، م.س، ص٤١٢.

[٢]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، روما وإمبراطوريّتها، م.س، ص٥٥٧.

[٣]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٥٨.

[٤]- رستوفتزف، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٥٨٨.

[٥]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٥٨.

واستمرار سكّانها خاضعين لسلطتهم[١]. ولكن لمّا أقام أباطرة كُثر في آسيا يحاربون ملوك الفرس، أدّى طول المجابهة إلى المشابهة، فتطلّع الأباطرة الرومان ليكونوا مثل خصومهم موضع تقديس[٢]، وهذا الاتجاه أوّل ما ظهر مع أورليان Aurelian (٢٧٠- ٢٧٥م)، بل وفي عهد جالّينوس (٢٦٠- ٢٦٨م) وقبله، حيث أصبح الإمبراطور يرتدي التاج، وصار يحاط بمراسيم معقّدة مستمدّة من البلاط الفارسي[٣]، لم يكن خافياً على أحد أنّ أورليان عندما اعتلى عرش الإمبراطوريّة كان هو السيّد والإله، إذ لم يعد تأليه الإمبراطور بعد وفاته كافياً، وبهذه الصفات حدّد أورليان المعنى النهائي لمفهوم السلطة السياسيّة للإمبراطور، والتي سوف تتبلور في صورتها النهائيّة في عهد دقلديانوس[٤]، الذي اتخذ لنفسه أثواباً من الحرير والذهب، وعباءة ملكيّة حمراء مزركشة، وتاجاً وأحذية مرصّعة بالحجارة الكريمة، وابتعد عن أعين الناس في قصره، وحتّم على زائريه أن يمرّوا بين صفّين من خصيان التشريفات، والحجّاب وأمناء القصر، وأن يركعوا ويقبّلوا أطراف ثيابه عند المثول بين يديه وهو جالس على العرش يمسك بيده الصولجان. لقد خلع على نفسه مظاهر الألوهيّة والرهبة، وزعم أنّه ينحدر من جوبيتر[٥]، وزيادة في التأليه أضاف دقلدانوس لنفسه لقب جوفيوس Jovius(أي ممثّل الرب جوبيتر كبير الأرباب على الأرض)، وطالب الرعيّة بكلّ مظاهر التأليه مثل مخاطبة الإمبراطور بكلمة (يا ربّنا)، وأصبح كلّ شيء يخصّ الأباطرة مقدّساً ومباركاً، وأصبح الرسّامون يحيطون صورهم بالهالة المقدّسة التي يشعّ منها النور الربّاني[٦]. لقد بُذِل كلّ جهد لكي يصبح الإمبراطور شيئاً مستقلاً فوق سائر البشر[٧]. وما إن انتشرت هذه العادات الآسيويّة من بذخ، وأبّهة، وتأليه، وهالة مقدّسة، حتّى ألفتها النفوس، وعندما حاول جوليانوس (٣٦١- ٣٦٣م)، الذي كان مطّلعاً على التراث الكلاسيكي، معجباً بالدين

[١]- نور الدين حاطوم وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، م.س، ص٥٧٦.

[٢]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٥٩.

[٣]- دونالد.ر. ددلي، حضارة روما، ترجمة جميل الذهبي وفاروق فريد، مراجعة صقر خفاجة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠٠٤م، ص٣٤٥.

[٤]- محمود محمّد الحويري، رؤية في سقوط الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٢٦.

[٥]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٣، مج٣، م.س، ص٣٦١.

[٦]- سيّد أحمد الناصري، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة السياسي والحضاري، ط٢، دار النهضة العربيّة، القاهرة ١٩٩١م، ص٤٠٩.

[٧]- دونالد.ر. ددلي، حضارة روما، م.س، ص٣٤٥.

الوثني، أن يعود إلى نهج القناعة والتقشّف، اتّهم بهتك الهيبة، والواقع أنّه لم يرم سوى إحياء سنن قدماء الرومان[١].

وأمام فشل رأس الهرم في الإمبراطوريّة الرومانيّة طوال القرنين الرابع والخامس في تعبئة مكانه، كان من الطبيعي أن ينخر الفساد والبيروقراطيّة مؤسّسات الدولة الرومانيّة، وأن يتسلّط عليها جيش من الموظّفين المنتفعين من هذا الفساد، إذ لم تعرف أجهزة الدولة من قبل مثل هذا العدد الكبير من الموظّفين ومثل هذه القوّة البيروقراطيّة. لقد زاد عدد الموظّفين زيادة بالغة في أواخر القرن الرابع حتّى كان لكلّ حاكم ولاية ١٠٠ مستخدم، ولكلّ نائب ٣٠٠ مستخدم، ولكونت الشرق (القائد العسكري) ٦٠٠ مستخدم، وفي الغرب ٨٥٠ مستخدماً، ولرئيس الحرس الإمبراطوري في الشرق ألف مستخدم. كما اتّسم الجهاز الإداري في الإمبراطوريّة الرومانيّة بالمركزيّة، فكانت إحدى أهمّ سماته، إذ خضع صغار الموظّفين لتنظيم عسكري على الرغم من صفتهم المدنيّة، فوزّعوا فرقاً، لا بل سجّلوا اسميّاً في وحدة عسكريّة، فقد اعتبرت الوظيفة العامّة في حدّ ذاتها خدمة عسكريّة، وخضعت لتسلسل داخلي دقيق، ولم يبق ذلك دون نتيجة على الصعيد الاجتماعي، وأسهم على الصعيد الإداري في توفير التلاحم للبيروقراطيّة الإمبراطوريّة. هذا واقع لا شكّ فيه، لكنّ نتائجه السلبيّة انعكست على الدولة، وكان أبرزها استحالة إمكانيّة تقييم قيمة هؤلاء الموظّفين تقنيّاً وأخلاقيّاً، فللوراثة دورها الأوّل في تعيينهم، وللدسيسة كذلك، إلى جانب أنّ الاستحقاق والأقدميّة دوراً في ترفيعهم. وكان الإمبراطور يستخدم في العادة موظّفي الشؤون في التجسّس على موظّفيه، ورغم أنّ يوليان قد قام بإلغاء العمل بهذا المبدأ، إلاّ أنّه أعيد العمل به مرّة ثانية[٢].

أمّا الحكومات المحليّة التي عدا عليها الرقباء والجباة فلم تعد تستهوي رجالاً من الطراز الأوّل، حتّى تهرّب المواطنون من المناصب، تهرّبهم من الضرائب والمصانع والمزارع، فكان الناس يتعمّدون جعل أنفسهم غير صالحين لتولّي هذه المناصب بإنقاص الطبقة التي ينتمون إليها، ومنهم من كان يهاجر إلى بلدة غير بلدته، ومنهم من عمل زراعيّاً أو راهباً، وكانت الشرطة البلديّة تتعقّب الفارّين من المناصب العامّة، كما تتعقّب الفارّين من الضرائب

[١]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٥٩.

[٢]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، روما وإمبراطوريّتها، م.س، ص٥٧٩.

أو أداء الخدمة العسكريّة، وتعود بهم إلى مدنهم وترغمهم على العمل في حكوماتها، ثمّ قرّرت أن يرث الابن مركز أبيه الاجتماعي، وأن يقبل المنصب العامّ، الذي تؤهّله إليه طبقته إذا اختير له[١]. وقد أجبر أعضاء مجالس المدن على القيام بدور محصّلي الضرائب دون أجر من الدولة، كما كان عليهم أن يسدّدوا بأنفسهم أيّ نقص في حصيلة الضرائب المفروضة على مجتمعاتهم من أموالهم الخاصّة، التي اعتبرتها الدولة ضماناً مرهوناً لديها، وما لبث وضعهم الاجتماعي باعتبارهم أعضاء المجالس البلديّة Municipia أن أصبح مكروهاً ومنبوذاً من قبل الجماهير[٢]. وهكذا لم يعد هناك برجوازيّة بلديّة تتبرّع بإدارة الشؤون المحليّة، بل هناك قادة عشرة مرغمون، تفرضهم الدولة رغماً عنهم للقيام بدور الموظّفين المجّانيين الممقوتين في نظر مواطنيهم[٣]، بعد أن وجدوا في المزارعين الفقراء ضحيّة وكبش فداء، فاستخدموا معهم أبشع الطرق من أجل تحصيل الضرائب المطلوبة، لدرجة أنّ كلمة «موظّف شرفي Curialis» أصبحت مرادفة لكلمة «متعسّف»، وجرى مثل هذا على ألسنة الناس بقولهم: «كلّ موظّف شرفي طاغية: tot curialis, tot Tyanni»[٤]. وبالتالي لم يعد هناك مدينة بالمعنى الحقيقي الذي أطلقه الإغريق والرومان على هذا الوصف السابق[٥].

ثمّ إنّ الاضطهاد السياسي الذي اتّسع نطاقه فتك بألوف من الناس، منهم البريء، ومنهم المجرم، وأجبرهم على الفرار من ديارهم، ولكنّ رأس الفساد هو العدد الغفير من عمّال الحكومة، وأكثرهم من الجنود الذين يقومون بواجب الشرطة، وعسكر التموين Frumentarii، وجنود الثكنات Stationarii، والشرطة الحربيّة Colletiones، الذين دخلوا كلّ مدينة وقرية في تعقّبهم للمعارضين السياسيين، وفتّشوا بيوت الناس، ولم يكونوا طبعاً منزّهين عن الرشوة. وأشدّ من ذلك خطراً هو ابتزازهم للأموال قسراً بحجّة تمويل غزوات الإمبراطور والمساهمة في المجهود الحربي[٦]. لقد قضى الاستبداد المتزايد للسلطات

---

[١]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٣، مج٣، م.س، ص٤١٠، ٤١١.

[٢]- دونالد.ر. ددلى، حضارة روما، م.س، ص٣٤٤.

[٣]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، روما وإمبراطوريّتها، م.س، ص٥٧٦.

[٤]- سيّد أحمد الناصري، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٤٨٧.

[٥]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، روما وإمبراطوريّتها، م.س، ص٥٧٦.

[٦]- رستوفتزف، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٥٨٩.

السياسيّة على شعور الفرد الروماني بالمواطنة، وأنضب معين قدرته على القيام بواجباته تجاه وطنه، ولمّا عجز المواطن الروماني عن التعبير عن إرادته السياسيّة إلّا بالعنف، فقد من أجل ذلك اهتمامه بشؤون الحكم، وانهمك في أعماله، وفي متعه، وفي فيلقه، أو مناجاته الفرديّة[١]، شغله الحرمان عماّ يدور من حوله من تقلّبات سياسيّة، حتّى أصبح هو في واد والدولة في واد آخر[٢].

٢. فشل السياسة الخارجيّة

لم يتورّع الأباطرة الرومان عن الفتك بخصومهم السياسيين ولا عن التنكيل بهم أو نفيهم، وهي عادة مشؤومة لم تزل تطبّق منذ أن سنّها سولا أواخر أيام الجمهوريّة، لا يتحاشاها إلّا قيصر فاضل، إذ إنّ البطانة المتعطّشة إلى أموال المنفي تحرّض دائماً على الانتقام، وتحذّر من مغبّات التسامح والعفو. بعد أن فتك سبتيموس سيفيروس بـ نيجر Nigr نفى عدداً كبيراً من أنصاره، فالتحقوا بالفرس، لقّنوهم كلّ ما كانوا يجهلون من فنون الحرب، درّبوهم على استعمال أسلحة الرومان بل على صنعها، وهذه الشعوب التي كانت في موقع الدفاع عن نفسها فيما مضى، صارت تهاجم أراضي الإمبراطوريّة الرومانيّة دون هوادة[٣]. إنّ أكبر ضربة تلقّتها السياسة الخارجيّة الرومانيّة كانت في سنة ٢٦٠م حين سقط الإمبراطور فاليريانوس Valerien أسيراً قرب حمص بيد شابورShapur I (٢٤٠- ٢٧٢م) ملك الفرس الساسانيين، ولم يستطع جالينوس القيام بأيّ شيء لتحريره، كانت هذه الكارثة ضربة للسمعة والهيبة والجبروت العسكري الروماني، وسرعان ما ظهرت أصداؤه في سيادة روما، فقد انسلخت عنها إمبراطوريّة الغال، ولم يعد بوسع الإمبراطوريّة الرومانيّة الردّ على كلّ الجبهات، فصارت ضحيّة توسّعها، وقد بدا أنّ قدرها قد آل إلى التفتّت الإقليمي، فخسرت بلاد الرافدين، وبلاد داسية، والأراضي الممتدة بين الراين والدانوب[٤].

وإذا تركنا الفرس قليلاً واتجهنا باتجاه الشمال إلى ضفاف نهر الدانوب، كان عند الرومان

---

[١]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٣، مج٣، م.س، ص٤١٠.

[٢]- رستوفتزف، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٤٩٠.

[٣]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٤٧.

[٤]- باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، ترجمة جورج كتّوره، دار الكتاب الجديد المتّحدة، بنغازي ٢٠٠٨م، ص١١٣، ١١٤.

جيران لا يقلّون بأساً عنهم، ورغم أنّ نهر الدانوب صار البوابة التي يجب على الرومان أن يحرسوها جيداً، حتّى يمنعوا تسرّب شعوب وقبائل جديدة إلى إمبراطوريّتهم، لكنّ ما فعله الرومان كان العكس لاسيّما بعد الفوائد الآنيّة التي جناها أباطرة القرن الثالث من سماحهم لبعض العناصر الجرمانيّة بالاستقرار في أراضي الإمبراطوريّة الرومانيّة، إلّا أنّهم لم يتنبهوا إلى أنّ الخسارة الفادحة التي ستمنى بها الإمبراطوريّة من جرّاء عملهم هذا الذي برهنوا به عن قصر نظرهم. ولئن تمكّن الأباطرة الرومان من تأمين مزارعين لهذه الأراضي المهجورة، ونجحوا في ملء الشواغر العديدة في صفوف الفرق الرومانيّة التي حدثت فيها أثلام كبيرة وتصدّعات من جراء الأمراض والأوبئة الفتّاكة والحروب المستمرّة التي أفنت زهرة شباب روما، فإنّه قد فاتهم إدراك أن تسرّب العناصر الجرمانيّة إلى داخل الأراضي الرومانيّة هو خطأ فادح لا يمكن تلافي نتائجه السلبيّة على المدى البعيد[١]. في الواقع لقد وجّه قسطنطين (٣٠٦- ٣٣٧م) ضربة قاضية للإمبراطوريّة الرومانيّة، عندما قام بإجلاء الكتائب المرابطة على ضفاف الأنهار الكبرى، ووزّعها على الأقاليم، نتج عن هذا القرار أمران مضرّان جدّاً، أوّلاً إزالة الحاجز الذي كان يمنع أمماً كثيرة من اقتحام أراضي الإمبراطوريّة، وثانياً أنّ الجنود فقدوا كلّ همّة وشهامة بملازمة المسارح ومدرّجات المجالدة[٢].

وعندما انتهى عصر التسرّب وبدأ عصر الاقتحام، اجتاحت أقوام الهون Huns أراضي الإمبراطوريّة الرومانيّة دون هوادة، فبعد أن صدَّ تقدّمها سور الصين العظيم شرقاً، وأجبرتها الجيوش الصينيّة على التراجع، غيّرت وجهتها نحو الغرب حتّى وصلت في سنة ٣٥٥م إلى نهر الفلجا وجيحون وتوسّعت في شمال آسيا الغربيّة، فضغطت في زحفها هذا على السرماتيين في روسيا واضطرّتهم إلى التحرّك نحو البلقان، فتضايق القوط من هذا الزحف وتحرّكوا مرّة أخرى عبر الحدود الرومانيّة[٣]. استغلّ الفرصة بعض المتملّقين من بطانة الإمبراطور فالانس VaLens (٣٦٤- ٣٧٨م) وصوّروا له الحادث وكأنّه هبّة سعيدة تتقوّى بها الدولة، إذ إنّ هؤلاء المقاتلين من المزارعين، وبالتالي يمكن الاستفادة منهم في تعويض النقص الحاصل في السكّان، ومن خبراتهم كيد عاملة، فسمح فالانس لهم بأن يعبروا

[١]- نور الدين حاطوم، وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، ج١، م.س، ص٦١٤.

[٢]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٦٢.

[٣]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٣، مج٣، م.س، ص٤١٣.

الدانوب سنة ٣٧٦م، وأن يستوطنوا مويسية Moesia، لكنّه اشترط على هؤلاء اللاجئين أن يسلّموا سلاحهم قبل دخول الإمبراطوريّة، ومقابل رشاوى دفعوها لحراس الحدود، أخلوا سبيلهم وتركوهم يحتفظون بما شاؤوا. وزعّت عليهم أراضٍ للزراعة، إلّا أنّ القوط بخلاف الهون كانوا يجهلون الفلاحة، ولما حبس فالانس عليهم القمح الذي وعدهم به، رؤوا أنفسهم جائعين في وسطٍ خيرٍ وافر، يسامون الضيم وهم مسلّحون، ثاروا ثورة عاتية ودمّروا كلّ ما حولهم من الدانوب إلى البوسفور، هزموا جيشاً رومانيّاً كبيراً عند أدريانوبل (أدرنه) سنة ٣٧٨م، وقتلوا فالانس الذي كان على رأسه، ولم يغادروا المنطقة إلّا بعد أن حوّلوها إلى صحراء خاوية[١]. لقد تمكّن القوط من هزيمة الرومان؛ لأنّ العمل العسكري الذي يتطلّب وحدة القيادة قد تجزّأ أو تقهقر، وطُبع بطابع السرعة بفعل الجهل والأنانيّة، فرغبة فالانس في إحراز نصر منفرد هاجم القوط دون أن ينتظر قوّات الدعم والإمداد بقيادة ابن أخيه غراتيان Gratianus التي كانت متوجّهة لمساندته[٢].

بدأ بعدها جيران روما بالتهديد بمهاجمتها، ففضّل الأباطرة مهادنتهم بالمال عن جبنٍ حيناً وعن ضعف أحياناً كثيرةً، لكنّ السلم لا يُشترى، فبائعه يقبض ثمنه ثمّ يعرضه في السوق مرّة ثانية. الأسلم لأيّ أمير أن يخاطر بالحرب مهما قلّت حظوظه بالنجاح عِوَضَ أن يساوم على السلم، يحترمه عدوه إذا ما تيقّن أنّه لن يخضعه إلّا بمشقّة بعد مقاومة عنيدة. إنّ سلّم التنازلات في السلام طويل، ففي السلام تُدفع المنح في البداية عن طيب خاطر، لكنّها تتحوّل بعد زمن قصير إلى أتاوى واجبة، من يتلّقاها يعتبرها بعد ظروف وجيزة حقّاً واجباً، وإذا تراخى الإمبراطور عن أدائها وأعطى أقلّ من المعتاد، تحوّل على الفور الأمير المهادن إلى عدو عتيد. نذكر من ألف مثال ما جرى مع يوليان حين كان عائداً من حملته على الفرس، اعترضه العرب؛ لأنّه كان قد قطع عنهم الصلة التي عوّدهم عليها. ثمّ عقب هذه الحادثة غضب الألمان في أيام فالنتينيانوس (٣٦٤- ٣٧٥م)؛ لأنّهم نالوا هدايا أقلّ قيمة من التي ألفوها، وبما أنّ الأنفة هي السمة الغالبة عليهم منذ القدم، شنّوا حرباً انتقاميّة، بعد أن اعتبروا هذه الهدايا الرخيصة إهانة لهم[٣].

---

[١]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٦٥.

[٢]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، روما وإمبراطوريّتها، م.س، ص٥٥٨.

[٣]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٦٧.

كان الرومان في البداية يشترون السلم ليأمنوا حدود إمبراطوريّتهم، لكنّهم صاروا في النهاية يشترون سلامة مدينتهم روما بأبهظ الأثمان، فعندما قتل الإمبراطور هونوريوس قائد جيشه ستيلكو سنة ٤٠٨م بتحريض من وزيره أوليمبيوس الذي وشى به عند الإمبراطور بأنّه يتآمر على العرش، وذلك بالتواطؤ مع القوط الغربيين، لاذ عدد من أنصاره (أي ستيلكو) بالفرار، ولجؤوا إلى زعيم القوط الغربيين آلاريك Alaric، الذي انتهز الأمر وطالب هونوريوس بالإسراع في دفع الأتاوات التي كانت تقدّر بحوالي أربعة آلاف دينار، ولمّا رفض هونوريوس، قام آلاريك بحصار روما حتّى أجبر إمبراطورها بدفع خمسة آلاف رطل من الذهب وألف رطل من الفضّة وأربعة آلاف ثوب حريري وثلاثة آلاف رطل من التوابل[١]. أمّا الهون فكانوا يتقاضون سنويّاً من الرومان في أواخر أيّام الإمبراطوريّة (نحو سنة ٤٢٩م) ما مقداره سبعمئة رطل من الذهب سنويّاً مقابل الحفاظ على السلام بعدما لم يقنعهم ثلاثمائة



وخمسون رطلاً، ولسوف يستمرّ السلام مادام الرومان يحافظون على هذه الدفعات[٢].

خريطة الإمبراطوريّة الرومانيّة، ومناطق انتشار القبائل الجرمانيّة والسارماتية.

[١]- سيّد أحمد الناصري، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٤٧١، ٤٧٢.

[٢]- جون مان، أتيلا الهوني ملك البرابرة وسقوط روما، ترجمة عمرو الملاح، دار الكتب الوطنيّة، أبوظبي ٢٠١٣م، ص١٢٩.

كلّما اشتدّت وطأة الحروب الأهليّة بين المتنازعين على العرش ظهرت الخيانة، حيث طَلَبت أطراف النزاع في أكثر من مرّة التدخّل الأجنبي، فأدّت كلّ حرب أهليّة إلى تجسيم الخطر الخارجي[١]. في سنة ٤٢٨م عندما مزّقت الحرب الأهليّة أواصل الإمبراطوريّة الرومانيّة بين شطريها الشرقي والغربي، نصّب مُغتصب الحكم جون (يوهانس) الذي كان موظّفاً مدنيّاً نفسه إمبراطوراً في مدينة رافينا، وخرج جيش شرقي للإطاحة به. كان جون بحاجة إلى العون، فبعث بسفير للهون (ويدعى إيتيوس) كانت تربطه بهم صداقة عميقة، فذهب إيتيوس إلى الهون حاملاً معه صناديق من الذهب، كان ذلك دفعة أولى فحسب، على أن تليها مزيد من الدفعات حالما يمني خصومه بالهزيمة، فزحف على إيطاليا جيش جرّار من الهون، بلغ تعداده ٦٠ ألف مقاتل، وهاجم الجيش الروماني الشرقي الزاحف على إيطاليا في مؤخرته بعيد بلوغه رافينا، لكنّ الأوان قد فات، فقد نُفّذ حكم الإعدام في جون قبل ثلاثة أيام. لم يكن قتال الهون في إيطاليا لأجل عقيدة فكريّة معيّنة أو ولاء، كانوا سيحاربون لصالح من يدفع لهم، وقد راق لهم البقاء في خدمة الإمبراطوريّة، ولمّا كان حُكّام رافينا توّاقين للسلام، تمّت إعادة الهون إلى أراضيهم في بانونيا (المجر الحاليّة) وفاليريا، وأبيح لهم الاستيلاء على الأراضي والقلاع الرومانيّة في المنطقة تقديراً لما قدّموه من عون[٢]. أمّا عندما اغتيل الإمبراطور فالنتينيانوس الثالث سنة ٤٥٥م استنجدت أرملته بالوندال ضدّ خصومها، فانتهز جايسيرك القائد الوندالي وهاجم إيطاليا واحتلّ روما، ومكث فيها أحد عشر يوماً، نهب معابدها وكنوزها ودمّر شطراً كبيراً من مبانيها ومرافقها، وأسر عدداً من وجهائها، من بينهم يودوكسيا Eudoxia أرملة فالنتينيانوس الثالث وبناته وأخذهم معه كرهائن[٣].

ثالثاً: الأسباب الاجتماعيّة لسقوط الإمبراطوريّة الرومانيّة

تمرّ الدول في طريقها إلى الانهيار بحالة من الهرم الاجتماعي، أهمّ مظاهره نقص حادّ في أعداد السكّان. والظاهر أنّ عصر السلام الروماني (٢٧ ق.م – ١٩٢م) أفضى إلى مثل هذه

[١]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، روما وإمبراطوريّتها، م.س، ص٥٥٩.

[٢]- جون مان، أتيلا الهوني، م.س، ص١٢٠، ١٢١.

[٣]- سيّد أحمد الناصري، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٤٧٥.

الحالة في المجتمع الروماني، الذي شهد نقصاً حادّاً في عدد السكّان بصورة مطّردة. لقد كان نقص السكّان في عصر السلام الروماني مقتصراً على المناطق الوسطى من الإمبراطوريّة وبعض الولايات القديمة، لكنّه انتقل في القرن الثالث إلى الولايات القائمة على تخوم الإمبراطوريّة الرومانيّة، وقد أرجع المؤرّخون سبب ذلك إلى عدّة أمور من بينها: تسرّب انحلال أخلاق الرومان، وما عرف عنهم من أنانيّة وميل إلى حياة الرفاه والبذخ والملذّات، إلى سكّان هذه الولايات الحدوديّة. اشتداد الغارات الأجنبيّة على حدود الإمبراطوريّة، ما دمّر تلك الولايات وأفقر أهلها. وأخيراً صعوبة العيش في تلك البقاع النائيّة في ظلّ الفلتان الأمني، وأعمال السطو والنهب، ونقص الموارد وانعدام الصادرات نتيجة انعدام الاستقرار. وكانت النتيجة الحتميّة لهذا الخلل الاجتماعي الذي ترافق مع اضطرابٍ في الأمن إلى نقص حادّ في عدد الولادات، وزيادة في نسبة الوفيات بين سكّان تلك الولايات، الذين ساءت تغذيتهم، ولم يعد النظام الروماني يعتني بهم أو بصحّتهم، وهكذا انتشر بينهم الوباء[١].

كما أسهمت أزمة القرن الثالث الاقتصاديّة في الإمبراطوريّة الرومانيّة في اختفاء الطبقة الوسطى، وهي القوّة الديناميكيّة الحقيقيّة في أيّ مجتمع، وتحوّل المجتمع إلى طبقتين متناقضتين بينهما هوة سحيقة، هما الطبقة الأرستقراطيّة والطبقة الكادحة المستغلّة بأبشع درجات الاستغلال، والتي عانى أبناؤها من الفقر المدقع. لقد كان أفراد الطبقة الأولى يكوّنون الأعيان الذين غالباً ما نسبوا أنفسهم لأفراد شغلوا عضويّة مجلس الشيوخ، فرغم تدهور هذا المجلس وتراجع مكانته إلّا أنّه ظلّ اسماً ولقباً طبقيّاً يحمله الأرستقراطيّون والإقطاعيّون والنبلاء وأصحاب السلطة البيروقراطيّة، بل إنّهم حرصوا على حمل هذا اللقب ولو بشرائه بأغلى الأثمان لِما كان يعطيه لحامله من نفوذ وامتيازات، مثل الإعفاء من الضرائب وأداء الخدمات الإلزاميّة، بل إنّه كان يعطي حامليه أحقّية تولّي المناصب العليا دون غيرهم. لقد كان معظم رجال طبقة مجلس الشيوخ إقطاعيين؛ وذلك لأنّ السياسة الإمبراطوريّة في القرنين الثالث والربع ضمّت قانوناً غريباً يحرّم على النبلاء العمل في التجارة والصناعة، ويقصر هذه المهن على الحرفيين وصغار التجّار، ومن ثمّ لم يكن للنبلاء سوى استثمار

[١]- نور الدين حاطوم، وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، ج١، م.س، ص٦١٣.

أموالهم في شراء الأراضي الزراعيّة، فكوّنوا إقطاعيّات شاسعة[١].

وإذا كان نقص السكان السبب الأوّل وانهيار الطبقة الوسطى السبب الثاني من الأسباب الاجتماعيّة لسقوط الإمبراطوريّة الرومانيّة، فإنّ انهيار الأخلاق كان السبب الثالث. لقد بدأ الانحلال الخلقي منذ احتلال الرومان لبلاد اليونان، وبلغ ذروته في عهد الإمبراطور نيرونNero (٥٤ - ٦٨م)، واستمرّ مستشرياً في المجتمع حتّى تاريخ سقوط روما. وقد مهّد الانحلال الخلقي للانهيار الاجتماعي، ذلك أنّ صفات الرجولة التي نشأت في روما من بساطة العيش وتحمّل المشاق، ودعمها إيمان قوي، قد تبدّدت مع تبدّل الوضع، فقد استشرى الفساد، وانحلّت الأسرة الرومانيّة، وتفكّك المجتمع، وانهارت القيم والمثل العليا بعدما أفسدها بُهرج الثروة، وتفشّي حريّة المعتقد، والانغماس في الملذّات، وإطلاق العنان للشهوات، إذ تسنّى لأبناء الطبقة العليا تجريب كلّ ما خطر على بالهم من أمور بما فيه تبديل عقيدتهم، وأتيح لهم جميع الوسائل التي تمكّنهم من إرضاء شهواتهم، والخضوع لما يحيط بهم من غوايات، لا يصدّهم عن ذلك إلّا التظاهر بمراعاة الآداب العامّة، فتحرّرت الشهوات الجنسيّة من كلّ قيد، في الوقت الذي ضاعت فيه الحريّة السياسيّة[٢]، وانشغل الشعب الروماني بمشاهدة عروض المصارعة، التي لم تفقد شيئاً من سناها، لا بل أدخلت زيادات على أيّام الأعياد. أمّا النخبة الاجتماعيّة الجديدة من محدثي النعمة فقد رضيت طوعاً واختياراً تحمّل النفقات الماليّة التي أوجبتها هذه الملاهي والعروض، وراحت تزهو بها وتفتخر، ويشهد على ذلك النقوش العديدة من يونانيّة ولاتينيّة على السواء. لقد كانت النفقات التي يتحمّلها المتبرّعون في هذا السبيل باهظةً ومرهقةً، وبلغ من شدّة تنافسهم وهوسهم في التبرّع ما أربى على الجنون[٣].

وعلى حدّ وصف أدباء العصر الإمبراطوري: كان يقطن روما شعب آثم منحطّ، بينما كانت المدينة مكان تهلك فيه الفضيلة، إنّها مدينة الكوابيس، يجب أن يتجرّع فيها الرجال السمّ الزعاف عندما تراق الخمرة في كأس من ذهب، والزوجات يتعلّمن فنون التسميم

[١]- سيّد أحمد الناصري، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٤٨٥.

[٢]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٣، مج٣، م.س، ص٤٠٨.

[٣]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، روما وإمبراطوريّتها، م.س، ص٣٨٠.

الخبيث، فيدفعن إلى الدفن جثث أزواجهن الممزّقة، وفي كلّ يوم من أيّام السنة تقابل رجلاً قدّم العشب السام لنصف دزّينة من أقربائه. لا أحد يستطيع أن ينام بسبب التفكير بالكنّة التي أغواها حبّ المال، وبالعرائس اللواتي فقدن عذريّتهن، وزناة لم يتجاوزوا سنّ المراهقة، فكم شارع غصّ بالعشاق ذوي الوجوه الكئيبة، وكم من احتفال أقيم للإثم وانتهاك المحرّمات. وفي وسط هذا الجو الفاسد يكثر الجواسيس الذين بهمسة خفيفة يقطعون أعناق الرجال. لا يوجد في روما امرأة محتشمة ولا رجل موثوق، وكلّ ثري فيها قد جمعت ثروته بلا شرف، وكلّ من حصل على مركز حصل عليه بالوسائل الدنيئة، فالسبيل لأن تكون معتبراً في هذا العصر هو أن تقترف جريمة[١].

بينما هرب المثقّفون من هذا الانحلال الأخلاقي إلى الصوفيّة المتسامية عن اللذّة المادّية، والتي هي فوق ما يعيه الغوغاء، واعتكفوا على البحث في جوهر الخالق والمخلوق، والبحث في القانون الأزلي للوجود، أو في البحث عن السعادة القصوى عن طريق ضبط النفس، والالتزام بقوانين الفضيلة، كالحقّ المطلق والبعد عن الخطيئة[٢]. لقد تسبّب هذا الانحلال الأخلاقي والتفلسف الصوفي في نقص حادّ في عدد المواطنين الرومان، حتّى أنّ نسبة الأحرار في المجتمع تناقصت بصورة مرعبة، بلغت حدّاً تراوح فيه ما بين ١٥- ٢٠ ٪، بينما تألّفت الغالبيّة العظمى في المجتمع من العبيد المحرّرين[٣]. لقد كان تحديد النسل أمراً تلجأ له الطبقات المتعلّمة في روما، ثمّ سرت عدواه إلى الطبقات الدنيا المشهورة بكثرة أبنائها، ولم تحل سنة ١٠٠م حتىّ وصلت هذه العدوى إلى طبقة المزارعين، كما يدلّ على ذلك امتداد المعونة الإمبراطوريّة إلى هذه الطبقة لتشجيعها على الإكثار من الأبناء، وقبل أن يبدأ القرن الثالث عمّت هذه العادة الولايات الغربيّة، وأدّت إلى نقص السكّان في غالة. وانتشرت عادة وأد الأطفال بازدياد الفقر على الرغم من أنّ القوانين كانت تعدّ هذا العمل جريمة[٤]، فمع زيادة الضرائب تعرّض الأطفال الصغار للوأد أو القتل، وذلك بسبب عدم

[١]- أديث هاملتون، الأسلوب الروماني في الأدب والفنّ والحياة، ترجمة: حنا عبود، المعهد العالي للفنون المسرحيّة، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩٧م، ص٢١٩.

[٢]- سيّد أحمد الناصري، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٤٨٨.

[٣]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج٢، في العصور الملكيّة الجمهوريّة الإمبراطوريّة حتّى عهد الإمبراطور قسطنطين، دار الفكر الحديث، لبنان ١٩٦٧م، ص٢٥.

[٤]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٣، مج٣، م.س، ص٤٠٦.

قدرة آبائهم على دفع الضرائب المفروضة عليهم، حدّاً لم يعودوا قادرين معه على إطعام أبنائهم، فاعتبروا أنّه من الحنان أن يخلّصوا أطفالهم ممّا ينتظرهم من البؤس والفاقة التي لم يعد بمقدورهم احتمالها، وحرّك هذا العمل نفس قسطنطين ودفعه إلى إصدار أمرٍ عاجلٍ إلى حكّام ولاياته لتقديم معونة عاجلة، وسدّ حاجة أولئك الآباء الذين لا يجدون ما يطعمون به أولادهم، حتّى لا يضطروا إلى قتلهم، ولكنّ هذا القانون لم يفلح في تخفيف معاناة الناس من قسوة تلك الضرائب، ولا في زيادة عدد السكان[١].

أمّا الأسر الثريّة فقد أسهم إفراط أبنائها في العلاقات الجنسيّة إلى نقصِ خصوبتهم الطبيعيّة، وكان للعزوف عن الزواج أو تأخير وقته هذا الأثر بعينه. وانتشرت عادة الإخصاء في الغرب تأثّراً بالشرقيين؛ فكُتُبُ التاريخ تذكر أنّ بلنستياس رئيس الحرس الإمبراطوري قد أمر بإخصاء ١٠٠ غلام ليهديهم لابنته في ليلة زفافها. وكان للمسيحيّة دورها في تقليل النسل والعزوف عن الزواج والترهّب. كما تناقص عدد سكّان الإمبراطوريّة بسبب الأوبئة والكوارث والثورات والحروب والمجازر، فقد قضت الأوبئة التي اجتاحت الإمبراطوريّة على عدد كبير من السكّان، ولم تكد تنجو أسرة واحدة في الإمبراطوريّة كلّها من الوباء الذي تفشّى فيها بين سنوات ٢٦٠- ٢٦٥م، وبلغت ضحاياه طيلة عشرين عاماً أعداداً لا يمكن أن تحصى، إذ يقال إنّ خمسة آلاف إنسان كانوا يموتون في روما نفسها يوميّاً، وإنّ هذه الحال دامت أسابيع كثيرة، وكانت أفدح نتائج هذا الوباء أنّ مناطق برمّتها غدت خالية من السكّان، وصارت أرضاً بوراً. وقد شرّع بعوض كمبانيا يتغلّب على البشر، وأخذت الملاريا تفتك بالأغنياء والفقراء على السواء في اللاتيوم وتسكانيا[٢].

لقد فعلت الحروب الأهليّة ما فعلته الأوبئة، ولعلّ أخطر الحروب التي عانت منها روما كانت حروبها الداخليّة مع عبيدها، وهذا ما عبّر عنه الفيلسوف السياسي ماكروبوس الذي عاش في القرن الخامس الميلادي بمقولته المشهورة «**عبيدنا أعداؤنا**». وكان كلّما قُتِل رجل، وجريمته مجهولة الفاعل، اتهم عبده بها[٣]. لقد تحمّل العبيد في الإمبراطوريّة

[١]- عبد العالي علي الفيتوري، الإمبراطور قسطنطين والمسيحيّة، بحث معدّ لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، ليبيا، جامعة المرقب ٢٠٠٨م، ص١٠٢.

[٢]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٣، مج٣، م.س، ص٤٠٧.

[٣]- أسد رستم، الروم، بيروت ١٩٥٥م، ص١٢.

الرومانيّة ظروفاً قاسية، وتعرّضوا لأشدّ أنواع الظلم، كانوا يعيشون حياة بائسة، لهم لباسهم الخاصّ علامةً على عبوديّتهم، كان في الغالب مهترئاً من كثرة ضربهم بالسياط، كانوا أشبه بالحيوانات تُعلّق الأجراس في أقدامهم لمراقبة حركاتهم، وتكبّل أيديهم بالسلاسل، وجوههم شاحبة كئيبة من كثرة العمل. عاشوا محرومين من الحقوق المدنيّة، فهم مُلك لملاّكهم مدى الحياة، وكان عليهم أن يقوموا بمختلف النشاطات الزراعيّة والصناعيّة والمنزليّة التي يكلّفها بها أسيادهم[١]، فعبيد المنازل كانوا أنواعاً لا حصر لها، تنوّعت أعمالهم، لاقوا العذاب والاضطهاد والقسوة على يد سادتهم الذين اختلفت أهواؤهم ومشاربهم. فكانوا أحياناً يُقتلون، وأحياناً يُضربون، ويمكننا أن نلمس المعاملة السيّئة التي لقيها عبيد المنازل إذا علمنا أنّ أحد السادة الرومان كان يُصرّ على أن يقف خدمه حول المائدة صامتين، وكان يعاقب من يعطس منهم بالجلد، كما حدث أنّ سيدة رومانية أمرت بجلد خادمتها لأنّه ضايقها اضطرابها أثناء تصفيف شعرها[٢].

لقد وقفت روما الآثمة تتفرّج في تلك الأيّام على أربعمائة عبد يسيرون إلى حتفهم، رجالاً ونساء، صغاراً وكباراً؛ لأنّ أحدهم قتل سيّده، والقاتل كان معروفاً، حتّى الجمهور الظالم في الشارع أخذته الشفقة وهو يرى كلّ هذا العدد من الأبرياء يساق إلى الموت سوقاً، لكنّ مجلس الشيوخ رفض العفو، وقد أعلن عضو مشهور فيه أنّ هؤلاء الذين يقومون على خدمتنا عبارة عن حثالة بشريّة جمعناهم من كلّ أقطار الأرض، وأنّ الطريق الوحيد للاحتفاظ بهم أن يعيشوا بخوف[٣]. كان مطلوباً من الرومان أن يقاوموا العاطفة الغريزيّة أو الفطرة الإنسانيّة في معاملتهم للأبناء والعبيد، ما نسمّيه الحسّ الإنساني كان غريباً عنهم. إنّنا نلاحظ القسوة نفسها التي استخدمتها دول أوروبا الغربيّة في مستعمرتها خلف البحار، ولا سبب لهذه الغلظة سوى عادة التنكيل بالمستضعفين[٤].

بينما كان الأجراء الزراعيّون Coloni يشكّلون غالبيّة سكان الإقطاعيّة، ولم يكن القانون

[١]- هيرمنكيندر، تاريخ العالم من البدايات حتّى الزمن الحاضر، ط٢، تر: إلياس الحلو، المكتبة الشرقيّة، بيروت ٢٠٠٣م، ص١٢١.

[٢]- محمود محمّد الحويري، رؤية في سقوط الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٢٠.

[٣]- أديث هاملتون، الأسلوب الروماني، م.س، ص٢٣٢.

[٤]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٣٦.

يسمح للأجير بترك الأرض التي يزرعها أو هجرة الإقطاعيّة أو تغيير مهنته، وإذا حدث وهرب، فإنّ السلطات ترجعه بالقوّة إلى حيث كان يعمل، فهم كالعبيد يملكون مع الأرض. وبالرغم من أنّ الأجراء كانوا أحراراً بالمولد، إلّا أنّه كان يحقّ لصاحب الأرض الاقطاعي أن ينزلهم إلى مرتبة العبيد عقاباً لهم. وكان وضعهم الاجتماعي ينتقل إلى أبنائهم بالميراث، فابن الأجير يجب أن يكون أجيراً، لكنّ الفارق البسيط الذي كان يميّز الأجير عن العبد هو أنّ من حقّه امتلاك مبلغ معيّن من المال وتوريثه لأبنائه، وكان من حقّه زراعة قطعة من أرض الإقطاعيّة نظير نصف المحصول. ويجيء الأجراء إمّا من الفلاحين الذين لم يكن لديهم أيّ أرض زراعيّة، وإمّا ممّن نسمّيهم بالعمّال الزراعيين، أو من أسرى الجرمان، أو من البرابرة الذين وطّنهم الرومان في المناطق المهجورة أو في داخل الإمبراطوريّة، لكنّ غالبيّتهم كانوا من صغار الملاّك الذين ساءت أحوالهم بسبب كمّية الضرائب وتراجع المحصول، فبعد أن عجزوا عن زراعة أراضيهم قاموا بتسليمها طواعية للإقطاعي نظير حمايتهم من تعسّف جباة الضرائب ومن جشع الموظّفين[١]. فالأثرياء يوزّعون الضرائب ويجمعونها كما يطيب لهم في الأراضي العائدة لهم دونما اكتراث منهم لتسديد حصيلة الضرائب، ولمّا كانت الشرطة لا تتجاسر على التعرّض لهم، فإنّهم يمارسون حقّ الحماية، ويحصّلون حقّهم بأيديهم، ويستولون على أملاك وأشخاص مدينيهم، ومن ثمّ بدأ القضاء على حقوق الدولة باغتصابات يستحيل قمعها لمصلحة ذوي الأملاك الكبيرة، حتّى أمسى كلّ إقطاع دولة ضمن الدولة[٢].

لم تكن سياسة الإمبراطوريّة الرومانيّة الاجتماعيّة مع أبناء الولايات القديمة أفضل حالاً، فهي لم تنظر للشعوب الخاضعة كشعوب مساهمة في عظمتها، بل نظرت إليهم كأعداء، فالضريبة لم تكن إلّا الرصيد الذي يقدّم إلى روما دون عهد بالمبادلة بالمثل، والسلّم الروماني يعني أنّ مدينة روما كانت سيّدة اللعبة، وأنّ مؤسّساتها وسلطتها تقودان العلاقة الاقتصاديّة والاجتماعيّة والثقافيّة في الإمبراطوريّة الرومانيّة، هذه هي «الرومنة الثانية» التي كانت تحرّك مجال الاهتمام باتجاه الحقل الاجتماعي الثقافي، أي كانت تقوم على توجيه الأنظار نحو روما، ما يشير إلى أهمّية عظمة المركز والمسافة الفاصلة بين الثقافات الإقليميّة

---

[١]- سيّد أحمد الناصري، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٤٨٦.

[٢]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، روما وإمبراطوريّتها، م.س، ص٥٧٨.

بالنسبة إلى المعايير الرومانيّة[١].

ولما طحن الفقر السواد الأعظم من الناس، حدث لهم ما يحدث عادة في مجتمعات التخلّف والحرمان الاقتصادي، حيث يلجأ الفرد الكادح اليائس إلى الخرافات والسحر والشعوذة والغيبيّات هروباً من الواقع المرّ وبحثاً عن البلسم الشافي لإنسانيّته المهانة وكبريائه المجروح[٢]. لقد جاء التنجيم إلى روما من بابل، وكان حساب خرائط البروج عملاً معقّداً، وكان يطلق على المنجّمين لقب الرياضيين Mathematici، وقد شجّع عليه الموسوعي الرواقي بوزيدونيس Posidonius، فقد كان الرواقيّون والأفلاطونيّون في صفّ التنجيم، في حين كان الأبيقوريّون والمسيحيّون ضدّه. وتفترض نظريّة التنجيم وجود علاقة بين الناس والنجوم «فنحن نشارك الكواكب في القدرات والمشاعر»، ولما كان مسار كوكب زحل بطيئاً، فقد اعتقدوا أنّه يجعل الناس كسالى، أمّا كوكب الزهرة فهو المشرف على الحب (وكان يعادل الربّة فينوس/ عشتار)، في حين أنّ كوكب المشتري (الذي يعادل الإله جوبيتر) يهب الناس القوّة، وعطارد يبارك التجارة[٣].

لقد ارتبطت الأفعى عند الرومان بآلهة الشفاء[٤]، والبرج الذي يحمل هذا الاسم يساعد على الشفاء، واستخدم السحر لأغراض طبيّة، فكتب الحجاب السحري للوقاية من المرض، ولدينا تعويذات مثل: «أهرب ياعفريت داء الكلب من حامل هذا الحجاب». وتفشّت اللعنات التي تنقش في أغلب الأعمال على رقائق معدنيّة ثمّ تدفن في التراب، وهي تصلح لمناسبات متنوّعة، فأحياناً يكتبها أولئك الذين يفشلون في الحب، وأحياناً المقامرون الذين يريدون إضعاف جياد السباق التي لم يراهنوا عليها. وهناك مثال نموذجي وجد بجانب عين ماء بالقرب من أريزو Arezzo يصبّ اللعنات على شخص يدعى ك. ليتوريوسبويوس Q.LeturiusLupus ويستعدي عليه عرائس البحر أو المياه المغليّة لتقضي عليه خلال

[١]- باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٩٧.

[٢]- سيّد أحمد الناصري، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٤٨٨.

[٣]- جفري بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، مراجعة عبد الغفار مكاوي، مجلّة عالم المعرفة، الصادة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد ١٧٣، الكويت ١٩٩٣م، ص٨٢.

[٤]- لقد تسرّب هذا الشعار إلى الرومان من الشرق القديم عن طريق اليونان، وما زالت الأفعى الملتفّة على كأس أو عصا شعاراً لمهنة الطبّ والصيدلة والمؤسّسات الطبيّة والشركات الدوائيّة منذ عهد السومريين حيث ارتبطت الأفعى بملحمة جلجامش Gilgameš والبحث عن سرّ الخلود، انظر: فاضل عبد الواحد علي، سومر أسطورة وملحمة، دار الأهالي، دمشق ١٩٩٩م، ص٢٤٧.

سنة. ويشير ما كتبه أبيليوس Apuleius في قصّة »الحمار الذهبي« المليئة بالسحر والشعوذة إلى درجة التخلّف الذي أصاب المجتمع، وقد يكون ذلك مجرّد جانب من تراث رواية القصص، ولكنّ إقبال القرّاء الرومان عليها في ذلك الوقت أمر له مغزاه. واللافت أنّ هذا الأديب تزوّج من أرملة ثريّة اتهمته أسرتها بأنّه سحرها، وكانت التهمة مضحكة لسخافتها، وتمكن أبيليوس بمرافعته الحاذقة أمام المحكمة من تبرئة نفسه، ولكنّ وصول هذه القضية أصلاً إلى المحكمة يكشف عن سيطرة الخرافة على المجتمع في ذلك العصر[١].

يمكننا أن نوجز حال المجتمع الروماني خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين بأنّه أصبح صورة معبرّة للتحلّل والانهيار، أمسى مجتمع الفوضى الفكريّة، واليأس السياسي، والفقر الاقتصادي، والظلم الاجتماعي، والتسلّط البيروقراطي، والنظم المتحجّرة التي لم تتطوّر. لقد اختفت من هذا المجتمع الطبقة الوسطى، وهي في أيّ مجتمع أو أيّ حضارة القوّة الديناميكيّة الحقيقيّة، وقد أسفر الموقف عن طبقتين هما البروليتاريّة الجائعة، التي باتت تبحث عن الخلاص أو الهروب من مشكلات العالم الماديّة إلى التخدير الغيبي وإلى السحر والشعوذة والخزعبلات، ما أدّى إلى انحطاط الفكر الثقافي وتفشّي البربريّة حتّى في التعبير الفني والجمالي. أمّا الطبقة الثانية فهي الطبقة الأرستقراطيّة الحاكمة والمتحكّمة عن طريق السيطرة على الأجهزة البيروقراطيّة، وعن طريق اقتناء الإقطاعات الشاسعة بمن عليها من فلاّحين وعبيد[٢].

رابعاً: الأسباب الاقتصاديّة والمعيشيّة

لم ينهج الأباطرة الرومان سياسات اقتصاديّة علميّة قائمة على تطوير الإنتاج والقيام بمشروعات اقتصاديّة كبرى هدفها تحقيق الاكتفاء الذاتي، بل فضّلوا الاعتماد على سياسة نهب موارد الولايات لسدّ حاجة روما وإيطاليا، لكنّ هذه السياسة أتت بنتائج عكسيّة على مستوى **الأمن الغذائي**، حيث أمسى الرومان يعيشون تحت رحمة الولايات التي تحكّمت بأمنهم الغذائي. ولمّا كان القمح يحتلّ مركز الصدارة فيما تنهبه روما من سلع من ولاياتها؛ لأنّه المادّة الأساسيّة الرئيسيّة في غذاء الرومان، والدولة قد تعهّدت بتوزيعه مجّاناً على

[١]- جفري بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، م.س، ص٨٢، ٨٣.

[٢]- سيّد أحمد الناصري، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٤٨٣.

سواد الشعب، فقد صار وصول كمّيات القمح الضروريّة لغذاء سكّان روما من أهمّ مشاغل الأباطرة الرومان المتعاقبين، والتي أولوها عنايتهم باستمرار، ولطالما سبّب تأخّر وصول شحنات القمح لروما إلى تعكّر صفو الأمن وقلق الأباطرة. وكانت أهمّ الولايات التي تُرسل الحبوب إلى روما هي صقلية وإفريقيا ومصر، بالإضافة إلى قمح حوران في ولاية سورية الرومانيّة، وكثيراً ما نعتت إحدى هذه الولايات بأنّها «أهراء روما» أي مستودع حبوبها[١].

لقد علّق المؤرّخ تاكيتوس على ذلك بقوله: «صار من المؤكّد الآن أنّ إيطاليا تعتمد على القمح المستورد من الولايات القاصية، والمشكلة الآن ليست في فقدان التربة لخصوبتها، ولكنّ الحقيقة أنّنا نفضّل استغلال أفريقيا ومصر، وعلى ذلك فقد صار بقاء روما مرهوناً بالسفن[٢]». وبناء عليه كلّف أباطرة الرومان حكّام الولايات بمراقبة زراعة القمح وتجارته في ولاياتهم بدقّة وانتباه، تحدوهما رغبتان تتعلّق أوّلاهما بزيادة محصول القمح في كلّ الولاية، وثانيهما تخفيض أسعاره حرصاً على سلطتهم ومصلحة سكّان روما بصورة خاصّة، وذلك لئلا يثوروا عليهم[٣]. وكان من نتائج هذه السياسة الاقتصاديّة الخرقاء أمران خطيران هما: **أوّلاً**: وضع مصير روما الاقتصادي في يد الولايات، **ثانيا**: تفشّي البطالة في المجتمع الروماني وتحوّل السواد الأعظم من الشعب إلى طبقة من الغوغاء المسجّلة أسماؤهم في سجلّات الإعاشة المجانيّة، لا همّ لها سوى الحصول على حصّتهم من القمح ومشاهدة عروض المصارعة[٤].

إنّ اعتماد روما على الحبوب المستوردة من الولايات اعتماداً مزعزعاً لا تُؤمن مغبّته، وانقطاع ورود العبيد، وانهيار الضياع الكبيرة في إيطاليا، وانحطاط وسائل النقل، والأخطار التي تتعرّض لها التجارة، وعجز الصناعة عن تصدير واردات إيطاليا[٥]، وتراجع إنتاجها الصناعي، وتحوّله في مستهل القرن الثالث الميلادي إلى إنتاج فردي، وفقدان روما أسواق

[١]- نور الدين حاطوم، وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، ج١: م.س، ص٦٠٠.

[2]- (Tacitus, The Annuals, xii, 43.

[٣]- نور الدين حاطوم، وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، ج١: م.س، ص٦٠٠.

[٤]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، روما وإمبراطوريّتها، م.س، ص٣٨٠.

[٥]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٣، مج٣، م.س، ص٤١٠.

الولايات بسبب منافسة هذه الولايات نفسها للعاصمة[١]، وانتقال المعادن الثمينة إلى الشرق، وما كانت تعانيه من حرب أهليّة مدمّرة بين الأغنياء والفقراء، وما كانت تعانيه من وطأة ارتفاع نفقات الجيوش، والمساعدات التي تقدّم للغوغاء، والأعمال العامّة، والبيروقراطيّة المطّردة الزيادة، وتثبيط همم النابهين ذوي الكفاءات، والحاشية المتطفّلة التي لا تؤدّي عملاً من الأعمال، ونفاد رؤوس الأموال المستثمرة؛ لما كان يفرض عليها من الضرائب التي تبلغ حدّ المصادرة، وهجرة رؤوس الأموال والعمّال، واستخدام العبيد في الأعمال الزراعيّة، وفرض نظام الطبقات الصارم على الأعمال الصناعيّة، إنّ كلّ هذا قوّض الأسس المادّية للحياة في إيطاليا، حتّى أضحت قوّة روما في آخر الأمر شبحاً سياسيّاً يعيش بعد موتها الاقتصادي[٢].

لا شكّ أنّ تطوّر الاقتصاد بحاجة إلى استقرار سياسي، لكنّ الإمبراطوريّة الرومانيّة كانت تعاني من حروب أهليّة مستمرّة، وأكثرها تدميراً للإمبراطورية هي الحروب الدائمة بين الطامعين بالعرش، ولم يكن الشرّ الحقيقي هو خسارة ألوف من الأرواح في ميادين القتال، فهذه خسارة يمكن أن تعوّض، لكن كان الشرّ كلّ الشرّ في استحالة قيام ما يشبه الإدارة الشرعيّة المنظّمة استحالة مطلقة في مثل هذه الأحوال، فجيش كلّ مدعي وكلّ إمبراطور في حاجة أوّلاً وقبل كلّ شيء إلى المال والطعام والملابس والأسلحة وغيرها، ولم يكن لدى أحد منهم الوقت أو الرغبة في أن يسلك طرقاً شرعيّة، فيقصر نفسه على دخل الدولة المعتاد. ولذا كانت سياسة الأباطرة جميعاً، مع بعض استثناءات قليلة لم تعمّر طويلاً، تشبه سياسة ماكسيمان، تجنيد إجباري، وسخرة، وتبرّعات قسريّة من الأموال والأغذية[٣].

لا بل حتّى الأباطرة الذين استتبّ لهم الأمر، لم يسلكوا أيّ سياسات اقتصاديّة رشيدة، فقد وجّه دقلديانوس ضربة قاصمة للاقتصاد الروماني عندما جعل الصناعات والحرف التجاريّة تحت الإشراف الحكومي المباشر، بل جعل هذه المهن وراثيّة، محوّلاً بذلك نقابات الحرفيين وجمعيّاتهم إلى أجهزة خدمات تابعة للدولة، فقتل الإبداع، وتحوّلت طاقة الإمبراطوريّة إلى الجمود والتحجّر، كما أنّه لم يحاول تخفيف الضرائب عن الطبقات

---

[١]- أسد رستم، الروم، م.س، ص١١.

[٢]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٣، مج٣، م.س، ص٤١٠.

[٣]- رستوفتزف، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٥٦٤- ٥٦٥.

الكادحة المنتجة مصدر السخط والثورة[1]. كما رغب بعض الأباطرة بالسير قُدماً على خطا أسلافهم، أرادوا أن يربطوا أسماءهم بالإنشاءات الكبرى، دون الاكتراث بموارد الدولة، فأنفق قسطنطين أموالاً طائلة حين شيَّدَ على البوسفور روما ثانية (القسطنطينيّة)، كما أنفق خلفاؤه مثله على تجميلها من بعده. ولا يعني ذلك أنّ سكّان روما قد حرموا نعم الدولة، التي أسرع قسطنطين ليشمل بها سكّان عاصمته الجديدة أيضاً، ولم يكتف أورليان بتوزيع القمح مجّاناً، بل شرع في توزيع الخبز أيضاً، ثمّ عمد خلفاؤه إلى التوفير بتخفيض نوع الطحين، ولكن فالنتينيانوس عاد وأقرّ مبدأ توزيع الخبز الأبيض، وأقرّ أورليان نفسه توزيع الزيت مجّاناً، والملح ولحم الخنزير في بعض المواعيد، كما أقرّ توزيع القمصان الذي لم يعمل به قطّ[2].

لقد كانت جميع الإصلاحات التي حاولت الدولة الرومانيّة اتباعها على الصعيدين الإداري والعسكري قد زادت الطين بلّة؛ فزيادة الرواتب التي تدفعها الدولة للجنود زيادة بالغة، وزيادة أعداد القوّات المسلحة، وزيادة أعداد هيئة الموظّفين ذوي النزعة البيروقراطيّة المغالية، أسهمت في زيادة النفقات دون وجود موارد كافية لتسدّ هذا العجز في ميزانيّة الدولة. في الواقع يمثّل الجيش والبيروقراطيّة عبئاً ثقيلاً على أيّ دولة في التاريخ، فكيف يمكن دفع جميع هذه النفقات والرواتب في وقت تعاني فيه الدولة أصلاً من الإفلاس والعوز، والإنتاج في تدهور وهبوط مستمر؟ لم يكن هناك من سبيل إلّا إلى الالتجاء إلى نظام ضريبي صارم، لا يستطيع أحد الإفلات منه، ثمّ بالاستيلاء على السلع والخدمات لإضافتها إلى ما يجمع من مال عن طريق الضرائب، وعلى ذلك لم يكن هناك مفرّ من أن تسهم إصلاحات دقلديانوس في زيادة سطوة الدولة الاستبداديّة، فقد أجبرت أصحاب المهن الحرّة (الخبّازين، والحدّادين، والطحّانين، وأصحاب السفن، وغيرهم) على تقديم خدمات مجانيّة للدولة، ولم يكن في وسعهم تحاشي هذه السخرة عن طريق اعتزال عملهم؛ لأنّهم كانوا موثقين إلى مهنهم بقوائم أسماء مقيّدين بها[3].

---

[1]- أحمد حافظ، الإمبراطوريّة الرومانيّة من النشأة إلى الانهيار، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة ٢٠٠٧م، ص٢٢٣.

[2]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، روما وإمبراطوريّتها، م.س، ص٥٧٣.

[3]- دونالد.ر. ددلى، حضارة روما، م.س، ص٣٤٤.

إنّ الخدمات المجّانية (السخرة) تُساهم في خفض نفقات الدولة، لكنّها لا تسهم أبداً في تخفيض العبء الحقيقي الذي يتحمّله الرعايا[١]، في الدولة المشرفة على الهلاك تكثر المصاريف، فيضطر صاحبها إلى مضاعفة الجبايات في وقت تكون فيه الرعية عاجزة أكثر فأكثر عن أدائها مع نقص في الدخل وارتفاع في الأسعار. هذا ما حصل للإمبراطوريّة الرومانيّة حيث وصلت الضرائب فيها حدّاً لا يطاق[٢]، لذلك لم يفلح صدور مرسوم الأسعار الشهير سنة ٣٠١م في وضع حدّ لارتفاع الأسعار والأجور الجنوني في جميع أنحاء الإمبراطوريّة، ولمّا تعذّر تطبيقه تحتّم سحبه، وقد قدّم لنا هذا المرسوم-على أقلّ تقدير- أهمّ وثيقة اقتصاديّة شاملة عن العالم القديم[٣].

لقد كان نظام السخرة من أسوأ الأنظمة التي أضرّت باقتصاد الدولة الرومانيّة، فالدولة كانت تفرض على مواطنيها إيواء رجالها من موظّفين أو مجنّدين، وتلزم المكلّفين بجباية الضريبة العينيّة السنويّة بنقلها إلى المخزن القريب، ومن مخزن إلى مخزن أحياناً، وتصادر اليد العاملة، وأدوات العمل، والمواد اللازمة لتعهّد أبنيتها ومنشآتها الحيويّة من طرق وجسور، وتلزم بتقديم الزوامل وحيوانات الجرّ لتأمين خدمة البريد العام[٤]. وقد قدّر لهذه المطالب الجبريّة أن تصبح من أنكى اللعنات التي حلّت بالإمبراطوريّة الرومانيّة في أواخر عصرها[٥]. أمّا في زمن الحرب فيتفاقم الوضع سوءاً، حيث تحشد جموع من المجنّدين الجدد قسراً بعد أن يقتلعوا من أعمالهم رغماً عنهم، وتغتصب وسائل النقل، ويقهر الرجال على خدمة الجيوش وهي في طريقها إلى ميادين القتال، وكان على الأهلين أن يقدّموا الطعام والمواد الحربيّة أيضاً، وأن يفتحوا أبوابهم لإيواء الجنود والضبّاط، وكان هناك موظّفون مهمّتهم جمع الأموال والمؤونة الحربيّة من التبرّعات ومن المدن والأفراد، وكان من المستحيل أن يتمكّن هؤلاء من القيام بواجبهم دون الاستعانة بعدد كبير من صغار الموظّفين والجنود، الذين انقضّوا على المدن والقرى كأسراب الجراد، يلتهمون الأموال ويلقون الفزع في القلوب،

---

[١]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، روما وإمبراطوريّتها، م.س، ص٥٧٤.

[٢]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٧٢.

[٣]- دونالد.ر. ددلى، حضارة روما، م.س، ص٣٤٥.

[٤]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، روما وإمبراطوريتها، م.س، ص٥٧٥.

[٥]- دونالد.ر. ددلى، حضارة روما، م.س، ص٣٣٦.

حتّى ضاق بهم جميع طبقات السكّان، ومهما يكن مثّل هذا السلوك أمراً عاديّاً في مثل هذه الظروف، إلاّ أنّه في أواخر أيام الإمبراطوريّة الرومانيّة تخطّى كلّ حدّ[١].

وبينما كانت روما تسير في طريقها إلى التهلكة، كانت **الولايات الرومانيّة** تتحرّر من سيطرتها الاقتصاديّة، فتوسّع روما في الجهات الأربع أدّى إلى اتساع مماثل في أفق أبنائها العاملين في حقلي التجارة والصناعة، فخرج الإيطاليّون إلى الولايات الجديدة يوظّفون أموالهم فيها، ما أتاح لأبناء هذه الولايات مشاطرة الإيطاليين العمل في كلّ ميادين الاقتصاد، وأدّى إلى ازدهار الحياة الاقتصاديّة فيها، وتسرّبت العملة لها[٢]. ولمّا زادت الأهمّية السياسيّة لكثير من الولايات، صار بوسعها أن تسيطر على حياتها الاقتصاديّة الخاصّة، ولم يعد بوسع الأباطرة الرومان ونظامهم الرأسمالي التحكّم باقتصادها وتسخيره لخدمة روما وسكّانها. وهكذا أقلع الأباطرة الرومان عن عادة توجيه اقتصاد الولايات الوجهة التي من شأنها أن تخدم مصلحة روما فقط، أو طلبهم من الولايات التنازل عن قسم من محاصيلها، حيث صارت كلّ ولاية معنيّة بأن تكون محاصيلها متنوّعة، وأن يكون اقتصادها كاملاً، كما صارت كلّ ولاية تهتمّ باستثمار وتصدير ما تراه مناسباً لمصلحتها الخاصّة، وأعود عليها بالربح[٣].

فعلى سبيل المثال أخذت آسيا الصغرى تصدّر الذرة والخمر والسمك المجفّف والمنسوجات الصوفيّة والصباغ الأرجواني[٤]، وقد تمّ الكشف عن مصنع كبير لإنتاج الصوف في منزل ريفي يقع في جنوب فرنسا على مقربة من تولوز، كما كشف عن أفران الفخّار في منزل ريفي في بلجيكا، ومن المعروف جيّداً أن مصنعاً للأدوات البرونزيّة المطلية بالميناء كان يشغل جزءاً من منزل ريفي شهير في أنثي Anthee في بلجيكا[٥]، وعاد الزجاج اللبناني إلى سابق تفوّقه في أسواق البحر المتوسّط، ومع الزمن فقدت إيطاليا سيطرتها الاقتصاديّة التي كانت قد كسبتها خلال حروب التوسّع المتوالية[٦]. وقد نتج عن هذه الحال الجديدة

---

[١]- رستوفتزف، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٤٨٩.

[٢]- أسد رستم، الروم، م.س، ص١١.

[٣]- نور الدين حاطوم، وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، ج١: م.س، ص٦٠٦.

[٤]- أسد رستم، الروم، م.س، ص١١.

[٥]- رستوفتزف، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٢٤٠.

[٦]- أسد رستم، الروم، م.س، ص١١.

أن قامت بين الولايات نفسها علاقات تجاريّة، ما لم يكن يحدث في القرن الأول الميلادي إلّا نادراً، وأخذت هذه العلاقات الاقتصاديّة تنمو وتزداد مقوّضة أركان النظام الرأسمالي الروماني، الذي كان يمحور الاقتصاد كلّه حول العاصمة روما. كما تجدر الإشارة إلى أنّ هذه العلاقات الاقتصاديّة المباشرة بين ولايات الإمبراطوريّة تسبّبت في هجرة أعداد من التجّار من الولايات الشرقيّة إلى الولايات الغربيّة البعيدة، حيث افتتحوا بها فروعاً لمحلاّتهم التجاريّة، وقد لاحظ المؤرّخون المعاصرون أنّ السوريين كانوا أنشط رعايا الرومان في هذه التجارة الداخليّة، التي كانت تتمّ بين ولاية رومانيّة وأخرى[١].

كما أنّ **التجارة الدوليّة** لم تكن في صالح الاقتصاد الروماني؛ لأنّها كانت تجارة كماليّات مثل العاج والحرير والتوابل والعطور، وبالتالي لم تكن روما تصدّر أشياء مقابلة؛ لأنّ صناعتها كانت بدائيّة، وللاستهلاك الداخلي فقط، فضلاً عن أنّ الحكومة لم تشجّع على الصناعة التي كان الرومان يحتقرونها، ومن ثمّ كان عليها أن تدفع ثمن هذه الكماليّات ذهباً[٢]. فعلى سبيل المثال قُدّر الإنفاق الروماني على تجارة الجزيرة العربيّة والهند والصين حوالي ١٠٠ مليون سيسترز، وفي مكان آخر قُدّر حجم التجارة مع الهند على أقلّ تقدير نحو ٥٠ مليون سيسترز، أي ما يعادل حوالي بليون يورو، تنفق على الكماليّات في الاحتفالات والمعابد والزينة التي تباع في الإمبراطوريّة الرومانيّة بثمن يبلغ مئة مرّة ضعف ثمنها الأصلي[٣]. وهكذا صار بوسعنا أن نتصوّر كيف كان الذهب يهرّب إلى الشرق، ولمّا كانت المناجم قد هجرت أو نفدت، فقد كان من الصعب على الرومان تعويض هذا المعدن أو حتّى وقف استنزافه، فكانت النتيجة تقليص العملة بتخفيض نسبة الفضّة والذهب فيها لدرجة كبيرة جداً، وبالتالي انخفضت قيمتها مقابل ارتفاع الاسعار، بل ورفض الناس في كثير من الأحيان التعامل بها، وفضّلوا التعامل بالمقايضة[٤].

خامساً: الأسباب العسكريّة لسقوط الإمبراطوريّة الرومانيّة

---

[١]- نور الدين حاطوم، وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، ج١: م.س، ص٦٠٤.

[٢]- سيّد أحمد الناصري، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٥٠٢.

[٣]- عبد الله العبد الجبار، نظرة الكتّاب الكلاسيكيين لتجارة الجزيرة العربيّة، مجلّة الدرعية، العددان الحادي والثاني والخمسون، السنة الثالثة عشرة، يناير ٢٠١٢م، ص٢٣٦.

[٤]- سيّد أحمد الناصري، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٥٠٢.

لقد تحوّل الجيش من جيش وطني إلى طائفة عسكريّة مستقلّة بذاتها، فالمساحة الشاسعة والحدود والطويلة للإمبراطوريّة والأعمال الحربيّة المتصلة اضطرّت الحكومة إلى أن تقتطع الجنود مساحات من الأرض على حدود الإمبراطوريّة لكي يحرثوها وينتفعوا منها، كما سمحت لهم بالزواج منذ عهد سبتيموس سيفيروس، وبناء أكواخCanabae بجوار الثكنات العسكريّة في تلك الإقطاعات ليسكنوا بها، فقضى الجنود كلّ حياتهم في خدمة العلم، وتحوّلوا مع مرور الوقت إلى طائفة عسكريّة تعيش لنفسها لا جيشاً وطنيّاً يخدم الدولة[١]. وفي الوقت الذي كان واجب الفرق العسكريّة في الولايات الدفاع عن حدود الإمبراطوريّة، صار هدف قادتها الوصول إلى السلطة، وبلغ الأمر بتلك الفرق أن أضحى باستطاعتها المناداة بهؤلاء القادة أباطرة في أيّ ولاية، إدراكاً منها للمكاسب الوفيرة التي ستعود عليها عندما يصير ذلك القائد إمبراطوراً[٢]. فعندما وضع التاج في المزاد فاز يوليان به؛ لأنّه أربى على وعود منافسيه، لكن سرعان ما ظهر له ثلاثة منافسين على كرسي الإمبراطوريّة، كلّ فرقة متوضّعة في منطقتها نادت بقائدها إمبراطوراً عاماً للدولة، فكان بيسينيوسنيجر في سورية، وسبتيموس سيفيروس في بانونيا العليا (المجر الحالية)، كلاوميوس ألبينوس Albinus في غاليا (فرنسا)، أمّا يوليان فقد انكشف عنه جنوده بعد أن أيقنوا أنّه لا يستطيع الوفاء بوعوده, في النهاية تخلّص سبتيموس سيفيروس من خصومه، وصفا له الحكم[٣].

لقد كان سبتيموس سيفيروس من أصل إفريقي، ولم يغب عن باله قطّ أنّه مدين في انتصاره للجيش، وأنّ الاحتفاظ بولائه هو الهدف الأسمى[٤]. بدأ سبتيموس سيفيروس بصبغ الحكومة من وجهة النظر السياسيّة بصبغة عسكريّة منظّمة بعد أن كانت بيروقراطيّة خالصّة في عهد سلفه، حيث بدأ بالترويج لحكومة بيروقراطيّة- عسكريّة، على رأسها ملك ذو سلطة أوتوقراطيّة، والمُلك وراثي في أسرته، ويقوم سلطانه على ولاء الجيش وموظّفي الدولة وعلى عبادة شخص الإمبراطور. كان صبغ البيروقراطيّة بصبغة عسكريّة يساوي إشاعة الهمجيّة فيها؛ لأنّ الجيش في هذا الوقت كان يتألّف كلّه تقريباً من الفلاحين الذين انحدروا من أقلّ أجزاء الإمبراطوريّة

[١]- أسد رستم، الروم، م.س، ص١٢.

[٢]- محمود محمّد الحويري، رؤية في سقوط الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٢٤.

[٣]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٤٧.

[٤]- دونالد.ر. ددلى، حضارة روما، م.س، ص٣٣٦.

حضارة، ومن أبناء الجنود والمحاربين القدماء الذين استقرّوا في مقاطعاتهم، ولتأمين هذا التحوّل تمّ إبعاد الطبقات العليا القديمة تدريجيّاً من مراكز القيادة في الجيش، ومن المناصب الإدارية في الولايات، حيث استبدلوا بأرستقراطيّة عسكريّة جديدة[١].

إنّ تسلّط الجيش على السلطة السياسيّة أودى بهلاك الدولة، فقد بدأت الدولة الرومانيّة تعاني الأمرّين، والحقّ يقال إنّ سيفيروس ما كان له أن يأخذ هذه الخطوة إلّا بعد ما لمس انهيار المؤسّسة العسكريّة ممثّلة في الحرس الإمبراطوري، الفِرقة الأهمّ في الجيش الإمبراطوري، فكان القضاء على الحرس الإمبراطوري خطوة لابُدّ منها، والسبب في ذلك يعود لانهيار أخلاق عناصرها وتسلّطهم على الدولة-حتّى أنّ قادتهم بدؤوا عمليّة مخجلة لبيع الوظائف العامّة- لذلك كان لابدّ من حسم الأمر معهم، ولاسيّما أنّه لم يكن هناك مجال للإصلاح، فكتائب هذا الحرس تمتّعت بسلطة سياسيّة طاغية على الدولة خلال العهود الماضية المتأخّرة، وبالتالي توجّب عليه استئصالها. لقد كان الحرس الإمبراطوري حتّى ذلك الوقت درع المؤسّسات الرومانيّة، وذلك بسبب كيفيّة تجنيدهم، فإن لم يكونوا ممثّلين للعنصر الإيطالي، إلّا أنهم كانوا على الأقلّ ممثّلين للمقاطعات التي ارتبطت بروما منذ زمن بعيد، وبالتالي كان لهذه المقاطعات امتيازات على تلك التي ألحقت بالإمبراطوريّة منذ عهد قريب، لقد كان ذلك نوعاً من العجرفة التي لم يعد لها مكان بعد الآن[٢].

لقد قضى سبتيموس سيفيروس على الحرس الإمبراطوري بدوافع مشابهة للدوافع التي قضى فيها السلطان العثماني محمود الثاني على الإنكشارية سنة ١٨٢٦م، مع اختلاف الوسائل والطريقة المتّبعة. فقد أصدر إليهم الإمبراطور سبتيموس سيفيروس أمره للالتحاق به دون تأخير، فامتثلوا للأمر، وفي المكان المحدّد لهم أخذ هؤلاء الحرس المتأنّقون يخلعون بزّاتهم العسكريّة البرّاقة ليرتدوا ثياباً مدنيّة مثلما طُلب منهم، وعند ذلك أحيط بهم الجنود الإلّيريين، أجبروا أن يتخلّوا عن الخنجر المرصّع الذي كانوا يحتفظون به شعاراً للفيلق المختار، الذي كان لهم شرف الانتساب إليه، ثمّ طردوا من الخدمة بعد أن وجّهت

[١]- رستوفتزف، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٥٣١.

[٢]- جان بابليون، إمبراطورات سوريّات، تاريخ فترة التأثير السوري في الإمبراطوريّة الرومانيّة، ترجمة يوسف شلب الشام، العربي للطباعة والنشر، دمشق ١٩٨٧م، ص٨٥.

لهم هذه الإهانة المثلى، وهدّدوا بالموت إذا عُثر عليهم على بعد أقلّ من مائة ميل، فقام البعض منهم -وكان هذا أقلّ عاراً- بقتل نفسه بدافع من الخجل والغضب[١].

لقد حُلَّ الحرس الإمبراطوري القديم وحَلَّ محلّه حرس جديد، وسُمح بدخوله لأيّ جندي لائق من جنود الفرق الرومانيّة، وكان الإمبراطور يعيّن في المناصب الشاغرة بالقيادات العليا أفراداً من هذه الفرقة[٢]. إنّ إنشاء جيوش من أبناء الولايات ومن الجنود المرتزقة في عهد الإمبراطور سبتيموس سيفيروس يعتبر نقطة التحوّل الحقيقيّة نحو فقدان العنصر الروماني والإيطالي السيطرة على المؤسّسة العسكريّة في الإمبراطوريّة الرومانيّة[٣]. لقد كان تجنيد الشعب مكلّفاً جداً للدولة، إذ يتمتّع الجندي بجراية ثابتة، ثمّ بمكافأة عند نهاية الخدمة، وأخيراً بهبات عارضة غالباً ما تتحوّل إلى حقوق مكتسبة في أعين أناس يتحكّمون في حياة الإمبراطور والشعب معاً. وبما أنّ التكاليف فاقت بكثير المراد، جرى البحث عن جنود أقلّ تكلفة، ومن هنا تمّ التعاقد مع أمم غير رومانيّة، غريبة عن بذخ الجندي الروماني، وبعيدة عن عقليّته وطموحه[٤]. وقد أيّد الجيش هذا التطوّر؛ لأنّ البروليتاريّة عادة ما يهيمن عليها الفكر الديماغوجي، أو لأنّ عناصره جاءت من الطبقات غير الرومانيّة المضطهدة، وبالتالي لم يكن يعنيها مراعاة موازين الأرستقراطيّة الرومانيّة التقليديّة[٥].

إنّ ما أتى سيفيروس لإصلاحه أفسد ما يماثله، فكان يحابي الجيش ويعمل على زيادة رواتبه بالمنح المتكرّرة، وهي في الحقيقة رشاوى إن شئنا أن نسمّي الأشياء بأسمائها، وإمعاناً في إضفاء الطابع العسكري على الدولة، ترك وهو على فراش الموت وصيّته الأخيرة إلى ابنيه في عبارة يمكن أن نشرحها كالآتي: «اتحدا معاً، وادفعا للجنود رواتبهم، ولا تهتما لشيء بعد ذلك». إنّ الوصية الأولى قد ذهبت أدراج الرياح؛ ذلك أنّ كركلاّ قد اغتال شقيقه جيتا Geta، وأعمل السيف في أنصاره، ومحا اسمه من جميع النقوش. أمّا عن الوصية الثانية فقد تمسّك بها كركلاّ Caracalla (١٨٨ - ٢١٧م) ولم يتخل عنها قطّ، حتّى أنّه اعتاد القول: «لا ينبغي أن يكون لأحد مال سواي،

[١]- جان بابليون،إمبراطورات سوريّات، م.س، ص٧٥.

[٢]- دونالد.ر. ددلي، حضارة روما، م.س، ص٣٣٦.

[٣]- سيّد أحمد الناصري، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٥٠٧.

[٤]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٦٨.

[٥]- سيّد أحمد الناصري، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٥٠٧.

حتّى امنحه كلّه لجنودي». واستطاع أن يفرض بهذا الجيش جواً من الإرهاب على روما عندما اختار جنوداً وحوّلهم إلى جواسيس وشرطة سريّة. وشهد عهده تدهوراً للقيمة الحقيقيّة للعملة (سنة ٢١٥م)، ممّا كان مظهراً من المظاهر الدالّة على انهيار الإمبراطوريّة، وأحد أسبابه[١].

إنّ الكارثة التي حلّت بالجيش الروماني تمثّلت في عقليّته التي تبدّلت، فبعد أن كان ضبّاط الجيش أداة لتنفيذ مشيئة الإمبراطور، والقوّة التي يعتمد عليها في الأيام الأولى للإمبراطوريّة، صار الإمبراطور يشتري ودّهم بالهدايا[٢]، وإذا ما أذعن الطاغية لمطالب رجال الحرب، وتركهم يتحكّمون في رقاب المواطنين ينهبون أموالهم، فهذه سياسة تفيد مرّة واحدة. يبالغ الجنود في الفساد إلى حدّ إتلاف أصل أرزاقهم، عندها لا بدّ من التفكير في إصلاح ما فسد، والعودة إلى شيء من النظام، أوّل من يحاول ذلك يلقى حتفه لا محالة[٣]. هذا ما فتح الباب على مصراعيه بين ضبّاط الجيش للصراع على التاج، حيث صار بإمكان أيّ ضابط الوصول إلى عرش الإمبراطوريّة طالما كان بوسعه الاحتفاظ بإخلاص فرقه العسكريّة[٤]. وهكذا كانت الانقلابات العسكريّة في القرن الثالث الميلادي من أهمّ أسباب سقوط الإمبراطوريّة الرومانيّة، فالجيش الذي كان خادم الإمبراطوريّة أمسى سيّدها، بينما أخذ قادته يقفزون على العرش وسط هتافات جنودهم، وبدا واضحاً ضعف السلطة الإمبراطوريّة، وانعدم النظام بعد أن تحكّمت القوّات العسكريّة في عزل الأباطرة وتعيينهم[٥]، ولمّا كان هذا النوع من الأباطرة من أصول غير رومانيّة، ولا يعتمد على أيّ تأييد سوى البطش العسكري[٦]، أخذ الإمبراطور، الذي يخرج منتصراً في الصراع على عرش الإمبراطوريّة، يقيم نفوذه وسلطانه ويؤمّن حياته على الدكتاتوريّة العسكريّة، فقد تمّ إبطال مؤسّسات الدولة الرومانيّة كافّة، وجُعل العرش وراثيّاً، وصار الأباطرة يتملّقون للجنود برفع أجورهم وبمنحهم الأراضي، بغضّ النظر عن استبدادهم بالأهالي في الولايات، ولا ريب أنّ الناس عانوا من تسلّط الجنود ونهبهم

---

[١]- دونالد.ر. ددلى، حضارة روما، م.س، ص٣٣٧.

[٢]- محمود محمد الحويري، رؤية في سقوط الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٢٢.

[٣]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٥٢، ١٥٣.

[٤]- محمود محمّد الحويري، رؤية في سقوط الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٢٢.

[٥]- نعيم فرح، تاريخ أوروبا السياسي، م.س، ص٥.

[٦]- سيّد أحمد الناصري، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٥٠٧.

وتخريبهم[١]، ولمّا أظهر الجيش بكلّ جلاء ووضوح أنّه لا يستطيع أن يحتمل هيمنة الطبقات الممتازة القديمة، ولم يكن لدى الأباطرة مفرّ سوى الرضوخ لهذا المطلب، فأجابوا رغبة الجيش بالتدريج، وبدون إفراط، كلّما أمكن ذلك[٢].

لقد انعدمت الروح الحربيّة في إيطاليا تماماً منذ أن أعفى جالّينوس Gallien (٢٦٠-٢٦٨م) أعضاء مجلس الشيوخ من الخدمة في الجيش[٣]، ولمّا كان الجيش بحاجة إلى مورد بشري وعناصر جدد دائماً، فقد فرض دقلديانوس التجنيد الإجباري على الذكور الذين لا يشغلون مناصب رسميّة، وعلى أبناء الفقراء العاطلين والخارجين على القانون، كما ألزم أبناء المستوطنين الجرمان على الحدود بدخول الخدمة العسكريّة عند سنّ التجنيد، وكذلك أبناء الجنود المسرّحين، وأبناء الجنود الذين لا يزالون تحت السلاح، كما ألزم أصحاب الإقطاعات بإمداده بنسبة معيّنة من المتطوّعين[٤]، فكان الفرار من الجيش من بين أبرز صفات المرحلة، فالتجنيد صار إجباريّاً، ومع اندلاع الحروب اعتبره سكّان المدن كما اعتبره سكان الريف عبئاً ثقيلاً[٥]. أمّا بالنسبة لنظام التطوّع فلم يكن يقبل عليه أحد إلاّ الهاربون من المشاكل الاجتماعيّة أو الاقتصاديّة أو الباحثون عن الامتيازات العسكريّة مثل الإعفاء من الضرائب ومن السخرة ومن الإلزام الوظيفي، وهم قليلون. كذلك كان أسرى الحرب يتطوّعون في الجيش الروماني هرباً من حكم الإعدام، أو البيع في سوق الرقيق، وبدخول البرابرة في الجيش الروماني ضرب مسمار جديد في نعش الإمبراطوريّة الرومانيّة[٦].

إنّ إعفاء أعضاء مجلس الشيوخ الروماني من الخدمة في الجيش، وبروز طبقة أرستقراطيّة جديدة من بين صفوف الجيش، وظهور قادة وضبّاط من أبناء الولايات واستيلاءهم على عرش الإمبراطوريّة، كلّ هذا كان سبباً في القضاء على زعامة إيطاليا، بل على استقلالها قبل أن تسقط الإمبراطوريّة الرومانيّة بزمن طويل؛ ذلك أنّ جيوش روما لم تعد كما كانت من قبل

---

[١]- محمود محمّد الحويري، رؤية في سقوط الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٢٢.

[٢]- رستوفتزف، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٥٥٣.

[٣]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٣، مج٣، م.س، ص٤١٢.

[٤]- سيّد أحمد الناصري، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٤١٣.

[٥]- رستوفتزف، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٤٩٠.

[٦]- سيّد أحمد الناصري، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٤١٣.

جيوشاً رومانيّة، بل كان معظمها يتألّف من أبناء الولايات وأكثرهم من البرابرة[١]. وإذا كانت هذه السياسة قد تمخّضت عن أمّة من العبيد، تحكمها أقليّة قليلة على رأسها ملك يقود جيشاً من المرتزقة أقرب ما يكون للمليشيّات منه للجيش النظامي[٢]، فإنّ عناصر هذه المليشيّات لم يحاربوا دفاعاً عن دينهم أو وطنهم، بل كانوا يقاتلون لنيل أجورهم ومكاسبهم الشخصيّة وهباتهم ومغانمهم. وكانوا يهاجمون مدن الإمبراطوريّة وينهبونها بنفس الحماسة التي قد لا يظهرونها في مواجهة الأعداء، وكان معظمهم من أبناء الفلاّحين الذين يحقدون على الأغنياء وعلى أبناء المدن بحكم أنّ الأغنياء كانوا يستغلّون الفقراء، وأنّ أبناء المدن كانوا يستغلّون أبناء الريف ويستغلّون آباءهم من قبلهم، وكانت الحروب الداخليّة تتيح لهم نهب المدن نهباً لا يكاد يترك فيها شيء إلاّ ويدمرّه البرابرة الأجانب[٣]، حتّى صار كلّ إنسان يرى الجيش مصدراً للشرّ، أعني تلك المليشيّات من الجنود الجشعين المستهترين الذين كانوا حقّاً سادة الأباطرة، والذين كرهوا العمل والقتال، ونعموا بسلب ونهب وسرقة مواطنيهم أنفسهم[٤].

لقد زهد الرومان في التعبئة التي طالما ميّزتهم، بل هجروا الأسلحة الخاصّة بهم، حتّى أنّ الجنود سئموا الدرع ولبس الخوذة، فطالبوا من الإمبراطور غراتيان Gratianus (٣٧٥- ٣٨٣م) إعفاءهم من ذلك، ولمّا أصبحوا دون وقاء يحميهم من ضربات خصومهم تعوّدوا على الفرار، كما لم يعد يعنيهم تحصين معسكراتهم، فترتّب عن هذا التهاون أنّ جيوشهم غدت لقمة سائغة لفرسان العدو. كان عدد الفرسان في الجيش الروماني قليلاً مقارنة بعدد المشاة، بنسبة واحد إلى أحد عشر، وهذا كان يتناسب مع طبيعة الجيش الروماني وطبيعة حصار المدن الذي لا ينفع فيه الخيل، فلما دبّ الانحطاط في الرومان أصبحوا لا يقاتلون إلاّ على الخيل[٥]. فالحروب الفارسيّة والقوطيّة أدّت إلى تفوّق سلاح الفرسان داخل الجيش الروماني، وهذا التفوّق العسكري للفرسان دفعهم لمطالبة الدولة بمرتّبات أكبر، ومع

---

[١]- ول. ديورانت، قصة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٣، مج٣، م.س، ص٤١٢.

[٢]- رستوفتزف، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٥٨٩.

[٣]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٣، مج٣، م.س، ص٤١٢.

[٤]- رستوفتزف، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٥٣٩.

[٥]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٧٠.

كلّ زيادة في رواتب الجنود كانت الدولة تعاني من صعوبات اقتصاديّة أكبر[١].

لا شكّ أنّ جيشاً زُج به في السياسة وحُـمَّـى التنافس والصراع على العرش بعد أن تمّ محو صفته الوطنيّة عنه، وتحويله إلى مليشيّات من المرتزقة والمنتفعين، لا بدّ أن تتسرّب إليه روح الفوضى وعدم الانضباط والتمرّد والتطاول على السلطة السياسيّة الحاكمة. لقد كانت الفوضى نتيجة حتميّة لما تقدّم، فالخدمة العسكريّة في البداية كانت محصورة في المواطنين الرومان، أولئك الذين كانوا يملكون أرض روما وهم الذين سنّوا شرائعها، وكان على كلّ جندي من المواطنين الرومان أن يقسم بكلّ وقار واحترام يمين الطاعة والولاء للإمبراطور والدولة الرومانيّة[٢]، لكنّ الواقع اختلف تماماً، فبعد أن تمّ دعم الجيش بوسائل راديكاليّة يائسة، وتمّ الاعتماد على تجنيد العناصر الجرمانيّة فيه، لم يعد الجيش الجديد جيشاً رومانيّاً، حتّى في أوسع معاني الكلمة، فجنوده لم يكونوا جزءاً من السكّان الرومان، ولم يعد هذا الجيش يمثّل مصالح الشعب، صار مؤسّسة خاصّة يقوم السكّان بدفع نفقات الاحتفاظ بها، لكي تحارب أعداءهم من الأجانب، ولما تعذّر صبغ هذا الجيش بصبغة رومانيّة وإدماجه في السكّان، صار الجيش على الدوام يمثّل طائفة عسكريّة أجنبيّة[٣].

إنّ تجنيد العناصر الجرمانيّة في الجيش الروماني هو إجراء محكوم عليه بالفشل؛ ذلك أنّ الجنود الجرمان كان عليهم أن يقاتلوا في سبيل الإمبراطوريّة الرومانيّة من أجل الحفاظ على مكافآتهم، وبالتالي هم مستعدّون للقتال ضدّ الدولة والتسلّط على رقاب السكان، وموارد البلاد، وإشاعة الفوضى فيها لو لم يحصلوا على هذه المكافآت. لقد توجّب على الرومان دفع مبالغ طائلة لهؤلاء الحلفاء في وقت كانت فيه خزانة الدولة تعاني من الإفلاس الشديد، حتّى أنّها لم تستطع توفير اللوازم الكافية للحفاظ على الأسطول والجيش. ومن هنا نلاحظ أنّ الارستقراطية الرومانيّة رغم أنّها كانت على درجة عظيمة من الثراء، إلّا أنّها لم تُسهم في الحفاظ على كيان الإمبراطوريّة لإنقاذها من فوضى الجيش ووهدة الإفلاس التي

[١]- دونالد.ر. ددلي، حضارة روما، م.س، ص٣٤٣.

[٢]- أسد رستم، الروم، م.س، ص١٢.

[٣]- رستوفتزف، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٥٥٦.

تردّت فيها[١].

إنّ إمبراطورية أسّست على السلاح لا تدوم إلاّ به. عندما كانت روما تنعم بالهناء وكلمتها مسموعة، لم يكن قادتها يتصوّرون أنّ الوضع قد يتغيّر يوماً، فأهملوا الجيش النظامي، لم يكونوا يتوقّعون خيراً منه بل صاروا يرون فيه أصل كلّ شر، وغالباً ما يرمون إضعافه. من المبادئ العسكريّة التي لم يحد عنها الرومان أنّ كلّ من غادر موقعه أو ألقى سلاحه أثناء معركة، جزاؤه الإعدام، قام جوليان وفالنتينيانوس بإحياء هذه القاعدة وما شابهها، إلاّ أنّ البرابرة المجنّدين في صفوف الجيوش الرومانيّة، كانوا لا يطيقون هذه الصرامة، عادتهم كعادة التتار هي الفرّ من أجل الكرّ، إذ إنّ هدفهم من القتال النهب وليس المجد. كان الانضباط من طبع الرومان الأوائل إلى حدّ أنّ قائداً أعدم ابنه الفائز لأنّه استبق الأوامر، لكن بعد أن امتزجوا بالبرابرة فقدوا تلك الميزة ومالوا إلى الأنانيّة[٢].

سادساً: الأسباب الدينيّة لسقوط الإمبراطوريّة الرومانيّة

لقد تزامن انحلال الإمبراطوريّة الرومانيّة مع انتشار الديانة المسيحيّة بين رعاياها، وقد شعر الرومان الوثنيّون أنّ المسيحيين يقفون موقف المنطويين على أنفسهم، ولاسيّما أنّهم يرفضون التعاون معهم من أجل حماية الإمبراطوريّة من الأخطار المحدقة بها، كما لاموا عليهم رفضهم المشاركة في عبادة الإمبراطور، التي أحاطها الوثنيّون بالحماس والإيمان، إدراكاً منهم لأهمّية توحيد العقيدة الوطنيّة في شخص الإمبراطور كعامل من عوامل وحدة الدولة، وبالتالي نظروا إلى هؤلاء المسيحيين نظرة الخارجين عن الإجماع الوطني والمنشقّين عن التراث القومي القديم[٣]، وما انفكّوا يندّدون بشعائر ومناسك غريبة لم يسبق أن سمع بها أيّ مواطن روماني[٤]، ونعتوا المسيحيين بأبشع الصفات، واتهموهم بأنّهم أعداء الجنس البشري، وقالوا إنّ الكوارث التي حلّت بالإمبراطوريّة ليست إلاّ نتيجة غضب الآلهة الرومانيّة

[١]- محمود محمّد الحويري، رؤية في سقوط الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص١٨٦.

[٢]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٧٢.

[٣]- سيّد أحمد الناصري، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٤٢٠.

[٤]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٧٥.

والسماح لمن يسبّونها من المسيحيين بالبقاء على الحياة[١]. ولمّا كان الناس في الماضي يعزون فيضانات نهر التيبر إلى غضب الآلهة، صار سكّان روما المشرفة على الهلاك يربطون مصائبهم باعتناق بعضهم لدين مُحدث وهجرانهم المعابد التقليديّة[٢].

في الوقت الذي كان فيه الوثنيّون يعزون الانحطاط العام، الذي أصاب الإمبراطوريّة الرومانيّة إلى الدين الجديد، كان المسيحيون يلومون الوثنيين على هذا الانحطاط، إذ ندّد المسيحيّون بما استشرى في الدولة الرومانيّة من فساد وعبادة أصنام، وسخِروا من الآلهة الوثنيّة الوطنيّة، وأظهرا الشماتة فيها حين حلّت بروما الكوارث، وتنبؤوا بسقوطها بعد زمن قليل، وأعلنوا في حماسة أنّ كلّ من أتيحت له فرصة اعتناق المسيحيّة ولم يعتنقها سيعذّب عذاباً أليماً أبديّاً[٣]. وأكّدوا أنّ دقلديانوس قوّض أركان الدولة بالإصلاحات التي قام بها عندما أشرك ثلاثة من زملائه في الحكومة، فقام كلّ واحد منهم بصرف الأموال وتجنيد الجيوش كما لو كان وحده على رأس الدولة، فاختلّت الموازنة بين النفقات والموارد، وارتفعت التكاليف حدّاً أرغمت الفلاّحين على مغادرة حقولهم التي تحوّلت إلى أرضٍ بور[٤].

هذا على المستوى الشعبي، أمّا على المستوى الرسمي فقد كانت المسيحيّة عقيدةً غير مسموحٍ بها، وتلوّثت سمعة معتنقيها بالنظر إليهم على أنّهم يرفضون تقريب الذبائح إلى المعبودات الرسميّة نيابة عن الإمبراطور، ومن ثمّ كان معتنقوها عرضةً للشكّ والريبة على الدوام، بل كانوا هدفاً للهجوم عليهم أثناء المحن والأزمات، وهذا ما كان يحدث طوال كوارث القرن الثالث؛ حيث وقع اضطهاد مفجع لهم في عهد ديكيوس سنة ٢٥١م، وتكرّر الأمر مرّتين في عهد فاليرانوس سنة ٢٥٧م، وسنة ٢٦٠م، غير أنّ هذه الاضطهادات واستشهاد بعض الأفراد على فترات متباعدة لم يفت في عضد هذه الديانة أو يضعف إيمان

[١]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٣، مج٣، م.س، ص٣٧١.

[٢]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٧٥.

[٣]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٣، مج٣، م.س، ص٣٧١.

[٤]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٧٥.

معتنقيها، بل على العكس فدماء الشهداء روت بذور الكنيسة النامية[١]، لا بل إنّ هذه السياسة القمعيّة وهذا الاضطهاد الدموي عاد بنتائج عكسيّة وسيّئة على الإمبراطوريّة الرومانيّة، حيث ولّدت هذه السياسة ردّة فعل عند غالبيّة معتنقي الديانة المسيحيّة، جعلت منهم فئة سلبيّة في المجتمع، فحرمت الدولة من الاستفادة من إمكانات وقدرات نسبة كبيرة من رعاياها، والتي كان من الممكن أن تساهم في تطوّر الإمبراطوريّة وتقوّي جبهتها الداخليّة والخارجيّة فيما لو منحت حريّة المعتقد[٢].

لقد كانت الاضطهادات الكبيرة والأخيرة التي حلّت بالمسيحيين في عهد دقلديانوس آخر محاولة لسحق الكنيسة، لكنّ الأمر تبدّل مع صدور مرسوم ميلانو سنة ٣١٣م في عهد قسطنطين الكبير، حيث تمّ الاعتراف فيه بالمسيحيّة ديانة رسميّة في الدولة، فكان ذلك خطراً على الإمبراطوريّة الرومانيّة-من وجهة نظر الوثنيين- لأنّ إعلان حريّة العبادة للجميع حوّل الكنائس إلى منظّمات مشروعة، وبالتالي قوّض أركان الديانة الوثنيّة الرومانيّة. ولمّا كان الناس على دين الملك، كان اعتناق الإمبراطور قسطنطين للديانة المسيحيّة، المسمار الأخير الذي ضرب في نعش الديانات الوثنيّة القديمة، حيث ترأس الإمبراطور مجمع نيقية سنة ٣٢٥م، وشيّد كاتدرائية القديس يوحنا، وكنيسة القديس بطرس في روما، وأسّس العاصمة المسيحيّة الجديدة على البوسفور (القسطنطينيّة) بعيداً عن روما الوثنيّة[٣].

وهكذا شقّت المسيحيّة صفّ الوحدة الوطنية الرومانيّة، فعندما سقطت روما بيد القوط الغربيين لأوّل مرّة في تاريخها سنة ٤١٠م، كان وقع سقوطها عنيفاً ومؤثّراً على نفوس الرومان؛ لأنّ هذه المدينة لم تسقط قطّ حتّى عندما غزا هانيبال إيطاليا، واعتبر هذا الحدث كارثة معنويّة وعسكريّة ودينيّة، وفوق كلّ ذلك كارثة سياسيّة، فعلت أصوات الاحتجاج من الوثنيين بأنّ اللوم يجب أن يوجّه إلى أولئك الأباطرة الذين ضحّوا بمعتقداتهم الدينيّة الرومانيّة وتراثهم الذي صنع الإمبراطوريّة في سبيل ديانة غريبة وافدة من الشرق. وظهرت موجة انتقاد شديدة للمسيحيّة، اتهمتها بأنّها السبب في تثبيط همم الشباب، وروح الأمّة،

---

[١]- دونالد.ر. ددلى، حضارة روما، م.س، ص٣٤٧.

[٢]- عبد العالي علي الفيتوري، الإمبراطور قسطنطين والمسيحيّة، م.س، ص١٢٢.

[٣]- دونالد.ر. ددلى، حضارة روما، م.س، ص٣٤٧.

وقتل الطموح السياسي والقومي في نفوس المواطنين، وتحويلهم إلى أناس سلبيين[١]. وفي المقابل كتب صاحب كتاب (مدينة الله Civitas Dei) القديس أوغسطين: «**إنّ الدولة الرومانيّة هوت صريعة الشرك والمظالم التي أشاعتها الحضارة الوثنيّة على مرّ التاريخ**» وختم أوغسطين مقالته بالقول: «**إنّ روما المذنبة سقطت لتمهّد السبيل لانتصار مدينة الله الخالدة**»، وكان يقصد بذلك الحياة الآخرة الأبديّة[٢].

في الواقع لقد كان النزاع أعمق من هذا الخصام؛ ذلك أنّ الدولة كانت أساس الحضارة الوثنيّة، في حين أنّ الدين الجديد كان أساس الحضارة المسيحيّة[٣]، فلماّ كان الفقراء من بروليتاريّة المدن وعبيد الريف الأجراء أسرع طبقات مجتمع الإمبراطوريّة الرومانيّة إلى الإيمان بالعقيدة الجديدة؛ لأنّها كانت طبقات ساخطة على الفاقة والظلم الذي حاق بها، تمسّكت الطبقات الأرستقراطيّة بالعقيدة الوثنيّة بوصفها تراثاً قومياً[٤]، وبالتالي لم يكن الناس فقدوا إيمانهم بالدولة؛ لأنّ المسيحيّة أبعدت عواطفهم عنها، بل فقدوه لأنّ الدولة كانت تنصر الثروة على الفقر، تحارب لتستولي على العبيد، تفرض الضرائب على الكادحين لتستعين بها على الترف؛ لأنّها عجزت عن حماية الشعب من المجاعات والأوبئة والغزو الأجنبي والفقر المدقع، فهل يلام الناس بعد ذلك إذا تحوّلوا عن قيصر الذي يدعو إلى الحرب، إلى المسيح الذي لم يسبق له مثيل، ومن حياة خالية من الأمل والكرامة، إلى دين يواسيهم في فقرهم ويكرّم إنسانيّتهم[٥]. لقد كانت نظرة الديانة المسيحيّة مختلفة عن نظرة الديانة الوثنيّة لمختلف القضايا والمشكلات الاجتماعيّة والاقتصادية والسياسيّة، ولهذا تعصّب الوثنيّون للأرستقراطيّة تعصّب الطبقات الدنيا الكادحة للمسيحيّة، فتحوّل الصراع بين الكنيسة والدولة إلى صراع طبقي اجتماعي قبل أن يكون صراعاً عقائدياً[٦].

أمّا على المستوى السياسي فقد كان المواطن الروماني ينظر إلى دينه على أنّه جزء من كيان

[١]- سيّد أحمد الناصري، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٤٧٢.

[٢]- نعيم فرح- المرجع السابق، ص٧.

[٣]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٣، مج٣، م.س، ص٣٧٢.

[٤]- سيّد أحمد الناصري، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٤٩٢.

[٥]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٣، مج٣، م.س، ص٤٠٩.

[٦]- سيّد أحمد الناصري، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٤٩٢.

الدولة وهويّتها، وكانت الدولة هي الذروة التي تنتهي عندها مبادئه الأخلاقيّة العليا، لذلك لم يتردّد لحظة في عبادة الدولة ممثّلة في شخصيّة الربّة روما Roma وجوبيتر الكابيتولي Jupiter Capitolinus وأخيراً في عبادة الإمبراطور، فالوطنيّة والدين الوثني كانا وجهي حيويّة الشعب الروماني، ولهذا كان تراجع الديانة الوثنيّة في روما يعني تقهقر الروح الوطنيّة الرومانيّة. أمّا المسيحي فكان ينظر إلى دينه على أنّه شيء منفصل عن المجتمع السياسي، وأنّه أسمى من هذا المجتمع مقاماً، وكان يكنّ أعظم الولاء للسيّد المسيح عليه السلام لا للقيصر المتربّع على العرش[١] حدّاً أنكرت فيه المسيحيّة ألوهيّة الإمبراطور علناً، في وقت كانت فيه عبادة الإمبراطور تمثّل عقدة الحبل التي تجمّع حولها الرومان، ونظرت للدولة الرومانيّة على أنّها دولة كُفرٍ وعبادةٍ للأوثان[٢].

لا شكّ أنّ المسيحيّة قد عجّلت في سقوط الإمبراطوريّة الرومانيّة؛ لأنّها قضت على العقائد القديمة الدعامة السياسيّة للدولة الرومانيّة، ولأنّها ناصبت الثقافة القديمة العداء، وحاربت العلم والأدب والفلسفة والفنّ، وجاءت بالتصوّف الشرقي الموهن وأدخلته في الرواقيّة الواقعيّة، التي كانت من خصائص الحياة الرومانيّة، وحوّلت أفكار الناس نحو الاستعداد لاستقبال كارثة عالميّة، وهو استعداد مضعف للعزيمة، وأغرتهم بالجري وراء النجاة الفرديّة عن طريق الزهد والصلاة بدل السعي للنجاة الجماعيّة بالإخلاص للدولة والتفاني في الدفاع عنها، وحطّمت المسيحيّة وحدة الإمبراطوريّة، فحين كان الأباطرة العسكريّون يكافحون للاحتفاظ بها، شجّعت المسيحيّة على الامتناع عن تولّي المناصب العامّة أو أداء الخدمة العسكريّة، وبهذا كلّه كان انتصار المسيح إيذاناً بموت روما[٣]. وقد شرح جيبون ذلك بقوله: «**إنّ تعاليم الحكم التي كان يدعو لها رجال الكنيسة والرهبان أسهمت في تثبيط الهمم، وكلّ ما تبقّى من الروح العسكريّة وجد نهايته في حياة الدير الأليمة**»[٤].

بينما وضع ترتليان المبدأ الثوري على سلطة الدولة القائل بأنّ الإنسان غير ملزم بإطاعة

[١]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٣، مج٣، م.س، ص٣٧٢.

[٢]- سيّد أحمد الناصري، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٤٩٢.

[٣]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٣، مج٣، م.س، ص٤٠٨.

[٤]- إدوارد جيبون، اضمحلال الإمبراطوريّة الرومانيّة وسقوطها، نقل الجزء الأوّل إلى العربيّة محمّد علي أبو دوره، والجزء الثاني لويس إسكندر، راجع الجزأين أحمد نجيب هاشم، القاهرة ١٩٦٩م، ص٢٣٦.

قانون يعتقد أنّه ظالم، وكان هذا المبدأ تمرّداً صارخاً على هيبة الدولة، التي فقدت شرعيّتها في نظر أنصار الدين الجديد، حتّى كان المسيحي يعظّم أسقفه بل يعظّم قسيسه أكثر من تعظيمه الحاكم الروماني، ويعرض ما يقع بينه وبين زملائه المسيحيين من مشكلات على رؤساء الكنيسة لا على موظّفي الدولة، وكان اعتزال المسيحي للشؤون الدنيويّة يبدو للوثني كأنّه هروب من الواجبات المدنيّة وضعف للروح والإرادة القوميّتين، وأشار ترتليان على المسيحيين أن يرفضوا الخدمة العسكريّة، وعمل عدد كبير منهم بنصيحته. وكان زعماء المسيحيين يحثّونهم على تجنّب غير المسيحيين، وأن يبتعدوا عن الألعاب الهمجيّة التي يقيمونها في أعيادهم، وألّا يغشّوا دور تمثيلهم لأنّها مدعاة للفجور، وحرّم على المسيحي أن يتزوّج بغير المسيحيّة، وعلى المسيحيّة أن تتزوّج بغير المسيحي، واتهم الوثنيّون العبيد المسيحيين بأنّهم يبذرون بذور الشقاق في الأسر بتحريضهم أبناء أسيادهم وزوجاتهم على اعتناق الدين المسيحي، واتهم الدين المسيحي بأنّه يعمل لتشتيت شمل الأسر وخراب البيوت[١].

إنّ هذا الاتهام القاسي لا يخلو من بعض الحقيقة، حتّى بعد أن أصبحت المسيحيّة الديانة الرسميّة للإمبراطوريّة الرومانيّة، حيث انقسم المسيحيّون على أنفسهم، وكان للمسيحية دور مهمّ في ظهور نظام من الطوائف والشيع والنحل شبيه بذلك الذي كان سائداً في الشرق، أو الذي ساد في العصور الوسطى[٢]. وبما أنّنا في الشطر الغربي للإمبراطوريّة الرومانيّة يكفي أن نشير إلى الدوناتيّة Donatius، وهي إحدى الطوائف التي انشقّت عن الكنيسة الكاثوليكيّة، نسبة إلى دوناتوس الذي لقّب بالعظيم، والذي لقبّت الطائفة الدوناتيّة باسمه، وكان أكثر أتباع الحركة الدوناتيّة من الفلّاحين ومن الطبقات المعدومة في القرى والمناطق الداخليّة في الشمال الأفريقي، وتعتبر الحركة الدوناتيّة تأكيداً متزايداً على رفض السكان الوطنيين للرومنة، وكرههم للوجود الروماني في الشمال الأفريقي، وكان المزارعون هم أكثر السكان بعداً عن التأثّر بالثقافة الرومانيّة، لذلك مالوا إلى دعم الحركة الدوناتيّة ضدّ الكنيسة الكاثوليكيّة، التي أصبحت مرتبطة بالإمبراطوريّة، حتّى أنّه وصل عدد الدوناتيين إلى حوالي نصف السكّان المسيحيين في شمال إفريقيا، وتعدّ الحركة الدوناتيّة حركة ثوريّة

[١]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٣، مج٣، م.س، ص٣٧٢.

[٢]- دونالد.ر. ددلى، حضارة روما، م.س، ص٣٤٤.

مناهضة للظلم السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي تعرّض له السكّان من جرّاء إرهاق كاهلهم بالضرائب، فشكّلوا جماعات مسلّحة هاجمت مزارع الكاثوليك المرتبطين بالدولة. وهناك من يصف الدوناتيّة بأنّها صراع بين الأرستقراطيّة الحاكمة والسواد المحكوم، واتخذ عداؤها للإمبراطوريّة طابع كفاح طبقي، فقد وجّه هؤلاء الثائرون نقمتهم للملاّك، واعتبروا أنّ دخولهم للمسيحيّة كان لأجل المحافظة على أملاكهم وامتيازاتهم السياسيّة، وقد وجدت الدوناتيّة إقبالاً كبيراً من قبل السكّان المحليين خاصّة من الطبقات المسحوقة والمستغلَّة من قبل السلطات الرومانيّة[١].

سابعاً: العاصمة الجديدة

لقد طُرحت فكرة نقل العاصمة الرومانيّة من روما إلى الشرق منذ عهد يوليوس قيصر Julius Caesar، ورغب عدد من أباطرة الرومان بتحقيق هذه الفكرة، فكثيراً ما دار الحديث عن المشروع القديم الذي كان يرمي لإعادة تأسيس طروادة، وقد سبق أن اتخذ الإمبراطور دقلديانوس مدينة نيقوميديا الواقعة في آسيا الصغرى مركزاً لحكمه في الشرق. أمّا نقل العاصمة من الغرب إلى الشرق بصورة رسميّة، فقد تمّ على يد الإمبراطور قسطنطين[٢]، بعد أن تاقت نفسه إلى تأسيس مدينة جديدة تحمل اسمه وتخلّد ذكراه، فنقل قاعدة الإمبراطوريّة إلى الشرق[٣]، وبدأ بتخطيط العاصمة الجديدة في سنة ٣٢٤م، فأمسك قسطنطين بيده رمحاً وطاف حول مستعمرة بيزنطة القديمة، وتابع طوافه حتّى أدخل في تخطيطه التلال السبع التي ضمّها الرأس البرّي الممتدّ بين بحر مرمرة جنوباً والقرن الذهبي شمالاً، وقد بذل قسطنطين كلّ ما في وسعه لتزيين العاصمة الجديدة التي بنيت على طراز مدينة روما[٤].

فما هي الدوافع الحقيقيّة لنقل العاصمة؟ وما هي انعكاساتها على سقوط العاصمة القديمة روما بيد البرابرة الجرمان؟ لقد كان إنشاء العاصمة الجديدة تبعاً لتغيّر الثقل الاجتماعي المتمثّل في عدد السكّان، والثقل الاقتصادي المتمثّل في الثروات الطبيعيّة

---

[١]- عبد العالي علي الفيتوري، الإمبراطور قسطنطين والمسيحيّة، م.س، ص١٤٧.

[٢]- نعيم فرح، تاريخ بيزنطة السياسي، ط٤، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٦م، ص٤٩.

[٣]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٦٠.

[٤]- نعيم فرح، تاريخ بيزنطة السياسي، م.س، ص٥٠.

والزراعيّة، والثقافي المتمثّل في اللغة والدين، فالشرق احتفظت ولاياته بنشاطها الاقتصادي، حيث استمرّت تؤدّي مبالغ كبيرة من المال لخزينة الدولة تفوق بكثير ما كانت تؤدّيه الولايات الغربيّة، وكذلك فإنّ ولايات البلقان كانت تقدّم أفضل الرجال للجيش الروماني. وهكذا ارتبطت أسباب إنشاء القسطنطينية بعوامل سقوط روما، فقد تعرّض العالم الروماني لأزمات هدّت كيانه، وقوّضت بنيانه، وأهلكت أعداداً كبيرة من سكّانه، فدخل الفساد كلّ نواحي الحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة والثقافيّة والعسكريّة والدينيّة[١].

لقد افتتحت القسطنطينيّة رسميّاً في ١١ أيار ٣٣٠م، وعلى الرغم من أنّ اسم القسطنطينيّة حلّ محلّ الاسم الذي اختير لها وهو (روما الجديدة)، إلّا أنّ سكانها ظلّوا يسمّون أنفسهم باسم الرومان حتّى سقوطها[٢]. لكنّ التسمية لم تغن عن واقع الحال، الذي أشار إلى أنّ سُلطات الحكم قُسّمت أكثر من أن تكون قد نُقلت؛ فعرش القسطنطينيّة الذي أقيم في الشرق قابله عرش روما في الغرب، واعتلاه أباطرة كانوا يقيمون فيها، ولهم ميراث متكافئ من الجيوش والولايات. إنّ هذه البدعة الخطيرة أضعفت قوّة الحكم حتّى أصبح مزدوجاً، وتضاعفت بذلك أدوات نظام ظالم مستبد[٣]. كما أخذ العالم الروماني (الغربي) والعالم الإغريقي (الشرقي) يبتعد كل منهما عن الآخر، وأصبحت وحدة الإمبراطوريّة لا تعدو أن تكون نظريّة عسيرة التحقيق، فبناء القسطنطينيّة أدّى إلى تصعيد عمليّة تقسيم الإمبراطوريّة الرومانيّة؛ لأنّ وجود عاصمة جديدة في الشرق ترتّب عليه وجود حاكم في الشرق وآخر في الغرب، وذلك شجّع على هذا التقسيم الذي وقع سنة٣٩٥م عندما انفصل الجزءان اللاتيني والإغريقي عن بعضهما، ولم تضمّهما من بعد وحدة سياسيّة أبداً، وبمرور الزمن صارت القسطنطينيّة إغريقيّة تماماً في لغتها وثقافتها، وعبثاً حاول بعض الأباطرة إرجاع المدينة إلى اللاتينيّة[٤].

أمّا على المستوى الاقتصادي، فإنّه عندما انقسمت الإمبراطوريّة إلى شطرين، استأثرت

[١]- عبد العالي علي الفيتوري، الإمبراطور قسطنطين والمسيحيّة، م.س، ص١١٠.

[٢]- دونالد.ر. ددلى، حضارة روما، م.س، ص٣٤٩-٣٥٦.

[٣]- إدوارد جيبون، اضمحلال الإمبراطوريّة الرومانيّة وسقوطها، م.س، ص٢٣٥.

[٤]- عبد العالي علي الفيتوري، الإمبراطور قسطنطين والمسيحيّة، م.س، ص١١٨.

القسطنطينيّة بكلّ خيرات الشرق الثري وموارده، أمّا حال الجزء الغربي فكان سيّئاً مُتهالكاً[١]، فهجمات البرابرة واستغلال الثروات المعدنيّة الغنيّة الذي دام عدّة قرون، قد انقصا ما تخرجه روما من معادن نفيسة[٢]، ومعلوم أنّ مناجم إنجلترا لم تكن مكتشفة بعد، والمعادن في إيطاليا قليلة ومهملة أو ضعيفة الإنتاج في إسبانيا منذ عهد القرطاجيين، في ذلك الوقت كانت مساحة روما داخل الأسوار أصغر بكثير ممّا هي عليه اليوم، لكنّ ضواحيها كانت متّسعة جداً، وكانت إيطاليا بما فيها من نزهات كثيرة بمثابة حديقة لها. كان الإيطاليّون بستانيين، أمّا المزارعون بالمعنى الدقيق فكانوا سكّان صقليا وإفريقيا ومصر. لم يعد يخدم الأرض سوى العبيد، فلمّا انتقل كرسي الإمبراطوريّة إلى الشرق، رحلت إلى هناك روما بحذافيرها. ذهب العبيد مع الأسياد، فتحوّلت إيطاليا إلى قفر[٣].

إنّ ما حدث في إيطاليا الوسطى والجنوبيّة من تقطيع الغابات وفعل التعرية، وإهمال قنوات الري الناشئ من نقص عدد الفلاحين، واضطراب الحكومات، ترك إيطاليا أفقر ممّا كانت عليه في سابق عهدها، ويبدو أنّ السبب الحقيقي لم يكن ناشئاً من أنّ التربة قد استنفدت قدرتها على الإنتاج، وأنّ جوّ البلاد قد تغيّر، بل كان ما حاق بأهلها من إهمال وعقم سببهما ما حلّ بهم من ضيق وتثبيط العزيمة[٤]، في هذه الحال كانت إيطاليا، وهي لا تحتوي إلّا على بساتين مهجورة، عاجزة عن جلب مال الشرق، في حين أنّها مثل سائر الجزء الغربي من الإمبراطوريّة تصدّر إلى الشرق ما فضل لديها من مال لاستيراد البضائع، فندر الذهب والفضّة ندرة كبيرة في أوربا، ومع هذا أصرَّ الأباطرة على استيفاء نفس القدر من الضرائب، فساءت الأوضاع وعمَّ البلاء والغلاء[٥].

كان مشروع روما الجديدة قد أتمّ مداه عند انتهاء فترة حكم الإمبراطور تيودوسيوس، إذ انقسمت الإمبراطوريّة إثر وفاته في سنة ٣٩٥م بين ولديه، ونصّب هونوريوس إمبراطوراً على

---

[١]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٦١.

[٢]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٣، مج٣، م.س، ص٤٠٥.

[٣]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٦٠، ١٦١.

[٤]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٣، مج٣، م.س، ص٤٠٥.

[٥]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٦١.

الولايات الغربيّة، بينما نصّب أركاديوس إمبراطوراً على الولايات الشرقيّة[١]. لقد أصبحت سعادة مائة مليون إنسان تعتمد على أخلاق شخص (إمبراطور) أو اثنين، وربّما كانا من الأطفال، أفسد عقليهما الترف والسلطة المستبدّة ونوع التعليم[٢]. لقد كان حكم الشقيقين هذا (هونوريوس وأركاديوس) من أسوأ الكوارث التي حلّت بالإمبراطوريّة الرومانيّة قبيل سقوطها؛ لأنّهما تركا الكنيسة للرهبان، والجيش للضبّاط الطموحين، والدولة للموظّفين الجشعين[٣]، بينما كان هونوريوس مهتمّاً بتربية الدواجن. لقد تدهور القسم الغربي من الإمبراطوريّة بشكل مخيف، ومنذ ذلك التاريخ حتّى سنة ٤٧٦م لا تتضمّن قصّة الغرب إلّا سرداً لمواطن الضعف التامّ وللأزمات المتلاحقة، إذ تسلّم العرش مجموعة من الأباطرة التافهين حدّاً وصل فيه الإمبراطور فالنتينيانوس الثالث إلى نقل مقرّ الإمبراطوريّة إلى مدينة رافنا، وهي مدينة حصينة تقع وسط منطقة من المستنقعات فضلاً عن كونها ميناء يمكن الجلاء منها على وجه السرعة إذا لزم الأمر، وغدت إدارة الأقاليم في يد مجلس الشورى الذي كان في الأساس ضعيف الرأي، وإن كان يجيد بين فترة وأخرى ضرب فريق من البرابرة بفريق آخر. في الواقع كانت السلطة السياسيّة الحقيقيّة بيد ضبّاط الجيش، وقد كان جميعهم من البرابرة ذوي الأطماع الذين لا يؤمن جانبهم[٤].

ثامناً: حدث السقوط

تعرّضت الإمبراطوريّة الرومانيّة لغارات القبائل الجرمانيّة في القرنين الرابع والخامس الميلاديين، فتمزّقت واضحت معظم مقاطعاتها في أوروبا الغربيّة بيد هؤلاء البرابرة الجرمان. ومن الداخل كانت عوامل الضعف تنخر في جسد الإمبراطوريّة منذ القرن الثالث الميلادي، وفي القرن الخامس الميلادي أصبحت السلطة الفعليّة بيد القادة الجرمان، ولم يبق للأباطرة الرومان من السلطة إلّا ظلّها، حتّى أنّهم أصبحوا ألعوبة بيد الجنود المرتزقة، يولّونهم ويعزلونهم وفق إرادتهم[٥]. وفي سنة ٤٠٠م قاد ألاريك Alaric القوط الغربيين وعبر جبال

[١]- دونالد.ر. ددلى، حضارة روما، م.س، ص٣٤٩-٣٥٦.

[٢]- إدوارد جيبون، اضمحلال الإمبراطوريّة الرومانيّة وسقوطها، م.س، ص٢٣٨.

[٣]- سيّد أحمد الناصري، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٤.

[٤]- دونالد.ر. ددلى، حضارة روما، م.س، ص٣٤٩-٣٥٦.

[٥]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، م.س، ص٢٥٦.

الألب وانقضّ على إيطاليا. وفي سنة ٤١٠م استولوا على روما ونهبوها، وفي سنة ٤٢٩م قاد جيسيرك Gaiseric الوندال لغزو إسبانيا وأفريقيا، وفي سنة ٤٥٥م استولوا هم أيضاً على روما ونهبوها[١].

لقد اتبع الرومان سياسة التفرقة إزاء الأمم التي تقلق راحتهم، لكن في السنوات الأخيرة لم يعد لتلك السياسة جدوى. لم يستطع أحد من الرومان أن يمنع آتيلا Atilla من إخضاع كلّ أمم الشمال، فضمّ إلى سلطانه مجموعة المناطق التي تمتدّ من الدانوب إلى الراين، وبعد ذلك شرع في هدم جميع الحصون والمرافق التي شيّدها الرومان على ضفاف النهرين، ثمّ فرض أتاوة على كامل الإمبراطوريّة الرومانيّة بشقّيها الشرقي والغربي[٢]. وفي سنة ٤٧٢م عيّن قائد بانوبي اسمه أرستير Orestes ابنه إمبراطوراً وسمّاه رومليوس أوغسطس Romulus Augustus، وبعد ستّ سنوات من ذلك التاريخ خلع الجنود المرتزقة البرابرة، الذين سيطروا وقتئذ على الجيش الروماني، هذا الأغسطس الصغير، وعيّنوا قائدهم أودوفاكارOdovacar ملكاً على إيطاليا[٣]، وكان أودوفاكار ابن أحد وزراء آتيلا، ثمّ وطّن قوّاته فيها، وبذلك سقطت الإمبراطوريّة الرومانيّة الغربيّة رسمياً وفعليّاً في يد القبائل الجرمانيّة، وهكذا أصبح أودوفاكار ملكاً، وحصل على الاعتراف الرسمي من الإمبراطور زينون في القسطنطينيّة، ومن البقيّة الباقية من أعضاء مجلس الشيوخ في روما بحجّة أنّه يحكم الإمبراطوريّة الغربيّة نيابة عن إمبراطور الشرق، وبذلك انتهى حكم الأباطرة الرومان في الغرب نهائيّاً[٤].

---

[١]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٣، مج٣، م.س، ص٤١٣.

[٢]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٧٧.

[٣]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٣، مج٣، م.س، ص٤١٤.

[٤]- سيّد أحمد الناصري، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٤٨٢.

الخاتمة

إنّ الدارس لأسباب سقوط الإمبراطوريّة الرومانيّة سيجد أنّ سقوط روما بيد أعدائها لم يكن إلاّ بعد زوال هيبتها، وأنّ سقوط ولاياتها على نهري الراين والدانوب جاء بعد سقوط المبادئ والمثل العليا وقيم الوطنيّة والجنديّة من نفوس أبنائها، فالمناطق والأراضي التي خسرتها الإمبراطوريّة الرومانيّة في شرقي أوروبا لم تكن غنيّة، ولم تكن مساحاتها كبيرة، إلاّ أنّ تراجع الحدود الرومانيّة كان يشير إلى بداية العدّ العكسي، فلم تعد روما تلك الإمبراطوريّة التي تخشى أمم الأرض سطوتها الاستعماريّة، فالشعب الروماني فقد حيويّته وقدرته على التوسّع والاحتلال، وفَتَرُ الحماس، وثبطت الهمّة، وانهارت القيم الوطنية، وانعدمت الروح القتاليّة، فمنذ أن صدّ الرومان عن السياسة والحرب، أمسوا أخسّ شعوب الأرض، فتكالبت عليهم الأمم تريد أن تذلّهم كما كانوا هم قد أذلّوا شعوب العالم القديم قاطبة. أمّا النتيجة الأهمّ التي يخلص لها البحث هي مدى تداخل أسباب السقوط وتشابك خيوطها وترابطها بعضها ببعض، متكاملة فيما بينها ممهّدة لبعضها، فالفساد الأخلاقي نجم عنه فساد سياسي، وتدهور الأخلاق ومؤسّسات الدولة وشخصياتها السياسيّة وتفشّي الرشوة والمحسوبيّات نجم عنه انهيار في المجتمع الروماني، وانهيار المجتمع كان يعني توقّف المورد أو الخزّان البشري الذي كان يمدّ الدولة بالجنود الرومان، ولمّا كان من الواجب إيجاد مورد بديل تمّ تجنيد العناصر الجرمانيّة في الجيش، فأضحى جيش روما لا يحمل من خصائص الجيش الروماني شيئاً إلاّ اسمه، ولمّا فسد الجيش فسد السور الحصين الذي كان يحمي حدود الإمبراطوريّة. ولا شكّ أنّ الفساد السياسي والعسكري والاجتماعي واضطراب حبل الأمن قد أسهم في انهيار عجلة الاقتصاد وتراجع الحالة المعيشيّة، وفقدان العملة لقيمتها، وارتفاع الأسعار وانعدام الدخل، وانتشار الوباء والأمراض، ولم يكن ينقص مثل هذا التدهور إلاّ دعوة دينيّة جديدة لتنسف أركان النظام القديم، الذي لطالما اعتبر الدين الوثني أحد أهمّ أركانه، والأهم أنّ الدين الجديد كان يدعو إلى السلامة الفرديّة والترهّب والابتعاد عن طلب مجد الدنيا. إنّ تضافر العوامل السابقة أدّى إلى أن تصل الإمبراطوريّة الرومانيّة إلى طورها الأخير، فالإمبراطوريّات تنهض ثمّ تزدهر ثم تهوي، ولا توجد إمبراطوريّة عمّرت أبد الدهر.

لائحة المصادر والمراجع

١. أحمد حافظ، الإمبراطوريّة الرومانيّة من النشأة إلى الانهيار، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة ٢٠٠٧م.

٢. إدوارد جيبون، اضمحلال الإمبراطوريّة الرومانيّة وسقوطها، نقل الجزء الأوّل إلى العربيّة محمد علي أبو دوره، والجزء الثاني لويس إسكندر، راجع الجزأين أحمد نجيب هاشم، القاهرة ١٩٦٩م.

٣. أديث هاملتون، الأسلوب الروماني في الأدب والفنّ والحياة، ترجمة: حنا عبود، منشورات وزارة الثقافة- المعهد العالي للفنون المسرحيّة، دمشق ١٩٩٧م.

٤. أسد رستم، الروم، بيروت ١٩٥٥م.

٥. أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام، ج٢، روما وإمبراطوريّتها، ترجمة فريد داغر وفؤاد أبو ريحان، ط٢، منشورات عويدات، باريس-بيروت ١٩٨٦م.

٦. باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، ترجمة جورج كتّوره، دار الكتاب الجديد المتّحدة، بنغازي ٢٠٠٨م.

٧. جان بابليون، إمبراطورات سوريّات، تاريخ فترة التأثير السوري في الإمبراطوريّة الرومانيّة، ترجمة يوسف شلب الشام، العربي للطباعة والنشر، دمشق ١٩٨٧م.

٨. جفري بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، مراجعة عبد الغفّار مكاوي، مجلّة عالم المعرفة، الصادة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد ١٧٣، الكويت ١٩٩٣م.

٩. جون مان، أتيلا الهوني ملك البرابرة وسقوط روما، ترجمة عمرو الملاح، دار الكتب الوطنيّة، أبوظبي ٢٠١٣م.

١٠. دونالد.ر. ددلى، حضارة روما، ترجمة جميل الذهبي وفاروق فريد، مراجعة صقر خفاجة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠٠٤م.

١١. رستوفتزف، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة الاجتماعي والاقتصادي، ترجمة زكي علي ومحمّد سليم سالم، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة ١٩٥٧م.

١٢. سيّد أحمد الناصري، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة السياسي والحضاري، ط٢، دار النهضة العربيّة، القاهرة ١٩٩١م.

١٣. عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، دار مرايا للطباعة والنشر والتوزيع، دبي ٢٠٢٠م.

١٤. عبد الله العبد الجبّار، نظرة الكتّاب الكلاسيكيين لتجارة الجزيرة العربيّة، مجلّة الدرعية، العددان الحادي والثاني والخمسون، السنة الثالثة عشرة، يناير ٢٠١٢م.

١٥. عبد العالي علي الفيتوري، الإمبراطور قسطنطين والمسيحيّة، بحث معدّ لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، ليبيا، جامعة المرقب ٢٠٠٨م.

١٦. فاضل عبد الواحد علي، سومر أسطورة وملحمة، دار الأهالي، دمشق ١٩٩٩م.

١٧. فرجيل، الإنياذة، ترجمة عنبرة سلام الخالدي، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٥م.

١٨. محمود محمّد الحويري، رؤية في سقوط الإمبراطوريّة الرومانيّة، ط٣، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٥م.

١٩. مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، أسباب النهوض والانحطاط، ترجمة عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ٢٠١١م.

٢٠. نعيم فرح، تاريخ **أوروبا** السياسي، ط٦، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٥م.

٢١. نعيم فرح، تاريخ **بيزنطة** السياسي، ط٤، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٦م.

٢٢. نور الدين حاطوم، أحمد طربين، صلاح مدني، نبيه عاقل، موجز تاريخ الحضارة، ج١: حضارات العصور القديمة، مطبعة الكمال، دمشق ١٩٦٥م.

٢٣. هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج٢، في العصور الملكيّة الجمهوريّة الإمبراطوريّة حتّى عهد الإمبراطور قسطنطين، دار الفكر الحديث، لبنان ١٩٦٧م.

٢٤. هيرمن كندر، تاريخ العالم من البدايات حتّى الزمن الحاضر، ط٢، تر: إلياس الحلو، المكتبة الشرقية، بيروت ٢٠٠٣م.

٢٥. ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح أو الحضارة الرومانيّة، ج٢+ ج٣، مج٣، ترجمة: محمّد بدران، بيروت ١٩٨٨م.

التحوّلات التي أدّت إلى زوال الجمهوريّة والانتقال إلى الحكم الإمبراطوري في روما

الدكتور عبّاس فرج [١]

مقدِّمة

ثمة علاقة وطيدة بين طبيعة المجتمع ونمط العلاقات الاجتماعيّة والاقتصاديّة والفكريّة والسياسيّة بين أفراده، وبين نظام الحكم السائد فيه. والأمر نفسه ينطبق على نظام الحكم في روما، التي شهدت انتقالاً من نظام إلى آخر تماشياً مع تطوّر حضارتها، واختلاف نظم التفكير والتخطيط والتعامل فيها.

لذا، سنتوقّف في فضاء هذا البحث لاستعراض أنظمة الحكم التي عرفتها روما من نظام ملكي وجمهوري استعراضاً موجزاً، في مقابل الوقوف مليّاً عند العوامل والتحوّلات التي طرأت على المجتمع الروماني، وأدّت إلى زوال الحكم الجمهوري والانتقال إلى الحكم الإمبراطوري، حتّى يتبيَّن القارئ الأسباب الكامنة وراء مثل تلك التحوّلات التي تطرأ على نظام الحكم، وتقود إلى تغييره من حين لآخر.

أوّلاً: نظام الحكم الملكي الروماني

أوّل ما عرفت روما نظام الحكم الملكي على يد الأتروسكيين، الذين أسَّسوا عدّة ممالك في منطقة أتروريا، ثمّ أخذوا يتوسّعون في المناطق المجاورة، فسيطروا على سهل اللاتيوم ومدينة روما وتقدّموا جنوباً نحو السواحل وأسَّسوا مستعمرات لهم في تلك المناطق، وأصبحت معظم إيطاليا تحت سيطرتهم في القرن السادس قبل الميلاد. كان نظام الحكم لدى الأتروسكيين يتمثّل بقيام عدّة ممالك مدن تكوِّن فيما بينها اتحاداً شكليّاً لتنظيم السياسة الخارجيّة، بينما تحافظ كلّ مدينة على استقلالها الداخلي. بدأ التنافس يزداد بين تلك المدن ممّا أدّى إلى انقسام عرى اتحادهم، ولاسيّما بعد أن تعرّضوا لضغط من قبل الغالين في

---

[١]- مدرِّس في قسم التاريخ- جامعة دمشق.

الشمال، وضغط اليونانيين في الجنوب، واللاتينيين في الداخل، ممّا أدى إلى ضعفهم وطردهم من روما، وسهل اللاتيوم على يد اللاتينيين الذين خلعوا آخر ملك أتروسكي سنة ٥٠٩ ق.م[١].

لكنّها ما لبثت أن عرفت نظاماً جديداً للحكم أعقب انهيار النظام الملكي الذي انتهى بالفشل والانقسام، وهو النظام الجمهوري الذي لا بدّ لنا من أن نضيء عليه بعض الإضاءة كي تتّضح لنا الصورة كاملة حول تعاقب أنظمة الحكم المختلفة في روما.

ثانياً: تطوّر نظام الحكم الجمهوري الروماني

أدَّى انهيار نظام الحكم الملكي في روما في نهاية القرن السادس قبل الميلاد، بعد أن استمرّ ما يقارب قرنين ونصف ما بين ٧٥٣-٥٠٩ق.م، إلى قيام نظام الحكم الجمهوري، الذي أنهى عهد الحكم الفردي الذي يمثِّله الملك، ويمثِّل في الوقت نفسه حكماً استبدادياً ووراثيّاً يجمع شؤون السلطة والقرار والثروات في يد فرد واحد فقط، أمّا في العهد الجمهوري فلم يكن النظام الجمهوري الذي ساد في روما طيلة خمس قرون ٥٠٨-٣٠ق.م نظاماً ديمقراطيّاً، وإنّما كان جمهوريّاً أرستقراطيّاً تقتصر فيه السلطة والحكم على أفراد الطبقة الأرستقراطيّة من النبلاء، ولم يكن ذلك الحكم الجمهوري يستند إلى دستور مدوَّن، وإنّما يعتمد على الأعراف والتقاليد الرومانيّة القديمة. كذلك لم يلغِ الجمهوريّون منصب الملك، بل جرَّدوه فقط من سلطاته السابقة تاركين له سلطة دينيّة رمزيّة، وهذا يدلّ على تمسّكهم بالعادات والتقاليد. لقد حلَّ محلَّ الملك بصورة فعليّة قنصلان يُنتخبان من قبل المجلس المئوي، ممّا سمح باتساع دائرة اتخاذ السلطة، والتمتّع بحقوق وامتيازات متساوية، فمن حقّ كلّ منهما الاعتراض على ما يُصدِر الآخر من قرارات، بعد أن كان اتخاذ هذه القرارات مقصوراً على الملك وحده، ومدة حكم هذين القنصلان كانت محدَّدة بعام واحد فقط غير قابل للتجديد[٢]. ومن أسباب انتخاب شخصين لمنصب القنصليّة تخوّف الأرستقراطيين من أن يستأثر قنصل واحد بالسلطة، وأن يعيد النظام الملكي السابق، كما أنّ حرصهم على توجيه دفّة الحكم بما يتناسب مع مصالح طبقتهم الأرستقراطيّة دفعهم إلى حصر منصب القنصليّة بأشخاص من طبقة النبلاء فقط.

[١]- فرح نعيم، حضارات العالم القديم: ما قبل التاريخ، دمشق، ١٩٧٥، ص٣٢٢.

[٢]- المرصفاوي فتحي، شريعة الرومان، دار النهضة العربيّة، ١٩٨٥، ص ٣٦.

أدرك الرومان فيما بعد، حسب مقتضيات الحال، أنّهم يحتاجون في ظروف الحرب إلى سرعة اتخاذ القرار والحسم في أمور كثيرة، لذا أوجدوا وظيفة استثنائيّة، هي وظيفة **دكتاتور**[١]، يتمتّع صاحبها بسلطات مطلقة، عسكريّة ومدنيّة وقضائيّة، لكنّها محدودة بمدّة قصيرة، هي ستّة أشهر فقط تُمدَّد لمرّة واحدة، ويُصدر قرار تعيينه أحد القنصلَين الحاكمَين بناء على دعوة مجلس الشيوخ، الذي يكون قد أعلن حالة الطوارئ لمواجهة الأخطار القصوى، مثل تهديد خارجي مداهم، أو فتنة داخليّة خطيرة، وقد يعتزل الدكتاتور منصبه قبل انتهاء ستّة الأشهر، إذا ما قدَّر أنّ الخطر الذي استدعى تعيينه قد زال.

أما مجلس الشيوخ السيناتو فقد ازدادت أهمّيته في العصر الجمهوري، إذ أصبح الجهاز الأساسي للحكم في مدينة روما، وقد كان يضمُّ في العصر الملكي رؤساء الأُسر الكبيرة أي شيوخها، ومهمّته أن يقدِّم الشورى للملك في القضايا المهمّة، لكنّ قراراته غير ملزِمة للملك، في حين أصبح في العصر الجمهوري يضمُّ الحكَّام القدماء من قناصل وقضاة عدل ونبلاء المجتمع، وزادت صلاحيّاته حيث أصبح يُشرف على السياسة الخارجيّة، ويدير المفاوضات مع أعداء روما وأصدقائها، وكان يستقبل مندوبي الدول الأجنبيّة وسفراءها، ويُعيّن السفراء الرومان في عملهم، فلا يُتخَذُّ قرار إعلان حرب نظاميّة دون موافقته، ولا عقد صلح ما لم يوافق على بنود معاهدته[٢].

ثالثاً: توسّع الجمهوريّة وتوطيد نظام الحكم

أسهمت الإصلاحات السياسيّة التي أعقبت سقوط نظام الحكم الملكي في زيادة قوّة الدولة الرومانيّة، ودعم تمركزها في سهل اللاتيوم، ولا سيّما بعد تخلّصها من الحكم الأتروسكي الذي كان يمثِّل خطراً عليها ويهدِّد توسّعاتها، فعقدت مع اللاتين عام ٤٩٣ق.م معاهدة كاسيوس نسبة إلى أحد القناصل الحاكمين، اعترفت فيها روما بالمساواة بينها وبين اللاتين في الحقوق المدنيّة، ومُنِح الرومان حقّ الإتجار والتعامل في أيّة مدينة لاتينيّة، وحقّ الزواج من أيّة سيّدة لاتينيّة، واشتركت روما والمدن اللاتينيّة في حلف عسكري أصبحت

[١]- محفل محمّد، الزين محمّد، دراسات في تاريخ الرومان، الجزء الأوّل، الطبعة الثالثة عشرة، منشورات جامعة دمشق، ص ٥٢.

[٢]- رستم أسد، التاريخ الروماني، ترجمة أمين سلامة، دار الفكر العربي بمصر ـ ١٩٥٩، ص٢٨.

روما، فيما بعد، سيّدته والمسيطرة عليه[١]. بعد ذلك تصدَّى الرومان لقبائل الغال، التي سيطرت على عدّة أقاليم في شمال إيطاليا، وبدأت تنشر الفوضى حولهم، ووقعت عدّة معارك بينهم، واستمرّ الصراع مدّة طويلة لم تنتهِ إلاّ في عهد يوليوس قيصر[٢]، وخاضت روما الحروب السمنيّة[٣]، وسيطرت على جنوب إيطاليا[٤] حتّى أصبحت سيّدة إيطاليا من دون منازع.

لقد تمكَّنت روما من خلال التحالفات التي عقدتها، ومن خلال القوّة العسكريّة التي امتلكتها خلال مئتي عام من حكمها، تمكَّنت من توسيع نفوذها من وسط إيطاليا وجأوج ذ٢٢ضشحتّى بسطت سيطرتها على شبه الجزيرة الإيطاليّة بأكملها، واستمرّ هذا الحكم ما يقارب أربعة قرون من عام ٥٠٩-٢٧ ق.م، ممّا يوضِّح أنّ روما قد بلغت في مرحلة العصر الجمهوري أوج اتساعها وغاية قوّتها، إذ تجاوزت سلطتها حدود مدينة روما إلى قوّة كبرى حكمت المناطق المحيطة بالبحر المتوسّط كافّة، حتّى إنّه أصبح البحر المتوسّط بحيرة رومانيّة، وأطلق الرومان عليه «بحرنا» بعد أن خاضت روما الكثير من الحروب وانتصرت فيها، منها الحروب القرطاجيّة[٥]، والحروب المقدونيّة[٦]، والحروب السلوقيّة[٧]، وانتصرت فيها وأصبحت الدولة الرومانيّة تمتدّ على مساحات واسعة ممّا تطلّب وجود سلطة مركزيّة قويّة تستطيع الحفاظ على النظام والأمن فيها.

[١]- ديورانت ول، قصّة الحضارة: قيصر والمسيح أو الحضارة الرومانيّة، ترجمة محمّد بدران المجلّد: ٩-١٠، الجزء الأوّل، الطبعة الخامسة، المنظّمة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم في جامعة الدول العربيّة ص٧٧.

[٢]- المرجع نفسه، ص٧٨.

[٣]- جماعات جبليّة عُرفوا بقوّتهم وقسوتهم، من سكان المرتفعات الوسطى في شبه الجزيرة الإيطاليّة، واستمرّت هذه الحروب ثلاثين عاماً. ينظر: أيوب، إبراهيم رزق الله، التاريخ الروماني، صيدا، الطبعة الأولى, الشركة العالميّة للكتاب، ١٩٩٥ص:٣٩.

[٤]- أبو اليسر عبد العظيم فرح، الشرق الأدنى في العصر الهلنستي والروماني، الطبعة الأولى، عين للدراسات للبحوث الإنسانيّة والاجتماعيّة، ٢٠٠٢. ص:٢٢١.

[٥]- ينظر: السليمان عبدالله يوسف، حروب الجمهوريّة القرطاجيّة من التأسيس حتّى السقوط سنة ١٤٦ ق.م، دمشق الهيئة العامّة السوريّة للكتاب، ٢٠١٥، ص٨٣ وما بعد.

[٦]- سلسلة من النزاعات والحروب في الفترة ما بين ٢١٥-١٤٨ ق.م خاضتها روما في شرق البحر المتوسّط، وقد نتج عنها سيطرتهم على الساحل الشرقي للبحر المتوسّط، وتحويل مقدونيا إلى ولاية رومانيّة في عام ١٤٨. ينظر، ديورانت ول، المرجع السابق، الجزء الأوّل، ص ١٧٨-١٨٢.

[٧]- ينظر: العابد مفيد رائف، سورية في عصر السلوقيين: من الإسكندر إلى بومبيوس ٣٣٣-٦٤ ق.م، دار شمأل للطباعة والنشر، دمشق، ص ٧٠ وما بعد.

رابعاً: عوامل ضعف وسقوط نظام الحكم الجمهوري

شهدت روما خلال عصرها الجمهوري وفي أواخره الكثير من الأحداث التي أضعفت نظام الحكم الجمهوري، وأسهمت في تقويض دعائمه، وأدَّت في النهاية إلى الإطاحة به، وهي تتراوح بين الأسباب والعوامل الاجتماعيّة والسياسيّة والعسكريّة والأخلاقيّة والاقتصاديّة، ممّا يعني أنّها عوامل متنوّعة وكثيرة لا بدّ أن نذكرها بتفصيل كالآتي:

١. ثورات العبيد

يُعدُّ العبيد من العناصر المؤثِّرة في تاريخ الجمهوريّة الرومانيّة، وكان عددهم يزداد بعد كلّ حرب تخوضها روما ضدّ أعدائها، وقد استغلّ الرومان طبقة العبيد كثيراً، وأوكلوا إليهم خدمة البيوت والقصور، والعمل في المناجم والمزارع ورعي الحيوانات، ونظروا إليهم نظرة احتقار سواء أكانوا من أعدائهم أم من مواطنيهم. وكان العرف عندهم أنّ الإنسان الحُرَّ يتحوّل إلى عبد لمجرّد وقوعه أسيراً في الحرب، ولا سيّما أنّ أعرافهم في الحرب كانت صارمة جداً، إذ يجب على الجندي الروماني ألّا يسمح لعدوه أن يجرِّده من سلاحه في ساحة الحرب، وإلّا فهو ليس جديراً بالحرّية، كما أنّهم يؤمنون بأنّ المحارب أمام خيارين، إمّا أن ينتصر وإمّا يقتل، فلا مكان للجندي المتخاذل في المجتمع الروماني[١].

نعود إلى العبيد الذين قاسوا الظلم والقهر والاضطهاد في المجتمع الروماني نتيجة معاملة سادتهم الجائرة، إذ كانوا يكوونهم بمياسم محمّاة بالنار، كي يبقى الوسم علامة أبديّة يُعرفون ويتميّزون بها، كما كانوا يبيتون ليلاً في ثكنات، وفي النهار يُساقون إلى الحقل كدواب، ممّا يعني أنّ عمل العبيد كان في ظروف سيّئة وصعبة[٢]جعلتهم يثورون من أجل تحسين أوضاعهم.

من اللافت للنظر أنّ ثورات العبيد كانت منظّمة، وقد شهدت أغلب الولايات الرومانيّة ثورات قام بها العبيد، واتخذت طابع المحليّة، واشترك فيها آلاف العبيد، من هذه الثورات:

---

[١]- محفل محمّد، الزين محمّد، المرجع السابق، ص٤٩.

[٢]- حمدان عبد المجيد، العبيد عند الرومان خلال القرنين الثاني والأوّل قبل الميلاد، مجلّة دراسات تاريخيّة، العددان ١١٧-١١٨، مطبعة جامعة دمشق، (٥٣-٨٨)، ص٦٦-٦٧.

الثورة التي اندلعت في الولاية الرومانيّة سيتيا في اللاتيوم عام ١٩٨ ق.م، حيث كانت هذه المستعمرة مركزاً للأسرى القرطاجيين من الأسر النبيلة التي وقعت في الأسر أثناء حروب الرومان مع القرطاجيين[١].

الثورات التي اندلعت في ولايات أترووريا[٢]، وسيسيليا، وأتاكيا، لكنّ روما تمكّنت من قمع هذه الثورات والسيطرة عليها، ممّا أدى إلى ازدياد عدد العبيد نتيجة انتصار روما في حروبها المستمرّة.

ثورة عبيد صقليّة، كانت من أخطر الثورات التي أقلقت الدولة الرومانيّة، فقد استمرّ وضع العبيد بالتدهور، ولا سيّما العبيد الذين يعملون في الزراعة والرعي، إذ يُعدُّ الرعاة في صقليّة أخطر فئة من فئات العبيد التي ثارت ضدّ السلطة الرومانيّة؛ لأنّ طبيعة عملهم أتاحت لهم حريّة الحركة من مكان لآخر، ممّا جعل فرض الرقابة عليهم أكثر صعوبة منها على غيرهم، وأُتيحت لهم الفرصة للتمرّد مع ازدياد قسوة أسيادهم، الذين أذاقوهم مرارة العبوديّة والاستغلال، فلم يكن هناك بدّ من إعلان العصيان والثورة والتمرّد لتحسين أوضاعهم[٣].

وقد قاد هذه الثورة السوري يونسJunus[٤]، الذي تمكَّن من توحيد صفوف العبيد الثائرة وتنظيم ثورتهم، لقد أقلقت هذه الثورة الحكومة الرومانيّة، فكلَّفت للقضاء عليها البرايتور لوقيوس بلاوتيو، حيث قاد قوّة مؤلّفة من ثمانية آلاف مقاتل، لكنّه هُزِم أمام جيش الثوَّار، فما لبث أن أُسندت قيادة القوّات الرومانيّة إلى القنصل جايوس فولفيوس، الذي فشل بدوره في مهمّة إخماد الثورة أيضاً، إلى أن جاء القنصل لوقيوس بيسو الذي تمكّن من الاستيلاء على بعض معاقل الثوار، ومهَّد الطريق أمام خَلَفه القنصل بوبليوس روبيليوس للقضاء على الثورة، وإعادة الهدوء من جديد لصقليّة، حيث أُلقي القبض على يونس وأُودع في السجن

[١]- براستد جيمس هنري، العصور القديمة، ترجمة داود قربان، بيروت ١٩٨٣، ص٥٤٨.

[٢]- كان سببها تسلّط أحد الملوك الكبار في الريف واضطهاده العبيد الذين يعملون عنده، مماّ ولّد لديهم الحقد على أسيادهم، ونجحوا في تشكيل جيش قوي، لكنّ الرومان نجحوا في إخماد ثورتهم وقتل بعضهم، وصلب البعض الأخر أو سجنه، ينظر ف.دياكوف، س.كوفاليف، الحضارات القديمة، ترجمة نسيم اليازجي، الجزء الثاني، دمشق ١٩٥٩، ص٥٣٤.

[٣]- إبراهيم نصحي، تاريخ الرومان، الجزء الثاني، ص٦٣.

[٤]- حمدان عبد المجيد، المرجع السابق، ص٦٨.

بعد أن ألحقت هذه الثورة بالجيوش الرومانيّة خسائر بشريّة وماديّة، وكلّفتهم مجهوداً شاقّاً على مدى ثلاثة أعوام.

ثورة إسبارتاكوس ٧٣-٧١ق.م، الذي استغلّ استياء العبيد المصارعين من وضعهم السيّئ، وتدريبهم القاسي، ومصيرهم المؤكّد[١]، فقاد ثورة ضدّ الدولة الرومانيّة عُرفت بثورة العبيد المصارعين، بقيادة مصارعي الثيران من العبيد، وعلى رأسهم المصارع إسبارتاكوس، وقد كان عددهم سبعين مصارعاً، ثمّ ما لبث أن انضمّ إليهم عدد من عبيد التراكيين والسلت والجرمان[٢]، وقد نجحوا في القضاء على حملتين أرسلهما السيناتو، فازدادت قوّتهم وتضاعف عددهم حتّى وصل، في نهاية عام ٧٣ق.م، إلى قرابة سبعين ألف عبد ثائر مسلّح، وقد سيطر إسبارتاكوس على مساحات واسعة من جنوب إيطاليا، ثمّ قرّر التوجّه شمالاً نحو جبال الألب، لكنّه جُوبه بمعارضة أحد أتباعه، وهو كريكسوس وأتباعه من الغال والجرمان، كي ينعموا بما كانوا يجنونه من وراء أعمال السلب والنهب، ممّا حدا بإسبارتاكوس إلى العدول عن فكرته نزولاً عند رغبة أتباعه[٣].

كلّفت الدولة الرومانيّة القنصلين لوقيوس جليّوس بوبليقولا وجنايوس قورنليوس لنتولوس قلوديانوس بقمع ثورة العبيد، لكنّ إسبارتاكوس ألحق بهذين القنصلين هزيمة بعد أخرى، ثمّ ما لبث أن ساعدت هذه الانتصارات المتلاحقة التي حققها إسبارتاكوس، ونزولاً عند رغبة أتباعه على التوجّه نحو صقليّة، التي يوجد فيها آلاف العبيد المتذمّرين الذين كانوا على أتمّ الاستعداد للانضمام إليه ومساندته في ثورته، ممّا وفّر له القوّة والموارد التي مكّنته من الاحتفاظ بصقليّة والاستمتاع بخيراتها[٤].

كلّف مجلس السيناتو عام ٧٢ ق.م، وبعد الهزائم المتكرّرة التي ألحقها العبيد بالقوّات الرومانيّة، قائداً جديداً هو البرايتور مارقوس ليقينيوس كراسوس بإخماد ثورتهم، وتمّ منحه

[١]- كان هؤلاء المصارعون يتدرّبون على التصارع في حلبة تُسمّى المجلد، فُرشت أرضها بالرمال، ولا ينتهي الصراع حتّى يقتل أحدهم الآخر في جوّ حماسي وسط الجماهير، فيكون مصيرهم الهلاك. ينظر: سلامة أمين، التاريخ الروماني، القاهرة، ١٩٥٩، ص٣٣٩.

[٢]- حمدان عبد المجيد، المرجع السابق، ص٧٢.

[٣]- مصطفى ممدوح درويش، التاريخ الروماني، الرياض ٢٠٠٤، ص١٥٥.

[٤]- مصطفى ممدوح درويش، المرجع السابق، ص١٥٥.

سلطة بروقنصليّة، ووُضِعت تحت إمرته ثماني فرق[١] إلى جانب فلول الفرق الأربع التي كانت مع القنصلين.

لقد تمتّع كراسوس بخبرة عسكريّة كبيرة، وكانت لديه إستراتيجيّة في خوض المعارك، لكنّه فشل في سدّ الطريق جنوباً في وجه إسبارتاكوس ورجاله، فتمكّن العبيد بقيادة إسبارتاكوس من الوصول إلى رجيوم في أقصى الطرف الجنوبي من إيطاليا، لكنّهم لم يستطيعوا الوصول إلى السفن التي تنقلهم إلى صقلّية، وعندئذ حاول كراسوس حصار العبيد في تلك المنطقة الضيّقة ليجبرهم على الاستسلام، لكن دون جدوى.

توجه إسبارتاكوس وأتباعه شمالاً ثمّ انعطفوا شرقاً باتجاه بروندیزیوم على أمل أن يستطيعوا الإبحار منها، لكنّ وصول ماركوس لوقولوس، وهو في طريق عودته من مقدونيا، سدّ طريق بروندیزیوم في وجوههم، فحوّلوا اتجاههم شمالاً حيث التقوا بكراسوس.

أخيراً تمكّن كراسوس بمساعدة بومبي أحد القادة الرومان، وباستغلال الخلاف الذي دبَّ بين صفوف العبيد أنفسهم، من الانتصار عليهم لمرّتين متتاليتين، واستطاع قتل إسبارتاكوس وعدد كبير منهم، أمّا من فرَّ منهم شمالاً فقد تمّ القضاء عليهم من قبل بومبي، وبالتالي تمَّ إخماد ثورتهم التي استمرّت من عام ٧٣-٧٠ق.م، وقد اكتسب كلٌّ من كراسوس وبومبي شعبيّة كبيرة مكّنتهما من التقدّم سويّاً لمنصب القنصليّة[٢].

لقد مثّلت ثورات العبيد التي شهدها العصر الجمهوري أحد أهمّ العوامل المهمّة التي أدّت إلى زعزعة نظام الحكم عند الرومان، وأقلقت حكوماتها المتعاقبة، وحرَّض الرومان على استخدام القوّة المفرطة في إخمادها، وتكليف كبار القادة بقيادة الجيوش النظاميّة للقضاء عليها، فحُشِدت قوّات كبيرة خاضت معارك كثيرة على امتداد الدولة وولاياتها، وأُزهِقت فيها الكثير من الأرواح والقتلى من الطرفين، وأثبتت روما من خلال حروبها معهم أنّ نظامها الجمهوري مبني على الاستبداد والعنف وقهر المظلومين وسلب حقوقهم، وأنّ المناداة بالمثل الديمقراطيّة التي طرحها النظام الجمهوري الجديد مجرّد شعارات تذهب

[١]- حمدان عبد المجيد، المرجع السابق، ص٧٣.

[٢]- نفسه، ص٧٤.

أدراج الرياح عندما تتعرّض مصالح الطبقة الحاكمة وكبار القادة والمتنفّذين للخطر.

٢. فساد النظام السياسي الجمهوري

عانى النظام السياسي السائد في روما آنذاك من نقاط ضعف كثيرة، منها تولّي المناصب أشخاصاً غير أكفاء وغير مخلصين، ومتعاطين للرشوة، وكذلك عجز المؤسّسات في النظام الجمهوري عن الوفاء بالتزاماتها، ومراقبة التجاوزات والمظالم التي تحدث في الأقاليم الخاضعة لها، والحدّ منها، ومعاقبة مرتكبيها.

وعلى الرغم من أنّ روما استمدّت قوّتها من النظم السياسيّة التي كانت سائدة في تلك الحقبة، وعلى رأسها مجلس الشيوخ السيناتو الذي لعب دوراً أساسيّاً في حكم روما في العصر الجمهوري، وعلى الرغم من ازدياد نفوذه إلّا أنّه فشل في إدارة الولايات الرومانيّة، ولا نغفل أنّ رجال المجلس وعملاءهم كانوا موصوفين بالاستغلال والطمع والسعي الدؤوب لزيادة ثرواتهم الخاصّة[١]، ولذلك تحوّل من عامل قوّة إلى عامل ضعف بعد أن اقتصر على تمثيل حكم الأقليّة في الدولة الرومانيّة، حيث سعى أعضاؤه إلى تحقيق منافعهم الشخصيّة دون الاكتراث إلى الأوضاع السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، التي كانت تعاني منها الدولة الرومانيّة، والتي كانت تتفاقم يوماً بعد يوم، ممّا أسهم في الحرب الأهليّة التي شهدتها روما في المدّة ما بين ٥٨-٥٠ق.م، فقد شهد القرن الأخير من العصر الجمهوري تمرّدات وثورات ضدّ سلطة السيناتو أسهمت في إضعاف سلطته.

لقد شهدت الحقبة التي تسلَّم بها بومبيوس وكراسس منصب القنصليّة انحطاط الديمقراطيّة الرومانيّة نتيجة سعيهم لشراء أصوات الناخبين وإرهاب المحلّفين، والالتجاء إلى القتل في بعض الأحيان، كما أصبحت الأحكام القضائيّة ومناصب الدولة حينها تُباع لمن يدفع مقابلها أغلى الأثمان. ففي عام ٥٣ ق.م استلم قسم من المقترعين في الجمعيّة عشرة ملايين سسترس ثمناً لأصوات أفراده[٢]، وعندما لم ينفع المال التجؤوا إلى الاغتيال، كلّ هذا أدّى إلى انتشار السرقات في الأقاليم، واستئجار الأغنياء عصابات لحمايتهم

[١]- حسين عاصم أحمد، دراسات في تاريخ روما السياسي والحضاري، مطبعة العمرانيّة، الجيزة ٢٠٠١ ص٨٧.

[٢]- ديورانت ول، المرجع السابق، الجزء الأوّل، ص٣٦٦.

وحماية أموالهم، وأصبحت العصابة التي ترفعها قوّتها على سائر العصابات المنافسة لها هي التي تشرّع للدولة، ويتمّ قتل الذين يقترعون على غير هواها، وتُحرَق بيوتهم، وقد كتب الخطيب الروماني شيشرون عن ذلك، فقال: «لقد امتلأ التيبر بجثث المواطنين كما سدّت بها البالوعات العامّة، واضطرّ الأرقاء إلى امتصاص الدم بالإسفنج من السوق العامّة»[١].

كذلك مثَّل التنافس بين القادة العسكريين الرومان الطامحين لتبوء المناصب القياديّة، ولاسيّما منصب القنصليّة، خطراً كبيراً على الحياة السياسيّة خلال النصف الثاني من القرن الأخير في العصر الجمهوري، فقد وُضِعت تحت إمرتهم أعداد من الجنود المحترفين، الذين أصبحوا لا يدينون بالولاء لدولتهم بقدر ما يدينون بالولاء لقادتهم، وفي الوقت نفسه عجز مجلس السيناتو عن حلّ مشكلات الدولة، وافتقر إلى سند دستوري يبرز سيطرته على الحكم مع العلم أنّه أوّل المجالس التي أوجدت في روما، وهو الذي كان بيده سنُّ القوانين والتشريعات التي كانت تنظِّم العمل داخل الجمهوريّة الرومانيّة. لدينا مثال على ذلك التنافس الذي حصل بين **القائد** ماريوس، الذي تولَّى مناصب قياديّة أظهر خلالها حنكة وشجاعة أهَّلته للمشاركة في حروب كثيرة حقَّق فيها انتصارات مهمّة أهَّلته لأن يبقى في السلطة لولايتين متتاليتين[٢]، استطاع خلالها أن ينشئ جيشاً نظاميّاً، ويُدخل عليه إصلاحات من خلال تنظيمه وإعادة تسليحه، وفتح التطوّع وباب التجنيد أمام المواطنين الفقراء، لكنّ ولاء هذا الجيش كان لماريوس وليس للجمهوريّة[٣]، وكذلك القائد سولا الذي انتُخب قنصلاً عام ٨٨ ق.م، وكُلِّف بقيادة الجيوش الرومانيّة بعد أن كان يخدم نائباً عسكريّاً تحت إمرة ماريوس في حربه ضدّ يوجورتا[٤] ١٠٧-١٠٥ق.م،

[١]- ديورانت ول، المرجع السابق، الجزء الأوّل، ص٣٦٧.

[٢]- تولى ماريوس منصب القنصليّة أربعة أعوام على التوالي من ١٠٤حتى ١٠١ ق.م, ونتيجة كفاءته العسكريّة تمّت مكافأته على انتصاراته التي حقّقها بانتخابه عام ١٠٠ ق.م قنصلاً للمرّة الخامسة.

[٣]- ديورانت ول، المرجع السابق، ص٢٤٨.

[٤]- من القادة النومنديين، تميّز بذكائه وشجاعته، ومهارته في فنون الحرب والقتال، ودهائه الدبلوماسي، سعى للاستفراد بالحكم في نوميديا بعد أن حرم أبناء عمّه من حقّهم في الحكم، فأعلنت روما الحرب عليه عام ١١١ ق.م بهدف جعل نوميديا ولاية رومانيّة، وفتح أبوابها للتجارة ولأصحاب الأموال الرومان، وقد استطاع يوجورتا أن يشتري بالمال بعض الأشراف ليدافعوا عن قضيّته وجرائمه أمام مجلس الشيوخ، وأن يرشوا القوّاد الذين أرسلوا لقتاله، فعقدوا معه صلحاً مواتياً أو اكتفوا بمناوشات لا تلحق به أذى. ينظر: ديورانت ول، المرجع نفسه، ص٢٤٧-٢٤٨.

وله يعود الفضل في هزيمة الأمير النوميدي، الذي استسلم مرغماً عام ١٠٦ ق.م[١]، فكانت هذه بداية نقمة ماريوس عليه والتنافس بينهما. وقد وصل هذا التنافس إلى مرحلة الصدام عندما اعترض التريبون سلفيسيوس روفس تسلّم سولا قيادة الجيش الروماني، وأقنع الجمعيّة الشعبيّة بأن يتولىّ ماريوس القيادة، وهذا ما كان يطمح إليه ماريوس على الرغم من تقدّمه في السن، ممّا أغضب سولا الذي قاد جيشه واتجه للسيطرة على روما، وأجبر أهلها على الاعتراف به دكتاتوراً، وقد مثَّل بخصومه، واستولى على أملاك الشعب، ووزَّعها على جنوده لضمان الولاء والتأييد له، وذهب ضحيّة هذا الاضطهاد خمسة آلاف شخص تقريباً، وكان ذلك بداية لظهور الدكتاتوريّات[٢]. كما ذكرنا، أصبح السيف هو الفاصل في المنازعات الأهليّة، وأصبحت الكلمة العليا بيد القائد الذي يتمتّع بثقة العدد الأكبر من هؤلاء الجنود المحترفين؛ لأنّ ولاءهم لم يكن للدولة، وإنما لقائدهم، فها هو سولا يعتمد على جيش مكوَّن من ستّ فِرق، في المقابل لم يكن لدى ماريوس فرصة لحشد قوّة كبرى على وجه السرعة، ولذلك تمكَّن سولا من اقتحام روما؛ لأنّه أوّل من أنشأ جيشاً نظامياً جديداً مكوَّناً من عدد من المحترفين الذين يدينون بالولاء إلى قائدهم لا إلى الدولة، وجعل ماريوس يتجرّع مرارة ما فعله.

٣. الصراع الطبقي داخل المجتمع الروماني

لقد مهَّد سقوط النظام الملكي لسيطرة الطبقة الأرستقراطيّة على مقاليد السلطة في روما، واستئثارها بكلّ الامتيازات السياسيّة والدينيّة والقانونيّة على مدى عشرات السنين، في مقابل ذلك كانت الطبقة العامّة من الشعب محرومة من مختلف الحقوق، ممّا دفعها إلى الخروج والمطالبة بحقوقها، واقتضى أيضاً من الأشراف الأرستقراطيين أن يُقدِّموا بعض التنازلات[٣]، ليبدأ العصر الجمهوري باندلاع صراع طبقي بين الأشراف والعامّة من أجل المطالبة بالمساواة في الحقوق السياسيّة والدينيّة، والحصول على حقوق متساوية في ثروات الدولة الرومانيّة. انتهى ذلك الصراع الطويل باتفاق الجبل المقدّس الذي نصّ على المساواة

[١]- ديورانت ول، المرجع نفسه، الجزء الأول، ص٢٤٨.

[٢]- أيوب، إبراهيم رزق الله، المرجع السابق، ص٥٣.

[٣]- أيوب، إبراهيم رزق الله، المرجع السابق، ص٦٥.

القانونيّة بين طبقة الأشراف وطبقة العامّة، ولاسيّما بعد تنامي دور العامّة العسكري بسبب الحروب التي خاضتها روما مع الشعوب والقبائل المجاورة.

لقد عانت روما في تلك الآونة من فساد الطبقة الغنيّة وكبار النبلاء، بسبب أنّ العمل في هذه المناصب كان من دون أجر أو مقابل مادّي، لذلك لابدّ أن يتسلَّمه من لديه ثروة أو قدرة ماديّة مثل النبلاء والأشراف، الذين يستطيعون شراء الأصوات في الانتخابات، ممّا أدّى إلى تمركز السلطتين التشريعيّة مجلس السيناتو، والتنفيذيّة القناصل في أيدي النبلاء والأشراف فقط[١]. من هنا أدّى ازدياد نفوذ طبقة النبلاء والأشراف إلى حرمان الغالبيّة من عامّة الشعب من حقوقها، لذلك بدأت الطبقة العامّة من الشعب بالمطالبة بحقوقها، واستمرّ الصراع بين الطبقتين أكثر من نصف قرن ما بين ٤٩٤-٣٨٧ ق.م، ثمّ نتج عنه ظهور نظام شعبي يدافع عن حقوق الطبقة العامّة عُرِف باسم: «المحامون عن الشعب»[٢] تمكّن من انتزاع بعض الامتيازات الاقتصاديّة والاجتماعيّة والمشاركة في الحياة السياسيّة، فنالوا حقّ تقليد القنصليّة، وأن يكون أحد القنصلَين منهم، وغير ذلك من الحقوق[٣]منها: المساواة في حقوق المواطنة والامتزاج بين طبقتي الخواص والعوام عن طريق الزواج، ممّا أدَّى إلى ظهور طبقة جديدة من الميسورين والأغنياء من غير النبلاء، أي من عامّة الشعب أصبح لهم نفوذ، وتمكّنوا من جمع أموال طائلة، وأصبحوا يطالبون بتوليّ مناصب عليا كانت حكراً على طبقة النبلاء فقط.

ظلّ الصراع بين الطبقتين متأجّجاً حتّى وصل إلى مرحلة الصدام المُسلَّح والحصول على السلطة بالقوّة العسكريّة، ممّا يعني أنّ الاقتتال أصبح وسيلة للوصول إلى السلطة وحلّ الخلافات السياسيّة بين الأطراف المتناحرة. كذلك اتخذت الحياة السياسيّة في روما مظهر الصراع الحزبي الذي يقوم على أساس طبقي غلب عليه التعصّب والحدّة، أي الصراع بين الطبقة العامّة والطبقة الأرستقراطيّة، ليتطوّر فيما بعد إلى حرب أهليّة بين القادة العسكريين من كلا الطبقتين.

[١]- عاصم حسين، المرجع السابق، ص٥٧.

[٢]- محفل محمّد، الزين محمّد، المرجع السابق، ص: ٤٥-٥٠.

[٣]- المرجع نفسه، ص:٢٤-٢٥.

٤. نهب ثروات المستعمرات الرومانيّة

إنّ إخضاع الدولة الرومانيّة لدول الشرق الغنيّة دفع القادة العسكريين والزعماء السياسيين الرومان إلى اتباع شتّى الطرق والسبل للحصول على الأموال، متناسين الفضائل والأخلاقيّات التي نادى بها بناة النظام الجمهوري، فانعدمت عندهم القيم الإنسانيّة، وجمع القادة الرومان ثرواتهم من خيرات البلدان المستعمَرة، فتغيّرت عاداتهم وأخلاقهم، واستخدموا هذه الأموال لتمويل نفقات الحملات الانتخابيّة من جهة، وشراء ذمم الناخبين كي يتسنّى لهم الفوز بوظيفة من جهة ثانية، وكذلك للتأثير في المحلَّفين للحصول على البراءة في حال اتهامهم بأيّة تهمة تُنسَب إليهم[١]، ذلك أنّ الحاكم في الولاية الرومانيّة كان يمارس سلطة مطلقة في الإقليم الذي يحكمه، لذلك كان يطلق لنفسه العنان في جمع الأموال وهو بعيد عن أعين السيناتو، وممّا زاد الأمر سوءاً أنّ القانون لا يسمح للحاكم بالبقاء في منصبه أكثر من عام واحد، ممّا جعل الحكّام ينتهزون مدّة حكمهم القصيرة لجمع أكبر قدر من المال، وكانوا يتّبعون في جمعها طريقة الالتزام، وذلك بأن يتعهّد بعض السماسرة بدفع ما على الإقليم من ضرائب جملة واحدة، ثمّ يتولى جمع المبلغ من المواطنين، ومن هذه الطريقة كان السماسرة يربحون من ذلك ربحاً كثيراً، ويقدّمون للدولة أقلّ ممّا تقتضيه من المال، ويجمعون من سكّان الأقاليم أكثر ممّا عليهم[٢].

رافق ازدياد الثروة توجّه القادة والنبلاء الرومان إلى حياة الترف والبذخ، إذ توجّهوا إلى الحضارة الإغريقيّة ونهلوا منها، فأسرف أثرياء الرومان في اقتناء كماليّات الحضارة، وتنافسوا في عرض مظاهر ثرواتهم، وغيّروا مساكنهم المتواضعة بمساكن فسيحة أنيقة زُيِّنت بتماثيل وصور إغريقيّة،[٣] وكان من نتائج الترف الذي صاحب الغزوات والانتصارات الرومانيّة أن تغيّرت أخلاق القادة وطبائعهم، وكذلك نمط الشخصيّة الرومانيّة التي تتميّز بالتفاني في العمل والصلابة والزهد في الحياة.

---

[١]- الرندي خيري مختار محمّد، دراسة في فكر شيشرون السياسي، أكاديميّة الدراسات العليا، طرابلس، رسالة ماجستير غير منشورة، ٢٠٠٥، ص١٤.

[٢]- نصحي إبراهيم، تاريخ الرومان، الجزء الثاني، ص٧٣٤.

[٣]- نفسه، الجزء الثاني، ص٤١٠.

٥. الفساد الأخلاقي

انتشر الفساد الأخلاقي في المجتمع الروماني آنذاك، وغلبت الأخلاق المذمومة على نقيضتها المحمودة بين أفراده، ولدينا مثال على ذلك العلاقة غير المشروعة التي كانت تجمع بين التربيون كلوديوس وبمبيا زوجة يوليوس قيصر، حيث كان كلوديوس شاباً جميلاً، قاد ثورة العامّة ضدّ الأغنياء من أجل المطالبة بتوزيع الثروة التي تجمّعت في أيدي الطبقات الحاكمة في روما فقط، ثمّ عمل جنديّاً تحت إمرة قيصر، وكان يطمح للاستيلاء على زمام الحكم وانتزاع السلطة منه، فعشق زوجته، واحتال للوصول إليها بأن تزيى بزي امرأة ودخل بيت قيصر، ثم تزيى بزي كاهن، واشترك في المراسم الدينيّة التي تقيمها النساء وحدهن للآلهة، لكن كُشِف أمره فيما بعد، ووُجِّهت إليه تهمة الاعتداء على حرمة الآلهة وأسرارها، وحوكم على هذه التهمة.

كذلك وُجِّهت لكلوديوس تهمة مضاجعة ترشيا زوجة لوكلس، وإقامة علاقة مع كلوديا، لكنّه نفى هذه التهمة عن نفسه وادّعى وجوده خارج روما في ذلك الوقت، وقد قام أنصاره برشوة القضاة ودفع الكثير من الأموال لتبرئته من هذه التهمة[١]، وعدُّوا هذه التهمة مؤامرة من مجلس السيناتو للقضاء على طموحاته السياسيّة.

أمّا كلوديا شقيقة كلوديوس وزوجة كوينتوس متللوس، فقد فاقت كلّ النبيلات في الاستهتار سواء في فترة زواجها أو بعد ترمّلها إلى الحدّ الذي دفعها للظهور أمام الملأ في صحبة خلاّنها المتعاقبين، وقد كان ممّن وقع في حبها الشاعر كاتللوس[٢]، الذي ذكرها كثيراً في قصائده[٣]، وكانت من أشهر النساء مجوناً، إذ اشتهرت بأنّها أثناء زواجها كانت تستقبل الضيوف، وتقبِّلهم أمام الملأ، وكانت تقوم بإعداد الولائم لاستقبال هؤلاء الرجال، كما كان زوجها يتعمّد الغياب عن البيت أثناء هذه الولائم، وقد قيل الكثير عن عهرها وأغانيها وما

---

[١]- ديورانت ول، المرجع السابق، الجزء الثاني، ص٣٥٢-٣٥٣.

[٢]- ولد في فيرنا سنة ٨٤ ق.م, وجاء إلى روما عام ٦٢ ق.م, واختلط بالطبقة الأرستقراطيّة, وأحبّ من سيّدات هذه الطبقات كلوديا ذات الشهرة الواسعة في ثقافتها, وأيضاً سوء سمعتها, وقد سجّل كاتلوس حبّها تحت اسم مستعار هو ليسبيا, وقد ذهب إلى آسيا الصغرى في سنة ٥٧ ق.م, وربما كان الدافع هو نسيان كلوديا, وقد مات هناك سنة ٥٤ ق.م، ينظر شرقاوي فؤاد، الأدب اليوناني والروماني، دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٩٠، ص١٦٩.

[٣]- نصحي إبراهيم، تاريخ الرومان، الجزء الثاني، ص٧٥٣.

تقوم به من حفلات موسيقيّة ومقاصف الشراب في مدينة بايا، وكانت تسمح لكلّ رجل من عشّاقها أن يتّخذها خليلة له، ويستأثر بها إلى أن تفتر شهوته، فيصبح عدواً لها عندما تتخذ خليلاً آخر بعده[١].

بالإضافة إلى أسباب أخرى قادت إلى تفشّي التدهور الأخلاقي بين الشعب الروماني، نذكر على سبيل المثال ظهور دور الدعارة وكثرة الإباحيّة في وسط المجتمع الروماني المحافظ[٢]، وكذلك أدّى انتشار الانحلال الأخلاقي بين كبار القادة وأصحاب القرار إلى انتشار الفساد السياسي والانحدار والانحطاط في مفاصل الدولة كافّة.

٦. الحروب الأهليّة

شهدت روما في أواخر العهد الجمهوري حروباً أهليّة عجَّلت في سقوط نظام الحكم الجمهوري القائم، وكانت سبباً لظهور المنافسات والنزاعات بين القادة العسكريين، وتدهور انسجام الحياة السياسيّة وتوازنها، والإيذان بانتهاء عهد الحكم الجمهوري، نتيجة حصول صراعات وخلافات تتحكَّم بها النزعات والأطماع الشخصيّة، حيث يُعدُّ الصراع بين القائدين ماريوس وسولا خير دليل على هذه الحروب، فقد استخدم ماريوس أتباعه من المتطوّعين، الذين سمح لهم باستملاك مساحات واسعة من الأراضي الصالحة للزراعة، وأغدق عليهم الغنائم والأسلاب التي حصل عليها في المعارك التي خاضها ضدّ أعداء روما في عدّة جولات من الحروب الأهليّة التي دارت بين ماريوس وسولا، والتي استمرّت من عام ٨٨-٨٢ ق.م. كان كلٌّ من القائدين يستولي على روما مرّة، ثمّ يفقدها أمام خصمه مرّة أخرى، إلى أن انتهت الجولة الأخيرة بانتصار سولا وأتباعه، وإعلان نفسه دكتاتوراً، وقد انتقم سولا، عندما سيطر على روما، من أنصار ماريوس أشدّ انتقام، حيث أصدر بعد تعيينه دكتاتوراً حُكماً بإعدام أربعين فرداً من الشيوخ، وألفين وستمئة من النبلاء. وانتقلت ظاهرة أهوال المذابح والنفي ومصادرة الأملاك من روما إلى الولايات التابعة لها، وكان من ضحاياها الإيطاليّون أتباع ماريوس أينما وجدوا، فكان عدد مَن قُتلوا قرابة أربعة آلاف وسبعمئة شخص. وقد وصف أفلوطرخس بشاعة هذه المجازر بقوله: «وكان الأزواج يذبحون بين أحضان زوجاتهم،

[١]- مؤمن علي مؤمن إدريس، الحياة الاجتماعيّة الرومانيّة خلال العهد الجمهوري (١٣٣-٢٧ ق.م)، جامعة بنغازي، رسالة ماجستير غير منشورة، ٢٠١٢، ص٥١.

[٢]- أيوب إبراهيم رزق الله، المرجع السابق، ص ٢٠٠-٢٠١.

والأبناء في جحور أمهاتهم»[١]. حتّى من وقف على الحياد لم يسلم من عقاب سولا؛ لأنّه حكم عليهم وعلى مَن كانوا من المحافظين بالقتل والنفي ومصادرة أموالهم.

فتح الصراع بين ماريوس وسولا الطريق أمام قادة آخرين لخوض حروب أهليّة جديدة وضعت مصير النظام الجمهوري على المحكّ، حيث شهدت روما ثاني حرب أهليّة بين القائدين الرومانيين قيصر وبومبيوس وقوّاتهما، وقد استمرّت هذه الحرب طويلاً، وضمَّت عدّة حملات واصطدامات امتدّ مسرحها ليشمل جميع أنحاء الدولة، فقيصر الذي أوهنته الحروب الطويلة التي خاضها أثناء التوسع الروماني في بلاد الغال وسورية ومصر، لم يكن يريد التورّط في حرب أهليّة، لكنّه أدرك مدى حجم المؤامرات التي تُحاك ضدّه، فقد اتُّهم بأنّه خارج عن القانون، وتجب محاكمته ونفيه خارج إيطاليا، وقد حاول قيصر إزالة أسباب الخلاف بينه وبين خصومه، فلمّا طلب منه مجلس الشيوخ، وبإيعاز من بومبيوس، أن يتخلّى عن فيلق يُرسله للقتال في بارثيا، وافق قيصر على طلبه، على الرغم من أنّه لم يكن لديه قوّة كبيرة، كما بادر قيصر للاستجابة لطلب بومبيوس بإعادة الفيلق الذي كان الأخير قد أرسله له قبل عام، وعندما طالب قيصر على لسان مؤيّديه في مجلس الشيوخ أن يُعاد العمل بقرار الجمعيّة الشعبيّة، الذي ينصُّ على السماح له بالترشّح لمنصب القنصليّة وهو غائب عن روما، رفض المجلس اقتراحه وطلب منه أن يسرِّح جنوده، واتخذ مجلس الشيوخ قراراً بعزل كلٍّ من قيصر وبومبيوس من منصبهما بأغلبيّة ٣٧٠ ضدّ ٢٢ صوتاً، لكنّ بومبيوس لم يخضع لهذا القرار، واتَّهم قيصر بأنّه عدو الشعب[٢].

كلّ ما ذكرناه أعلاه دفع قيصر عام ٤٩ ق.م إلى التحرّك من غالة على رأس قوّاته باتجاه روما، التي كانت ترى فيه البطل المدافع عن حقوق الإيطاليين، فكانت مدائنها تفتح أبوابها لاستقباله واحدة تلو الأخرى، وقد كتب شيشرون في ذلك يقول: «إنّ المدن تحييه كأنّه إله معبود»[٣]. اتبع قيصر أثناء زحفه نحو روما سياسة تقوم على عدم السماح لجنوده باستباحة المدن المهزومة ونهبها، وإطلاق سراح من تمّ اعتقاله من الضبّاط، وأعلن أن سيعدُّ كلّ من يقف على الحياد صديقاً ونصيراً، ولم يتوانَ عن تقديم عروض الصلح على أعدائه،

[١]- ديورانت ول، المرجع السابق، الجزء الأول، ص٢٦١-٢٦٢.

[٢]- ديورانت ول، المرجع السابق ، الجزء الأوّل، ص:٣٦٩-٣٧٠.

[٣]- نفسه، الجزء الأول، ص ٣٧٣.

ومن ذلك تلك الرسالة التي كتبها إلى شيشرون، وأعرب فيها عن استعداده لاعتزال الحياة العامّة، وترك المجال لبومبيوس شريطة أن يسمح له الأخير بأن يعيش آمناً مدى حياته، وقد بذل شيشرون جهده في التوفيق بين القائدين، لكنّه لم ينجح في مهمّته أمام تعسّف الثورة ودعاواها المتعارضة[١].

عندما تقدّم قيصر نحو العاصمة انسحب بومبيوس والقنصلان اللذان يحكمان روما مع الجنود، ومعهم عدد كبير من الأشراف تاركين وراءهم زوجاتهم وأبناءهم، وقد رفض بومبيوس عروض الصلح جميعها، علماً أنّه كان يعلم بحاجة جيشه إلى الكثير من التدريب للتغلّب على قيصر وجيشه، لذلك دخل قيصر روما دون مقاومة تذكر، وأعلن العفو العام عن جميع أهلها، لكنّ مجلس الشيوخ رفض الاستجابة لطلبه وتنصيبه دكتاتوراً، كما رفض طلبه بأن يبعث رسلاً لبومبيوس ليفاوضه في عقد الصلح.

بعد سيطرة قيصر على روما بدأت حملته على الولايات الرومانيّة الخارجيّة التي شهدت حركات تمرّد، أو تلك التي ناصرت بومبيوس ضدّ قيصر، مثل سردينيا وإسبانيا، فغادر قيصر عام ٤٩ ق.م روما متوجّهاً إلى إسبانيا لاستردادها، واستطاع أن يسيطر عليها بعد حصار استمّر ما يقارب ثلاثة أشهر، وأصبحت بذلك موالية له بعد استسلام أنصار بومبيوس، بعد ذلك عاد قيصر إلى روما ظافراً بالنصر، حيث ضاعفت هذه الحملات من قوّة مركزه السياسي، فأبدى مجلس السيناتو عدم ممانعته في تعيينه دكتاتوراً، لكنّ قيصر تخلّى عن هذا اللقب بعد أن اختير أحد القنصلين عام ٤٨ق.م، ثمّ انضمّ قيصر عام ٤٩ ق.م إلى الأسطول والجنود الذين جمعهم أنصاره في برندبزيوم، وقرّر عبور البحر الأدرياتي لمواجهة بومبيوس، وكان من ضمن قوّاده قائد عسكري معروف هو أنطونيوس، وقد تمكّن قيصر بعد عدّة معارك في بلاد الإغريق ومقدونيا من هزيمة بومبيوس الذي تشتّت جيشه، لكنّه تمكّن من الفرار إلى مصر التي كانت تشهد صراعاً كبيراً على السلطة بين أفراد الأسرة البطليميّة الحاكمة، وعند دخول بومبيوس مصراً خاف المصريّون على أنفسهم من نقمة قيصر عليهم، لذلك استقبلوا بومبيوس ودبّروا له مكيدة، وغرّروا به إلى حين استدراجه بمفرده، وقاموا بقتله[٢].

لقد أدّت الحروب الأهليّة الطاحنة التي عصفت بالجمهوريّة الرومانيّة منذ عام ١٣٣ ق.م

[١]- ديورانت ول، المرجع السابق ، الجزء الأوّل، ص٢٧٣.

[٢]- العبادي مصطفى، الإمبراطوريّة الرومانيّة، دار النهضة العربيّة، بيروت، د.ت، ص٦٣-٦٤.

إلى التعجيل في انهيار نظامها الجمهوري، لأنّها كانت على حساب الدولة وأفراد الشعب، وبدل أن يكون القادة يداً واحدة لتوسيع نفوذ روما وزيادة سيطرتها على الأراضي المحيطة بها، كانوا يقفون في وجه بعضهم البعض، ويبذلون جهودهم وإمكانات دولتهم العسكريّة في حروبهم الأهليّة الداخليّة، كما تسبَّبت في نقص موارد الدولة الماليّة والبشريّة، فانهارت بسببها نظم الدولة السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة؛ لأنّ وقود تلك الحروب هم أصحاب المزارع والعمال، ممّا أدى إلى نقص المؤونة وقلّة الأموال والإنتاج، ولا سيّما حين اتّجه محرِّكو هذه الحروب إلى ابتزاز الأهالي واغتصاب مصادر أموالهم وأملاكهم، فانهارت القيم الاجتماعيّة، وعمَّت الفوضى، وانعدم الأمن والاستقرار، وتفشَّت الجريمة، وكثُرُ قطَّاع الطرق، ولم يعد الناس يضمنون سلامة أرواحهم وأموالهم، ممّا جعل عامّة الشعب تسعى إلى وضع حدّ لهذه المأساة، لتمهّد الطريق أمام الحكم الإمبراطوري، وقيام حكومة فرديّة يكون فيها الحاكم مطلق الصلاحيات، وبيده وحده جميع القرارات، وأن يتّصف حكمه بالحزم والقوّة التي من شأنها أن تضبط شؤون البلاد والسياسة الداخليّة والخارجيّة[١].

لقد مهد يوليوس قيصر لقيام النظام الإمبراطوري من خلال الإصلاحات التي قام بها من جهة، وفرض السلطة الرومانيّة في ولايات الدولة من جهة أخرى، فقد أصبح قيصر بعد دحره لبومبيوس وأنصاره في الشرق الرجل الوحيد الذي يحكم روما موحّدة ذات نفوذ وسطوة واسعين، فسيطر على خزائن المال، واقترح القوانين ونفّذها، وعيَّن من شاء أعضاء في مجلس السيناتو، وعزل من اعترض عليه، وقلَّل من سلطاته حتّى أصبح مجرّد مجلس استشاري، وغير ذلك من الأعمال التي عزَّزت سلطته[٢]، وحظي بشعبيّة واسعة عند الشعب الروماني وصلت إلى درجة تأليهه في أواخر أيامه، فأقام ديكتاتوريّته على محبّة الشعب، وقبل أن يُقتل تبنَّى حفيد أخته الصغرى «يوليا»، والذي عُرِف باسم أكتافيوس أغسطس، الذي قاد فيما بعد المشروع الذي أعدَّه قيصر، وأصبح أوّل إمبراطور لروما بعد قيامه بسياسة إصلاحيّة في النظام السياسي نقلت روما من العهد الجمهوري إلى العهد الإمبراطوري، من هنا رأى بعض المؤرّخين[٣] أنّ نظام الفرد، أو الحكم المطلق، أو الإمبراطور قد وضع أساسه يوليوس قيصر.

---

[١]- ديورانت ول، المرجع السابق، الجزء الثاني، ص:٦- ٧.

[٢]- ديورانت ول، المرجع السابق، الجزء الأول، ص٣٨٨-٣٩٠.

[٣]- طراد نجيب إبراهيم، تاريخ الرومان، ترجمة محمد زينهم محمد، مطبعة دار الغد، القاهرة، ١٩٩٧، ص٢٢٢.

خاتمة

في الختام لا بدّ من الاعتراف أنّ أنظمة الحكم التي شهدتها روما على مرّ السنين لم تأتِ من فراغ، وإنّما ترجع إلى طبيعة البيئة السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة التي سادت في روما، إذ كان هناك تفاعل وتأثير ملحوظ في اختلاف نظام الحكم من نمط إلى آخر نتيجة اختلاف الأوضاع والظروف الداخليّة والخارجية، ونتيجة الأخطاء التي ارتكبها أصحاب الحكم والقادة، ونتيجة البيئة الشعبيّة التي إمّا أن تدعم الحكم والقائمين عليه، وإمّا أن تثور ضدّه وضدّهم، كما رأينا أعلاه، ممّا يؤدّي بالتدريج إلى انهيار نظام الحكم السائد، والتبشير بنظام آخر جديد يلائم المرحلة المقبلة والتغيّرات الجديدة، والمطالب الشعبيّة الحثيثة.

من هنا نرى أّن انتقال روما من نظام الحكم الجمهوري إلى نظام الحكم الإمبراطوري لم يكن أمراً سهلاً أو يسيراً، وإنّما أدّت إليه مجموعة ظروف وعوامل وأسباب تعود في المجمل إلى تجاوز أصحاب المناصب العليا للقيم الأخلاقيّة، ومبادئ المساواة بين طبقات المجتمع، والعدالة الاجتماعيّة، والنزاهة في العمل والقضاء والسياسة، والإخلاص والوفاء لمصلحة الوطن العليا، إذ إنّ تجاوز هذه المبادئ والقيم السامية قاد إلى انتهاك حقوق العبيد واستثارتهم حتّى قاموا بتمرّدات وثورات عنيفة، وكذلك قاد إلى تفشّي الفساد في الميدان السياسي والاجتماعي، وسعي الحكّام والقادة إلى ملء خزائنهم الخاصّة بأموال الشعب والدولة من دون حسيب ولا رقيب، وكذلك قاد إلى تناحر القادة فيما بينهم، وإضرام حروب أهليّة من أجل أطماعهم الشخصيّة التي لا تخدم الدولة، ولا ترقى بها، ولا توسّع نفوذها، بل على العكس تماماً، فقد أدّت سيطرة قادة الجيش على زمام الأمور إلى نسف النظم الجمهوريّة، والعبث بالتقاليد الرومانيّة وممارسة دكتاتوريّة عسكريّة أسهمت في إضعافها، وخلق الانقسامات بين صفوف حكّامها وأبنائها، وأطاحت بنظام الحكم الجمهوري، ليحلّ محلّه نظام آخر، هو النظام الإمبراطوري الذي رأت به بديلاً يلائم المرحلة الجديدة، وترميماً للصدوع والثغرات التي أصابت جدار الجمهورية الرومانيّة.

لائحة المصادر والمراجع

١. أبو اليسر عبد العظيم فرح، الشرق الأدنى في العصر الهلنستي والروماني، الطبعة الأولى، عين للدراسات للبحوث الإنسانيّة والاجتماعيّة، ٢٠٠٢.

٢. أيوب، إبراهيم رزق الله، التاريخ الروماني، صيدا، الطبعة الأولى، الشركة العالميّة للكتاب، ١٩٩٥.

٣. براستد جيمس هنري، العصور القديمة، ترجمة داود قربان، بيروت ١٩٨٣.

٤. حسين عاصم أحمد، دراسات في تاريخ روما السياسي والحضاري، مطبعة العمرانيّة، الجيزة ٢٠٠١.

٥. حمدان عبد المجيد، العبيد عند الرومان خلال القرنين الثاني والأوّل قبل الميلاد، مجلّة دراسات تاريخيّة، العدادان ١١٧-١١٨، مطبعة جامعة دمشق.

٦. ديورنت ول، قصّة الحضارة: قيصر والمسيح أو الحضارة الرومانيّة، ترجمة محمّد بدران المجلّد:٩-١٠، الجزء الأوّل، الطبعة الخامسة، المنظّمة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم في جامعة الدول العربيّة.

٧. رستم أسد، التاريخ الروماني، ترجمة أمين سلامة، دار الفكر العربي بمصر ـ ١٩٥٩.

٨. الرندي خيري مختار محمد، دراسة في فكر شيشرون السياسي، أكاديميّة الدراسات العليا، طرابلس، رسالة ماجستير غير منشورة،.٢٠٠٥

٩. سلامة أمين، التاريخ الروماني، القاهرة، ١٩٥٩.

١٠. السليمان عبدالله يوسف، حروب الجمهورّية القرطاجيّة من التأسيس حتّى السقوط سنة ١٤٦ ق.م، دمشق الهيئة العامة السوريّة للكتاب، ٢٠١٥.

١١. شرقاوي فؤاد، الأدب اليوناني والروماني، دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٩٠.

١٢. طراد نجيب إبراهيم، تاريخ الرومان، ترجمة محمّد زينهم محمّد، مطبعة دار الغد، القاهرة، ١٩٩٧.

١٣. العبادي مصطفى، الإمبراطوريّة الرومانيّة، دار النهضة العربيّة، بيروت، د.ت.

١٤. العابد مفيد رائف، سورية في عصر السلوقيين: من الإسكندر إلى بومبيوس ٣٣٣-٦٤ ق.م، دار شمأل للطباعة والنشر، دمشق.

١٥. ف.دياكوف، س.كوفاليف، الحضارات القديمة، ترجمة نسيم اليازجي، الجزء الثاني، دمشق ١٩٥٩.

١٦. فرح نعيم، حضارات العالم القديم: ما قبل التاريخ، دمشق، ١٩٧٥.

١٧. محفل محمّد، الزين محمّد، دراسات في تاريخ الرومان، الجزء الأوّل، الطبعة الثالثة عشرة، منشورات جامعة دمشق.

١٨. المرصفاوي فتحي، شريعة الرومان، دار النهضة العربيّة، ١٩٨٥.

١٩. مصطفى ممدوح درويش، التاريخ الروماني، الرياض ٢٠٠٤.

٢٠. مؤمن علي مؤمن إدريس، الحياة الاجتماعيّة الرومانيّة خلال العهد الجمهوري ١٣٣-٢٧ ق.م، جامعة بنغازي، رسالة ماجستير غير منشورة، ٢٠١٢.

٢١. نصحي إبراهيم، تاريخ الرومان ١٣٣-٢٤ ق.م، الجزء الثاني، منشورات الجامعة الليبيّة، كليّة الآداب، ١٩٧٣.

النظام الرأسمالي الإمبراطوري في روما وصراع الطبقات فيها

محمد السليمان[١]

مقدّمة

لقد كان النظام الرأسمالي في روما نظاماً اقتصاديّاً هشّاً مبنيّاً على أسسٍ غير علميّة، بل على أسس من الانتهازيّة والأنانيّة ونهب واردات الولايات. كانت الطبقة الأرستقراطيّة القديمة وطبقة الفرسان مَن يسيطر على النظام الرأسمالي في روما في العصر الجمهوري، لكنْ منذ العصر الإمبراطوري سيطر الإمبراطور ومعه طبقةٌ جديدةٌ من محدَثي النعمة على اقتصاد الدولة، وبدأ نوعٌ من الصراع الطبقي بين الطبقة الأرستقراطيّة التقليديّة وبين الرأسماليين الجدد، وعلى رأسهم الإمبراطور، ما أسهم في النهاية إلى زوال تلك الأرستقراطيّة. لقد تبدّلت بنية المجتمع الروماني نتيجة النظام الرأسمالي الجديد، وتحوّلت روما إلى مكانٍ للتناقضات الاجتماعيّة، طبقةٌ ثريّةٌ قليلةٌ في قمّة الهرم، ومجتمعٌ قوامه الدهماء والغوغاءً العاطلون عن العمل، ليس لهم أيّ نشاطٍ سياسي أو اقتصادي أو اجتماعي. إنّ انهيار النظام الاقتصادي دائماً ما يفضي إلى أزماتٍ أخلاقيّة واجتماعيّة.

إنّ تدفّق ثروات الولايات على روما واعتماد روما على وارداتها دون اتّخاذ خطواتٍ حقيقيّة في سبيل المحافظة على الزراعة والصناعة في إيطاليا يفضح حقيقة هذا النظامً الاقتصادي الرأسمالي الانتهازي الهشّ، الذي أسهم في انهيار الزراعة في إيطاليا، بينما أعاق ميلاد صناعة حقيقيّة فيها، في الوقت الذي كانت تعاني فيه روما من نزيف مالي حادّ نتيجة تجارتها الشرقيّة في شراء المواد الكماليّة.

لقد كان النظام الرأسمالي الجديد نظاماً ربويّاً، ما أسهم في انتشار الصيارفة، وعمليّات

---

[١]- ماجستير في القانون الجزائي/ درعا.

شراء النقود، والائتمان، والحوالات الماليّة، لكنْ مع أول أزمة اقتصاديّة تبيّن جشع القائمين على هذه البنوك، ولولا تدخّل الإمبراطور تيبيروس ثاني أباطرة روما الذي دفع ١٠٠ مليون سسترس للمصارف التي أعلنت إفلاسها سنة ٣٣م، (وذلك من أجل أن تقرضها بلا فوائد خلال السنوات الثلاث القادمة، بضمان الأملاك العقاريّة، لتجنّب الأزمة الماليّة)، لكانت الدولة الرومانيّة أعلنت انهيارها الاقتصادي منذ ذلك الوقت.

إنّ تكرّر الأزمات وعدم اتّخاذ الأباطرة الرومان خطوات جادّة وحقيقيّة لمعالجة الأزمة من جذورها، إذ لم يتدخّلوا إلّا استجابة لظروف الأزمة، يفضح أمامنا هشاشة النظام السياسي الحاكم وعجزه عن مواكبة التطوّرات وعجزه عن الإحاطة بالأمور. وبما أنّنا أمام أزمة اجتماعيّة أخلاقيّة سياسيّة اقتصاديّة عميقة ومركّبة تنخر في جسد الدولة الرومانيّة، دون اتّخاذ خطوات حقيقيّة لمعالجتها؛ فإنّ هذه الأزمة ستصبح حالة مرضيّة في القرن الثالث الميلادي، وستكون أوّل إشارة على زوال هذه الإمبراطوريّة.

أوّلاً: تبلور النظام الرأسمالي الجديد

لقد استمرّت سيطرة رجال الأعمال والرأسماليين الكبار على الاقتصاد في الدولة الرومانيّة في عصرها الإمبراطوري الجديد، كما كان عليه الحال في العصر الجمهوري، وهؤلاء ينتمون إلى طبقة برجوازيّة المدن، تلك الطبقة التي نشأت بالتدريج خلال القرنين الثاني والأول قبل الميلاد في إيطاليا والولايات الغربيّة، وكانوا ممّن سَلِموا من بطش التصفيات، ونجوا من كوارث الحروب الأهليّة. كان بعضهم من أعضاء مجلس الشيوخ[١]، إذ استطاعوا بواسطة بعض أفراد أسرهم أن يتعاطوا التجارة والمهن الماليّة، وأن يضاعفوا مصادر دخلهم، بحكم أنّ القوانين الرومانيّة كانت تمنع أفراد طبقة الشيوخ-نظريّاً- من تعاطي المهن الماليّة[٢]. والبعض الآخر كان ينتمي إلى طبقة الفرسان، الطبقة التي نهبت الولايات الرومانيّة من خلال نظام الالتزام بجباية الضرائب. هؤلاء الرأسماليّون التقليديّون استأنفوا نشاطهم في العصر الإمبراطوري الجديد، في ميادين الأعمال الماليّة والتجاريّة المختلفة، وصادفوا دون شكّ نجاحاً كبيراً في هذا الشأن. ولكنّ عدداً لا بأس به من الرأسماليين الجدد أو

[١]- محمّد الزين، محمّد محفل، دراسات في تاريخ الرومان، ج٢، ط٨، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٥م، ص٤٧.

[٢]- باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، ترجمة جورج كتّوره، دار الكتاب الجديد المتّحدة، بنغازي ٢٠٠٨م، ص٧٧.

محدثي النعمة، ظهروا في هذه الميادين، وكانوا من طبقة العتقاء والعبيد السابقين وموظّفي الجهاز الإمبراطوري؛ فمن المعروف أنّ الرأسماليين الجدد كانوا طبقة تجمعها بالإمبراطور أوغسطس Augustus (٣٠ ق.م – ١٤م) أقوى الروابط، وكثيراً منهم كانوا من أعضاء أسرته وأصدقائه المقرّبين أمثال أغريباAgrippa ومايكيناس Maecenas[١]. ولا يجوز الاستهتار بعدد الموظّفين الذي كانوا يعملون في خدمة الإمبراطور من أهل إيطاليا؛ فهؤلاء كانوا لا يزالون يؤلّفون الغالبيّة العظمى في البيروقراطيّة المسيطرة على الإمبراطوريّة.

وبالإضافة إلى الطبقة الأرستقراطيّة المحيطة بالبلاط الإمبراطوري، نشأ رهط كبير من تجّار الجملة، ومن الأغنياء من رجال المصارف، وأصحاب السفن، ومن الموالي المحبّين للادّخار، الذين أعتقهم الإمبراطور من عبيده. **لقد كانت روما في نموّ وتقدّم مطّردين** حتّى أنّها كادت تلعب في حياة إيطاليا، إن لم يكن في حياة الإمبراطوريّة كلّها، الدور نفسه الذي تقوم به باريس في حياة فرنسا، فالكثير من أثرياء روما ولدوا في إيطاليا، وأكثر هؤلاء قضوا حياتهم في روما واتّخذوا مساكنهم فيها، بغضّ النظر عن المناطق التي مارسوا فيها نشاطهم الرأسمالي[٢]، فمن منظور حديث يقدّم البناء السياسي الذي هو بحجم الإمبراطوريّة الرومانيّة، صورة سوق ضخم ومنظّم، ولعلّ خطاب «على شرف روما» الذي وضعه الخطيب اليوناني أوليوس أرستيدوسAelius Aristide من آسيا في القرن الثاني الميلادي يوجز ذلك، إذ جاء فيه بإصرار أنّ العاصمة هي المكان الذي يشكّل المركز، والمكان الذي ينعكس فيه كلّ ما يجري في الأرض المسكونة. تمثّل هذه النظرة تفكيراً عامّاً يتناول مشروعيّة المصطلحات الحديثة مثل:«الرأسماليّة»، و«اقتصاد السوق»، و«الاقتصاد الإقليمي»، و«الدولاتيّة»، في إشارة إلى الظاهرة الاقتصاديّة التي تكوّنت في الإمبراطوريّة الرومانيّة[٣].

لقد حصل محدثو النعمة على ثرواتهم بشتّى السبل، وإن كانت التجارة أفضل مصادر **ثروات هؤلاء الرأسماليين** الجدد، فإنّهم أيضاً قاموا بإنماء أموالهم بفضل إقراضها بضمان ورهون، وكذلك كانت هذه الأموال تستثمر في الأراضي الزراعيّة والعقارات. وإلى جانب

[١]- محمّد الزين، محمّد محفل، دراسات في تاريخ الرومان، ج٢، م.س، ص٤٧.

[٢]- رستوفتزف، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة الاجتماعي والاقتصادي، ترجمة زكي علي ومحمّد سليم سالم، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة ١٩٥٧م، ص٢٦٨، ٢٦٩.

[٣]- باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٧٤.

التجارة، وما يرتبط بها بأوثق الصلات من أعمال النقل، فإنّ الصناعة كان لها دور، ولو أنّه كان ثانويّاً، إلّا أنّ بعض الثروات جمعت بلا ريب من هذا الطريق[1]. حقيقةً كان المجتمع الروماني يغصّ بطبقة جديدة من محدثي النعمة، التي كانت ترفل بالغنى وتتمتّع بثراء فاحش، حيث بلغت ثروة أكبر شخصيّة من هذه الطبقة الجديدة بَلَغَنا خبرها، ما يقدر بـ ٤٠٠ مليون سسترس sesterces (عملة رومانيّة برونزيّة قديمة)، ملكها أحد المعتقين يدعى نرسيس، وكان تابعاً للإمبراطور. أمّا الثري الثاني فكان من أعضاء مجلس الشيوخ في عهد أوغسطس، وبالتالي فلا عجب إذا ما راح بلينيوس الأكبر أو القديم Pliny Eder(٢٣– ٧٩م) يشكو زمانه وقسوة حظّه أمام سماعه أخبار هذه الثروات الضخمة، علماً أنّه خلّف وراءه، كما تنصّ عليه وصيّته الأخيرة، ٢٠ مليون سسترس لا غير[2].

لقد **تبدّلت بنية المجتمع الروماني** نتيجة هذا النظام الرأسمالي الجديد، حين ظهرت طبقة ثريّة جديدة، لا تتمثّل أعراف طبقة النبلاء، التي كانت تسعى للحفاظ على العادات والتقاليد الموروثة، فمحدثو النعمة تفلّتوا من كلّ عقال على المستوى الأخلاقي والمالي. وتشرح أديث هاملتون انعكاس هذه الطفرة الاجتماعيّة في العلاقات الاقتصاديّة القائمة على أسس رأسماليّة في الإمبراطوريّة الرومانيّة، إذ تقول: «عندما يستيقظ وحش الجنس القابع في أعماق أيّ إنسان، حينها كلّ نساء العالم لا تشبع الفرد الذي استيقظ فيه هذا الوحش، وعندما يستيقظ وحش الجشع، فإنّ كلّ ثروات العالم لن تشبع صاحبه. إنّ هذا ما دفع نبلاء اليونان قديماً لوضع صيغة للحياة تقوم على الاقتصاد الأدبي لا الاقتصاد السياسي، على الآداب والألعاب لا على الاستغلال والسيطرة، وقد تلاشت هذه الصيغة بتلاشي طبقة النبلاء. الثروة والجنس أهمّ ما يميّز الحياة الجديدة، وهي الحياة التي ورثتها روما عن أثينا في أواخر أيام الثانية. ولهذا السبب لم تعد هناك حاجة للجمهوريّة، الإمبراطوريّة هي نظام الحكم الأنسب. إنّها التعبير الأكمل عن شخصيّة محدثي النعمة، الذين لا يرون في الحياة إلا الثروة والجنس»[3]. وهكذا حمل

---

[1]- رستوفتزف، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٢١٧.

[2]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام،ج٢، روما وإمبراطوريّتها، ترجمة فريد داغر وفؤاد أبو ريحان، ط٢، منشورات عويدات، باريس-بيروت ١٩٨٦م، ص٣٨٢.

[3]- أديث هاملتون، الأسلوب الروماني في الأدب والفنّ والحياة، ترجمة: حنّا عبود، منشورات وزارة الثقافة- المعهد العالي للفنون المسرحيّة، دمشق ١٩٩٧م، ص٧.

تبلور النظام الرأسمالي الإمبراطوري الجديد معه انهياراً في الأخلاق والمجتمع، وتخلّياً عن العادات والتقاليد الموروثة، حيث صارت الثروة والربح وكمّية الأموال المكدّسة هي المعيار الجديد الذي تقاس فيه قيمة الأفراد في مجتمع روما الجديد في العصر الإمبراطوري. والأنكى من ذلك أنّ هذه الطبقة الرأسماليّة الجديدة، لم تقم بتطوير الاقتصاد الروماني على أسس علميّة، واكتفت بنهب الموارد، فرغم سيطرتهم على مقدرات الإمبراطوريّة الرومانيّة، فشلوا في أن يكونوا في روما جماعة اقتصاديّة متجانسة تقرّر إشارات النمو أو الانحسار في النشاط الاقتصادي، وبالتالي لم تكن روما لا لندن ولا نيويورك[١].

لقد كان **الإمبراطور** أحد هؤلاء الرأسماليين الجدد، ولكنّه كان أعظمهم شأناً على الإطلاق، حيث كان أثرى رجل في هذا النظام الرأسمالي الجديد، فهو أكبر مالك في الإمبراطوريّة، حتّى أنّ أوغسطس كان يدير أمور ثروته الطائلة بواسطة عبيده ومواليه، وكان حريصاً على استثمارها؛ لأنّ أملاكه الواسعة هذه لا قيمة لها ولا شأن، إلّا بالنسبة لما يستطيع استغلالها واستثمار ما فيها من خيرات دفينة، وذلك بفضل اليد العاملة التي يتصرّف بها. ورغم أنّ المؤرّخين يجهلون عدد العبيد الأرقّاء الذين كانوا يعملون عند الأباطرة الرومان، إلّا أنّهم دون شكّ يتجاوزون بضع عشرات من الألوف، بينهم قلّة من الخدم والحشم. وتظهر النقوش الأثريّة التي عثر عليها، هؤلاء العمال موزّعين إلى فئات وطوابير، مكتتبين في كتائب شبه عسكريّة، وقد توزّعوا على أملاك الإمبراطور في جميع أطراف الإمبراطوريّة، ليقوموا بجميع الأعمال التي يقتضيها استثمار هذه الأراضي[٢].

لكنّ المعضلة أنّ الإمبراطور لم يستطع الفصل بصورة تامّة بين ثروته الخاصّة، وبين تلك الأموال التي كان يمتلكها بوصفه أعظم موظّف في الدولة الرومانيّة، ووالياً على أكبر الولايات وأغناها، وملكاً على مصر وخليفة البطالمة عليها، وهكذا نشأت أوضاع في الإمبراطوريّة الرومانيّة شبيهةً بما كانت عليه الأمور في الملكيّات الهلنستيّة، وكلّما توسّع الإمبراطور في الإنفاق على الأغراض والمشاريع العامّة، أصبح من العسير التمييز بين موارده

---

[١]- باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س،ص٧٧.

[٢]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام،ج٢، م.س، ص٣٦٩.

الخاصّة وبين دخل الدولة العام، وكان ذلك يعني أنّه أصبح يتصرّف في موارد الدولة كما لو أنّها موارده الخاصّة[١].

ولم يتردّد الأباطرة في فرض الضرائب على الشعب الروماني لملء خزائنهم بالأموال، فضريبة الإصلاح المؤلّفة من ضريبة على الأرض وضريبة على الأشخاص، كانت تفرض على كلّ سكّان الأقاليم غير المعفيين منها، بينما كان يفرض على المواطنين الرومان ضريبة إرث توازي ٥ ٪ من قيمة التركة. أمّا الضرائب غير المباشرة المتعددّة فهي توضع على الإعتاق، وبيع العبيد، بالإضافة إلى الضريبة الجمركيّة (٢- ٢,٥ ٪ من قيمة البضاعة)، والبيع بالمزاد، وارتياد الماشية للمراعي، ومنح الامتيازات والرخص. لقد كانت الأمور الضريبيّة مؤشّراً مهمّاً في الاقتصاد النقدي، وهذا لم يكن ليتعارض مع الدفع في حالة دفع العشور على المواسم أو الضرائب على القطعان. وهكذا كانت الخزينة الإمبراطوريّة تحافظ على عائداتها من الإرث المؤلّف من أملاك عقاريّة بالإضافة إلى المناجم والمهن[٢].

لقد كان الأباطرة الرومان يتصرّفون بهذه الأموال التي تكدّست في خزائنهم في أغراض كانت في اعتقادهم لا غنى عنها للمحافظة على ما لديهم من سلطان، وذلك بتموين الجيوش التي يجب ألا ينقصها أيّ شيء، وإطعام الغوغاء في روما، أمّا الباقي فيبيعونه في السوق، ورغم ذلك كانت المجاعات من الأحداث الرئيسة في حياة المدن في الإمبراطوريّة الرومانيّة[٣]. لذلك عمل الأباطرة على استخدام وسائل مختلفة لمراقبة التموين، الذي اكتسب سمةً سياسيّة، فشراء محاصيل بأسعار متدنيّة إبّان مرحلة التسويق، والمصادرات، والأداء العيني، كان يسهم بالنسبة للحبوب والزيوت-على الأقلّ- في تأمين «سوق مدعوم». لقد كان متعهّدو النقل أو أصحاب البواخر ملزمين بعقود تمتدّ لستّ سنوات بخدمة الدولة، مقابل امتيازات وإعفاءات قادرة على جذبهم. ولم تكن دورة استيفاء المحاصيل والحياة العسكريّة لتمنع التجّار ومتعهّدي النقل المتعاقدين من انتهاز الفرص والمساومة على مخزونهم الخاصّ. وبالمقابل لم تكن روما أكثر من مركز استهلاكي عملاق، ففيها تزدهر

---

[١]- محمّد الزين، محمّد محفل، دراسات في تاريخ الرومان، م.س، ص٤٧.

[٢]- باتريك لورو،الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س،ص٧٧.

[٣]- رستوفتزف، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص١٥٠.

النشاطات الإنتاجيّة والمبادلات التجاريّة، يدفعها إلى ذلك وجود غنى سكّاني، وحوافز تقوم على النفقات الإمبراطوريّة، والعادات، وأذواق الأرستقراطيّة؛ سواءٌ من أفراد مجلس الشيوخ أم من أبناء طبقة الفرسان. لقد كانت الأولويّة للمركز الروماني في حالات المضاربة، وكان خدم الحاشية الإمبراطوريّة والولاة هناك من أجل السهر على استقرار الأمور، أمّا الجيوش الإقليميّة فكانت تتزوّد بالمؤن محليّاً في كلّ مرّة تسمح لها الظروف المناخيّة بذلك[١].

ثانياً: حتميّة الصراع الطبقي الجديد

لقد كان الصراع أمراً محتوماً مع ظهور الرأسماليين الجدد، فلا عجب أنّ محدثي النعمة عند البحث عن مورد مضمون لاستغلال أموالهم انصرفوا للتفكير أوّل الأمر نحو الأراضي الإيطاليّة وهي في متناول أيديهم، ثمّ إنّ إدارتها والإشراف عليها أيسر من إدارة الأراضي في الولايات. وتحت ضغط أصحاب رؤوس الأموال الكبيرة من الرأسماليين الجدد على الريف الإيطالي، كان المصير المحتوم على الإقطاعات الصغيرة والمتوسّطة التي يمتلكها الفلاحون أن تتوارى وتندمج في الضياع الشاسعة، التي وقعت في حوزة الطبقة المحيطة بالبلاط الإمبراطوري، وقد جرّت تلك الضياع الشاسعة على إيطاليا الدمار والخراب[٢]. فمنذ أن بدأ صغار الفلاحين ببيع أملاكهم العقاريّة ومزارعهم إلى كبار الرأسماليين الجدد، أخذت الضياع الكبيرة تتوسّع في ازدياد مطّرد على حساب المزارعين الصغار. وكانت الأملاك الواسعة والمتوسّطة تدار على أسسٍ رأسماليّة، حيث كانت مُلكاً لأناسٍ يعيشون في المدن، ويكاد معظمهم ينتمي إلى طبقة المحاربين، الذين استولوا على هذه الأراضي في عهود سولا Sulla وبومبيوس Pompeius وقيصر Julius Caesar وأوغسطس Augustus [٣].

لقد عمل هؤلاء الرأسماليّون، الذين بيعت لهم هذه الأراضي على تبسيط الإجراءات في إدارتها، ولمّا كانوا قانعين بالحصول على إيجار مضمون-على الرغم ممّا قد يكون عليه من ضآلة- فإنهم آثروا ترك أراضيهم في أيدي مستأجريها، وفضّلوا التوفير على إنتاج الغلال

[١]- باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س،ص٧٧، ٧٨.

[٢]- رستوفتزف، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٢٦٩.

[٣]- محمّد الزين، محمّد محفل، دراسات في تاريخ الرومان، ج٢، م.س، ص٤٨.

بشكل خاصّ[١]. والأهمّ أنّ كثيراً من هذه المزارع تركّزت ملكيّتها في أيدي الأباطرة، وهكذا أخذ النظام الرأسمالي الروماني يشهد **صراعاً داخليّاً** بين الطبقة الأرستقراطيّة التقليديّة التي كانت ترى في الريف الروماني متنفّساً لها، وبين الرأسماليّة الجديدة أو محدثي النعمة، وعلى رأسهم الإمبراطور الروماني، الذين لم يقنعوا من كلّ شيء[٢].

قبل أن يستأثر بالحكم رجل واحد، كان الأعيان والأرستقراطيّون يملكون ثروات هائلة جمعوها بوسائل شتّى مشروعة وغير مشروعة، فهذه الثروات، مهما يكن مصدرها، ضاعت منهم كلّيّاً في العصر الإمبراطوري، وتخلّت عنهم تلك الجموع الغفيرة من الأتباع الذين كانوا يغرقونهم كلّ يوم بالهدايا. أمّا نهب الأقاليم فصار يوجّه رأساً لخزينة الإمبراطور الماليّة، لا سيّما بعد أن عيّن موفدين عنه يقومون بمهمّة نهب الولايات والأقاليم[٣]، وإمعاناً من الإمبراطور أوغسطس في تقليص نفوذ الطبقة الأرستقراطيّة لصالحه وصالح محدثي النعمة، سلب مجلس الشيوخ كثيراً من صلاحيّاته، كان أهمّها حقّ إصدار النقود، حيث كان في المجلس ثلاثة أشخاص مكلّفين بهذا الأمر؛ يعرفون بالرجال الثلاثة، غير أنّ أوغسطس منذ تولّيه الحكم خصّ مجلس الشيوخ بالإشراف على سكّ النقود البرونزيّة، وتولّى هو الإشراف على إصدار النقود الذهبيّة والفضيّة[٤].

ولمّا كان عوام الرومان قد انتخبوا من بينهم نقباء للدفاع عن مصالحهم من كلّ ظلم وضيم في العصر الجمهوري، مُنح أولئك الوكلاء حصانة، بل قداسة، أدّت للحكم بالقتل على كلّ من يسيئ لهم بالقول أو الفعل. لكنْ في العصر الإمبراطوري أمسى الإمبراطور هو «نقيب الشعب»، وبالتالي كان ينطبق عليه القرار المذكور، من حيث القداسة، وتحت هذا الغطاء وبهذه الحجّة الواهية، صفّى الأباطرة معارضيهم من طبقة النبلاء، حتّى أنّ تيبيروس Tiberius (١٤- ٣٧م)، قتل بهذه الحجّة عدداً لا يحصى من الناس، وفي مثل هذا الجو

---

[١]- رستوفتزف، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص١٤٩.

[٢]- م.ن، ص١٥١.

[٣]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، أسباب النهوض والانحطاط، ترجمة عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء٢٠١١م، ص١٣٠، ١٣١.

[٤]- محمّد الميداني، الحياة الاقتصاديّة في سورية في العصر الروماني ٦٤ ق.م – ٣٠٥م، أطروحة معدّة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ القديم، جامعة دمشق ٢٠١٥م.ص٣٤٢.

انتشرت الوشاية، وألصقت تهمة المسّ بحرمة الإمبراطور بكلّ من تقرّر التخلّص منه، حيث كانت تلصق هذه التهمة بالمرء عندما لا يوجد غيرها[١].

لقد كان مصير ذلك النزاع المحموم بين الأباطرة والأرستقراطيّة التقليديّة ممثّلة بمجلس الشيوخ أن ينتهي في عهد الإمبراطور نيرون Nero (٥٤- ٦٨م) بالقضاء التام تقريباً على أغنى الأسر الأرستقراطيّة وأعرقها في المجتمع الروماني، فلم يبق من أفرادها إلّا القليل، وما بقي منهم كان نفوذه ضئيلاً. وقد انقرضت كذلك كثير من الأسر الأرستقراطيّة بسبب بُغض رجالها وزهدهم في أن يكونوا أرباب أسر، فانصرفوا عن الزواج وإنجاب الأبناء، وترتّب عن هذين العاملين تكدّس الأملاك الشاسعة في أيدي محدثي النعمة والأباطرة عن طريق المصادرة والإرث، بيد أنّنا في القرن الثاني لا نجد أيّ إشارة إلى أعضاء في مجلس الشيوخ بلغت ثروتهم ما كانت عليه ثروة من نالوا الحظوة في الإمبراطوريّة من أمثال مايكيناس أغريبا وسنيكا Seneca وأكتى عشيقة نيرون. وعلى الرغم من أنّ الأراضي التي كانت تصادر من أملاك من ثبتت عليهم تهمة الخيانة العظمى، كانت تؤول إلى الدولة، إلّا أنّها من الناحية العمليّة كانت تقع في حوزة الأباطرة فيستولون عليها، فيحتفظون بها أو يهبونها لمن يشاؤون، وفي هذا الإجراء احتفاظ بنوع من التقاليد منذ عصر الحروب الأهليّة. وكان معظم الأثرياء وبخاصّة العزّاب منهم يتركون جزءاً كبيراً من ثرواتهم إلى الأباطرة؛ لكي يضمنوا أيلولة الجزء الباقي إلى ورثتهم الطبيعيين أو المختارين. وتتألّف معظم الأملاك المصادرة والموروثة من العقار؛ فمن المستحيل إخفاء بيت أو التستّر على قطعة من الأرض، على حين كان من الهيّن نسبيّاً التصرّف في العملة والنقد، وعلى الرغم من ذلك أصبح ملّاك الأراضي في الإمبراطوريّة الرومانيّة هم الأباطرة، ولهذه الحقيقة أهمّيتها ودلالتها، لا من وجهة النظر السياسيّة فحسب، بل لها شأن بالنسبة للتاريخ الاقتصادي أيضاً[٢].

وإذا تركنا الصراع بين الطبقة الأرستقراطيّة التقليديّة من جهة والإمبراطور والرأسماليين الجدد من جهة ثانية قليلاً، وجدنا شعب روما في تلك الحقبة مهمّشاً، حيث لم يعد يلعب أيّ دور في تسيير شؤونه، أصبح كلّه مكوّناً من الدهماء، قريبي العهد بالرقّ، ومن

---

[١]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٣٢.

[٢]- رستوفتزف، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص١٥١.

عاطلين لا يحسنون أيّة صناعة، يتلقّون قوتهم اليومي من الخزينة[١]. لقد أمست روما مكاناً للتناقضات الاجتماعيّة، وأصبح التطرّف حكم الحياة فيها؛ ففي القمّة استبداد مطلق وثراء فاحش، وفي القاع عبيد بائسون، فالحياة رائعة، والقذارة لا توصف، وأشكال وحشيّة من المتع غير المسؤولة، والبؤس المخيف، كلّها مجتمعة في ذات المدينة، ففي كلّ مكان فيها ثمّة تناقضات عنيفة ومخيفة. الانسجام كان فكرة شرقيّة، فالحياة الداخليّة والخارجيّة يجب أن تكون متوازنة، هذه الفكرة لم يكن الرومان ليفهموها على الإطلاق، إنّ التناقض والانقسام الحادّ بين الوقائع، بين الأشياء، هو ما تسمّيه روما «الواقع»، والأفكار والمثُل داخل الإنسان لم تكن متناقضة أكثر ممّا هي عليه أثناء عصر الإمبراطوريّة الرومانيّة. لقد كانت روما الإمبراطوريّة قبل شيء مكاناً يتحكّم فيه المال[٢].

ثالثاً: أوّل أزمات النظام الرأسمالي الإمبراطوري الجديد

لم يكن النظام الرأسمالي الروماني الجديد إلّا نظاماً هشّاً؛ لأنّه لم يُبن على أسس علميّة، وستظهر هشاشته حتّى إبّان عصر السلام الروماني، ففي هذا العصر سجّل المؤرّخون قفزات فجائيّة وعلامات فجّة على ضعفه. فالأزمة الاقتصاديّة التي عصفت بالإمبراطوريّة الرومانيّة سنة ٣٣م، كانت تشير إلى حالة دَيْن كبيرة تجاه المالكين الأغنياء، وقد ترافق ذلك مع انخفاض في أسعار الأرض، وارتفاع أسعار العائدات الزراعيّة، ومعدّلات الفائدة، كما ألمّ ذعر شديد بالمصارف[٣]. إنّ جذور هذه المشكلة تعود إلى زمن الإمبراطور أوغسطس الذي أصدر عملات دون حساب، وبسط كلّ البسط في الإنفاق على أساس أنّ كثرة تداول المال وانخفاض أسعار السلع الاستهلاكيّة، وارتفاع الأثمان، ستبعث النشاط في الأعمال الماليّة والتجاريّة، وقد نجحت هذه السياسة في البداية، غير أنّها اصطدمت فيما بعد بانخفاض الأثمان، وارتفاع الأسعار والفائدة، وعجز المديونين عن وفاء ديونهم، فباعوا أملاكهم[٤].

وما زاد الأمور تعقيداً أنّ الإمبراطوريّة الرومانيّة كانت تعاني من نزيف أموال حادّ في هذا

---

[١]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٣٣.

[٢]- أديث هاملتون،الأسلوب الروماني، م.س، ص١٥٦، ١٥٧.

[٣]- باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س،ص٨١.

[٤]- محمّد الميداني، الحياة الاقتصاديّة، م.سص٣٤٣.

الزمن بالذات، فاستيراد الكماليّات كان يغطّى بالذهب، ما أدّى إلى استنزاف السبائك الذهبيّة من الخزينة الرومانيّة، وأسهم في انخفاض قيمة العملة، وانهيار الاقتصاد الروماني، لقد كان بلينيوس الأكبر بصفته أحد المسؤولين الرومان على دراية بالأمور الماليّة في الإمبراطوريّة الرومانيّة[١]، ما دفعه للاحتجاج كشخص محافظ على ذهاب الحياة الأرستقراطيّة الرومانيّة بصورة جامحة نحو الكماليّات، والاهتمام بالمظاهر، كما اعترض على نتائج التجارة مع الهند (استيراد العطور، والحرير، والأحجار الكريمة، والتوابل، والبخور)، وما تسبّبت به من نزيف مخزون الدولة من الذهب[٢]. وقد حاول مجلس الشيوخ أن ينقذ الأمر بمنع تصدير رؤوس الأموال، فطلب أن يُستثمر قدر كبير من تركة كلّ عضو من أعضائه في الأرض الرومانيّة، ولم تحلّ هذه الأزمة، واستمرّت حتّى عهد الإمبراطور تيبيروس الذي أوقف قانون استثمار الأراضي في روما، ووزّع ١٠٠ مليون سسترس على المصارف التي أعلنت إفلاسها، وذلك لأجل أن تقرضها بلا فوائد خلال السنوات الثلاث القادمة بضمان الأملاك العقاريّة، لتجنّب الأزمة الماليّة، فاضطر المرابون أصحاب المال إلى إخراج أموالهم المخبأة، وتخفيض سعر الفائدة، ممّا أسفر عن عودة الثقة إلى الأسواق الماليّة والتجاريّة[٣].

وبما أنّ كلّ أزمة اقتصاديّة يرافقها أزمة أخلاقيّة، والعكس صحيح، فقد أصبح **الحرير** مشكلة حقيقيّة في روما، لا على مستوى نزيف الذهب الروماني فحسب، بل على مستوى أخلاق الطبقة المترفة في المجتمع، ففي القرن الأوّل الميلادي، وخلال عهد الإمبراطور تيبيروس، احتلّ هذا النسيج الفاخر مكانة كبيرة في المجتمع البرجوازي الروماني، حيث تمّ استيراده بتكلفة كبيرة من الصين، إلّا أنّه اعتبر في الوقت نفسه رمزاً لانحطاط المجتمع، فبينما سعى التجّار للحصول على الحرير لكثرة الطلب عليه، وصنعت منه الملابس الرقيقة والشفافّة، إلّا أنّ هذه البضاعة تعرّضت للانتقاد والرفض أحياناً من قبل المحافظين، فقد اشتكى الفيلسوف سينيكا الصغير Seneca (من كاتب ومستشاري الإمبراطوريّة) من الأشخاص الذين يرتدون الحرير قائلاً: «لا أستطيع أن أرى ملابس الحرير، هذه الملابس لا

[١]- عبد الله العبد الجبار، نظرة الكتّاب الكلاسيكيين لتجارة الجزيرة العربيّة، مجلّة الدرعية، العددان الحادي والثاني والخمسون، السنة الثالثة عشرة، يناير ٢٠١٢م، ص٢٣٧.

[٢]- باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س،ص٨١.

[٣]- محمّد الميداني، الحياة الاقتصاديّة، م.س، ص٣٤٣.

تخفي الجسد، وليس فيها احتشام، فهل يجوز أن نطلق عليها ملابس؟!... فالقطعان البائسة من الخادمات يعملن فتظهر أجسادهن من خلال هذه الملابس الرقيقة». ورغم أنّ مجلس الشيوخ الروماني قد أصدر قراراً يمنع الرجال من ارتداء الحرير، مؤكّداً أنّ الحرير الشرقي يحطّ من رجولة جنس الذكور، وأنّه يؤدّي إلى الشذوذ الجنسي بين الرجال، إلّا أنّ هذا الحظر لم يدم طويلاً، فقد استمرّ الطلب عليه، واندفع التجّار في رحلاتهم بين الإمبراطوريّة الرومانيّة والصين والهند والعديد من الأماكن في الشرق الأقصى لجلبه للأسواق الرومانيّة[١].

رابعاً: دور النظام الرأسمالي الجديد في تقويض أركان الزراعة في إيطاليا

إنّ إحراز إيطاليا لقصب السبق في عالم السياسة والاقتصاد في عصر أوغسطس لم يكن إلا صورة وهميّة وحالة مؤقّتة، سببها أنّ الشرق لم يكن بعد قد تمكّن من إصلاح ما تحطّم من موارده وقواه خلال الحروب المتصلة، في الوقت الذي كانت فيه الولايات الغربيّة لا تزال في طور النشأة والتكوين، بحيث لا يمكن أن تظهر فيها سريعاً حياةٌ اقتصادية مزدهرة. بينما لم تؤثّر الحروب الأهليّة كثيراً على الزراعة في إيطاليا، حيث اشتهرت إيطاليا بزراعة الكروم وصناعة النبيذ، كما أنّه لم يطرأ تغيّر كبير على أسس السياسة العقاريّة والملكيّة[٢].

لكنّ السياسة الرأسماليّة الجديدة أسهمت في تراجع الزراعة في إيطاليا، وكان انفجار بركان فيزوف سنة ٧٩م الشعرة التي قصمت ظهر البعير، فبعد أن دَمَّرَ عشرات المزارع في إيطاليا، كانت الولايات الرومانيّة قد استردّت عافيتها، وقطعت أشواطاً في التطوّر الاقتصادي، وأعادت بناء بنيتها التحتيّة. ولمّا كانت الزراعة في إيطاليا تتمحور حول زراعة الكرمة وإنتاج النبيذ، صار بوسع الولايات الرومانيّة أن تنتج نبيذاً أجود وأقلّ كلفة من النبيذ الإيطالي, ما أسهم في اضمحلال الصناعة والتجارة في إيطاليا، وكان هذا معناه حلول الفقر والفاقة تدريجياً بطوائف البرجوازيّة من سكّان المدن، هذه الطبقة التي كانت الدعامة القويّة التي قامت عليها الزراعة الفنيّة. وهذا يفسّر استمرار انهيار طبقة المزارعين في إيطاليا وزحف الرأسماليين الجدد على أراضيهم وأملاكهم العقاريّة، ولم تتوقّف هذه العمليّة في القرن

[١]- صلاح رشيد الصالحي، طريق الحرير بنالشرق والغرب انتقال البضائع والثقافات، مركز إحياء التراث العلمي العربي، جامعة بغداد ٢٠٢٠م، ص١.

[٢]- محمّد الزين، محمّد محفل، دراسات في تاريخ الرومان، ج٢، م.س، ص٤٨.

الثاني الميلادي[١]، لا بل إنّ المنطقة الوحيدة التي لم تزدهر خلال هذا القرن في الإمبراطوريّة الرومانيّة، هي شبه الجزيرة الإيطاليّة والجزر الملحقة بها، (صقلية وسارينيا وكورسيكا) [٢].

يشهد الأدب الروماني على طرد صغار ملّاك الأراضي من حقولهم التي توارثوها عن آبائهم على أيدي كبار رجال المال الجشعين، منذ القرن الأول قبل الميلاد، لكن اتّسع زحف الرأسماليين الجدد على الأراضي الزراعيّة على نطاق واسع خلال القرن الثاني زحفاً لم يشهد له الريف الإيطالي مثيلاً من قبل، ويتحدّث بلينيوس الأصغر (٦١- ١١٢م) وهو أحد كبار الملاك بوضوح عن استثمار أمواله في الأراضي وعن ضياعه الواسعة، وهي تزداد وتتّسع.

في الواقع لقد تطلّع محدثو النعمة إلى مورد مالي يطمئنّون إليه في استغلال رؤوس أموالهم، وقد قادهم البحث مدفوعين إلى ذلك بعامل التعصّب لإيطاليا إلى استثمار أموالهم فيها أو ارتهان أراضيها. وقد أصبح استثمار الأموال في الأراضي الزراعيّة، وفي الرهون بدرجة أقلّ، أفضل وسيلة للحصول على ربح مضمون ومعقول لرأس المال المستثمر[٣].

لقد برَّرَ المؤرّخون هذا التقهقر الاقتصادي بالنسبة لروما نفسها، أنّ العاصمة لم تعد مشغولة البال من حيث تموينها؛ لأنّها كانت عالة على ولايات الإمبراطوريّة. وقد أدرك أباطرة هذا القرن حقيقة هذا النظام الاقتصادي الرأسمالي الانتهازي الهشّ، لذلك سعوا بكلّ ما أوتوا من قوّة لتنشيط الاقتصاد الروماني في إيطاليا، وقاموا بتدابير عديدة من أجل ذلك، لكنّها اعتبرت حلولاً مؤقّتة، ولم يكن لها أثر عميق دائم، فمثلاً لم تجد البلاد أيّة فائدة من مشروع الإمبراطور تراجان (٥٣- ١١٧م) الذي كان يراد منه تجفيف مستنقعات بونتان Pontins الواقعة بالقرب من مدينة روما، وتبلغ مساحتها ١٥٠٠ كم٢؛ لأنّ هذا المشروع لم يتم، لا بل على العكس من ذلك، فإنّ المياه عادت وغمرت الأراضي التي كان قد تمّ تجفيفها في القرن الأوّل الميلادي عهد الإمبراطور كلاوديوس الأوّلClaudius I (٤١- ٥٤م) [٤].

---

[١]- رستوفتزف، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٢٦٦، ٢٦٧.

[٢]- نور الدين حاطوم، وأحمد طربين، صلاح مدني، نبيه عاقل، موجز تاريخ الحضارة، ج١: حضارات العصور القديمة، مطبعة الكمال، دمشق ١٩٦٥م، ص٦٠٢.

[٣]- رستوفتزف، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٢٦٨.

[٤]- نور الدين حاطوم، وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، ج١،م.س، ص٦٠٢.

خامساً: دور النظام الرأسمالي الجديد في تقويض أركان الصناعة في إيطاليا

إذا كان النظام الرأسمالي الجديد قد أسهم في انهيار الزراعة في إيطاليا، فليس من حقّنا أن نعزو إلى إيطاليا القديمة وجود رأسماليّة صناعيّة حقيقيّة، مستندين إلى ما نجده فيها من مصانع الزجاج، والآجر، والقرميد، والفخار، والأدوات المعدنيّة؛ ذلك أنّ روما نفسها لم يكن فيها إلاّ مصنعان كبيران، أحدهما مصنع للورق والثاني مؤسّسة للصباغة. وأغلب الظن أنّ المعادن والوقود لم يكن من الميسور الحصول عليها بكمّيات وفيرة[١]. هذا فضلاً عن أنّ مصانع الخزف الموجودة في مقاطعة توسكانيا في الأجزاء الوسطى من شبه الجزيرة الإيطاليّة تأخّرت أحوالها كثيراً، ولم يعد بوسعها تصدير مصنوعاتها إلى ولاية غاليا بسبب منافسة مصانع الخزف الفرنسيّة التي تأسّست في هذه الولاية نحو ذلك الوقت. وأخذت مصنوعات غالية تكتسح جميع أسواق أوروبا الغربيّة، كما تأسّست في الوقت نفسه مصانع خزفيّة في حوض نهر الراين وفي الجزيرة البريطانيّة وإسبانيا وإفريقيا[٢].

في الواقع لم يتح للمؤسّسات الرأسماليّة في العصر الروماني أن تتطوّر وتنتظم بصورة أفضل وبدرجة أدقّ وأعظم ممّا كانت عليه في العصر الهلنستي، فالحوانيت الصغيرة التي كان يملكها صغار الصنّاع انبرت لمنافسة تلك المؤسّسات الرأسماليّة الكبرى في كثير من ميادين نشاطها، وصغار الصنّاع لم تكتسحهم الشركات الصناعيّة الكبرى من طريقها مثلما تمّ القضاء عليهم في أوروبا وأمريكا خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، فالزجاج والفخار والآجر والقرميد بقي يصنع في المصانع المحليّة ويلقى رواجاً عظيماً، وبسبب هذه المنافسة المحليّة لم تتمكّن البيوتات الصناعيّة الكبرى أن تنمو وتتقدّم إلى مدى بعيد، فالحوانيت المحليّة احتفظت بالطابع القديم الذي كان مرعيّاً في حوانيت ذوي الحرف والصناعات حيث كان يجري إنتاج سلع معيّنة ثمّ تقوم هذه الحوانيت ببيعها.

وتجدر الإشارة إلى أنّ روح الجمال التي سيطرت على المصنوعات في العصر الهلنستي، والتي استمرّت نوعاً ما في القرن الأول الميلادي، أصيبت بالذبول خلال القرن

---

[١]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح أو الحضارة الرومانيّة، ج٢، مج٣، ترجمة: محمّد بدران، بيروت ١٩٨٨م،ص٢١٧.

[٢]- نور الدين حاطوم، وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، ج١،م.س، ص٦٠٣.

الثاني الميلادي، فلم تبتكر أنماط جديدة، ولم تقتبس مبادئ زخرفيّة طريفة، وقد ساد عين هذا العقم في نطاق المهارة الفنيّة. ولمّا كانت الآلات غير معروفة حينذاك، ولم تفرض عقوبة على التزييف والقليد، فإنّ مجال العمل أمام الصُّناع من ذوي الحرف في المدن الصغيرة، ازدهر وانتعش واستطاع هؤلاء منافسة المصانع الكبرى، وكان المستوى منخفضاً في منتجاتها، فجاءت بضاعتها أرخص وأقرب إلى الجمود وعدم التطوّر[١].

لم يكن القانون الروماني يشجّع المنشآت الكبيرة؛ لأنّه كان يتطلّب من كلّ شريك في أيّ مشروع صناعي أن يكون شريكاً مسؤولاً من الوجهة القانونيّة، وكان يحرّم قيام الشركات ذات المسؤوليّة المحدودة، ولا يسمح بقيام الهيئات المساهمة إلّا لأداء الأعمال الحكوميّة. ولمّا كانت هذه القيود تحدّ من نشاط المصارف، فإنّها لم تكن تقدّم رؤوس الأموال اللازمة لمشروعات الإنتاج الكبير، ولم يكن في وسع التطوّر الصناعي في روما أو إيطاليا أن يبلغ في وقت من الأوقات ما بلغته الإسكندريّة أو بلاد الشرق ذات الحضارة اليونانيّة[٢].

سادساً: البنوك والشركات الماليّة

كلّما توسّعت روما وحصلت على ولايات أكثر وضمّت أراضي جديدة، كانت الثروات تتدفّق عليها، وبالتالي تراكم رأس المال لدى عدد كبير من رجالاتها، وبدأ هؤلاء الرجال بإدانة الناس، وهكذا تكوّنت في روما شركات ماليّة تطوّرت مع الزمن حتّى أمست شديدة الشبه بالشركات الماليّة التي نعرفها اليوم. وكانت هذه الشركات تفتح أبوابها لشراء الأسهم فيها أو partes. كما تطوّرت شركات الضريبة، وأسهمت المستويات العليا في الدولة في تعدّدها، إذ كانت موكّلة بتحصيل ضرائب الولايات الرومانيّة. وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه الشركات لم تكن طموح أفراد الطبقة الوسطى بالدرجة الأولى، بقدر ما كانت محطّ أنظار السياسيين الرومان، الذين كانوا يعتقدون أنّ الثراء من أهمّ ضرورات العمل في السياسة، فالثراء يتيح لهم أن يظهروا كأرستقراطيين رومان أقوياء. وهكذا كان الثراء في الإمبراطوريّة الرومانيّة يعادل المركز الاجتماعي[٣]، حتّى أنّ رجال المال والأعمال قد وجدوا أنّ الدَّيْن

---

[١]- رستوفتزف، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٣.

[٢]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٢، مج٣،م.س،ص٢١٨.

[3]- Goldman, S., Capitalism in Ancient Rome and Ancient Greece: Risk and Unethical Business., 2013, p.21.

بالفائدة لا مفرَّ منه بالنسبة إلى الحياة الاجتماعيّة، وكان تاجر المفرّق يفضّل الاستدانة على المسّ برأسماله، الذي يعتبر أساس التصنيف الاجتماعي. ولم يتردّد أفراد النخبة في الاستدانة أيضاً، حتّى بمعدّلات فائدة مرتفعة عن المعدّل المشروع (٦- ١٢ ٪). وهكذا ظهرت ثلاث فئات تعمل بالنقد، الاختصاصيّون الذين يقال لهم Argentarii يمارسون الدَّيْن بالفائدة والمزايدات، أمّا الصرّافون Nummularii فيتبادلون صرف القطع الماليّة التي يتحقّقون من قيمتها، بينما كانت هناك فئة أخرى تختزن المدفوعات، أو تمارس هذه الأعمال مجتمعةً[١].

لقد كان النظام الرأسمالي الروماني يقوم في التجارة الخارجيّة على القروض البنكيّة والصكوك وغيرها من السندات والأوراق الماليّة، رغم أنّ السيولة النقديّة من الذهب والفضّة في الدولة الرومانيّة في القرن الثاني الميلادي تُقدّر ما بين ١٢ بليوناً و ٢١ بليون سسترس موزّعة على النحو الآتي: ١٢ بليون سسترس ذهب، و ٧ ملايين سسترس فضّة، و ٢ بليون سسترس برونز، لكن يندر العثور على نقود ذهبيّة في حطام أي سفينة رومانيّة خلال القرنين الأول والثاني الميلاديين، وهي فترة ازدهار التجارة الرومانيّة الخارجيّة، وسبب ذلك أنّ التجار الرومان قد أدركوا أخطار النقل البحري المتمثّلة في القرصنة والتعرُّض للأنواء البحريّة[٢]، فكان الوسطاء في ظلّ الإمبراطوريّة من التجّار الذين يمارسون التسليف البحري على مختلف الثروات وعلى حمولات البواخر[٣].

كما تطلَّب نمو التجارة والصناعة وتزايد عدد مُلّاك الأراضي الذين يقطنون المدن مقادير من النقد استمرّت زيادتها، حيث كان أرباب المشاريع الاقتصاديّة بحاجة إليها من أجل توظيفها في إنماء أيّ مشروع أو مؤسّسة، وفي إدخال وسائل التحسين اللازمة لذلك. وفي المقابل تكدّست في أيدي كثير من الرأسماليين الجدد مقادير كبيرة من النقد، فلا عجب أن أصبح إقراض المال حرفةً رابحةً يزاولها كلّ الأغنياء، الذين اتّخذوا من هذا العمل مهنة يحترفونها[٤]، فانتشر الصيارفة في جميع أرجاء الإمبراطوريّة: يصدّرون التحويلات الماليّة

---

[١]- باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س،ص٧٦، ٧٧.

[٢]- عبد الله العبد الجبّار، نظرة الكتاب الكلاسيكيين، م.س، ص٢٤٨.

[٣]- باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س،ص٧٧.

[٤]- رستوفتزف، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٢٤٦.

للمسافرين، ويبدّلون النقود ببعضها، ويراجعون الحسابات المصرفيّة والودائع ذات الفوائد، وكانوا يقومون بإقراض الأموال للأفراد والشركات، وأوكلت إليهم مهمّة إدارة أملاك الأفراد وبيعها وشرائها، واستثمار الأموال، وأداء الديون.

وتجدر الإشارة إلى أنّ تطوّر الائتمان واحتراف الأعمال المصرفيّة وإقراض الأفراد العاديين الأموال، قد تقدّم في مدن الإمبراطوريّة على العاصمة روما، لا بل إنّ أناساً هم في الغالب من الإغريق والسوريين كانوا يديرون مصارف إيطاليا وروما، حيث سيطروا على هذا النشاط المالي فيها[١].

لقد كانت مصارف الإمبراطوريّة الرومانيّة تقبل الودائع من الأموال، وتقدّم فوائد عن بعض هذه الودائع. ومن الجلي أنّها كانت تقوم بعمليّات الدفع بتحويل الأموال من ذمّة إلى ذمّة، بل إنّ نقل الأموال من مدينة إلى أخرى كان يتمّ أحياناً عن طريق المصارف المحليّة. وهناك ظاهرة أخرى مهمّة فيما يخصّ أعمال المصارف، وهي شراء النقد الأجنبي وبيعه، وفحص العملة الجيّدة والزائفة أو المغشوشة. لقد كانت النقود الذهبيّة والفضيّة احتكاراً في يد الدولة، ولو أنّ مقدار النقد لم يكن كافياً حتّى فيما يخصّ هذين المعدنين، فإنّ ما هوَّن هذا الشرّ ما قامت به المصارف من نشاط، وما قامت به كوسيط أو متعهّد عن المدن المحليّة في إصدار عملة محليّة تولّت توزيعها. وكان هذا يؤدّي في الغالب إلى المضاربة والاستغلال وينجم عنه أزمات حادّة، منها أزمة «برغامة» والأخرى في ميلاساMylasa ؛ حيث كان اختفاء النقد الصغير من السوق سبباً في حدوث الاضطرابات والقلاقل بل والثورات.

لقد كان الإمبراطور وخزانته بلا شكّ أعظم مالكين للنقد المسكوك، وممّا لا شكّ فيه أنّ الإمبراطور وخزانته كانا يقرضان المال بالربا كما يفعل الأفراد المرابون وكما تفعل المصارف الخاصّة، ولا شكّ أنّ عملاتهما الماليّة كانت متعدّدة متشعّبة، ولعلّ تلك الخزانة كانت أكبر مصرف في الإمبراطوريّة على الإطلاق، وفي أوقات الأزمات نسمع عن بعض الأباطرة الذين ينزلون عن مثل هذه الديون الخاصّة التي للخزانة الإمبراطوريّة على الأفراد[٢].

---

[١]- محمّد الميداني، الحياة الاقتصاديّة، م.س، ص٣٤٢.

[٢]- رستوفتزف، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٢٤٧- ٢٥٠.

سابعاً: أزمة القرن الثالث وانهيار النظام الرأسمالي في روما

١. محاولات تدارك الانهيار

لقد سعى الأباطرة الرومان لإنقاذ النظام الرأسمالي الروماني من الانهيار، إلّا أنّ جهودهم لم تكن بالمستوى المطلوب، إذ كان الإمبراطور نيرون أوّل من عمد إلى تخفيض العملة الذهبيّة والفضيّة من أجل معالجة مسألة الفائض[١]، أو التضخُّم النقدي في إصدارات العملة الرومانيّة، وتأثيرها على الأحداث السياسيّة الداخليّة، واستمرّ هذا التخفيض في عهد من تولّى بعده من الأباطرة الرومان[٢]. بينما أصدر الإمبراطور دومتيان Domitianus (٨١- ٩٦م) قرارين يرميان إلى الحدّ من زراعة الكرمة، ولم يُطبّقا على ما يبدو، كان الهدف منهما هو تأمين الحبوب على حساب الكرمة. وحين فرض «تراجان» على أعضاء مجلس الشيوخ والأعيان استثمار ثلث رأس مالهم في إيطاليا، كان يهدف في الغالب إلى إنقاذ سمعة هذه الفئة من طبقة النبلاء. ورغم هذه الجهود المتفرّقة، إلّا أنّه يمكننا القول إنّ الأباطرة الرومان لم ينجحوا؛ لأنّهم لم يقوموا بأيّة سياسة اقتصاديّة دائمة، ولم يتدخّلوا إلّا استجابة لظروف الأزمة، ومن أجل الالتفاف حول التوازن الذي يفرضه قانون الطبيعة، لقد شكّلت الإمبراطوريّة الرومانيّة وحدة اقتصاديّة أرضيّة، إلّا أنّنا لم نلمس شيئاً عن تنظيم حقيقي لمساحة اقتصاديّة يحكم هذه الإمبراطوريّة[٣].

٢. انهيار العملة الرومانيّة

لقد برز الخطر باكرا جداً بوقائع تتعلّق بالسياسة النقديّة أو مسألة العملة الرومانيّة الرسميّة، ومنشأ هذه الوقائع قديم العهد؛ لأنّ العصر الإمبراطوري الأوّل، لاسيّما فيما يخصّ القطع النقديّة الفضيّة، لم يستطع المحافظة على استقراره بصورة تامّة[٤]، بينما كان النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي وقت الانهيار، حيث صار انخفاض العملة أمراً محسوساً،

---

[١]- باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٨١.

[٢]- محمّد الميداني،الحياة الاقتصاديّة، م.سص٢١٩.

[٣]- باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٨١.

[٤]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام،ج٢، م.س، ص٥٣٣.

كما أنّ قيمة الدرهم قد أخذت تتناقص[١]. لقد كانت النفقات العسكريّة التي تمخّضت عن المجهود الحربي بازدياد مطّرد، بينما كانت الواردات الأميريّة بتناقص مستمرّ، وألحّت الحاجة لسدّ العجز، فعلى الرغم من المصادرات، إلاّ أنّه تمّ إقرار التضخّم بشكله البدائي، أي بإفساد معدّلات المعادن المركّبة، الذي حتّمه فيما بعد انخفاض الإنتاج في المناجم، ثمّ الانفصال الذي قطع الولايات الغربيّة عن باقي الإمبراطوريّة، رغم أنّها أغنى الولايات بالمناجم[٢].

إن تخفيض قيمة العملة زمن سبتيموس سفيروسSeptimius Severus (١٩٣- ٢١١م) وصل إلى نسبة ٥٠ ٪، ما أتاح له مواجهة زيادة نفقات المجهود الحربي وأجور العسكريين[٣]، وانخفض عيار الدينار الفضي الروماني بمعدّل الثلث. ومنذ مطلع القرن الثالث تسرّب الغشّ والتزييف إلى السكّة الرومانيّة المضروبة في مناطق مختلفة، حيث لم تعد موحّدة العيارات، مضبوطة، وظهرت حالات كثيرة من الغشّ والتزوير، وتمّ إنقاص وزن الذهب أو الفضّة في السكّة عن الكمّية المحدّدة من قبل الحكومة المركزيّة، وكلّ ذلك أفقد العملة الرومانيّة اعتبارها في الأسواق التجاريّة، من دون استثناء الأسواق الرومانيّة نفسها. وهكذا فإنّ السكّة الذهبيّة المضروبة في مدن متعدّدة من الإمبراطوريّة الرومانيّة لم تعد تصرف إلاّ بعد وزنها، هذا فضلاً عن أنّ النقود الذهبيّة لم تعد كثيرة التداول بين الناس، فإنّ اضطراب حبل الأمن، والضائقة الاقتصاديّة حملا الأفراد على إخفاء نقودهم الذهبيّة لئلا يزعجهم أحد. وكانت السكّة المضروبة في روما أكثر السكّة المضروبة شهرة بأنّ عياراتها غير مضبوطة، بينما استمرّت النقود المسكوكة في بعض المدن تتمتّع بإقبال الناس عليها؛ لأنّها أحسن من نقود روما، وصارت تبعاً لذلك متداولة بصورة واسعة، وأقبل الأفراد على اقتنائها في المدن الثانية. وقد لاحظ المعاصرون أنّ النقود المضروبة في مدينة الإسكندريّة كانت تلقى رواجاً وإقبالا كبيراً على تداولها بين سكّان الولايات الغربيّة من الإمبراطوريّة الرومانيّة[٤].

[١]- باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٨٢.

[٢]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام،ج٢، م.س، ص٥٣٣.

[٣]- باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٨٢.

[٤]- نور الدين حاطوم، وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، ج١،م.س، ص٦١٧.

تعزو المصادر إلى كركلاّ Caracalla بداية هذا التطوّر الكارثة، لم يكن كركلاّ طاغية عاديّاً بل يستحقّ أن ينعت بمبيد الإنسانيّة، لم يتعدّ ظلم كاليغولا ونيرون ودميتيان ساحة روما، أمّا جرائم كركلاّ فإنّها شملت البريّة كلّها، لقد جمع أبوه سبتيموس سيفروس أموالاً طائلة أثناء حكمه الطويل، وذلك عن طريق التعسّف ومصادرة أملاك الخصوم، وبما أنّ كركلاّ استفتح عهده بقتل أخيه غيتا (أو جيطا)، شريكه في الحكم وصديق الجنود، وبما أنّ هؤلاء قالوا بأنّ ولاءهم للأخوين معاً لا لواحد منهم دون الآخر، أنفق كركلاّ ذخائر أبيه لاسترضائهم. هذه الذخائر التي يكدّسها الأمراء كثيراً ما تجلب الشؤم على وارثها، ينبهر بضخامتها فتعمي بصيرته إن لم تفسد شعوره، يخطّط لمشاريع عظيمة اعتماداً على قوّة عارضة، غير عاديّة، هي في العين أضخم منها في الواقع. لقد زاد كركلاّ من جراية الجنود، حتّى أنّها بلغت سبعين ألف ألف درهم، الغلو واضح[١].

بعد تبديد تلك الأموال اضطر كركلاّ إلى إنقاص ١١ ٪ من وزن العملة الرومانيّة المعروفة باسم أوريوس aureus (تساوي ٢٥ درهماً)[٢]، وأصدر قطعة فضيّة جديدة تدعى الـ أنطونيانوسAntoninanus (وهي تعادل درهمين)، وقد كانت قيمة هذه العملة الوزنيّة أدنى من قيمتها الاسميّة، وكان كراكلاّ قد أوجدها من أجل دفع أجور الجنود التي زادت بنسبة ٢٥ ٪ سنة ٢١٥م[٣]، لكن ما لبثت هذه القطعة الفضيّة الجديدة أن ضرُبت بكمّيات كبيرة، وحلّت أخيراً بصورة نهائيّة محلّ الدينار الروماني القديم، فقد خُفّض عياره ٥٠ ٪ بالنسبة للدينار الذي كان فيما مضى ضعفه وزناً، أي خُفّض أكثر من خمس غرامات بقليل. أمّا في عهد خلفائه فقد استمرّ الأمر بالتراجع حيث انخفضت الأنطونيانوس حتّى ثلاثة غرامات تقريباً، ولم يتوقّف انخفاض عيارها عند هذا الحدّ، وهكذا بدأ إفساد قيمة العملة الرومانيّة بهذه السرعة، ثمّ زاد هذا الانحدار منذ سنة ٢٥٠م بنوع خاصّ[٤].

أمّا في عهد غاليانوس Gallien سنة ٢٦٠م توقّف العمل بسكّ العملة البرونزيّة، وتدنّت

---

[١]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٤٩.

[٢]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام،ج٢، م.س، ص٥٣٣.

[٣]- باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٨٢.

[٤]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام،ج٢، م.س، ص٥٣٤.

قيمة الفضّة في الأنطونيانوس، فعنصر الفضّة لا يتجاوز الـ ١ ٪ في بعض قطع النقود المضروبة باسم غاليانوس أو باسم كلاوديوس الثاني، ثمّ تلاشت الفضّة من هذه النقود، ليتحوّل النقد الروماني إلى تداول قطع برونز بعيار سيّئ ثمّ إلى قطع نحاس[١]. ولمّا كان النحاس نفسه غالي الثمن فقد اتجهوا إلى الاستعاضة عنه بالخارصين والقصدير والرصاص. ورغم أنّ عيار القطع الذهبية لم يفسد، لكن ما ضرب منها كان قليلاً ومتفاوت الوزن جداً[٢]. ثمّ توالت سحوبات العملة، وسحب الذهب جزئيّاً من التداول، ورفعت قيمته ليقاوم بشكل أفضل.

لقد كانت سنة ٢٦٠م التي شهدت أسر الإمبراطور فاليريوس Valerien، علامة فارقة على انحلال لم يكن بالإمكان تحاشيه، إذ اختفت العملة المعروفة بالـ «سسترس»، كما انهارت في المشرق المسكوكات في الحواضر. كان انحسار المبادلات أمراً واقعاً، وذلك يعود لتردّي العلاقات مع الإمبراطوريّة الفارسيّة ومع الجرمان، وبسبب التقطيع الإقليمي للإمبراطوريّة الرومانية الناجم عن الأزمة. وسط هذا الجو الكارثي تكاثرت التعديات من قبل الجنود الذين كان لا بدّ من شرائهم، لا مكافأتهم ولا إغضابهم. مهما يكن من أمر، فإنّ حالة الدولة لم تتغيّر بشكل جذري؛ فلا توجيه ولا تدخّلات، ولا سياسة اقتصاديّة ذات بُعد عام تمخّضت عن حاجات الإمبراطوريّة الاقتصاديّة[٣].

إنّ من البدهي أنّ التضخّم يفضي إلى ارتفاع الأسعار بسرعة، وقد بدأ هذا الارتفاع في عهد مبكّر، وقد فرضته أسباب أخرى أهمّها انخفاض الإنتاج العام، ولكنّ هبوط النقد إلى الحضيض قد أسهم في ذلك إسهاماً عظيماً؛ لقد ارتفع سعر القمح ٢٠ ضعفاً بين سنة ٢٥٥ وسنة ٢٩٤م[٤]، وأغلقت المصارف أبوابها، وما إن حلّ عهد غاليانوس حتّى انقطع بالفعل صدور العملات المحليّة، وغدت العملة الفضيّة في عهده ذات قيمة منخفضة إلى حدٍّ أنّها تساوت بالقيمة مع العملة البرونزيّة-كما أسلفنا بالشرح- وبالتالي أصبح من المحتّم تحصيل الضرائب عيناً، أو على شكل سبائك ذهبيّة أو فضيّة أو أيّة صورة أخرى غير العملة الرسميّة[٥].

---

[١]- باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٨٣.

[٢]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام،ج٢، م.س، ص٥٣٤.

[٣]- باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٨١، ٨٢.

[٤]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام،ج٢، م.س، ص٥٣٤.

[٥]- محمّد الميداني،الحياة الاقتصاديّة، م.سص٢٢٠.

لقد فرض ارتفاع الأسعار مضاعفة وسائل التسديد، وإنّ كلّ إمبراطور جديد مهما ضاقت رقعة سلطته كان بحاجة إلى سكّ النقود بغية تأمين الموارد، ما أدّى إلى ارتفاع عدد المصانع النقديّة ارتفاعاً كبيراً، وجعل الرقابة عليها أمراً صعباً، وأفسح المجال أمام الكثير من الاختلاسات، وقد اكتشفت ولا تزال تكتشف مئات الألوف من قطع القرن الثالث هذه التي تنمّ عيوبها عن السرعة في إنجازها[١]. وقد جرت أعمال تزييف النقود في عهد الإمبراطور أوليان Aurelian خلال انشغاله بحروبه الخارجيّة، إلّا أنّه أمر باسترداد هذه العملات وتوزيع عملات أصليّة بدلاً من المزيّفة، التي أمر الناس بردّها إلى الخزينة[٢] ولاسيّما بعد أن توفّر له المعدن الثمين بعد استعادة تدمر وغاليا، كما قام بقمع ثورة ضاربي النقود في روما حين أقفل مصانعهم[٣].

لقد حاول أورليان قبل ديوقليطس القيام بإصلاح اعتمد دون شكّ على التحديد الاسمي لكلّ قطعة وبشكل تحكّمي، فكانت العملة المسمّاة أورليانوس Aurelian's من نحاس وفضّة، لكنّها لم توحِ بالثقة، ثمّ تمّت العودة إلى سكّ العملة الذهبيّة التي تناسب الدولة، ما دفع بالعملة الفضيّة والبرونزيّة جانباً. أمّا في مصر فقد ارتفعت الأسعار بسبب إصلاحات أورليان، ما أشار إلى مسؤوليّة الدولة بالتلاعب. وفي المرحلة السابقة كانت الأسعار على ما يظن، أكثر حساسيّة لنوع العملات، لقد كان ثبات النظام النقدي حول قيم ترتبط بقيمة العملة الحقيقيّة شيئاً، أمّا مراقبة الأسعار وعودة الضرائب فكانت شيئاً آخر. لقد استطاع أحد علماء الاقتصاد حساب التضخّم الذي حصل في القرن الثالث الميلادي، فوجده ٣ ٪ كمعدّل سنوي دون استثناء معدّلات أعلى[٤].

إنّ من البدهي أيضاً أنّ **المضاربات النقديّة** قد رافقت تضخّم النقد وانخفاض قيمته الذاتيّة، وعبثاً حاولت السلطات الحكوميّة الرومانيّة إيقاف تيّارها قسراً، ومعاقبة تجارة النقد في السوق السوداء والمحافظة على السعر الرسمي. وماذا تستطيع الدولة عمله، في

[١]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام،ج٢، م.س، ص٥٣٤.

[٢]- محمّد الميداني،الحياة الاقتصاديّة، م.سص٢٢٠.

[٣]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام،ج٢، م.س، ص٥٣٤.

[٤]- باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٨٣.

عهد الفوضى هذا، ضدّ تيّار على مثل هذه القوّة؟ فقد حدث في مصر نفسها أنّ المصارف المرتبطة بالإدارة ارتباطاً وثيقاً، قد رفضت أحياناً النقد الإمبراطوري، وتهافت الناس على القطع البرونزيّة الصغيرة على الأقلّ التي لم تبع بأكثر من قيمتها، ولكنّ مجلس الشيوخ ومجالس المدن التي كانت قد احتفظت بحقّ ضربها لنقودها، قد أوقفت إصداراتها؛ لأنّها غدت باهظة التكاليف بسبب ندرة المعادن، فكانت النتيجة مع فقدان السمات النقديّة التي توحي بالثقة، تجميد التداول وتهديم الأسس الأوّلية لحياة اقتصاديّة ترتكز إلى شيء آخر غير المقايضة. وبدهي أنّ التضخّم قد قضى على كلّ ما بُني منذ قرون على امتلاك واستثمار رؤوس الأموال المنقولة: يسار الطبقات الوسطى، ومؤسّسات عديدة ذات صالح اجتماعي. وهكذا فإنّ التضخم النقدي قد قضى على موارد الدولة، في الوقت الذي ازدادت فيه نفقاتها، وغذى الفوضى، وقلب المجتمع، وألقى على الأرض في انهيار عامّ بجنبات كاملة من حضارة، درج الناس على الاعتقاد بأنّها الحضارة المتينة الوحيدة التي باستطاعتها إسعاد البشر[١].

٣. حتميّة الانهيار

لقد كشف ضعف النظام **السياسي** الروماني عن هشاشة النظام **الرأسمالي** في روما القائم على الانتهازيّة والأنانيّة ونهب ثروات الولايات لصالح العاصمة روما، فقد حلَّ بالإمبراطوريّة الرومانيّة خلال القرن الثالث، الذي نحن في صدد الحديث عنه، والمشحون بنُذُرِ الشؤم والدمار بالنسبة لسطوتها الاستعماريّة، مصاب أدهى وأمرّ، ألا وهو أزمة اقتصاديّة خانقة أوشكت أن تودي بالإمبراطوريّة[٢]، وقد شكّل الخلل الاقتصادي في هذا القرن ظاهرة نادرة الأهمّية بفعل خطورته وشموله وطابع الجدّة في بعض مظاهره. وقد أسهم التضخّم النقدي في زيادة الأزمة خطورةً، فقد بعثته هي بعثاً مستمرّاً أيضاً. وليس هذا التضخّم أوّل تضخّم يمكن تتبّع تطوّره المتزايد باطّراد فحسب، بل هو أيضاً أوّل تضخم عرفته البشريّة. وإذ لم تستطع ضحاياه تحليل أسبابه وجوهره، فإنّ عاقبته كانت قاسية جداً[٣].

---

[١]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام،ج٢، م.س، ص٥٣٥.

[٢]- نور الدين حاطوم، وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، ج١،م.س، ص٦١٣.

[٣]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام،ج٢، م.س، ص٥٣٤.

لقد ترافق الانحلال العام الذي أصاب النظام النقدي خلال سنوات ٢٥٠ - ٢٧٤م، مع مجموعة من المصاعب العسكريّة في القطاعات الحدوديّة من الإمبراطوريّة[١]، فأمام غزوات الشعوب والقبائل الجرمانيّة انكمشت حدود الإمبراطوريّة الرومانيّة الشماليّة، وتراجعت لتصبح ممثَّلةً بنهري الراين والدانوب. في الواقع لم تكن المناطق التي فقدتها الإمبراطوريّة الرومانيّة في هذا القرن غنيّة، ولم تكن مساحاتها كبيرة ومع ذلك فقد اعتبر المؤرّخون انكماش الحدود الرومانيّة أو تراجعها نذير خطرٍ بالنسبة لسطوتها الاستعماريّة؛ لأنّهم اعتبروه بداية النهاية بالنسبة لهذه الدولة المترامية الأطراف. كما لاحظوا أنّ قدرة الرومان على التوسّع قد خبت جذوتها، تلك الطاقة التي كانت الدافع الرئيس لروما عندما بدأت حملتها التوسّعية الاستعماريّة للاستيلاء على العالم منذ عدّة قرون، كما أنّ الفعّالية المفعمة بالحياة التي كانت تظهر على الرومان في حملاتهم قد نضب معينها، كما فترَ حماس الجنود الرومان في نهاية هذا القرن، لا بل إنّهم فقدوا رجولتهم بتأثير الحياة الرغيدة المترفة[٢].

٤. مظاهر الانهيار

لقد برزت الأزمة الاقتصاديّة في ذاتها مستقلّة عن التضخّم النقدي الذي فرضته الضائقة الماليّة على الأباطرة. وإنّ أسبابها ونتائجها أكثر من أن تعدّ، وغالباً ما تكون نتائجها أسباباً ثانويّة تسهم في زيادة خطورتها. ورغم أنّه لا يوجد هناك إحصائيّات، فإنّ ذلك لا يمنعنا من مراقبة انهيار النظام الاقتصادي الرأسمالي الإمبراطوري، ومشاهدة تشابك البليّة العظيمة التي كانت تجتاح العالم الروماني الشاسع[٣]. تلك البليّة التي أقضّت مضجع مفكّري الرومان، وأعيتهم الحيل في سبيل إيجاد الوسائل الكفيلة بالتخفيف من وطأة نتائجها المدمرّة على المجتمع الروماني. وأهمّ **مظاهر هذا الانهيار** الذي تسبَّب في هذه الأزمة المميتة مظهران أساسيّان هما نقص عدد سكّان الإمبراطوريّة بصورة مطّردة، والفقر المدقع الذي أخذ المواطنون يعيشون في ظلّه.

لقد كان نقص السكان في القرنين السابقين مقتصراً على المناطق الوسطى وبعض

[١]- باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٨١، ٨٢.

[٢]- نور الدين حاطوم، وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، ج١،م.س، ص٦١٣.

[٣]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام،ج٢، م.س، ص٥٣٥.

الولايات القديمة، فإذا بهذا النقص ينتقل في القرن الثالث إلى الولايات القائمة على تخوم الإمبراطوريّة، وقد ردّ المؤرّخون ذلك إلى أسباب عديدة ذكروا بينها: **أوّلاً:** انتقال عادات وطباع سكّان روما، بما عرف عنهم من أنانيّة وميل إلى حياة الرفاه والبذخ الآني، إلى هذه الولايات الحدوديّة. **ثانياً:** الفتن الداخليّة والغارات الوحشيّة التي لم تنقطع العناصر الأجنبيّة عن القيام بها على حدود الإمبراطوريّة، ما دمّر تلك المناطق. **ثالثا:** صعوبة العيش في ظلّ اضطراب حبل الأمن وأعمال السلب ونقص الموارد في الولايات نتيجة تدنيّ حجم صادراتها، وكانت **النتيجة المباشرة** لكلّ هذه المساوئ ازدياد نسبة الوفيات بين سكّان الولايات الذين ساءت تغذيتهم، ولم يعد النظام الروماني يعتني بصحّتهم بطرق ووسائل علميّة. وهكذا انتشر الطاعون في ربوع الإمبراطوريّة في منتصف القرن الثالث، وبلغت ضحاياه طيلة عشرين عاماً أعداداً لا يمكن أن تحصى. وكانت أفدح نتائج هذا الوباء أنّ مناطق برمّتها غدت خالية من السكّان، وصارت أرضاً بوراً مواتاً[1].

وإن كان النقص في عدد السكّان لم يبرز في بعض المناطق إلّا في عهد متأخّر، لكنّ أفريقيا التي نجت منه حتّى آخر عهد سلالة سيفيروس قد مُنيت به منذ الاضطرابات التي انفجرت فيها سنة ٢٣٨م. وكانت النتيجة نقصاً في اليد العاملة النشيطة برز أثره في الأرياف والمناجم بنوع خاصّ، فكان كارثة شاملة؛ لأنّه أفضى إلى هبوط في إنتاج يعوّل عليه. كما انتهز الأشقياء فرصة الفوضى وخرجوا من الأمكنة المحدّدة لهم، وقد حدث أكثر من مرّة في صقليا وغاليا ومصر أن عاثت زمر الفارّين والفلاّحين والعمّال الهاربين في المناطق الريفيّة فساداً. وزادت في الطين بلّة المصادرات الوحشيّة بغية سدّ حاجات الجيوش أو احتياجات سكّان المدن حين يكون عضدهم ضروريّاً، فنزلت الكارثة بمناطق الحدود خصوصاً، فأسكن البرابرة فيها، في البقاع الخالية من السكّان[2]، حيث لجأ بعض أباطرة الرومان إلى حلّ أرادوا به أن يكون نسغاً جديداً يعيد الحياة إلى تلك الولايات التي أوشكت أن تتحوّل إلى صحارى، وذلك بإسكان بعض قبائل الجرمان فيها ليستثمروا الأراضي المهجورة في الزراعة، ولينخرطوا في صفوف القوّات الرومانيّة، وليسدّدوا إلى خزينة السلطة الرومانيّة

[١]- نور الدين حاطوم، وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، ج١،م.س، ص٦١٣.

[٢]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام،ج٢، م.س، ص٥٣٦.

المركزيّة ما كانت تؤدّيه تلك المناطق التي سُمح لهم بالسكنى فيها واستثمار أرضيها من رسوم وضرائب. لكنّ هؤلاء الأباطرة لم يقدِّروا النتائج الوخيمة والعاقبة المترتّبة على عملهم هذا من حيث أنّهم لم يدركوا خطورة عملهم الذي سيكون أوّل مسمار في نعش الإمبراطوريّة الرومانيّة، خاصّة وأنّ تلك العناصر الجرمانيّة المتسرّبة أخذت تعيش على الأراضي الرومانيّة كجماعة غرباء، لم ينجح المجتمع الروماني في تمثّلها وصهرها في بوتقة شعب روما أو شعوب إمبراطوريّتها[١].

إنّ الغزوات المستمرّة على الولايات الحدوديّة وتنقّلات الجيوش فيها، وهجوم الواحد منها على الآخر، خلقت قلقاً مضرّاً بالإنتاج، ولاسيّما الزراعي، فبعض الفرنك المستوطنين في تراقيا مثلاً، قد نجوا من غزو القبائل الجرمانيّة بهروبهم عبر البحر ولجؤوا إلى المنطقة الرينانيّة[٢]. كما أثَّرت الفتن الداخليّة التي عمّت جميع أرجاء ولايات الإمبراطوريّة الرومانيّة في النصف الأول من القرن الثالث على الزراعة كذلك، ولطالما تُركت بعض الأراضي بين وفاة الإمبراطور الإسكندر سيفير سنة ٢٣٥ ووفاة الإمبراطور كارينوس سنة ٢٨٥م بدون زراعة؛ فصارت أراضي بوراً علماً أنّ ذلك لم يكن مشاهداً في ولاية واحدة، وإنّما في كثير من المناطق، لا بل إنّه كثيراً ما أتلفت المحاصيل في الفترة عينها قبل أن يحين موعد حصادها، وكانت أسباب ذلك فقدان اليد العاملة في الزراعة في بعض الأحيان، أو من جرّاء الحروب، حيث كان مرور جيش لجب في منطقة زراعيّة يؤدّي إلى إتلاف المحاصيل، أو بسبب غارات القبائل البربريّة على مناطق الحدود[٣].

كما توقّف تداول المصنوعات، فلم يعد هناك مجال لقيام تجارة دولة. أمّا التجارة بين مدينة ومدينة، وولاية وولاية، ومنطقة ومنطقة، فتقهقرت أيضاً أمام اللصوصيّة مرّة أخرى في البرّ، والقرصنة في المتوسط وبحار أخرى، نجح البرابرة في التسرّب إليها، وأمام خطر المصادرات وما تستتبعه من تخريب في مواد النقل وإنقاص في عدد الزوامل، غرقت المدن

[١]- نور الدين حاطوم، وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، ج١،م.س، ص٦١٤.

[٢]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام،ج٢، م.س، ص٥٣٦.

[٣]- نور الدين حاطوم، وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، ج١،م.س، ص٦١٥.

بالفاقة، حتّى تلك المدن التي لم تعرفها في سالف الأزمان. وانقطع اتصال روما بمصر وإفريقيا اللتين تؤمّنان لها في الظروف العاديّة معظم مؤنها، ثمّ أصاب الشلل نشاط الصناعة الحدوديّة والتجارة الذي هو نشاط مدن الدرجة الأولى. أضف إلى ذلك أنّ كلّ مظاهر الحياة البلديّة التي كانت مزدهرة من قبل قد أخذت في الهبوط والسقوط، وانخفض دخل الضرائب البلديّة، كما تناقص سخاء البرجوازيّة التي كانت تستنفد رؤوس أموالها دون أمل بتجديدها، والدخل العقاري أيضاً. فكان ذلك نهاية التحسينات التي تنشّط الاقتصاد وتوفّر الأجور للطبقات العاملة. ولم تُبنَ آنذاك سوى الأسوار تقريباً بغية الدفاع عن المجموعات السكّانية التي غدت قليلةً أفرادها[1].

وممّا زاد في آثار هذه الأزمة الاقتصاديّة أنّ الطرق والمواصلات الإمبراطوريّة البرية والبحريّة، تلك الطرق التي سهر أباطرة الرومان في القرنين السابقين على أمنها ونجحوا في القضاء على الأشقياء الذين كانوا لا ينفكّون عن مهاجمة السفن التجاريّة والموانئ، فهذه الطرق البريّة والبحريّة انعدم أمنها وعاث الأشقياء والقراصنة فساداً فيها. وكانت النتيجة المباشرة لفقدان الأمن على الطرق البريّة والبحرية أن قلّت حركة نقل المواد الغذائيّة والسلع التجاريّة بين مختلف ولايات الإمبراطوريّة، فبارت التجارتان الخارجيّة والداخليّة. وكانت أوّل مهام مغتصبي السلطة في الولايات أو أشقيائها الخارجين عن القانون منع خروج محاصيل الولاية التي اعترفت بسيطرتهم. وهكذا فكثيراً ما اضطرت روما في هذا القرن إلى ترقّب وصول الشحنات الغذائيّة، ولاسيّما قمح مصر بفارغ الصبر، حتّى عيل صبرها في بعض الحالات، وأخذ شبح المجاعة يجثم على صدور سكّانها. وتجدر الإشارة إلى أنّ أهمّ نتائج فترة السلام الروماني الطويلة التي نعمت بها الإمبراطوريّة في القرن الثاني، أن استمرّت حركت المبادلات التجاريّة بين العاصمة الرومانيّة مع الولايات التابعة لها بصورة منتظمة، ممّا كان يتيح لسلطات العاصمة الاحتفاظ بمستوى واحد لمعيشة السكّان في جميع ولايات الإمبراطوريّة، أمّا عندما خيّم على الإمبراطوريّة في القرن الثالث جوٌّ من الفوضى وانعدام الأمن على طرق المواصلات، فإنّ كلّ ولاية صارت مجبرة أن تكتفي بمواردها الخاصّة،

[١]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام،ج٢، م.س، ص٥٣٦.

وأن تكيِّف معيشة أفرادها وهذه الموارد، مهما كانت معيشتهم ضنكاً، ومهما عاشوا عيشة الكفاف في ظلّ فاقة وعوز[١].

وهكذا بتجمّع هذه الأسباب فليس الازدهار الماضي وحده، على تفاوت توزّعه، ما انتهى إلى الزوال، بل زالت أيضاً العناصر الجوهريّة للجهاز الاجتماعي في العصر الإمبراطوري الأول: تنظيم اليد العاملة للمشاريع الكبرى والإنتاج الزراعي، ونظام الرقي البشري التدريجي الذي يقابل الرفاهية في المدن، وهو المثل الأعلى للحضارة المتوسطيّة، لذلك فإنّ الأزمة الاقتصادية تمثّل أحد العوامل الرئيسة للاضطراب الذي سيطر آنذاك على المجتمع[٢].

---

[١]- نور الدين حاطوم، وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، ج١،م.س، ص٦١٦.

[٢]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام،ج٢، م.س، ص٥٣٦.

الخاتمة

بعد هذه الدراسة المستفيضة في الرأسماليّة الرومانيّة وصراع الطبقات فيها خلال العصر الإمبراطوري نخلص إلى مجموعة من النتائج أهمّها:

أوّلاً: زوال الطبقة الأرستقراطيّة التقليديّة في روما المؤلّفة من مجلس الشيوخ والفرسان الرومان، مقابل ظهور طبقة جديدة من محدثي النعمة المتفلّتين من كلّ عقال أخلاقي أو اجتماعي، ما أسهم في انهيار الأعراف والتقاليد الاجتماعيّة.

ثانياً: أسهم النظام الرأسمالي الجديد في انهيار طبقة العوام تلك الطبقة التي كانت لها مكانتها وحضورها في العصر الجمهوري، فقد تحولّت إلى طبقة من الدهماء والغوغاء لا همَّ لها إلاّ الاستمتاع بمشاهد المجالدة والحصول على تموينها من القمح من الأباطرة مجاناً دون إتقان أيّة حرفة أو صنعة.

ثالثاً: لقد أسهم النظام الرأسمالي الجديد في انهيار الزراعة في إيطاليا، وأعاق تقدّم الصناعة فيها.

رابعاً: لقد أسهم النظام الرأسمالي الجديد في ظهور مهنة الصيرفة وانتشار البنوك في أرجاء الإمبراطوريّة الرومانيّة، لكنّ هذه الشركات الماليّة سرعان ما أظهرت جشعها ونسب فوائدها المرتفعة، ما أسهم في أزمات ماليّة كادت أن تعصف بالإمبراطوريّة الرومانيّة منذ مطلعها.

خامساً: أظهر النظام السياسي الحاكم في روما عجزه عن مواجهة التطوّرات وتحدّي الأزمات، حيث لم يتدخّلوا إلاّ استجابة لظروف الأزمة دون اتّخاذ تدابير حقيقيّة لمعالجة الواقع من جذوره.

سادساً: تضافرت الأزمات الاجتماعيّة والأخلاقيّة والاقتصاديّة في القرن الثالث الميلادي في انهيار النظام الرأسمالي الروماني، ودقّ أوّل مسمار في نعش هذه الإمبراطوريّة.

سابعاً: كان من أهمّ مظاهر الانهيار تدنيّ عدد السكّان بشكلٍ حادّ في الولايات الحدوديّة، وانتقال عادات وطباع سكّان روما بما عرف عنهم من أنانيّة وميل إلى حياة الرفاه والبذخ الآني إلى هذه الولايات الحدوديّة، وصعوبة العيش في ظلّ اضطراب حبل الأمن وأعمال السلب ونقص الموارد فيها، ما أسهم في تسرّب البرابرة إلى أراضي الدولة الرومانيّة، أولئك البرابرة الجرمان الذين سيسقطون روما في سنة ٤٧٦م.

لائحة المصادر والمراجع

١. أديث هاملتون، الأسلوب الروماني في الأدب والفنّ والحياة، ترجمة: حنّا عبود، منشورات وزارة الثقافة- المعهد العالي للفنون المسرحيّة، دمشق ١٩٩٧م.

٢. أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام، ج٢، روما وإمبراطوريّتها، ترجمة فريد داغر وفؤاد أبو ريحان، ط٢، منشورات عويدات، باريس-بيروت ١٩٨٦م.

٣. باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، ترجمة جورج كتّوره، دار الكتاب الجديد المتّحدة، بنغازي ٢٠٠٨م.

٤. رستوفتزف، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة الاجتماعي والاقتصادي، ترجمة زكي علي ومحمّد سليم سالم، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة ١٩٥٧م.

٥. صلاح رشيد الصالحي، طريق الحرير بين الشرق والغرب انتقال البضائع والثقافات، مركز إحياء التراث العلّمي العربي، جامعة بغداد ٢٠٢٠م.

٦. عبد الله العبد الجبّار، نظرة الكتاب الكلاّسيكيين لتجارة الجزيرة العربيّة، مجلّة الدرعية، العددان الحادي والثاني والخمسون، السنة الثالثة عشرة، يناير ٢٠١٢م.

٧. محمّد الزين، محمّد محفّل، دراسات في تاريخ الرومان، ج٢، ط٨، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٥م.

٨. محمّد الميداني، الحياة الاقتصاديّة في سورية في العصر الروماني ٦٤ ق.م – ٣٠٥م، أطروحة معدّة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ القديم، جامعة دمشق ٢٠١٥م.

٩. مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، أسباب النهوض والانحطاط، ترجمة عبد الله العروي، المركّز الثقافي العربي، الدار البيضاء ٢٠١١م.

١٠. نور الدين حاطوم، وأحمد طربين، صلاح مدني، نبيه عاقل، موجز تاريخ الحضارة، ج١: حضارات العصور القديمة، مطبعة الكمال، دمشق ١٩٦٥م.

١١. ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح أو الحضارة الرومانيّة، ج٢، مج٣، ترجمة: محمّد بدران، بيروت ١٩٨٨م.

12. Goldman, S., Capitalism in Ancient Rome and Ancient Greece: Risk and Unethical Business., Union College – Schenectady, New York 2013.

الأسس والعوامل الثقافيّة والتاريخيّة التي أدّت إلى نشوء الحضارة الرومانيّة

هشام الرز[١]

مقدّمة

لا شكّ أنّ لكلّ حضارة عبر التاريخ طابعها الخاصّ، ولا شكّ أنّ الحضارة الرومانيّة ميّزت بطابع خاصّ يمكن أن يشرح لنا أسلوب الرومان في الحياة، فالحضارة الرومانيّة من حيث الإطار العام هي حضارة مختلفة كلّ الاختلاف عن حضارات الشرق القديم، كما أنّها مختلفة عن الحضارة اليونانيّة الأقرب إليها من الرقعة الجغرافيّة، لا بل إنّها مختلفة تماماً كلّ الاختلاف حتّى عن الحضارات التي سبقتها في شبه الجزيرة الإيطاليّة ذاتها، كما هو الحال مع الحضارة الأتروسكيّة. فالحضارة الرومانيّة لم تكن حضارة تكاملت فيها أطر هذه الكلمة بكلّ ما تعنيه من معنى من مختلف جوانبها، وإنّما اقتصرت على التقليد والاقتباس من حضارات الأمم الأخرى التي أخضعتها لسلطتها السياسيّة بحدّ السيف، في حين غاب الابتكار والإبداع في الأسس الثلاثة التي قامت عليها الحضارة الرومانيّة، وهي أسس علميّة وعمليّة وأدبيّة. تمثّلت الأسس العلميّة في الطبّ والرياضيّات والفلك والفيزياء والكيمياء والجغرافيا، فالرومان شعب مُقلّد ليس له شيء خاصّ به في مجال هذه الحياة العلميّة. بينما تمثّلت الأسس العمليّة في الصناعة والزراعة وما اقتبسه الرومان في هذا الباب. أمّا الأسس الأدبيّة، فرغم أنّها أهمّ جوانب الحضارة الرومانيّة، إلّا أنّها بقيت دون المستوى المطلوب، لا في القانون ولا في التاريخ ولا حتّى في الأدب (النثر والشعر والمسرح والنحت والرسم)، لا بل الأدب الروماني نسخة سيّئة من الأدب اليوناني. وهكذا سيجد الباحث في التاريخ العلمي والأسس والعوامل الثقافيّة التي قامت عليها الحضارة الرومانيّة، أنّها حضارة ذات نتاج فقير جداً، اعتمد أبناؤها على ما قدّمه لهم الإغريق، دون أن تتسنّى لهم الفرصة ليطوّروا

---

[١]- أستاذ في جامعة دمشق، والمدير السابق للبحث العلمي في الجامعة.

ذلك النتاج ويرتقوا به. لا بل إنّ الرومان عمدوا إلى قولبة الأدب وسعوا إلى توظيفه سياسيّاً في سبيل إنماء ثقافة العدوان والتكبّر والاستعلاء، بالتالي ليساهم في غسل العقول وسلب الألباب. وهكذا تكوّنت دولة رومانيّة ترى في نفسها الحقّ في حكم العالم وصياغة القانون له، واستخدام جيشها الجرّار في تطبيق تلك السياسات والقوانين، تماماً كما تفعل الولايات المتّحدة الأمريكيّة اليوم.

أوّلاً: الأسس العلميّة التي قامت عليها الحضارة الرومانيّة

يجمع المؤرّخون أنّ الأسس العلميّة والثقافيّة التي قامت عليها الحضارة الرومانيّة، ترجع في أصولها الأساسيّة إلى الإغريق، باعتبارهم أرسخ حضارة، وأعلى ثقافة، وأنضج علماً، فممّا قيل عن الرومان أنّهم حديثو العهد بالعلم، ذلك أنّهم لم يكونوا في الأصل سوى شعب من الفلاّحين. ثمّ ارتفع شأنهم على أساس من وطنيّة ذات نظام خاصّ، فلم يلبثوا أن أمسوا سادة إمبراطوريّة شاسعة وثروة طائلة، لكن رغم هذا لم يكن للرومان قبل ذلك علم أو أدب يستحقّ الذكر، إلى أن بدؤوا في التحضّر على أيدي الإغريق، بعد أن أخضعوهم عسكريّاً واحتلّوا أثينا عاصمة بلادهم، التي صارت مقصداً لمثقّفيهم في سبيل متابعة دراستهم[١]. فلم تكن العلوم في روما في العصرين الملكي والجمهوري مزدهرةً، كما لم تهتم الحكومة بتزويد المواطنين بأيّة ثقافة عمليّة رفيعة، وكان نصيب الطلاب، وهم مواطنو المستقبل من الثقافة العلميّة، قليلاً جداً، لا يعدو ما يحتاجه هذا المواطن في حياته العمليّة من بعض المعلومات الأساسيّة في الحساب، وبعض قواعد الهندسة العلميّة التي تمكّنه من إنجاز تخطيط مزرعة أو معبد[٢]. والجدير بالذكر أنّ الشعب الروماني (قبل أخذه بأسباب الحضارة الإغريقيّة) كانت في ديانته وتقاليده وعاداته جوانب واضحة من السذاجة والبدائيّة، منها على سبيل المثال مسألة التشاؤم والتطيّر وما شابه ذلك من خرافات وشعوذة وموروث ثقافي يؤمن بالأموات الذين بوسعهم أن يتحكّموا بحياتهم[٣].

ولولا الحضارة الإغريقيّة التي تسرّبت إلى روما عبر المدن المستعمرات والمدن الإغريقيّة

---

[١]- شريف محمّد شريف، تطوّر الفكر الجغرافي، ج١، العصور القديمة، ط١، المكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة ١٩٦٩م، ص٣٧١.

[٢]- نور الدين حاطوم، صلاح مدني، أحمد طربين، نبيه عاقل، موجز تاريخ الحضارة، ج١: حضارات العصور القديمة، مطبعة الكمال، دمشق ١٩٦٥م، ص٦٢٠.

[٣]- شريف محمّد شريف، تطوّر الفكر الجغرافي، م.س، ص٣٧٢.

المنتشرة في صقليّة، وفي جنوب شبه الجزيرة الإيطاليّة لظلّ الشعب الروماني يرزح في ظلمات الجهل عصوراً طويلة. ولم ينكر جهابذة الفكر الروماني جميل الحضارة الإغريقيّة، فقد اعترفوا بدينهم لها، وهذا ما حمل الشاعر الروماني المشهور هوراس Horace على ترديد قول مأثور جاء فيه: «أسرت بلاد اليونان المنكوبة غالبها الهمجي». ودعا الخطيب والسياسي الروماني شيشرون Cicerone إلى القول حول المعنى نفسه: «لم يكن منشأ الفيض الذي أقبل من بلاد اليونان إلى مدينتا مجرى صغير بل كان منشؤه نهراً عظيماً»[١]

١. المدرسة والتعليم في روما

لا شكّ أنّ المدرسة هي باب الرقيّ والمستقبل الأفضل، إلاّ أنّ مهنة التدريس عند الرومان ظلّت مهنة وضيعة، فلم يكن ممتهنها موضع احترام أو تقدير، وإنّما موضع استخفاف؛ لأنّ هذه المهنة كانت الملجأ الأخير لمن تقطّعت بهم السبل وتدهورت بهم الحال، بعد أن كانوا سادة في قومهم، كسياسي منفي أو طاغية معزول مثل ديونيسيوسDionysius، الذي امتهن مهنة التعليم بعد أن تمّ عزله عن مُلك سيراكوزة. كما لم يكن يعمل في هذه المهنة سوى العبيد المحرّرين. ومن المرجّح أنّ السبب في عدم احترام المدرّس في المجتمع الروماني يعود إلى عدم ميل الشعب الروماني نحو العلوم، التي كانت ترهق عقلهم، وتسبّب لهم الكثير من الضجر. إنّ أكبر دليل على وضاعة مهنة المعلّم في المجتمع الروماني هو الأجر الذي يتقاضاه، فبينما كان المعلّم يتقاضى ثمانية آسات (as) عن كلّ تلميذ عنده في الشهر، كان العامل العادي في روما يتقاضى ديناراً كاملاً كأجر يومي لجهوده، ولذلك كان على المدرّس أن يدرّس فصلاً كاملاً مكوّناً من ثلاثين تلميذاً لكي يوفّر له حياة كريمة مثله مثل عامل عادي[٢].

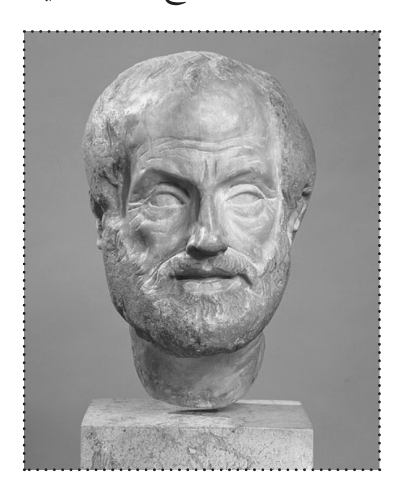
ومثلما كان حال المعلّم متردّياً، كذلك كان حال المدرسة، التي اقتصرت إسهاماتها على مبادئ المواد فقط. وقد أرجع بعض المؤرّخين تأسيس أوّل مدرسة في روما إلى القرن الخامس قبل الميلاد، بينما ذكر آخرون أنّ تأسيس أوّل مدرسة في روما تمّ سنة ٢٥٠ ق.م.

[١]- نور الدين حاطوم وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، ج١: م.س، ص٦٢٤.

[٢]- علي مؤمن إدريس مؤمن، الحياة الاجتماعيّة الرومانيّة خلال العهد الجمهوري (١٣٣ - ٢٧ ق.م) رسالة معدّة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، جامعة بنغازي، ليبيا ٢٠١٢م، ص٩٨.

وقد اعتبر عدد من المؤرّخين أنّ طلب المواطنين تدوين قوانين الألواح الاثني عشر ونشرها في سنة ٤٥٠ ق.م، دليلٌ قاطعٌ على معرفة المواطنين الرومان لمبادئ القراءة والكتابة نتيجة تعلّمهم في المدرسة. ومهما يكن فلا شكّ أنّ هذه الألواح القانونيّة تمثّل أوّل نصّ متكامل مدوّن باللغة اللاتينيّة. أمّا الأساتذة الذين كانوا يدرّسون في هذه المدارس في روما، فكانوا من العبيد-كما أسلفنا- أو من العتقاء الذين منَّ عليهم أسيادهم بالحريّة، إذ كانوا يقومون بتعليم القراءة والكتابة والنحو والحساب والتاريخ والشعر والخطابة، بالإضافة إلى دروس التربية الوطنيّة، التي كان الهدف منها أدلجة الشعب الروماني، وغرس الكبر والتغطرس في نفوس أبنائه، وتمجيد روما، وفرض الطاعة والنظام فيما بين الرومان، والتغنّي بحبّ التضحية والفداء والاستعداد للتفاني في سبيل روما[١].

أمّا عندما يصل التلميذ إلى الحادية عشرة من عمره، فيذهب إلى المستوى الثاني من التعليم، وهو التعليم الثانوي ليتسنّى له تعلّم اللغة اللاتينيّة تعليماً صحيحاً، وكان التلميذ خلال هذه المرحلة يتلقّى دروساً في التاريخ الروماني، يغلب عليها الطابع الأسطوري. كما كان الطفل الروماني الراشد يتعلّم اللغة الإغريقيّة، ومؤلّفات مشاهير الكتّاب الإغريق، وكانت تلك اللغة تساعده كثيراً في التخصّص بأحد الفروع العلميّة أو الأدبيّة. أمّا عندما يصل إلى سنّ السابعة عشرة فإنّه يصل إلى المستوى الثالث، ويتلقّى التعليم العالي على يد خطيب يعلّمه علم الكلام، الذي سيحتاج إليه عندما يمارس مهنة السياسة، فالخدمة العسكريّة واجبة وإلزاميّة على جميع أبناء الرومان، والخدمة العسكريّة تفضي لصاحبها الولوج في عالم المناصب السياسيّة بعد تسريحه من الجيش. وكان لا يقوم بمواصلة الدراسة بعد المرحلة الثانويّة إلاّ أكثر الرومان مالاً وميلاً للثقافة. وكان على الطلبة الرومان الراغبين في مواصلة دراستهم الذهاب إلى إحدى المدن الإغريقيّة لمتابعة تحصيلهم العلمي، بحكم



[١]- نور الدين حاطوم وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، ج١: م.س، ص٦٢٣.

أنّ تلك المدن كانت مركزاً علميّاً مشهوراً، كما هو الحال مع أثينا أو رودس[١].

فرغم عظمة روما العسكريّة إلاّ أنّها افتقرت إلى العلوم العلميّة، لا بل إنّ الرومان كانوا في حياتهم الفكريّة عامةً عالة على إنتاج مفكّري الإغريق، حتّى غدت اللغة اليونانيّة في روما لغة الأوساط الفكريّة والثقافيّة والعلميّة، ولا سبيل إلى التعمّق في دراسة أيّ علم من العلوم دون معرفة اللغة اليونانيّة[٢]. وقد أدرك الرومان أنّ التطوّر العام للتعليم عند الرومان في عصور متأخرة كان نتاجاً واضحاً لاحتكاكهم بالثقافة الإغريقيّة، ومع ذلك ظلّ عدد غفير من الرومان غير مبالين بإنشاء أيّ نظام تعليمي موحّد في الإمبراطوريّة الرومانيّة، فكلّ أب يوجّه أبناءه لتلقّي التعليم في المكان الذي يرغب فيه، في حين كان الطاقم التعليمي جلّه من الإغريق[٣].

وقد استخدم الرومان أوراق البردي مادّة للكتابة في مدارسهم، بعد أن اقتبسوا استخدامه عن الإغريق الذين اقتبسوه بدوره عن مصر، وأطلقوا على البردي الخام اسم Charta. أمّا بالنسبة للفائف البردي فقد أطلق عليها اسم Volumen، وبدأ يظهر في الأسواق تدريجيّاً عدد كبير من أصناف البردي، عُرف بعضها بأسماء حكّام رومان. وكانت روما تستورد أوراق البردي من مصر بصورة أساسيّة، وكان البطالمة يتقاضون ضريبة باهظة على تصدير هذه الأوراق إلى روما. أمّا مادة الكتابة للمنشورات الرسميّة فكانت ألواح الخشب، وكان استخدامه أمراً شائعاً عند الرومان منذ وقت مبكّر من تاريخهم، وقد كان الاسم اللاتيني للوح الخشبي المخصّص للكتابة هو الكراس Codex، أمّا طريقة الكتابة على ألواح الخشب؛ فتتمّ عن طريق تغطية اللوح بطبقة من الشمع، ثمّ الكتابة عليها بواسطة قلم معدني Stitus، وقد طوّر الرومان هذه الألواح لتستوعب كمّيات كبيرة من النصوص[٤]. وتجدر الإشارة إلى أنّ دُروس الأدب عند الرومان كانت تكتب أيضاً على لوحات خشبيّة تطلى بطبقة من الشمع، حيث يوجد لوح كتابي محفوظ في المتحف البريطاني يرجع إلى القرن الثاني الميلادي،

[١]- علي مؤمن إدريس مؤمن، الحياة الاجتماعيّة الرومانيّة، م.س، ص٩٦.

[٢]- نور الدين حاطوم وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، ج١: م.س، ص٦٢٤.

[٣]- علي مؤمن إدريس مؤمن، الحياة الاجتماعيّة الرومانيّة، م.س، ص٩٦.

[٤]- سها بشير أحمد عبد العال، الكتاب في الحقبة اليونانيّة الرومانيّة، جامعة بهنا ٢٠١٩م، ص ١٣- ١٥.

ورغم أنّ حالته غير جيّدة، إلاّ أنّه يحتفظ بسطرين من الشعر للشاعر ميناندروس[١].

أمّا الكتب فإنّها لم تظهر في روما إلاّ بعد أن غزت الكتب اليونانيّة تلك العاصمة بعد أن رحل تجّار الكتب إليها، كما نشط نسخ الأعمال الخاصّة بالمؤلّفين الإغريق، وكان يطلق على تاجر الكتب اسم Bibliopola، الذي كان يستعين بجملة من العبيد النسّاخ المدرّبين. وقد انتشرت حوانيت الكتب في كلّ روما، وكانت تنتشر في أكثر الأحياء ثراء، ومن الظواهر النادرة في تاريخ الكتاب في روما أنّ قوائم بأسماء مؤلّفيها كانت تعلّق على مدخل هذه الحوانيت وأعمدتها. وكان تجّار الكتب الرومان يسمحون بقراءة الكتب النادرة والقيّمة مقابل أجر يتقاضونه وفق نظام استعارة منظّم. ولا شكّ أنّ هذه الكتب كانت تعاني في نسخها من بعض الأخطاء، ما جعل شيشرون يعنّف ناشر كتبه أتيكوس على سبيل المثال[٢].

٢. علم الفلك

لقد كانت للجوانب الغيبيّة أثرها العميق في الشعب الروماني لدرجة أنّ تأثيرها ظلّ طويلاً في نفوسهم، أبرزها تجلّى في علم الفلك، فحتّى بعد أن بلغ الرومان ذروة المجد، واحتلّوا كثيراً من أقطار البحر المتوسط، إلاّ أنّ الجنود الرومان كانوا يخشون المظاهر الفلكيّة، ففي أثناء خسوف القمر يحدثون نوعاً من الضوضاء بالنفخ في الأبواق، وبقرع الطبول لتخليص القمر وتحريره من السحر[٣]. وهكذا تخلّف الرومان كثيراً في مجال علم الفلك، فطوال العصرين الملكي والجمهوري لم يبدعوا شيئاً فيه، لا بل اقتصرت منجزاتهم على تقويم مليء بالأخطاء العلميّة[٤]. غير أنّ ما يثير المزيد من العجب، وكثيراً من الدهشة، أن نسمع أنّه في سنة ١٦٨ ق.م قامت تحذيرات جاللوس Gallus (وكان أحد الدارسين الأذكياء لعلم الفلك) للجيش قبل المعركة على خسوف القمر، الذي تنبأ أنّه سيحدث في الليلة التالية[٥].

---

[١]- مصطفى محمد زايد، التعبير عن التعليم في الفنّ اليوناني والروماني، بحث معدّ لنيل درجة الدكتوراه في الآداب، جامعة طنطا ٢٠٠١م، ص١١٢.

[٢]- سها بشير أحمد عبد العال، الكتاب في الحقبة اليونانيّة الرومانيّة، م.س، ص ٤٣.

[٣]- شريف محمّد شريف، تطوّر الفكر الجغرافي، م.س، ص٣٧٢.

[٤]- نور الدين حاطوم وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، ج١: م.س، ص٦٢١.

[٥]- شريف محمّد شريف، تطور الفكر الجغرافي، م.س، ص٣٧٢.

أمّا الفلكي كليمنت الإسكندراني فكان ينظر إلى المعبد على أنّه يمثّل الكون ومحتوياته، حيث تخيّل أنّ الشمس عبارة عن مصباح موضوع في وسط الكوكب، وتخيّل الأشكال الذهبيّة للنجوم بأنّها مؤلّفة من الدبّ الأكبر والأصغر، واعتقد أنّ السفينة الذهبيّة في السماء هي المنطقة التي توجد فيها الأقمار وتسكن فيها الآلهة[١]. ورغم أنّ بعض علماء الفلك في عصر الإمبراطوريّة الرومانيّة علموا بالحقيقة الجوهريّة، وهي كرويّة الأرض، غير أنّهم استمرّوا في إشاعة فهمهم الخاطئ بأنّ الأرض في مركز الكون، وأنّ الشمس تدور في فلكها[٢]. أمّا أوغسطين Augustine فقد اقترح فرضيّات أكثر غرابة عن الأفلاك، وهي أنّ الماء موجود فوق القبّة السماويّة، وأنّ كوكب زحل هو كوكب ساخن وليس بارداً لقربه من الماء الموجود في القبّة السماويّة، بل هو أشدّ حرارة من الشمس؛ لأنّه يقطع خلال النهار مسافات شاسعة جداً، والماء موجود لكنّه يتحوّل لبخار[٣].

٣. الحساب

لقد كان على التلاميذ الصغار عند الذهاب إلى المدرسة تعلّم مبادئ الحساب، فموضوع حفظ أسماء الأرقام الرومانيّة كان يعدّ موضوعا أساسيّاً في المدرسة الرومانيّة، كما هو الحال في نظام التعليم اليوناني، وكان الرومان يستعينون في تعليم أطفالهم مبادئ الحساب بمجموعة من المشتغلين بمهنة الإحصاء، وإحصاء السكّان في روما كان يعدّ ركناً أساسيّاً من العمليّة السياسيّة والإداريّة في البلاد التي نصّ عليها الدستور. ومهما يكن من أمر فقد تمّ استخدام طريقة العدّ على الأصابع في المدارس الرومانيّة للعدّ من الواحد إلى العشرة، كما تعلّم التلاميذ كتابة الأرقام الرومانيّة، ويذكر عدد من المؤرّخين أنّ طريقة العدّ على الأصابع هي من إبداع الرومان، لكنّ هذا الرأي عار عن الصحّة تماماً، بدليل ورود هذه الطريقة على رسوم الفخار اليوناني منذ نهاية القرن السادس وبداية القرن الخامس قبل الميلاد، لا بل إنّ العكس هو الصحيح، فالرومان نقلوا هذه الطريقة عن اليونان كما نقلوا غيرها من معارف مختلفة[٤].

---

[١]- مخلص الريّس، موسوعة أعلام الفلك والفيزياء، ط١، وزارة التعليم العالي، سلسلة كتاب الأدب العلم، منشورات جامعة دمشق، أيار ٢٠١٥م، ص٩٨.

[٢]- شريف محمّد شريف، تطوّر الفكر الجغرافي، م.س، ص٣٧٥.

[٣]- مخلص الريس، موسوعة أعلام الفلك والفيزياء، م.س، ص٩٨، ٩٩.

[٤]- مصطفى محمّد زايد، التعبير عن التعليم في الفنّ اليوناني والروماني، م.س، ص١١٦.

لقد أدّت تلك البداية المتواضعة في تعليم الحساب، القائمة على العدّ على أصابع اليد، إلى قيام الأستاذ بتعليم طلابه النظام العشري القائم على أجزاء العشرة ومضاعفاتها[١]، وتدريب التلاميذ على العمليّات الحسابيّة الأربع (الجمع، الطرح، الضرب، القسمة)، وكذلك تعليمهم الكسور العشريّة، وهكذا يتبيّن أنّ التلاميذ الرومان كانوا قادرين على جمع الكسور العشريّة وطرحها، لكنّ الأمر كان غاية في الصعوبة، ويحتاج إلى ذاكرة قويّة، لأنّ الكسور في اللغة اللاتينيّة لم تكن أرقاماً، وإنّما يتمّ التعبير عنها بواسطة الألفاظ. وقد ابتدع الرومان طريقة طريفة لتعليم الحساب في عصر الإمبراطورية الرومانيّة تقوم على الغناء، حيث يصف أوغسطين فترة تعلّمه في الطفولة خلال القرن الأوّل الميلادي، ويذكر لنا أغنية الطفولة «واحد وواحد اثنان، اثنان واثنان أربعة» وهذه الأغنية كانت تعلّم دون شكّ للمبتدئين من التلاميذ لتحبّبهم في تعلّم الحساب[٢]. وبالمجمل كانت مهمّة المعلّم شاقّة في تدريس المبادئ الأوليّة والقواعد الأساسيّة لعلم الحساب؛ وذلك لأنّ قوّة التجريد ضعيفة عند الشعب الروماني، وهكذا كانت عقليّة الرومان قاصرة على التفكير في الرياضيّات كالقياس والعدّ. وبالتالي كان الرومان في الرياضيّات العليا مقلّدين أكثر منهم مبتكرين، كما كانوا بصورة عامّة في جميع ميادين الحياة الفكريّة الأخرى[٣].

٤. الجغرافيا

أمّا في مجال علم الجغرافيا، فقد ظلّ الرومان طويلاً يذكرون أوصافاً لبعض البلاد والشعوب، ويكتبون عاداتهم وتقاليدهم، ولكن كان من الصعب عليهم أن يمارسوا النظريّة الجغرافيّة، وعلى سبيل المثال نذكر أنّ يوليوس قيصر Julius Caesar وجد أنّ الليالي في بريطانيا أقصر منها في إيطاليا وجنوب أوروبا، وقد عرف ذلك عن طريق استخدام ساعة مائيّة، ولم يستطع تعليل ذلك جغرافيّاً. كما أنّ قيصر لم يستطع أن يجد تعليلاً منطقيّاً وعلميّاً، أو أن يدرك شيئاً جغرافيّاً عن الجُزر الواقعة في تلك المناطق النائية شمالاً، وهي التي ذكر

[١]- نور الدين حاطوم وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، ج١: م.س، ص٦٢١.

[٢]- مصطفى محمّد زايد، التعبير عن التعليم في الفنّ اليوناني والروماني، م.س، ص١١٦.

[٣]- نور الدين حاطوم وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، ج١: م.س، ص٦٢١.

عنها البعض أنّ ليل شتائها يبلغ طوله شهرا[١]. وتجدر الإشارة إلى أنّ أطر علم الجغرافيا لم تكتمل إلّا مع سْترَابُون Stabo من خلال مؤلّفه الجغرافيا، فرغم أنّه عاش في روما (في أواخر القرن الأوّل قبل الميلاد وأوائل القرن الأوّل الميلادي) إلّا أنّه لم يكن رومانيّاً، بل يوناني، ولد في مدينة أماسيا Amasia في مملكة البونت Pontus على ساحل البحر الأسود، كما كان يونانيّ الثقافة والتعليم مثلما كان يونانيّ العرق، سافر إلى روما وهناك كتب مؤلّفه الشهير الجغرافيا، دوّن مؤلّفه ربمّا عام ١٨م، وقد اعتمد على الجغرافيين الإغريق الذين سبقوه، من أمثال إرَاتُوسْثِينِس Eratosthenes وهيبَّارْخُوس Hipparchus النيقي (توفيّ سنة ١٢٥ ق.م). ورغم أنّ هيبَّارْخُوس كان من الذين وضعوا فرضيّاتهم في علم الفلك والجغرافيا على أساس علمي رياضيّاتي، إلّا أنّ معلومات غريبة تنسب له تحدّث فيها عن شعوب بشعة الصورة قبيحة المنظر، دميمة الخلقة، لبعضها رؤوس كلاب، وبعضها الآخر من دون رؤوس[٢]. وبالعودة إلى سْتَرَابُون تجدر الإشارة إلى أنّه لم يتحلّ بالنزاهة العلميّة، بل كان ميّالاً للرومان على حساب الحقائق التاريخيّة، فهو يصف الفينيقيين بأنّهم كانوا يقومون بأعمال القرصنة، ولمّا كانت الحملة الرومانيّة على اليمن سنة ٢٤ ق.م، من أهمّ الأحداث التي أرخّ لها، أتت بعض كتاباته متحيّزة، لا تخلو من عنصريّة لروما، حيث برّر فشل الحملة الرومانيّة على اليمن مدّعياً بخيانة صالح وزير الأنباط الذي كان دليلاً للحملة[٣].

إنّ جهود سترابون قد عابها الكثير على المستوى الجغرافي، وكذلك لم ترقَ جهود من أتى بعده إلى المستوى المطلوب، فمن يطالع ما كتبه كلمينسرومانوس Clemens Romans سنة ٩٦م، يدرك حجم الإسفاف في الفكر، فقد ادّعى أنّ للأرض نقيضاً يقع على الطرف الآخر منها، وأنّه لا أحد من البشر يستطيع الاقتراب من هذا النقيض أو الدخول فيه، كما يتعذّر على أيّ من سكّان ذلك النقيض العبور إلينا، أو أن يعبر أحد سكّاننا إليهم. بينما كان لاكتانتيس Lactanteus أحد أشهر رجال الفكر الرومان في القرن الرابع الميلادي من أشدّ المعارضين لفكرة كرويّة الأرض أو استدارتها، وكان في كتاباته يسفّه كلّ الفلاسفة الذين كانوا يقولون

---

[١]- شريف محمّد شريف، تطور الفكر الجغرافي، م.س، ص٣٧٣.

[٢]- شريف محمّد شريف، تطوّر الفكر الجغرافي، م.س، ص٣٧٦.

[٣]- انظر ما كتبه سترابون عن الحملة الرومانيّة على اليمن: سْتَرَابُون، الجغرافيا، الكتاب ١٦، الفصل ٤، الفقرة ٢٢، ٢٣، ٢٤، ترجمة حسان إسحق، منشورات دار علاء الدين، دمشق ٢٠١٧م.

بكرويّة الأرض؛ لأنّه حسب رأيه لا يمكن أن تكون السماء أخفض من الأرض[١].

٥. الطبّ

لقد استمرّ الرومان طيلة القرون الأولى من تاريخهم وحتّى القرن الثالث قبل الميلاد لا يعرفون من الطبّ سوى نواح بدائيّة لا تعدو التداوي ببعض الأعشاب أو بالرقى والتمائم والسحر وترويج فكرة أنّ الآلهة وحدها هي التي تبلُّ المريض ممّا نزل به من داء. والأغرب من ذلك اعتقادهم أنّ بوسع كلّ من آلهتهم أن يمنّ عليهم بالشفاء من داء واحد معيّن، وأنّه لا جدوى من الابتهال إليه لشفاء مريض مصاب بمرض ثان، بل على المريض التماس الشفاء من الإله الآخر المختصّ. وكالعادة اقتبس الرومان عبادة إله الطبّ عند الإغريق، وهو أسكلبيوس Asclepios، وأقاموا له هيكلاً أو معبداً بمثابة مشفى. ويبدو أنّ هذا الإله دخل إلى روما برفقة الأطبّاء الإغريق الذين يمّموا وجههم شطر العاصمة الرومانيّة ليعملوا بها منذ نهاية القرن السادس قبل الميلاد، لكن وجد إلى جانب هؤلاء الأطبّاء الإغريق عدد من الدجّالين من فئة العبيد مارسوا مهنة الطب. واشتدّت هجرة الأطبّاء الإغريق إلى روما منذ نهاية القرن الثالث قبل الميلاد، وكانوا في هذه المرّة من فئة الأحرار، وذكروا أنّ طبيباً إغريقيّاً من شبه جزيرة البيلوبونيز، اسمه أرشجاتوس Archagathus، كان يمارس الطبّ في روما سنة ٢١٩ ق.م، ونال هذا الطبيب الجرّاح إعجاب أعضاء مجلس الشيوخ الروماني لنجاحه في كثير من عمليّات الجراحة، لدرجة دفعتهم أن يطالبوا من الحكومة بمنحه دار سكن ليعالج فيها مرضاه، ومنحه حقوق المواطنة الرومانيّة. وقد زاد عدد الأطبّاء الذين أمّوا روما في القرن الثاني لممارسة مهنة الطبّ لدرجة أنّ هؤلاء احتكروا ممارسة هذه المهنة في العاصمة الرومانيّة[٢].

ولمّا استولى الرومان على بلاد اليونان، هاجر عدد أكبر من الأطبّاء اليونان إلى روما، واشتهروا فيها، وكان منهم اسقليبياذس، صديق الخطيب الروماني الشهير شيشرون، وعاش في القرن الأوّل قبل الميلاد، ومن أشهر مؤلّفاته كتاب (طبّ النساء) وفيه يشرح طريقة استعمال المنظار النسائي شرحاً يتّفق وطريقة استعماله في العصر الحاضر. ثمّ

[١]- مخلص الريّس، موسوعة أعلام الفلك والفيزياء، م.س، ص٩٨.

[٢]- نور الدين حاطوم وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، ج١: م.س، ص٦٢٢، ٦٢٣.

ظهر هليودوروس، وروفس، وأنتيليوس (في القرنين الأوّل والثاني الميلاديين) فأغنوا علم الجراحة بآراء جديدة، وأغنوا المداواة في مختلف فروعها، وقد دوّنت جميع تصانيفهم باللغة اليونانيّة بحكم أنّها لغة العلم في حينها[١]. أمّا ما كتب باللغة اللاتينيّة في مجال علم الطبّ الروماني، فأفضله مؤلّفات كورنيليوسسليوس إذ كان الطبيب الوحيد من أصل روماني، وقد جمع هذا الطبيب نتاجه العلمي وكلّ ما درسه من علوم مختلفة (في الزراعة والخطابة والحرب والقانون والفلسفة والطبّ)، نحو منتصف القرن الأوّل الميلادي، في دائرة معارف فريدة، لكن ضاع كلّ ما كتبه إلّا القسم الخاصّ بالطبّ. ويُعدّ كتابه في هذا الاختصاص أعظم مؤلّف وصل إلينا من القرون الستّة الفاصلة ما بين عهد أبقراط وعهد جالينوس. ويمتاز كتابه بأنّه كتب باللغة اللاتينيّة الفصحى النقيّة، حتّى أنّه لقّب بـ (شيشرون الطبّ). ولقد باتت الأسماء اللاتينيّة التي تُرجمت بها المصطلحات الطبيّة اليونانيّة شائعة في علم الطبّ حتّى يومنا هذا. ويدلّ هذا الكتاب على أنّ صاحبه كان على علم واسع بالأمراض السارية، فهو يصف الجراحات بجلاء ووضوح، وفيه أقدم وصف معروف للأربطة؛ كما يصف عمليّة قطع اللوزتين، وعمليّة استخدام حصاة المثانة بشقّ الجانب، ويصف جراحة التجميل (التي كانت تدعى الترقيع)، وعمليّات إظلام عدسة العين. وقد ضيّعت أوروبا هذا الكتاب الثمين خلال العصور الوسطى، ثمّ عادت وعثرت عليه في القرن الخامس عشر، فأعيد طبعه قبل أن تطبع كتب أبقراط وجالينوس، وكان له شأن عظيم في إحياء علم الطبّ في العصر الحديث[٢].

ورغم كلّ ما تقدّم، بقي علم الطبّ عند الرومان مختلطاً بالأسطورة، فالمرض هو لعنة وعقاب، وأنّ الشفاء بيد الآلهة، وشاهدنا هو حديث فرجيل الشاعر الروماني المشهور الذي عاش في زمن أغسطس، ففي حديثه في الإنياذة عن انسحاب إينياس من طروادة وذهابه إلى إيطاليا، يخبرنا أنّ جرحاً بسهم أصاب إينياس على أثر صراع نشب بينه وبين اللاتين، وعجز الطبيب يافس عن معالجته، فهبّت أمّه الربّة فينوس، بعد أن أخفت وجهها وأخذت منديلاً غمسته بالماء ثمّ رشّته هناك مع العنبر والدواء، ولم يفطن يافس لما حدث، فاستعمل الماء

[١]- جوزيف كلاّس، مسيرة الطب في الحضارات القديمة، قدّم له الدكتور شاكر مصطفى، دار طلاس للدراسات والترجمة النشر، دمشق ١٩٩٥م، ص٢٢٠.

[٢]- جوزيف كلاّس، مسيرة الطب في الحضارات القديمة، م.س، ص٢٢٠.

الشافي وسرعان ما توقّف الألم وجفّت الدماء ولفظ الجسد السهم خارجاً دون أن يسحبه رجل، وعادت إلى إينياس قواه السابقة، وهناك قال يافس له: «لم يشفك فنّي يا بني، بل إنّ الأرباب يدعونك لمهمّتك»[١].

لقد بقي علم الطبّ عند الرومان دون المطلوب، وفشل في مناسبات كثيرة في التصدّي للأوبئة التي كانت تفتك بأبناء الإمبراطوريّة الرومانيّة، ففي أعقاب غزو الرومان بقيادة فيروس Verus لبلاد الفرس في سنة ١٦٦م، فشلت الحملة بسبب تفشّي وباء فتّاك في الجيش الروماني، لكنّ الكارثة الكبرى تمثّلت في عودة أعداد كبيرة من الرومان باتجاه بلادهم، حيث نشروا الوباء في ربوع الإمبراطوريّة الرومانيّة حتّى أنّ الوباء وصل إلى بريطانيا غرباً، فغالباً ما كان يقضي في روما وحدها أكثر من ألف شخص في اليوم الواحد، كما مات عدد غفير من أشخاص آخرين، ليس في العاصمة فحسب، بل في جميع أرجاء الإمبراطوريّة، لا بل إنّ فيروس نفسه قضى نحبه بسبب هذا الوباء دون أن يتمكّن أطباء روما من إنقاذ حياته أو حياة غيره[٢].

وتجدر الإشارة إلى أنّ توافد الأطبّاء على العاصمة روما قد استمرّ، ومن كافّة أنحاء الإمبراطوريّة الرومانيّة المترامية الأطراف، وكان منهم الدجّالون، ومنهم مدّعو الطب أو الأطباء الهاذرون الثرثارون، ومنهم قاطعو الأعشاب، ومنهم بائعو الأدوية المتجوّلون، ومنهم تجّار الرقيق، ومنهم جرّاحو الجيش الذين سبق لهم أن عملوا في فرق وفيالق القوّات المسلحة، ومنهم النساء الحكيمات، ومنهم الحجّاب، ومنهم خدم الحمامات أصحاب الخبرات الواسعة في فنّ التدليك، طبعاً إلى جانب أطبّاء البلاط. ولكن عندما ألمَّ مرض بمعدة الإمبراطور ماركوس أوريلوس (١٢١- ١٨٠م)، لم يفلح أحد من هؤلاء الأطبّاء في روما في علاجه، ما دفعه لاستدعاء الطبيب الإغريقي جالينوس لعلاجه، فأثار بذلك غضب أطبّائه الرومان؛ لأنّه بخطوته تلك فضح جهلهم المطبق. ورغم كلّ اهتمامات الرومان بالصحّة العامّة، وكلّ تدابيرهم المتّخذة لمكافحة الأمراض، لم تستطع في ظلّ غياب

[١]- أسامة عدنان يحيى، السحر والطبّ في الحضارات القديمة، دراسة تاريخيّة مقارنة، دار آشور بانيبال، نينوى ٢٠١٥م، ص٣٣٩.

[٢]- أبو بكر سرحان، أثر الأوبئة والأمراض على الإمبراطورية الرومانيّة (الطاعون الأنطوني أنموذجاً ١٦٥- ١٩٠م)، مجلّة كليّة اللغة العربيّة، العدد ٣٤، د.ت، ص٣٠٩٠، ٣٠٩١.

المعرفة العلميّة الطبيّة للأمراض أن تدرأ خطر الأمراض السارية والأوبئة والكوارث الطبيّة التي هدمت الإمبراطوريّة. لقد بدأ الانهيار واستمرّ بالفعل عندما شفى جالينوس الألم الذي ألمّ بمعدة الإمبراطور[١].

ثانياً: الأسس العمليّة التي قامت عليها الحضارة الرومانيّة

لقد اعتمد الرومان في بناء حضارتهم الماديّة على كثير من الأسس العمليّة التي اقتبسوها عن الأتروسكيين، والأتروسكيّون من الأقوام التي ترجع في أصولها البعيدة إلى الشرق القديم، وقد توطّنت في شبه الجزيرة الإيطاليّة قبل الرومان[٢]. لقد كان الأتروسكيّون بالنسبة للشعوب الإيطاليّة المعاصرة لهم أقليّة أرستقراطيّة تمتّعت بتفوّق حضاري كبير، وتنظيم عسكري مكّنهم من فرض حكمهم ولغتهم على الشعوب التي أصبحت تابعة لهم. وقد عمد الأتروسكيّون في تعاملهم مع هؤلاء الأتباع على إبقائهم في مركز التبعيّة، ولم ينصهروا معهم اجتماعيّاً، بل استغلّوا قواهم البشريّة وجهودهم لتدعيم قوّتهم العسكريّة[٣].وبعد أن انتصر الرومان على شعوب شبه الجزيرة الإيطاليّة بما فيهم الأتروسكيّون، اعتمد عليهم الرومان كثيراً في بناء أسس العمليّة لحضارتهم الماديّة ولاسيّما في ميداني الزراعة والصناعة.

١. الزراعة

لقد كان الشعب الروماني شعباً زراعيّاً، لكنّه لم يكن صاحب خبرات عميقة، بل اعتمد على الغيبيّات في هذا العمل، كما اعتمد عليها في غيره من اختصاصات. لقد اشترك عدد كبير من كبار الآلهة في الحياة الزراعيّة، حيث ظهرت آلهة الزراعة والرعي والمياه مبكرّة عند الرومان مثل فاونوس وكنوس وباليس والإلهة الأم تيلوسوكيريس وغيرها من الآلهة التي اختصّت بالزراعة، ومعظم الآلهة الكبار كانوا من أصول زراعيّة، فقد كان الإله جوبيتر الإله القومي للشعب الروماني إلهاً للأمطار والرعود، وإنّ مارس نفسه إله الجيش والحرب بدأ

[١]- جوزيف كلاّس، مسيرة الطب في الحضارات القديمة، م.س، ص٢٠٩.

[٢]- محمّد محفل، محمّد محفّل، تاريخ الرومان، تاريخ إيطاليا وروما حتّى عصر الفتوحات الكبرى، سلسلة تاريخ الرومان، مطبعة غندور، بيروت ١٩٧٤م، ص١١٣.

[٣]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج١، في العصور الملكيّة الجمهوريّة الإمبراطوريّة حتّى عهد الإمبراطور قسطنطين، دار الفكر الحديث، لبنان ١٩٦٧م، ص٥٤.

مهامه كحام للأراضي الزراعيّة ومحاصيلها. وكان نبتونNeptune إله الينابيع العذبة (قبل أن يصبح إلهاً للبحر). واهتمّت الربّة فينوس بالرعي فكانت إله الرعاة بالإضافة لكونها ربّة الجمال عند الرومان، بينما ارتبط الإله ساتورنوس بالزراعة والحراثة، وقد حملت هذه الآلهة فيما بعد وظائف كونيّة ورمزيّة عظمى بسبب تعلّق الناس بها[١]، واشتمل اسم ساتورنوس من كلمة ساتا التي تعني الأرض (الأراضي المزروعة)، وكانت الأموال والنقود تحفظ في خزينة الدولة الموجودة في معبد الإله ساتورنوس، وكانت وارداتها تأتي من الضرائب المفروضة على الولايات الخاضعة لمجلس الشيوخ الروماني[٢].

وفي الوقت الذي كان فيه الرومان يغرقون في جهلهم، كان الأتروسكيّون مبدعين في مجال الزراعة على أسس علميّة وعمليّة، فهم أوّل من استصلح أرضي أتروريا؛ لقد اشتهرت بخصوبتها منذ القدم سواء في مجال زراعة الحبوب أو من ناحية زراعة الأشجار والخضار، وذلك بتجفيف مستنقعاتها (مستنقعات ماريم Maremme الساحليّة)، وقطع غاباتها، كما عملوا على حماية تربتها من الانجراف ببناء الأنفاق والسدود في المناطق المهددة، وأنشؤوا في قراهم التي عمّروها نظاماً متطوّراً للريّ، وأوجدوا في مدنهم نظاماً مبتكراً للمجاري المائيّة لم يكشف-حتّى الآن- عمّا يماثله في بلاد اليونان في ذلك العصر نفسه. كما أنشأ المهندسون الأتروسكيّون مجاري مائيّة تحت الأرض يسير فيها ما زاد من مياه البحيرات، وطرقاً في الصخور والتلال[٣]. كما ينسب إليهم المؤرّخون كثيراً من المنجزات البارزة في مجال علم الزراعة وتربية الخيول وزراعة الكرمة[٤]. حتّى إنّه لم يكن بوسع المرء أن يشاهد حقولاً غير مستثمرة في أتروريا، وكانت الحبوب الفائضة فيها تصدّر إلى روما منذ القرن الخامس قبل الميلاد، وخاصّة في سني القحط، ويعلّل المؤرّخون تقدّم الأتروسكيين في مجال علم الزراعة بعلاقتهم مع الشرق القديم ومع قرطاجة، ومن المعروف أنّ الزراعة قامت لدى القرطاجيين على أسس ومناهج علميّة ومتطورّة، ولقد اشتهر المهندسون والخبراء

[١]- خزعل الماجدي، المعتقدات الرومانيّة، ط١، دار الشروق، عمان ٢٠٠٦م، ص١٥٥.

[٢]- محمّد الميداني، الحياة الاقتصاديّة في سورية في العصر الروماني ٦٤ ق.م – ٣٠٥م، أطروحة معدّة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ القديم، جامعة دمشق ٢٠١٥م،ص٣٤٢.

[٣]- ول ديورانت، قيصر والمسيح أو الحضارة الرومانيّة، ج٢، مج٣، ترجمة: محمّد بدران، بيروت ١٩٨٨م،ص١٣.

[٤]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج١، م.س، ص٥٨.

القرطاجيّون بمهارتهم الفنيّة، ولعلّ أشهرهم كان القائد القرطاجي ماغو (القرن الثاني قبل الميلاد) الذي وضع موسوعة زراعيّة من ثمانية وعشرين جزءاً، ظلّت ذائعة الصيت طوال العهد القديم، ممّا جعل مجلس الشيوخ الروماني يأمر بالعمل على نقلها إلى اللغة اللاتينيّة، كما أنّه تمّ نقلها إلى اللغة اليونانيّة[١].

وهكذا بدأ الرومان ببناء خبرتهم في مجال الزراعة على ما اقتبسوه من الأتروسكيين بعدما أخضعوهم، فحتّى الخطيب الروماني الشهير كاتوCato الذي شغل منصب مراقب في سنة ١٨٤ ق.م في روما، وكان من أهمّ الشخصيّات التي اهتمّت بالزراعة بوصفها العمل الأصلي للشعب الروماني، اعترف بأنّ مؤلّفه عن الزراعة De AgriCultura، (وهو أوّل مؤلّف لاتيني في مجال هذا الاختصاص، حيث كتب نثراً باللغة اللاتينيّة، كما أنّه الكتاب الوحيد الذي وصلنا كاملاً)، قد اعتمد فيه على موسوعة القرطاجي ماغو. ورغم ذلك لم يرتق الناقل إلى مرتبة المنقول منه، فمؤلّفه ليس كتاباً تعليميّاً عن الزراعة، وإنّما يتضمّن تجارب كاتو الحياتيّة وخبراته، بالإضافة إلى تجارب معاصريه وكثير من الأمور العمليّة، حيث يرى أنّ أفضل مردود يتأتّى من زراعة الكرمة والزيتون، ويؤكّد لنا أنّه اعتمد على مؤلّف قرطاجي في هذا الموضوع اطّلع عليه من خلال زيارته لقرطاجة، التي كان من أكبر أعدائها، حيث لا ينسى التاريخ مقولته المشهورة التي كان يستهلّ فيها خطاباته في مجلس الشيوخ الروماني «يجب أن تدمّر قرطاجة».

وتجدر الإشارة إلى أنّ دراسة الدين عند الرومان تقدّم الكثير من المعرفة عن الزراعة عند الرومان، ولـمّا كانت حياة الروماني القديم العاديّة حياة فلاّح، فقد رافقت العبادة المنزليّة بالضرورة عبادة لمنفعة الأملاك، الهدف منها المحافظة على المواشي والبذور والحصائد وازدهارها، ولدينا بهذا الصدد فيما كتبه كاتو في فنّ الزراعة تفاصيل عديدة دقيقة عن الأعياد الواجب الاحتفال بها، والذبائح الواجب تقديمها، والصلوات الواجب تأديتها، وتطواف الحيوانات الواجب تنظيمها حول الأملاك، فكلّ عمل من أعمال الحياة الزراعيّة يجب أن يرافقه عمل ديني يلتمس نجاحه أو يحاول تهدئة غضب إله المكان، فقبل القطاف مثلاً يتمّ تقديم نبيذ وأمعاء خنزيرة لـ (سيريس) ونبيذ وبخور ونوع مختلف من الحلوى يضاف إلى

[١]- محمّد محفل، تاريخ الرومان، م.س، ص١٣١، ١٣٢.

كلّ منها لـ (جاس) وجوبتير، ولتخفيف شجر الغابة أو الشروع بإحياء الأرض يتمّ التضحية بخنزير، وكان يتولّى تقديم هذه القرابين فرد من الأفراد، بوصفه ربّ العائلة في العبادة المنزليّة، وفي الوقت نفسه كان يسهم في الازدهار الاجتماعي؛ حيث اقتنع كاتو بأنّ المواطن الفاضل هو حين يقوم بواجبه كمالك فاضل[١].

ورغم ما تقدّم بقيت الزراعة في إيطاليا بعد أن خضعت لروما دون المستوى المطلوب، فالسياسة الرأسماليّة التي انتهجتها روما في إيطاليا أضرّت بالزراعة، وتسبّبت في تراجعها، بينما كان انفجار بركان فيزوف سنة ٧٩م الضربة القاسمة التي تلقّتها الزراعة في إيطاليا، حيث أسهم انفجار هذا البركان في دمار عشرات المزارع في إيطاليا، كما أسهمت الأزمات السياسيّة، والحروب الأهليّة، وما رافقها من تجنيد لأبناء الفلّاحين، خلال القرن الأخير من عصر الجمهوريّة الرومانيّة، في دمار شامل للزراعة في إيطاليا. ولمّا كانت الزراعة في إيطاليا تتمحور حول زراعة العنب وإنتاج النبيذ، صار بوسع الولايات الرومانيّة أن تنتج نبيذاً أجود وأقلّ كلفة من النبيذ الإيطالي، ممّا أسهم في اضمحلال الصناعة والتجارة في إيطاليا، وكان هذا معناه حلول الفقر والفاقة تدريجيّاً بطوائف البرجوازيّة من سكّان المدن، هذه الطبقة التي كانت الدعامة القويّة التي قامت عليها الزراعة الفنيّة. وهذا يفسّر استمرار انهيار طبقة المزارعين في إيطاليا وزحف الرأسماليين الجدد على أراضيهم وأملاكهم العقاريّة، ولم تتوقّف هذه العمليّة في القرن الثاني الميلادي[٢].

وبعد أن استقرّت الظروف السياسيّة في الدولة الرومانيّة بعد نهاية الحرب الأهليّة، واستولى أغسطس على السلطة، وقلب النظام السياسي إلى نظام الحاكم الفرد (النظام الإمبراطوري)، شهدت الحالة العامّة نوعاً من الاستقرار النسبي طوال العصر، الذي اصطلح المؤرّخون على تسميته بعصر السلام الروماني مجازاً، فمنذ عصر أغسطس حتّى أوساط القرن الثاني الميلادي برز ازدهار النشاطات الاقتصاديّة في كلّ مكان، فالسكن تطوّر وتضاعف، والمدن تحوّلت وظهرت مدن جديدة بما فيها من مساكن ومبانٍ ضخمة، أمّا الأغراض العاديّة أو

[١]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام،ج٢، روما وإمبراطوريّتها، ترجمة فريد داغر وفؤاد أبو ريحان، ط٢، منشورات عويدات، باريس-بيروت ١٩٨٦م، ص٢٠٢، ٢٠٣.

[٢]- رستوفتزف، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة الاجتماعي والاقتصادي، ترجمة زكي علي ومحمّد سليم سالم، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة ١٩٥٧م، ص٢٦٦، ٢٦٧.

ذات القيمة وآنية المائدة أو الغسيل والحاويات فقد تطوّرت، ما أوحى بتوسّع كمّي وكيفي في المبادلات وبانفتاح جديد على العالم. وحركة الملاحة البحريّة كانت تفزع العواطف أكثر ممّا تخيف القراصنة، والمحيط كان مسرحاً لآخرين غير البحّارة الجسورين. أمّا الطرق البريّة التي بناها الإداريّون والجيوش فكانت تشجّع التجّار والمسافرين الذين سيترصّدهم قطّاع الطرق، وكانت الأنهار والسواقي تستقبل البواخر المحمّلة بالبضائع والعابرين. أمّنت مراكز الرقابة وعلى مسافات ومراحل من الطرق، إلى جانب الحانات، تسهيل انتقال الفرسان والعربات. أرسلت الإمبراطوريّة موزّعي بريدها في كلّ مكان جارّين على أكتافهم العربات. لقد كانت النهضة العمرانيّة في كلّ مكان، وكذلك الإنتاج. والريف كان يزداد غزارة سكانيّة، وكان تجديد النشاط هو الدافع الفعلي لمضاعفة الإنتاج الذي يذهب في جزء منه إلى سكّان المدن. ثمّة تعديلات تقنيّة ترافقت مع تسميد الأراضي واستخدام الأدوات والطرق الزراعيّة. ولم تختف المجاعات لكنّها صارت نادرة، وتنوّعت أنواع الغذاء، صار الحرفيّون والتجّار يفتخرون بمهنتهم، كما أنّ الأغنياء صاروا محطّ شكر وتقدير الجماعات التي تعترف بما لهم من فضل[١].

لكنّ هذا الاستقرار النسبي كان خادعاً ولم يكن حقيقيّاً، والازدهار كان قائماً على نظام رأسمالي انتهازي (تمّ من خلاله نهب ورادات الولايات الرومانيّة) ربوي (وصلت فيه نسبة الفائدة إلى ٤٨ ٪). وقد تكفّلت الأزمات الصغيرة في فضح تخلّف إيطاليا في الحياة الاقتصاديّة بما فيها الزراعة، ولا سيّما زراعة الحبوب، فبدل أن تعمد روما إلى الاكتفاء الذاتي في هذا الباب، تركت نفسها تحت رحمة ولاياتها، مفرّطة بأمنها الغذائي، حتّى أمست شحنات القمح وتأخّر قدومها إلى روما يشكّل حالة قلق وأرق لأباطرة روما أكثر من عوامها، بحكم أنّه المادة الرئيسة في غذاء الرومان، والدولة قد تعهّدت بتوزيعه مجّاناً على العوام، الذين كانوا يأخذون حصّتهم الشهريّة من الغلال كلّ شهر[٢].

وكادت المجاعة وانقطاع إمدادات القمح عن روما، الذي حدث في سنة ٥١م في عهد

[١]- باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، ترجمة جورج كتّوره، دار الكتاب الجديد المتّحدة، بنغازي ٢٠٠٨م، ص٧٨.

[٢]- نور الدين حاطوم، وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، ج١: م.س، ص٦٠٠.

الإمبراطور كلوديوس، أن يتسبّب في حدوث عصيان جماعي وفتنة كبرى في الدولة[١]، وبدل أن يرعى الأباطرة الرومان عمليّة زراعة الحبوب والتوسّع فيها، واستصلاح الأراضي الزراعيّة، عمدوا إلى التوسّع في بناء الموانئ البحريّة المعدّة لاستيراد الحبوب من إفريقيا وصقليّة ومصر وسورية[٢]. وقد علّق المؤرّخ تاكيتوسTacitus على ذلك بقوله: «صار من المؤكّد الآن أنّ إيطاليا تعتمد على القمح المستورد من الولايات القاصية، والمشكلة الآن ليست في فقدان التربة لخصوبتها، ولكنّ الحقيقة أنّنا نفضّل استغلال أفريقيا ومصر، وعلى ذلك فقد صار بقاء روما مرهوناً بالسفن»[٣].

٢. الصناعة

أمّا في مجال الصناعة فقد ذاع منذ القرن السابع قبل الميلاد صيت عدد كبير من المدن الأتروسكيّة في إيطاليا بمصنوعاتها الحديديّة والذهبيّة والفضيّة، واشتهر البعض الآخر منها بالأدوات الفخاريّة والخزفيّات الثمينة، ولا شكّ أنّ الرومان قد استفادوا من ذلك التقدّم الصناعي بعد أن قهروا الشعب الأتروسكي بالحديد والنار. وتؤكّد كتب التاريخ ذلك، فعندما كان القائد الروماني الشهير سيبو الإفريقي يعدّ العدّة لمهاجمة قرطاجة سنة ٢٠٥ ق.م، لإرغام هانيبال على الجلاء عن إيطاليا، سمح له مجلس الشيوخ الروماني بالتوجّه إلى مختلف المدن الخاضعة لروما، وأن يطلب منها ما يحتاجه لتجهيز الأسطول والفيالق التي تقرّر إرسالها ضدّ قرطاجة، فقدّمت المدن الأتروسكيّة منتجاتها الصناعيّة؛ حيث أمّنت مدينة بوبولونياPopulonia الحديد الضروري للحملة، أمّا مدينة فولتيرا Volterra فقدّمت العتاد الضروري للسفن، بينما قدمت مدينة أيرزو Arezzo ثلاثة آلاف مجن، وثلاثة آلاف خوذة وثلاثة آلاف مزراق، وثلاثة آلاف رمح طويل وأسلحة أخرى بلغ تعدادها خمسين ألف قطعة، وكذلك أمّنت بعض الأدوات الأخرى كالفؤوس والمعاول والمناجل والأجران والمعالف والأرح (جمع رحى)، ما يكفي لتجهيز أربعين مركباً. وهكذا يمكننا أن نلمس بأنّ مدن أترورية التي اشتهرت بتصنيع المعادن منذ القرن السابع

---

[١]- أحمد نديشة، الإمبراطوريّة الرومانيّة والقمح الإفريقي، مجلّة البحوث الأكاديميّة، د.ت، ص٤٤٦.

[٢]- نور الدين حاطوم، وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، ج١: م.س، ص٦٠٠.

[٣]- أحمد نديشة، الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٤٤٦.

قبل الميلاد قد ظلّ بعضها متفوّقاً في ذلك المجال حتّى بعد خضوعها لروما[١].

لكن رغم ذلك ليس بوسعنا التحدّث عن صناعة حقيقيّة عند الرومان، فضلاً عن أنّ الحكومة لم تشجّع على الصناعة التي كان الرومان يحتقرونها[٢]، فجلّ ما عرفته الحضارة الرومانيّة هو مجموعة من الحرف، فعندما يبلغ الطفل عند الرومان سنّ السابعة من عمره يذهب إلى معلّم يملك دكّاناً بالقرب من الميدان العام (الفورم)، ليتعلّم عنده المهنة التي وجّهه الأهل لها، وكان الناس من محدودي الدخل (أبناء طبقة العوام) هم الذين يرسلون أبناءهم إلى ذلك المعلّم[٣]، مع الإشارة لما في ذلك العمل من إجحاف بحقّ طفولة هؤلاء المتدرّبين أو الحرفيين الصغار. ولعلّ أشهر من وصف الجوّ السائد في الورشة الحرفيّة هو الكاتب لوقيان السُميساطي، الذي عاش في القرن الثاني الميلادي، فقد صوّر في أحد كتاباته الاهتمام الذي أولاه والد أحد الصبية لمستقبل ابنه، فعندما بحث مع أصدقائه مسألة اختيار المهنة التي على والده أن يتعلّمها، وجب عليه أن يأخذ بعين الاعتبار فقر العائلة وحاجتها إلى المساعدة العاجلة، ويبيّن لوقيان العقليّة التي فكّر فيها الابن-وهي تعبّر عن تفكير جميع أبناء طبقة العوام في عصر الإمبراطوريّة الرومانيّة- حيث يقول الابن: «لو تعلّمت حرفة ما، لأصبحت أملك ما يكفي، وتحرّرت وأنا في هذه السنّ من العوز، وليس هذا فحسب، بل أنيّ سأدخل السرور إلى قلب والدي مقدّماً له مدخولي»[٤].

إذا كان النظام الرأسمالي النظامي قد أسهم في انهيار الزراعة في إيطاليا، كما أسلفنا، إلاّ أنه ليس من حقّنا أن نعزو إلى إيطاليا القديمة وجود رأسماليّة صناعيّة حقيقيّة، استناداً لما وجد فيها من ورشات صناعيّة وعدد من مصانع الزجاج، والآجر، والقرميد، والفخار، والأدوات المعدنيّة. ذلك أنّ روما نفسها لم يكن فيها إلاّ مصنعان كبيران؛ أحدها مصنع للورق، والثاني مصبغة. وأغلب الظن أنّ المعادن والوقود لم يكن من الميسور الحصول عليها بكمّيات وفيرة في روما[٥]. هذا فضلاً عن منافسة الولايات لروما، فعلى سبيل المثال

---

[١]- محمّد محفل، تاريخ الرومان، م.س، ص١٣٣.

[٢]- سيّد أحمد الناصري، تاريخ الإمبراطورية الرومانيّة السياسي والحضاري، دار النهضة العربيّة، القاهرة ١٩٩١م، ص٥٠٢.

[٣]- علي مؤمن إدريس مؤمن، الحياة الاجتماعيّة الرومانيّة، م.س، ص٩٦.

[٤]- شيفمان، المجتمع السوري القديم في عصر البرينتسييات القرن ١- ٣م، ترجمة حسان إسحق، دمشق ١٩٨٧م، ص٨٦

[٥]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، ج٢، مج٣، م.س، ص٢١٧.

لم يعد مصنع الخزف الموجود في مقاطعة توسكانيا في وسط إيطاليا قادراً على منافسة منتجات مصانع ولاية غالية الرومانيّة، لذلك تأخّرت أحواله كثيراً، لا بل إنّ مصنوعات معمل الخزف الفرنسيّة اكتسحت جميع أسواق ولايات روما الغربيّة، هذا بالإضافة إلى أنّ مصانع خزف جديدة أخرى تأسّست في الوقت نفسه في حوض نهر الراين وفي بريطانيا وإسبانيا وإفريقيا[١]. وخرج أبناء إيطاليا يوظّفون رؤوس أموالهم في الولايات فشاطرهم أبناء الولايات أرباحهم، وهكذا تفوّقت الولايات الرومانيّة على المركز، وعجزت الصناعة الإيطاليّة عن تصدير وارداتها، حيث لم يعد بوسعها منافسة مثيلاتها، وتحوّل الإنتاج الصناعي في مستهل القرن الثالث الميلادي إلى الإنتاج الفردي[٢].

ثالثاً: الأسس الأدبيّة التي قامت عليها الحضارة الرومانيّة

١. الأدب اللاتيني

عرف الرومان في غابر تاريخهم إنتاجاً أدبيّاً بدائيّاً ضمّ الأناشيد الدينيّة ونثر الكهّان وما كان يذكر عادة على شواهد القبور، لكنّ هذا الإنتاج الأدبي كان مجرّد عبارات تردّد وتعاد في المناسبات المشابهة، وأنّها عبارة عن سرد للوقائع والحوادث يغلب عليها الإيجاز الملاحظ بصورة خاصّة في نصّ الألواح الاثني عشر، ولم يتسنّ للرومان إنتاج أدبي كامل، بكلّ ما في هذه الكلمة من معنى، إلاّ بعد نقلهم روائع الأدب الإغريقي عن طريق المستعمرات الإغريقيّة في صقليّة وجنوب إيطاليا[٣]. وعندما وصلت التأثيرات الإغريقيّة إلى الأدب اللاتيني وجد نثره أحسن حالاً من شعره، وبعبارة أدقّ كان النثر قد اكتسب بالفعل صفاته المحليّة المميّزة والتي ستظلّ معه إلى النهاية، وحتّى بعد تشبّعه بالمؤثّرات الإغريقيّة. ذلك أنّ فنّ الخطابة وكتابة الحوليّات على يد الكهنة الحريصين على الاحتفاظ بسجلّات طقوسهم الدينيّة، إنّ مثل هذه الكتابات كانت قد مهّدت الطريق لظهور النثر الأدبي المتطوّر على يد الخطباء والمؤرّخين فيما بعد. كما كانت نصوص القوانين الرومانيّة تعلن على الملأ فيحفظونها

[١]- نور الدين حاطوم، وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، ج١، م.س، ص٦٠٣.

[٢]- أسد رستم، الروم،بيروت ١٩٥٥م، ص١١.

[٣]- نور الدين حاطوم وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، ج١: م.س، ص٦٢٥.

عن ظهر قلب، فساعد ذلك على تطوّر النثر اللاتيني كوسيلة تعبير أدبيّة ناضجة[١]. أمّا فيما يخصّ الشعر فإنّ أوّل ما انتقل إلى الرومان من أبواب الشعر الإغريقي كان شعر البطولات والملاحم، ذلك الباب الذي كان الإغريق قد أبدعوا فيه، وعلى رأسهم هوميروس، فقام الرومان بترجمة الإلياذة إلى اللغة اللاتينيّة في سنة ٢٧٢ ق.م، على يد أخد شعراء الإغريق، وهو الذي وقع أسيراً في يد الرومان، من إحدى المستعمرات اليونانيّة في جنوب إيطاليا (مدينة تارنتيوم)، واسم هذا الشاعر هو ليفيوس آندرونيكوس Livius Andronicus وقد استمرّ هذا الشاعر فيما بعد بترجمة عدد آخر من الأعمال الأدبيّة الإغريقيّة إلى اللغة اللاتينيّة[٢].

وهكذا بدأ الرومان بالاعتماد على ما كتبه شعراء الإغريق والنظم على منوال قصائدهم، وقد حفظ لنا شيشرون بعض روايات عن كاتو الأكبر تصف إلقاء بعض هذه الأناشيد حول المآدب، وهي في الغالب أغانٍ بطوليّة كانت تتوارثها الأسر الرومانيّة العريقة، وكان من المعروف عن كاتو ميله لاستخدام الكلمات القديمة. ولقد كرّر فاروVarro (١١٦ - ٢٧ ق.م) هذه الرواية نفسها، ولكنّنا للأسف لا نملك الدليل الكافي لخلق تصوّر عام عن الأدب اللاتيني خلال هذه المرحلة المبكّرة، فيما عدا حقيقة واحدة، هي أنّ الشعوب كافّة قد عرفت مثل هذا النوع من الأناشيد (البطولات والملاحم) في مراحل تاريخها المبكّرة[٣]. وحتّى نهاية عصر الإمبراطوريّة الرومانيّة كان التلاميذ الرومان يتدرّبون على قراءة المختارات الشعريّة بصوت مرتفع، ومن ثمّ أصبحت القراءة بصوت مرتفع عرفاً سائداً في المجتمع الروماني، حتّى عندما يقرأ المرء لنفسه النصوص المختلفة في حياته اليوميّة. وكان التلاميذ لا يدرّبون فقط على قراءة المختارات بصوت عال، وإنّما يكلّفون أيضاً بنسخها وحفظها عن ظهر قلب[٤].

وتجدر الإشارة إلى أنّ الرومان قد استخدموا شعر البطولات والملاحم في الإيديولوجيا

[١]- أحمد عتمان، الأدب اللاتيني ودوره الحضاري، مجلّة عالم المعرفة، العدد ١٤١، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سبتمبر ١٩٨٩م، ص١٤.

[٢]- نور الدين حاطوم وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، ج١: م.س، ص٦٢٦.

[٣]- أحمد عتمان، الأدب اللاتيني، ص١٣.

[٤]- مصطفى زايد، التعبير عن التعليم في الفنّ اليوناني والروماني، م.س، ص١٠٤.

الرومانيّة، وغرس الأفكار التي أرادوا الترويج لها عن طريق هذا النوع من الشعر، وأكثر ما يظهر ذلك بصورة جليّة عند شاعرهم المشهور فرجيل Vergil (الذي عاش في القرن الأوّل قبل الميلاد وتوفيّ ١٩ ق.م)، فما نظمه يُعدّ انعكاساً لهذا النهج أو لتلك السياسة حين قال: «إنّ قدرنا أن نتوسّع بلا حدود imperio sine fine»؛ أي أنّ قدر الرومان أن يحتلّوا ويذلّوا ويتوسّعوا على حساب الآخرين، ولا شكّ أنّ القصائد التي كانت تُلقّن لأطفال الرومان في نعومة أظافرهم ستمسي عقيدتهم وهم جنود الغد. وقد أكّد هذا الشاعر فكرته بأن كرّرها مرّة أخرى في موضع آخر؛ حين خاطب بني جلدته قائلاً: «لكن أنت أيّها الروماني ضع نصب عينيك أن تسود الشعوب بسلطانك، فرسالتك هي أن تفرض سُنّة السلام، وتصفح عن المقهورين، وتقهر المتجبرّين». وكأنّ فرجيل كان مؤمناً-كما كان يتوجّب عليه إقناع الآخرين-بقدريّة التفوّق الروماني، وأنّ ما تقوم به الجيوش الرومانيّة في حروبها ما هو إلّا بمشيئة الآلهة[١].

أمّا أشهر شعراء الرومان قبل فرجيل فهو الشاعر لوكرسLucrece (٩٩- ٥٥ ق.م) ولاسيّما في قصيدته التي أبدع فيها، وعنونها بـ «الطبيعة»، وإن وجدت فيها مقاطع صعبة، فذلك مردّه إلى أنّ اللغة اللاتينيّة كانت ما تزال إلى ذلك الوقت فقيرة في التعابير الفلسفيّة والعلميّة. أمّا فيما يتعلّق بأخلاقيّات هذا الشاعر فإنّها سيّئة للغاية؛ لأنّه كان يدعو مواطنيه الرومان بصورة أنانيّة إلى عدم التقيّد بقواعد المثل الأعلى في سلوكهم كمواطنين، وعدم التقيّد بواجباتهم المدنيّة[٢]. وبالعودة مرّة أخرى إلى فرجيل، لكن من منظور نقدي أدبي لدراسة ما قدّمه في (الرعويّات) و(الزراعيّات)، فأوّلاً نجد أنّ ما كتبه في كتب الرعويّات (وهي عشرة كتب) مأخوذ في أغلب موضوعاته عن ثيوكريتوس (٣١٥- ٢٥٠ ق.م)، الشاعر الإغريقي الذي أسّس الشعر الريفي الرعوي، فـ «فرجيل» يتقفّى أسلوبه ومنهجه؛ فيكون ما كتبه ترجمة حرفيّة عنه حيناً، وتأويلاً وتحويراً لما كتبه حيناً آخر. وإنّ أهمّ ما يؤخذ على ما كتبه فرجيل في الرعويّات، هو التناقض والضعف الشديدان، فالتناقض يتمثّل بعدم التناسق بين بساطة الموضوع والطريقة الفنيّة، التي عولجت بها القصيدة، بينما يتمثّل الضعف بعدم

[١]- رجب سلامة عمران، الفكر العسكري الروماني بين الدفاع والهجوم والتوسّع والاستعمار حتّى نهاية العصر الجمهوري، مطبعة دار الروضة، القاهرة ٢٠١٠م، ص١٣، ١٤.

[٢]- نور الدين حاطوم وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، ج١: م.س، ص٦٢٩.

الاتحاد والارتباط في بنية القصيدة الواحدة[١]. وما يلفت الانتباه أنّ الرعيان يقومون بالغناء للقطعان والمروج الخضراء، ويقفون ليتناقشوا في الأعمال السياسيّة، وليمدحوا أغسطس[٢].

ولأنّ فرجيل فلاّح بطبيعته (بحكم نشأته وتربيته)، فإنّه من الطبيعي أن يطّلع على الأدب الزراعي السابق لعصره، حتّى أنه حاول في الزراعيّات أن يكون هزيود الرومان، لا بل إنّه صرّح بذلك عندما قال «أغني أغنية أسكرا عبر المدن الرومانيّة» وأسكرا هي مسقط رأس هزيود. كما أنّه تأثّر في هذه القصيدة بـ «الظواهر» للشاعر الإسكندري أرتوس. أمّا مصادر فرجيل فقد ضاع معظمها، لكن ممّا لا شكّ فيه أنّه استفاد من كتابات ثيوفراستوس (الكتاب الثاني)، ومن أرسطو (في الكتابين الثالث والرابع). أمّا مؤلّف كاتو الأكبر عن فلاحة الأرض، فلا يمكن إغفاله كمصدر مهمّ لفرجيل. وكذلك مؤلّفات الشؤون الريفيّة لفارو التي ظهرت سنة ٣٦/ ٣٧ ق.م أي الوقت الذي شرع فيه فرجيل بتنظيم قصائده. ولمّا أمست إيطاليا تعاني من ضائقة زراعيّة في أعقاب الحرب الأهليّة بين أنطونيوس وأغسطس، ولمّا كان فرجيل في طرف الإمبراطور المنتصر منذ بدء الصراع، ولمّا كان الأدب في عصر الإمبراطوريّة الرومانيّة موجّهاً سياسيّاً من قبل الدولة، فكان من الطبيعي أن يكتب فرجيل في هذه الموضوعات (الزراعيّات)، فرغبة أوغسطس تمثّلت في أن يكون «أيّ رجل طيّب خبيراً بالزراعة»[٣].

ولمّا كان الأدب خير معبّر عن ثقافة المجتمع تجدر الإشارة إلى أنّ الوصف الذي قدّمه لنا بترونيوس Petronius (أحد أبناء الأسر الرومانيّة النبيلة)، الذي عاش في عهد الإمبراطور نيرون، وأحد رفاقه المختارين، يصوّر لنا الانحطاط الذي أصاب الحياة الاجتماعيّة الجديدة في العصر الإمبراطوري في كتابه الموسوم الساتريكون Satryricon، فكلّ ما فيه من شخصيّات هم من العوام والأرقاء المعتقين، وكلّ ما فيه من منظار مأخوذ من أسفل أنواع الحياة في المجتمع الروماني، فمع نهاية عهد أغسطس انتهى العصر الذي كانت فيه موضوعات الأدب تأخذ من حياة الطبقات العليا، حتّى إنّ إنكلبيوسEncolpius الذي تروى قصة الكتاب على لسانه، هو رجل زان، مخنّث، كذّاب، لصّ. بالعموم إنّ الكتاب يخلو كليّاً

[١]- فايز محمّد، محاضرات في أدب الرومان في العصر الذهبي، ط١، جامعة عين شمس، القاهرة ٢٠٠٠م، ص٧٠، ٧١.

[٢]- أديث هاملتون، الأسلوب الروماني في الأدب والفنّ والحياة، ترجمة حنا عبود، منشورات وزارة الثقافة- المعهد العالي للفنون المسرحيّة، دمشق ١٩٩٧م، ص١٩١.

[٣]- أحمد عتمان، الأدب اللاتيني، ص١٩٠.

من الرحمة، ليس فيه شيء من العطف على الإنسان، لا يهدف إلى مثل أعلى، ويرى كاتبه أنّ الفساد وسوء الخلق أمر طبيعي لا غبار عليهما، ويصوّر الكتاب حدّ الفساد والانحلال الذي وصل إليه المجتمع الروماني، حيث أسهب في الحديث عن حياة العوام والسوقة من الناس، حديث المعجب والمستمتع بتلك الحياة المنحطّة، حتّى أنّه لا يعلّق ضدّها بكلمة واحدة، وفي هذا الكتاب تنساب الأقذار انسياباً سريعاً إلى الأدب الروماني، وتحمل إليه أحكام أصحابها وأذواقهم وألفاظهم الوقحة[١].

٢. المسرح

لقد بلغ تغلغل الحضارة الإغريقيّة في ميدان الأدب والفلسفة والمسرح عند الرومان حدّاً من العمق بحيث قلّ أن يلاحظ الباحث في هذا الميدان سوى الأثر الإغريقي، وأنّ ما عداه ممّا هو روماني صرف كان أشياء ثانويّة الأهميّة[٢]. فالمسرحيّة الرومانيّة ليست سوى المسرحيّة اليونانيّة إمّا منقولة وإمّا مقتبسة أو مختصرة، والشخصيّات في المسرح الروماني هي شخصيّات يونانيّة صرفة، بل إنّ الديكور على المسرح الروماني لا يعكس البيئة الرومانيّة، بل سوقاً في طيبة أو برجاً في إسبارطة أو مكتبة في أثينا، أو ساحة من ساحات سلاميس الواسعة... وبهذا تكون التبعيّة بلغت حدّ إلغاء الشخصيّة الرومانيّة أو قل سحقها سحقاً من دون أن تترك بعدها أيّ أثر. لقد كان الأدباء الرومان يريدون أن ينتجوا أدباً رومانيّاً حقيقيّاً، ولكنّ أوّل مسرحية رومانيّة يحكم على صاحبها بالموت، وبعد الوساطات الكثيرة والشفاعات والوجاهات خفّف الإعدام إلى النفي، فألقوا به في شمال إفريقيا فمات الرجل قهراً؛ فقط لأنّ في مسرحيّته سخرية من أسرة رومانيّة من الأسر الثريّة. بعدها لم يجرؤ أحد أن يكتب مسرحيّة رومانيّة، بل كانوا يعمدون إلى المسرحيّات اليونانيّة فيقتبسون منها ويغيّرون فيها بما يحقّق أهدافهم، إلاّ أنّهم ما كانوا يجرؤون أن يظهروا على خشبة المسرح مكاناً رومانيّاً ولا شخصيّة رومانيّة. دائماً كانت الكلمة التمهيديّة للمسرحيّة: حدث هذا في أثينا، وكان الكاتب يؤكّد ويكرّر أنّه أخذ كلّ شيء من الكاتب الفلاني اليوناني، وأنّ إحدى المسرحيّات وقعت في اليونان، كلّ كتّاب روما فعلوا ذلك حتّى بلاوتوسوترنس، إلاّ أنّهم

[١]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح،ج٢، مج٣، م.س،ص١٦٨.

[٢]- نور الدين حاطوم وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، ج١: م.س، ص٦٢٤.

فشلوا في التراجيديا فشلاً ذريعاً بمقدار ما نجحوا في الكوميديا، ولهذا دلالته المهمّة؛ فلا يوجد تراجيدي مرموق في كلّ الأدب الروماني غير سينيكا، وحتّى سينيكا نفسه لم يقدّم التراجيديا الراقية التي عوّدنا عليها اسخيلوس وسوفوكليس[١].

٣. التاريخ

لقد بدأت الكتابات التاريخيّة عند الرومان متأثرةً بالتراث الهلنستي، فالمؤرّخون الرومان الأوائل أمثال عضو مجلس الشيوخ فابيوسبيكاتور FabiusPictor (٢٥٤-٢٠٠ق.م)، وآخرين أمثال بوستميوس Postumius، والبينوس Albinus وأكيليوس C.Acilius كتبوا بالإغريقيّة. وإنّ أقدم ما وصلنا من كتب التاريخ الروماني يرجع إلى القرن الثاني قبل الميلاد، وأشهر هذه الكتب وأهمّها جميعاً تاريخ تيتوسليفيوس Titus Livius (٥٩ ق.م- ١٧م) حيث أضاف الرجل صيغاً بلاغيّة جديدة على صيغ أسيقراط، وتأثيرات دراماتيكيّة في كتابة التاريخ، وكغيره كان متأثّراً بالكتابات الهلنستيّة للتاريخ، كما كان متأثّراً بالألوان الشعريّة السائدة في عصره، فقد كان يزخرف كتاباته بخطب وعظات على ألسنة شخصيّات تاريخيّة، غالباً ما تكون مختلقة، وقد انعكس هذا الأمر في كتابه (تاريخ روما)، الذي يعرض تاريخها منذ التأسيس حتّى نهاية العصر الجمهوري وقيام الإمبراطوريّة، والكتاب أقرب ما يكون لملحمة نثريّة، ونظراً لطول الفترة التاريخيّة التي تصدّى ليفيوس للكتابة عنها، ملأ الفجوات بالأساطير وروايات مختلقة وغير صحيحة، إلّا أنّه حفظ لنا الكثير من المعلومات القيّمة، كما حفظ لنا كتابات من مؤلّفات سابقيه، قرأها واعتمد عليها، ولاسيّما كتابات مؤرّخي الحوليّات أمثال أنتياس Antias وماكر L. Macer وتوبَرو Tubero، ولذلك يجب قراءة تاريخ ليفيوس بتأن شديد[٢].

ولمّا أخذ اليونان يهتمّون بروما منذ بدء الحرب معها، تلك الحرب التي جعلت من بلاد اليونان منطقة خاضعة كليّاً لروما، أخذوا يكتبون في تاريخها ما أسهم في تقدّم علم التاريخ عند الرومان، ولعلّ أفضل من كتب من الإغريق عن تاريخ روما هو بوليبيوس Polubios

[١]- أديث هاملتون، الأسلوب الروماني، م.س، ص٥- ١٠.

[٢]- عبد الله السليمان، رؤية في منهجيّة الكتابة التاريخيّة في العصور الكلاسيكيّة، مجلّة المعرفة الصادرة عن وزارة الثقافة في الجمهوريّة العربيّة السوريّة، دمشق، العدد ٦١١، السنة ٥٣، آب ٢٠١٤م، ص١٩١، ١٩٢.

(٢٠٥ – ١٢٥ ق.م)، فقد جاء إلى روما واستقرّ فيها مكرهاً، حيث كان من بين الرهائن الذين أخذتهم روما من العصبة الآخيّة التي قضت عليها، فـبوليبيوس ابن زعيمها يكورتاس، وهناك رعته إحدى الأسر المهتمّة بالشؤون الثقافيّة (أسرة أسكوبيو ذات الاهتمامات الأدبيّة)، فكتب مؤلّفه الشهير التاريخ العام المكوّن من أربعين جزءاً[١]، وقد تابع كتابة التاريخ من حيث انتهى تيماوس Timaeus (٣٤٠- ٢٥٦ق.م) عند بداية الحروب البونيّة، وتيماوس هو من الإغريق الصقليين، نفي إلى صقليّة، فاتخذ من أثينا وطناً له، وحاول أن يجمع بين تاريخ صقليّة الوطني وتاريخ الإغريق وإيطاليا. لقد كتب بوليبيوس تاريخاً مفصّلاً للفترة التي عاش بها في القرن الثاني ق.م، حول «تاريخ البحر المتوسّط» في أربعين جزءاً، كما تقدّم، لم يصلنا منها إلّا خمسة كاملة، وقد تمحورت إشكاليّة بحثه حول أسباب تفوّق الرومان السياسي، لذلك حاول أن يفسّر سرّ وصول روما إلى مركز السيادة العالميّة في الفترة الممتدّة بين سنة ٢٦٤ ق.م وسنة ١٤٦ ق.م معتمداً على منهجيّة توكوديدس، وكان بوليبيوس يعتقد أنّ التاريخ وسيلة عمليّة وأساسيّة للسياسيين، وكان مقتنعاً بأنّ الأحداث التاريخيّة المحليّة في منطقة ما لا يمكن أن تتطوّر منعزلةً عمّا يحدث في ذات الفترة في أماكن أخرى. واهتمّ بدراسة الدستور الروماني ومقارنته بالدساتير الإغريقيّة. وما يؤخذ عليه تحامله المستمرّ على الديمقراطيّة كنظام سياسي وإعجابه بالنظم الأوليجاركيّة، وتحامله على قرطاجة. وقد حاول بوسيدونوس Posidonius (من مواليد مدينة أفاميا السورية في أوائل القرن الثاني الميلادي)، أن يسير على خطا بوليبيوس، وأراد أن يروّج لفكرة كان مقتنعاً بها هي (أن تفوّق روما كان بإرادة الآلهة) وكان لأفكاره صدى كبير[٢].

٤. علم القانون

تُدرّس مختلف جامعات العالم أنّ القانون هو إبداع حضاري روماني، وأنّ الشعب الروماني في جيناته شعب منظّم يحبّ النظام والقانون والالتزام، لذلك كان من الطبيعي أن يكون هو مبدع القانون في العالم، وأضفى الرومان على هذا الادّعاء طابعاً أسطوريّاً، وبالتالي كان القانون الروماني من أهمّ الأسس التي قامت عليها الحضارة الرومانيّة. لكنّ

[١]- محمّد محفّل، تاريخ الرومان، م.س، ص٧.

[٢]- عبد الله السليمان، رؤية في منهجيّة الكتابة التاريخيّة، م.س، ص١٩٢.

الواقع يحكي عكس ذلك، فالقانون الروماني ولد نتيجة صراع طبقي حادّ شهده المجتمع الروماني، فحين ضاق العوام ذرعاً من الظلم الواقع عليهم، قرّروا التمرّد ورفضوا دخول روما إثر عودتهم من إحدى الحملات العسكريّة في سنة ٤٩٤ ق.م، وعبروا نهر التيبر إلى جبل مجاور يسمّى الجانيكلولوم Janiculum، ضمن منطقة يرتادها التجّار الإغريق (ذوو الأفكار الديمقراطيّة) واعتصموا بها ورفضوا العودة إلى روما، وهدّدوا بإنشاء مدينة جديدة، وكان يعني هذا فراغ روما من اليد العاملة والقوّة العسكريّة، في الوقت الذي كانت فيه الدولة بحاجة متزايدة للمال والجنود نتيجة سياساتها القائمة على التوسّع الخارجي وتهديدات جيرانها اللاتين لها بالاحتلال، فاضطر النبلاء إلى مفاوضتهم، ورؤوا أنّه من الحكمة إعطاء العوام بعضاً من حقوقهم. نتيجة لهذه المعطيات تمّ إنشاء ما يسمّى باتفاق **الجبل المقدّس** في سنة ٤٧١ ق.م الذي اضطر فيه النبلاء لإعطاء العوام بعض الحقوق. وقد نال العوام ظفراً جديداً في منتصف القرن الخامس عندما ألزموا مجلس الشيوخ **بتدوين القوانين** الرومانيّة، والتي صارت تعرف بالألواح الاثني عشر، والتي أصبحت فيما بعد أساساً للقانون الروماني، فحتّى ٤٥٤ ق.م كانت القوانين محفوظة في صدور النبلاء، ومنهم القضاة، ومن حقّهم فقط تفسير القوانين وتطبيقها وإصدار الأحكام. وقد استجاب النبلاء لهذا المطلب إذ ألّفوا لجنة طافت في المدن اليونانيّة بهدف دراسة قوانينها، ومن ثمّ عادت وصاغت القانون الروماني الأوّل على اثني عشر لوحاً أقيمت في الأماكن المهمّة من المدينة، وقد اتصفت هذه القوانين ببساطتها وقسوتها[١]. كما أنّها ضمّنت سيادة الأقوياء على الضعفاء، فيكفي أن يقوم أحد الكتّاب المسرحيين بإظهار إحدى الأسر الرومانيّة الثريّة بمظهر مضحك، حتّى يتّهم بأنّه اقترف عملاً خطيراً، وخالف مواد قوانين الألواح الاثني عشر، فاستحقّ الإعدام، وبالشفاعة خفض الحكم فنفي إلى إفريقيا، وهكذا كان أوّل ضحايا هذا القانون درساً بالغاً لكلّ أدباء روما، بعدها لم يجرؤ أحد أن يكتب مسرحيّة رومانيّة[٢].

٥. الفنّ

وإذا تطرّقنا إلى **هندسة العمارة** والبناء سنجد أنّه بلغت ذروتها في عهد الإمبراطور تراجان،

[١]- عبد الله السليمان،تاريخ الرومان، دار مرايا للطباعة والنشر والتوزيع، دبي ٢٠٢٠م، ص٦٠.

[٢]- أديث هاملتون، الأسلوب الروماني، م.س، ص١٠.

لكن جلّ ما قام به من منشآت هندسيّة يعود الفضل فيه إلى المهندس اليوناني أبولودور الدمشقي Apollodorus of Damascus (والذي نسب إلى دمشق بحكم إقامته فيها) عاش بين (٦٠- ١٢٥م) [١]، خطّط الطرق وقنوات مياه الشرب الجديدة، وجسر نهر الدانوب، كما عهد إليه الإمبراطور في تأسيس سوق في روما، تعادل مساحته الأسواق السابقة كلّها مجتمعة، وتحيط بهذا السوق مبان فخمة جديرة بعاصمة العالم، التي بلغت في عهده أوج ثرائها، وكان المدخل الموصل إلى هذه السوق هو قوس تراجان، وكانت مساحتها ٣٧٠ قدماً، وكانت مرصوفة بالحجارة الملساء، ومحاطة بسور عال[٢]. وتتحدّث كتب التاريخ أنّ هذا المهندس الإغريقي قد فقد حياته على يد هادريان Hadarian بعد أن أصبح إمبراطوراً؛ لأنّ أبولودور كان فيما مضى قد سخر منه وانتقده انتقاداً عنيفاً بشأن بعض المخطّطات العمرانيّة التي قدّمها هادريان له، فلمّا تولّى الحكم انتقم منه.

أمّا التماثيل رائعة **النحت** التي زيّنت المباني الرومانيّة، فجلّها كان مسروقاً من المدن اليونانيّة بعد أن احتلّها الرومان، وعندما نفدت هذه التماثيل من الأسواق بحث الرومان عن بدائل لهذه الكنوز، فقاموا بعمل تماثيل مطابقة للأصليّة دون التقيّد بمدرسة من مدارس الفنّ الإغريقي أو فترة زمنيّة دون أخرى من فترات هذا الفن[٣].وربمّا كان بعث النشاط الاقتصادي في أثينا سنة ١٤٦ راجعاً إلى رغبة روما في إشباع حاجتها من هذه الناحية بتزويدها بأعمال فنيّة أصليّة مؤسّسة على تماثيل قديمة وبالنماذج الجيّدة، وإنّ خير نوع من هذا التماثيل يمكن مشاهدته في تماثيل هرقل الفارنسي ذي العضلات البارزة، وتمثال أبولون بـلفيدير المبالغ في رشاقته. وأخيراً عمدت شركة رومانيّة هي شركة الكوسوتيين إلى إنشاء فروع لها بكلّ أرجاء بلاد الإغريق حيثما وجدت إلى نحائت الرخام سبيلاً، وكلّفت الإغريق بصنع التماثيل بالجملة وتوريدها للسوق الرومانيّة. وهكذا كان النحت في بدايته عقيدة وديناً ثمّ انتهى على يد الرومان إلى سلعة وتجارة[٤].

---

[١]- عدنان البني، أبولودور الدمشقي أعظم معمار في التاريخ القديم، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩٠، ص١٥.

[٢]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، ج٢، مج٣، م.س، ص٣٩٧.

[٣]- علي مؤمن إدريس مؤمن، الحياة الاجتماعيّة الرومانيّة م.س، ص٨٧.

[٤]- وليم تارن: الحضارة الهلنستيّة، ترجمة عبد العزيز جاويد، مراجعة زكي علي، ألف كتاب بإشراف الإدارة العامة للثقافة بوزارة التعليم العالي، المكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة ١٩٦٦م، ص٣٣٧.

أمّا بالنسبة إلى عادة **الرسم** فقد انتشرت في روما أكثر من النحت، والرسم أحد الفنون الأصليّة التي أتقنها الرومان منذ زمن طويل، وتعوّدوا على مشاهدتها على جدران البيوت والساحات العامّة والأروقة، وقد انتشرت هذه العادة من قبل رسّامين محترفين ينتشرون على قارعة الطرقات، وقد شارك في هذا العمل مختلف أطياف المجتمع من نبلاء وعوام وعبيد، وكانوا يرسمون نسخاً من الرسوم الإغريقيّة والمصريّة، وعلى أيدي هؤلاء الفنّانين ظهرت مشروعات الرسوم بالألوان الممزوجة بالشمع[1].

ولعلّ أبرز الصور التي يتجلّى فيها الفنّ في الحضارة الرومانيّة، هو أداء الطقوس الدينيّة، ففيها يجتمع التمثيل مع الشعر والغناء ويختلط بالعقيدة والقانون **والسحر**، فلا ريب في أنّ هذه الطقوس في الأصل قد اكتسبت طابعاً سحريّاً مُكرهاً للقوّة التي تقام الطقوس من أجلها، ولم يزل هذا الطابع عنها كليّاً؛ فإنّ استعمال بعض الأدوات أوّلاً واللجوء الاضطراري إلى لباس ملابس التنكّر التي يرتديها المشتركون في هذه الطقوس الدينية ثانياً، (حتّى وإن كان الشخصيّة الرئيسيّة في إحدى تلك الطقوس، على سبيل المثال كالقائد الظافر في موكب النصر)، لا تفسير آخر لها إلا بمثابة رقى حقيقيّة، حتّى أنهم لا يتجاسرون على تبديل أيّ كلمة من كلمات هذه الطقوس. إلّا أنّ هذه الطقوس حين نستطيع فهمها، ترتبط في مجملها بالأصول القانونيّة التي تتفرّع عن السحر مع كلّ ما يرافقها من إيماءات وصيغ، حتّى أنّنا نجد مطابقة مدهشة بين الإيماءات وصيغ مماثلة، نقلت نقلاً من طقوس أخرى في ممارسة القانون المدني وممارسة الديانة. (فالتقوى) تعتبر-قبل كلّ شيء آخر- كالعدالة بالنسبة الآلهة، أي تنفيذ أمر بمنتهى الأمانة والدقّة، وبالتالي على الروماني أن يمتثل الآلهة ويرضيها حتّى تستجيب لأمانيه ورغباته[2].

---

[١]- علي مؤمن إدريس مؤمن، الحياة الاجتماعيّة الرومانيّة م.س، ص٨٧.

[٢]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام،ج٢، م.س، ص٢٠١.

الخاتمة

قامت الحضارة الرومانيّة، كما ظهر لنا في ثنايا هذا البحث، على ثلاثة مرتكزات أساسيّة، علميّة، وعمليّة، وأدبيّة، وإنّنا في جميع هذه الأسس وجدنا الحضارة الرومانيّة قد ارتكزت على الجهود الإغريقيّة الأتروسكيّة والقرطاجيّة، وبالتالي فإنّ الرومان لم يبدعوا في مجال حضاراتهم، التي حكموا بها العالم سوى سياسة السلطة وأنظمة الجيش، ولولا هاتان المؤسّستان لظلّ الرومان على هامش التاريخ، فإذا ذكرنا المدرسة والتعليم كان المعلّمون من الإغريق، وإذا تطرّقنا للطبّ كان الأطبّاء من الإغريق، وإذا تطرّقنا للهندسة كان المهندسون من الإغريق، بينما كان العمّال البناؤون من العبيد. وهكذا تفرّغ الرومان للحرب والعدوان ونهب ثروات الشعوب وحكمها، وعمدوا إلى تسخير عقول أبنائهم (أبناء المغلوبين) لوضع الأسس التي قامت عليها الحضارة الرومانيّة.

لائحة المصادر والمراجع

١. أبو بكر سرحان، أثر الأوبئة والأمراض على الإمبراطوريّة الرومانيّة (الطاعون الأنطوني أنموذجاً ١٦٥- ١٩٠م)، مجلّة كليّة اللغة العربيّة، العدد ٣٤، د.ت.

٢. أحمد عتمان، الأدب اللاتيني ودوره الحضاري، مجلّة عالم المعرفة، العدد ١٤١، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سبتمبر ١٩٨٩م.

٣. أحمد نديشة، الإمبراطوريّة الرومانيّة والقمح الإفريقي، مجلّة البحوث الأكاديميّة، د.ت.

٤. أديث هاملتون، الأسلوب الروماني في الأدب والفنّ والحياة، ترجمة حنا عبود، منشورات وزارة الثقافة- المعهد العالي للفنون المسرحيّة، دمشق ١٩٩٧م.

٥. أسامة عدنان يحيى، السحر والطب في الحضارات القديمة، دراسة تاريخيّة مقارنة، دار آشور بانيبال، نينوى ٢٠١٥م.

٦. أسد رستم، الروم، بيروت ١٩٥٥م.

٧. أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام،ج٢، روما وإمبراطوريّتها، ترجمة فريد داغر وفؤاد أبو ريحان، ط٢، منشورات عويدات، باريس-بيروت ١٩٨٦م.

٨. باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، ترجمة جورج كتّوره، دار الكتاب الجديد المتّحدة، بنغازي ٢٠٠٨م.

٩. جوزيف كلاّس، مسيرة الطب في الحضارات القديمة، قدم له الدكتور شاكر مصطفى، دار طلاس للدراسات والترجمة النشر، دمشق ١٩٩٥م.

١٠. خزعل الماجدي، المعتقدات الرومانيّة، ط١، دار الشروق، عمان ٢٠٠٦م.

١١. رجب سلامة عمران، الفكر العسكري الروماني بين الدفاع والهجوم والتوسّع والاستعمار حتّى نهاية العصر الجمهوري، مطبعة دار الروضة، القاهرة ٢٠١٠م.

١٢. رستوفتزف، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة الاجتماعي والاقتصادي، ترجمة زكي علي ومحمّد سليم سالم، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة ١٩٥٧م.

١٣. سْترَابُون، الجغرافيا، ترجمة حسان إسحق، منشورات دار علاء الدين، دمشق ٢٠١٧م.

١٤. سها بشير أحمد عبد العال، الكتّاب في الحقبة اليونانيّة الرومانيّة، جامعة بهنا ٢٠١٩م.

١٥. سيّد أحمد الناصري، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة السياسي والحضاري، دار النهضة العربيّة، القاهرة ١٩٩١م.

١٦. شريف محمّد شريف، تطوّر الفكر الجغرافي، ج١، العصور القديمة، ط١، المكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة ١٩٦٩م.

١٧. شيفمان، المجتمع السوري القديم في عصر البرينتسيبات القرن ١- ٣م، ترجمة حسان إسحق، دمشق ١٩٨٧م.

١٨. فايز محمّد، محاضرات في أدب الرومان في العصر الذهبي، ط١، جامعة عين شمس، القاهرة ٢٠٠٠م.

١٩. عبد الله السليمان،تاريخ الرومان، دار مرايا للطباعة والنشر والتوزيع، دبي ٢٠٢٠م.

٢٠. عبد الله السليمان، رؤية في منهجيّة الكتابة التاريخيّة في العصور الكلاسيكيّة، مجلّة المعرفة الصادرة عن وزارة الثقافة في الجمهوريّة العربيّة السوريّة، دمشق، العدد ٦١١، السنة ٥٣، آب ٢٠١٤م.

٢١. علي مؤمن إدريس مؤمن، الحياة الاجتماعيّة الرومانيّة خلال العهد الجمهوري (١٣٣ - ٢٧ ق.م) رسالة مُعدّة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، جامعة بنغازي، ليبيا ٢٠١٢م.

٢٢. محمّد محفّل، تاريخ الرومان، تاريخ إيطاليا وروما حتّى عصر الفتوحات الكبرى، سلسلة تاريخ الرومان، مطبعة غندور، بيروت ١٩٧٤م.

٢٣. محمّد الميداني، الحياة الاقتصاديّة في سورية في العصر الروماني ٦٤ ق.م - ٣٠٥م، أطروحة معدّة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ القديم، جامعة دمشق ٢٠١٥م.

٢٤. مخلص الريّس، موسوعة أعلام الفلك والفيزياء، ط١، وزارة التعليم العالي، سلسلة كتاب الأدب العلم، منشورات جامعة دمشق، أيار ٢٠١٥م.

٢٥. مصطفى محمّد زايد، التعبير عن التعليم في الفنّ اليوناني والروماني، بحث معدّ لنيل درجة الدكتوراه في الآداب، جامعة طنطا ٢٠٠١م.

٢٦. نور الدين حاطوم، صلاح مدني، أحمد طربين، نبيه عاقل، موجز تاريخ الحضارة، ج١: حضارات العصور القديمة، مطبعة الكمال، دمشق ١٩٦٥م.

٢٧. هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج١، في العصور الملكيّة الجمهوريّة الإمبراطوريّة حتّى عهد الإمبراطور قسطنطين، دار الفكر الحديث، لبنان ١٩٦٧م.

٢٨. ول.ديورانت، قيصر والمسيح أو الحضارة الرومانيّة، ج٢، مج٣، ترجمة: محمّد بدران، بيروت ١٩٨٨م.

٢٩. وليم تارن، الحضارة الهلنستيّة، ترجمة عبد العزيز جاويد، مراجعة زكي علي، ألف كتاب بإشراف الإدارة العامة للثقافة بوزارة التعليم العالي، المكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة ١٩٦٦م.

الأسرة والمجتمع وانهيار القيم الاجتماعيّة في الإمبراطوريّة الرومانيّة

إياد فرحان بدريّة[1]

مقدّمة

لقد تلخّص النموذج الاجتماعي في عصر الإمبراطوريّة الرومانيّة في انهيار الأسرة والمجتمع والقيم والتقاليد والعادات الاجتماعيّة، لاسيّما عندما أسهم النظام السياسي الجديد في تحطيم الطبقة الأرستقراطيّة التقليديّة ممثّلة في مجلس الشيوخ، الحارس العتيد على عادات المجتمع وتقاليده ورعايته لظهور طبقة اجتماعيّة جديدة من محدثي النعمة، لا يملكون أدنى حدّ من القيم والمثل العليا، التي تصان بها المجتمعات والدول والحضارات، لا همّ لهم سوى جمع المال وإنمائه ولو على حساب البنية والطبقات الاجتماعيّة الفقيرة. بينما تلاشت الطبقة الوسطى من التجّار والحرفيين وأصحاب الحوانيت والفلّاحين، وتحوّلت إلى طبقة شعبيّة من الغوغاء، تكفّلت الدولة بإطعامها بعد أن ركنت إلى البطالة، وأسندت أعمالها إلى العبيد أو المعتقين منهم، حيث استمرّت العبوديّة ظاهرة أصيلة في المجتمع الروماني، ولم يكن بالإمكان الاستغناء عنها. ونتيجة لهذا الفرز الطبقي الجديد انهارت الأسرة الرومانيّة وتفكّكت، وتحطّمت العرى، وفشا العزوف عن الزواج، والإعراض عن إنجاب الأبناء، وتناقص أعداد المواطنين الرومان بصورة مطّردة، وخرج الابن عن طاعة أبيه، وخرجت الزوجة عن طاعة زوجها بعد أن ظهر نوع جديد من الزواج (هو الزواج من دون سلطان)، وانتشر الفساد في المجتمع؛ فكثرت بيوت الدعارة والخمّارات، ومال الشباب للهو والمجون، وأهملت المرأة واجباتها الاجتماعيّة بوصفها ركناً أساسيّاً في الأسرة والمجتمع، ومالت للتجمّل والتزيّن والتعطّر ومصادقة الرجال، ودسّ السمّ لزوجها، والخوض في السياسة ومناقشة الشعراء، وصارت الخيانة الزوجيّة والزنا والتفكّك الأسري من أهمّ سمات

---

[1]- باحث سوري.

المجتمع. إنّ محاولة أغسطس الفاشلة في إصلاح المجتمع الروماني، والقوانين التي اشترعها، تشير بوضوح إلى حجم الآفات الخطيرة التي أخذت تفتك بالمجتمع الروماني في عصر الإمبراطوريّة. وكان من الطبيعي أن يفشل أغسطس في مسعاه، فلا يكاد يصدّق المرء حجم الفساد الذي فشا بين سكّان روما حدّاً انهارت فيه الأسرة، وأمسى فيه المجتمع مجتمعاً مكوّناً من الغوغاء الذين جبلوا على الأنانيّة بعد أن فقدوا شهامتهم وشجاعتهم ورجولتهم، ومالوا للكسل والخمول، لا همَّ لهم سوى ملذّاتهم ورغباتهم، انصرف معظمهم إلى الحياة الحرّة الطليقة المترفة، لا يعنيهم من أمور الدولة والفضيلة والأخلاق والقيم العليا شيء، والأدهى من ذلك أنّهم وجدوا سلسلة من الأباطرة الطغاة الذين واكبوهم في نزواتهم بل شاركوهم آثامهم وفجورهم.

أوّلاً: التقسيم الطبقي الجديد في عصر الإمبراطوريّة الرومانيّة

لقد استند النموذج الاجتماعي الجديد في عصر الإمبراطوريّة الرومانيّة، كما استندت السيطرة السياسيّة، إلى عدم مساواة صارخة كانت أساس كلّ الشرور والمصادمات اليوميّة والأزمات الأكثر عمقاً في تاريخ هذه الدولة. ولم يحل اللجوء إلى القانون دون العنف، الذي كانت تستخدمه الدولة عندما ترى ذلك مناسباً. لقد خلت الحياة الاجتماعيّة من الشفقة والرحمة، فكيف للوداعة والعدالة أن تُوجد؟ ولم يساور الأغنياء شعور بضرورة اقتلاع الفقر من المجتمع[1]، وانهارت القيم والعادات والتقاليد، وأصبح الفساد صفة مميّزة للمجتمع الروماني، كما بدأت وحدة الأسرة الرومانيّة بالانحلال بعد أن كانت أساس بنية الدولة والمجتمع[2].

لقد عمل النظام السياسي الجديد على ترسيخ تقسيم طبقي جديد، وأفضى إلى تبدّلات عميقة في بنية المجتمع الروماني، فنشأت نتيجة عن هذا النظام السياسي والأحداث المتعاقبة طبقات اجتماعيّة جديدة، لكلّ منها امتيازاتها الخاصّة بها، أهمّها نشوء طبقة أرستقراطيّة جديدة من موظّفي الإمبراطور، وهم على خمس درجات، يصنّفون تبعاً

[1]- باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، ترجمة جورج كتّوره، دار الكتاب الجديد المتّحدة، بنغازي ٢٠٠٨م، ص٩٥.

[2]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج٢، في العصور الملكيّة الجمهوريّة الإمبراطوريّة حتّى عهد الإمبراطور قسطنطين، دار الفكر الحديث، لبنان ١٩٦٧م، ص٢٤.

لوظائفهم التي يشغلونها، والألقاب التي كان الإمبراطور يمنحها إياهم[١]، حيث كان أوّل عمل قام به الإمبراطور أغسطس Augustus (٣١ق.م - ١٤م) بالأموال الجمّة التي انتهبها، أن وفىَّ ما عليه لجنوده من ديون، واستبقى منهم مائتي ألف رجل في خدمته، أقسم كلّ واحد منهم يمين الولاء له شخصيّاً، بينما سرح الثلاثمئة ألف الباقين بعد أن أقطع لكلّ واحد منهم مساحة من الأراضي الزراعيّة، ومنحه هبة مالية سخيّة، ووزّع الهدايا الثمينة على ضبّاط الجيش وأنصاره وأصدقائه. وهكذا نشأت طبقة اجتماعيّة جديدة من محدثي النعمة في المجتمع الروماني ينعمون بالغنى الذي أغدقه عليهم الإمبراطور ويرفلون بالثراء[٢]. ولا شكّ أنّ هذه الثروة قد أعطتهم مكانة مرموقة وسطوة فعليّة في المجتمع الروماني، فالرجل الذي يصبح غنيّاً يحصد كلّ جوائز الآخرين، هو الشخص الذي يحوز الإعجاب ويتمّ اختباره للوظيفة الأعلى، ولم يعد هناك أهمّية لمولده أبداً، قد يكون معتقاً: أي إنّه ولد عبداً، لا تراث عنده ولا ثقافة له تؤهّله للمسؤوليّات الرفيعة، لكنّ ثروته تستر عيوبه. كان هوراس (الشاعر الروماني المشهور) يبتهج عندما يشاهد مشاعر الاحتقار تجاه المليونير المحدث المبتذل الذي يجتمع عنده على الغداء كبار القوم وحملة القلم، وبينما هم يتمتّعون بما قدّمه طبّاخه من طعام لذيذ، كانوا يستخدمون مناديلهم لإخفاء سخريتهم من مظهر مضيفهم المتباهي[٣]، لكن استحقار المثقّفين لهذه الطبقة الاجتماعيّة الجديدة في سرّهم لم يغيّر من واقع الحال شيئاً.

فقد عَمَدَ أفراد هذه الطبقة الاجتماعيّة الجديدة إلى إنماء ثرواتهم على حساب الدولة بفضل ما تدفّق على روما من المقاطعات المستعمرة، بحكم أنّهم كانوا يمثّلون الجهاز البيروقراطي الذي سيطر على أجهزة الدولة ومؤسّساتها، وعلى حساب المجتمع عن طريق أعمال إقراض الأموال بفائدة فاحشة وصلت في بعض الأحيان إلى نسبة ٤٨ ٪، ومن التعهّدات والسرقة واختلاس أموال الدولة، حتّى أنّ مدينة روما غدت العاصمة الماليّة والسياسيّة للبحر المتوسط دون أن تنال ثمار هذا التحوّل، بل لم تنج هي ذاتها، ولا حتّى

[١]- شفيق الجرّاح، دراسة في تطوّر الحقوق الرومانيّة ومؤسّساتها، ط٧، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٥م، ص٤١.

[٢]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح أو الحضارة الرومانيّة، ج٢، مج٣، ترجمة: محمّد بدران، بيروت ١٩٨٨م، ص٩.

[٣]- أديث هاملتون، الأسلوب الروماني، في الأدب والفنّ والحياة، ترجمة: حنّا عبود، منشورات وزارة الثقافة- المعهد العالي للفنون المسرحيّة، دمشق ١٩٩٧م، ص١٥٨.

الريف الإيطالي، من استغلال الطبقة الرأسماليّة الجديدة لها[١]. لقد استفاد أفراد هذه الطبقة الاجتماعيّة الجديدة من الحمايات ومن الامتيازات التي حصلوا عليها من الإمبراطور، والتي وَجَدَ المؤرّخون القدامى لذّة في سردها[٢]، ولما كان الترف مؤذناً بخراب الدولة، فقد بلغت أكبر ثروة بلغنا خبرها إذ ذلك ٤٠٠ مليون سسترس، والقائمة بالثروات الكبرى لمحدثي النعمة تطول. وقد أخذ هؤلاء ينفقون أموالهم على ملذّاتهم، حتّى أنّ القرن الأوّل للإمبراطوريّة شهد بذخاً لم يعرف العالم القديم مثيلاً له من قبل، كما أنّه بلغ حدّاً من الترف لا مزيد عليه، كان الكلّ يحاول أن يبزّ غيره في لذائذه، وتفنّن بالاستمتاع بها حتىّ تمّ الخروج عن المألوف. لقد تجلّت مظاهر البذخ والإملاق في كلّ صور الحياة المادية: في القصور الشاهقة والأثاث والملابس الفخمة والحلي والمجوهرات والولائم المترفة وأنواع اللذائذ على اختلاف طعومها وألوانها. ومهما بلغ من زهو هذه الحياة التي عاشها الأغنياء الجدد من الرومان، والبذخ الذي تجلّى في مآدبهم، والتفنّن الذي بلغوا فيه القدح المعلّى في عيشتهم، بحيث أنّهم فاقوا كل ما عُرف من أمثاله في التاريخ القديم[٣].

لم تكن الإمبراطوريّة الرومانيّة نموذج عدالة، ولا نموذج تنظيم إنساني مثالي، فهذه المسألة لم تكن مطروحة أبداً لا من قريب ولا من بعيد[٤]، ففي مقابل ذلك البذخ الجنوني للطبقة الأرستقراطيّة الجديدة، انهارت الطبقة الوسطى، وظهرت في مكانها طبقة وضيعة من عامّة الشعب (هم الغوغاء)؛ تتكوّن من جمهور يجمع غرباء المدينة إلى غرباء الريف منغمسين في البطالة، ففي المدن عمّال وصنّاع لا يعملون بل يتلقّون المساعدات والإعانات من الدولة[٥]. وانهار الريف الإيطالي بعد أن أسهمت الحروب الأهليّة-التي دارت رحاها فيه- في التهام قسم كبير من فلّاحيه، وأحالت الآخرين إلى مشوّهين، وانتظم الذين انتزعت أملاكهم إلى طبقة رعاع روما بعد أن هاجروا إليها، أو التجؤوا للجيش للخدمة فيه، بينما

---

[١]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج٢، م.س، ص٢٤.

[٢]- باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٩٥.

[٣]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام، ج٢، روما وإمبراطوريّتها، ترجمة فريد داغر وفؤاد أبو ريحان، ط٢، منشورات عويدات، باريس-بيروت ١٩٨٦م، ص٣٨٢.

[٤]- باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٩٥.

[٥]- شفيق الجرّاح، دراسة في تطوّر الحقوق الرومانيّة، م.س، ص٤١.

هاجر آخرون إلى المقاطعات أملاً في العثور على فرصة عيش هناك[١]. وتحوّل الباقون ممّن تمسّكوا بأرضهم إلى طبقة من أقنان الأرض Coloni أو عبيدها، لا حقّ لهم في ترك الفلاحة والأراضي التي يعملون بها دون رضا وموافقة أصحاب الإقطاعات بعد أن منعتهم الإمبراطوريّة من ذلك رسميّاً[٢]، حيث توجّب على كل قنّ Colonus لديه قطعة من الأرض يتولّى زراعتها أن يتعهّد بدفع إيجارها نقداً أو عيناً أو خدمةً لسيّده[٣].

كما استمرّت العبوديّة سمة مميّزة للمجتمع الروماني، بل تفشّت، ولم يكن إلغاؤها أمراً يمكن التفكير فيه، حتّى من جانب أبيكتاتوس Epictete، الذي كان يرى أنّ العبودية تُسهم بصورة أساسيّة في النظام الكوني العقلاني[٤]، لقد رأى الرومان الاسترقاق قضيّة مسلّماً بها لا تحتمل جدل، وسُخّر العتقاء والعبيد للعمل في الحوانيت والمشاغل والمتاجر والمصانع، وفي البحريّة الرومانيّة، وفي مطافئ العاصمة، وفي الأعمال الدنيا بظروف سيّئة جداً جعلت حياتهم بائسة معذّبة، واتبع أغسطس سياسة صارمة هدفها الحدّ من إعتاقهم، حرصاً منه في المحافظة



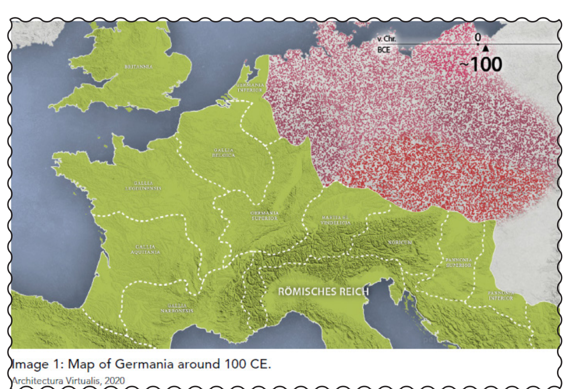


Image 1: Map of Germania around 100 CE.
Architectura Virtualis, 2020

[١]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج٢، م.س، ص٢٥.

[٢]- شفيق الجرّاح، دراسة في تطوّر الحقوق الرومانيّة، م.س، ص٤١.

[٣]- محمود محمّد الحويري، رؤية في سقوط الإمبراطوريّة الرومانيّة، ط٣، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٥م، ص٩١.

[٤]- باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٩٥.

على جوهر الشعب الروماني، وتشدّد في منح حقوق المواطنة لأبناء الولايات الرومانيّة[١]، طبعاً يتمنّى القارئ لو قام أغسطس بتحديد اقتناء العبيد لا الحدّ من تحريرهم[٢]، لكن ما كان يحدث هو العكس تماماً، فسياسة أغسطس المتشددّة لم تُفد في شيء، فهي لم تمنع من تبدّل عميق طرأ على كيان الشعب الروماني، وذلك بتضاؤل العنصر الروماني والإيطالي فيه، إزاء تضافر تحرير الأرقاء وتكاثر الغرباء مع قلّة تناسل عناصر السكّان الرومان، حتّى أنّ نسبة الأحرار في المجتمع الروماني تراوحت ما بين ١٥ - ٢٠ ٪، بينما تألّفت الغالبيّة العظمى من العبيد المحرّرين، وكان من البدهي أن يكون مستوى المعيشة منخفضاً لهؤلاء الأفراد[٣].

ثانياً: انهيار الأسرة الرومانيّة

أمام انهيار المجتمع وهذا الفرز الطبقي الجديد، انهارت الأسرة الرومانيّة كنتيجة حتميّة للتطوّرات الاجتماعيّة المحيطة بها، لقد كانت قوّة الدولة الرومانيّة من قوّة الأسرة فيها، فالأسرة هي أهمّ خليّة في المجتمع، فإذا صَلُحت صَلُح، وإذ فسدت فسد. كانت الأسرة في العصور الرومانيّة العتيقة أشبه ما تكون بمؤسّسة عسكريّة، يخضع فيها الجميع لسلطان ربّ الأسرة، الذي يحوز على طاعة أفراد الأسرة، ويفرض سلطانه عليهم دون نقاش. لكنّ الأمر تبدّل تبدّلاً عميقاً في العصر الإمبراطوري، فلم تعد سلطة ربّ الأسرة وما يرافقها من سلطان غير محدود وطاعة عمياء تتلاءم مع التطوّرات التي حدثت في المجتمع الروماني، وما رافقه من تأثّر بالفلسفة اليونانيّة حرّة النزعة[٤]، فعلى سبيل المثال رغم أنّ الأعراف والتقاليد استمرّت في عصر الإمبراطوريّة الرومانيّة نظريّاً تطالب بموافقة ولي أمر البنت (ربّ الأسرة) على زواجها، إلاّ أنّ الأم بدأت تساهم بنصيب كبير في زواج ابنتها، وأخذت تزاحم ربّ الأسرة دوره بذلك، فقد أقرّ دستور صدر في سنة ١٩٩م بأنّه إذا نشب نزاع بين الأم والوصي (ربّ الأسرة) بخصوص اختيار الزوج المقبل للابنة، لزم الالتجاء إلى حاكم الإقليم للفصل في الموضوع[٥].

---

[١]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، دار مرايا للطباعة والنشر والتوزيع، دبي ٢٠٢٠م، ص٢٢٩.

[٢]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٢، مج٣، م.س، ص٢٨.

[٣]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج٢، م.س، ص٢٥.

[٤]- محمّد البرازي، محاضرات في الحقوق الرومانيّة، مؤسّسة هنداوي، المملكة المتحدة ٢٠١٨م، ص٩٨.

[٥]- نور قطرميز، المرأة الرومانيّة في العصر الإمبراطوري من ٣١ ق.م إلى ٣٣٠م، رسالة معدّة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، جامعة دمشق ٢٠١٤م، ص٧٧.

لا شكّ أنّ التشريعات والقوانين الاجتماعيّة المتعاقبة التي أصدرتها الدولة في الحدّ من سلطان ربّ الأسرة على أفراد عائلته، كان لها نصيب كبير في انهيار الأسرة الرومانيّة، فتلك السلطة المطلقة كانت تمثّل الضمان الحقيقي الذي يقي الأسرة من التفكّك والانحلال، والأنكى من ذلك أنّ الدولة لم تكتفِ بذلك، بل عمدت إلى إلغائه في نهاية المطاف، حيث انتهى هذا السلطان مع تشريعات جوستينيان، فجميع الأباطرة الرومان كانوا ينفرون من استقلال الأسر الرومانيّة إلى جانب الدولة، ومنازعة أرباب الأسر الرومانيّة لهؤلاء الأباطرة سلطانهم على المجتمع[١]، فاعترف الأباطرة الرومان رسميّاً لأبناء الأسر الرومانيّة بحقّهم في مرتّباتهم وإقطاعاتهم، سواء كانوا من العسكريين أم من الموظّفين المدنيين، وسمح لهم بحقّ إقامة سلسلة من الدعاوى أمام المحاكم بذلك الشأن، وكانت هذه الحقوق من قبل لا تتمّ إلى عن طريق أرباب الأسر التي ينتمون لها[٢]. وبالتالي عندما كان تحرّر الفرد من طاعة ربّ الأسرة في العصور الأولى يستحق العقوبة لهذا الفرد، صار تحرّره من هذا السلطان في العصر الإمبراطوري مغنماً كبيراً يمكّنه من استثمار أمواله بصوره منفردة، وأن يعيش حياته كما تحلو له. كما ألغت الدولة الرومانيّة حقّ ربّ الأسرة الرومانيّة في معاقبة أفراد أسرته بأشدّ أنواع العقوبات (القتل، الرق) مع إبقاء العقوبات الخفيفة، وإلى جانب تقليص حقوق ربّ الأسرة ظهرت فكرة واجب العطف على الأفراد الخاضعين لسلطته، ومنح أفراد الأسرة حقّ المطالبة بنفقة ماليّة تؤمّن لهم عيشاً كريماً، كما صار ربّ الأسرة ملزماً بأن يخصّ كلّ ابن من أبنائه بحصّة معيّنة من تركته لا يجوز له حرمانه منها بوصايا للآخرين[٣].

وكما خرج الابن عن سلطان أبيه، خرجت الزوجة عن سلطان زوجها، فبعد أن كان الزواج عقداً للأبد، الهدف منه إنجاب أبناء أصحّاء ليكونوا في خدمة الأسرة والدولة الرومانيّة، خسر الزواج حرمته المقدّسة، فقد ظهرت إبّان عصر الإمبراطوريّة الرومانيّة عادة جديدة في الزواج الذي يُخرج المرأة عن سلطة ربّ الأسرة التي تزوّجت به، حيث شاع نوع من الزواج لا سلطان فيه للزوج على زوجته Sine manu [٤]، ويعزى ظهور هذا النوع الجديد

[١]- محمّد البرازي، محاضرات في الحقوق الرومانيّة، م.س، ص٩٨.

[٢]- شفيق الجراح، دراسة في تطور الحقوق الرومانيّة، م.س، ص٣٠٢.

[٣]- محمّد البرازي، محاضرات في الحقوق الرومانيّة، م.س، ص٩٨.

[٤]- شفيق الجراح، دراسة في تطوّر الحقوق الرومانيّة، م.س، ص٣٠٢.

من الزواج، أو على الأقلّ شيوعه، إلى اضمحلال العادات والتقاليد القديمة التي بني عليها المجتمع الروماني[١]، ومن نتائجه أنّه أصبح للمرأة أموالها الخاصّة بها، واستقلّت حقوقيّاً عن زوجها[٢]، ما أسهم في تفكّك الأسرة زيادة الهوّة بين الزوجين، وعجّل في كثير من الأحيان في انفصاليهما، فلم تعد المرأة الحديثة تُطيق القواعد والأعراف والتقاليد الرومانيّة القديمة.

ما كانت السلطة السياسيّة لتتمكّن من الإسهام في انهيار الأسرة الرومانيّة لولا أنّها وجدت ما يمكّنها من ذلك، فضعف العقيدة الدينيّة القديمة بين الطبقات العليا كان سبباً مباشراً في القضاء على القيم والتقاليد الاجتماعيّة المتوارثة وفي تبدّل المفاهيم المتّفق عليها، وتلاشي ما كان للزواج والوفاء بين الأزواج والأبوّة من حرمة مقدّسة. وكانت هجرة الناس من الأرياف إلى المدن قد جعلت الأطفال عبئاً ثقيلاً على آبائهم أو لعباً يتسلوّن بها على أحسن تقدير، بينما كان الأطفال في الماضي ينظر لهم على أنّهم مصدر الثروة لآبائهم في نظام اقتصادي يقوم أساساً على الزراعة وما تحتاجه من يد عاملة رخيصة. أمّا المرأة الرومانيّة فقد كرهت كثرة الإنجاب، وهي التي كانت في العصور السالفة تتباهى بكثرة عدد أولادها. لقد انهارت القيم الرومانيّة عندما خرج الابن عن سلطان أبيه، وخرجت الزوجة عن سلطان زوجها، وامتنع كثير من أبناء الأسر الرومانيّة عن الزواج بتاتاً، وفضّلوا البقاء عازبين، واتصلوا بالعاهرات، أو اتخذوا السراري والعشيقات، ناهيك عمّا رافقه من فقدانٍ للخصوبة نتيجة الإفراط في العلاقات الجنسيّة، وتأخّر سنّ الزواج، وإذا ما تزوّج أبناء هذه الأسر فيما بعد، لم ينجبوا، هذا إذا لم ينتهِ زواجهم بالطلاق، أو مالوا إلى تحديد النسل بالإجهاض أو قتل الأطفال ومنع الحمل، حيث كانت موانع الحمل منتشرة، رغم أنّ الفلاسفة كان يحرمونها، إلّا أنّ أغنى الأسر الرومانيّة كانت تلجأ إلى استخدامها، فمابالك بالفقراء؟ والذي يهمّنا من هذا كلّه هو النتائج الديمغرافيّة التي أدّى لها هذا السلوك، فالانصراف للحياة الحرّة الطليقة المترفة، والرغبة في الحريّة الفرديّة كانت في ذلك الوقت كارثة على الأسرة والمجتمع وعلى العادات

[١]- محمّد البرازي، محاضرات في الحقوق الرومانيّة، م.س، ص١١٠.

[٢]- شفيق الجراح، دراسة في تطوّر الحقوق الرومانيّة، م.س، ص٣٠٢.

والتقاليد الاجتماعيّة المتوارثة[١]. حتّى أنّ المؤرّخ أميانوس ماريسللينوس Aminanus Marcllinus (٣٢٥- ٣٩١م) رأى أنّ جميع المآسي التي تعرّضت لها الإمبراطوريّة الرومانيّة ترجع إلى انهيار الأسرة وفساد المجتمع والتدهور الأخلاقي وتراجع القيم والمثل العليا[٢].

ومثلما كان الترف سبباً في العزوف عن الزواج في الأسر الثريّة، كان الفقر والفاقة وسوء توزيع الثروة والحاجة سبباً آخر في العزوف عن الزواج في الأسر الفقيرة، إذ لم يكن الزواج يوماً من الأيام سهلاً ميسوراً بالنسبة لأبناء هذه الأسر، وبالتالي كان الفقراء يعرضون عنه لا نفوراً منه، ولكن عجزاً منهم على تحمّل أعبائه الاجتماعيّة والماديّة من تربية للأولاد وإنفاقٍ عليهم[٣]. ولمّا كانت الدولة الرومانيّة في عصرها الإمبراطوري قد بلغت أقصى اتساع لها، كانت حاجتها متزايدة للجنود، ولمّا كانت الأسر الثريّة قد تمكّنت من إعفاء أبنائها من الخدمة العسكريّة بصورة أو بأخرى، كان المجنّدون في الغالب من أبناء هذه الأسر الفقيرة، ومن المعلوم أنّ الأنظمة العسكرية الرومانيّة تحرم على المجنّدين الزواج، ولمّا ترافق هذا الأمر مع سنوات خدمة إلزاميّة طويلة، صار سبباً آخر للعزوف عن الزواج، ولاسيّما أنّ المرء يساق إلى الجنديّة في مقتبل العمر، وأكثر سنوات حياته حيويّة تلك السنوات التي يكون قادراً فيها على العطاء والإنتاج[٤].

أمّا المرأة فكانت تعامل، ومن قبل الغالبيّة العظمى من أبناء المجتمع الروماني وأمام القانون، كما لو أنّها أدنى مرتبة، أو كما لو أنّ النساء أقلّيات غير مرغوب بها[٥]، بينما ملّت هي واجباتها الأسريّة المعروفة، التي كانت مناطة بها، حيث لم تسلم المرأة في العصر الإمبراطوري من مفاسد الحياة الاجتماعيّة الجديدة الصاخبة، فمالت إلى الرغبة بالتزيّن والتجمّل واستخدام المساحيق والدهون والتعطّر، ومصادقة الرجال، ودسّ السمّ لزوجها، والخوض في السياسة ومناقشة الشعراء. وصارت الخيانة الزوجيّة والزنا والتفكّك الأسري

---

[١]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٢، مج٣، م.س، ص٢٨، ٢٩.

[٢]- محمود الحويري، رؤية في سقوط الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٢١.

[٣]- نور قطرميز، المرأة الرومانيّة في العصر الإمبراطوري، م.س، ص٨٨، ٨٩.

[٤]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٢، مج٣، م.س، ص٢٨، ٢٩.

[٥]- باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٩٥.

من أهمّ سمات المجتمع، حتّى أنّ الدكتورة أديث هاملتون تتحدّث أنّ جوفينال سمّى هجائيّته السادسة باسم «بلاد النسوة السيّئات»، والأجدر به لو أنّه أطلق عليها اسم «أسلوب جميع النساء الرومانيّات»[١]، إذ ظهرت في ذلك العهد طائفة كبيرة من النساء الخليعات المستهترات، ترعرعن في جو مشبع بالانحلال الخلقي والدسائس والمؤامرات السياسيّة، وكان لهن القدح المعلّى في إشاعة الفوضى والانحلال الخلقي في المجتمع الروماني، حتّى وصفهن البعض بأنهّن أرذل وأفجر نساء العصور القديمة[٢].

لقد كانت كلّ النساء الرومانيّات سيّئات وكريهات، على حدّ وصف جوفينال، ولاسيّما عندما يتشدّقن باليونانيّة، ويخضن في مناقشة الشعراء، مثلما هنّ كريهات عندما يسمّمن أزواجهن. لقد وصلت المرأة الرومانيّة لدرجة من الانحطاط أنّها كانت في هذا العصر تكتب الرسائل الغراميّة تحت مرأى زوجها، مستخفّة بكل قيود الحشمة والفضيلة والاتزان، تطلي وجهها بالمساحيق والمعاجين، ثمّ تغسلها حالما تنتهي الحفلة التي كانت فيها، ويتساءل جوفينال «ولكن متى يرغبن في أن يظهرن جميلات في البيت؟»، «تصوّر أنّ المرأة الرومانيّة كانت تأكل المحار في منتصف الليل، وتشرب حتّى يدور السقف، بينما كان الرجل الأحمق هو من يحبّ زوجته»، حيث يتحدث جوفينال قائلاً: «إذا كنت تحبّ زوجتك فقد ضعت، ولا أمل منك، فلا توجد امرأة رومانيّة تُوفّر زوجاً يحبّها، سوف تنظّم صداقاتك، تطرد صديقك القديم عن باب بيتك، تصيح بك: اصلب ذلك العبد، وهكذا تسيطر عليك ثمّ تملّك وتجد زوجاً آخر. تصوّر ثمانية أزواج في خمس سنوات». ويضيف جوفينال قائلاً: «في أيّ مشكلة ابحث عن المرأة، لا توجد قضيّة في المحكمة إلاّ وكانت المرأة في صميمها»، لقد وصل انهيار الأسرة الرومانيّة «أنّ الكعكات الحارّة التي كانت تصنعها الأم تكون معجونة بالسمّ، وإنّك في كلّ صباح ستجد امرأة قتلت زوجها»[٣].

إنّ الإنسان الذي يعيش في غابات أوروبا الشماليّة صار نموذجاً يحتذى به في مجتمع روما الذي يغرق بالمفاسد والموبقات. إحدى القصص التي احتفظت بها كتب التاريخ

[١]- أديث هاملتون، الأسلوب الروماني، م.س، ص٢٢٠.

[٢]- أحمد الشنتناوي، عادات الزواج وشعائره، سلسلة اقرأ ١٦٩، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٥٧م، ص١٥٢، ١٥٣.

[٣]- أديث هاملتون، الأسلوب الروماني، م.س، ص٢٢١، ٢٢٢.

الرومانيتكي أنّ جوليا دومناJulia Domna (زوجة الإمبراطور سبتيموس سيفيروس Septimius Severus (١٩٣- ٢١١م) وبينما كانت في مجلسها في إيبوراكوم عاكفة على الدراسة، وكانت دراستها تتناول الأشياء والأشخاص الذين يحيطون بها بكلّ شغف، اقتحمت خلوتها فجأة فتاة كلدونيّة، أخذت على عاتقها فوراً أن تقدّم للإمبراطورة الفضوليّة درساً تناولت فيه فجور السيّدات الرومانيّات: «إنّنا نشبع كلّ رغباتنا التي تمليها علينا ضرورات الطبيعة، بطريقة أشرف بكثير ممّا تلجأن أنتن إليه، فبدلاً من التفتيش عن الأماكن المعزولة المظلمة العميقة لتمارسن فيها الفجور مع سفلة الرجال، فإنّنا نظهر على الملأ وأمام الجميع وفي رفقتنا رجال هم أشجع وأكرم من استظلّوا السماء»[1]. إنّ هذه القصة تصوّر لنا الفساد الأخلاقي الذي وصل إليه المجتمع الروماني.

لا شكّ أنّ هذا الانحلال الأخلاقي والتفسّخ الاجتماعي سيرافقه انتشار الطلاق بين الأزواج، لقد كان من أهمّ أسباب انتشار الطلاق، الذي كان قليل الوقوع في العصور الرومانيّة الأولى، هو تغيّر نظرة الرومان للزواج، الذي كان فيما مضى رابطاً مقدّساً، لكنّهم الآن ينظرون إليه على أنّه مغامرة قصيرة الأجل، خالية من كلّ معنى روحي، ومن السهل التحلّل منها[2]. والأنكى من هذا وذاك أنّ الزواج عند الطبقات الثريّة في المجتمع قد صار يخضع للمال والسياسة، إذ لم تكن معظم الزيجات الكبيرة إلّا زيجات سياسيّة، وإذا تمّ النفع المرجو منها، تطلّع الزوج إلى زوجة أخرى يرقى على أكتافها إلى منصب أعلى أو مال أوفر. وعلى هذا المنوال انتشر الطلاق سريعاً في المجتمع، حتّى غدا الأمر في عهد الإمبراطور أغسطس فضيحة ومهزلة عامّة لا يصحّ السكوت عنها[3]. أمّا في عهد خليفته تيبيروسTiberius (١٤م – ٣٧م) فقد وصل الأمر أنّ أحد خزنة معبد إله الزراعة ساتورنوس في روما (التي تأتي وارداتها من الضرائب المفروضة على الولايات الخاضعة لمجلس الشيوخ الروماني) تزوّج بفتاة قبل أن يلتحق بهذه الوظيفة بيومين استيفاء لشرط الواجب

---

[1]- جان بابليون، إمبراطورات سوريّات، تاريخ فترة التأثير السوري في الإمبراطوريّة الرومانيّة، ترجمة يوسف شلب الشام، العربي للطباعة والنشر، دمشق ١٩٨٧م، ص١٧٦.

[2]- محمود محمّد الحويري، رؤية في سقوط الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٢١.

[3]- نور قطرميز، المرأة الرومانيّة في العصر الإمبراطوري، م.س، ص٢٠٨.

توافره فيمن يشغل هذا المنصب، ثمّ طلّق زوجته في اليوم التالي من التحاقه بوظيفته، فلمّا علم الإمبراطور بالأمر أمر بعزله فوراً[١].

ثالثاً: محاولات أغسطس معالجة تفكّك الأسرة وانهيار القيم الاجتماعيّة

لمّا كانت الأمور تنذر بخطر داهم سعى أغسطس لتدارك الخطر منذ البداية، استعمل سلطاته التشريعيّة بوصفه رقيباً وتريبوناً لمعالجة الآفات التي بدأت تفتك بالمجتمع، حيث سنّ قوانين صارمة لمكافحة مظاهر انحلال الأسرة والمجتمع الروماني، أو ربمّا حمل الجمعيّة الشعبيّة على إصدارها. كانت تشريعاته كلّها تهدف إلى تقويم الأخلاق، وتشجيع الزواج، وترسيخ مفهوم الأسرة والوفاء بين الأزواج، ومفهوم الأبوّة الصالحة والحياة البسيطة والعودة بها إلى السُنن القديمة[٢]. ولمّا كان العزوف عن الزواج وقلّة النسل أكبر مشكلة تواجه الأسرة والمجتمع الروماني فقد بدأ بها، حيث شجّع الشبان على الزواج بإعطائهم جملة من الامتيازات، وتشدّد في قضايا الطلاق، وشجّع على الإنجاب بأن جعل المواطن الروماني الذي لديه ثلاثة أولاد أو أكثر أحقّ من غيره بالارتقاء في سلمّ الوظائف العامّة، وهو ما عرف في التاريخ الروماني بحقّ الأبناء الثلاثة[٣]، وأصدر قانوناً آخر بهدف التشجيع على إنجاب الأبناء أيضاً، ينصّ على أنّ الأزواج الذي لا ولد لهم ليس لهم الحقّ إلاّ في نصف ما يؤول إليهم من الوصيّة أو الميراث[٤]، وأصدر قانوناً ثالثاً ينصّ على أنّه إذا كان لأحد القنصلين أبناء أكثر من زميله تقدّم عليه[٥]، وأصدر قانوناً رابعاً ينصّ على أنّه يتمّ ملء شواغر منصب البروقنصل بأعضاء مجلس الشيوخ من الذين لديهم أولاد أكثر[٦].

وفي خطوة استعراضيّة منه هدفها تشجيع الآباء على الإنجاب، كان يستعرض من مقصورته في ساحة الألعاب في روما أبناء جرمانيكوس Germanicus الكُثر، حيث كان هذا الرجل مضرب المثل في عصره في كثرة إنجاب الأبناء، وكان يُغدق ما مقداره ألف سترسس

[١]- أحمد الشنتناوي، عادات الزواج وشعائره، م.س، ص١٥٩، ١٦٠.
[٢]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٢، مج٣، م.س، ص٢٩.
[٣]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، م.س، ص٢٢٨.
[٤]- أحمد الشنتناوي، عادات الزواج وشعائره، م.س، ص١٥٥.
[٥]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٢، مج٣، م.س، ص٣١.
[٦]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام، ج٢، م.س، ص٣٨٣.

على الآباء ذوي الأسر الكبيرة. وقد اغتبط أغسطس لشدّة السرور حين رأى فلّاحاً رومانيّاً يأتي ماشياً إلى روما يسير خلفه ثمانية أبناء، وستّة وثلاثون حفيداً، وتسعة عشر من أبناء أحفاده، وأقام نصباً تذكاريّاً لأم ولدت خمسة أبناء، ونصّت التشريعات على أنّه كان يحقّ للأم التي أنجبت ثلاثة أبناء أن ترتدي جلباباً خاصّاً وأن تتحرّر من سلطان ربّ الأسرة[١]، وأن تصبح سيّدة نفسها، وأن تختار في حرية تامّة الشخص الذي تريده زوجاً لها، كما تستطيع أن تعقد معه عقد زواجها دون حاجتها إلى موافقة أيّ شخص آخر[٢].

وأمام هذا الترغيب اتخذ خطوات تعزيريّة، كان من بينها تحريم حصر الإرث بالعُزّاب، وفرض ضريبة على العازبين الذين تجاوزوا سنّ الخمسين من أعمارهم، وتحديد حقّهم في الميراث[٣]. وأصدر قوانين تحول دون أن يغنموا من إرث يأتيهم من بعيد القربى، أكثر من مبلغ معين[٤]. كما حرم المراهقين والمراهقات أن يحضروا دور اللهو العامّة إلاّ في صحبة الكبار من أقاربهم، ومنع النساء من مشاهدة الاستعراضات الرياضيّة، وقصر أماكنهن في المجتلدات والمسارح على المقاعد العليا[٥]. إلاّ أنّ أهمّ جميع تلك القوانين هو قانون جوليا Julia سنة ١٨ ق.م، وكان الهدف منه تشجيع الزواج، والحدّ من الطلاق، ومكافحة العزوبة، والإكثار من النسل، واعتبار الزنا جريمة، والتأكيد على أهمّية دور الأسرة في المجتمع[٦]. ففي باب تسهيل الزواج أجاز هذا القانون للقاضي أن يزوّج الابن دون موافقة ربّ الأسرة التي ينتمي إليها، إذا تبيّن لهذا القاضي أنّ هذا الرفض غير منطقي وغير مبرّر. ثمّ أبيح للابن الاستغناء عن موافقة ربّ الأسرة التي ينتمي إليها على زواجه إن تعذّرت موافقته؛ كأن يكون غائباً أو أسيراً أو مجنوناً[٧]. وقد نصّ قانون جوليا على وجوب قيام طالب الطلاق بتحرير وثيقة خاصّة بالطلاق أمام سبعة شهود من المواطنين الرومان الأحرار في سبيل الحدّ من الطلاق[٨].

---

[١]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٢، مج٣، م.س، ص٣٣.

[٢]- نور قطرميز، المرأة الرومانيّة في العصر الإمبراطوري، م.س، ص٧٧.

[٣]- محمّد الزين ومحمّد محفّل، دراسات في تاريخ الرومان، ج٢، ط٨، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٥م،ص٤٢.

[٤]- أحمد الشنتناوي، عادات الزواج وشعائره، م.س، ص١٥٥.

[٥]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٢، مج٣، م.س، ص٢٩.

[٦]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج٢، م.س، ص٤٨.

[٧]- محمّد البرازي، محاضرات في الحقوق الرومانيّة، م.س، ص١١٢.

[٨]- أحمد الشنتناوي، عادات الزواج وشعائره، م.س، ص١٥٨.

هذا فيما يتعلّق بالتشجيع على الزواج والحدّ من الطلاق، أمّا فيما يخصّ مكافحة الخيانة الزوجيّة، فقد أصبحت الدولة بمقتضى هذا القانون تتولّى بنفسها عقاب الزوجة على خيانتها، وتنصّ العقوبة على النفي إلى أحد الجزر الإيطاليّة، وقد جعل القانون اتهام الزوجة حقّاً لزوجها أو لوالدها خلال ٦٠ يوماً، حتّى إذا انقضت هذه المهلة، أصبح طلب إيقاع العقوبة حقّاً لكلّ مواطن روماني، ولم يكن للزوج حقّ العفو عن زوجته، بل كان القانون الجديد يلزمه بتطليقها بعد ارتكابها لجرم الزنا الذي اقترفته. واحتفظ الأب من خلال هذا القانون بحقّه في قتل ابنته الزانية هي وشريكها ساعة ضبطهما متلبّسين بالفعل الفاحش، وأجيز للزوج أن يقتل عشيق زوجته إذا ضبطه في منزله. ولم تقتصر العقوبة على النفي، بل كان يتمّ تجريد الزوجة من ثلث ثروتها، ومن نصف بائنتها، وكانت تحرم من الزواج مرّة أخرى. وقد تقرّرت هذه العقوبة على الزوج الذي يتغاضى عن زوجته الزانية، ولم يكن من حقّ الزوجة أن تتهم زوجها بالزنا، فقد كان له أن يتّصل بالعاهرات الرسميّات المسجّلات دون أن يعاقبه القانون، ولم يكن هذا القانون يطبّق إلّا على المواطنين الرومان[1].

وفي السنة التاسعة للميلاد صدر قانون يعرف باسم قانون (بوبيا بوبيا Popia Poppea) حرم فيه على الرجل غير المتزوج من الذين تتراوح أعمارهم بين العشرين والستين، وكذلك حرم على النساء غير المتزوجات اللواتي تتراوح أعمارهن بين العشرين والخمسين أن يرثوا، إلّا إذا تزوّجوا في غضون مائة يوم من صدور هذا القانون. كما حرموا من مشاهدة الاحتفالات والأعياد العامّة، وكانت التركات التي يضحّي بها أصحابها لعدم زواجهم تضمّ إلى أملاك الدولة[2]. وحرم على الرجال من طبقة أعضاء مجلس الشيوخ أن يتزوّجوا من المعتقات أو الممثّلات أو العاهرات، كما حرم على المعتق أو الممثّل أن يتزوّج ابنة من طبقة مجلس الشيوخ. وفرضت ضريبة على النساء اللواتي يملكن أكثر من ألف سسترس أن يؤدّين ضريبة سنويّة قدرها ١٪ من أموالهن حتّى يتزوّجن، ثمّ تخفّض هذه الضريبة بالتدريج كلّما رزقن ابناً، فإذا رزقن الطفل الثالث رفعت الضريبة عنهن[3]. غير أنّ هذه الخطوات سواء في

---

[1]- نور قطرميز، المرأة الرومانيّة في العصر الإمبراطوري، م.س، ص١٨٦.

[2]- أحمد الشنتناوي، عادات الزواج وشعائره، م.س، ص١٥٤.

[3]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٢، مج٣، م.س، ص٣١.

الترغيب أو التعزير لم يكن لها أثر يذكر في زيادة عدد أفراد الأسرة[١]، لا بل إنّ أغسطس نفسه أعطى المثل على تجاوز القانون، إذ اعترف لزوجته ليفيا درسولا Livia Drusilla التي لم يكن لها غير ولدين، بالحقوق المستحقّة لزوجة لها ثلاثة أولاد. وقد احتذى كثير من الأباطرة فيما بعد حذوه إلى حدّ إساءة الاستعمال والتجاوز المفرط، الأمر الذي حدا بالإمبراطور تراجان Trajanus (٩٨- ١١٧م) لأن يعيّن حدّاً أعلى للمنتفعين بهذا التحايل على القانون[٢].

لقد كان من الطبيعي أن يقاوم المجتمع الروماني الذي كان يتلذّذ بالفساد إجراءات أغسطس[٣]، فهذه القوانين التي كان من الصعب فرضها على الناس وتطبيقها، أزعجت إلى حدّ بعيد الطبقات الاجتماعيّة حتّى المتزمتة منها، فعادة التوصية بالإرث متّبعة على نحو واسع ومنذ عهد بعيد[٤]. ولم تؤد هذه القوانين وأمثالها إلى الغرض المنشود، ولم تدفع العزّاب إلى الزواج، وكثير من الذين تزوّجوا طاعة للقانون طلّقوا زوجاتهم بعد أن حقّقوا غايتهم، وظلّ آخرون سادرين في غيّهم مؤثرين حياة اللهو والملذّات على الحياة الزوجيّة لما فيها من قيود ومسؤوليّات[٥]. ولمّا كان من الممكن التخلّص من هذا الحرمان عن طريق عقد الخطوبة، راح أبناء الأسر الثريّة يعقدون عقوداً مزيّفة على فتيات صغيرات، يلغونها بعد قليل ليعقدوا غيرها، الأمر الذي كان يستدعي إيقاف مفعول القانون[٦]. ولمّا كانت الدولة ترث من لا وريث له في خطوة منها على تشجيع إنجاب الأبناء، لجأت الأسر الثريّة إلى عادة التبنّي لتوريث أبنائها بالتبنّي ثرواتها بدل أن تورثّها للدولة، وكانت النتيجة أن حام الفقراء والمحتالون حول هذه الأسر الثريّة لعلّهم يصيبون شيئاً من أملاكها عن طريق التبنّي، إن لم يكن الإرث كلّه من نصيبهم، وأصبح تصيّد الإرث بالوصية عمل كثير من الأوغاد وسفلة الناس[٧].

---

[١]- أحمد الشنتناوي، عادات الزواج وشعائره، م.س، ص١٥٥.

[٢]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام، ج٢، م.س، ص٣٨٣.

[٣]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج٢، م.س، ص٤٩.

[٤]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام، ج٢، م.س، ص٣٨٣.

[٥]- أحمد الشنتناوي، عادات الزواج وشعائره، م.س، ص١٥٤.

[٦]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام، ج٢، م.س، ص٣٨٣.

[٧]- أحمد الشنتناوي، عادات الزواج وشعائره، م.س، ص١٥٥.

لقد فشلت كلّ محاولات أغسطس للإصلاح، فرغم كلّ الخطوات التي قام بها، ظلّ المجتمع والأسرة الرومانيّة في طريقهما إلى الهاوية، واستمرّ معدّل الزيجات في هبوط مستمرّ في القرون الأولى من العصر الإمبراطوري[١]، كما استمرّ الطلاق سارياً في المجتمع، وظلّ باقياً في سجلّ القوانين الرومانيّة أكثر من خمسة قرون[٢]. ويبدو أنّ أغسطس هو الإمبراطور الوحيد الذي حاول الحدّ من شيوع الطلاق في المجتمع، فبعده لم يُعن أحد من الأباطرة بالأمر، وبقي الطلاق مبدئيّاً شأناً خاصّاً وبمعزل عن تدخّل الدولة[٣].لا بل إنّ الإمبراطور أغسطس نفسه قدّم مثلاً سيّئاً عندما قام بتطليق زوجته سكريبونيا ليتزوّج من ليفيا، كما أنّه فرض على تيبيروس Tiberius (١٤م- ٣٧م) أن يطلّق زوجته فيبسانيا Vipsania التي يحبّها، ليزوّجه من ابنته جوليا التي كانت أرملة أجريبا Agrippa. وإذا كان حال الأباطرة على هذا الشكل إذاً فما هي حالة عامّة الشعب في ظلّ هذا الاستهتار بالرابطة الزوجيّة؟[٤] وهذا ما دفع ترتوليان (أحد آباء الكنيسة من أهل القرنين الثاني والثالث الميلاديين) ليقول: «لقد أصبح ينظر للطلاق على أنّه ثمره من ثمار الزواج»[٥].

بينما اشتكى الرجال من أنّ حقّ الأبناء الثلاثة قد حرّر الزوجة من سلطان زوجها تحريراً شديد الخطورة، ومن الرجال من أخذوا يبرّرون عدم الزواج بقولهم إنّ المرأة الحديثة قد تطرّفت في استقلاها وغطرستها ونزقها وإسرافها[٦]، وذلك طبعاً بسبب ازدياد ثراء النساء، وكثرة ما حصلن عليه من الحقوق والامتيازات، لذلك كره الرجال الرومانيّون ما ظهر في النساء من مظاهر الاستقلال والاعتداد بالنفس والميل إلى التسلّط والسيادة؛ بسبب زيادة ثرائهن على الرجل، حتّى إنّ المؤرّخ الروماني المشهور بلوتارخ كتب عن هؤلاء النسوة قائلاً: «إنّ الرجال الذين يتزوّجون نساء أكثر منهم ثراء يصبحون بعد مضي الزمن عبيد نسائهم»[٧].

---

[١]- نور قطرميز، المرأة الرومانيّة في العصر الإمبراطوري، م.س، ص٨٥.

[٢]- أحمد الشنتناوي، عادات الزواج وشعائره، م.س، ص١٥٨.

[٣]- محمّد البرازي، محاضرات في الحقوق الرومانيّة، م.س، ص١٢٦.

[٤]- نور قطرميز، المرأة الرومانيّة في العصر الإمبراطوري، م.س، ص٢٠٩.

[٥]- أحمد الشنتناوي، عادات الزواج وشعائره، م.س، ص١٥٨.

[٦]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٢، مج٣، م.س، ص٣٢.

[٧]- أحمد الشنتناوي، عادات الزواج وشعائره، م.س، ص١٥١.

وكانوا يرون أنّ حرمان العزّاب من مشاهدة المعارض والألعاب العامّة عقاب قاس مستحيل التنفيذ، ولهذا أمر أغسطس بإلغاء تنفيذه، ثمّ خفّفت كثير من القوانين، وقد لاحظ الناس بعد أن سنّت هذه القوانين أنّ القناصل الذين صاغوها وأطلقوا أسماءهم عليها، هم عزّاب لا أبناء لهم. وأضاف آخرون أنّ الذي اقترح تخفيف هذه القوانين على أغسطس هو ماسناس الذي لم يكن له ولد، وأنّه في الوقت الذي سُنّت فيه كان ماسناس يعيش عيشة الترف والخنوثة، وكان أغسطس يغوي زوجة هذا الرجل على الفحشاء[١]. واستمّر تحديد النسل شائعاً، لا بل إنّ عدواه انتشرت إلى الطبقات الفقيرة بعد أن كان محصوراً في الطبقات الثريّة، فلم يكد القرن الأوّل من ميلاد الإمبراطوريّة ينقضي، حتّى وصلت العدوى إلى فئة المزارعين، ما أنذر بكارثة على الاقتصاد الروماني، يشهد على ذلك امتداد المعونة الإمبراطوريّة لهذه الشريحة الاجتماعيّة لتشجيعها على إكثار نسلها، ورغم ذلك استمرّت عادة الإجهاض ووأد الأطفال، رغم أنّ القوانين كانت تجرّم هذا العمل وترفضه[٢].

رابعاً: فشل أسرة الإمبراطور

إذا كان ربّ البيت ضارب طبل فما على أهل البيت إلّا الرقص. حكمة قديمة تلخّص لنا حال انهيار الأسرة الرومانيّة على كلّ صعيد، فإذا كان الخلل قد تسرّب إلى أسرة الإمبراطور الحاكم، فما من حرج على الرعيّة وعامّة الشعب. لقد تلخّص فشل سياسة أغسطس الاجتماعيّة في تمتين الأسرة الرومانيّة بالفساد الذي وصل إلى أسرته هو، فابنته جوليا زوجة خليفته الإمبراطور تيبيروس، كانت تعيش حياتها كما يحلو لها، تعرض نفسها في روما كما تعرض فتيات الليل أنفسهن دون حياء أو خجل، وكانت تنتقل من عشيق إلى عشيق حتّى كان قصف عشّاقها ومرحهم يملأان السوق العامّة صخباً وضجيجاً طوال الليل[٣]. ولمّا كانت زوجته ليفيا (التي تمثّل الخطّ المحافظ في روما) تستنكر تصرّفاتها، وجد الإمبراطور نفسه حائراً بين المرأتين، فعندما تكون ليفيا معه ينفجر غضباً للفضيلة، ويقوم بإصدار الأوامر والقوانين ضدّ الفجور والزنا، ويمنع إنفاق المال على الملاهي، أمّا عندما تكن جوليا أمامه

[١]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٢، مج٣، م.س، ص٣٢.

[٢]- أحمد الشنتناوي، عادات الزواج وشعائره، م.س، ص١٥٥.

[٣]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٢، مج٣، م.س، ص٤٥.

فإنّه كان لا يرى أحداً سواها. لكنّ ليفيا تمكّنت في النهاية من إيقاظ أغسطس من غفوته، ونبّهته لو أنّه تهرّب من القانون الذي سنّه هو ضدّ الزنا، فإنّ هناك من سيتصدّى للقيام بالأمر طبقاً للقانون، فاستدعى أغسطس ابنته جوليا ووجّه لها الاتهام، ثمّ أدانها وأصدر عليها حكماً بالنفي من روما[١].

لقد تجلّت أبشع مظاهر انهيار أسرة الإمبراطور بعد وفاة أغسطس ليس بوقت بطويل، فهذه ليفيا زوجة الإمبراطور أغسطس، وأمّ الإمبراطور تيبيروس المتربّع على العرش، ناشدت ابنها بحقّ الآلهة أن يأتي لرؤيتها بعد نزاع على السلطة بينهما، كانت الأم قد هدّدت فيه بنشر بعض رسائل أغسطس التي كان قد قال فيها رأيه السيّئ في تيبيروس، وقد تسرّبت أخبار ليفيا والرسائل إلى الشعب، ما أثار حنق ابنها عليها، فرفض الابن طلب أمّه التي ناهزت الثمانين من العمر. وحين فارقت الحياة رفض أن يأذن بدفنها، وأمر بترك جثتها لتتعفّن، حتّى يُشفي غلّه منها بإهانتها والانتقام منها حتّى لو كانت جثّة هامدة، وعندما أمر بدفنها رفض أن يحضر الجنازة، وكان الذي ترأس الجنازة هو كاليغولا ابن جرمانيكوس، جرمانيكوس الذي قتله عمّه الإمبراطور تيبيروس[٢].

إذا كان الانهيار الأسري قد وصل أن يرفض الابن أن يدفن جثّة أمه مع تيبيروس، فإنّه تعدّى الحالة إلى أن يقتل الابن أمّه مع نيرون Nero (٥٤ - ٦٨م). كانت **أغريبينا** Agripina أم نيرون قد فعلت المستحيل حتّى أجلست ابنها على كرسي العرش، تزوّجت من خالها الإمبراطور كلوديوس الأوّل وأجبرته أن يتبنّى نيرون، ثمّ استدعت الفيلسوف سينيكا، وكان منفيّاً بأمر كلوديوس، ليكون مربيّاً له، في محاولة منها لمحاكاة قصة الإسكندر المقدوني الذي كان فيها الفيلسوف أرسطو مربيّاً له. كما أفلحت في تعيين صديقها بروس Burrus في الحرس الإمبراطوري، ليكون ذراعها الأيمن في الوثوب على السلطة، ثمّ سمّمت زوجها وأجلست نيرون على العرش مكانه واستمرّت مسيطرة على الإمبراطور الجديد[٣]. لكنّ الإمبراطور الشاب التقى في ممرّات البلاط بفتاة تدعى كلوديا ذات حسن بارع، وكانت

[١]- نور قطرميز، المرأة الرومانيّة في العصر الإمبراطوري، م.س، ص١٦٧.

[٢]- نور قطرميز، المرأة الرومانيّة في العصر الإمبراطوري، م.س، ص١٧١.

[٣]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٢، مج٣، م.س، ص١٢٣.

إحدى عتيقات زوجته أوكتافيا، وكان مايزال في السابعة عشر من عمره، سحره فتور جفونها، فملك حبّها عنانه ووصلها سرّاً، رغم أنّه كان متزوّجاً، وأغدق عليها، ولمّا علمت أمّه بذلك أنكرت عليه فعلته وقرّعته، فثار عليها نيرون وهدّدها بترك مركزه والإقامة في رودس مع حبيبته، فأذعنت أمّه وأذنت للعشيقين باللقاء في مخدعها، وسكت سينيكا الفيلسوف المستشار عن هذه الخلاعة[1]. ولمّا بدأ وزير أمه يُقترّ عليه، ويحسب له النقود التي كان ينفقها على عشيقته، قرّر الإمبراطور الشاب أن يبعد أمه عن السلطة، لكن عندما ضايقته قرّر أن يقتلها.

لقد كانت جرائم الرومان أشبه إلى الخيال، لا يصدّقها العقل لشدّة بشاعتها، فنيرون قرّر أن يضع أمّه على ظهر سفينة لتتمزّق إلى قطع، كأنّ القتل لهو، أو أنّ الروح لعبة للتسلية[2]. كان ذلك في شتاء سنة ٥٨- ٥٩م، عندما بدأ يتودّد إليها، ثمّ دعاها لتناول الغداء معه في باية Baiae والاشتراك في الحفلات الجميلة بمناسبة عيد الربّة منيرفا، وعندما وصلت استقبلها ابنها الإمبراطور، وعند انتهاء المأدبة في آخر الليل واكب نيرون والدته حتّى القارب المعدّ لنقلها، ورجاها عند الوداع أن تهتمّ بصحّتها، وبعد أن بدأت تبتعد عن الشاطئ، كان المخطّط أن يقصف القارب بالمنجنيقات، وقبل القصف حدث أن سقط سقف دكّة القارب المحمّل بالرصاص الثقيل عليها وعلى من حولها، فقُتل بعضهم بينما نجت أغريبينا وسبحت حتّى الشاطئ وهي مجروحة الكتف، ووصلت إلى فيلتها بعد جهد جهيد، وهناك قام أصدقاء نيرون بقتلها وحرقها، لقد ماتت وهي تلعن الأحشاء التي حملت هذا الجنين[3].

خامساً: انهيار المجتمع الروماني

١. الأباطرة والغوغاء

لا يمكن إغفال دور الأباطرة الرومان في عصر الطغاة الممتدّ من عهد أغسطس حتّى موت الإمبراطور دومتيان Domitianus سنة ٩٦م في انهيار المجتمع والقيم الاجتماعيّة في الدولة الرومانيّة، فرغم أنّهم نشروا السلام في ربوع الإمبراطوريّة، إلّا أنّهم فرضوا جوّاً من

[١]- نور قطرميز، المرأة الرومانيّة في العصر الإمبراطوري، م.س، ص١٧٨.

[٢]- أديث هاملتون، الأسلوب الروماني، م.س، ص٢٢٦.

[٣]- نور قطرميز، المرأة الرومانيّة في العصر الإمبراطوري، م.س، ص١٨٠.

الإرهاب على روما وسكّانها، فلا يكاد يوجد في زمن الإمبراطوريّة سوى أخبار الخضوع والخنوع الوضيع، وطوفان الدم الذي سبّبه طاغية في زمن السلم. لم يتورّع الأباطرة الرومان عن إرهاب الفلاسفة والمفكّرين، وقتل الفكر الحرّ المبدع، فهدموا القدوة الصالحة، وعندما انغمسوا في فجورهم وملهاتهم قدّموا مثال القدوة الفاسدة، فانحلّت أخلاق الشباب وانحطّت القيم وتهتّكت العرى والروابط والعادات والتقاليد التي كانت فيما مضى تجمع أفراد المجتمع والأسرة فيما بينهم، انتشر الغدر والخيانة بين الأقارب والأصدقاء، بإجزال العطاء للجواسيس الشرهين[١]، كانت وشاية صغيرة تكفي للفتك بالإنسان، لذلك لم يعد أحد يثق بأحد، لا الأقرباء ولا الأصدقاء، صار الناس يشكّون حتّى بالجدران[٢]، ويكاد المرء أن يسأم لأخبار الأباطرة الذين فتكوا بأعداد لا تحصى من البشر، لغرض واحد هو مصادرة أموالهم. ولمّا كانت الدولة قد قضت على الطبقة الوسطى (من تجّار وحرفيين وأصحاب حوانيت وفلّاحين)، تحوّل أفرادها إلى طبقة شعبيّة من الغوغاء، ركنوا إلى البطالة وألفوا الهوان، فلم يتمرّدوا على الطغيان بل على العكس انبطحوا أمام السلطة الحاكمة، فحتّى أقبح الأباطرة سيرة لم يكرهه الشعب[٣].

لقد سعى الأباطرة الرومان في النظام الجديد إلى التقرّب من الغوغاء، فعملوا على إعالة السواد الأعظم من فقراء روما، أنفقوا عليهم بسخاء ومن دون حساب من موارد الدولة بعد أن نهبوا خيرات وواردات الولايات الرومانيّة في الشرق والغرب، قام الأباطرة بتوزيع كمّيات معيّنة من القمح والطحين بانتظام، وتوزيع الدراهم عليهم أيضاً في بعض المناسبات البارزة، لتوفير أسباب العيش لهم، بينما كانت الأعياد والاحتفالات توفّر لغوغاء روما كلّ ما يحتاجون إليه من وسائل الترفيه والسلوى[٤]. لقد كان أعظم الأباطرة الرومان يحسب حساب جمهور المدينة، وكان الغوغاء قوّة معترف بها، فلا توجد بروليتاريا أخرى على

[١]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٢، مج٣، م.س، ص١٦٠.

[٢]- أديث هاملتون، الأسلوب الروماني، م.س، ص٢٢٥.

[٣]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، أسباب النهوض والانحطاط، ترجمة عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ٢٠١١م، ص١٣٦، ١٣٧.

[٤]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام، ج٢، م.س، ص٣٦٧.

مدار التاريخ حصلت على الطعام المجّاني والعروض المجانيّة أيضاً[١]. لا شكّ أنّ الحال التي آلت إليها الإمبراطوريّة كانت سبباً في ذلك، فمثل هذه الطبقات تجد في جوّ الأغنياء والأثرياء مرتعاً خصباً لتنمو وتتكاثر، شأنها في ذلك شأن المدن الضخمة التي لا حركة تجاريّة كبرى فيها، ولا يتوفّر فيها إنتاج ضخم، فتحاول الدولة أن تجعلها وتجعل المواطنين العاطفيين العاطلين عن الأشغال في مأمن عن عضّة الجوع أو لسعة الفاقة، في مسعى منها للحيلولة دون انحدارها إلى أدنى دركات البؤس والتعاسة، وبالتالي يصعب السيطرة عليها، بل تصبح مصدر تهديد وقلق مستمرّ للدولة[٢].

في المقابل لم يعد شعب روما في تلك الحقبة شعباً يهتمّ بالسياسة، حريصاً على الحرية، مولعاً بها، أو يلعب أيّ دور في تسيير شؤونه، أصبح شعباً مكوّناً من الموالي قريبي العهد بالرق، ومن عاطلين لا يحسنون أيّة صناعة، يتلقّون قوتهم اليومي من الخزينة[٣]. وأدركَ إدراكاً يكتنفه الغموض أن جمعيّاته السمجة التي يتغلغل فيها الفساد ويمزّقها العنف لا تصلح لحكم الإمبراطوريّة[٤]. البائس يخشى الكوارث أكثر من غيره، رغم أنّ العكس يجب أن يكون لأنّه لايوجد شيء يخشى خسارته. لقد انقلبت الأمور رأساً على عقب، تصوّر أنّه في عصر الإمبراطور تيبيروس كان يسكن مدينة نابولي خمسون ألف إنسان يقتاتون الأعشاب ويستترون بنصف كساء من الكتّان، هؤلاء أشقى سكّان الأرض، كلّما رؤوا الدخان يتصاعد من فوهة بركان فيزوف تخاذلوا على أبشع صورة، يذهب بهم الغباء إلى حدّ الخوف من أن يصبحوا أشقياء. إنّ شعباً مثل هذا لا يجرّب من نفسه إلاّ العجز، كان يقبل أن يحكمه أيّ إنسان يؤمّن له الخبز والألعاب، كان يتأثّر كما يتأثّر الأطفال والنساء، ومثل هؤلاء يغتمّون لما يشعرون به من مسكنة. لقد أصبح شعب روما يرى السعادة في أيّ فارق يظهر بين إمبراطور وسابقه، مهما دقّ هذا الفارق إلى حدّ أنّه أظهر عند وفاة الإمبراطور جرمانيكوس Germanicus من آثار الحزن والأسى واليأس ما لا يتصوّره أحد، فقط لأنّ جرمانيكوس أغدق عليهم. تعلّقوا به بصدق، ولمّا فقدوا هذا الملاذ غمرهم اليأس. وصف المؤرّخون

[١]- أديث هاملتون، الأسلوب الروماني، م.س، ص١٥٦.

[٢]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام، ج٢، م.س، ص٣٦٩.

[٣]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٣٣.

[٤]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٢، مج٣، م.س، ص٨.

بإطناب هذه الكآبة الشعبيّة التي طالت وتجدّدت متجاوزة كلّ حدّ، وذلك من دون أدنى تكلّف، أنّ الشعب حين يعبرّ عن مشاعره لا يصطنع، لا يتملّق ولا يداهي[١].

الخبز والملاهي هما الكلمتان اللتان أوجز بهما عدد كبير من المؤرّخين الوضع الذي هيمن على روما واستبدّ بها. لقد كان الشعب الروماني مهووساً بالملاهي، والمجالدة، وسباق المركبات في حلبة المصارعة، أو حلبة الطراد، ويكفي أن نشير هنا إلى هذا الهوس الجنوني، والاندفاع الحماسي، والشعبيّة التي لا حدّ لها، التي كانت ترافق مجرّد التلفّظ بأسماء الممثّلين والمغنّين والراقصين. لقد برهنت الجماهير في كلّ آن وأوان عمّا تجيش به من نزوات الاستبداد والبطش والقوّة، كما برهنت دوماً من جهة أخرى عن عفويّة حماستها وعن غضبها، ولذا ترتّب على ذوي الأمر أن يعرفوا كيف يثيرون هذه ويتفادون تلك. وما من إمبراطور حاول جادّاً أن يقاوم هذا الهوس حتّى عندما كان يوجس شرّاً من نتائجه الماليّة وتأثيره الأدبي السيّئ، بل على العكس من ذلك نرى معظم الأباطرة يتملّقون الجماهير ويتحبّبون إليهم محاولين أن يبزّ الخلف منهم السلف في هذا المضمار. غير أنّ هذه الإمبراطوريّة لا يمكن أن تستمرّ على هذا النحو من الفاقة والإسراف والإملاق[٢]. ولمّا نفدت هذه الموارد قام الأباطرة بمصادرة أموال الأعيان، وقد رآهم الشعب يقومون بذلك من دون استنكار، لقد استفاد الشعب من ثمرات الطغيان من دون حرج؛ لأنّه كان يرى في دناءة وضعه ضماناً لحياته، وبالمقابل عادى هؤلاء الأباطرة الأشرار أهل الخير إذا استشعروا من عزوفهم السخط وعدم الرضا، كما نقموا على كلّ مواطن زاهد خالف أو لاذ بالصمت. غرّتهم هتافات الغوغاء فاقتنعوا أنّ الجمهور كلّه راض على حكومتهم مغتبط بها، ولا يعترض عليها إلّا من ساءت نيّته[٣].

ولكن ألا يحقّ لهذا الشعب مقابل ما يقدّمه للإمبراطور من سلطة يواليه إياها، وسمات ملك عريض عزيز، وجيوش جرّارة، أن ينعم بالخبز والمسرح واللهو؟ وأن ينال كلّ ما يطمع فيه أو يطمح إليه؟ كلّ هذا يملي بالفعل الثمن الذي يدفعه النظام الجديد تزكية لوجود

[١]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٣٣.

[٢]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام، ج٢، م.س، ص٣٦٧، ٣٦٨

[٣]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٣٧، ١٣٨.

وقيامه، وهو ثمن زهيد جداً أمام اعتزال الشعب الملك، أي السلطة الفعليّة، وتخلّيه عنها طوعاً واختياراً للإمبراطور. ففي تأمين سبل عيش هذا الشعب وتوفير أسباب تسليته، والترفيه عنه، أمِن الإمبراطور نفسه وسلامة النظام، وحمى نفسه من أيّ انقلاب سياسي يقوم به الشعب، وحال دون أيّة انتفاضة تخطر على بال أحد منهم، كما أنّ نهجاً من هذا النوع يجعل الطبقات الاجتماعيّة الممتازة بمعزل عن كلّ ثورة اجتماعيّة[1].

منذ أن صدّ الرومان عن السياسة وعن الحرب، أصبحوا أخسّ شعب على وجه الأرض، أصيب هذا الشعب بالكسل حتّى أنّه عزف عن العمل، لا يتعاطى التجارة ولا يمارس الصناعة، إذ يرى فيهما مهنتين للعبيد، أهمل الزراعة وأخذ ينتظر أن يتلقّى قوته من الدولة، كان يقضي جلّ وقته في الملاعب، غير ملزم بحضور خطب النقباء، غير مطالب بانتخاب الولاة، فواظب على الكسل والبطالة والخمول، يزداد بها شغفاً بقدر ما يظلّ عاطلاً عن العمل. حزن كثيراً إثر وفاة أسوأ الأباطرة، من أمثال كاليغولا Galigula (٣٧ – ٤١م)، كلوديوس الأول Claudius I (٤١- ٥٤م)، ونيرون Nero (٥٤ – ٦٨م)، وكركلاّ Caracalla (١٨٨- ٢١٧م)، لأنّهم كانوا سفهاء مثله، مولعين إلى حدّ الوله بما يحبّ ويهوى، شاركوا بأموالهم وأحياناً بأنفسهم في ولائمه وملاهيه[2].

٢. الإمبراطور والطبقة الأرستقراطيّة

لقد طرأ تبدّل عميق على بنية المجتمع الروماني بصورة ملحوظة، فلم يكن المجتمع مستقرّاً أبداً، وكثير من العائلات الأرستقراطيّة تراجعت للخلف[3]، فنتيجة لاضطراب حبل الأمن خلال سنوات الحرب الأهليّة، والأوهام التي سكنت في رؤوس الأباطرة عن المؤامرات والدسائس ولا سيّما خلال القرن الأوّل للميلاد، جعلت هؤلاء الأباطرة يطيحون دون شفقة أو رحمة بعددٍ كبير من صفوف أعضاء مجلس الشيوخ، فبمجرد شبهة أو بعض الظنون في محاولة اعتداء على صاحب الجلالة، كانت كافية وحدها لحملهم على الانتحار امتثالاً منهم للقدر الغاشم، فليس من العجب أن يسيطر الهلع على أعضاء مجلس الشيوخ

---

[١]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام، ج٢، م.س، ص ٣٦٨.

[٢]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٣٧.

[٣]- أديث هاملتون، الأسلوب الروماني، م.س، ص١٥٨.

خلال زمن تيبيروس ونيرون ودومتيان، ويدفع بالكثير منهم إلى الانتحار تخلّصاً ممّا يحوم حولهم من شبهات وما ينتظرهم من مصير غامض. وعندما خفّت حدّة هذه الخوف وخفتت وطأة هذا الهلع نوعاً ما، في عهد نيرفاNerva (٩٦- ٩٨م) وتراجان، كانت الدولة الرومانيّة قد فقدت خير رجالات مجتمعها[١].

لقد انهارت القيم الاجتماعيّة الرومانيّة عندما انهار مجلس الشيوخ الروماني الحارس العتيد للقيم والعادات والتقاليد والإرث الثقافي القديم، لقد فقد مجلس الشيوخ الكثير من هيبته وجلالته بوصفه السلطة التشريعيّة في الدولة الرومانيّة، ولا سيّما في عهد الأباطرة المستبدّين من أمثال كلوديوس الأوّل ونيرون وهادريان وسبتيموس سيفيروس، فقد ناصب هؤلاء المجلس العداء وكادوا لهم كيداً ودبّروا لهم المؤامرات واضطهدوا كثيراً منهم[٢]. وبعد أن كان هذا المجلس تجسيداً حيّاً للأرستقراطيّة الرومانيّة يوماً ما، صارت مهمّته قاصرة على تأييد رغبات الإمبراطور الجالس على العرش، حتّى أنّ الموافقة الشكليّة التي كان يبديها المجلس في تنصيب الأباطرة ضرب بها عرض الحائط، ولم تعد أمراً مرغوباً به[٣]. بينما مال أعضاء مجلس الشيوخ إلى الكسل والخمول، واعتادوا على الخضوع أو الرشوة منذ أن فقدوا آخر ما بقي لهم من هيبة وسلطان ومكانة باغتيال برتيناكس Pertinax سنة ١٩٧م، فسقط بذلك الحاجز الأخير الذي كان يستطيع إنقاذ الدولة من الانهيار، وأخطار الغزوات الخارجيّة، وفوضى الحروب الأهليّة[٤].

إنّ عمليّة الفتك بالجملة في أعضاء مجلس الشيوخ من الأسر العريقة، لم تكن بالطبع وحدها كفيلة بالقضاء على هذه الطبقة النخبويّة، وأن تحكم عليها بالفناء والمحق، كما أنّ أحكام الإعدام لم تكن لتلحق الأذى الماديّ بأبناء المحكومين، هذا إذا ما سلّمنا بوجود أولاد لهم. إنّ المفجع في الأمر هو أنّ معظمهم لم يكن له أولاد[٥]، فكبار القوم أنفسهم من أعضاء مجلس الشيوخ وغيرهم عزفوا عن الزواج، وصاروا يميلون إلى حياة اللهو والمرح، كانوا يرون

---

[١]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام، ج٢، م.س، ص٣٨١.

[٢]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، م.س، ص٢٢٤.

[٣]- محمود الحويري، رؤية في سقوط الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٢٥.

[٤]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٣، مج٣، م.س، ص٤١٠.

[٥]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام، ج٢، م.س، ص٣٨١.

في الحياة العائليّة ومسؤوليّاتها عبئاً ثقيلاً عليهم، وقيداً يريدون التحرّر منه بقدر ما يستطيعون. لذلك انتشر التسرّي انتشاراً كبيراً؛ لأنّه بمقتضاه يستطيع أمثال هؤلاء الرجال إطفاء شهواتهم وإشباع ميولهم ونزواتهم دون التقيّد بقيود الزواج[١]. لقد أصيب المجتمع كلّه بالفسق حتّى أنّ مشاهد الخلاعة المتطرّفة كانت تمثّل علانية، ليس فقط في الحفلات والتسليات الكبرى، وإنّما في عروض الألعاب أيضاً، ولاسيّما أيام الإمبراطور دومتيان، فقد مثّلت القصص الميثولوجيّة عن الفاحشة العنيفة أمام المدينة كلّها دون أن تجد من يعترض عليها[٢].

بعد أن تدهورت الأخلاق العامّة بين أبناء الطبقات الممتازة في روما خلال العصر الإمبراطوري، انتقل هذا التدهور إلى باقي الطبقات الاجتماعيّة، واتخذ هذا التدهور صوراً وأشكالاً مختلفة من الفساد والشرّ، من بينها العزوف عن الزواج، وقلّة الإنجاب، والانحلال الخلقي، والعلاقات المشبوهة، وبيوت الدعارة[٣]. لم يكن شيوخ روما الجدد كشيوخ روما في الأمس، مثلهم مثل شعبها وفرسانها. قبل العصر الإمبراطوري كان الجميع مستعدّاً للقتال كلّما دعوا إليه، أمّا في أيام الإمبراطورأولس فيتليوس Aulus Vitillius (٦٩- ٧٠م) وفسباسيان (٧٠- ٧٩م) فقد طغى على روما طموح الطامعين وجزع الأغنياء، فعاد سكّانها يفترقون رعباً كلّما اقتربت من الأسوار شرذمة مسلّحة[٤]. فقد شيوخ روما كرامتهم أو ربمّا كانوا دون كرامة أصلاً، مادام من أحضرهم لمجلس الشيوخ كان يريد منهم أن يكونوا دمى بشريّة، حوادث كثيرة تؤكّد ذلك، عندما كان سبيتموس سيفيروس يتأهّب لدخول العاصمة روما بجنوده الإلّيريين، قابله المندوبون الذين أرسلهم مجلس الشيوخ للتفاوض معه وليطلبوا منه الرحمة والعفو، فما كان من هؤلاء الجنود الإلّيريين إلاّ أن طردوهم بإذلال، ثمّ أنعم سيفيروس على كلّ واحد منهم بثمانين قطعة من النقود، وكان ذلك أقصى درجات الإهانة، فقد تمّ شراؤهم كخدم تابعين؛ ليقدّموا خضوعاً لم يتح لهم الوقت كي يفاوضوا من أجله، ولم يهيئ لهم شرف الحديث فيه[٥].

[١]- أحمد الشنتناوي، عادات الزواج وشعائره، م.س، ص١٥٢، ١٥٣.

[٢]- أديث هاملتون، الأسلوب الروماني، م.س، ص٢٢٧.

[٣]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام، ج٢، م.س، ص٣٨٢.

[٤]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص١٣٩.

[٥]- جان بابليون، إمبراطورات سوريّات، م.س، ص١٢٨. وانظر: ص٧٤.

الخاتمة

إنّ المطّلع على التاريخ الروماني سيجد أنّ الثروات التي تدفّقت على روما نتيجة سيطرتها على أغنى الأقاليم في العالم القديم، وما أعقبها من تبدّل نظامها السياسي من الحكم الجمهوري إلى نظام الحاكم الفرد، قد أسهم في تبدّل عميق أصاب المجتمع الروماني، أهمّ مظاهره تجلّت في نشوء طبقة جديدة من محدثي النعمة لا تؤمن حتّى بالحدّ الأدنى من القيم والعادات والتقاليد الاجتماعيّة الموروثة، سعت للثروة بشتّى السُبل، حتّى لو كان الأمر على حساب بنية المجتمع الروماني، وقد نالت هذه الطبقة الجديدة رعاية الإمبراطور والنظام السياسي الجديد، لا بل إنّها كانت من مفرزاته وجزءاً لا يتجزّأ منه، لذلك كان من الطبيعي أن تلقى الرعاية والدعم منه. لقد أسهم النظام السياسي الروماني الجديد في ضرب بنية المجتمع عندما أعلنها حرباً مفتوحة على أعضاء مجلس الشيوخ، الحرس القديم والعتيد للعادات والتقاليد الرومانيّة، فالإعدامات والمصادرات والنفي والاضطهادات، وميل أبناء شيوخ روما الذين نجوا من يد البطش إلى حياة اللهو والفسق، وعزوفهم عن الزواج وإحجامهم عن الإنجاب، أدّى إلى انهيار هذه الطبقة التي حافظت على روما في أسوأ أيامها السوداء. وهكذا كان انهيار المجتمع والقيم الأخلاقيّة نتيجة استبدال طبقة أرستقراطيّة بطبقة أرستقراطيّة أخرى، وقد رافق هذا التبديل انهيار للمفاهيم التي كانت تتمسّك بها طبقات المجتمع القديمة مثل الأسرة والزواج والأبوّة الصالحة، فَخَرَجَ الابن عن سلطان أبيه، وخَرجت الزوجة عن سلطان زوجها، ومالت النساء للتجمّل واستعمال المساحيق وأهملت أسرتها، وتناقص عدد المواطنين الرومان، وأنذرت هذه التطوّرات الكارثيّة بهلاك المجتمع. وكان أغسطس الذي أوّل من أسهم في هلاك المجتمع، أوّل من سعى لإعادة إصلاحه وتقويم ما اعوجّ منه، فسعى لمكافحة الخيانة الزوجيّة والزنا والعزوف عن الزواج والإعراض عن الإنجاب، لكنّ جميع محاولاته باءت بالفشل. لقد كان انهيار الأسرة والمجتمع والقيم الاجتماعيّة والأخلاقيّة في روما قد أفضى إلى أزمة مركّبة، فأمام هذا الانهيار الأخلاقي على مستوى الطبقات الاجتماعيّة كافّة، سعى الأباطرة الرومان لتقريب طبقة الغوغاء في روما، حتّى يكتفوا شرّها ويلهوها بألعابها وقوتها اليومي عن السياسة والحكم ومفاسد السلطة السياسيّة، وهكذا عمّقوا أزمة المجتمع وأسهموا سلباً في تفاقم المشكلة، وحوّلوا سكّان روما

إلى عالة على أمم الأرض جميعها، تلك التي دخلت تحت سلطة الرومان السياسيّة. وكان من الطبيعي أنّ أمةً لا تعمل ستتفرّغ للآثام والشرور والموبقات والفجور والملاهي والزنا والفاحشة وبيوت الدعارة والعاهرات، ولمّا كان الأباطرة من هذا الشعب، فإنّهم انغمسوا قبله في هذه الملذّات الدنيئة، فكانوا مثلاً يحتذى به وقدوة ساقطة لهم، ولما كان الأباطرة لا يجدون أموالاً ينفقونها على أتباعهم وأعوانهم وملذّاتهم، فإنّهم لم يتورّعوا عن نهب أثرياء المجتمع أمام أنظار الشعب الذي وافقه تصرّفاتهم بعد أن ابتلي بالدناءة والخسّة والنذالة.

لائحة المصادر والمراجع

١. أديث هاملتون، الأسلوب الروماني في الأدب والفنّ والحياة، ترجمة: حنّا عبود، منشورات وزارة الثقافة- المعهد العالي للفنون المسرحيّة، دمشق ١٩٩٧م.

٢. أحمد الشنتناوي، عادات الزواج وشعائره، سلسلة اقرأ ١٦٩، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٥٧م.

٣. أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام، ج٢، روما وإمبراطوريّتها، ترجمة فريد داغر وفؤاد أبو ريحان، ط٢، منشورات عويدات، باريس-بيروت ١٩٨٦م.

٤. جان بابليون، إمبراطورات سوريّات، تاريخ فترة التأثير السوري في الإمبراطوريّة الرومانيّة، ترجمة يوسف شلب الشام، العربي للطباعة والنشر، دمشق ١٩٨٧م.

٥. شفيق الجراح، دراسة في تطوّر الحقوق الرومانيّة ومؤسساتها، ط٧، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٥م.

٦. عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، دار مرايا للطباعة والنشر والتوزيع، دبي ٢٠٢٠م.

٧. محمّد الزين، محمّد محفّل، دراسات في تاريخ الرومان، ج٢، ط٨، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٥م.

٨. محمّد البرازي، محاضرات في الحقوق الرومانيّة، مؤسّسة هنداوي، المملكة المتحدة ٢٠١٨م.

٩. محمود محّمد الحويري، رؤية في سقوط الإمبراطوريّة الرومانيّة، ط٣، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٥م.

١٠. مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، أسباب النهوض والانحطاط، ترجمة عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ٢٠١١م.

١١. نور قطرميز، المرأة الرومانيّة في العصر الإمبراطوري من ٣١ ق.م إلى ٣٣٠م، رسالة معدّة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، جامعة دمشق ٢٠١٤م.

١٢. هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج٢، في العصور الملكيّة الجمهوريّة الإمبراطوريّة حتّى عهد الإمبراطور قسطنطين، دار الفكر الحديث، لبنان ١٩٦٧م.

١٣. ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح أو الحضارة الرومانيّة، ج٢، مج٣، ترجمة: محمّد بدران، بيروت ١٩٨٨م.

دراسة نقديّة للحياة الثقافيّة والأدبيّة والفنيّة في الإمبراطوريّة الرومانيّة

أنس أحمد الشامي[١]

مقدّمة

أطلق الرومان على أنفسهم هذا الاسم تيمّناً بمدينة روما، التي بنيت عام ٧٥٣ق.م، وما هو معروف عنها أنّها بنيت على الدم، حيث قتل الأخ أخيه، فهذا الفعل الشنيع توارثه الرومان عن أسلافهم، فكانوا رجال حرب لا علم، وعندما ندرس ثقافة وأدب وفنّ الرومان، نجد أنّهم شعب مقلّد ليس إلّا، أخذوا معارفهم من البلدان التي قهروها بحدّ السيف، كبلاد الإغريق والشرق وشمال إفريقيا، فسيطروا على مقدّراتهم الحضاريّة وعاشوا مستظلّين بإنجازاتهم. فالأدب الروماني ما هو إلّا نسخة سيّئة من الأدب اليوناني، ولقد استخدموا اللغة اليونانيّة، التي أصبحت لغة العلم والتأليف، ولغة السواد الأعظم من الشعب الروماني، في حين أنّ اللغة اللاتينيّة هي اللغة الرسميّة، لكنّ معجمها اللغوي قليل. اعتمد الرومان في فنونهم على فنّاني الإغريق والشرق. لقد مال الرومان إلى التطرّف في كلّ شيء، فقصورهم ضخمة، وقبورهم فخمة، وحروبهم مدمّرة، وأعمدتهم شاهقة، تستولي على الإعجاب وتنسي ما خلّفوه من دمار. في هذا البحث سنسلّط الضوء على ضعف الإنتاج الروماني الثقافي والأدبي والفنّي في العصر الإمبراطوري، والمآخذ عليه، باعتباره تقليداً لغيرهم وليس إبداعاً منهم.

أولاً: نقد الحياة الثقافيّة في الإمبراطوريّة الرومانيّة

١. العلوم الفكريّة

أ- الفلسفة

بالرغم من كلّ الاهتمام الذي حظيت به الفلسفة عند شعوب العالم القديم، إلّا أنّ الرومان اعتبروها خطراً على المجتمع الروماني، لذلك طرد مجلس الشيوخ الروماني

---

[١]- دكتوراه في تاريخ الشرق القديم (عصور كلاسيكيّة).

الفلاسفة الإغريق، الذين توافدوا إلى روما بعد الاحتلال الروماني لمدنهم. وفي القرن الأوّل الميلادي مال الرومان لتعلّم الرواقيّة، وخصوصاً بعد أن نجح أحد معلّميها بالتوفيق بينها وبين احتياجات رجال الدولة والأباطرة. ومع ذلك شكّلت شبهة من قبل بعض الأباطرة، ففي مؤامرة بيزون[١] كالَ تيجلينوس رفيق نيرون المعتّق اتهاماً لروبليوس بلاوتوس، وصوّره بصورة الطامع في عرش الإمبراطوريّة، ورماه بالرواقيّة بقوله: «إنّه ينتمي إلى نحلة الرواقيين المتصلّفين، مثيري الشغب وطالبي الفوضى»، وكان لروبليوس مستشارون من الفلاسفة، فما كان من نيرون إلّا أن قام بنفيهم. وفي عهد فسباسيانوس اتّهم أحد الفلاسفة بالامتناع عن أداء فرائض الاحترام للإمبراطور، فتمّ طرد الفلاسفة من روما عام ٧١م[٢]. وفي القرن الثالث الميلادي ظهرت الأفلاطونيّة المحدثة، التي أسّسها أفلوطين من ليقوبوليس[٣]، إنّ طابع هذه الفلسفة ليس يونانيّاً ولا رومانيّاً بل شرقي، لم يكن مقرّ هذه الفلسفة اليونان بل الإسكندريّة[٤].

ب- التاريخ

دأب الأباطرة الرومان على فرض أشدّ العقوبات بكلّ كاتب يسخر من ممثّلي السلطة أو يشكّك في المبادئ، التي تقوم عليها الإمبراطوريّة، فكان نظامهم مستبدّاً، حيث تعرّض الكُتّاب للتعذيب، فأغسطس أمر بإحراق ما يقارب ألفي كتاب في الميدان العام علناً وأمام الجميع، الأمر الذي دفع مؤلّفها تيتوس ليبينيوس للانتحار[٥]. لقد اعتبر الرومان التاريخ أدباً وليس علماً، فجلّ كتاباتهم لم تخضع لمنهج البحث العلمي، بل لمعايير الذوق الفنّي، فكبار المؤرّخين عند تأريخهم للأحداث اعتبروا صقل الأسلوب والتجانس غاية أسمى من تحرّي الحقيقة للتأثير في نفس القارئ. يقول شيشرون: «نحن نسلّم للبلاغيين بحقّ تشويه التاريخ،

---

[١]- كايوس كلبورنيوس بيزون: من أعيان الرومان، حبك مؤامرة ضدّ نيرون، وانتحر في سنة ٦٥م بفتح شريانيه.

[٢]- إميل برهييه: تاريخ الفلسفة، الجزء الثاني، الفلسفة الهلنستيّة والرومانيّة، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م، ص ٢٠٣.

[٣]- محمّد عبدالرحمن مرحبا: تاريخ الفلسفة اليونانيّة من بدايتها حتّى المرحلة الهلنستيّة، مؤسّسة عزالدين للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م، ص ٣٢٥.

[٤]- وولتر ستيس: تاريخ الفلسفة اليونانيّة، ترجمة مجاهد عبدالمنعم مجاهد، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٤م، ص ٢٩٩.

[٥]- سما بشير أحمد عبدالعال: الكتاب في الحقبة اليونانيّة والرومانيّة، ص ٤٨.

حتّى تكون رواياتهم أشدّ وقعاً في النفس»[١]. ازداد في العصر الإمبراطوري الاهتمام باللفظ دون المعنى، وشاعت في المؤلّفات الأفكار السطحيّة، ومن هؤلاء المؤرّخين ليفيوس (٥٩ ق.م – ١٧م) الذي يعتبر من أعظم كتّاب الحوليّات الرومان، كتب تاريخ روما منذ تأسيس المدينة حتّى سنة ٩م. يغلب على كتاباته النزعة الأدبيّة، تاريخه ملحمة تشيد بأمجاد روما نثراً، مثلما تشيد بها الإنياذة شعراً[٢]. لا يهدف في كتاباته إلى التحرّي العلمي أو الاستقصاء، يؤخذ عليه عدم فهمه العميق للظروف الجغرافيّة والعلوم العسكريّة[٣]، كما أنّه لم يدرس مصادره الأولى دراسة واعية متأنّية[٤]. أمّا تاكيتوس فعندما أرّخ لمن قبله ووصل إلى الحقبة التي هو فيها، أعلن عن رغبته في ترك التأريخ لهذه الحقبة. وبالرغم ممّا اتصف به من الحنكة والحياد، فهناك ما يؤخذ عليه في جمعه لمعلوماته، كقصر نظره، إذ اقتصر في جمعها على حاشية الإمبراطور، كما أنّه لم يول للولايات إلّا الشيء النذير[٥].

جـ- الجغرافيا

بالرغم من كلّ ما حفل به الرومان من تقدّم عسكري وموارد وثروات، إلّا أنّهم لم يتوصّلوا لرسم خريطة للعالم، فأغسطس الذي كلّف صهره أغريبا أن يرسم خريطة للعالم، مات قبل أن يفرغ من رسمها، فأكملت بعد وفاته. إنّ هذا الرسم كما بدا سواداً على بياض لم يتصف بالدقّة. أمّا الجغرافي الاسباني بومبينيوس ميلا فقد سلّم بالخزعبلات والتلفيقات، التي يردّدونها حول العنقاء والنساء المسترجلات، وغير ذلك من الغرائب والكائنات العجيبة، واعتبر بلّيني الأكبر أنّ أوروبا أكبر بكثير من آسيا وأفريقيا. ومن الجغرافيين البارزين في العصر الإمبراطوري مارينوس Marinus الصوري، الذي عاش بين أواخر القرن الأوّل، وبداية القرن الثاني الميلادي، وكان أوّل من استعمل الطرق العلميّة في كتابة الجغرافيا[٦].

---

[١]- عبد اللطيف أحمد علي: مصادر التاريخ الروماني، دار النهضة العربيّة، بيروت، ١٩٧٠م، ص ١١-١٢.

[٢]- أحمد عتمان: الأدب اللاتيني ودوره الحضاري، عالم المعرفة، إشراف أحمد مشاري العدواني، الكويت، ١٩٨٤م ص ٢٤٤-٢٤٦.

[٣]- عبد اللطيف أحمد علي: مصادر التاريخ الروماني، ص ١٥-١٦.

[٤]- فايز يوسف محمّد: محاضرات في أدب الرومان في العصر الذهبي، جامعة عين شمس، ط١، ٢٠٠٠م، ص ٩٦ – ٩٧.

[٥]- أندريه أيمار وَجانين أوبايه: تاريخ الحضارات العام، روما وإمبراطوريّتها، ترجمة فريد م.داغر وَ فؤاد أبو ريحان، إشراف موريس كروزيه، المجلّد الثاني، منشورات عويدات، بيروت-باريس، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م، ص ٤٨٧.

[6]- K.Hitti, Pillip: Lebanon in history, London, 1957, p202.

وبجهوده اتسعت المعلومات الجغرافيّة عن مناطق المحيط الهادي والشرق الأقصى. لقد سجّل لنا قصّة منبع نهر النيل، التي تبدأ من الساحل الشرقي لأفريقيا، عند نقطة تقع شمالي زنجبار بقليل. وعن سجلاّته رسم بطليموس[١]، أعظم جغرافي وفلكيي عصره، خريطته المشهورة في أواسط القرن الثاني الميلادي، وهي تبيّن مجرى النيل ممتداً من خطّ الاستواء إلى البحر المتوسّط، وتظهره نابعاً من بحيرتين مستديرتين، تستمدّان المياه بدورهما من سلسلة جبال القمر، وقد ظلّت خريطة بطليموس طوال ١٧٠ عاماً أعجوبة جغرافية[٢]. وضع بطليموس كتاباً بالجغرافيا Geography، كان مقتنعاً مثل معلّمه مارينوس بكرويّة الأرض. كما أنّ الطريقة الفذّة التي اتبعها بطليموس باستعمال خطوط الطول والعرض لتحديد الأماكن، كانت من ابتكار مارينوس، حيث قضى باختراعها على الحدس والتخمين، الذي كان يلجأ إليه المسافرون عند تعيينهم لكلّ موقع جغرافي.

٢. الحقوق

اعتُبر العصر الإمبراطوري العصر الذهبي للقانون الروماني، حيث تأثّر المجتمع الروماني بالثقافة اليونانيّة والشرقيّة[٣]، إذ عني الفقهاء بالمؤلّفات العلميّة، واستمدّوا من اليونان طريقتهم في تقسيم وتبويب المؤلّفات القانونيّة. بنى الرومان مدارس للحقوق، كان أشهرها مدرسة بيروت[٤]، التي بنيت في عهد الإمبراطور سبتيموس سيفيروس، توسّعت هذه المدرسة حتّى أصبحت من أشهر المدارس في الإمبراطوريّة، ففاقت بشهرتها مدارس أثينا والإسكندريّة؛ وذلك بفضل الرجال الكبار الذين تخرّجوا فيها، فلقّبت بيروت بعدها (بأمّ الشرائع ومرضعتها)[٥]، ومن الأساتذة الكبار الذين درَّسوا في مدرسة بيروت، بابنيان وأولبيان

---

[١]- ولد في مصر عام ٨٥م وتوفيّ في الإسكندريّة عام ١٦٥م، وهو مؤلّف كتاب الماجستي الذي يتكوّن من ثلاثة عشر كتاباً شرح فيها الكثير من الظواهر الفلكيّة.

[٢]- مورهيد، آلان: النيل الأبيض، ترجمة محمّد بدر الدين خليل، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، دار المعارف، مصر، ١٩٦٥م، ص ١٩٥.

[٣]- صاحب عبيد الفتلاوي: تاريخ القانون، مكتبة دار الثقافة للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م، ص ١٠٦.

[٤]- أندريه أيمار وَجانين أوبايه: تاريخ الحضارات العام، روما وإمبراطوريّتها، ص ٤٧٥.

[٥]- جوزف صقر: قصّة وتاريخ الحضارات القديمة (١-٢)، (تاريخيّة- جغرافيّة- حضاريّة- أدبيّة)، لبنان (١)، من عصور ما قبل التاريخ حتّى عهد المتصرفيّة، بيروت، ١٩٩٩م، ص ٨٨- ٩٠.

اللذان ساهما في تطوير القانون الروماني كثيراً[١]، فأغنوا الفقه حتّى وصل درجة عالية من التهذيب. أمّا بابنيان فقد شغل رئيس ديوان الالتماسات أو الشكاوى في عصر سبتيموس سيفيروس، ومنصب قائد الحرس البريتوري، لقي حتفه على يد كراكلاّ سنة ٢١٢م، حيث قتله بطريقة شنيعة بالفأس بدل السيف[٢]، وذلك بعد أن رفض كتابة نصّ يبيح له قتل أخيه، فأجابه قائلاً: «الإقدام على قتل الأخ أسهل من تبريره». أمّا أولبيان فقد خدم كمستشار قضائي في ديوان بابنيان، وعضواً في المجلس الإمبراطوري الاستشاري ومديراً للتموين، وقائداً للحرس البريتوري في عصر الإسكندر سيفيروس، توفيّ عام ٢٢٨م. تقع مؤلّفاته في ٢٨٠ كتاباً نشرت بين سنوات ٢١١-٢١٧م، استقى مصنّفو موسوعة جوستنيان ثلث موسوعتهم منه»[٣].

ومهما يكن من أمر، فإن الفضل في تقدم العلوم القانونية، ولا سيما مدرسة بيروت، تعود لرجال شرقيين لا رومان.

ثانياً: نقد الأدب الروماني في العصر الإمبراطوري

١. فنّ الشعر

يعتبر الرومان رجال حرب وقتال مستوحش، فلم يلمعوا في الآداب إلاّ بعد احتكاكهم مع الشعوب التي قهروها بحدّ السيف، فحظّهم من الصفات الخالصة محدود، ظهر لديهم نوع من الإنتاج الأدبي، ولكن كان في جوهره إغريقيّاً بحتاً[٤]. تأثّر شعراء الرومان بشعراء اليونان والشرق، فكانت أعمالهم إمّا نقلاً ونسخاً، وإمّا تقليداً في الأسلوب والموضوع والوزن الشعري. ويعتبر فرجيل، الذي عاش في القرن الأوّل الميلادي من أهمّ شعراء الرومان، كتب الرعويّات في عشرة كتب، أخذ أغلب موضوعاتها عن ثيوكريتوس[٥]، اتبع منهجه فكان

---

[١]- شارل سنيوبوس: تاريخ الحضارة، ترجمة محمّد كرد علي، مطبعة الظاهر، القاهرة، ١٩٢٥م،ص ٢٠٤-٢٠٥.

[٢]- ديون كاسيوس: التاريخ الروماني، تقديم وترجمة وتعليق مصطفى غُطيس، الكتاب العاشر الكتب LXXX- LXXI، كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة، تطوان، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م، ص ١٢٤.

[٣]- عبداللطيف أحمد علي: مصادر التاريخ الروماني، ص ٩٠-٩٣.

[٤]- نبيل خالد أبو علي: أصول النقد الأدبي ومباحثه بين اليونان والرومان، مجلّة الجامعة الإسلاميّة (سلسلة الدراسات الإنسانيّة)، المجلّد السادس عشر، العدد الثاني، غزّة، فلسطين، ص١-٢١، ٢٠٠٨م، ص١٥.

[٥]- شاعر إغريقي (٣١٥ق.م – ٢٥٠ ق.م)، وضع أساس الشعر الريفي الرعوي.

ترجمة حرفيّة مرّة، وتأويلاً مرّة أخرى. وهناك ما يؤخذ على الرعويّات بما تحتويه على تناقض وضعف شديدين، أمّا التناقض يتمثّل بعدم التناسق بين بساطة الموضوع والطريقة الفنيّة، التي عولجت بها القصيدة، ويتمثّل الضعف بعدم الاتحاد والارتباط بين القصائد ببعضها[١].

أمّا بالنسبة **للزراعيّات** فيدين بها فرجيل لهسيودوس في قصيدته الأعمال والأيّام[٢]، وكذلك للشعراء الاسكندريين[٣]، فمن أغاني السماء لآراتوس أخذ معظم موضوعه المتعلّق بمناقشة نبوءات الطقس، ومن الظواهر لنفس الشاعر أخذ بعض السطور التي تتعلّق بالعالم، ومن أراتوسيثنيس يأتي وصفه لمناطق السماء.

٢. فنّ الخطابة

تراجع فنّ الخطابة في روما، فالتاريخ والشعر استأثرا باهتمام المجتمع[٤]. وكان لفقدان الحريّة وانعدام المنابر السياسيّة أثر واضح، فالكتّاب عالجوا مواضيع خياليّة أو هزليّة، وتجنّبوا الأمور التي لها مساس بالشعوب، وعلاقتها مع النظام الحاكم. بذل أدباء هذا العصر جهداً كبيراً لإحياء عهد البلاغة، كما كانت عليه زمن ديموسثينس، وطالما أنّه من المستحيل تشويق الناس إلى الاستماع لمواضيع كهذه، كان لابدّ من إثارة فضولهم بجدّة الأسلوب، وبهرهم بالافتتان في استعمال جميع المحسّنات اللغويّة واللفظيّة[٥]. في الوقت الذي لم يظهر في العصر الإمبراطوري خطباء رومان على مستوى عال، ظهر خطباء في الولايات، ومن بينها سوريا، التي لبّى خطباؤها دعوات الأباطرة وكبار القوم، وكان لوقيانوس أشهرهم، وغالبا ما يقوم المؤرخون بمقارنته بأفضل الخطباء اليونان في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، ولو وجد في عصرهم لتفوّق عليهم. ولد في عهد الإمبراطور هادريان (١١٧ – ١٣٨م) عام١٢٥م، في سميساط على الفرات الأعلى. كان للوقيانوس مبدأ ثابت، وهو أنّ استئصال فكرة خاطئة من رأس مواطن أجدى بكثير من استئصال ورم من جسد

[١]- فايز يوسف محمّد: محاضرات في أدب الرومان في العصر الذهبي، ص٧٠- ٧١.

[٢]- أحمد عتمان: الأدب اللاتيني ودوره الحضاري، ص١٩٠.

[٣]- حيث ساهم أتباع هذه المدرسة في المجد الشعري لعصر أوغسطس.

[٤]- أندريه إيمار وَجانين أوبايه: تاريخ الحضارات العام، روما وإمبراطوريّتها، ص ٤٣٨.

[٥]- لوقيانوس: مسامرات الأموات، ترجمة إلياس سعد غالي، بيروت، ١٩٦٦م، ص ١٤ – ١٥.

إنسان[١]. ومن الخطباء المشهورين أدريانوس الصوري، المولود في صور (مدينة لبنانية) (١١٣-١٩٣م)[٢]، اشتهر كبليغ وفيلسوف، هاجر من صور إلى أثينا، تبوأ كرسي البلاغة فيها، وتحدّث في أوّل خطاب له عن علمه وقدراته العقليّة واعتزازه بأصله الفينيقي، فقال: (ها إنّ الحرف يأتيكم مرّة أخرى من فينيقية)[٣]. ذاع صيته حتّى أنّ الإمبراطور هادريان استمع إليه، وأعجب به ماركوس أوريليوس. وفي عهد كومودوس (١٨٠- ١٩٢م)، عُيِّن سكرتيراً خاصّاً. ومن الخطباء أنتيباتر الذي عاش في فترة حكم الإمبراطور سبتيموس سيفيروس (١٩٣- ٢١١م)، وابنه كراكلاّ (٢١١- ٢١٧م)[٤]، وهو من هيرابوليس. امتاز بفنّ كتابة الرسائل، وهذا ما دعا سيفيروس لاختياره سكرتيراً خاصّاً له، وعيّنه معلّماً لولديه كراكلاّ وغيتا. وعندما اغتال كراكلاّ أخاه، كتب له رسالة لوم يأسف فيها بأن لم يبق له سوى عين واحدة ويد واحدة. وأنّ اللذين علّمهما مؤدّبهما أن يستخدما السلاح ليؤيّد أحدهما الآخر، قد استخدماه الواحد ضدّ الآخر.

٣. فنّ الحوار المسرحي

سبقت حضارات الشرق القديم (بلاد الرافدين، مصر، سورية) اليونان والرومان في العمل المسرحي، ومن اليونان انتقل إلى الرومان. تقسم المسرحيّات إلى نوعين: الأولى التراجيديا Tragedy والثانية الكوميديا. لقد فشل الرومان بالتراجيديا فشلاً ذريعاً، فهي تفتقر إلى الإبداع، ومجرّد ترجمة حرفيّة للمسرح اليوناني. أهمّ أدبائها سينيكا Seneca الذي اختير ليكون معلّماً للأمير الشاب نيرون Nero وفيما بعد أصبح مستشاراً له[٥]، ولكن بعد فترة وجيزة حدث نزاع بين الأمّ وولدها نيرون، أودى بحياة الأم[٦]، كان هذا كفيلاً بزعزعة

---

[١]- لوقيانوس: أعمال لوقيانوس السميساطي، ترجمة سعد صائب وَمفيد عرنوق، دار المعرفة، ط١، ١٩٨٧م، ص ٣.

[2]- Hammond.N.G.L and Scullard.H.H: the Oxford Classical Dictionary, second edition, Oxford, p 10.

[3]- Philostratus and Eunapius: The lives of the Sophists, ed and tr: Wilmer ce wright London, 1922, p 269.

[4]- Pillip K.Hitti: Lebanon in history, p 181.

[5]- Hugh Denard: The Cambridge Companion to Greek and Roman Theatre, Lost theatre and performance traditions in Greece and Italy, Cambridge University Press, 2007, p 154.

[٦]- عبد المحسن الصغير، هشام: الإمبراطور نيرون أو نيرو، ص٦٨.

استقرار سينيكا[١]، الذي مات منتحراً. اقتبس سينيكا موضوعات تراجيديّاته من الأساطير اليونانيّة، فاعتمد النصّ اليوناني، واستعمل اللغة واللباس اليوناني[٢]، فأخذ النصّ الإغريقي الذي ألّفه يوريبيدوس عند كتابته لمسرحيّة هرقل، واقتبس مسرحيّة أجاممنون من مسرحيّة اسخيلوس، كما أنّه كتب مسرحيّة أوديب وهرقل فوق جبل أوتيا من مسرحيّتين لسوفوكليس، هما أوديب ملكاً والتراخينيّات. وممّا يؤخذ على تراجيديّاته، تفكّك وعدم ترابط حبكته الدراميّة، وضعف شخصيّاته وافتقار أفكاره إلى العمق الواجب، ولعلّ العصر الذي عاش فيه سينيكا، كان عصر يقتات على الرعب والفظاعة والعنف والقسوة، ونرى ذلك من خلال إقدام سينيكا على جعل بطلته ميديا تذبح فلذّات كبدها أمام أعين الجمهور[٣]. أمّا النوع الآخر فهو المسرحيّات الكوميديّة Comedy، تقسم هذه الكلمة لشقّين الأوّل كوموس Comos[٤] وهو الموكب والثاني أودي أي الأغنية. وممّا يلفت النظر أنّ الرومان شعب عرف عنه العبوس والتجهّم، ولكنّهم اهتمّوا بالكوميديا أضعاف اهتمامهم بالتراجيديا، وأقبل جمهورهم على مشاهدتها بحماس منقطع النظير، والسبب جشعهم وتسلّطهم ومحبّتهم للسخرية. وهي عدّة أنواع، منها كوميديا البالياتا (الكوميديا الأجنبيّة) palliate، تطلق كلمة palliate على كلّ أنواع الدراما المستمدّة من المصادر اليونانيّة والتعديلات اللاتينيّة عليها. حذف المترجمون كلّ ما كانوا يرونه غير مناسب، وإضافة ما اعتقدوا أنّه يلقى اهتماماً من جانب الجمهور. اختار الأدباء الرومان المسرحيّات اليونانيّة، وحوّروها بما تقتضيه المصلحة العامّة، فأسقطوا كلّ نواقص ورذائل الرومان على مدن وشعب الإغريق. ويعدّ بلاوتوس Plautus (٢٥٤ق.م- ١٨٤ق.م) من أهمّ أدبائها، نسبت إليه حوالي ١٣٠ مسرحية، استمدّ موضوعاته من ميناندر[٥]، وكلّها توضح كيف أعطى بلاوتوس نفسه الحريّة في معاملة هذه النماذج المسرحيّة اليونانيّة، فكان يحذف مشاهد بأكملها. يتميّز أسلوبه بتراكم المترادفات،

[١]- سينيكا: ترجمة عبدالمعطي شعراوي، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص ١٥.

[2]- Richard Beacham: Performance in Greek and Roman Theatre within the mise-en-scène of the Roman House, Leiden, Boston, 2013, p 399.

[٣]- ماجدة النويعمي: رؤية في رحلة الدراما عبر العصور (التراجيديا الرومانيّة)، مجلّة أوراق كلاسيكيّة، العدد العاشر، كتاب تذكاري للأستاذ الدكتور محمّد حمدي إبراهيم، تحرير منيرة كروان، القاهرة، ٢٠١٠م، ١٨٩-٢٠٦، ص ٢٠٠- ٢٠٤.

[4]- Marshall Cavendish: Ancient Greece,New York, 2011, p 88.

[5]- Gesine Manuwald: Roman Republican theatre, Cambridge University Press, 2011, p228.

وكثرة الجناس الصوتي والطباق، استخدم الأساطير اليونانيّة بطريقة صحيحة وغير صحيحة، والأحداث في مسرحه تقع في أثينا أو إبيدامنوس أو إيتوليا أو أيّ مكان آخر ببلاد الإغريق. أمّا ترنتيوس الأفريقي Terentius Aferجاء إلى روما من أفريقيا، ولد عام ١٩٠ق.م، ومات في البحر، بينما كان يعود بمائة وثماني مسرحيات لميناندر، ومن الممكن أنّه قد مات بعد أن مرض حزناً على ما فقده في السفينة من مسرحيّاته الجديدة. لم يتغيّر مكان الأحداث عند ترنتيوس، فهو دائماً أثينا أو أي مدينة إغريقيّة أخرى، وجّه إليه شيشرون سهم النقد حين خاطبه قائلاً: (يا نصف ميناندر)، وبأنّه دون بلاوتوس[١]، وإن صحّ التعبير فلربما لو اجتمع إهمال بلاوتوس وحيويّته من ناحية، مع صقل ترنتيوس ووعيه بفنّه من ناحية أخرى، لتوافر للرومان ميناندر جديد. أمّا النوع الثالث من الكوميديا فهو كوميديا الميميّة Mimos وهو فنّ يبيّن كلّ أشكال الفكاهة، ويعتقد أنّه جاء من صقليّة إبّان القرن الثالث قبل الميلاد[٢]. لقد التصق عنصر غياب الاحتشام والوقار بفنّ الميميّة منذ البداية، وكان الهدف من ذلك هو مجرّد الإمتاع أو ما يطلق عليه الهزل الساخر. لقد وصلت الميميّة إلى أدنى درجات الفحش وعدم الاحتشام. وكان من الطبيعي أن تناصب الكنيسة العداء لعروض الميمات. من أهمّ أدبائها السوري بوبليوس سيروس Publilius Syrus، نافس ديكيموس لابريوس وتغلّب عليه أمام يوليوس قيصر في روما، بالرغم من الفرق بين مكانة لابريوس وبوبليوس. كان بوبليوس موهوباً بالظرف والفكاهة، التي اشتهر بها السوريّون، وأدّت قدرته العقليّة ورشاقته الحيويّة إلى أن يحظى بالعتق والحريّة، وأن يحصّل العلم والثقافة ورعاية النبلاء[٣]. أمّا النوع الرابع من الكوميديا فهو كوميديا التوجاتا (الكوميديا الوطنيّة) Togata يدين هذا النوع من الكوميديا في نشأته إلى ردّة فعل العامّة تجاه الكوميديا الأجنبيّة الدخيلة (البالياتا)، ويمكن أن ينطبق مصطلح التوجاتا على كلّ أنواع الدراما غير المأخوذة عن مصادر إغريقيّة[٤].

---

[1]- Suetonius: translation by J. C. Rolfe, PH.D., in two volumes II,Harvard University press, 1979, p P463- 461.

[2]- Isidorus of Seville: The Etymologies of Isidorus of Seville, Stephen A. Barney, W. J. Lewis, J. A. Beach and Oliver Bergh of, Cambridge University Press, 2006, book xix, p 370.

[3]- Gesine Manuwald: Roman Republican theatre, op., cit, p 277.

[٤]- وبير: المسرح الروماني، ترجمة زين العابدين سيّد محمّد، حاتم ربيع حسن، مراجعة محمّد حمدي إبراهيم، المجلس القومي للترجمة، العدد ٢٨٠٤، القاهرة، ط ١، ٢٠١٦م،ص ٢٢٣.

لقد عمل الإغريق ضمن ثالوثين، الأوّل عملي، وهو اعرف نفسك - لا تتطرّف، والثاني معنوي هو الخير والحقّ، فكلّ صيغ اليونان تنحصر في لجم الوحوش القابعة في أعماق النفس، أمّا عند الرومان فاعرف نفسك، صارت اعرف خصمك، ولا تتطرّف أصبحت غامر حتّى تفوز. وتحوّل الحقّ إلى سلطة، والجمال إلى منفعة، والخير إلى استيلاء، فالأسلوب الروماني يخاطب الأعصاب والغرائز، لا العقل والبصيرة، حيث لم تخل خشبة المسرح مرّة من مشاهد عنيفة أو مبالغة سخيفة، على عكس الإغريق الذين يتّسمون بالاتزان، فمسرحهم لم تظهر فيه حادثة عنف واحدة[١].

في هذا العصر بالذات لا يمكننا أن نغفل ما قدّمه الأديب السوري لوقيانوس، الذي تأثّر بمحاورات أفلاطون وأعجب بها[٢]. جمع انتقاداته لمعاصريه، في كتيّب واحد، هو محاورات الأموات[٣]، وهي عبارة عن ستّ وعشرين محاورة، مستقلّ بعضها عن بعض، فيها جدّ وهزل وفكاهة وفلسفة، مسرحها الهاوية، وأبطالها ملوك طغاة، أغنياء وفقراء، أقوياء وضعفاء، فلاسفة وعرّافون، وساعون وراء التركات، وأبطال خرافيّون. خصّ لوقيانوس بستّ من هذه المحاورات أولئك الطمّاعين الممالقين المداهنين، الذين كانوا يحومون حول الأغنياء[٤]. كما خصّ بخمس منها أولئك العظماء والأغنياء المترفين، ولقد سخر لوقيانوس ما استطاع من العرّافين والدجّالين، واستخفّ بالفلاسفة، وكشف حقيقة الصداقة المبنيّة على الطمع وحبّ الأنا، وعن نفاق الدجّالين.

٤. فنّ الرواية

ظهر هذا الفنّ في روما في عهد الإمبراطور الروماني نيرون على يد بيترونيوس أربتار Petronius Arbiter، الذي كتب رواية ساتركون Styricon التي لم يصلنا منها إلّا بعض الشذرات. لم يكن الرومان يعيرون لها تلك الأهمّية، وإنّما كان سكّان الولايات هم من اهتمّوا

---

[١]- أديث هاملتون: الأسلوب الروماني في الأدب والفنّ والحياة، ترجمة حنا عبود، منشورات وزارة الثقافة - المعهد العالي للفنون المسرحيّة، دمشق، ١٩٩٧م، ص ٦-١٤.

[٢]-- لوقيانوس: أعمال لوقيانوس السميساطي، ص ١٩.

[3]- Mathew Bunson: Encyclopedia of the Roman Empire, op., cit, p 330.

[4]- John Bardman – Jasper Griffin – Oswyn Murray: The Oxford Classical world, 2003, p554.

بها، ففي شمال أفريقيا ظهر أبوليوس Locius Apuleius الذي ولد ١٢٥م، لقد سمحت له مواهبه أن يكتب في مواضيع متنوّعة، وتعدّ رواية الحمار الذهبي Metamorphose أشهر ما ألّفه، وهي أوّل رواية كتبت باللغة اللاتينيّة كاملة، تتكوّن من ٢١ كتاباً. وهي قصّة شاب يدعى لوكيوس تحوّل لحمار بفعل ساحرة، عاش على إثرها عدّة محن بفعل انتقاله من مالك لآخر، قبل أن يعود لصورته البشريّة. وقد نجح في أن يعطينا صورة حيّة عن الحياة الرومانيّة اليوميّة في القرن الثاني الميلادي، خاصّة الوجه القبيح منها [١]. وفي سورية ظهر الروائي لوقيانوس السميساطي الذي كتب روايته (قصّة حقيقيّة)، وكان مدفوعاً بعدّة أسباب، منها القلق الذهني ورغبته في معرفة حدود الأوقيانوس ومن يقطن الجانب الآخر فيه، وهذا يدلّ على اهتمام لوقيانوس بالكشوف الجغرافيّة. سرد لوقيانوس هذه القصّة، كما لو أنّها قصّة حقيقيّة وليست خياليّة. في البداية كتب عن التجهيز والتحضير للرحلة[٢]، تنوّعت المحطّات التي وطأها لوقيانوس ورفاقه في هذه المرحلة بحسب الطريق، فمنها ما حطّوا فيها رغماً عنهم، ومنها ما ذهبوا إليها رغبة في ذلك، فأبحروا في البحر، وصعدوا إلى الفضاء، ونزلوا إلى جوف الحوت.

ثالثاً: نقد الفنّ الروماني في العصر الإمبراطوري

اعتمدت فنون الحضارة الرومانيّة على ميراث من فرعين، الأوّل: ما ورثته من الأتروسكيين، والثاني: ما ورثته عن الإغريق. استعمل الرومان خمسة طرز عالميّة في البناء، وهي النظام الدوري الذي نقله الإغريق عن المصريين القدماء، والنظام الأيّوني الذي يعتبر أصله آشوريّاً ثمّ يونانيّاً، كما تأثّرت زخارفه بالروح الشرقيّة، ويرجّح أن يكون التاج من أصل آشوري قديم أو مصري. أمّا النظام الكورنثي فيشبه النظام الأيوني، فيما عدا تاجه فهو يمتاز بطابع خاصّ، ويرجّح أنّ هذا التاج مشتقّ من الأعمدة المصريّة القديمة الناقوسيّة الشكل. ولقد اخترع الرومان النظام المركّب (الكومبوزيت) ولكنّه لم يخرج عن كونه خليطاً من الطراز (الأيّوني – الكورنثي)[٣].

---

[١]- محمّد الحبيب بشاري: الحياة الأدبيّة الرومانيّة ومساهمة الأفارقة في إنعاشها، مجلّة عصور، العدد ٢٠، منشورات مخبر البحث التاريخي (مصادر وتراجم)، جامعة وهران، الجزائر، ٢٠١٣م، ص ١٧-٤٩، ص ٣٨ – ٣٩.

[٢]- لوقيانوس: أعمال لوقيانوس السميساطي، قصّة حقيقيّة، الكتاب الأوّل، ٥، ص ١٨٨.

[٣]- عنايات المهدي: فنّ الزخرفة (الفنّ الإغريقي- الروماني- البيزنطي)، فنّ الزخرفة في عصر بومباي، مكتبة ابن سينا، ١٩٩٣م، ص ٣٠، ٥٨.

١. العمارة

أ- العمارة الدينيّة (المعابد)

اقتفى الرومان أثر الإغريق في تشييد المعابد، فبنوا معابدهم على شكلين، الأوّل: مستطيل التخطيط، يشبه المعبد الإغريقي، ومن أمثلة ذلك معبد بعلبك، خصّص بالمعبد مكان لعبادة الإلهين جوبيتر وباخوس، وتتضح عمارة هذا المعبد من مجموعة الأعمدة الحجريّة، التي تعلوها تيجان كورنثيّة، يظهر فيها الأسلوب الهلنستي في نحت أوراق النبات بالشكل الطبيعي، وهو أسلوب شرقيّ اشتهر به العمّال السوريّون. والشكل الثاني: هو المعبد المستدير التخطيط الذي تحيط به الأعمدة على شكل دائرة. ومن أشهر المعابد المستديرة معبد البانثيون في روما، والذي أقيم ليكون مقرّاً لتجمّع الآلهة، يرجع تاريخ بنائه لعام ٢٧ ق.م في عهد أغسطس[١]، لم يكن عليه قبّة بل صفوف من الأعمدة، ولمّا تهدّم تمّ إعادة بنائه في عهد الإمبراطور هادريان، حيث أقيمت له قبّة تعتبر من أضخم القباب في العالم، وقد صمّمها المهندس السوري أبولودوروس الدمشقي، هذه القبّة نصف كرويّة ترتكز على حائط البناء المستدير، ومفتوحة من أعلاها في الوسط بفتحة مستديرة يدخل منها الضوء والهواء. ترتفع عن الأرض ٤٣,٥٠م، أي بما يساوي قطر البناء، وليس في البناء نوافذ إلا الفتحة العليا في القبّة وقطرها ٩ أمتار.

ب- العمارة المدنيّة

ومن أهمّها الساحة العامّة التي تعتبر مركزاً للنشاط المدني في المدينة، وقد بنى الساحة الإمبراطوريّة عدد من الأباطرة أولهم أغسطس، وكان من أشهر الساحات العامّة ساحة الإمبراطور تراجان Trajan (٩٨- ١١٧م)، التي وضع تصميمها المهندس أبولودوروس. ومن الأبنية المدنيّة المسارح، التي أخذها الرومان عن اليونان، وعملوا على تطويرها باستخدام الحجارة في بنائها، حافظوا على شكلها مع تعديلات بسيطة، أوكل الرومان لعمّال وفنّاني الولايات لبناء مسارحهم، سواء في روما أو في الولايات. استخدم الرومان بداية المسارح الخشبيّة[٢]، ولم يبنوا مسارحهم الحجريّة قبل عام ٥٥ ق.م، وكان منها النصف دائري

---

[١]- شارل سنيوبوس: تاريخ الحضارة، ص١٨٠.

[٢]- إلهامي حسن: شكل المسرح الروماني، مجلّة المسرح، العدد الثامن والعشرون، ص ٦٢.

والدائري (المدرّج)، وقد قسم المسرح الحجري النصف دائري لعدّة أقسام منها الأوركسترا Orchestra، وهي في المسرح الروماني على شكل نصف دائرة، وليست دائرة كاملة مثل المسرح اليوناني؛ نظراً لأنّ الجوقة في المسرحيّات الرومانيّة لم تلعب دوراً مهمّاً[١]، أمّا الكافياCavea أخذت شكل حدوة حصان[٢]، أقيمت على عقود وقباء من الحجارة المدعمة بأساسات صلبة، تظهر من الخارج على شكل ثلاثة طوابق، كلّ طابق منها يتكوّن من العقد الذي يستند على الدعامات والأعمدة. ويراعى دائماً تدرّج ثقل الأعمدة، فالأعمدة الدوريّة استخدمت بالطابق الأوّل لاتسامها بالقوّة والضخامة، وفي الثاني استخدم الطراز الأيّوني. أمّا أعمدة الطابق الثالث فهي من الأعمدة الكورنثيّة. وبالنسبة لوظيفة هذه المسارح، فكانت تعرض عليها المسرحيّات واحتفالات النصر والخطابات السياسيّة، أمّا المدرّجات فكان لها ووظيفة أخرى، فعند ظهور المسيحيّة استخدمها الرومان في تعذيب المسيحيين، فكانوا يضعونهم بالمئات وسط الملعب، ويطلقون عليهم الحيوانات المفترسة، ويتلذّذون برؤية الحيوانات وهي تنهش في الأجسام[٣]. نظّم الرومان مصارعات بين البشر مع بعضهم، وبين البشر والحيوانات، وبين الحيوانات مع بعضها، وكان جلّ هؤلاء من أسرى الحروب والعبيد، الذين يرغمون على القيام بذلك من قبل الرومان وبدمٍ بارد. لقد أيقظ الرومان كلّ ما كان يعتقد اليونان أنّه يجب أن يظلّ هاجعاً، فعرضوا مشاهدً العنف مهما كانت قاسية، ومشاهد الجنس مهما كانت بهيميّة. ومن الأبنية المدنيّة الأعمدة التذكاريّة، التي بناها الرومان تخليداً لانتصاراتهم، وأشهرها عمود تراجان، يتكوّن العمود من ١٨ جزءاً، وطول كلّ جزء (١,٥م)، ويصل ارتفاعه إلى (٤٣م)، وبداخله سلّم حلزوني كالمئذنة فيه ١٨٥ درجة، ويزخرف العمود من الخارج بنقوش بارزة، مستمدّة فكرتها من المنحوتات الآشوريّة، محصورة داخل شريط حلزوني يبلغ طوله (٢٠٠م)، يلتفّ حول العمود، ويمثّل ما يقارب أكثر من (٢٥٠٠) شخص، عدا الجياد ومعدّات الحرب، وتمثّل هذه النقوش انتصار تراجان على بلاد داشيا ما بين عامي (١٠٠-١٠٦م). كما يوجد على العمود صورة لتراجان في مجلسه الحربي بزي كاهن يقدّم القربان قبل المعركة، وصورة تمثّله واقفاً يعطي الأوامر لجنوده،

[١]- نايل، محمّد خليل وَعبدالقادر، محمّد أمين: تاريخ فنّ العمارة، الجزء الأوّل، ص ٢٥٨.

[2]- Frank Sear: Roman theatresOxford University press, 2006, p 68.

[٣]- شارل سنيوبوس: تاريخ الحضارة، ص ٢٠٩.

بالإضافة لصور الجنود والأسلحة بأنواعها. يعتبر هذا العمل فريداً من نوعه، فهو أشبه ما يكون بشريط سينمائي، يعبرّ عن دقّة وروعة المعماري أبولودوروس، الذي قدّم تحفة فنيّة للعالم ستظلّ منقوشة في أوروبا، تحكي عن إبداعات الفنّ المعماري السوري وبصماته في أوروبا. لقد طبّق أبولودوروس نسباً عملاقة في هذا العمود، استوحاها من التطوّر المعماري السوري مضيفاً إليها عبقريّته المذهلة. وأثناء مرافقة أبولودوروس لتراجان في حروبه في داشيا (١٠٤-١٠٥م)، أنشأ له جسر دوبروجا على نهر الدانوب، تمكّن أبولودوروس ببراعة متقنة من أن يغرز ٢٠ ركيزة أساسيّة في عمق النهر الغزير المتدفّق، وكان ذلك شبه مستحيل في ذلك الزمن، وعلى هذه الركائز من الجسر بطول ١١٣٥م، وبارتفاع ٥٠ م، وعرض وصل إلى ١٢م في بعض مقاطعه، تمّ وضع القناطر، التي وصلت فتحتها إلى نحو ٣٨م، وحُصّن طرفي الجسر بالأبراج، وكلّ ذلك كان من الخشب المتين القابل للفكّ والتركيب[١]. وبالرغم من كلّ ما فعله أبولودوروس نفي وأعدم من قبل هادريان. وقد برّر هادريان ذلك بأنّ أبولودوروس ارتكب جرماً، بينما كان السبب الحقيقي، أنّه في أحد الأيام عندما كان تراجان يستشير أبولودوروس في بعض الأمور المتعلّقة بالأبنية، قال لهادريان الذي قاطعه بتعليق ما: (اصمت فأنت لا تفهم أيّاً من هذه الأمور). كما أرسل له تصميماً لمعبد فينوس وروما ليريه أنّ أعمالاً كبرى يمكن أن تنجز دون مشاركته، وسأله إن كان البناء المقترح مرضياً، فجاء ردّ المهندس، أنّ المعبد كان يجب أن يبنى على أرض مرتفعة، وأنّ الأرض من تحته كان يجب أن تحفر لكي يقف شامخاً، إنّها بنيت أطول من ارتفاعها. وعندما كتب بهذه الحدّة إلى هادريان، اغتاظ الإمبراطور، وتذكّر الإهانة السابقة، ولم يتسامح مع أبولودوروس، الأمر الذي دفعه لقتله[٢]. تقدّمت سورية في مجال العمارة على روما، ويفترض أنّ أبولودوروس الدمشقي قد اقتبس تصميمات المباني في سفح الكوريناليس عن موطنه الأصلي سورية، وهذا ما يؤكّده قول الشاعر اللاتيني جوفينال: (إنّ العاصي السوري أخذ يصبّ مياهه منذ وقت طويل في نهر التيبر حاملاً معه لغته وعاداته)[٣].

[1]- Julian Bennett: Trajan optimus princeps, London and New York,First published1997, p 97.

[٢]- سيرافينا كومو: التقنيّة والثقافة في العصور القديمة، ترجمة مصطفى قاسم مراجعة أحمد خريس، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، أبو ظبي، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م، ص ١٩٢.

[٣]- أنور حاتم: (الذكريات السوريّة في روما)، الحوليّات الأثريّة السوريّة، المجلّد (١١-١٢)، دمشق، ١٩٦٢م، ص١٦٥.

٢. النحت الروماني

بعد الغزو الروماني لليونان، تمّ سرقة ونهب مدن مثل كورنثة عام ١٤٦ق.م، وأثينا عام ٨٦ق.م، حتّى أنّ التحف التي في عرفهم محرّمة (المقْدِس[١])، لم تنج من ممارساتهم التعسفيّة المتغطرسة. إنّ همجيّة الرومان وغطرستهم دفعت اليونان لتسليم التماثيل المنحوتة والمحفوظة كجزء من الالتزامات الرسميّة لإيقاف عمليّة القتل والإعدام، التي فرضت بحقّ الأهالي ونفّذها الجنود الرومان بدم بارد. في حين أن غالبيّة هذه اللوحات كانت من البرونز، أحضر الغزاة الرومان هذه اللوحات إلى مدينتهم روما، وذلك لتزيينها وتجميل معابدها وأسواقها العامّة، لقد نسخت هذه التماثيل مرّة ثانية بأمر الرومان. ونتيجة افتنان الرومان بالحضارة اليونانيّة، رحَّل الرومان الفنّانين اليونان، سواء بحرّيتهم أو رغماً عنهم؛ للعمل في روما والبدء بزخرفتها. ولإرضاء هذا التذوّق الروماني، عمل مهندسون معماريّون من أمثال هيرمودوروس من سلاميس في روما إلى جانب نحاتين من أمثال تيمارشيدس وبوليكليس وديونيسيوس، وفيما بعد سكوباس الصغير. وكان إذا ما رغب أحد الرومان في عمل تمثال لشخص ما، فإنّه يستوحي فكرته من أحد التماثيل اليونانيّة، فتمثال أغسطس أخذت فكرته، بما يخصّ الذراعين والقدمين، نقلاً حرفياً من تمثال شهير قام بنحته الفنان اليوناني بوليكلتيس Polyclitus[٢]. كما أقام أغسطس على تلال البلاتين هيكل أبولون، الذي نحت تمثاله النحّاتان اليونانيّان (ميرون – اسكوباس). إنّ عمليّة نحت التماثيل اليونانيّة لم تتوقف، لا زمنيّاً ولا مكانيّاً في أرجاء الإمبراطوريّة، حيث امتهنها الكثير من الشبّان، وكانت هذه اللوحات تنحت على جدران الساحات العامّة والحمّامات، وقد جذبت هذه اللوحات الانتباه والتعليق من كلّ شخص، ودخلت في كلّ المناقشات، وهو ما أشار إليه لوقيانوس الذي عمل بورشة لنحت التماثيل[٣].

---

[١]- جزء الهيكل المحجوب من المعبد، أو الملعون كنسيّاً، يخصّص لها حرم مقدّس.

[٢]- عبدالفتاح مصطفى غنيمة: المتاحف والمعارض والقصور (رسائل تعليميّة)، سلسلة المعرفة الحضاريّة(٢)، ١٩٩٠م، ص ٤٣-٤٤.

[٣]- جين تشارلز بالتي: نحت التماثيل اليونانيّة والصور الرومانيّة/ مشكلة النسخ/، ترجمة فاطمة بهجت، مجلّة ديوجين، مركز مطبوعات اليونسكو-مصر، العدد ١٨٣، ٢٠٠٠م، ٣٧-٥٠، ص ٤٢.

٣. التصوير

اعتمد التصوير الروماني في بداية الأمر على المصوّرين الإغريق، الذين تهافتوا على روما، حيث أنّ أكثر اللوحات الجداريّة المكتشفة في بومبي ذات أصل إغريقي. كانت مادّة التصوير هي الفسيفساء، وهي عبارة عن قطع صغيرة الحجم من الأحجار الملوّنة والمقطوعة بدقّة. إنّ العنصر الإبداعي الروماني في هذا الفنّ قليل الشأن، فالأشكال والموضوعات والأساليب الفنيّة أو التقنيّة كلّها مستوحاة من اليونان، أمّا بالنسبة للنزعات الخفيفة التي أدخلت عليها، فكانت مراعاة للذوق الروماني، كالميل للمذهب الواقعي مثلاً، لم يلبث الفنّانون أن تكيّفوا معها وراحوا ينفّذوها بالرغم من أنّهم كلّهم أجانب[١]. إنّ كلّ التصاوير الرومانيّة الموجودة في عهد أغسطس هي من إنجاز فنّانين يونانيين، تأثروا بالفن الشرقي، لا رومان، كما أنّ النقوش المكتوبة باليونانيّة إلى جوار الشخوص المرسومة دليل على أنّ المصوّرين المجهولين الذين قاموا برسمها يونانيّون. أمّا في العهود التالية لعهد أغسطس ظهر تلامذة اليونان، الذين تدرّبوا على أيديهم، فكان أسلوبهم محاكاة لأساليب معلّميهم الإغريق[٢]. افتقر الرومان للعبقريّة الخلاّقة فلم يحاولوا التجديد، بل اكتفوا بما بذله الفنّانون اليونان وفنّانو الشرق من قدرة على الإنتاج. وكان لهؤلاء الفنّانين من الطواعية والمرونة ما استطاعوا معه تكييف أنفسهم وفقاً لمتطلّبات الذوق الروماني، وتطويع ما يقتبسونه من عادات القوم وأعرافهم لينالوا حظوة لديهم. لقد اعترف الرومان أنفسهم بالتأخّر والعجز الفنّي، فقد كتب فرجيل بهذا الصدد في ملحمته الإنياذة الخالدة قائلاً: «لينحت سوانا، بمهارة أكبر، كما أعتقد مخلصاً، تماثيل من البرونز، تستنشق الهواء، وليحفروا لنا في المرمر، وجوهاً تطفح بالحياة، بينما يحتفظ الرومان بفنّ حكم الشعوب وإدارتها»[٣].

---

[١]- أندريه أيمار وَجانين أوبايه: تاريخ الحضارات العام، روما وإمبراطوريّتها، ص ٥٠٦.

[٢]- ثروة عكاشة: الفنّ الروماني، الجزء العاشر، المجلّد الثاني (التصوير)، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ١٩٩٣م، ص ٤١٩.

[٣]- أندريه أيمار وَجانين أوبايه: تاريخ الحضارات العام، روما وإمبراطوريّتها، ص ٤٩٨.

الخاتمة

نستنتج ممّا سبق ما يلي:

ظنّ الرومان أنّ الفلسفة تشكّل خطراً عليهم، فطردوا الفلاسفة من روما، كما اعتبروا أنّ علم التاريخ أدباً وليس علماً، فجلّ كتاباتهم لم تخضع لمنهج البحث العلمي، وحال النظام الاستبدادي دون حريّة الكتابة. لم يستطع الرومان خلال تاريخهم، بالرغم من كلّ ما توفّر لهم من أموال، أن يرسموا حتّى ولو خريطة جغرافيّة واحدة، إلّا أنّ سكّان الولايات المغلوبة هم من قاموا بذلك، ونقصد بذلك أدريانوس الصوري وتلميذه بطليموس. اشتهر الرومان بالحقوق إلّا أنّ ما وصلوا إليه كان بفضل تأثّرهم بعلماء سورية (بيروت تحديدا) أولبيان وبابنيان. ومن الناحية الأدبيّة تأثّر الشعراء الرومان بشعراء اليونان والشرق، فكانت أعمالهم إمّا نقلاً وإمّا تقليداً، ولقد تراجعت الخطابة في العصر الإمبراطوري؛ لشدّة الرقابة من النظام الحاكم. فكانوا ناقلين ومحوّرين بما تقتضيه مصالحهم، وبما يتناسب مع شعبهم، فجلّ أعمالهم يمثّلها فنّانون أجانب في أراضي خارج روما. اعتمد الرومان في فنونهم وخاصّة المعماريّة على فنّانين يونان وشرقيين، من الذين هاجروا بعد احتلال بلدانهم من قبل الرومان، وما أنتج بعد ذلك هو من تلامذة الفنّانين الأجانب. كانت المدرّجات اختراعاً رومانيّاً، إلّا أنّها كانت بمثابة مقبرة جماعيّة لكلّ الكائنات الحيّة من بشر وحيوانات. إنّ التطوّر الثقافي والفنّي والأدبي الروماني في العصر الإمبراطوري ما هو إلّا إنتاج أدباء وفنّاني اليونان والشرق، ومن تبعهم من تلامذتهم.

لائحة المصادر والمراجع والدوريّات

المصادر العربيّة والمعرّبة

١. ديون كاسيوس: التاريخ الروماني، تقديم وترجمة وتعليق مصطفى غُطيس، الكتاب العاشر الكتب LXXX- LXXI، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، تطوان، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م.

٢. سينيكا: ترجمة عبدالمعطي شعراوي، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، ٢٠٠٢م.

٣. لوقيانوس: أعمال لوقيانوس السميساطي، ترجمة سعد صائب وَمفيد عرنوق، دار المعرفة، ط١، ١٩٨٧م.

٤. لوقيانوس: أعمال لوقيانوس السميساطي، قصّة حقيقيّة، الكتاب الأوّل، ٥.

٥. لوقيانوس: مسامرات الأموات، ترجمة إلياس سعد غالي، بيروت، ١٩٦٦م.

المراجع العربيّة:

١. أحمد عتمان: الأدب اللاتيني ودوره الحضاري، عالم المعرفة، إشراف أحمد مشاري العدواني، الكويت، ١٩٨٤م.

٢. ثروة عكاشة: الفنّ الروماني، الجزء العاشر، المجلّد الثاني (التصوير)، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ١٩٩٣م.

٣. جوزف صقر: قصّة وتاريخ الحضارات القديمة (١-٢)، (تاريخيّة- جغرافيّة- حضاريّة- أدبيّة)، لبنان (١)، من عصور ما قبل التاريخ حتّى عهد المتصرفيّة، بيروت، ١٩٩٩م.

٤. سما بشير أحمد عبدالعال: الكتاب في الحقبة اليونانيّة والرومانيّة، جامعة بهنا، ٢٠١٩م.

٥. صاحب عبيد الفتلاوي: تاريخ القانون، مكتبة دار الثقافة للنشر والتوزيع، عمّان، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.

٦. عبدالفتاح مصطفى غنيمة: المتاحف والمعارض والقصور(رسائل تعليميّة)، سلسلة المعرفة الحضاريّة (٢)، ١٩٩٠م.

٧. عبداللطيف أحمد علي: مصادر التاريخ الروماني، دار النهضة العربيّة، بيروت، ١٩٧٠م.

٨. عنايات المهدي: فنّ الزخرفة (الفن الإغريقي- الروماني- البيزنطي)، فنّ الزخرفة في عصر بومباي، مكتبة ابن سينا، ١٩٩٣م.

٩. فايز يوسف محمّد: محاضرات في أدب الرومان في العصر الذهبي، جامعة عين شمس، ط١، ٢٠٠٠م.

١٠. محمّد خليل نايل وَمحمّد أمين عبدالقادر: تاريخ فنّ العمارة، الجزء الأوّل، القاهرة، المطبعة الأميريّة ببولاق، ١٩٤٣م.

١١. محمّد عبدالرحمن مرحبا: تاريخ الفلسفة اليونانيّة من بدايتها حتّى المرحلة الهلنستيّة، مؤسّسة عزالدين للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.

المراجع المعرّبة

١. آلان مورهيد: النيل الأبيض، ترجمة محمّد بدر الدين خليل، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، دار المعارف، مصر، ١٩٦٥م.

٢. إميل برهييه: تاريخ الفلسفة، الجزء الثاني، الفلسفة الهلنستيّة والرومانيّة، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م.

٣. أديث هاملتون: الأسلوب الروماني في الأدب والفنّ والحياة، ترجمة حنا عبود، منشورات وزارة الثقافة – المعهد العالي للفنون المسرحيّة، دمشق، ١٩٩٧م.

٤. أندريه إيمار وَجانين أوبايه: تاريخ الحضارات العام، روما وإمبراطوريّتها، ترجمة فريد م.داغر وَفؤاد أبو ريحان، إشراف موريس كروزيه، المجلّد الثاني، منشورات عويدات، بيروت-باريس، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م.

٥. سيرافينا كومو: التقنيّة والثقافة في العصور القديمة، ترجمة مصطفى قاسم مراجعة أحمد خريس، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، أبو ظبي، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م.

٦. شارل سنيوبوس: تاريخ الحضارة، ترجمة محمّد كرد علي، مطبعة الظاهر، القاهرة، ١٩٢٥م.

٧. وبير: المسرح الروماني، ترجمة زين العابدين سيّد محمّد، حاتم ربيع حسن، مراجعة محمّد حمدي إبراهيم، المجلس القومي للترجمة، العدد ٢٨٠٤، القاهرة، ط ١، ٢٠١٦م.

٨. وولتر ستيس: تاريخ الفلسفة اليونانيّة، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٤م.

الدوريات العربيّة

١. أنور حاتم: (الذكريات السوريّة في روما)، الحوليّات الأثريّة السوريّة، المجلّد (١١-١٢)، دمشق، ١٩٦٢م.

٢. جين تشارلز بالتى: نحت التماثيل اليونانيّة والصور الرومانيّة/ مشكلة النسخ، ترجمة فاطمة بهجت، مجلّة ديوجين،_مركز مطبوعات اليونسكو-مصر، العدد ١٨٣، ٢٠٠٠م.

٣. إلهامى حسن: شكل المسرح الروماني، مجلّة المسرح، العدد الثامن والعشرون القاهرة، ١٩٦٦م.

٤. ماجدة النويعمي: رؤية في رحلة الدراما عبر العصور (التراجيديا الرومانيّة)، مجلّة أوراق كلاسيكيّة، العدد العاشر، كتاب تذكاري للأستاذ الدكتور محمّد حمدي إبراهيم، تحرير منيرة كروان، القاهرة، ٢٠١٠م.

٥. محمّد الحبيب بشاري: الحياة الأدبيّة الرومانيّة ومساهمة الأفارقة في إنعاشها، مجلّة عصور، العدد ٢٠، منشورات مخبر البحث التاريخي (مصادر وتراجم)، جامعة وهران، الجزائر، ٢٠١٣م.

٦. هشام عبد المحسن الصغير: الإمبراطور نيرون أو نيرو، مجلّة الحضارة المصريّة، العدد ١٣، ٢٠١٥م.

٧. نبيل خالد أبو علي: أصول النقد الأدبي ومباحثه بين اليونان والرومان، مجلّة الجامعة الإسلاميّة (سلسلة الدراسات الإنسانيّة)، المجلّد السادس عشر، العدد الثاني، غزّة، فلسطين، ٢٠٠٨م.

المصادر الأجنبية

1. Isidorus of Seville: The Etymologies of Isidorus of Seville, Stephen A.Barney, W. J. Lewis, J. A. Beach and Oliver Bergh of, Cambridge University Press, 2006.

2. Philostratus and Eunapius: The lives of the Sophists, Ed and tr: Wilmer ce wright, London, 1922.

3. Suetonius: translation by J. C. Rolfe, PH.D., in two volumes II, Harvard University press, 1979.

4. Frank Sear: Roman Theatres, Oxford University press,2006.

5. Gesine Manuwald: Roman Republican theatre, Cambridge University Press, 2011.

6. Hugh Denard: The Cambridge Companion to Greek and Roman Theatre, Lost theatre and performance traditions in Greece and Italy, Cambridge University Press, 2007.

7. John Bardman, Jasper Griffin and Oswyn Murray: The Oxford Classical world, 2003.

8. Julian Bennett: Trajan optimus princeps, London and New York, First published, 1997.
9. Marshall Cavendish: Ancient Greece, New York, 2011.
10. N.G.L Hammond and H.H Scullard: the Oxford Classical Dictionary, second edition, Oxford.
11. Pillip K.Hitti: Lebanon in history, London, 1957.
12. Richard Beacham: Performance in Greek and Roman Theatre within the mise-en-scène of the Roman House, Leiden, Boston, 2013.

القانون ثروة الفكر في بيريتوس (بيروت)

ناديا الغزولي[١]

مقدّمة

تتضمّن قصص الأصل الحضاريّ مفاتيح أساسيّة لكيفيّة تحديد المجتمعات لهويّتهم وثقافتهم، وما يشتهر به الإنسان يُصبح سمة له، يستمدّ منها تسميته أو لقبه. وهذا ما حدث مع مدينة بيروت التي عُرفت بأمّ الشرائع ومرضعتها، وتظهر أهمّيتها من تأثيراتها في الماضي الممتدّة لأمد طويل، والتي طالت مجموعة من الناس.

إنّ معرفة الجذور الحضاريّة لمنطقة ما يساعد في إعادة الثقة لمجتمع هذه المنطقة بما قدّمه أسلافهم من منجزات لخدمة الحضارة الإنسانيّة، فإذا لم تتمكّن الحفريّات الأثريّة من معرفة توصيف دقيق لموقع مدرسة بيروت الحقوقيّة، فإنّ الآثار الفكريّة التي تركتها تلك المدرسة أثبتت وجودها وتأثيرها الفكريّ القانونيّ بشكل أكثر دقّة، فاستطاعت مدرستها المساهمة بشكلٍ فعّال خلال القرون الرابع والخامس والسادس في التحوّلات العميقة للفكر البشري القانونيّ، الذي أدّى إلى طريقة جديدة وأسلوب حياة يقوم على احترام الإنسان بتكريس مفهوم العدالة لضمان استمرار الحياة وتأمين الحاجات.

ونحن نستهدف من هذا البحث فهم علاقات التأثّر والتأثير التي ساهمت بها مدرسة الحقوق البيروتيّة في الحضارة الرومانيّة لتكوين صورة واضحة عن تاريخ القانون الرومانيّ، والأسس والعوامل التي شذّبت هذا القانون، والشخصيّات القانونيّة الشرقيّة التي ساهمت بأفكارها ومؤلّفاتها في تطوّر النظم القانونيّة، وتمشرق الفكر في الدولة الرومانيّة.

تأثّرت حضارة الإمبراطوريّة الرومانيّة بنفوذ المدينة اليونانيّة الهيلّينيّة، لكنّها في القرنين الرابع والخامس الميلاديين ألقت مقاليدها للشرق، واتّخذته إماماً، فأصبح النتاج الفكري آسيويّاً أفريقيّاً أكثر منه أوروبيّاً. لذلك نلقي الضوء على موضوع مدرسة الحقوق البيروتيّة؛

[١]- باحثة ومديرة مديريَّة تطوير المناهج في وزارة التربية السوريَّة.

لأنّ هذه المدرسة مازالت موضوعاً يثير الاهتمام لمعرفة أبعاده وخفاياه، وترجع الصعوبة في فهم دور تلك المدرسة هو أنّ سكوتاً عارماً إزاء المدرسة وقيامها استمرّ سائداً مرحلة تاريخيّة طويلة في الكتب والمراجع، فلم يفصح أحد عن تاريخ تأسيسها، ودورها الذي قامت به، إلّا في المراحل المتأخّرة قبل انهيارها نتيجة زلزال ٥٥١م.

ما الدائرة الزمنيّة التي تأسّست فيها المدرسة؟ ما الظروف والبواعث المتنوّعة التي رافقت ولادة مدرسة الحقوق في بيروت؟ كيف ساهم أساتذتها في وصولها مرحلة الاكتمال والتنظيم؟.

لقد غدت مدرسة بيروت للحقوق جامعة بكلّ ما تعنيه الكلمة من معنى، تنظيماً وتخصّصاً ومناهج، سبقت فيها جامعات الغرب الأوروبيّ بما يقارب ألفيّة كاملة.

أوّلاً: التأسيس

١. مؤسّس كليّة الحقوق في بيروت[1]

يُعدّ تاريخ المدن انعكاساً للمجتمع الذي وجدت فيه، يظهر فيها تفاعل أبنائه سواء كان إيجاباً أو سلباً، وتمتلك مدن بلاد الشام موروثاً حضاريّاً يعود إلى آلاف السنين، يتنوّع هذا الموروث معطياً لكلّ مدينة طابعها الخاصّ وصفتها المميّزة، فبيروت (بيريتوس) مثلاً تميّزت بموروثها الفكريّ القانونيّ، فكانت نموذجاً لن يتكرّر من مجتمع إنسانيّ فريد فرض نفسه على الحضارة الرومانيّة من خلال ضلوعها بعلم القانون الذي تجسّد بمدرستها مدرسة الحقوق. ويُعدّ مؤسّس هذه المدرسة موضوع جدل حتّى الوقت الحاضر، فتعدّدت الآراء، كلّ لديه وجهة نظر يحاول أن يعطي الأدلّة على صحّتها ومصداقيّتها.

فمنهم من نسب تأسيس المعهد إلى الإمبراطور أغسطس قيصر (٢٧ق.م-١٤م) معتمدين

[١]- بيروت: اشتقّ اسمها من الآراميّة بَروتا ومعناها السرو أو الصنوبر لوجود أشجارهما منذ القدم في جوار بيروت، ويشتقّ اسمها من (ابيروت) بمعنى القوة، واشتقّه آخرون من البئر لكثرة الآبار التي حفرها الأقدمون في أحيائها وضواحيها. لويس شيخو اليسوعي، بيروت تاريخها وآثارها، بيروت، ١٩٢٥م، ص٨-٩-٢٠.

على عدّة أحداث في عهده، الأوّل بعد معركة أكتيوم[1] مباشرة عام (٣١ق.م)؛ لأنّها جسّدت منعطفاً مهمّاً في تاريخ روما، إذ فرض أغسطس بعدها سيطرته المطلقة على ممتلكات الإمبراطوريّة الرومانيّة في البحر المتوسّط. والثاني في عام ١٥ق.م حيث منح أغسطس مدينة بيروت امتيازات المستعمرات الرومانيّة وخوّل أهلها الحقوق الوطنيّة، فعدّ تأسيس معهد بيروت جزءاً من هذه الإجراءات. أمّا الحدث الثالث فهو عقد أوّل محكمة خاصّة للنظر في دعوى هيرودس الكبير ملك فلسطين ضدّ أولاده الذين اتهمهم بالتآمر عليه عام (٧ ق.م)[2]، ولم تعقد جلسة الاستماع العلنيّة أمام محكمة بيروت لولا وجود مجلس وفقهاء النظم القانونيّة في المدينة، إذ عُدّ دليلاً على ضلوع بيروت بهذا الجانب التشريعيّ[3].

بينما اعتمدت بعض الآراء على أنّ تأسيس المعهد جاء في عهد الإمبراطور هادريان (١١٧-١٣٨م)، ومن تبنّى هذا الرأي استند إلى أدلّة غير مباشرة كأعمال هذا الإمبراطور واهتمامه الخاصّ بالقوانين حيث جعلها أكثر موضوعيّة وعدالة وإنسانيّة، مع اهتمامه بوضع المرأة القانونيّ، فعمل على تدوين القوانين وإصدار القانون الدائم. ودليل آخر تمثّل بوجود غايوس[4] وإكماله لتعليق على القانون الرومانيّ أثناء إقامته في بيروت[5]، يرافق هذه الأعمال تعديل مكانة بيروت ومنحها حقوقاً إيطاليّة ما يدلّ على الاهتمام الإمبراطوريّ بهذه المدينة[6].

[١]- معركة أكتيوم: كانت قُرب المستعمرة الرومانيّة (Actium) في اليونان، واحدة من أهمّ المنعطفات التاريخيّة انتقلت بعدها روما من الجمهوريّة إلى الإمبراطوريّة، بعد حرب أهليّة طويلة بين قوّات أنطونيو وقوّات أوكتافيو الذي حمل لقب أغسطس قيصر بعد انتصاره في هذه المعركة. وقد كان الألماني (كارل هاسي) أوّل من جعل تأسيس معهد بيروت بعد نصر أكتيوم. سهير سمير فريد، مدرسة الحقوق في بيروت، ب.ت، ص٣.

PAUL COLLINET, HISEOIRE DE L'ECOLE DE DROT DE BEYROUTH, PARIS, 1925, P 17.

[2]- HENRY MACADAM, BEIRUY'S ROMAN LAW SCHOOL IN ITS COLONIAL ,CULTURAL CONTEXT, In Memoriam: William A. Ward (1922- 1996), ARAM, 132002-2001) 14-), P 200.

[٣]- لويس شيخو اليسوعي، المرجع السابق، ص٢١.

[٤]- غايوس: (١١٠-١٨٠م) من كبار فقهاء القانون، مارس التعليم في مدرسة بيروت، أشهر آثاره كتاب النظم، تمّ اكتشافه عام ١٨١٦م، وقد استعاد الفقيهان دوروتيوس وتيوفيليوس نظم غايوس ووضعوها كاملة في نظم جستنيان الجديدة عام ٥٣٢م. إميل بجاني، مدرسة بيروت للحقوق يليه شيشرون رائداً ومعلّماً، دار النهار، بيروت، ٢٠٠٥م، ص٥٨-٥٩.

[٥]- أبرز من عدّ تأسيس المعهد في عهد هادريان هو (أدولف فريدريش). المرجع السابق، ص١٩. سهير فريد، المرجع السابق، ص٣.

[6]- HENRY MACADAM, Previous REFERENCE, P204.

وهناك وجهة نظر أخرى نسبت تأسيس المعهد إلى الإمبراطور (سبتيموس سيفيروس Septime Severe)[1] الذي حكم روما خلال المرحلة التاريخيّة (١٩٣-٢١١م)، وقد استند من تبنّى هذا الرأي إلى مجموعة معطيات، منها أنّ سيفيروس قبل أن يكون حاكماً للإمبراطوريّة الرومانيّة، كان يمارس مهنة المحاماة في مدينة روما، ولترسيخ سلطته كان أوّل عمل قام به بعد تسلّمه السلطة تكليفه ديون كسيوس[2] بإعداد قانون لاستلام إمبراطور روما سدّة الحكم دون دخول المدينة بصراعات ونزاعات[3]، ولترسيخ سلطته وإكسابها الشرعيّة القانونيّة أمام الشعب الرومانيّ، أحاط نفسه بعدد من رجال القانون الشرقيين، كان من بين هؤلاء (بابنيان Papian)[4] و(بولس Paulus) و(ألبيان Ulpian).

كما عدّ أصحاب هذا الرأي الأصول الشرقيّة لهذا الإمبراطور عاملاً أساسيّاً وسبباً يؤكّد هذا الحدث في عهده، ودليلهم على ذلك سياسته الداخليّة التي تمحورت حول المساواة بين سكّان إيطاليا وبقيّة الولايات في الامتيازات الاجتماعيّة والتشريعيّة والسياسيّة، ولشعوره بأهميّة سكّان المناطق الأفريقيّة والمناطق الشرقيّة من الإمبراطوريّة، فقد قام بعدّة إجراءات في صالح رعايا تلك المناطق، واتخذ قرارات إداريّة إيجابيّة رفعت المدن إلى مركز أعلى درجة بين البلديّات الأخرى[5]، فمن أبرز هذه الإجراءات إنشاء أمانة عامّة في بيروت لمجموعة من القوانين التنظيميّة للشرق[6] وقد سجّلت هذه الوظيفة لأوّل مرّة عندما تمّ إيداع أقدم دستور

[١]- سبتيموس سيفيروس: ولد في مدينة لبدة الليبيّة عام ١٤٦م، وتلقّى تعليمه فيها، ثمّ انتقل إلى أثينا، حيث درس الفلسفة والآداب، لكنّه كان بارعاً بالتفكير أكثر من البيان، تمتّع بشخصيّة قياديّة مكّنته من تحقيق طموحاته بحكم الإمبراطوريّة الرومانيّة. ديون كسيوس، التاريخ الروماني، تر: مصطفى غطيس، تطوان، ٢٠١٣م، ج١٠، الكتاب٧٦، ص١١٩. محمّد سالم، الإمبراطور سبتيموس سيفروس (١٩٣-٢١١م) بصمة ليبيّة على جبين الإمبراطوريّة الرومانيّة، مجلّة كليّة الآداب، الأصابعة، ب.ت، ص١٨٠.

[٢]- (ديون كسيوس Dion Cassius): مؤرّخ إغريقي ولد في نيقية عام ١٥٥م، تلقّى تربية إغريقيّة -رومانيّة، درس القانون، كان عضواً في مجلس الشيوخ منذ عام ١٩٣م، وقاضياً في عهد برتناكس، وقنصلاً في عهد سيفيروس، كان متشدّداً في تطبيق القانون والعدالة ممّا جرّ عليه حقد القضاة الآخرين لدرجة أنّهم طالبوا برأسه، قضى معظم حياته بين آسيا وإيطاليا، توفّي عام ٢٢٩م. ديون كسيوس، المصدر السابق، ص٧.

[٣]- كان سيفيروس أوّل من خالف هذا القانون بقتله عدّة أعضاء من مجلس الشيوخ دون محاكمة مثل يوليوس سولون، وأصحاب يوليانوس. المصدر السابق، ص ٧٧.

[٤]- إميل بجاني، المرجع السابق، ص٢٦.

[٥]- محمّد سالم، المرجع السابق، ص١٨٢.

[٦]- فادي أحمد سهو، بين بيوت اللهو والمجون تُحفظ القوانين عن مدرسة الحقوق الرومانيّة في بيروت، ٢٠٢١م، ص١.

في هذه الأمانة عام ١٩٦م، وهو تاريخ أقدم الدساتير الواردة في المخطوطة الغريغوريّة[1]، وقد عدّ بعض الباحثين أنّ إنشاء الأمانة كان هو الدافع لتأسيس المدرسة فيما بعد[2].

بينما نسب بعض المؤرّخين تأسيس مدرسة بيروت للإمبراطور كراكلاّ (٢١٢-٢١٧م) الذي أصدر عام ٢١٢م دستوراً منح بموجبه جميع السكّان الأحرار المواطنة الرومانيّة، وربمّا ظهرت حاجة للإلمام بأحكام قانونيّة تنظّم معاملات المواطنين مع وجود فقهاء يتولّون التعليم[3].

إنّ الآراء التي حدّدت تاريخ تأسيس المعهد استندت إلى استنتاجات وتأويلات عُدّت منطقيّة إلاّ أنّها لم تستند إلى وثائق ماديّة تُؤكّد أيّاً منها، باستثناء من اعتمد وجود أقدم الدساتير في الأمانة العامّة عام ١٩٦م، وهي تذكر إيداع الدستور فقط ولم تذكر المدرسة. والأمر المستغرب في ذلك أيضاً عدم ذكر هذا الموضوع من عضو مجلس الشيوخ ومعاصر سيفيروس ومؤرّخ أحداث الإمبراطوريّة الرومانيّة ديون كسيوس الذي ذكر تفاصيل عن الإمبراطور سيفيروس وعن أعماله وحياته لم ترقَ إلى أهميّة معهد بيروت، فلو كانت المدرسة قد أُسّست في عهد الإمبراطور سيفيروس لكان أتى على توثيقها ديون كسيوس.

لذلك فإنّ الوثيقة التاريخيّة الماديّة التي تثبت وجود مدرسة بيروت، وأتت على ذكرها بشكل صريح كانت عام ٢٣٩م، هي في عظة ألقاها غريغوريوس أثناء مدحه لأوريجانوس الذي لقّنه مبادئ اللاتينيّة لا لغاية إلاّ لكي يسافر إلى بيروت للالتحاق بمدرستها، وهذا دليل على أنّ المدرسة كانت قائمة وإلاّ لما كانت لها تلك الشهرة خارج حدود فينيقيا[4] تجذب

---

[١]- سهير فريد، المرجع السابق، ص٢-٣.

[٢]- كان بول كولنيه هو من استنتج أنّ إنشاء الأمانة كان سبب تأسيس المدرسة، وتأثير مباشر لقيامها. إميل بجاني، المرجع السابق، ص٢٠. PAUL COLLINET, Previous REFERENCE, p20.

[٣]- أسد رستم، الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، بيروت، ١٩٥٥م، ص ٦٩. إميل بجاني، المرجع السابق، ص٢٣.

[٤]- فينيقيا: كان أبرز ما تاجر به كنعانيّو الساحل الشرقي للمتوسّط الألبسة المصبوغة بالصباغ الأرجواني، فأطلق اليونانيّون عليهم فونيكس (phoinikes) أي اللون الأحمر، وأصبحت هذه التسمية متعارف عليها في المراجع كافّة التي كتبت عن كنعانيي ساحل البحر المتوسّط الشرقيّ. جان مازيل، تاريخ الحضارة الفينيقيّة الكنعانيّة، تر: ربا الخش، ط١، سورية، ١٩٩٨م، ص٣١.

الطلاب لها من البعيد من -أناطوليا- يؤمّونها للانخراط في صفوفها[1].

حاولت وجهات النظر أن تحدّد مؤسّس لكليّة الحقوق في بيروت، لكنّ جميعها لم تذهب أبعد من عصر الاحتلال الرومانيّ للمدينة الذي بدأ في عام ٦٤ق.م مع قدوم الجيوش الرومانيّة إلى بلاد الشام، وحجّتهم في ذلك أنّ الرومان كانوا يعرفون ما تستحقّه بيروت من الرعاية، وأنّها قابلة للرقيّ، فوجّهوا إليها نظرهم واهتمامهم، وهذه إحدى المغالطات التاريخيّة التي تنظر لتاريخ أيّ مدينة أو منطقة ضمن مرحلة ما على أنّه تاريخ مستقلّ عمّا سبقه، فالجميع نظر إلى تأسيس مدرسة الحقوق في بيروت على أنّها وليدة اللحظة والموقف في الإمبراطوريّة الرومانيّة، وهو أمر غير منطقيّ؛ لأنّه لو لم تكن لدى المجتمع جذور عميقة وخبرة قانونيّة لما استفادوا من تأسيس المعهد في مدينتهم، فالمجتمع في بيروت امتلك عبقريّة تجاريّة عبر تاريخه الطويل، ومن المؤكّد أنّها كانت تحتاج إلى نظام مبيعات من عقود ومعاملات، وهو ما أوجدت له بيروت حلاًّ بوضع النظم القانونيّة ما يظهر ميلها نحو الحقّ والعدل[2]، ولعلّ هذا هو سبب عدم تمكّن الباحثين من تحديد مؤسّس لهذا المعهد، لذلك فإنّ وجهة النظر التي ترى التأسيس بعد معركة أكتيوم تُعدّ راجحة؛ لأنّها الأكثر إقناعاً، فالإمبراطوريّة الرومانيّة وجدت بعد المعركة أنّ كلّ العوامل متوفّرة لتخصيص مكان محدّد لمعهد حقوقيّ في بيروت يكون مركزاً للدراسات القانونيّة الرومانيّة، ولعلّها بدأت بشكل محطّة صغيرة متواضعة، تطوّرت لتصبح صرحاً تعليميّاً شهيراً حلّ محلّ تلك المحطّة، هو المدرسة التي نعرفها ولهج بذكرها المؤرّخون في القرن الثالث الميلاديّ[3].

٢. دوافع التأسيس

استقراء دوافع تأسيس كليّة الحقوق في بيروت، أيّ تحديد ما تتمتّع به المدينة من خصائص جعلت لها الأولويّة على غيرها من مدن الإمبراطوريّة لتكون مقرّاً لكليّة الحقوق

[١]- وقد اقترح (فرانز بيتر بريمر) عام ٢٠٠م ليكون تاريخ التأسيس مستنداً إلى غريغوريوس. إميل بجاني، المرجع السابق، ص٢٠. PAUL COLLINET, Previous REFERENCE, P26. - سهير فريد، المرجع السابق، ص٣.

HENRY MACADAM, Previous REFERENCE, P206.

[2]- ALFREDO BUZAID, A ESCOLA DE DIREITO DE BEIRUTE Berytus…. Legm nutrix, ARTIGOS, P311.

[٣]- إميل بجاني، المرجع السابق، ص٢٣.

في الشرق، فالدوافع العسكريّة بدأت عندما عيّن أغسطس القائد (مرقس وسبسبيانوس) زوج ابنته جوليا قائداً على المدينة، الذي جعلها في دائرة اهتمامه وأولويّات سياسته، إذ استدعى إليها فرقتين من الجيوش الرومانيّة، وقد لقبّها أغسطس بالمستعمرة الرومانيّة، وضمّنها مركز عبادة هليوبوليس، وحملت اللقب الرسميّ: (Colonia Iulia Augusta Felix Berytus)[1].

ولعلّ الدافع المغفل لتأسيس هذا المعهد في بيروت هو إتقان مجتمعها لآليّة وضع القوانين، وتطبيقاتها العمليّة على معاملاتهم التجاريّة نظراً لموقعها الساحلي المتمثّل بمينائها (بوابة الشرق)، الذي تمرّ عبره قوافل التجّار، وإليه تتدفّق المحاصيل، فازدهرت التجارة، وتنوّعت المعاملات، وكثرت المنازعات والدعاوى، كلّ ذلك استولد جوّاً ملائماً للعلاقات والمجادلات القانونيّة، مهّد الطريق لمحامين يعملون، وقضاة يترافعون، ولفقهاء يستشارون، ولأساتذة يؤلّفون[2]. وهذا ما قصده PAUL COLLINET[3] في كتابه عندما تحدّث عن الأهميّة الاقتصاديّة لمرفئها، المرافقة لأهمّيتها السياسيّة، فأطلق عليها مفتاح الشرق[4]، وهي مفتاح الشرق علمًا بالقانون والتشريع.

لذلك فقد وجدت الإمبراطوريّة الرومانيّة أنّ الدوافع الإداريّة أصبحت متوفّرة لاختيار بيروت مقرّاً لحفظ الدساتير الإمبراطوريّة والنظم الإداريّة، فقد كان الأباطرة يحرصون على التشاور مع الفقهاء على الطعون القانونيّة والاستفسارات القضائيّة للقضاة. ومنذ عهد أغسطس بدأ الفقهاء بتجميع مستودعات منظّمة من المراسيم، وكانت القرارات القضائيّة الجديدة تستند على سوابق قانونيّة مؤرشفة ومداولات سابقة، وهو ما وفّرته مدرسة بيروت التي بدأت كمحطّة، إذ لولا وجود المدرسة وما كان لها من مكانة وحضور لما اختيرت بيروت لتصبح مركزاً للأمانة العامّة لحفظ دساتير الشرق عام ١٩٦م[5].

---

[١]- لامنس اليسوعي، الحياة في بيروت قبل الإسلام، جريدة المشرق، عدد (٨)، ١٩٣٣م، ص٤٨٦.

ALFREDO BUZAID, Previous REFERENCE, p311. Previous REFERENCE, P198. HENRY MACADAM.

[٢]- إميل بجاني، المرجع السابق، ص١٥-٢٤.

[٣]- لامنس اليسوعي، المرجع السابق، ص٤٨٦.

[4]- p25.PAUL COLLINET, Previous REFERENCE,

[٥]- إميل بجاني، المرجع السابق، ص٢١.

ليست فقط الدوافع العسكريّة والإداريّة سبباً لتأسيس مدرسة للحقوق في بيروت، فهناك الدوافع «الإلهيّة» التي تعطي لبيروت بعداً دينيّاً، تمثّلت بما أورده (Nonnus of Panoplis)[1] عام ٤٧٠م في ملحمته عندما يتحدّث عن المواجهة بين بوسيدون وديونيسيوس، حيث يرد ذكر خادمة القانون أو مكان القانون في كليّة الحقوق ببيروت، مع الإشارة إلى قوانين صولون، وفي لوحة تحمل كلمات حكمة منقوشة في سطور عديدة من الشعر الإغريقيّ تقرؤها أفروديت: «عندما يحمل أغسطس صولجان العالم فإنّ زيوس سيمنح روما السيادة، وسيمنح بيوت مقاليد القانون، حتّى تقوم Berytus ممرّضة الحياة الهادئة بإقامة العدل في البرّ والبحر، وتحصين المدن مع سور القانون الذي لا يتزعزع، مدينة واحدة لكلّ مدن العالم»[2]. وهو أمر له أسسه التاريخيّة العميقة، فالفينيقيّون أطلقوا عليها لقب «المدينة الإلهة» وجعلوا لها معبداً باسم «بعلة بيريت» أي ربّة الميثاق[3].

إذا أضفنا إلى هذه العوامل الجغرافيا، فجمال الموقع وسحر المشاهد أعجب الإمبراطور أغسطس بها فلقّبها بالسعيدة، فحين أسّسوا الجامعات لم يكونوا يضعون الحجر الأوّل إلاّ بعد أن يقوموا ببحث دقيق عن جمال الموقع وأخلاق السكّان[4]، فغدت بيروت المسمّاة «أجمل عيون فينيقيا» قبلة الأنظار تتخطّى سائر المدن جمالاً وازدهاراً[5].

ثانياً: النظام التعليميّ

تُشكّل المناهج والطلاب والمدرّسون عناصر النظام التعليميّ، يُقاس من خلالها مدى تقدّم المجتمع، وتعبرّ عن المستوى التعليمي الذي تتمتّع به المدارس ودورها في حفظ التراث الثقافيّ والعلميّ، والتحوّل الفكريّ.

[١]- Nonnus of Panoplis: ننوز شاعر إغريقي ولد في مصر عام ٤١٠م، ترك مؤلّفين، وأسس مدرسة شعريّة عرفت أتباعاً استمرّوا حتّى القرن السابع. إميل بجاني، المرجع السابق، ص٣٩ هامش ٢٥.

[2]- Previous REFERENCE, P199.HENRY MACADAM

[٣]- طه الولي، بيروت في التاريخ والحضارة والعمران، بيروت، ط١، ١٩٩٣م. ص ١٥.

[٤]- لامنس اليسوعي، المرجع السابق، ص٤٨٥-٤٨٧. لويس شيخو اليسوعي، المرجع السابق، ص٢٧.

[٥]- إميل بجاني، المرجع السابق، ص١٧.

٢. المنهاج

اعتنت مدرسة بيروت الحقوقيّة بالقانون في الدرجة الأولى، وجعلته المنهج الأساس في التعليم، لكنّ الحصول على نتيجة مرضية للخريجين ليكونوا محامين أو قضاة يستلزم الاهتمام والاعتناء بكلّ العلوم ذات الصلة بتطوّر هذا المجال والبراعة فيه، كعلوم اللغة ولاسيّما الخطابة والفصاحة التي تحتاجها مهنة المحاماة والقضاء، مع الاطّلاع على مبادئ الفلسفة، وما كاد القرن الخامس الميلادي ينتهي حتّى غدا معهد بيروت يضمّ كليّات عدّة، القانون والآداب والفلسفة[1].

استمرّت لغة التعليم اللاتينيّة في مدرسة بيروت حتّى أواخر القرن الرابع، ثمّ حلّت محلّها اللغة اليونانيّة أوائل القرن الخامس الميلادي، عندما استخدمها باتريسيوس في شروحه عام ٤٣٨م[2]، فكان الطلاب يحتاجون إلى دروس تمهيديّة في اليونانيّة واللاتينيّة، وفي العلوم المساعدة كالخطابة والفصاحة وعلم القواعد والعلوم الموسوعيّة، يتهيؤون بها لدراسة القانون، فتبدأ الدراسة بالرجوع إلى فهارس مترجمة للنصوص القانونيّة.

بدأت طريقة التدريس على شكل اجتماعات يفتتحها الأستاذ بقراءة بعض النصوص ثمّ يفسّرها معلّقاً عليها ثمّ يفسح المجال للسؤال والجواب. وعدّ التعامل بالوثائق من أسس التدريس في مدرسة بيروت، فكلّ طالب لديه مكتبة أساسيّة من ستّة كتب، عبارة عن مقتطفات من الوثائق القانونيّة، نحو (٦٠ سطراً) من النصّ مرتّبة في أعمدة متوازية من اللغتين اللاتينيّة واليونانيّة لتكون التعليقات ثنائيّة اللغة[3].

تطوّرت طريقة التدريس في عهد جستنيان الأوّل[4] الذي شرح في مقدّمة موسوعته (الديجست) ما كانت عليه هذه الطريقة قبله، وكيف أصبحت بعده، فتذكر المقدّمة أنّ

---

[١]- أسد رستم، المرجع السابق، ص٧١. ريمون الكك، بيروت أمّ الشرائع، مجلّة الفيصل، العدد ٦٢، ١٩٨٢م، ص٤٠.

Previous REFERENCE, P 208.HENRY MACADAM,

[٢]- إميل بجاني، المرجع السابق، ص١٠٥.

[٣]- PAUL COLLINET, Previous REFERENCE, P81-83.- فادي سهو، المرجع السابق، ص٥.

Previous REFERENCE, p208-211HENRY MACADAM,- أسد رستم، المرجع السابق، ص١٥٧.

[٤]- جستنيان الأوّل: اسمه فلافيوس بتروس ساباتيوس يوستيانوس (٥٢٧-٥٦٥م). المرجع السابق، ص١٦٨.

التدريس في بيروت قبل عام ٥٣٣م كان موزّعاً على أربع سنوات تشمل مؤلّفات غايوس وأولبيان وبابنيان وباولوس، إضافة إلى سنة خامسة مخصّصة للدساتير الإمبراطوريّة والمدوّنات، لكنّها كانت اختياريّة يتابعها الطلاب المتفوّقون، ينتقل بعدها الطلاب إلى مهن العدليّة والمحاكم، وإلى الوظائف الإداريّة في الدولة الرومانيّة، ويمكن أن يصبحوا أساتذة لقانون أو كهنة[1].

أمّا المرحلة بعد جسينيان فقد تميّزت بتطبيق مناهجه الجديدة التي حصرها بالنظم اليوستنيانيّة، والموسوعة (الديجست)، ومجموعة الكودكس.

كانت تتراوح مدّة الدراسة خمسة أيام ونصف في الأسبوع، من صباح يوم الاثنين حتّى ظهر يوم السبت، وتقسم الأيام بين الدراسة الخاصّة ومناقشات الفصل، فخصّصت الأوقات الصباحيّة للقراءة الفرديّة والاستعدادات، أمّا الأوقات المسائيّة فكانت لعقد الدروس في المحكمة أو في المدرسة[2].

٣. الطلاب

كان الطلاب في أوّل عهد الكليّة من الطبقة الوسطى في المجتمع؛ لانصراف أبناء العائلات الكبيرة إلى درس اللغة والخطابة، وكان نظام المدرسة يحدّد سنّ الطلاب فلا يجيزهم إلاّ بين الخامسة عشرة والعشرين، ويستثنى الطلاب العرب أحياناً، الذين كانوا يصلون متأخّرين في ثقافتهم، فيتمّ اللجوء إلى السلطة الإمبراطوريّة العليا لحملها على إصدار فتوى تسمح للطلاب الذين تجاوزوا السنّ القانونيّة في متابعة تحصيلهم الدراسي في بيروت، كما حدث عندما أصدر الإمبراطوران (ديوكسيانوس ومكسيموس) فتوى إلى شخص يدعى سويروس وإلى طلاب أعراب من البتراء تسمح لهم متابعة تحصيلهم في مدرسة بيروت رغم تجاوزهم السنّ القانونيّة[3]. كان الطلاب ينتسبون إلى جمعيّات، ولهم نشاطات كثيرة تعنى بشؤون الطلاب ومصالحهم، ويجب على الطالب دفع رسم انتساب إلى الجمعيّة، كانت تتمّ الإشادة بطلبة المدرسة الذين يتمتّعون بسلوك حسن تشجيعاً للطلاب الآخرين على عدم ارتياد أماكن اللهو والمجون.

---

[١]- المرجع السابق، ص١٥٨. فادي سهو، المرجع السابق، ص٦.إميل بجاني، المرجع السابق، ص١٠٧-١٠٨.

[٢]- المرجع السابق، ص١٠٩-١١٠-١١٤-١١٩. HENRY MACADAM,. Previous REFERENCE, p212- 213.

[٣]- إميل بجاني، المرجع السابق، ص٣١.

تقاطر الطلاب إلى هذه المدرسة من كلّ صوب، فحفل معهدها بأبناء غزّة وعسقلان وأنطاكية والرها وسميساط وغيرها من مدن الشام وفلسطين، وغيرهم من مصر وإسبانيا وإيطاليا والبلقان وبرّ الأناضول[1]. ومماّ أثّر إيجاباً على رواج دراسة الحقوق في بيروت، خصوصاً بين العائلات المتوسّطة، إعفاء الملك دوقليسيانوس كلّ من يدرس الحقوق في بيروت من الضرائب العموميّة[2]، أمّا أبناء العائلات الرومانيّة الكبيرة فقد بدؤوا بالاهتمام في دراسة القانون، وأقبلوا عليه إمّا للحصول على وظيفة حكوميّة أو للمحاماة أمام المحاكم، وإمّا للاطلاع والتثقيف[3]، فأبدى ليبيانوس أسفه لأنّ العدد الغفير من أبناء الأعيان في أنطاكية أصبحوا يهجرون الخطابة[4]، إذ كانت العائلات العريقة توفد أبناءها إلى بيروت رغبة منها وأملاً بالتخصّص والاستزادة علماً وثقافةً.

يُسمّى طلاب السنة الأولى بـDupondii، كلمة مأخوذة من لغة الجنديّة، وتعني الجنود المبتدئين، أمّا طلاب السنة الثانية فيطلق عليهم لقبEdictales نسبة إلى Edictum أي منشور البريتور، ذلك أنّ برنامج السنة الثانية يتضمّن مواد القانون الروماني كما يوردها بنصّه منشور البريتور، وأطلق تسمية البابينيين على طلاب السنة الثالثة نتيجة دراستهم مؤلّف الأجوبة لبابنيان، وأطلق على طلاب السنة الرابعة Lytae وتعني الأحرار للدلالة على أنّهم كانوا أحراراً بأن يحضروا الدروس أو أن لا يحضروها، بينما يُطلق على طلاب السنة الخامسة تسمية Prolytae دلالة على تفوّقهم وتقدّمهم على طلاب السنة الرابعة[5].

٤. المدرّسون

أتت شهرة بيروت من براعة أساتذتها في فنّ تعليم القانون، وأدبهم الرفيع، فعظم احترامهم وأصبحوا قدوة، وغدت آراؤهم مرجعاً، فكانت كلمتهم هي الكلمة المسموعة على مستوى الطلاب والأوساط الرسميّة في الديوان الإمبراطوريّ، فكانوا يستشارون في التشريع قبل

---

[١]- أسد رستم، المرجع السابق، ص١٥٧. فادي سهو، المرجع السابق، ص٤.

[٢]- ريمون الكك، المرجع السابق، ص٤٠. PAUL COLLINET, Previous REFERENCE, P29-30.

[٣]- أسد رستم، المرجع السابق، ص٧١.

[٤]- المرجع السابق، ص١٥٨. إميل بجاني، المرجع السابق، ص٣٠.

[٥]- إميل بجاني، المرجع السابق، ص١٠٩.

إقراره، ويؤخذ برأيهم عند تعديله[1]، فهم حملة صولجان الفقه في عصرهم، وبه يحكمون العالم، وعندما أصبح جستنيان ملك القسطنطينيّة صمّم على تنظيم الشرائع الرومانيّة وحصر أبوابها، فاختار لجنة من أبرز الفقهاء لتقوم بهذا العمل، كان من بين أعضائها ثلاثة من معهد بيروت[2].

تتمتّع بيروت بموقع استراتيجيّ له تجارة واسعة، ونتيجتها وجدت دعاوى قائمة أمام محاكمها، ترافق ذلك مع تأسيس مدرسة الحقوق، ممّا زاد من وفود الطلاب إليها للدراسة، فنبغ أساتذتها وعملوا على تطوير القوانين لتناسب الواقع والمتطلّبات المهنيّة، فاشتهر عدد كبير منهم خلال القرن الثالث والرابع والخامس والسادس[3]، فلقّبوا بأساتذة العالم، وشهروا بيروت حتّى رفعها الإمبراطوران ثيودوسيوس الثاني وفالنتنيانوس الثالث إلى شرف الحواضر (متروبوليس) فأصبح أسقفها متروبوليتاً ومايزال[4].

أعظم المشرّعين بابنيان أو بابينيانوس الحمصي الذي دعاه المؤلّفون بأمير المشترعين، وكان أولبيان أو أولبيانوس الصوري (١٧٠-٢٢٨م) وبولس تلميذين ومعاونين لبابنيان، تقلّدوا جميعهم المنصب الأعلى بعد المقام الإمبراطوريّ الذي كان يمارس صاحبه أكثر السلطات من عسكريّة وإداريّة، وللثلاثة مؤلّفات ضخمة، نذكر منها مجموعة المشاورات أو الفتاوى لبابنيان[5].

كان الأساتذة يعيّنون في أوّل الأمر بموافقة مجلس الشيوخ، ثمّ اشترط أيوليانوس عام ٣٦٢م أن يكون التعيين بموجب صكّ يوقّعه القائد المحلّي، ويوافق عليه مجلس شيوخ المدينة، ثمّ فرض ثيودوسيوس أن يعرض عليه قرار القائد ومجلس الشيوخ قبل التنفيذ. وتشير تشريعات جستنيان إلى أنّ تعيين المدرّسين كان من اختصاص مجلس الشيوخ وفقاً لمعايير محدّدة مثل حسن السلوك، والكفاءة، والبلاغة، والدقّة في تفسير النصوص، والكتابة

[١]- مراجعة ملحق رقم (٢)، ص ٢١.

[٢]- PAUL COLLINET, Previous REFERENCE, p45.. ريمون الكك، المرجع السابق، ص٤٠. إميل بجاني، المرجع السابق، ص٣٢.

[٣]- قائمة هؤلاء الأساتذة في الملحق رقم (١)، ص٢٠.

[٤]- أسد رستم، المرجع السابق، ص١٥٧.

[٥]- ريمون الكك، المرجع السابق، ص٤١.

الموسّعة عن المواضيع المطروحة. وكانت السلطة الرومانيّة منذ عام ٤٢٥م تقوم بجميع نفقات الأساتذة، الذين لقّبوا في القرن الخامس بأساتذة مسكونيين[1]، يتمتّعون بامتيازات ودرجة رفيعة نظراً إلى صيتهم الذائع، الذي جعل من مدرسة بيروت أعلى شأناً من أيّ مدرسة أخرى، فكانت بيروت أمّ الشرائع[2].

ثالثاً: أبعاد مدرسة الحقوق في بيروت

١. أثرها في الماضي

زوّدت كليّة الحقوق في بيروت الإمبراطوريّة الرومانيّة، ولا سيّما مقاطعاتها الشرقيّة، بالمحامين والقضاة لمدّة ثلاثة قرون حتّى تدمير المدرسة. كان تدفّق الطلاب مستمرّاً بسبب الثراء والشرف والعمل المضمون الذي توفّره المهنة، وأصبح الحصول على درجة في القانون أمراً مرغوباً بعد مرسوم الإمبراطور ليو الأوّل عام ٤٦٠م، أمر المرسوم أنّ المرشّحين لنقابة المحامين ببيروت يجب أن يقدّموا شهادات الكفاءة من معلّمي القانون، الذين علّموهم في إحدى كليّات الحقوق المعترف بها في الإمبراطوريّة.

وقد أصبحت مدرسة الحقوق البيروتيّة قبلة العالم في مستوى أساتذتها في القرن الثالث الميلاديّ، وبما قدّموه من تراث فكريّ قانونيّ، كان أبرزهم بابنيان الحمصي الذي قدّم تشريعات صاغت من خلالها قوانين الإمبراطوريّة الرومانيّة، له ١٩ مؤلّفاً في المناقشات القانونيّة، و٣٧ مؤلفاً في المسائل القانونيّة، أمّا كتبه فله كتاب «الفتاوى» و«الأسئلة» و«الأجوبة» الذي كان مقرّراً في مدارس الحقوق الرومانيّة[3]. وقد تمّ تطوير التشريع الروماني ونقله من الطور الإبتدائي إلى مرحلة متقدّمة عبر مؤلّفات الفقهاء السوريين الخمسة، والذين أحاط بعضهم بالإمبراطور سبتيموس سيفيروس كمستشارين له مثل بابنيان وألبيان[4]. إضافة

[١]- كلمة مسكونية ترجع في أصولها إلى الكنيسة المسيحيّة، ما لبثت أن التصقت بالبطريرك الذي يرأس الكنيسة، لكنّ هذا المفهوم تطوّر واتسع فاختلط الكنسي بالسياسي وأصبحت عبارة الأساتذة المسكونيين تعني أساتذة الشرق أو دكاترة الإمبراطوريّة الشرقيّة، وقد حاز أساتذة بيروت على هذا الامتياز رغم أنّها ليست عاصمة الإمبراطوريّة. إميل بجاني، المرجع السابق، ص٧٠-٧١.

[٢]- المرجع السابق، ص٨٥. أسد رستم، المرجع السابق، ١٥٧. فادي سهو، المرجع السابق، ص٧.

[٣]- لورا محمود، بابنيان السوري الذي صاغ التشريعات الحقوقيّة للعالم، ب.ت، ص ٢.

[4]- PAUL COLLINET, Previous REFERENCE, p50.

إلى هذين المشرّعين، كان هناك غايوس وبولس وموديستنوس، والجدير ذكره هنا أنّهم كتبوا مؤلّفاتهم الحقوقيّة باللغة اللاتينيّة، وهذا ما جعل المؤرّخين يطلقون عليهم اسم آباء الفقه الرومانيّ.

كان عصر البحث والتنقيب والاجتهاد في القانون خلال القرن الثالث الميلادي قد أشرف على النهاية، وحلّ محلّه عصر الجمع والتنسيق، وكانت بيروت أصبحت مستودعاً مهمّاً للقوانين الرومانيّة ومركزاً خطيراً لدراسة هذه القوانين وتدريسها، فقام غريغوريوس البيروتي بجمع القوانين في عام ٢٩٥م، ثمّ جاء بعده هيوموغنيانوس يعمل العمل نفسه فيكمل مجموعة سلفه عام ٣٢٤م[1].

بسبب عمق تأثير مدرسة الحقوق البيروتيّة أصبح أيّ وصف لبيروت لا بدّ أن يكون مكرّساً لوصف مدرستها ودورها في الحفاظ على إقامة القانون والعمل به، ففي وثيقة السفر (جغرافية العالم)[2] لمترجم سوري مجهول (٣٥٠-٣٦٢م) يصف بيروت بأنّها مدينة ساحرة بالكامل، وباللاتيني المدينة الفاخرة التي تمتلك مدرسة الحقوق، وقد أطلق على عملها غرف تلاوة القوانين حيث يُنشر الفقه الرومانيّ، من هناك من بيروت يأتي القانون، والرجال المتعلّمون الذين يجلسون طوال الوقت إلى جانب الحكّام، إنّهم يحافظون بعلمهم على قوانين الأقاليم، من بيروت يتمّ نقل اللوائح القانونيّة أي التنسيقات الفقهيّة إلى الإمبراطوريّة الرومانيّة[3].

بينما يصف الشاعر اليوناني ننوز بيروت التي بهرته بمكانتها العلميّة ومستواها الاجتماعي ومناظرها الخلاّبة بقوله: «بيرووه (بيروت) جذر الحياة ومرضعة المدن وكوكب لبنان وميناء النعيم ذات الجذر الجميلة والخضرة الغنيّة»[4].

زادت شهرة مدرسة بيروت في القرن الخامس بفضل استمرار قوّة أساتذتها الذين لقّبوا

[١]- أسد رستم، المرجع السابق، ص٧١.

[2]- ZOLTAN CSABAI, Studis in Economic and social History of the Ancient Near East in Memory of PETER VARGYAS, BUDAPEST, 2014, P 634.

[3]-Previous REFERENCE, p194. HENRY MACADAM,

[٤]- طه الوالي، المرجع السابق، ص١٥.

بأساتذة العالم، فبعد أن أصبحت متروبوليس توالت عليها الألقاب فأصبحت أمّ العلوم وموطن العلماء[1]، بينما قال عنها الإمبراطور جستنيان في دستوره: «يجب أن توضع هذه الأعمال الثلاثة التي قمنا بتأليفها والتي نرغب في وضعها في أيديهم في المدن الملكيّة، وكذلك في أكثر المدن عدالة بيريتوس، والتي قد تكون على غرار الأمّ المرضعة»[2]. حقّقت المدرسة اعترافاً واسعاً في جميع أنحاء الإمبراطوريّة، فكانت واحدة من المدارس القليلة المسموح لها بمواصلة تدريس الفقه القانوني عندما أغلق الإمبراطور البيزنطي جستنيان كليّات الحقوق في المناطق الأخرى.

٢. تأثيراتها طويلة المدى

يسود أيّ مرحلة من مراحل دراسة أيّ علم، وخاصّة علم القانون، ميّزات عدّة تجعل كلّ مرحلة تتمتّع بصبغة جديدة ومميّزة يلامس فيها الواقع الاجتماعيّ. ففي القرن الثالث كانت سورية تعكس على العالم تقاليدها الحقوقيّة التي تُعدّ مصدر القانون. كان يتمّ إعداد الحقوق الرومانيّة من قبل مجموعة من العلماء الفينيقيين السوريين، وتكمن أهميّة ما كتبوه أنّه غيرّ المفهوم القضائيّ السائد في روما في تلك الأيام، وحوّله من قانون متحجّر بدائي إلى قانون إنسانيّ عبر مؤلّفات هؤلاء المستشارين الخمسة (بابنيان وأولبيان وغايوس وبولس وموديستنوس)[3].

وقد استمرّت تأثيرات هؤلاء المشرّعين السوريين ومؤلّفاتهم الضخمة، فعُثر على فقرات متعدّدة منها في كتاب الـ(ديجست) لـ(جستنيان)، الذي استدعى لكتابة مدوّنته أربعة من أساطين الفقه الروماني، بينهم اثنان من مدرسة بيروت دوروتي وأناتول[4]. أمّا العالم القانوني تربيونيان فكان المراقب بالشيوخ، حسمت آراؤه وجوه الخلاف التي كانت قائمة حول تأويل القانون الرومانيّ القديم[5]. وقد شُغلت ثلث موسوعة الديجست بأفكار أولبيان، بينما

[١]- أسد رستم، المرجع السابق، ص١٥٧.

[2]- PAUL COLLINET, Previous REFERENCE, p51.

[٣]- لورا محمود، المرجع السابق، ص ٣.

[٤]- فادي أحمد سهو، المرجع السابق، ص١.

[٥]- جستنيان، مدوّنة جستنيان في الفقه الروماني، تر: عبد العزيز فهمي، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص٢-١٤.

استمرّت مؤلفات بابنيان الحمصي المكوّنة من (٢٤٦٢) فقرة قانونيّة حتّى تضمّن موجز جستنيان القانوني (٥٩٦ فقرة) منها، فقد أعطى بابنيان للعالم القوانين التشريعيّة التي يعمل بها حتّى اليوم، فله أكثر من ستّة وخمسين مؤلّفاً في الحقوق كانت أساس التشريعات العالميّ. في إيطاليا وبعد ١٨٠٠ عام من رحيل بابنيان عندما كان القضاة يجدون أنفسهم أمام حادثة غير مذكورة في قانونهم التشريعي المعتمد يعودون إلى مؤلّفات بابنيان كمرجع قانونيّ[1]، حيث عُدّ المصدر الرئيس للحقوق الشرعيّة في القرون الوسطى والعصور الحديثة، استمدّت منه الدول الأوروبيّة الحديثة قوانينها كفرنسا وإسبانيا وألمانيا وإيطاليا.

وأبرز أثر لمدرسة الحقوق البيروتيّة ظهر في نقطتين الأولى: تأسيس مستودعات منظّمة من الدساتير الإمبراطوريّة، ممّا أضفى الطابع المؤسّسي على دراسة وممارسة الفقه القانوني لتخفيف المحاكم الإمبراطوريّة المزدحمة، حيث سهّلت أرشفة الدساتير الإمبراطوريّة مهمّة الفقهاء في الإشارة إلى السوابق القانونيّة، وهذا يُعدّ أساس التنظيمات القانونيّة اللاحقة.

أمّا النقطة الثانية فكانت تأسيس القانون على فكرة الخير التي نادى بها أولبيان، وعلى أن لا خير في القانون ما لم يتوخ الفقيه بواسطة القانون إحقاق العدالة، وتطبيق فضيلة الحكمة، حيث يتمّ البتّ بالجريمة ليس من منطلق الانتقام إنّما من منطلق العدالة والإصلاح[2].

[١]- لورا محمود، المرجع السابق، ص٢. إميل بجاني، المرجع السابق، ص٦٤.

[٢]- المرجع السابق، ص٦٧. لورا محمود، المرجع السابق، ص١.

خاتمة

قامت الحضارات التي نشهد آثارها اليوم على علم وعلى أنظمةٍ شرعيّة، كانت تُشكّل مأمن الخائفين ومَفْزَع المظلومين، وقد أُتيح للشرق أن يكون مهد الحضارة، أي مهد الفكر والعلوم، وأُتيح لسوريا الكبرى أن تكون دماغه المفكّر ولسانه الفصيح، فما حدث في روما تأثّر بحضارة العرب سياسيّاً واقتصاديّاً واجتماعيّاً وثقافيّاً، فالنتاج الفكريّ الذي كانت تنتجه الولايات الأوروبيّة في الدولة الرومانيّة الشرقيّة لم يكن يتجاوز العشرة في المائة من مجموع النتاج الفكريّ، فكانت أهمّ المراكز الفكريّة أنطاكية وبيروت وقيصريّة فلسطين وقبدوقية والرها[1]، وأبرز هذا التأثير كان في القوانين، فاستطاعت بيروت أن تميّز نفسها كعامل ثقافيّ، فتكون المصدر الرئيس لإشعاع الثقافة القانونيّة في الشرق، بل في الإمبراطوريّة الرومانيّة كلّها[2].

فقد عبّرت مدرسة الحقوق في بيروت عن مدى تمدّن وتقدّم مدن الشرق العربيّ، فاستطاعت القيام بدورٍ فاعل سواء في محيطها العربيّ أو العالميّ، وتركت بصمات واضحة في القانون الرومانيّ.

مهنة المحاماة كانت موجودة بشكلٍ مبكّر جداً في بيروت نتيجة ممارسة مجتمعها التجارة والاقتصاد الذي يتطلّب قوانين البيع والشراء، فأيّ إنجاز اقتصاديّ يحتاج إلى قانون، ولعلّ لقب ربّة الميثاق الذي أطلقه الفينيقيّون عليها يُعدّ دليلاً على أنّ مدينة بيروت كانت حامية المواثيق والقوانين، ففي مجتمع مختلط تمتزج فيه العلاقات التجاريّة، لا بدّ أن تكون رغبته في إيجاد وسيلة ونظام يجعل من التعامل التجاريّ هدفاً لتطوّره الفكريّ، وليتمكّن من تحقيق التكامل والتمازج بين الثقافات التي ينفتح عليها[3]. وهذا ما جعل الإمبراطوريّة الرومانيّة تؤسّس مدرسةً لحقوق فيها عام ٣١ق.م بعد معركة أكتيوم، مع منحها ميّزات إمبراطوريّة مثل الترقية إلى مستعمرة عسكريّة، فغدت في عهد الإمبراطور أغسطس مركزاً استراتيجيّاً لمراقبة الجانب الشرقي من البحر المتوسّط[4].

---

[١]- أسد رستم، المرجع السابق، ص١٤٢.

[2]- ALFREDO BUZAID, Previous REFERENCE, p310.

[٣]- ميشيل شيحا، لبنان في شخصيته وحضوره، تر: فؤاد كنعان، بيروت، ١٩٦٢م. ص١٩-٢٠-٢١.

[٤]- إميل بجاني، المرجع السابق، ص٢٤.

كانت مدرسة بيروت قد أصبحت منذ أوائل القرن الثالث مركزاً لتعميم القوانين ونشرها، كانت تجارتها واسعة ودخلها كبيراً، فاستهوت دعاواها القائمة أكبر المحامين وأشهر الأساتذة الذين استحقّوا لقب أساتذة العالم[1]، ما أدّى إلى وجود شباب يتماشى مع الابتكارات التشريعيّة للأباطرة، مع توفّر ردود رسميّة للقضايا التي تقدّمها المستشاريّة الإمبراطوريّة للخصوم[2].

كان الإمبراطور سيفيروس يعلم أنّ عليه واجب مساواة الشعوب الشرقيّة بسكّان إيطاليا، فقد كانت نظرته للولايات الشرقيّة تتلخّص في أنّ الرومان والإيطاليين تمتّعوا منذ فترة طويلة بحكم الإمبراطوريّة دون مشاركة الشعوب الأخرى التي لها الحقّ في هذا الاستحقاق، لهذا كسر سيفيروس هذا الاحتكار كي يعطي فرصة لأبناء الولايات للتمتّع بهذه الحقوق وبناء أوطانهم بالإمكانات المتاحة التي استغلّها الرومان لصالحهم من قبل[3]، فكيف إذا كانت هذه الإمكانات هي فكريّة متأصّلة في المنطقة العربيّة؟ فأحاط نفسه بمجموعة من المستشارين القانونيين المشرقيين الذين استندوا إلى مبادئ حضاريّة لتطوير القضاء والقانون الرومانيّ.

واستطاعت مدرسة بيروت أن تؤثّر في العالم الروماني بما تميّز به أساتذتها الحقوقيّون، إذ عُرفوا بانفتاحهم على كلّ جديد وتحسّسهم حاجات العصر الذي يعيشون فيه، وهو ما كان يوفّره احتكاكهم اليومي بواقع الدعاوى كمحامين ومستشارين، لذلك وصفهم PAUL COLLINET بأنّهم ثورة دائمة تتأهّب لانتقاد الماضي واستيعاب كلّ جديد[4]. ورغم كتابة الأساتذة السوريين فكرهم القانونيّ باللغة اللاتينيّة إلّا أنّه بدا في أعمالهم هذه أثر الفكر السوري القديم، فبيروت مدينة الودائع الدستوريّة التي سهلت مهمّة المدرّسين، وأعطت بيروت ميزة عليا على جميع المدن الموجودة[5]، هذا الأمر جذب إليها الشباب للدراسة في معهدها، ويعبّر ليبانيوس محتجّاً على ذلك، لأنّه يؤثّر على أنطاكية ويفرّغ معاهد الخطابة فيها، فيقول مخاطباً أعضاء مجلس الشيوخ: «كيف لا تشمئزون إذ ترون أبناءكم يركبون

[١]- أسد رستم، المرجع السابق، ص ١٥٧.

[٢]- PAUL COLLINET, Previous REFERENCE, p306.-إميل بجاني، المرجع السابق، ص.٣٥

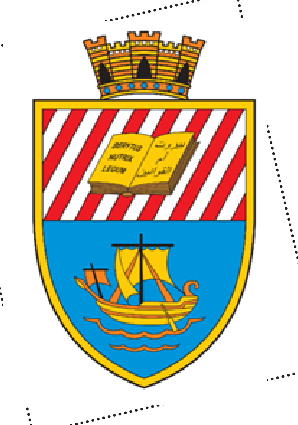
[٣]-محمد سالم، المرجع السابق، ص ١٨٤.

[4]- PAUL COLLINET, Previous REFERENCE, p51

[5]- Previous REFERENCE, p 21- 22.

البحر كلّ سنة إلى مدينة يبريت، لقد قضي على البلاغة وعلى اللغة اليونانيّة حتّى لم يبق من جاذب اليوم إلاّ لغة الإيطاليين وعلم الشرائع»[1].

لهذا كان من الحكمة تسمية مدرسة خاصّة للقانون في بيروت؛ لأنّها جعلت المدينة ترتقي إلى مرتبة المصداقيّة في نشر القوانين، وهو ما يبرّر وجود مركز الدراسات القانونيّة فيها فيما بعد. أمّا عن استمرار تأثيرها لمدى طويل فيعدّ ما قدّمه الفقهاء القانونيّون أساتذة العالم ومدرسة الحقوق البيروتيّة أمثال بابنيان وأولبيان معلماً فاصلاً في تقدّم العلوم القانونيّة، إذ وصلت العبقريّة الرومانيّة ذروتها مع بابنيان، فهو أوّل الفقهاء[2]، فالمواد القانونيّة الموضوعة الآن لحقوق الإنسان لم تظهر فجأة، بل بشكل تدريجي، فلها أسس سابقة بنت عليها الحضارة الحديثة مفاهيمها عن هذا الموضوع، وأبرز هذه المفاهيم التي قدّمها أساتذة بيروت بناء القوانين على فكرة الخير والإنسانيّة والأخلاق والحكمة، لا على مبدأ الانتقام، وهذه هي نقطة التحوّل القانونيّة في التاريخ الإنسانيّ، فكانت بيروت موطن العلماء وخادمة القانون أكثر المدن الرومانيّة مكاناً للتعليم[3].



علم بيروت يضم في جزء منه كتاباً مفتوحاً يحمل من جانب شعار "Berytus Nutrix Legum" وترجمته العربيّة "بيروت أم الشرائع"، وعلى الجانب الآخر (بيروت أمّ القوانين).

---

[١]- لامنس اليسوعي، المرجع السابق، ص٤٨٨.

[2]- PAUL COLLINET, Previous REFERENCE, p18.
ALFREDO BUZAID, Previous REFERENCE, p311- 313.

[٣]- ريمون الكك، المرجع السابق، ص٤٠. أسد رستم، المرجع السابق، ص١٥٨.

Previous REFERENCE, p199205-.HENRY MACADAM.

ملحق رقم (١)

قائمة أسماء الأساتذة في مدرسة الحقوق البيروتيّة خلال القرن الثاني والثالث

١. غايوس (١١٠-١٨٠م)

٢. بابنيان الحمصي (١٤٢-٢١٢م).

٣. أولبيان الصوري (١٧٠-٢٢٨م).

٤. مرقيانوس

٥. تريفونيوس

خلال القرن الرابع

١. تمّت معرفتهم من مراسلة ليبانيوس لهم:

٢. دومنيو

٣. سيلاسيوس

٤. سبستيانوس

خلال القرن الخامس والسادس: العصر الذهبي

١. حيث عرف أساتذتها بالمسكونيين والدكاترة الكلّيين

٢. كيرللوس مؤسّس المدرسة المسكونيّة عمل بالتعليم (٤٠٠-٤٣٨م) صاحب كتاب الرسالة في التعريفات.

٣. باتريسيوس ملك المدرسة المسكونيّة.

٤. دومنينوس مارس التعليم (٤٥٠-٤٩٠م)

٥. ديموستينوس اودكسيوس

٦. أمبليكوس

٧. ليونسيوس (٤٦٧-٥٠٠م)

٨. أوكسونيوس حمل لقب المفسر

٩. سابينوس

١٠. أفذكسيوس

١١. وابنه لأونطيوس ٥٣٠م

١٢. يمبليخوس

الأساتذة معاصرو جستنيان

١. دوروتيوس

٢. أناطوليوس

٣. تاليليوس

٤. إيزيدوريوس

٥. سالامينوس

٦. اسطفان

٧. يوليانوس[١].

---

[١]- أسد رستم المرجع السابق، ص ١٥٨. سعيد صائب، دور سورية في بناء الحضارة الإنسانيّة عبر التاريخ القديم، دمشق، ١٩٩٤م، ص١١٨. إميل بجاني، المرجع السابق، ص ٥٥-٨٣.

ALFREDO BUZAID, Previous REFERENCE, p316- 318- 321.

ملحق رقم (٢)

أصول المحاكمات

صدر قانون أصول المحاكمات (١٤٩-١٢٩ق.م)، لكن كثرت مساوئه وتعقيداته الشكليّة بما لا يخدم العدالة ولا سلامة المحاكمة، منها سقوط الحقّ نهائيّاً بمجرّد ردّ الدعوى لعيب شكلي لا علاقة له بأساس الحقّ، كان هذا القانون يقسم المحكمة مرحلتين أمام البريتور وأمام القاضي.

لكنّ الرومان استحدثوا إلى جانب هذا النظام العادي نظام الأصول غير العاديّة، بحيث يختصر المحاكمة إلى مرحلة واحدة، مع تحريرها من بعض الإجراءات الشكليّة، وإضافة ضمانات كحقّ الاستئناف تظلّماً من الحكم، وهذا النظام غير عادي، له سلبيّتان أنّه اختياري غير ملزم، واستثنائي لا يطبّق إلّا في حالات ضيّقة.

وفي عام ٣٤٢م صدر دستور إمبراطوري بإلغاء النظام العادي وبإحلال النظام غير العادي محلّه، جاعلاً منه نظاماً إجباريّاً، هذا التعديل الجذري والتحوّل في أصول المحاكمات كان لمدرسة بيروت دور فيه، فحين زار الإمبراطور بيروت عام ٣٣٩م لفت انتباهه أساتذتها الحقوقيّون إلى مساوئ أصول المحاكمات، فأصدر بعد عودته لروما دستوراً بإلغائها[١].

---

[١]- أسد رستم، ص٣٢-٣٣-٣٤-٣٥.

لائحة المصادر والمراجع

١. أسد رستم، الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، بيروت، ١٩٥٥م.

٢. إميل بجاني، مدرسة بيروت للحقوق يليه شيشرون رائداً ومعلّماً، دار النهار، بيروت، ٢٠٠٥م.

٣. جان مازيل، تاريخ الحضارة الفينيقيّة الكنعانيّة، تر: ربا الخش، ط١، سورية، ١٩٩٨م.

٤. جستنيان، مدوّنة جستنيان في الفقه الروماني، تر: عبد العزيز فهمي، القاهرة، ٢٠٠٥م.

٥. ديون كسيوس، التاريخ الروماني، تر: مصطفى غطيس، تطوان، ٢٠١٣م.

٦. ريمون الكك، بيروت أمّ الشرائع، مجلّة الفيصل، العدد ٦٢، ١٩٨٢م.

٧. سعيد صائب، دور سورية في بناء الحضارة الإنسانيّة عبر التاريخ القديم، دمشق، ١٩٩٤م.

٨. سهير سمير فريد، مدرسة الحقوق في بيروت، ب.ت.

٩. طه الولي، بيروت في التاريخ والحضارة والعمران، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

١٠. فادي أحمد سهو، بين بيوت اللهو والمجون تُحفظ القوانين عن مدرسة الحقوق الرومانيّة في بيروت، ٢٠٢١م.

١١. لامنس اليسوعي، الحياة في بيروت قبل الإسلام، جريدة المشرق، عدد (٨)، ١٩٣٣م.

١٢. لورا محمود، بابنيان السوري الذي صاغ التشريعات الحقوقيّة للعالم، ب.ت.

١٣. لويس شيخو اليسوعي، بيروت تاريخها وآثارها، بيروت، ١٩٢٥م.

١٤. محمّد سالم، الإمبراطور سبتموس سيفيروس (١٩٣-٢١١م) بصمة ليبيّة على جبين الإمبراطورية الرومانيّة، مجلّة كليّة الآداب، الأصابعة، ب.ت.

١٥. ميشيل شيحا، لبنان في شخصيّته وحضوره، تر: فؤاد كنعان، بيروت، ١٩٦٢م.

16. ALFREDO BUZAID, A ESCOLA DE DIREITO DE BEIRUTE Berytus…. Legm nutrix, ARTIGOS.

17. PAUL COLLINET, HISEOIRE DE L'ECOLE DE DROT DE BEYROUTH, PARIS, 1925.

18. HENRY MACADAM, BEIRUY'S ROMAN LAW SCHOOL IN ITS COLONIAL ,CULTURAL CONTEXT, In Memoriam: William A. Ward (1922- 1996), ARAM, 13- 14 (2001- 2002).

19. ZOLTAN CSABAI, Studis in Economic and social History of the Ancient Near East in Memory of PETER VARGYAS, BUDAPEST, 2014.

السياسة والمرأة والأخلاق في الإمبراطوريّة الرومانيّة

مروة محمد نبيل جريدة[١]

مقدّمة

يرجّح قيام الإمبراطوريّة الرومانيّة من عام ٢٧ ق.م إلى عام ٤٧٦ م، إذ بدأت على يد أغسطس، وهو لقب منح لـ «أوكتافيوس» من قبل مجلس السناتو «مجلس الشيوخ». عدَّ أغسطس القدوة لأغلب الأباطرة، إن لم يكن جميعهم، بوصفه المنقذ الذي استطاع أن يخلّص روما من سنوات الحرب الأهليّة الحالكة، التي لم تنهك إيطاليا فحسب، وإنّما كلّ الولايات التابعة للدولة الرومانيّة، وملأتها بالفواجع، حيث أخذ المواثيق على نفسه بأن تضع هذه الحروب أوزارها، وبأن يعمّ السلم والهدوء أرجاء الدولة.

مع ذلك حرص أغسطس على العادات والتقاليد الرومانيّة، ولم يفكّر في تغييرها أو إصلاحها، وقد أثّر النجاح الذي حقّقه على الأباطرة اللاحقين عليه، الأمر الذي دفعهم إلى محاكاة أفعاله في الحالات العصيبة التي مرّت بها الإمبراطوريّة من بعده في مختلف أطوارها، لاسيّما المشاكل (المشكلات) الاجتماعيّة، التي كانت الأساس لنشوء الأزمات وتتابعها على مختلف الأصعدة السياسيّة والأخلاقيّة، والتي مهّدت مع مرور الوقت لانهيار الإمبراطوريّة.

وهو ما سنحاول تتبّعه من خلال هذا البحث الذي سيلقي الضوء على الجانب الاجتماعي للإمبراطوريّة الرومانيّة والإشكاليّات التي عانت منها السياستان الداخليّة والخارجيّة، والمكان الذي شغلته المرأة الرومانيّة من حقوق وواجبات، وما نتج عن كلّ ذلك من مسائل وإشكاليّات أخلاقيّة.

أولاً: مسألة الطبقات الاجتماعيّة في الإمبراطوريّة الرومانيّة

إنّ الحديث عن السياسة في الإمبراطوريّة الرومانيّة والمسائل المتعلّقة بها أمر واسع

[١]- مدرّسة في قسم الفلسفة_ كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة_ جامعة دمشق

وفضفاض، يفرض في سبيل معرفته الوقوف على روما الملكيّة، ومن ثمّ روما الجمهوريّة وصولاً للإمبراطوريّة. وبما أنّ مبلغ عنايتنا هو الإمبراطوريّة الرومانيّة، لذلك سنحاول الوقوف على أهمّ المعالم التي رسمت الخطوط السياسيّة في المجتمع الروماني في هذا الطور، وما ترافق معه من إشكاليّات ومسائل على الصعيد الاجتماعي، تمهيداً للحديث عن سياسة الإمبراطوريّة الداخليّة وسياستها الخارجيّة.

١. انغلاق المجتمع الروماني

اتّسم المجتمع الروماني بشكل عامّ بنمط حياة اجتماعي منغلق على اختلاف أشكاله بسبب التباين القائم بين الطبقات العليا والطبقات الدنيا في المجتمع، وما رافقهما من انغلاق داخلي قائم على التباين القائم بين سكّان المدن وسكّان الأرياف من جهة، ومن جهة أخرى انغلاق خارجي قائم على التباين غير الرسمي بين الرومان الأحرار وسكّان الأقاليم، وقد خلق هذا النمط المغلق جوّاً مناسباً للعداء المستمرّ بين الطبقات المتباينة، ما أثّر بشكل سلبي على الحياة الاجتماعيّة، وانعكس على الأوضاع السياسيّة الداخليّة والخارجيّة.

ورغم محاولة العديد من الأباطرة تخفيف وطأة هذا الصراع الطبقي في مختلف مراحل تطوّر الإمبراطوريّة، إلّا أنّ مثل هذه المحاولات باءت بالفشل، وجلّ ما استطاعوه هو إجراء بعض التعديلات على الأشخاص المنتمين لهذه الطبقات، ومنح بعض الامتيازات والحقوق لصالح الطبقات الدنيا. إلّا أنّ الفجوة ظلّت آخذة في الاتساع، الأمر الذي جعل سياسة الأباطرة تتحوّل من وضع القوّة، التي تمنح وتحرم، تهب وتكفّ، إلى وضع الضعف المتمثّل في سياسة إعلاء الطبقات الدنيا على حساب الطبقات العليا لكسب الأعظميّة، وما اتّبعه من سياسة العنف والاغتصاب والقهر والسرقة والفساد وتفشّي العداء وازدياد التآمرات.

أ. انغلاق داخلي

يتمثّل هذا الانغلاق في نوعين، ويقوم على أساس التباين بين الطبقات المكوّنة للمجتمع الروماني؛ أي الطبقات العليا المتمثّلة بالطبقة البرجوازيّة، في مقابل الطبقات الدنيا المتمثّلة بالفلّاحين والعمال. وقد قبل أغسطس بهذا التقسيم المجتمعي المعتاد كما هو، «فالطبقة البرجوازيّة التي كانت تعتمد على الجهد والكدّ، الذي تبذله الطبقات الدنيا من الفلّاحين

والعمّال في المدن، كانت غير مستعدّة لتقبّل الطبقات الدنيا في صفوفها، وكان شأنها في ذلك شأن الأرستقراطيّة والبيروقراطيّة الإمبراطوريّة، وجميع هذه الفئات الثلاث أصبحت على توالي الزمان منطوية على نفسها»[١].

على أنّ التباين لم يشمل الإطار الخارجي لهاتين الطبقتين فقط، وإنّما تعدّاه إلى داخلها، ومن ثمّ يمكننا التكلّم على الانغلاق القائم على التباين ضمن الطبقات العليا؛ أي بين طبقة السناتو وجماعات من أثرياء البرجوازيّة أو طبقة الفرسان، وهم أقلّ منزلة من سابقيهم. أمّا النوع الثاني فهو التباين القائم بين الطبقات الدنيا؛ أي الساكنين في الحضر في مقابل الفلاّحين والقرويين.

. الطبقة البرجوازيّة

على الرغم من أنّهم ضمن طبقة واحدة، إلاّ أنّ التصنيفات كانت موجودة فانقسمت إلى قسمين: الأوّل يتألّف من أعضاء مجلس الشيوخ وأفراد أسرهم، وهم يشكّلون نظام المشيخة الروماني القابل للتوريث، وكان الانتماء إلى هذا التصنيف الشرفي محاطاً بشروط معيّنة مثل الألقاب وملكيّة الأراضي، إضافة إلى الألبسة الفارهة، وديمومة أحوالهم.

أمّا القسم الثاني فهم ممّن حصلوا على امتيازات وشهادات شخصيّة من قبل الأباطرة، وقد تنوّع أفراده واختلفت أصولهم تبعاً للتغيّرات التي طرأت على صفوف الجيش، وقد كان «تنظيماً أكثر تغايراً من التنظيم المشيخي، يعود ذلك لأصل جغرافي يقوم على الامتياز والثروة والتأثير، وكانوا يملكون العقارات، قوّة نخبة من الخيّالة لا تعود أصولها بالضرورة إلى روما، ويمكن اعتبارها موازية للمشايخ»[٢].

وكان الخلاف بينهما يدور حول مسألة تعيين الأباطرة، فكلّ منهما كان يسعى أن يكون الإمبراطور من بين صفوفه حتّى يستطيع أن يحافظ على امتيازاته وأن يزيدها، وكان من الصعب جدّاً إخضاع أيّ منهما للآخر، خشية من عودة إشعال نيران الحروب الأهليّة في

---

[١]- م. رستوفتزت، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة الاجتماعي والاقتصادي، ج١، تر: زكي علي، محمّد سليم سالم، مكتبة النهضة، مصر، ص ٣-٤.

[٢]- باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، تر: جورج كتّورة، دار الكتب الجديد، بيروت، ٢٠٠٨، ص ٧١.

الدولة، وبسبب ازدياد المشكلات بينهما اضطرّت الحاجة إلى فصل السلطة الإداريّة عن السلطة العسكريّة، وهو ما قام به كلّ من دقلديانوس وقسطنطين، بنقل عاصمة الإمبراطوريّة إلى الشرق بعيداً روما عن روما وأخطارها.

. سكّان الحضر/ سكّان الريف

لم يؤلّف سكّان المدن أو الحضر سوى أقليّة ضئيلة إذا ما قورنوا بسكّان الريف، مع ذلك نظروا إلى الفلاّح أو رجل الريف على أنّه إنسان أقلّ منهم منزلة، وذو حظّ قليل من المدنيّة أو لا حظّ له منها على الإطلاق.

وقد يعود ذلك إلى أنّ الجهد والاهتمام بتحضير المدن في بداية طور الإمبراطوريّة كان قليلاً جدّاً، وانحصر في بعض الاستثناءات للولايات اللاتينيّة القريبة من روما، مثل ولاية صقلّية، التي كانت تعتبر من الناحية العمليّة جزءاً من إيطاليا، ومن ثمّ توسّع هذا الاهتمام لكسب التأييد «فقد كان الأباطرة على ثقة، لاسيّما أغسطس وتيبريوس وكلوديوس، أنّ هؤلاء السكّان بمجرّد تنسمّهم مبادئ الحياة الحضريّة سيكونون أفضل دعامة في تأييد النظام الذي أتاح لهم فرصاً هامّة واسعة المدى»[1]، منها إمكانيّة الحصول على مركز ممتاز بين عامّة سكّان الريف.

لكن مع مرور الوقت أصبح التوسّع ببناء المدن عبئاً على الإمبراطوريّة، لما اتّسم به من توسيع الهوّة بين طبقتي المجتمع «حكّام ومحكومين، برجوازيّة ترتع في الامتيازات وأيد عاملة كادحة، ملاّك وفلاحين، أصحاب حوانيت وأرقّاء، وكلّما ازداد عدد المدن التي بنيت ازدادت الفجوة بين الطبقتين اتساعاً، وكلّ ازدياد في عدد الطبقة الممتازة يعني حملاً أثقل يقع على كاهل الطبقة التي حرمت من كلّ امتياز»[2].

وهو ما يدلّ على أنّ الجهد الذي بذله الأباطرة لإزالة أو تخفيف هذا العداء بواسطة العمل على تشجيع السكن في الحضر، ومساعدة الفلاحين في الريف والعمّال في المدن، قد ضاع سدى، «فكان هذا العداء هو السبب الأخير في أزمة القرن الثالث عندما

---

[١]- م. رستوفتزت، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة الاجتماعي والاقتصادي، ج١،ص١٣١.

[٢]- م.ن، ج١، ص٤٤٨.

عبرّ الجيش عن الآمال التي كانت تشيد بصدور الطبقات الدنيا»[١].

ب. انغلاق روما/ باقي الولايات

احتفظت الإمبراطوريّة بالأوضاع السائدة في فترة الحروب الأهليّة، فالحاجة الماسّة إلى السلام لم تدفع القادة وأولي الرأي المواطنين الأحرار من الشعب الروماني إلى قبول أيّ حلّ، «المواطنون الأحرار في روما إنّما خاضوا غمار الحرب من أجل إعادة الدولة الرومانيّة سيرتها الأولى، وليس من أجل إحياء ملكيّة شرقيّة حتّى ولو كانت في صورة مقنعة... وكان معنى هذا أنّهم كانوا على أتمّ استعداد لتأييد أغسطس طالما كان، متى عاد السلام، مستعدّاً وكفيلاً بالاحتفاظ لهم بجميع الامتيازات، التي كان ينعم بها أحرار الرومان من جميع الهيئات في الدولة»[٢].

وبالفعل بقيت الولايات -في عهده- على حالها بمثابة ضياع للشعب الروماني، ولم ينتقص من حقوق وامتيازات الرومان شيئاً، بل سعى إلى زيادتها وتوطيد أركانها، بينما لم يحصل سكّان الولايات الأخرى على حقوق المواطنة الرومانيّة، التي عدّت امتيازاً من العسير جدّاً الحصول عليه في القرن الأوّل.

إلّا أنّ التطوّرات التي شهدتها الإمبراطوريّة لا سيّما الحرب الأهليّة بعد عام الأباطرة الأربعة»٦٩-٧٠م» دعت الأباطرة إلى ضرورة صياغة نمط حياة جديد يتّفق ومطالب الأحداث الواقعة، فتمّ توسيع حلقة منح حقّ المواطنة، فشملت في عصر فيسباسيان بعض المناطق المتحضّرة والعامرة بالمدن، والتي وقعت تحت تأثير الحضارة الرومانيّة؛ أي على وجه الدقّة المناطق الغربيّة المجاورة لروما، ممّا زاد في تيّار السخط المتفشّي في كلّ مكان لاسيّما الولايات الشرقيّة.

أمّا أباطرة القرن الثاني أي عهد الأنطونيين الذين حاولوا إقامة حكمهم على قدر من العدل والإحسان، فقاموا بتوسيع حلقة منح حقوق المواطنة الرومانيّة في كلّ أنحاء الإمبراطوريّة، الأمر الذي جعلهم يشعرون بأنّهم أباطرة للإمبراطوريّة جمعاء، «ويدلّ على ذلك أمران

[١]-م. رستوفتزت، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة الاجتماعي والاقتصادي، ج١،ص٣-٤.

[٢]- م.ن، ج١، ص ٧٠-٧١.

أحدهما التوسّع السريع في منح حقوق الجنسيّة الرومانيّة في كلّ أنحاء الإمبراطوريّة، والثاني التساهل في منح البلدان الإقليميّة حقوق البلديّات الرومانيّة أو المستعمرات الرومانيّة واللاتينيّة، وتثبيت السياسة الجديدة التي درج عليها أباطرة ذلك القرن في النواحي الماليّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة»[١].

ومع كراكلاّ الذي منح الرعوية الرومانيّة للمنبوذين في سبيل كسب ولائهم وإعلاء الطبقات الدنيا على حساب الطبقات العليا، لا في روما وإيطاليا فحسب، وإنّما في الولايات أيضاً، أصبحت الرعويّة الرومانيّة شيئاً نسبيّاً عاديّاً وشرفاً لا قيمة له، ففقدت قدرها السياسي مع تراجع هيبة الإمبراطور انتمائه، وفساد إدارته وقدرها الاجتماعي، فأصبحت تدلّ على قاطني المدن الرومانيّة، عوضاً عن دلالتها على أشرف الطبقات، وهو ما أثّر سلباً في السياسة الداخليّة للإمبراطوريّة.

٢. انفتاح مقيّد

نستطيع القول إنّ التوازن الذي قامت عليه الإمبراطوريّة بين الطبقات التي تضمّها كان توازناً هشّاً تبعاً لقوّة المناسبات «فقد عاش معظم الناس رغم الرحلات والمبادلات والانفتاح على الخارج في عوالم مغلقة، سواء تعلّق الأمر بالطبقات العليا أو بالطبقات الدنيا، لم تكن الإمبراطوريّة الرومانيّة نموذج عدالة، ولا نموذج تنظيم إنساني مثالي، فالمسألة هذه لم تكن مطروحة بكلّ وضوح، كما لم تكن الإمبراطوريّة إطلاقاً وسيط وحدة سياسيّة يرجوها الجميع»[٢]؛ لأنّ الانصهار كان ينظر إليه بوصفه خياراً يحتوي الكثير من التنقيص.

فإهمال مسألة تحضير الإمبراطوريّة وتمدينها، والذي يمثّل مرحلة طبيعيّة من مراحل تطوّر أيّ مجتمع من المجتمعات، وينال رضا سكّان الولايات والأرياف، ويولع شغف الأباطرة، كان سببه الأساسي أنّ النجاح الذي بُني عليه نجاح أغسطس منذ البداية اعتمد بوجه خاصّ على تأييد المواطنين الرومان في إيطاليا، الذين كانوا حريصين جدّاً على امتيازاتهم ومركزهم المسيطر على شؤون الدولة الرومانيّة، بغض النظر عن الآثار السلبيّة التي ترتّبت على ذلك.

[١]- م. رستوفتزت، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة الاجتماعي والاقتصادي، ج١، ص ١٨٤.

[٢]- باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، ص ٩٥-٩٦.

وقد نهج الأباطرة بعده نهجه، وأدركوا لا سيّما فيسباسيان استحالة الانحراف عن هذا المبدأ الدستوري، فسادة الإمبراطوريّة وحكّامها يجب أن يكونوا من أحرار الرومان، أو من أولئك الذين كانوا ينتمون من الناحية القانونيّة إلى أصل إيطالي، وهو ما يعني استحالة المساواة بين جميع سكّان الإمبراطوريّة، لكنّه في المقابل أدرك سوء العاقبة من وراء التمسّك بهذه السياسة الضيّقة، فاختار«طريقاً وسطاً وعجّل بتمدين الولايات التي اصطبغت إلى حدّ ما بالصبغة الرومانيّة، وبخاصّة تلك التي كانت مناطق رئيسيّة لتعبئة الجند، واتخذتها جماعات كبيرة من جند الرومان مستقراً لها... وهو ما شجّع على تكوين أرستقراطيّة تأثّرت بالثقافة الرومانيّة، وهي مؤلّفة في أغلبها من جنود سابقين كانوا قد وقعوا تحت تأثير الحضارة الرومانيّة أثناء خدمتهم العسكريّة»[١]، فأولئك قد أظهرت سيرتهم وتاريخ حياتهم من الناحيتين الحربيّة والمدنيّة أنّهم أخلصوا في خدمة الإمبراطور، وكانوا من الراسخين في تأييده ونصرته، لذلك تمّ منحهم حقوقاً وامتيازات اقتصاديّة واجتماعيّة إلى الحدّ الذي مكَّن أفرادها من أن يصيروا حكّاماً على من يحيطهم من بقيّة السكّان، ومن ثمّ فرض الهيمنة عن طريقهم على جمهرة سكّان الولاية.

وكان من نتيجة ذلك الانفتاح المقيّد من الناحيتين السياسيّة والاجتماعيّة بالنسبة للولايات الرومانيّة أن حظيت الولايات التي استجابت لمؤثّرات الثقافة الرومانيّة بنصيب أوفر من الامتيازات، التي مُنحت للولايات التي لم تستجب أو التي استجابت لمؤثّرات الثقافة الهلّينية، فلم يسمح للشرقيين بالانخراط في طريق السلطة، وأوج ما استطاع المثقّفون الدارسون منهم وصوله هو إبراز مهاراتهم في البلاط الإمبراطوري رغم حفاظ الشرق، خاصّة اليونان، على دورهم بوصفهم مركز الثقافة المتّقد، الذي وإن خبا لم ينطفئ.

ثانياً: مشاكل السياسة الداخليّة

ذهب أغلب الباحثين إلى القول بوجود مرحلتين من الممكن تعيينهما على صعيد الإمبراطوريّة، «الأولى تمتدّ من أغسطس إلى ماركوس أوريليوس، وهي تتميّز بحدوث ازدهار عام، والثانية من نهاية أسرة سيفيروس إلى أسرة ديوقليطس، وقد تميّزت بأزمات

[١]- م. رستوفتزت، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة الاجتماعي والاقتصادي، ج١،ص ١٦٣.

متكرّرة وعميقة، وبين الحقبتين حقبة انتقاليّة حملت ظروفاً مناسبة وصعوبات يمكن التغلّب عليها، فلا يمكننا التحدّث عن انحدار لا يمكن تحاشيه في أيّة لحظة من اللحظات»[١] وإنّ أبرز معالم السياسة الداخليّة في هاتين المرحلتين، وما تعرّضت له من إشكاليّات ومسائل، يمكن أن نقف عليها تباعاً:

بدايةً مسألة توطيد الحكم من خلال الحكم عن طريق الجيش والاحتفاظ بامتيازات السناتو، فالوضع الجديد -بعد الحروب الأهليّة- «كان يتطلّب إعادة نظام الدولة القديمة وإرجاع الحياة الدستوريّة في الدولة على النحو الذي كانت عليه في عصر الجمهوريّة، ولكن في الوقت نفسه كان لابدّ من الاحتفاظ بالعناصر الأساسيّة في العصر الثوري، وهي عماده، وتتألّف هذه من جيش الثورة، وزعيم الثورة وقائدها»[٢]. ومن ثمّ كان دور الإمبراطور الحرص على بقائه على رأس الجيش قائداً أعلى دون مشاركة أحد، وهو ما تطلّب صناعة جيش محترف على أتمّ الأهبّة والاستعداد، مع إجزال العطاء له حتّى تصبح الخدمة في الجيش محبّبة ومغرية بقدر المستطاع، الأمر الذي حمّل ماليّة الدولة وميزانيّتها عبئاً ثقيلاً جدّاً في الإنفاق عليه، وهو ما احتوى تناقضاً من الناحية العمليّة للإمبراطوريّة؛ أي «إنشاء حكومة استبداديّة عسكريّة إلى جانب النظام الدستوري الذي أعيد إلى الدولة، ومن ثمّ الاحتفاظ بهيئة ثوريّة إلى جانب النظام الإداري العادي في الدولة»[٣].

وبسبب فساد الأباطرة الأخيرين من أسرة أغسطس، وما تلاه من فساد إداري وفوضى الحكم، الذي اعتمد في ترسيخه على الجيش أكثر، اضطلع الجيش بدور أساسي في مسألة تعيين الأباطرة والتآمر عليهم، وحتّى استبدالهم متى أراد ذلك، أو بالأحرى متى عجز القائد عن تلبية التزاماته معهم.

لكنّ قوام الجيش ودوره لم يستمر على نفس النسق في مختلف أطوار الإمبراطوريّة، فقد ارتكز في بنيته الأولى على المواطنين الرومانيين الأحرار، ومع نهاية حكم خلفاء أغسطس من اليوليين والكلوديين الذي انتهى بانتحار نيرون، وقيام ثورة عسكريّة واشتعال حرب أهليّة

[١]- باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، ص ٧٤.

[٢]- م. رستوفتزت، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة الاجتماعي والاقتصادي، ج١، ص٧٢.

[٣]- م.ن، ج١،ص١٢٥-١٢٦.

دامت لمدّة عام، أصبح مركز الجيش الحرس البريتوري المقيم في روما، الذي انتقل إليه الحقّ في ترشيح إمبراطور جديد، «مع ذلك فقد أخذ الفساد يتطرّق إلى هذا الإجراء شيئاً فشيئاً حتّى أصبح صورة من صور الديكتاتوريّة في يدي الحرس البريتوري، الذي كان يمنح تأييده لأولئك الذين كانوا على أتمّ استعداد لدفع ثمن هذا التأييد، ولما بانت هذه الحقيقة ساد جوّ من الشك والكراهية والحقد على رجال هذا الحرس وعلى مرشحيهم في طول الإمبراطوريّة وعرضها، واشتدّ أثر هذا الحرس في نفوس الجنود المرابطين في الولايات بصفة خاصّة»[١].

وبعد انتصار فيسباسيان أعاد صياغة دستور الجيش من جديد حتّى يتّفق مع وجهة النظر الاجتماعيّة، فلم يعد ينبغي أن يكون الإمبراطور «مجرّد مرشّح للحرس البريتوري، بل يجب أن يتحقّق فيه أن يكون خير رجل في الإمبراطوريّة من بين المشهود لهم بذلك على السواء من رجال الجيش وأعضاء السناتو وعامّة الشعب في روما، وذلك بصرف النظر عن علاقته وقرابته بأسرة أغسطس»[٢].

كما عمل على خفض عدد المتطوّعين الإيطاليين في الجيش، لاسيّما أنّ أكثرهم كانوا من الرعاع المعروفين بشدّة المراس وسرعة انفعالهم، وهم من غوغاء الحضر وأرذال الريف الإيطالي وأوغاده، فكان الخطر من أن يتحوّل الجيش الذي غلب عليه الرعاع والحثالة من المواطنين إلى الحال في أواخر عهد الجمهوريّة الرومانية، فتعود الحروب الأهليّة. على أن يكون الجيش ذا طابع إقليمي، شرط أن يتألّف أفراد هذا الجيش من«عنصر الأوساط البرجوازيّة من طبقة الملاّك في مدن الولايات وهم ملاّك الأراضي ومزارعوها، ولم يكن من صعاليك الحضر والريف، الذين لم ينتموا إلى هيئة المواطنين الأحرار»[٣].

ومع مرور الأيام وبسبب الأزمة الماليّة التي عانت منها إيطاليا، وتفاقمت في عهد ماركوس أورليوس، منعت بعض الولايات إرسال جنود إلى الجيش الذي ازداد فساداً واتّسم بالسلب والنهب والسرقة، وبسبب ازدياد عدد العصاة للحكومة الإمبراطوريّة، لم يعد الأمر

[١]- م. رستوفتزت، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة الاجتماعي والاقتصادي، ج١، ص ١٣٣.

[٢]- م.ن، ج١، ص ١٥٦.

[٣]-م.ن، ج١،ص١٥٨-١٥٩.

في وقت لاحق الاهتمام بالجيش والعناصر المؤلّف منها بقدر ما أصبح الاهتمام بالاحتفاظ بجيش قوي قادر على منازلة الأعداء، وقد تطلّب ذلك بسط جوّ من الإرهاب والعنف، وإخضاع مصالح المواطنين لمصالح الدولة؛ لأنّ الهدف أصبح جمع الأموال اللازمة للحكم، وإعالة الجيش وتأمين احتياجاتهم. وهكذا رأى كلّ إنسان أنّ الجيش مصدر الشرّ، لا سيّما الطوائف من الجنود الجشعين المستهترين الذين كانوا-رغم قلّتهم- سادة الأباطرة، والذين كرهوا العمل والقتال، ونعموا بسرقة المواطنين وسلبهم، وعاثوا فساداً.

وبناء عليه فاز الجيش متمثّلاً بالطبقات العليا على حساب أمن الإمبراطوريّة ورخائها، وأطلق المنتصرون لشهواتهم العنان وانحطّوا بالإمبراطوريّة إلى حال بقي معها مجرّد كيانها ووجودها حيناً من الوقت في خطر.

من هنا تحوّل الجيش من وسيلة لتوطيد الحكم إلى عقبة كأداء في طريق الأباطرة «فلم يكن له من الكفاية إلاّ القليل، وكان له من الإباحيّة وسوء الخلق قسط كبير، فحبست جهود الأباطرة منذ زمن جالينوس وخلفائه على عمل واحد هو إصلاح الجيش، حتّى يصبح أداة حربيّة لها كفايتها، وحتّى يلتزم الحيدة في الأمور السياسيّة ما أمكنه ذلك، وكان هذا نفس الشيء الذي أتمّ أغسطس فعله مع بداية الإمبراطوريّة الرومانيّة بعد الحروب الأهليّة»[١].

وقد تمّ الأمر بإنجاز جيش قوي سريع الحركة مؤلّف من الفلاّحين، الذين جندوا قسراً عوضاً من أن ينتخبوا من بين أحسن العناصر من السكّان الرومانيين، لذلك سادت روح التمرّد فيه، و«كان الاستغناء عن هذا الجيش المؤلّف من فقراء الفلاّحين حملاً ثقيلاً ألقى عاتقه على أباطرة القرن الثالث، كما كان أهمّ عمل واجه أغسطس فيسباسيان. وقد وجد الحلّ تدريجيّاً في إحلال المرتزقة محلّ المجنّدين قسراً، ولم تستخدم جماهير السكّان بعد ذلك في الجيش، واستبدلت الخدمة الفعليّة بالبدل النقدي والذي أنفق في كراء مرتزقة شجعان»[٢].

والنتيجة من كلّ ذلك، لم يعد الجيش الروماني جيشاً رومانيّاً، بل كان جيشاً يمكن تسميته

[١]- م. رستوفتزت، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة الاجتماعي والاقتصادي، ج١،ص ٥٥٤.

[٢]-م.ن، ج١، ص ٥٥٤.

بـ «جيش الامبراطور الروماني» أو «الدولة الرومانيّة»، إلاّ أنّه لم يكن جيش الرومان حتّى في أوسع معاني الكلمة، «لم يكن جزءاً من السكّان الرومانيين، ولم يكن يمثّل مصالح هؤلاء السكّان، كان طائفة خاصّة يقوم السكّان بدفع نفقات الاحتفاظ بها لكي تحارب أعداءهم من الأجانب»[١]، وشيئاً فشيئاً احتلّت هذه الطائفة المناصب الإداريّة، وشكّلت القسم الأكبر من الطبقة الحاكمة، بل من الأباطرة أنفسهم، أمثال الإمبراطور سيفيروس ذي الأصول الأفريقيّة.

ثالثاً: مشاكل السياسة الخارجيّة

بدأت السياسة الخارجيّة للإمبراطوريّة الرومانيّة بمحاولة رسم معالم هذه الإمبراطوريّة وتوطيد أركانها من خلال الاستمرار في التوسّعات العسكريّة، حيث وصلت إلى أقصى اتساع لها عام ١١٧م في عهد الإمبراطور تراجان، وتمّ لها ذلك من خلال تأسيس جيش قوي، وفرض سيطرتها على الولايات الشرقيّة بتأجيج الحروب الأهليّة فيها، ودعم الممالك الصغرى لإضعاف الممالك الكبرى، لاسيّما مقدونيا وسوريا ومصر، فضلاً عن إعلاء شرف المواطنة الرومانيّة لتصبح حلماً وامتيازاً يتوق إليه كلّ سكّان الولايات، كما ذكرنا سابقاً.

ولكن بسبب **المشكلات** التي عانت منها الإمبراطوريّة فيما يتعلّق بسياستها الداخليّة، والتي بلغت أوجها في القرن الثالث، تمّ استبدال نظام الحكم الثنائي القائم على الطبقة البرجوازيّة بعد قهرها نهائيّاً واختفائها، بنظام ملكيّة خالصة، وتمّ اعتماد الأباطرة في الوصول إلى هذا الهدف على الجيش، وهو ما جعل نظام الحكومة الجديد قائماً على الإمبراطور والبيروقراطيّة العسكريّة الجديدة، يسندهما الجيش الذي استخدم كأداة اضطهاد في سياسة العنف والقسر التي اتبعتها الحكومة في معاملتها للشعب «فمفتاح الموقف إذن ينحصر في النزاع الداخلي الذي حرّض الأعداء المجاورين على شنّ هجماتهم ومكّنهم من ذلك، وأضعف قوى المقاومة في الإمبراطوريّة»[٢].

زد على ذلك وقوع الإمبراطوريّة في أزمة ماليّة بسبب النفقات التي ترتّبت على الحكومة دفعها، والخدمات التي كان عليها تقديمها للمواطنين الرومان، والتكاليف الخاصّة بإجزال

---

[١]- م. رستوفتزت، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة الاجتماعي والاقتصادي، ج١، ص ٥٥٦.

[٢]- م.ن، ج١، ص ٥٨٨.

العطاء للجنود للمحافظة على قوام الجيش وتأييده، الأمر الذي حمّل الإمبراطوريّة عبئاً فوق أعبائها، إضافة إلى تردّي الأوضاع الاقتصاديّة بسبب انتشار مرض الطاعون القبرصي، الذي أدّى إلى وفاة عشرات الآلاف من الشعب الروماني. وفوق ذلك زيادة عدد الطرق التجاريّة غير الآمنة في البرّ والبحر، مع إهمال التحسينات فيها، ما جعل تكلفة نقل البضائع وجلبها أمراً باهظاً وشاقّاً لا تستطيع المدن الصغيرة والفقيرة تحمّله، وقد ترتّب على ذلك أن تصادف كلّ مدن الإمبراطوريّة دون استثناء-من وقت لآخر- فترات قحط عصيبة ترتفع فيها الأسعار. هذه الأحوال الاقتصاديّة الرديئة جعلت المدينة تنتظر من مواطنيها الأغنياء أن يقدّموا إليها المساعدة ولو بطرق الإكراه، أو لكي ينال أحدهم شرف انتخابه لتولّي وظيفة عامّة في مدينته.

لقد وضّحت هذه الأوضاع السيّئة شيئاً فشيئاً وهن الأسس التي قام عليها رخاء الدولة، وعدم صلاحيّة الوسائل المستخدمة لتقوية تلك الأسس؛ فالأباطرة «لم يقوموا بأيّة سياسة اقتصاديّة دائمة، وهم لم يتدخّلوا إلّا استجابة لظروف الأزمة ومن أجل الالتفاف حول التوازن الذي يفرضه قانون الطبيعة»[١]، وما رافق ذلك من نزف لرأس المال لاسيّما في الاهتمام بالتسلّح الحربي وتلبية مطالب الدولة والإمبراطور على حساب التحسّن الاقتصادي السليم والاهتمام بالوفاء بمطالب السكان وحاجيّاتهم.

وهو ما دفع إلى زيادة الضرائب وأنواعها زيادة ضخمة، لاسيّما الضرائب المفروضة على الأراضي والفلّاحين، ومع مرور الوقت «أصبحت الدفعات غير العاديّة هي المورد الأساسي لدخل الدولة، فلم تكن الدولة تعيش من دخلها العادي، وإنّما تعيش على نظام يشبه، إن قليلاً وإن كثيراً، السرقة المنظّمة»[٢]. وهو ما نشر جوّاً من القهر والعنف والسرقة المشروعة والظلم الاجتماعي الذي وقع على أفراد السكّان في الإمبراطوريّة.

على الرغم من أنّ أغسطس قد واجه في بداية قيام الإمبراطوريّة هذه المتاعب، إلّا أنّه لم يفكّر في أن يصبغ عليها صبغة شرعيّة وأن يمنحها صفة الدوام، أمّا مع دقلديانوس الذي نشأ في ظلّ تردّي الأوضاع وسياسة العنف، فقد كانت الحكومة ترادف القسر، والتنظيم يعني العنف المنظّم، وعوضاً عن محاولة تقديم إصلاحات للمشكلات التي كانت تعاني

[١]- باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، ص ٨١.

[٢]- م. رستوفتزت، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة الاجتماعي والاقتصادي، ج١، ص ٦١٧.

منها الإمبراطوريّة في زمانه، قام بتقسيم الإمبراطوريّة إلى جزأين يحكم كلّ جزء إمبراطور ومساعد، سمّي بنظام الحكم الرباعي، ولكنّه سرعان ما انهار.

وبعد الكثير من الفوضى الداخليّة والخارجيّة والصراع على الحكم، وصل الحكم إلى قسطنطين الذي نقل العاصمة إلى الشرق لمدينة بيزنطة، وسمّيت القسطنطينيّة تيمّناً به، وفيما بعد تسلّم الحكم ثيوديسيوس الذي حصل في عصره الفصل النهائي بين الإمبراطوريّة الشرقيّة، والتي تعرف بالبيزنطيّة وعاصمتها القسطنطينيّة، والإمبراطوريّة الغربيّة وعاصمتها روما، وأصبح لكلّ منهما كيان منفصل مستقلّ حتّى فيما يتعلّق باللغة والدين.

من ثمّ بدأت الإمبراطوريّة الرومانيّة الغربيّة في الضعف والانهيار خلال القرن الخامس الميلادي، عندما شرعت القبائل الجرمانيّة في نهب أراضيها، لتسقط رسميّاً عام ٤٧٦ م عندما أطاح الملك الجرماني أودواكر بعرش الإمبراطور رومولوس أوغسطولوس.

أمّا الإمبراطوريّة البيزنطّية فظلّت محافظة على قوّتها حوالي ألف سنة بعد سقوط الإمبراطوريّة الغربيّة، استمرّت فيها بتطبيق القوانين والعادات الرومانيّة، وأطلق عليها من قبل جيرانها اسم الروم، إلى أن سقطت عام ١٤٥٣ على يد السلطان العثماني محمّد الفاتح.

رابعاً: المرأة في الإمبراطوريّة الرومانيّة

هناك تصادم بين رؤى الباحثين الفكريّة والتاريخيّة فيما يتعلق بالمسائل الخاصّة بالمرأة خلال العهد الروماني، لاسيّما أنّه ممتدّ في الزمان لأكثر من عشرة قرون، ويشمل عدّة أنظمة سياسيّة «مملكة، جمهوريّة، إمبراطوريّة»، ويحتلّ رقعة جغرافية مؤلّفة من محتويات ثقافيّة مختلفة. لذلك وجدنا في بعض الآراء مدحاً لما استحوذت عليه المرأة الرومانيّة من مكانة كبيرة ومهمّة في هذا العهد، ومنها بعض الآراء التي أظهرت الجانب السيّئ في التعامل معها أو منها، وهو ما قد يعود إلى اختلاف العادات والتقاليد التي نظرت إلى المرأة وتطوّر القوانين الخاصّة بها، والأوضاع الاجتماعيّة العامّة في كلّ مرحلة من المراحل.

١. المرأة في الأسرة الرومانيّة

بسبب تدهور الأخلاق الرومانيّة في نهاية عصر الجمهوريّة، وانتشار الانحلال الأخلاقي

والزنا، أُحدثت مجموعة من القوانين التي منعت بيع الزوجة أو قتلها بعد أن كان أمراً اعتياديّاً عند الرومان، وحُرِّم الزنا والعزوبيّة والزيجات التي لا تنتج أطفالاً، وهو ما شجّع الزواج الذي هدفه اتحاد مدى الحياة بين رجل واحد وامرأة واحدة طوعاً واختياراً وإنجاب الأطفال، حيث ينبغي أن يقوم على المحبّة المتبادلة، وقد رُسِّخت هذه القوانين في العصر الإمبراطوري على يد أغسطس، وإن لم تستقطب إلّا شرائح معيّنة من المجتمع الروماني.

وقد وجد نوعان للزواج[١]:

١. **زواج مع السيادة:** تنقطع فيه المرأة عند دخول عائلة زوجها صلتها بربِّ أسرتها، وتنفصل عن ديانتها، وتسقط جميع حقوقها، فتدخل في دين زوجها، وتخضع لسيادته، أو لمن له سلطة على الزوج، كوالده، فور إتمام الزواج، وللزوج الحقّ في بيعها وفي عقابها كيفما يشاء، ويكتسب الحقوق كلّها عنها.

ومن المجاز لربِّ الأسرة أن يحلّ الرابطة الزوجيّة حتّى مع عدم موافقة الزوجين ما دام الزوجين في أسرته، وقد بقي الأمر كذلك إلى القرن الثاني حيث صدر مرسوم يبطل حلَّ الرابطة الزوجيّة من قبل ربِّ الأسرة.

٢. **زواج بدون سيادة:** فيه تكون المرأة شريكة زوجها في مركزه الاجتماعي والعملي، «ولها الحريّة بألّا تنضمّ إلى أسرة زوجها، ولكن عليها الطاعة لزوجها واحترام رغباته، هذا إذا كانت مستقلّة أصلاً بحقوقها وأموالها المنقولة وغير المنقولة عن أهلها، ولها حريّة التصرّف والرأي، فإذا أخطأت أو زنت وجب على زوجها تأديبها إلى حدّ قتلها بدون أيّ اعتراض»[٢].

مع ذلك ملكت المرأة الحريّة والمسؤوليّة في إدارة الأسرة وإدارة الشؤون اليوميّة،«فهي سيّدة الأسرة المكرَّمة، وتقوم بأعمالها في الغرفة الرئيسيّة للبيت، وتخرج من البيت وتحضر الاحتفالات الدينيّة والولائم»[٣]، كما عنيت إليها مسألة إرضاع الأطفال وتربيتهم، والمشاركة في تثقيفهم، وهو ما يدلّ على أنّها كانت مثقّفة، وحظيت بالتعليم المناسب لامرأة، إلّا أنّ

[١]- باسمة كيال، تطوّر المرأة عبر التاريخ، مؤسّسة عز الدين، بيروت، ١٩٨١،ص٣٩.

[٢]- م.ن، ص ٣٩.

[٣]- علي عكاشة، شحادة الناطور، جميل بيضون، اليونان والرومان، دار الأمل، ١٩٩١، اربد، ص ٢٢٨.

وظيفتها اقتصرت على الإشراف على تكوين الخصال والعادات الحميدة لأطفالها، وتعليم الإناث شؤون وتدبير المنزل «المرأة مهيأة بالفطرة للعناية بأمور البيت، والرجل للأعمال العامّة والخارجيّة»[1].

٣. الشؤون القانونيّة الخاصّة بالمرأة

عُدّتَ المرأة الرومانيّة من الأمور الهامشيّة في القانون الروماني، وقد يعود ذلك إلى أنّها خضعت لسلطة رجل، فهي دائماً تحت وصاية رجل سواء أكان أباً أو أخاً أو زوجاً أو ابناً أو أقرب الأقارب لها، وقد أتت هذه الوصاية من اعتقاد المشرّع الروماني بعدم أهليّتها أو عجزها عن التصرّف «رأى القدامى جعل النساء تحت الوصاية ولو بلغن سنّ الأهليّة، لطياشة عقولهن»[2]، وهو ما يجعل المرأة الرومانيّة سواء أكانت امرأة حرّة أو من الرقيق غير متمتّعة بكامل شخصيّتها القانونيّة، نظراً لوجوب خضوعها لصاحب السلطة عليها، والذي كان بمقدوره أن يحدّ من نشاطها ويقيّد أعمالها «كانت خاضعة لسلطة ربِّ العائلة إذا كانت عزباء، ولسلطة وسيادة زوجها إذا كانت متزوجة، وأمّا المرأة الرقيق فكانت خاضعة لسلطة سيّدها أو معتقها، وترتبط برباط الولاء والخضوع لمتطلّباته مهما كانت»[3]. في حين لم تمتلك النساء من الرقيق أيّ حقوق، وعانت من المعاملة السيّئة.

أمّا فيما يتعلّق بأنواع الحقوق التي استحقّتها، فمنها مساواتها في الحقوق مع إخوتها الذكور، فقد كانت جزءاً من العائلة، وفي حالة وفاة الأب يحقّ للبنات الحصول على نصيب من الميراث مساو للأبناء الذكور. ومن التحسينات التي أضيفت إلى صالحها قانونيّاً-في العصر الذهبي للإمبراطورية- منحها استقلالها وإعطاؤها الحقّ في التصرّف بأموالها الخاصّة وامتلاك الممتلكات، وأصبحت تستشار في اختيار زوجها، والحقّ في طلب الطلاق أو اتخاذ إجراءات قانونيّة ضدّ زوجها في حالة الإساءة المنزليّة، وقد ترتّب على ذلك تبدّل نظام العائلة القديم ليصبح الزواج ضعيف الرابطة، فكثرت حالات الطلاق والزواج، وقد نجم عن

[1]- فلافيوس جوستنيان، مدوّنة جوستنيان في الفقه الروماني، تر: عبد العزيز فهمي، دار الكاتب المصري، القاهرة، ١٩٤٦، ص ٣٩٨.

[2]- فلافيوس جوستنيان، مدوّنة جوستنيان في الفقه الروماني،ص ٣٩٨.

[3]- باسمة كيال، تطوّر المرأة عبر التاريخ، ص٣٧.

ذلك رواج الفاحشة، وتسرّب الفساد لبعض نساء الأباطرة حتّى جاهرن به.

إضافة لذلك يمكن أن نقف على نوع من التمييز في سلوكيّات المرأة وفقاً لانتمائها الاجتماعي، فقد نظر للموسيقيّات والغانيات نظرة دونيّة، في حين لم تتعرّض نساء الطبقة العليا ممّن امتلكن موهبة الموسيقا وممارسة أنواع الفنون لهذه النظرة، وهو ما يوضّح أنّ تراتبيّة التقسيم الاجتماعي إلى طبقات عليا وطبقات دنيا تجاوزت الرجال وصولاً إلى النساء.

إضافة لذلك، لم يكن للمرأة الحقّ في عمليّة التصويت الانتخابي، أو أن تشغل أيّ منصب سياسي «ليس للنساء ولاية الأعمال العامّة»[1]، إلاّ أنّها لعبت دوراً مهمّاً في العمليّة السياسيّة بشكل عامّ، من خلال تأثيرها على أقربائها الذكور من آباء وأبناء وأزواج وأشقّاء، فمثلاً كانت «ليفيا» والتي منحت لقب «أوغستا»، زوجة الإمبراطور أغسطس، امرأة قويّة ومؤثّرة للغاية، واضطلعت بدورٍ مهمّ في إصلاح شؤون الأسرة الرومانيّة، وقد تمّ ذكرها في التاريخ على أنّها كانت وصيّة ومستشارة قويّة للإمبراطور. وقد استطاعت بعضهن أن توصل من تريد إلى عرش الإمبراطوريّة بدهائها، مثل «أجربينا» والدة نيرون من زوجها السابق، التي قتلت زوجها كلاوديوس بالسمّ حتّى يخلو العرش لابنها.

خامساً: الأخلاق في الإمبراطوريّة الرومانيّة

يمكننا أن نقف على الأخلاق السائدة في العصر الإمبراطوري للرومان من خلال ما سبق ذكره من أحوال اجتماعيّة وسياسيّة، وسنوجزه بالآتي:

١. النظام القيمي والأخلاقي

نستطيع أن نشبّه النظام القيمي والأخلاقي في العصر الإمبراطوري الروماني على شاكلة هرم رأسه الإمبراطور، وجذعه الطبقة العليا، وقاعدته الطبقات الدنيا بمن فيهم العبيد. وفي سبيل توطيد حكم الإمبراطور كان لابدّ أن يكون طاغية ذا طابع عسكري، يعتمد في نفوذه على الجيش، وتتمثّل في شخصيّته قدسيّة الدولة، وقد يرفع عقب موته إلى مصاف الآلهة، كيف لا وقد استطاع الأباطرة أن يخرجوا من الحروب الأهليّة ومن الحملات العسكرية، وهم أغنى الناس، وهو ما ساعدهم على «قبول تقديم العون للدولة من إيرادهم الخاصّ

[1]-فلافيوس جوستنيان، مدوّنة جوستنيان في الفقه الروماني، ص ٣٩٨.

بتحمّل الإنفاق عن سعة في سبيل إعادة بناء العاصمة... ثمّ إطعام سكّان روما وتهيئة وسائل اللهو لهم، وتوزيع الهدايا على الجند... وبناء الطرق في إيطاليا وفي الولايات وتحمّل غير ذلك من المطالب»[١].

وفي سبيل البعد أكثر عن سلطان مجلس السناتو، بالغ بعض الأباطرة في بذل الجهود من أجل التطوّر بعبادة الإمبراطور وتقديسه وجعله فرضاً ونظاماً من أنظمة الدولة، في سبيل أن ترتبط المشاعر الدينيّة لدى سكّان الإمبراطوريّة بشخص الإمبراطور ذاته.

هكذا كان الثمن للهدوء والسلام-الذي حلم به العامّة دون شروط، والذي قبلته الطبقات العليا ضمن شروط ضمنت بها مصالحها- فقدان الحريّة السياسيّة، ليصبح نظام الحكم جزءاً من نظام التشريعات الدينيّة.

وإلى جانب الهالة القدسيّة التي أشاعها الأباطرة حولهم، وجد الطابع القاسي الملطّخ بالدماء كمظهر من مظاهر الحكم والتوسّع من جهة، ومن جهة أخرى كمظهر من مظاهر الحياة الرومانيّة العامّة، «كان القوّاد يسيرون في عرض الأرض وطولها يفتتحون الممالك ويخضعون الأمم، طلباً للمجد واستكثاراً للثروة، فيقتلون الناس بغير شفقة، وينهبون أموالهم وأراضيهم، ويدخلونهم تحت نير الحكم الروماني، ولا يراعون الحقوق الإنسانيّة، فبمثل هذه الوسائل وسَّع الرومانيّون مملكتهم»[٢]. ونجد هذا الطابع القاسي في نظرة الاستهزاء والدونيّة من قبل سكّان المدن لسكّان الأرياف، كما نجدها في معاملة العبيد «يمكن للعبد الروماني أن يُعتق في ظروف معيّنة تكون مترافقة ضرورة مع شروط الحصول على الحريّة، يصبح العبد الذي يُعتق وريث الشروط القانونيّة الخاصّة بسيّده، وهو يظلّ في عهدته، إلّا إذا أعلن السيّد أمراً مخالفاً، أمّا الحريّة الكاملة فلم تكن متاحة إلّا للأولاد»[٣].

وقد ظهر هذا الطابع القاسي لدى بعض الأباطرة في تعاملهم مع الشعب الروماني، فعُرِف عن تيبريوس أنّه «متهكّم وكثير المجون، وقام بتعذيب الكثيرين وهتك الأعراض وتميّز

---

[١]- م. رستوفتزت، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة الاجتماعي والاقتصادي، ج١، ص١٢٥-١٢٦.

[٢]- جرجي زيدان، خلاصة تاريخ اليونان والرومان، مؤسّسة هنداوي، القاهرة، ٢٠١٢، ص ٤٧.

[٣]- باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، ص ٩٥-٩٦.

بالقسوة وعدم الرحمة»[١]، كما اشتهر كاليجولا، رغم فترة حكمه القصيرة، بعتوّه وجنونه «خلال السنوات الأربع التي احتلّ فيها عرش روما مارس كلّ ضرب من ضروب الفسوق والفتك، جرائم خلقيّة، وارتكاب فحشاء بالمحارم، واغتيالات للأصدقاء والأقارب، تسيّره أهواؤه الجامحة وجنونه المريع وشخصيّته القلقة ونفسيّته المضطربة، وقد قام بهجمات على جيرانه من الشعوب، فأحرق ودمّر وخرَّب»[٢]، ونيرون الذي «كانت مدّة حكمه كلّها سفك وقتل ، فقتل والدته وامرأته، ويقال إنّه أحرق مدينة روما ليتمتّع بمشاهدة لهيبها»[٣].

٢. أحوال الحياة الاجتماعيّة السائدة من الناحية الأخلاقيّة

كان على روما أن تكتسب نوعاً من المرونة الضروريّة لكي تستطيع أن تحافظ على الدرجات المختلفة من الارتباط السياسي الذي كان يربطها بالمناطق المختلفة، بعدت أو قربت من مركز الحكم في روما، لذلك وجدت عدّة درجات من حقوق المواطنة التي كانت تتطوّر وتنمو داخل هذا النطاق المرن، فهناك حقوق المواطن الكامل، التي منحت لسكّان المناطق اللاتينيّة المجاورة لروما، لما يصلهم مع الرومان من صلة اللغة والثقافة، وهو ما خوّلهم التمتّع بكافّة الحقوق الاجتماعيّة والسياسيّة على قدم المساواة مع سكّان روما، وكلّما زاد بعد الولايات عن روما وقلّت الصلات التي تربطها معها قلّت حقوق المواطنة، وهو ما لعب دوراً في استياء الشرق لا سيّما بعد انتهاء حروبه الأهليّة التي عانى منها، وانتعاشه اقتصاديّاً ونهضته ثقافيّاً، ممّا جعل الرومان أنفسهم يعدّونها الحضارة الحقّة.

أمّا الطبقة العامّة التي يجمع القادة جنودهم من بين صفوفها، فقد انحدرت «إلى مرتبة التبعيّة يساوم أفرادها هذا القائد أو ذاك ممّن يطمعون في الظهور أو يصبون إلى الحكم»[٤].

«لم تكن هناك إذن تسوية ولا مساواة من وجهة النظر الاجتماعيّة، ولم يكن المجتمع في الإمبراطوريّة الرومانيّة في العصور المتأخّرة مقسّماً إلى طبقات، وإنّما إلى طوائف حقيقيّة، أحكم غلق كلّ منها ما أمكن الغلق، وقد كان مرجع ذلك في بعض الأحيان إلى الامتيازات

[١]- أشرف صالح، تيبريوس «ثاني الأباطرة الرومان» شركة الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠٨، ص ٥١.

[٢]- علي خشيم، هؤلاء الأباطرة وألقابهم العربيّة، دار الكتاب الجديد، بيروت، ٢٠٠٢، ص ٢٦.

[٣]- جرجي زيدان، خلاصة تاريخ اليونان والرومان،ص ٤٨.

[٤]- لطفي يحيى، مقدّمة في نظم الحكم عند اليونان والرومان، مطبعة دار الثقافة، الإسكندريّة،١٩٨٥، ط٢، ص ٣٣.

الممنوحة إلى الطائفة، وفي أحيان أخرى كان ذلك راجعاً إلى أعبائها ومتاعبها التي لم تترك لأحد رغبة في أن ينتمي إليها»[١].

كلّ هذه الأحداث والأزمات الاجتماعيّة والسياسيّة اضطلعت بدورٍ مهمّ في ازدياد الانحلال الأخلاقي بين عامّة الناس وصولاً إلى الأباطرة وعائلاتهم، فانتشرت الفاحشة وانهار النظام الأسري، وكثر الفساد والعنف والسرقة تحت أسماء مشروعة وغير مشروعة، وهو ما كوَّن عاملاً من عوامل انهيار الإمبراطوريّة الرومانيّة.

---

[١]- م. رستوفتزت، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة الاجتماعي والاقتصادي، ج١، ص ٦٣٣.

خاتمة

يمكن القول إنّ النظام الاجتماعي احتلّ محوراً رئيساً في الإمبراطوريّة الرومانيّة، فالتقسيم الطبقي الاجتماعي، وما رافقه من مسائل وإشكاليّات، كان له بالغ الأثر في متاعب الإمبراطوريّة، وكان أساس كلّ الشرور والمصادمات اليوميّة بين المواطنين، سواء ممّن تمتّعوا بالرعويّة الرومانيّة منذ البداية أم من الذين لم يتمتّعوا بأقلّ حقوقها، وهو ما دفع المجتمع الروماني إلى أزمات أكثر عمقاً على الصعيد السياسي من جهة تعيين الأباطرة وإدارة الحكم، فانصرف الجيش عن مهمّته الأساسيّة، وهي القتال دفاعاً عن الإمبراطوريّة، إلى الانخراط في المنافسة المستمرّة حول تعيين قادته أباطرة، وانتظار الفرصة السانحة للانقضاض على الحكم، ممّا أدّى لسيادة جوّ من الاضطراب وعدم الاستقرار، وزعزعة مركز الإمبراطور الذي وقع تحت تهديد مستمرّ، والخوف من حياكة المؤامرات عليه، ومن جهة أخرى شجّعت هذه الأزمات الشعوب المجاورة لروما مثل القبائل الجرمانيّة على شنّ هجمات عليها ونهبها لتسقط الإمبراطوريّة رسميّاً عام ٤٧٦م.

كما كان لحياة المرأة الرومانيّة والتطوّرات التي خضعت لها فيما يتعلّق بالحقوق والواجبات دور مهمّ في تبديل العديد من الأنظمة الاجتماعيّة كالنظام الأسري، والتدخّل في الشؤون الإدارية، والتأثير على قرارات الأباطرة، مستخدمة-داخل نطاق الحريّة والمساواة التي طالبت بهما ونالتهما- سلطان الجمال والدلال لفرض نفوذها على قلوب استعبدتها الشهوات والملذّات.

وهو ما أسفر أخيراً عن النظام القيمي والأخلاقي الذي اتّسمت به الحضارة الرومانيّة في طور الإمبراطوريّة، والتي لم يمنع اللجوء إلى قانونها العنف الذي استخدمته الدولة متمثّلة بالإمبراطور المقدّس حين ترى ذلك مناسباً، فانتشر الفساد والنهب والفاحشة، ولم يساور الأغنياء أيّ قلق لاقتلاع الفقر، واستمرّت العبوديّة ضمن هذا النظام القيمي، بل ازدهرت، والنتيجة كانت انفصال الدولة وأجهزتها أكثر فأكثر عن مواطنيها، فأصبحت شيئاً مستقلاًّ لا تمثّل مطالبها مطالب الشعب، ولا مطالب الشعب مطالبها.

لائحة المصادر والمراجع

١. أشرف صالح، تيبريوس «ثاني الأباطرة الرومان» شركة الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠٨.

٢. باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، تر: جورج كتّورة، دار الكتب الجديد المتّحدة، بيروت، ٢٠٠٨.

٣. باسمة كيال، تطوّر المرأة عبر التاريخ، مؤسّسة عز الدين، بيروت، ١٩٨١.

٤. جرجي زيدان، خلاصة تاريخ اليونان والرومان، مؤسّسة هنداوي، القاهرة، ٢٠١٢.

٥. علي خشيم، هؤلاء الأباطرة وألقابهم العربيّة، دار الكتاب الجديد، بيروت، ٢٠٠٢.

٦. علي عكاشة، شحادة الناطور، جميل بيضون، اليونان والرومان، دار الأمل، اربد،١٩٩١.

٧. فلافيوس جوستنيان، مدوّنة جوستنيان في الفقه الروماني، تر: عبد العزيز فهمي، دار الكاتب المصري، القاهرة، ١٩٤٦.

٨. لطفي يحيى، مقدّمة في نظم الحكم عند اليونان والرومان، مطبعة دار الثقافة، الإسكندريّة،١٩٨٥.

٩. م. رستوفتزت، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة الاجتماعي والاقتصادي، ج١، تر: زكي علي، محمّد سليم سالم، مكتبة النهضة، مصر.

الإمبرياليّة الرومانيّة والفكر الإمبريالي في ملحمة الإنياذة

هبة شباط[١]

مقدّمة

تمثّل حرب طروادة التي دوّنتها ملحمة الإلياذة ذروة الصراع بين الشرق والغرب، فرغبة الغرب الجامحة في السيطرة على الشرق دفعتهم لشنّ حروب عدوانيّة لا هوادة فيها تحت حجج واهية. وهكذا تمثّل ملحمة طروادة الصراع بين الحضارات من أجل التوسّع والسيطرة، ومن هذا المنطلق حرص الرومان منذ تاريخهم المبكّر على ربط جميع ملاحمهم الأسطوريّة، سواء في تأسيس العرق الروماني أم في تأسيس مدينة روما، أو حتّى في بعض حروبهم مع الأتروسكيين إلى ربطها جميعاً بملحمة طروادة. ولمّا كانت قرطاجة استمراراً لمدينة صور، ورمزاً لحضارة الشرق القديم في الحوض الغربي للبحر المتوسّط، كان لا بدّ من إعطائها دوراً بارزاً في الإنياذة، ذروة الشعر الملحمي الإمبريالي عند الرومان، ولمّا كان الانتصار على كليوبترا والسيطرة على مصر هو خضوع بقعة مهمّة في الشرق لسلطان روما، كانت هذه السيطرة نقطة بارزة في الإنياذة، وإن كان بتعابير مبطّنة وتشابيه غير صريحة. وبعد أن خضع الشرق والغرب لسيطرة الإمبرياليّة الرومانيّة بقوّة النار والحديد، وصار البحر المتوسّط بحيرة رومانيّة يدعوها الرومان بتغطرس واستكبار بحرنا، كان لا بدّ من شاعر روماني ينظم ملحمة شعريّة رومانيّة تجسّد هذا الشعور، إمبرياليّة في السيطرة على العالم المأهول في وقتها، وتشرعنه بإرادة إلهيّة، وبالتالي فإنّ الدارس للإنياذة والمطّلع على الدراسات الأدبيّة النقديّة لها، سيجد أنّها تدعو إلى حتميّة القدر (إرادة جوبتير) المتمثّلة في فكرة واحدة هي: «إن قدر روما أن تحكم العالم»، وهكذا تتجلّى الإمبرياليّة في أبشع صورها؛ لأنّه مع هذا المفهوم سيكون من الحقّ لها أن تبرّر كلّ ما قامت به أو يمكن أن تقوم به من استعمار ونهب وقتل وتدمير وإذلال وإخضاع للشعوب. وهكذا لم يترك الرومان فرصة أو مناسبة إلاّ أظهروا فيها نهجهم الإمبريالي، حتّى إنّ معظم الكتابات التي مجّدت غزو الإسكندر المقدوني للشرق

[١]- مدرّسة في قسم الفلسفة_ كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة_ جامعة دمشق

سنة ٣٣٣ ق.م مثلاً هي كتابات رومانيّة، لا بل إنّ الكتاب الرومان رفعوا الإسكندر إلى مراتب الآلهة وأثنوا عليه وعلى مشروعه الإمبريالي في غزو الشرق، حتّى أمست شخصيّته مبجّلة في روما أكثر من مقدونيا ذاتها، رغم إخضاع روما لمقدونيا وإذلال أهلها. إنّ ما كان الرومان يبحثون عنه في ملحمة الإلياذة (طروادة) هو تكوين فكر إمبريالي غربي وكوني متخصّص في الأنثروبولوجيا (علم ثقافات الشعوب) فإنّ ثقافة الشعب الروماني الإمبرياليّة تُمثّل موضوعاً مهمّاً، لما تَرتب عليها من نتائج ومعطيات أسهمت إسهاماً عميقاً في مجريات التاريخ القديم.

أوّلاً: تبلور الإمبرياليّة الرومانيّة

مصطلح الإمبرياليّة مشتقّ من الأصل اللاتيني إمبريوم Imperium، التي تعني السلطة، وإن كانت كلمة إمبريوم في بدايتها تعني سلطة القانون والدولة، إلّا أنّها تبدّلت فيما بعد لتعني سلطة روما على العلم. فكيف تكوّن المفهوم الإمبريالي عند الرومان بهذا المعنى؟ في الواقع لم يكن الرومان أصحاب تجارة أو صناعة، بل كانوا شعباً من الفلاّحين، إنتاج إقليمهم محدود، وبالتالي كانت الحرب الوسيلة الوحيدة لديهم للكسب والثراء[1]، فبما أنّ الشعب الروماني شعب فلاحين، فإنّه طمع في أراضي جيرانه، خاصّة عندما تكون أكثر خصوبة أو أفضل استثماراً، ومن حيث أنّه استوطن أقاليم تمرّ فيها بعض الطرق، فإنّه قد صمّم على الاحتفاظ بمكاسب حركة التجارة عليها، وعلى زيادة هذه المكاسب، كما صمّم أيضاً على الرغبة في الحصول بسهولة على بعض المواد الخام من الأقاليم المجاورة الواقعة خارج سيطرته، وفي سبيل تحقيق هذه المكاسب كان لا بدّ من الحرب والتوسّع[2].

ولمّا كانت الحرب حرفة، كان لابدّ من وضع قواعد صارمة للحرب والقتال، بحكم أنّها صارت صنعتهم، وأهمّ تلك القواعد كانت قاعدة توزيع الغنائم، كما هو الحال عند القراصنة، تجمع كلّ المغانم دون استثناء، قبل أن يشرع في توزيعها على المقاتلين، وحتّى القاعدون في روما كانوا ينالون حظّهم من هذه الغنائم. أمّا أرض العدو فكانت تقسم إلى

[1]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، أسباب النهوض والانحطاط، ترجمة عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ٢٠١١م، ص٢٦.

[2]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، ج٢، روما وإمبراطوريتّها، ترجمة فريد داغر وفؤاد أبو ريحان، ط٢، منشورات عويدات، باريس-بيروت ١٩٨٦م، ص١٠٩.

قسمين؛ قسمٌ يباع بالمزاد لتزويد خزانة الدولة بالمال، وقسمٌ يوزّع على المواطنين المعوزين، مقابل خراج يؤدّونه للدولة. ولا يكرّم القنصل الروماني باحتفال موكب النصر إلّا إذا حقّق نصراً ثميناً لروما، لذلك كان حريصاً أن يندفع على رأس الجيش في سبيل تحقيق النصر بحدّ السيف. إذاً كانت روما في حرب مستمرّة في سبيل السيطرة والتوسّع، أمّة هذه دستورها، هذه قاعدة حكمها، إمّا أن تندثر وإمّا أن تسيطر وتتوسّع، وهكذا كانت الإمبرياليّة جزءاً لا يتجزّأ من سياسة روما وبنيتها العقائديّة ووجودها واستمراريّتها[١].

في الأصل لم يكن ثمّة مشروع إمبريالي مخطّط له عند الرومان من أجل السيطرة على العالم، حروب روما كانت تعتبر صنعتها ومصدر عيشها واستمرارها، لكن في الوقت الذي كانت فيه روما تسيطر باطراد على خصومها في إيطاليا[٢]، كانت أيضاً تضع نصب عينيها مهمّة الحفاظ على مصالحها في كلّ مكان توجب فيه ذلك أوّلاً، ومهمّة الحفاظ على وجودها من انقلاب يقوم بها خصومها المغلوب على أمرهم في إيطاليا. وبقدْر ما كانت تُوسّع من قوّتها، كان المواطنون الرومان يتورّطون في سياستها الإمبرياليّة من خلال التوسّع في أراضٍ جديدة ورقابتها بعد أن خضعت لهم. بينما تولّى الجيش الروماني مهمّة تأمين النظام الحاكم، واستبعاد الأخطار التي يمكن أن يؤدّي انتشارها إلى نتائج وخيمة تطال مدينة روما بالذات[٣].

وهكذا يظهر جليّاً أنّ سياسة روما وعلاقتها مع الشعوب المحيطة بها كانت خاضعة للخوف، مثلما كانت خاضعة لجانب المكاسب الفوريّة، ذلك الخوف الذي أثار في كلّ زمان ومكان حروباً يفسّرها الخصوم برغبة الرومان بسلامة تامّة طويلة الأمد، أو بتعبير أدقّ هو نهج: «الهجوم هو خير وسيلة للدفاع»، وبالتالي فالحروب التي شنّتها روما منذ تأسيسها وسيطرت فيها على جنوب إيطاليا وجزيرة صقلّية وإسبانيا، حتّى معركة زاما وكسر شوكة هانيبال وإذلال قرطاجة سنة ٢٠١ ق.م، كانت حروباً دفاعيّة، بحكم أنّ وجود روما بالذات مهدّد بالزوال، وغالباً ما يشكّل هدف الحفاظ على هذا الوجود الهدف الحقيقي من سياسة

---

[١]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، م.س، ص٢٦.

[٢]- استمرت الحروب الإيطاليّة من تأسيس روما سنة ٧٥٣ ق.م حتّى السيطرة على جنوب إيطاليا كاملاً سنة ٢٧٠ ق.م.

[٣]- باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، ترجمة جورج كتّوره، دار الكتاب الجديد المتّحدة، بنغازي ٢٠٠٨م، ص١٣.

روما الخارجيّة وحروبها العدوانيّة. إنّ استشعار دولة بالخطر على نفسها من جيرانها أو حتّى من قيام دولة قويّة إلى جانبها، لم يقتصر على روما، بل يمكن أن نتلمّس أخباره في بلاد اليونان القديمة أيضاً، وبالتالي فإنّ حرصها على استقلالها يدعوها للقضاء على استقلال غيرها، وبالتالي فإنّ الحروب ومن ثمّ التوسّعات-طبعاً إذا أمّنت الحرب النصر- يستند بعضها إلى بعض؛ لأنّ توسّع الممتلكات يضاعف الواجبات الدفاعيّة ويهيئ ظروف الصراع، فيجد الاستعمار في مكاسبه نفسها مبرّرات لا تقهر لنقل مطامعه باطّراد إلى آفاق أبعد، بحيث لا يكون له حدود سوى حدود الأرض المأهولة، وهذه هي الإمبرياليّة بعينها[١].

وبناء عليه، يكمن الانعطاف الأهمّ في تاريخ السياسة الرومانيّة في تحوّلها من سياسة العدوان على الغير بغية الحفاظ على استقلال، بحجّة الدفاع عن النفس، إلى سياسة العدوان على الغير بهدف السيطرة (الإمبرياليّة)، وكان هذا الانعطاف حقيقة سابقاً لمولد الإمبراطورية الرومانيّة سنة ٢٧ ق.م، وقبل انتصار الغرب على الشرق في معركة أكتيوم سنة ٣٠ ق.م، فالجمهوريّة الرومانيّة التي انتصرت على هانيبال في معركة زاما سنة ٢٠١ ق.م وكسرت شوكته؛ كانت منذ ذلك التاريخ جمهوريّة إمبرياليّة، قرّرت أن لا تترك مكاناً لأيّة قوّة تخاصمها في السيطرة والتوسّع. لذلك دخلت في صراع طويل النفس ضدّ الممالك الهلّينية في الحوض الشرقي للبحر المتوسّط بعد أن سيطرت على الحوض الغربي للبحر المتوسّط. وهكذا تبلور الفكر الإمبريالي الروماني بصورة عمليّة، حيث ظهر أنّ روما تأقلمت واقعيّاً مع ضرورات التوسّع البعيد والسيطرة[٢].

إنّ المتابع لخطابات رجال السياسة الرومان يدرك ذلك التحوّل، فالأمر وصل حدّاً مع كاتو أن تحدّث عن ضرورات استمرار هذه السياسة الإمبرياليّة صراحة في قاعة مجلس الشيوخ الروماني وأمام جميع أعضائه، إنّ هزيمة هانيبال لا تكفي، لا بل إنّه لم يمل طوال حياته السياسيّة من أن يفتتح خطاباته بعبارة اشتهر بها وهي:«يجب أن تمحى قرطاجة من الوجود»، ولم يجد حرجاً أن يتحدّث عن الذهب والفضّة والأموال والأسلحة والمجال الحيوي الضخم والغنائم التي يمكن الحصول عليها من النصر على قرطاجة، وفي عشية

[١]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، روما وإمبراطوريّتها، م.س، ص١٠٩.

[٢]- باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص١١.

الحرب البونيّة الثالثة (١٤٩ - ١٤٦ ق.م) والتشاورات التي سبقت إعلان الحرب، بعد أن أنهى كاتو خطابه رمى ثمرات تين طازجة كان يخبئها في عباءته وسط مجلس الشيوخ، وأشار إلى أنّها جمعت في قرطاجة قبل ثلاثة أيام، ومثل هذه المسافة تفصلنا عن عدونا، وأردف قائلاً: «هكذا يوجد العدو قريباً من أسوارنا». ولمّا كان مجلس الشيوخ الروماني ميّالاً لهذا النهج الإمبريالي، فقد أعلن الحرب على قرطاجة دون مبرّرات[١].

لقد عبرّ تدمير قرطاجة سنة ١٤٦ ق.م، بعد هزيمة هانيبال سنة ٢٠١ ق.م، مرّة أخرى عن فكرة رفض أعيان الرومان قبول منافس لهم في حالة تأثير. إنّ تدمير المدينة البونيّة عن بكرة أبيها، مع التأكيد على تأسيس مقاطعة إفريقيا الرومانيّة، قد حرّر على ما تقول المصادر المخاوف والطاقات[٢]. وهكذا ترسّخت عند الرومان أنهّم الشعب المختار، وبالتالي فإنّ أيّ حرب رومانيّة عادلة ورحيمة، وإنّ كلّ أعداء روما منحطّين وخونة[٣]، وإن لمس الشعب الروماني في نفسه القوى، فلا يثير فيه ذلك أيّة دهشة؛ لأنّه يعتبر نفسه أعظم الشعوب عدلاً وفضيلة وتقوى، وهذه كلّها أفضليّات تبرّر في نظره الهبات التي تغدقها عليه الآلهة. ولكنّها كلّها دوافع لإقناعه بأنّ أيّ شعب آخر لا يستطيع ولا يجب أن يقف في وجهه، وهكذا أصبحت مدينة روما بالذات التي وقعت على عاتقها مهمّة السيطرة على العالم، والتي تخضعه بالاقتصاص دون شفقة، بممارسة حقّ المنتصر بهدم كامل قرطاجة وكورنثا في السنة ذاتها (١٤٦ ق.م)[٤]، وهكذا فإنّ تبلور فكرة قيام قوّة رومانيّة لا تقهر، ولا خصم لها، لم تكن لتهتز بالمقاومة البطوليّة من مدينة نيمونس Numance في بلاد الإسبان بين ١٣٩- ١٣٣ ق.م التي انتهى مصيرها بالهدم[٥].

ولمّا كانت الدول التي تنتهج النهج الإمبريالي بحاجة إلى توظيف الأدب والفنون بكلّ أصنافهما في سبيل الترويج لمشروعها في السيطرة والتوسّع، فإنّ الإمبرياليّة الرومانيّة في

---

[١]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، دار مرايا للدراسات والنشر والتراث، دبي ٢٠٢٠م، ص١٥٢.

[٢]- باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص١٣.

[٣]- أديث هاملتون،الأسلوب الروماني في الأدب والفنّ والحياة، ترجمة: حنا عبود، منشورات وزارة الثقافة، المعهد العالي للفنون المسرحيّة، دمشق ١٩٩٧م،ص٢٠٣.

[٤]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، روما وإمبراطوريّتها، م.س، ص١١٠.

[٥]- باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص١٣.

العصر الجمهوري لم تجد خيراً من المؤرّخ بوليبيوس Polubios(توفيّ سنة ١٢٥ق.م) مروّجاً لها، رغم أنّه لم يكن رومانيّاً، بل كان رهينة يونانيّة، فبعد أن أذلّت روما الحلف الآخي في بلاد الإغريق، أخذت رهائن منه، كان من بينهم بوليبيوس بن يكورتاس زعيم الحلف، وهناك في روما تعرفت عليه أسرة أسكوبيو (ذات الاهتمامات الأدبيّة) وعرفت مواهبه فمنحته الرعاية اللازمة. فاشتغل بدراسة التاريخ الروماني، وكان الرجل مقتنعاً أنّ التاريخ وسيلة عمليّة وأساسيّة للسياسيين، وكان مقتنعاً بأنّ الأحداث التاريخيّة المحليّة في منطقة ما لا يمكن أن تتطوّر منعزلةً عمّا يحدث في ذات الفترة في أماكن أخرى، فكتب تاريخاً مفصّلاً للفترة التي عاش بها في القرن الثاني ق.م، حول «تاريخ البحر المتوسّط» في أربعين جزءاً، لم يصلنا منها إلّا خمسة كاملة، وقد تمحورت إشكاليّة بحثه حول أسباب تفوّق الرومان السياسي وتمكّنهم من السيطرة على العالم المأهول، لذلك حاول أن يفسّر سرّ وصول روما إلى مركز السيادة العالميّة في الفترة الممتدّة بين سنة ٢٦٤ وسنة ١٤٥ق.م، ذروة التاريخ الإمبريالي للجمهوريّة الرومانيّة[١].

ثانياً: الأيديولوجيا الإمبرياليّة الرومانيّة ما بين الإلياذة والإنياذة

لا شكّ أنّ حروب التوسّع والسيطرة تحتاج إلى أيديولوجيا فكريّة حتّى يتسنّى لرجال السياسة والحرب توجيه الجهود والطاقات وجميع الموارد في بوتقة السياسة الإمبرياليّة التي ينتهجونها، إلّا أنّ ساسة الرومان لم يجدوا شمّاعة مناسبة لهم أكثر من حرب **طروادة** Trojan لينسجوا على منوالها[٢]، لعدّة أسباب **أوّلها:** أنّ الحرب على طروادة تمثّل ذروة الصراع بين الشرق والغرب في نقطة التقاء آسيا بأوروبا، **ثانياً:** لأنّ طروادة كملحمة أسطوريّة دوّنها **هوميروس** الشاعر الإغريقي المشهور[٣] على شكل قصيدة شعريّة أمست جزءاً من الموروث الثقافي الغربي، **ثالثا**: تمثّل الأمر الثالث في قضيّة القدر أو إرادة الآلهة، فمثلما هي روما القدر المجيد، الذي قضت به إرادة الآلهة به أن يكون، كان سقوط طروادة وزوالها قدرا

[١]- عبد الله السليمان، رؤية في منهجيّة الكتابة التاريخيّة في العصور الكلاسيكيّة، دمشق، مجلّة المعرفة، العدد ٦١١ آب ٢٠١٤م، ص١٩٢.

[٢]- انظر تفاصيل ملحمة طروادة في كتاب: خليل سارة، دراسات في تاريخ الإغريق، مقدّمة في التاريخ السياسي والحضاري، دمشق ٢٠٠٤م.

[٣]- حول هذا الشاعر انظر: محمّد كامل عياد، تاريخ اليونان، ج١، ط٣، دار الفكر، دمشق ١٩٨٠م، ١٠٨ وما تلاها.

محتّماً عليها وتنفيذاً لإرادة الآلهة التي قضت به أن يكون، «**ولكن مشيئة الأرباب لم تقض بنجاة طروادة**[١]». **رابعا**: على الرغم من جماليّة نصّ هذه الملحمة، فقد وجد النقّاد أنّ مؤلّفها نظمها محاكياً الملاحم اليونانيّة، ومن المعروف أنّ الشعر الروماني قلّد الشعر اليوناني في جميع أبوابه، وأنّ شعراء الرومان لم يكونوا مبتكرين مبدعين إنّما مقلّدين، إلاّ في باب النقد والهجاء[٢].

لقد كانت البداية في النسج على منوال الإلياذة عندما ربط الرومان حربهم على مدينة فيي Veii (الواقعة على نهر التيبر شمال مدينة روما بـ ٢٠كم) بحرب طروادة في صورة مبهمة، مصوّرين أنّها استمرار لها، بدعوى أنّ الصراع بين الغرب والشرق الذي بدأ في طروادة، هو انعكاس لمشروعيّة حربهم على الأتروسكيين (سكّان مدينة فيي، الذين يعودون في أصولهم القديمة إلى الشرق)، متجاهلين التصريح بحقيقة الصراع أنّه حول الطرق الواصلة بين أتروريا في الشمال وكمبانيا في الجنوب، كما كانت فيي في إقليم أكثر غنى واتساعاً من إقليم روما، وأنّها كانت تحتكر كثيراً من تجارة أتروريا الخارجيّة، وهذا ما كان يضايق روما، وبالتالي كان لابدّ من الصدام في سبيل التوسّع والسيطرة على هذا الطريق الحيويّة بالنسبة للرومان، والأدهى والأمرّ أنّ مدينة فيي كانت تمتلك لنفسها نقطة إنذار مبكّر في قلب أراضي الرومان ممثّلة في مدينة فيدناي Fidenae شرق نهر التيبر، آخر معاقل الأتروسكيين في سهل اللاتيوم، وهذا ما كان يثير غضب روما، فاصطدمت بهم بحرب استمرّت نحو عشر سنوات (٤٠٥- ٣٩٦ ق.م). كان النصر فيها حليفاً للرومان[٣].

لقد وجد الرومان في نصرهم على مدينة فيي فرصة سانحة لتكريس مفهوم الصراع بين الحضارات، وللربط بين نصرهم وبين انتصار الإغريق على طروادة، فالمنتصر في الحربين هو طرف غربي، والمهزوم في الحربين هو طرف شرقي، كلا المدينتان محصّنتان تحصيناً منيعاً، مدّة الحرب في كلا الحصارين استمرّت عشر سنوات،كما ظهرت بطولات خارقة عند قادة الإغريق (أخيل)، وعند قادة الرومان (الدكتاتور كاميللوس Comillus)، كما تمّ

[١]- فرجيل،الإنياذة، ترجمة عنبرة سلام الخالدي، ط٢، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٨م، ص١٣.

[٢]- نور الدين حاطوم، صلاح مدني، أحمد طربين، نبيه عاقل، موجز تاريخ الحضارة، ج١: حضارات العصور القديمة، مطبعة الكمال، دمشق ١٩٦٥م، ص٦٥١.

[٣]- حول حروب روما مع الأتروسكيين انظر: عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، م.س، ص٧٢، ٧٣.

استخدام الحيلة في كلا الحربين من أجل حسمها، حيث تمّ الاستعانة بحصان خشبي[١] تسلّل من خلاله الجنود الإغريق إلى قلب مدينة طروادة، بينما تمّ حفر خندق تحت أسوار مدينة فيي تسلّل من خلاله الجنود الرومان إلى قلبها، وهكذا فوجئ الجنود الذين كانوا يحرسون أسوارها بأنّهم تعرّضوا للهجوم من الخلف، ودار القتال داخل شوارع المدينة واشتعلت النار في بيوتها، وسرعان ما تمكّن الجنود الرومان من فتح أبواب المدينة لقائدهم كاميللوس، فدمّروها وباع أهلها للرق، وضمّ أرضها لأراضي الدولة الرومانيّة. وهكذا يمكن القول أنّ الرومان وجدوا ضالّتهم في ملحمة طروادة لتبرير سياستهم الإمبرياليّة[٢].

أمّا **الخطوة الثانية** فكانت في سنة ٢٧٢ ق.م عندما قام الرومان بترجمة الإلياذة (قصيدة هوميروس عن طروادة) إلى اللغة اللاتينيّة على يد ليفيوس آندرونيكوس Livius Andronicus، أحد شعراء الإغريق، بعد أن وقع أسيراً في يدهم خلال صراعهم مع مدينة تارنتيوم Tarentum إحدى المستعمرات اليونانيّة في جنوب إيطاليا، كما قام هذا الشاعر بترجمة أعمال أدبيّة أخرى إلى اللغة اللاتينيّة[٣]. لقد كان هدف آندرونيكوس هو أن يقدّم للرومان عملاً فنيّاً لا يقلّ الشكل فيه أهمّية عن المضمون. ولعلّه بذلك كان أوّل أديب في العالم يواجه مشكلات الترجمة الأدبيّة بنجاح. ويمكن القول إنّ إنجاز هذا المترجم هو الذي حدّد الخطوط العريضة لمسار الأدب اللاتيني كلّه. فما قام به يعدّ بمثابة إعداد لاتيني-لاترجمة-للأدب الإغريقي مع حرص شديد منه على المحافظة على الجوهر الأصيل لهذا الأدب[٤]، وهكذا أحاط الرومان بملحمة طروادة إحاطة تامّة، ولم يبق عليهم سوى النسج على منوالها.

ولمّا كان على الرومان مواجهة قرطاجة منذ سنة ٢٦٤ ق.م في سبيل السيطرة على

---

[١]- «لقد أدخلت مينرفا في روع أفيوس سيّد الجزر أن يقوم بصنع مكيدة ماهرة يستولي بها على المدينة، وكانت المكيدة كما يلي: لقد صنع حصاناً عظيماً من الخشب زاعماً أنّه تقدمة سلام إلى مينرفا لكي تمنح عوداً حميداً للإغريق إلى بلادهم، وهناك في بطن الحصان اختبأت نخبة من أبسل زعمائهم» انظر: فرجيل، الإنياذة، م.س، ص١١.

[٢]- رجب سلامة عمران، الفكر العسكري الروماني بين الدفاع والهجوم والتوسع والاستعمار حتّى نهاية العصر الجمهوري، مطبعة دار الروضة، القاهرة ٢٠١٠م،ص٣٣.

[٣]- نور الدين حاطوم، وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، ج١: م.س، ص٦٢٦.

[٤]- أحمد عتمان، الأدب اللاتيني ودوره الحضاري، مجلّة عالم المعرفة، العدد ١٤١، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سبتمبر ١٩٨٩م، ص١٤، ١٥.

الحوض الغربي على البحر المتوسّط، فسوف يكون **لقرطاجة حضور كبير في الإنياذة** Aeneis، بوصف قرطاجة رمزاً للشرق (بحكم أنّها استمرار لمدينة صور الفينيقيّة)، بينما يستمرّ الرومان في تمثيل الغرب، وهكذا يتمّ النسج بالتوازي بين تأسيس مدينة قرطاجة وقدر تأسيس مدينة روما وحدث سقوط مدينة طروادة معاً، دون مراعاة الفروق الزمنيّة بين تأسيس قرطاجة وسقوط طروادة، فتمّت المعاصرة بين الحدثين رغم أنّ الفارق بينهما هو نحو ٥٠٠ سنة، لا بل إنّ فرجيل Vergil (٧٠- ١٩ق.م) كاتب ملحمة الإنياذة، قد اختلق قصصاً مشتركة وأوجد مشاعر متبادلة وصاغ أحداثاً من وحي خياله، يدّعي أنّها حدثت بين مؤسّس العرق الروماني في الغرب، وبين الأميرة الفينيقيّة التي أسّست للوجود القرطاجي في المغرب، لا بل إنّ كاتب الإنياذة يجعل من هذه الأحداث سبباً في العداء بين الرومان والقرطاجيين، وبالتالي فإنّه يبرّر لروما سياستها الإمبرياليّة في الحوض الغربي للبحر المتوسّط، كما يبرّر أعمالها الوحشيّة في هدم قرطاجة وصبّ الملح على ترابها، وإزالتها من الوجود، ولعنة كلّ من يحاول إعادة إعمارها.

ثالثاً: الإمبرياليّة والإمبراطوريّة

لقد أوصلت سياسة السيطرة الإمبرياليّة إلى إعادة طرح السؤال حول التوازنات بين مؤسّسات الحكومة الرومانيّة، فالسلطة الملكيّة أظهرت وباطراد صراعات مدينة قام بها جنرالات طموحون، غير ملتزمين تدبير مجلس الشيوخ، غير الجدير بإعادة الإجماع إلى المواطنين[١]. ما أدخل البلاد في أتون حرب أهليّة، كان يوليوس قيصر بطلها في المرّة الأولى، تجلّت في صورة محاولة الشرق في غزو الغرب في ثقافته، من خلال فلسفة الحكم القائمة على النظام الملكي، الذي كان قيصر يسعى لإقامته في روما، فرغم أنّه رفض التاج الذي قدّمه له صديقه أنطونيوس علانية، إلاّ أنّ كلّ تدابيره كانت توحي بذلك[٢].

أمّا الحرب الأهليّة الثانية في روما بين أنطونيوس وأكتافيانوس (أوغسطس) تجلّت فيها صورة الصراع بين الشرق والغرب بصورة أوضح، فقد حرص أوكتافيانوس على إعطاء انطباع في روما بأنّ حربه ضدّ أنطونيوس، هي حرب ضدّ الشرق بزعامة كليوبترا، وأنّ أنطونيوس

[١]- باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص١١.

[٢]- حول تلك التدابير انظر: عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، م.س، ص٢٠٧.

ما هو إلّا صنيعتها، وفي سبيل تعزيز هذه الفكرة عمد إلى فضح مضمون وصيّة أنطونيوس، التي كان قد أودعها في معبد فستا في روما، والتي اعترف فيها بقيصرون ابناً شرعيّاً لقيصر من كليوبترا، كما أوصى بأن توزعّ الولايات الرومانيّة في الشرق على كليوبترا وأولادها، وأن يدفن في حال وفاته في الإسكندريّة بدلاً من روما، وهذا ما أثار مشاعر الكراهية ضدّ أنطونيوس في روما، حتّى بات الرومان يرون فيه أداة في يد امرأة أجنبيّة، واستغلّ أوكتافيانوس الموقف ببراعة فائقة وجعل الناس تقسم له يمين الولاء لشخصه باعتباره قائداً عامّاً في جهاد مقدّس لدرء خطر الشرق، بعدها توجّه إلى هيكل إله الحرب وغمس سهماً في الدم وسدّده نحو الشرق وأعلنها حرباً مقدّسة ضدّ كليوبترا، أمّا أنطونيوس فما هو إلّا حليفٌ لها يأتمر بأمرها[١]. وعلى الرغم من انتصار أوكتافيانوس وإعطائه انطباعاً لازم في جزء منه العظمة التي فرضتها التكوينات الإمبرياليّة، إلّا أنّه كان عليه القيام بتأسيس نظام حُكم جديد قائم على فلسفة نظام حُكم الفرد، الذي ينتهج السيطرة الإمبرياليّة على جميع الشعوب الخاضعة للإمبراطوريّة[٢]. وهكذا ولدت أوّل إمبراطوريّة إمبرياليّة في التاريخ.

رابعا: الفكر الإمبريالي في ملحمة الإنياذة

لمّا كان الرومان يعتبرون الشعر الملحمي أسمى ضروب الأدب، كان فرجيل يفكّر في صياغة أحداث التاريخ الروماني في قصيدة كبيرة، لكنّه تخلّى عن الفكرة؛ لأنّ الظروف العامّة والخاصّة في روما لم تكن مهيأة لمثل هذا العمل. لكن بعد انتصار أوكتافيانوس (أوغسطس) على كليوبترا وأنطونيوس، أي انتصار الغرب على الشرق، وإتمام السيطرة الرومانيّة على الحوض الشرقي للبحر المتوسّط، ومولد الإمبراطورية الرومانيّة، تحدّث الشاعر صراحة أنّه ينوي تمجيد أعمال أوغسطس، وكان عليه أن يضع إنجازات الإمبراطور المؤلّه في إطار أسطوري وتاريخي ضخم يتناسب مع قصيدة ملحميّة كبيرة[٣].

ولمّا كان الأدب في الدول التي تنتهج السياسية الإمبرياليّة أدباً موجّهاً، كان من الطبيعي أن تصاغ شخصيّة إينياس Aineias (الذي سمّيت الإنياذة على اسمه)، من أجل تمجيد

---

[١]- محمّد الزين ومحمّد محفّل، دراسات في تاريخ الرومان، ج٢، ط١٠، منشورات جامعة دمشق ٢٠٠١م،ص٢٨.

[٢]- باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص١١.

[٣]- أحمد عتمان، الأدب اللاتيني ودوره الحضاري، م.س، ص١٩٤.

أوغسطس، الذي دوّنت الإنياذة في عهده وبرعايته وبتمويل كامل منه. وهكذا فإنّ رواية التأسيس الأسطوريّة الواردة في الأدب اللاتيني عن رومليوس Romulus (سليل البطل الطروادي إينياس ومؤسّس مدينة روما)، والتي نجدها بنصّها المكتمل عند المؤرّخ الروماني تيتوس ليـڤـيوس) Titus Livius٥٩ ق.م- ١٧م) الذي يصغر فرجيل بحوالي عشر سنوات، كانت الرواية الأكثر مصداقيّة في مخيلة الرومان طوال العصر الإمبراطوري، والوحيدة في الدراسات التاريخيّة حتّى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي في أوروبا[١]، فمن المعروف أنّ الإنياذة كانت لسنين طويلة الكتاب الزمني الرئيس لعالم الغرب، وبعد اختراع الطباعة بخمسمائة عام بقي طبعها يعاد مرّة كلّ عام على الأقلّ، ولا نبالغ إذا قلنا إنّها كانت أكثر الكتب الزمنيّة تداولاً في أوروبا قبل ذلك، حتّى لن تبلغ شهرة كتاب منذ أيام الرومان ما بلغته شهرة الإنياذة[٢].

١. فرجيل شاعر الإنياذة

لمّا كانت الإنياذة نشيد الإمبرياليّة الرومانيّة ودستورها الدائم، فإنّه من الأجدر بنا التعرّف على الشاعر الذي صاغها حتّى أمسى الشخصيّة الرئيسيّة في الأدب اللاتيني في طوال العصر الإمبراطوري، لا بل إنّ ملحمة الإلياذة التي دوّنها جعلت منه هوميروس روما[٣]. لقد ولد فرجيل في سنة ٧٠ ق.م، وكان الابن الوحيد لفلّاح روماني يعيش بالقرب من بلدة مانتوه Mantua الواقعة في شمال إيطاليا، في المنطقة المسمّاة غالية القريبة، وهي منطقة حيويّة تقع على الحدود، ذات زراعة خصبة ومدن نامية. ذهب فرجيل الشاب في البدء إلى مدرسة بلدة كريمونه Cremona، ثمّ بعد ذلك إلى مدرسة ميلانو Milano، وبعدها إلى العاصمة روما ليتلقّى منهجاً في علم البلاغة. وليس من الموثوق به ما إذا كان قد اشترك في الحرب الأهليّة أم لا، فالمعروف عنه قليل جداً، ولكنّ وجود مقطوعة مؤثّرة بين مؤلّفاته عن القتلى الرومان الذين لاقوا حتفهم في ميدان معركة فارسالوس، ومعرفته لشواطئ البحر الأدرياتيكي دعت بعض الباحثين إلى افتراض أنّ فرجيل قد خدم مع أوكتافيانوس وأنطونيوس. كما أنّ

---

[١]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، دار مرايا للدراسات والنشر والتراث، دبي ٢٠٢٠م، ص.

[٢]- مقدّمة المترجم لكتاب: فرجيل،الإنياذة، م.س، ص٩.

[٣]- نور الدين حاطوم، وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، ج١: م.س، ص٦٥٠.

وصفه لمخاوف الحرب يكشف دون شكّ عن خبرة اكتسبت بصورة عمليّة. وفي سنة ٤٨ ق.م، أصبح تلميذاً للمدرسة الأبيقوريّة في مدينة نابولي، على أمل أن يجد ملاذاً فكريّاً فيها، بعد أن فقد بيته في مانتو إثر اندحار الحركة الجمهوريّة، وسواء وجد فيها ضالّته المنشودة في نابولي أم لم يجد، فقد ظلّت نابولي مأواه المفضّل طوال حياته[١]. وهكذا كان فرجيل وحده من بين أدباء عصر أوغسطس لا يكنّ حبّاً للحياة في روما، فطيلة السنوات التي كتب فيها عاش في الريف الإيطالي بالقرب من نابولي، وحتّى أوغسطس الذي اهتمّ به واعترف مبكّراً بقدراته، لم يستطع إقناعه إلّا بزيارات خاطفة للعاصمة روما[٢].

لقد كان أوّل عمل أدبي نشره فرجيل في سنة ٣٧ ق.م، باستثناء بعض القصائد التي نشرها في شبابه، وهي الرعويّات Eclogae، وفي سنة ٢٩ ق.م، أي بعد انتصار أوكتافيانوس (أوغسطس)، نشر فرجيل عمله الثاني المعروف بالزراعيّات Georgica، وبعد الزراعيّات جاء دور الإنياذة، بعد أن كانت فكرة نظم ملحمة رومانيّة قد اختمرت في ذهنه، لكن اتجه فكره ذات مرّة إلى حروب أوغسطس ليجعل منها موضوعاً لهذه القصيدة الملحميّة[٣]. وهكذا كانت الحرب الأهليّة التي تقاتل فيها الرومان فيما بينهم، وانتصر فيها أوغسطس على مبادئ الجمهوريّة، والتي لم تقدّم حتّى للمنتصرين المجد الرفيع لمشروع عظيم تمّ إنجازه، سوى أنّ الأدب الروماني وجد جوّاً خصباً وبيئة مناسبة وشخصاً مستعدّاً ليرعاه، عندها فقط انتقل الكتّاب الكبار للكتابة في جوّ رومانسي خيالي لمرحلة جديدة سمّيت مجازاً عصر السلام الروماني، ذلك السلام الذي تمّ شراؤه على حساب الحريّة ومبادئ الجمهوريّة[٤].

لقد أمضى فرجيل العشر سنوات الأخيرة من عمره في نظم الإنياذة، ولم يدخر أوغسطس في فترة العشر سنوات جهداً لتشجيع فرجيل على إنجاز ذلك العمل الكبير، ولطالما استفسر عمّا تمّ إنجازه من الملحمة، وكثيراً ما ألحّ على الشاعر بأن يرسل إليه ما أنجز كتابته من أقسامها. أمّا فرجيل فكان يطلب من الإمبراطور التريث ويستمهله حتّى عيل صبر هذا

---

[١]- محمّد الزين ومحمّد محفّل،دراسات في تاريخ الرومان، م.س،ص٧٨.

[٢]- أديث هاملتون،الأسلوب الروماني، م.س،ص١٩٠.

[٣]- محمّد الزين ومحمّد محفّل،دراسات في تاريخ الرومان، م.س،ص٨٢.

[٤]- أديث هاملتون،الأسلوب الروماني، م.س،ص١٨٥.

الأخير. وأخيراً سمع أوغسطس من الشاعر الكتاب الثاني والرابع والسادس من الإنياذة[١]. وعندما توفيّ فرجيل في سنة ١٩ق.م،لم تكن الإنياذة قد اكتملت بعد، لهذا فقد أوصى فرجيل بحرقها وهو على فراش الموت[٢]، فالأجزاء التي أكملها وراجعها فقط تحقّق أعلى درجات الجمال الشعري، لكنّ الأجزاء التي لم يراجعها، لأنّ الموت سيباغته في أيّ لحظة، ليست جديرة بذوق الشعراء الكبار[٣].

لقد تدخّل الإمبراطور أوغسطس في الأمر وحال دون ذلك، وأمر أن تنشر على حالها دون تغيير، وهكذا تمّ إنقاذ أهمّ الآثار الفكريّة الرومانيّة[٤]. أمّا عن مضمونها فقد تناول فرجيل فيها تأسيس روما، وما وقع بعدها من أحداث، والتنبؤ منذ تأسيس هذه المدينة بقيام إمبراطوريّة أوغسطس، وبالسلم الذي تدين به هذه الإمبراطوريّة لعاهلها ومؤسّسها، هذا فضلاً عن معالجة الشاعر لموضوعات أخرى منها وصف أخلاق الرومان، ودعوته أبناء أمّته إلى التمسّك بأهداب الفضائل القديمة، التي كان أجدادهم يتحلّون بها. كما يصوّر الشاعر بطل ملحمته كإنسان يعظّم ويبجّل الآلهة ويهتدي بهديها ويدعو إلى الإصلاحات والمثل الأخلاقيّة العليا، التي ما برح أوغسطس يدعو لها طوال فترة حكمه[٥].

٢. الإنياذة ومهمّة روما الإمبرياليّة

لم يكن إينياس الموضوع الحقيقي للإنياذة، إنّ موضوعها الحقيقي هو روما وأمجاد إمبراطوريّتها، وفي هذا تتجلّى مهمّة روما الإمبرياليّة في السيطرة على العالم المأهول، فالشاعر فرجيل لم يكن يكتب رواية خياليّة، بل كان ينظر إلى الماضي العظيم من وجهة نظر رومانتيكيّة ويستلهم منه، حتّى أنّ العنوان الأوّل الذي أطلقه على هذه الملحمة كان «مآثر الشعب الروماني». وإينياس شخصيّة مهمّة لأنّه يحمل مصير روما[٦]، «**ليس لأنّه كان**

[١]- نور الدين حاطوم، وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، ج١: م.س، ص٦٥٠.

[٢]- محمّد الزين ومحمّد محفّل،دراسات في تاريخ الرومان، م.س،ص٨٢.

[٣]- أديث هاملتون،الأسلوب الروماني، م.س،ص١٩١.

[٤]- محمّد الزين ومحمّد محفّل،دراسات في تاريخ الرومان، م.س،ص٨٢.

[٥]- نور الدين حاطوم، وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، ج١: م.س، ص٦٥٠.

[٦]- أديث هاملتون،الأسلوب الروماني، م.س،ص٢٠٢.

معقد أمل الطرواديين بعد موت هكتور وسندهم المكين[١]» بل لأنّه آخر طروادي على ظهر الأرض، كُتب عليه أن يكون أوّل روماني في إيطاليا، لا بل إنّه لن يؤسّس مدينة جديدة فحسب، بل سيضع الأسس لحياة جديدة تماما[٢]، إنّه مؤسّسها تنفيذاً لأوامر الآلهة وإرادة القدر العليا، ممثّلة في جوبتير، لذلك سيأتي في الإنياذة جميع أسماء الرجال الذين جعلوا روما تاريخاً عظيماً متوهّجاً في الشعر الرفيع[٣].

وإذا كان أبطال هوميروس أفراداً نموذجيين، فإنّ إينياس في شعر فرجيل هو خير ممثّل للشعب الروماني، ومن ثمّ فهو يفتقد الخصوصيّة الفرديّة، وبوصفه تجسيداً للنموذج الروماني نجده دائماً واسع الأفق، شديد «الورع والإحساس بالواجب»، ومن الواضح الآن لماذا أقام الإمبراطور أوغسطس دعايته السياسيّة على أساس القول إنّه لا يهدف من السلطة إلّا إعادة بناء الجمهوريّة، أي كما كانت في الماضي، وكما كان من الطبيعي أن تستمر. وتجسّد »الإنياذة «هذه «الفضائل الرومانيّة»،كما تبشّر بالآمال المعقودة على أبناء الجيل الجديد، الجيل الذي رعاه أوغسطس، فهي إذاً ملحمة قوميّة[٤]. وهكذا كان فرجيل يكتب لروما دستورها، أو كتاباً مقدّساً لها، وليس ذلك لأنّه يقدّم شريعة دينيّة واضحة لها، فالآلهة الرومانيّة التي كانت تُسيّر الأحداث من خلف الستار، لم تكن أقلّ خبثاً من آلهة هوميروس، وإن لم يكونوا قريبين من البشر قرب آلهة اليونان، لكنّ الدين الحقيقي في الإنياذة هو دين الوطنيّة الرومانيّة، وإلهها الأعظم هو روما، وإنّ مصير روما هو المحرّك لحبكة القصّة، وكلّ ما في القصّة من محن وشدائد إنّما يرجع إلى الواجب المضني؛ واجب بعث الشعب الروماني، والشاعر فخور بالإمبراطوريّة الرومانيّة فخراً يمنعه أن يحسد الإغريق على تفوّقهم في الثقافة[٥].

إذ يقول على لسان أنخيسيس في فقرة مشهورة: «سوف ينتشر حبّ البلاد والعطش الشديد للمجد.... قد ينحت الآخرون -بمهارة أكثر تفوّقاً- تماثيل من البرونز يجري في

[١]- فرجيل،الإنياذة، م.س، ص٢٠.

[٢]- أحمد عتمان، الأدب اللاتيني ودوره الحضاري، م.س، ص١٩٨.

[٣]- أديث هاملتون،الأسلوب الروماني، م.س،ص٢٠٢.

[٤]- أحمد عتمان، الأدب اللاتيني ودوره الحضاري، م.س، ص٢٠٢.

[٥]- نور الدين حاطوم، وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، ج١: م.س، ص٦٥١.

عروقها الدماء، إنيّ أؤمن بذلك حقّاً، وقد يشكّلون من الرخام وجوهاً تنبض ملامحها بالحياة، وفي ساحات القضاء قد يصوغون عبارات الدفاع ببراعة أكبر، قد تصف أقلامهم أفلاك السماء ومدراتها، وقد يلمعون بمطالع النجوم، أمّا أنت أيّها الروماني فليكن واجبك أن تحكم جميع الأمم بقوّة عظيمة، وليكن فنُّك أن تعلّم الناس طرائق السلم، وأن تشفق على الذليل وأن تذلّ الفخور[١]». وفرجيل لا يتأسّف على موت الجمهوريّة، وهو يدرك أنّ حرب الطبقات هي التي قضت عليها، ولم يقض عليها قيصر، وهو في كلّ جزء من أجزاء القصيدة يبشّر بأنّ حكم أوغسطس سيعيد سيرتها الأولى[٢].

إنّ اختيار فرجيل لهذا الموضوع قد وضع بين يديه قصيدة ذات مضمون هومري، على الرغم من أنّها لم تكن في المجال الذي كتب فيه هوميروس ملحمته، ومن ثمّ فإنّ فرجيل يصف الاستيلاء على طروادة وتدميرها وكيف هرب إينياس وأتباعه وأبحروا على سفنهم ليبحثوا عن حياة جديدة في أراضي الغرب[٣]. وقد خصّص الكتاب الأوّل من الإنياذة لقصّة إينياس وهروب إينياس من طروادة التي خرج منها برفقة أبيه وولده، أمّا زوجته كروسا فقد تاهت أثناء الهروب من طروادة، وعندما عاد للبحث عنها، خاطبته الروح قائلة: «لم اضطرابك عبثاً؟ إنّ هذه الأحداث لم تقع علينا بغير رضى الآلهة، فإنّ حاكم الأولمب لا يريد أن ترافقك كروسا في رحلتك هذه، فأنت ستقوم برحلة طويلة، وستجتاز بحاراً عدّة، حتّى شاطئ هسبريا، حيث يجري نهر التيبر الليدي عذباً هادئاً، وفي أرض طيّبة خصبة، هناك ستلقى نجاحاً عظيماً، وتتّخذ لنفسك زوجة من نسل ملكي. فلا تبكي إذاً كروسا التي تحبّ... وعندما حاول إينياس أن يجيبها اختفت عن ناظره... ولمّا انقضى الليل طلب رفاقه، واشتدّ به السرور والعجب عندما وجد هذا العدد العظيم من الرجال والنساء يجتمعون معاً، وكلّهم على استعداد لمرافقته إلى حيث شاء[٤]».

لكن حين اقترب إينياس من الأرض الموعودة في الغرب، ضربت الرياح سفنه، وألقت

---

[١]- فرجيل،الإنياذة، م.س، ص١٤٧.

[٢]- نور الدين حاطوم، وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، ج١: م.س، ص٦٥٢.

[٣]- محمّد الزين ومحمّد محفّل،دراسات في تاريخ الرومان، م.س،ص٨٢.

[٤]- فرجيل،الإنياذة، م.س، ص٣٦.

بها على الساحل الإفريقي. ويتّضح أنّ الربّة يونو (زوجة الإله جوبتير) هي التي أرسلت هذه العاصفة وسبّبت كلّ هذه المتاعب لأنّها تعادي طروادة وسلالتها[١]، إذ قالت: «أهكذا يخيّب مقصدي، فلا أقدر على صدّ رجال طروادة هؤلاء عن إيطاليا؟»[٢]. فما كان من إينياس إلاّ أن أخفى سفنه ثمّ خرج ليتجوّل، فقابلته الربّة ڤينوس Venus (ربّة الحبّ والجمال عند الرومان) متنكّرةً، وأخبرته أنّ المدينة القريبة التي يراها هي صور الفينيقيّة، رغم أنّ الأرض هي أرض ليبيا، وأنّ أميرتها تدعى ديدو Dido (ويعني اسمها الهاربة)، وروت له قصّتها[٣]. فذهب إينياس والتقى بديدو (وهي ذاتها إليساElissa أو أليسار)، التي كانت منهمكة في تأسيس مدينتها قرطاجة، وسرعان ما يلتقي الاثنان ويشتعل حبّ إينياس في قلب ديدو[٤].

وهكذا يخصّص فرجيل الحديث في الكتاب الثاني للحديث عن قصّة سقوط طروادة، وهروب إينياس من ركام الحريق بأمر الآلهة، ومعه والده أنخسيس وابنه أسكانيوس وآلهة البيناتيس الطرواديّة. بينما يتضمّن الكتاب الثالث قصة نزول إينياس على ساحل أكتيوم الموطن الجديد للعرّاف الإغريقي هيلينوس، وينتهي بموت والد إينياس في جزيرة صقلّية. في الكتاب الرابع تقذف الرياح بإينياس مبعدة إياه عن إيطاليا، فينزل إينياس على شاطئ إفريقيا[٥]، ورغم الكرم العارم الذي يستقبل فيه القرطاجيّون الطرواديين، باعتراف فرجيل نفسه في الإنياذة، الذي يقول: «قادت إينياس إلى قصرها، وأرسلت إلى رجاله الذين في السفن مداراً كبيراً من المؤن يحتوي على عشرين ثوراً ومئة خنزير أهلب، ومئة نعجة مع صغارها، أمّا في القصر فقد أعدّت مأدبة عظيمة[٦]»، إلاّ أنّ مشاعر العداء لقرطاجة لا بدّ أن تظهر، إذ يقول فرجيل «لكنّ قلب فينوس قد اضطرب على ابنها إينياس، خشية أن يغدر به رجال صور، كما هي عادتهم[٧]»، طبعاً ولسنا ندري عن أيّ غدر يتحدّث فرجيل.

[١]- أحمد عتمان، الأدب اللاتيني ودوره الحضاري، م.س، ص١٩٤. وانظر فرجيل

[٢]- فرجيل،الإنياذة، م.س، ص٥٩.

[٣]- انظر هذه القصّة بالتفصيل في ملحمة الإنياذة: فرجيل، الإنياذة، م.س، ص٦٨، ٦٩.

[٤]- عبد الله السليمان، حروب الجمهوريّة القرطاجيّة من التأسيس حتّى السقوط سنة ١٤٦ ق.م، الهيئة العامّة السوريّة للكتاب، دمشق ٢٠١٥م، ص١٣.

[٥]- أحمد عتمان، الأدب اللاتيني ودوره الحضاري، م.س، ص١٩٤.

[٦]- فرجيل،الإنياذة، م.س، ص٨٠.

[٧]- فرجيل،الإنياذة، م.س، ص٨١.

لم ترغب الربّة يونو (زوجة الإله جوبتير) أن تمرّ الأمور بسلام، بل سعت إلى إحباط خطّة إقامة طروادة الجديدة في إيطاليا، بأن وحّدت جهودها مع إلهة الحب والجمال والتناسل الربّة فينوس، بهدف إخضاع إينياس لحبّ الملكة الفينيقيّة ديدو، وكانت هذه الملكة قد عاهدت نفسها أن تظلّ على عهد الوفاء وألّا ترتبط بأيّ رجل بعد وفاة زوجها سيخايوس، ولكنّها وقعت في حب إينياس، وأخذت تحاول إبقاء محبوبها إلى جوارها إلى الأبد[١]، «وأصبحت ديدو من ذلك الحين تصاحب إينياس إلى سور المدينة الذي بنته، وكثيراً ما كانت تبدأ حديثها، ثمّ تتوقّف عنه، والكلمات لا تزال في منتصفها، بل أتى عليها زمن كانت تجلس فيه إلى مائدتها، تصغي إلى ملحمة طروادة تقصّ عليها وتعاد، حتّى كان النوم يأخذ الحضور جميعاً، وهي لا تملّ الإصغاء. وكان يخيّل إليها، إذا ما بعد إينياس عن ناظريها، بأنّها تراه وتستمع إليه[٢]». ويشتدّ إصرارها برغم علمها بأنّ الأقدار تنتظر هذا البطل في مكان آخر، ويخضع إينياس نفسه لهذا الحبّ الجارف وينسى رسالته السماويّة[٣].

ولفترة من الزمن يبدو مصير روما وعدوّتها اللدود على وشك الارتباط في صورة حبّ إينياس لديدو، ففي الكتاب الرابع يصل حبّها لإينياس إلى حدّ عجزها عن المقاومة، لكنّ هذا الحب ينتهي نهاية مأساويّة[٤]، إذ وصل الأمر إلى حدّ أنّ جوبتير اضطر لأن يذكّر إينياس برسالته السماويّة على لسان رسوله ميركوريوس[٥]. «أهذا ما وعدت به أمك وهي تنقذك من رماح الإغريق مرتين؟ وهل أنت ذاك الذي سيحكم إيطاليا ورجالها المحاربين الأشداء؟ وتبسط ملكك إلى آخر المعمورة؟ وإذا نسيت كلّ هذا فهل تمنع ابنك عن روما؟ وما مقامك هنا؟ ولم لا تتجه نحو إيطاليا فابرح الآن ولا تتمهل[٦]»، فاستيقظ الرجل من غفوته وأحلامه وأبحر، رغم أنّ ديدو سعت إلى إقناعه بفكرة البقاء في قرطاجة بأيّ ثمن، حتّى إنّها على استعداد لتدمير كلّ مابنته في سبيل الاحتفاظ بحبيبها، لكن باءت كلّ جهودها بالفشل،

[١]- أحمد عتمان، الأدب اللاتيني ودوره الحضاري، م.س، ص١٩٤.

[٢]- فرجيل،الإنياذة، م.س، ص٨٧.

[٣]- أحمد عتمان، الأدب اللاتيني ودوره الحضاري، م.س، ص١٩٤.

[٤]- محمّد الزين ومحمّد محفّل،دراسات في تاريخ الرومان، م.س،ص٨٢.

[٥]- أحمد عتمان، الأدب اللاتيني ودوره الحضاري، م.س، ص١٩٥.

[٦]- فرجيل،الإنياذة، م.س، ص٩٠.

إذ كان يتوجّب عليه أن يغادر أرض ليبيا وأن يرفض الزواج منها، فحسب فرجيل قضت إرادة الآلهة أن يؤسّس إينياس مدينته الجديدة، أن يؤسّس روما القدر المجيد، على أرض إيطاليا لا أرض ليبيا، ولا حتّى كريت[١]. إذاً فهو حبّ مُدمّر لقرطاجة وسيّدتها، ونتيجة خيبة أملها لعنت حظّها وانتحرت[٢]، وهي تدعو القرطاجيين إلى كراهية الرومان وتدميرهم أينما وجدوا[٣]، وتتوعّد بقدوم منتقم جبّار من نسلها، وقد جاء هذا المنتقم بعد عدّة قرون في شخص هانيبال[٤].«اكرهوا أولاده وقومه إلى الأبد، وليُمْح السلام بينكم وبينهم، وليقم من قبري منتقم يضطهد نسله بالنار والسيف، لتبقى الحرب بيني وبينه مستعرة إلى الأبد[٥]».

إنّ موقف فرجيل من هذه القصّة بالذات هو موقف الروماني الانتهازي، فالأميرة القرطاجيّة ديدو صنعت بيدها هفوتها المميتة، ومن ثمّ اسمها من المجد يزول، فقد سقطت من ذروتها، لكن لم يكن إينياس هكذا، فالقضيّة بالنسبة له عرضيّة. اسمه المجيد لا يتأثّر بذلك أبداً، يرسل له جوبتير رسوله الإله ليأمره بأن يتذكّر المهمّة الرفيعة في تأسيس العرق الروماني، فيستعدّ للإبحار بحزن أقلّ من صعوبة نقل الخبر إليها، استجدت ولم تنفعها دموعها، كانت الآلهة قد نطقت، وعلى إينياس أن يغادر، وكل ما بقي لديدو وشهرتها الرفيعة الملطّخة هو الموت، والذي هو الملجأ الوحيد في هذا الضيق لأيّ بطلة في العالم الرومانتيكي عبر القرون منذ رحيل فرجيل[٦]. وهنا تظهر فروق الحبكة بين الإلياذة والإنياذة: فإن كان البطل الهوميري لايستطيع أن يفلت من قدره، إلاّ أنّه يستطيع أن يتّخذ لنفسه قراراً يصبح معه سيّداً للموقف الذي وضع فيه. أمّا إينياس البطل الفرجيلي فإنّ قدره الإلهي أن

[١]- أثناء رحلة الهروب من طروادة فكّر إينياس بالاستقرار في كريت لكنّ الربّة فينوس رفضت ذلك قائلة له: «لقد طَلب إلينا عرّاف أفلون أن ننبئك هنا ما كان سيخبرك به لو ذهبت إلى دلوس، ونحن الذين تبعناك نجتاز معك البحار العديدة، سنجلب لأولاد أولادك شرفاً عظيماً، وسنجعل لمدنتهم سلطاناً على كثير من الأمم، إذ لا يزال عليك أن تبحث عن وطن آخر، فليست كريت هي البلد التي أشار عليكم عرّاف أفلون بسكناها» وقد قدّمت له الربّة فينوس أوصاف تلك البلاد التي يجب أن يبني عليها مدينته: «هناك أرض يدعوها الإغريق هسبيريا، وهي أرض قديمة، سكّانها ذو بأس وقوّة، أرض تنبت الكرمة والحنطة، هناك موطن الحقّ» فرجيل، الإنياذة، م.س، ص٤٣.

[٢]- عبد الله السليمان، حروب الجمهوريّة القرطاجيّة، م.س، ص١٣.

[٣]- أحمد عتمان، الأدب اللاتيني ودوره الحضاري، م.س، ص٢٠٤.

[٤]- محمّد الزين ومحمّد محفّل،دراسات في تاريخ الرومان، م.س،ص٨٢.

[٥]- فرجيل،الإنياذة، م.س، ص٩٨.

[٦]- أديث هاملتون،الأسلوب الروماني، م.س،ص١٩٧.

يصبح جدّاً ومؤسّساً للسلالة الرومانيّة، وهذا هو السبب الوحيد لوجوده. هذا القدر هو أيضاً بالنسبة لمعاصري فرجيل مغزى تاريخ العالم كلّه. فالأقدار هي نفسها الإله جوبتير، ولذا فإرادة جوبتير لا تعلوها إرادة، حتّى إرادة وسلطة الربّة يونو التي ترفض وتحارب هذه الأقدار، وكذلك الربّة فينوس[١]. وهكذا أراد فرجيل أن يظهر كيف أنّ أعمال الناس تسيطر عليها ضوابط من مزايا وأفعال لقوى بشريّة وقوى خفيّة فوق قوى البشر، كما أراد في الوقت ذاته أن يصف كيف نمت روما بفعل تغلّب الإرادة القادرة، حتّى بلغت مستوى عظمتها، بعد أن بدأت بداية ضعيفة يائسة[٢].

عندما بدأ الكتاب الخامس تفاجأ إينياس بعاصفة قويّة مدمّرة وهو في طريقه إلى الساحل الإيطالي فيرسي مراسيه في جزيرة صقلّية[٣]، «لأنّني أرى أنّ الرياح تعاندنا، والحقّ أن ليس من أرض يسرّني الذهاب إليها أكثر من صقلّية، وقد دفن فيها أبي[٤]»، وهناك يقيم احتفالات دينيّة وألعاباً جنائزيّة بمناسبة ذكرى وفاة والده «لقد مضى عام كامل على دفننا لأبي في هذه الأرض، وإذا لم أخطئ، فقد كان هذا النهار بعينه، وعليه إنّني راغب في تقديسه والاحتفال به[٥]». وفي تلك الأثناء كانت الربّة يونو قد أوعزت إلى زوجات رجال إينياس بألاّ يذهبن معهم أكثر من ذلك، فقمن بإحراق السفن بهدف أن يمكث الجميع في صقلّية ولا يبرحوها[٦]، «فقبضن على جذوات من نيران الهيكل، وأشعلن النار بالسفن[٧]».

وبصلاة تضرعيّة من إينياس ينزل المطر مدراراً فيطفئ حريق السفن؛ «أتت زوبعة شماليّة يصاحبها رعد وبرق ومطر غزير، فأخمدت النار بعد أن أتت على أربع من السفن وتركتها ركاماً[٨]». ولكنّ إينياس ييأس من مواصلة الرحلة لغياب الثقة في عزم رجاله، فيظهر له والده

[١]- أحمد عتمان، الأدب اللاتيني ودوره الحضاري، م.س، ص٢٠٢.

[٢]- مقدّمة المترجم لكتاب: فرجيل،الإنياذة، م.س، ص٨.

[٣]- أحمد عتمان، الأدب اللاتيني ودوره الحضاري، م.س، ص١٩٥.

[٤]- فرجيل،الإنياذة، م.س، ص١٠٢.

[٥]- فرجيل،الإنياذة، م.س، ص١٠٢.

[٦]- أحمد عتمان، الأدب اللاتيني ودوره الحضاري، م.س، ص١٩٥.

[٧]- فرجيل،الإنياذة، م.س، ص١٢٠.

[٨]- فرجيل،الإنياذة، م.س، ص١٢١.

أنخسيس في الحلم[١]، «لقد أتيتك يا بنيّ بدعوة من جوبتير، دع المختارين من فتيان قومك يذهبون معك[٢]»، وينصحه بأن يترك غير المتحمّسين في صقلّية، ويأخذ البقيّة إلى إيطاليا ففيهم الكفاية[٣]. وهكذا يصوّر فرجيل بطل قصّته وقد استولى عليه اليأس والقنوط، حتّى أنّه يكاد يتخلّى عن متابعة آماله، ثمّ تعود الإرادة القادرة نفسها، فتدفعه في طريق بلوغ مراميه، ويرينا إياه وهو لم يتوان مرّة عن الخضوع إلى صوت الأرباب[٤].

أمّا الكتاب السادس من الإنياذة، وهو نواة الملحمة وجوهرها، ففيه يرسي إينياس سفنه في كوماي، وفيها يستشير عرّافة البلدة، ويعثر على الغصن الذهبي، وبهذه التميمة ينزل إلى العالم السفلي، وفيه يلتقي بوالده أنخيسيس Anchises في مقام السعداء والمباركين، وفي هذا المكان يكشف له والده عن الرؤية الأخيرة لمصيره، وهي عبارة عن نبوءة ملؤها الاستكبار والغطرسة عن تاريخ روما في المستقبل[٥]، إذ يطلعه أبوه على الأرواح التي ستولد يوماً ما في روما، ثمّ تنمو وتكبر وتصبح شخصيّات ورجالات في التاريخ الروماني من تأسيس المدينة وحتّى عصر أوغسطس[٦]، ويبينّ له رسالتها في أن تحكم العالم، ولكن كلّ ذلك يتوقّف على تنفيذ إينياس مهمّته السماويّة، أي تأسيس الدولة الرومانيّة، وفي نهاية الأمر كان إينياس يهزّ ماضي طروادة هزّاً عنيفاً ليواجه مستقبل روما[٧]. وهكذا في خضم الحزن والمآسي تأتي بارقة الأمل مضيئة من أعماق العالم السفلي، فموكب الأبطال سيبدأ من رومولوس مؤسّس روما، حتّى رومولوس الثاني (أي أوغسطس) فهو المؤسّس الثاني للمجد الروماني[٨].حيث يقول أنخيسيس لولده إينياس: «ثمّ انظر هذا هو رومولوس، الذي ستحمله إيليا لمارس، وسيبني روما التي سينبسط حكمها على الأرض ويمتدّ مجدها إلى

[١]- أحمد عتمان، الأدب اللاتيني ودوره الحضاري، م.س، ص١٩٥.

[٢]- فرجيل،الإنياذة، م.س، ص١٢٢.

[٣]- أحمد عتمان، الأدب اللاتيني ودوره الحضاري، م.س، ص١٩٥.

[٤]- مقدّمة المترجم لكتاب: فرجيل،الإنياذة، م.س، ص٩.

[٥]- محمّد الزين ومحمّد محفّل،دراسات في تاريخ الرومان، م.س،ص٨٣.

[٦]- أحمد عتمان، الأدب اللاتيني ودوره الحضاري، م.س، ص١٩٥.

[٧]- محمّد الزين ومحمّد محفّل،دراسات في تاريخ الرومان، م.س،ص٨٣.

[٨]- أحمد عتمان، الأدب اللاتيني ودوره الحضاري، م.س، ص١٩٩.

السماء[١]». وهكذا لم يترك أنخيسيس ابنه إينياس يصعد من العالم السفلي إلى الدنيا إلاّ بعد أن «أشعل في روحه حبّاً للمجد القادم»[٢].

وهنا فقط يتحوّل قبول إينياس السلبي، أي الاستسلام لقدره، إلى نشاط إيجابي ومبادرة دافعة وفاعلة نحو تحقيق النصر. وإذا كانت الكتب الستّة الأولى هكذا قد انتهت، فإنّنا في الإنياذة نصل بعد زيارة العالم السفلي إلى الكتاب السابع؛ حيث عبر البطل الطروادي من صقلّية إلى شبة الجزيرة الإيطاليّة، والكتاب السابع يصوّر الطرواديين وقد وصلوا إلى منطقة تدعى اللاتيوم Latium (في الحوض الأدنى من نهر التيبر)، ويتحدّث عن شعوب إيطاليا وأساطيرها البطوليّة في الوقت الذي يجري فيه الاستعداد للحرب[٣]، التي كان يحكمها ملك يدعى لاتينوس Latinus، ولم يكن مع إينياس إلّا سلاحه وأسطوله، ومن أجل تأمين القوت همَّ بسلب بعض سكّان المنطقة، فأتى الملك لاتينوس على جناح السرعة لردّ المعتدين بقوّة السلاح، وكانا على وشك أن يخوضا الحرب، وقبل بدئها تقدّم الملك لاتينوس إلى الخطوط الأماميّة ودعا زعيم الغرباء إلى مؤتمر ليستفسر منه عن سبب قدومهم وعن الجهة التي أتوا منها، فأرسل إينياس وفداً إلى الملك لاتينوس-طاعة لنبوءة قديمة- فاستقبل الملك الوفد بترحاب غامر، وعدل عن فكرة الحرب ورحّب بهم في بلاده، وسرعان ما أعجب بإينياس وبشجاعته وطيب أخلاقه، فعرض عليه تزويجه من ابنته لاڤينيا Lavinia[٤]، «إذ لم يكن للاتينوس من الأولاد سوى ابنة اسمها لاڤينيا، وكانت الآن في سنّ الزواج، وقد تقدّم إليها كثيرون من زعماء اللاتيوم، بل كلّ أنحاء إيطاليا راغبين في اتخاذها زوجة، وكان أوّل هؤلاء تورنوس، وهو شاب جميل الصورة ومن بيت ملكي، وقد أحبّته الملّة أمّ الصبيّة، وودّت لو زوّجت ابنتها منه، ولكنّ الأرباب منعوا الزواج برموز شرّ ومعجزات[٥]».

أمّا في الكتاب الثامن يسعى إينياس إلى توسيع دائرة حلفائه، وبالفعل يبادر آيفاندر Evander حاكم المكان اليوناني، الذي ستقوم عليه روما فيما بعد، بتزويد الطرواديين

---

[١]- فرجيل، الإنياذة، م.س، ص١٤٧.

[٢]- أحمد عتمان، الأدب اللاتيني ودوره الحضاري، م.س، ص١٩٩.

[٣]- محمّد الزين ومحمّد محفّل،دراسات في تاريخ الرومان، م.س،ص٨٣.

[٤]- أحمد عتمان، الأدب اللاتيني ودوره الحضاري، م.س، ص١٩٦.

[٥]- فرجيل، الإنياذة، م.س، ص١٥١.

بالقوّات تحت قيادة ابنه الشاب باللاس. وهكذا كان إينياس أوّل من وصل من الطرواديين إلى مكان مدينة روما، كما كان أوّل من نزل من السائحين قاطبة إلى أرض روما، ليطوف به آيفاندر. ورأى إينياس الماشية في السوق الرومانيّة وهي تنعر كما رأى الغيطة الغامضة حيث يرتفع معبد جوبتير على تلّ الكابيتول، واقتاده آيفاندر إلى منزله البسيط القائم على تلّ البلاتين، حيث سيقام فيما بعد منزل أوغسطس، ويظهر في الكتاب الثامن الملك الإتروسكيتارخون كخير حليف للطرواديين، وفي نهاية الكتاب يتقبّل هدية عبارة عن درع إله الحدّادين فولكان، الذي صنعه خصّيصاً لإينياس بطلب من الربّة فينوس، وقد نقشت عليه نبوءة أخرى عن تاريخ روما، ذكرت فيها معركة أكتيوم بوصفها قمّة هذا التاريخ[١].

بيد أنّ الربة يونو الحقود تثير البغضاء بين الطرواديين واللاتين، فتشعل نار الحرب بين الطرفين، ولا يشترك لاتينوس نفسه في المعركة، ويقودها تورنوس Turnus الذي يطالب لافينيا لنفسه، وتعضده الملكة أماتا Amata [٢]. وهكذا ذهب إينياس إلى الحرب ضدّ الايطاليين، وضدّ بطلهم المغوار تورنوس وقد حمل على كاهله صيت أحفاده ومستقبلهم، وهذه الحرب هي الموضوع الذي تتناوله الكتب الأربعة الأخيرة من الإنياذة[٣]، التي يلخّصها لنا الدكتور أحمد عتمان: «ففي الكتاب التاسع يشدّد تورنوس الضغط العسكري على الطرواديين منتهزاً فرصة غياب إينياس عن الساحة، ويحاول كلّ من نيسوس وصديقه يوريالوس أن يشقّا طريقاً بين صفوف العدو ليصلا إلى إينياس ويحيطانه علماً بالموقف، ولكنّهما وبسبب تهوّر يوريالوس يدفعان حياتهما ثمناً لهذه المغامرة. وفي اليوم التالي يخوض الطرواديّون معركة خاسرة للمرّة الثانية. ويبدأ الكتاب العاشر باجتماع إلهي علوي حيث يؤنّب جوبتير كلاً من الربّة يونو والربّة فينوس لتدخّلهما في الصراع بين البشر. وفي هذا اليوم مضت الحرب الأرضيّة دون تدخّل إلهي، وكان إينياس قد عاد إلى ساحة الوغى. وحدث أن كان تورنوس قد أحرز نصراً سهلاً على الشاب الصغير باللاس فقتله واستولى على أسلحته ومثّل بجثته. فيصر إينياس على الانتقام لباللاس من قاتله، وتحاول يونو إنقاذ

[١]- محمّد الزين ومحمّد محفّل، دراسات في تاريخ الرومان، م.س،ص٨٣.

[٢]- أحمد عتمان، الأدب اللاتيني ودوره الحضاري، م.س، ص١٩٦.

[٣]- محمّد الزين ومحمّد محفّل، دراسات في تاريخ الرومان، م.س،ص٨٣.

تورنوس. وفي الكتاب الحادي عشر يطلب اللاتين عقد هدنة مع الطرواديين وإيقاف القتال لدفن الأموات، ويعرض إينياس خطّة لإنهاء الحرب وسفك الدماء على أن تجري مبارزة فرديّة بينه وبين تورنوس لحسم الموقف[١].

وأتى من اللاتين سفراء، وأغصان الزيتون على رؤوسهم، وهم يطلبون الهدنة، لكي يتمكّنوا من دفن موتاهم، فأجابهم إينياس: «إنّكم تطلبون السلام للموتى، وبودّي لو أعطيه للأحياء، إنني لم آت هذه الأرض إلاّ بدعوى من الأقدار، وإذا كان مليككم قد تحوّل عني، وعن صداقتي إلى تورنوس فلا لوم عليّ ولا تثريب. وأحسب أن تورنوس كان يجب أن يأخذ هذا العبء على نفسه فقط، وإذا شاء الآن أن ينازلني رجلاً لرجل فليفعل. أمّا أنتم فقوموا بدفن موتاكم[٢]».

يظهر الملك لاتينوس استعداده لقبول هذا العرض، ولكنّ تورنوس يصرّ على مواصلة الحرب، وبعد أن يقتل حليف تورنوس القوي كاميللا، يميل ميزان القتال لصالح إينياس، الذي يستعدّ لدخول المدينة. ويبدأ الكتاب الأخير بالاستعدادات للمبارزة الفرديّة، بيد أنّ تورنوس لايقبل اللقاء بإينياس مبارزاً إلاّ بعد أن انفضّ الحلفاء من حول الجميع، ودخل إينياس المدينة عنوة. وهكذا لم تعد الربّة يونو قادرة على أن توقف سير القدر، وعلى أيّ حال يقرّر جوبتير ألاّ تكون اللاتيوم هي طروادة الجديدة. وفي النهاية يهزم تورنوس في المبارزة ويطلب الرحمة، ويميل إينياس للعفو عنه، لولا أن تقع عيناه على الأسلاب الحربيّة ولاسيّما أسلحة باللاس التي يتسلّح بها تورنوس، فيعرف أنّه ليس من الصواب أن يعفو عنه[٣]، واشتعل غيظه شديداً، وصاح بصوت مخيف: «**انتجوا مني الآن أنت يا من ترتدي أسلاب رفاقي؟ إنّ بلاس يفتك بك الآن بهذا الجرح، ويثأر من دمك اللعين**»، ثمّ صوب السنا إلى صدره، وبالضربة القاضية التي يتلقّاها تورنوس تنتهي حياته، وتمضي روحه بزفرة واحدة إلى الظلمات[٤]. ومع مقتله تنتهي الإنياذة، وهذه هي هزيمة الخير على يد الأفضل، مثلما

---

[١]- أحمد عتمان، الأدب اللاتيني ودوره الحضاري، م.س، ص١٩٦.

[٢]- فرجيل،الإنياذة، م.س، ص٢٢٤.

[٣]- أحمد عتمان، الأدب اللاتيني ودوره الحضاري، م.س، ص١٩٦، ١٩٧.

[٤]- فرجيل،الإنياذة، م.س، ص٢٦١.

كان مقدّراً لكثير من الشعوب البربريّة أن تلقى هزيمتها على يد روما[١].

ولعلّ من المناسب الآن أن نتعرّض لسؤال هو بالقطع يتبادر إلى الأذهان، هو كيف استطاع فرجيل أن يربط الأسطورة الطرواديّة بالتاريخ الروماني؟ لقد اتّبع فرجيل للوصول إلى ذلك عدّة وسائل بارعة، فمثلاً اتّبع نظاماً زمنيّاً مزدوجاً أتاح له الفرصة لتصوير الأحداث الجزئيّة كأنّها أمور كليّة ومسائل كونيّة، بل هيأ ذلك الفرصة أمام الشاعر لكي يصف الماضي السحيق على أنّه بذور الحاضر وجذور المستقبل، وفعل مافعله هوميروس حين أورد قائمة بالمحاربين الإيطاليين فاستطاع أن يشيد بالفضائل الإيطاليّة التقليديّة، ثمّ يستغلّ فرجيل أسماء الأماكن والأسر الإيطاليّة ليورد أساطير تعلّل وجود هذه الأسماء، ثمّ إنّه يكثر من الأحلام والنبوءات، ويلجأ لحيلة وصف درع إينياس لكي يحكي حوادث التاريخ الروماني[٢].

فحسب الرومان خلف إينياس حماه في الحكم بعد أن قتل في إحدى معاركه، وشيّد مدينة جديدة أطلق عليها اسم لاڤينيوم Lavinium إكراماً لزوجته، وأصبح شعبه يعرف بالشعب اللاتيني نسبة إلى سهل اللاتيوم، وفيما بعد مات إينياس، الأمر الذي لم يتقبّله شعبه، فخرجوا بأسطورة مفادها أنّه اختفى في عاصفة هوجاء، وعبدوه تحت مسمّى الإله جوبتير القومي. حكم بعده ابنه أسكانيوس Askanios الذي بنى مدينة ألبا المستطيلة Alba Longa. ثمّ توالى أبناء إينياس وأحفاده على العرش إلى أن حكم نوميتور Numitr (الملك الثاني عشر) والذي رزق بابنٍ وابنة سمّاها ريا سيلفيا Rhea Silvia، تلك الفتاة التي سيعجب بها الإله مارس وينجب منها توأمين ترضعهما ذئبة، أحدهما هو رومولوس مؤسّس مدينة روما. وهكذا فإنّ مؤسّس مدينة روما من نسل البطل الطروادي إينياس[٣].

وتجدر الإشارة إلى أنّ الإنياذة قد جعلت جوبتير يعد ابنته الربّة فينوس بكلّ هذا، حتّى قبل أن يلتقي إينياس بديدو في قرطاجة: «إنّ إينياس سيشنّ الحرب على أمم إيطاليا، فيخضعها، ويبني مدينة يحكمها ثلاث سنوات، وبعد ذلك بثلاثين سنة، يغيّر الطفل اسكانيوس الذي سيسمّى ليلوس مكان العرش من لافينوم إلى ألبا، ويتداول الملوك من نسل هكتور حكم ألبا

---

[١]- محمّد الزين ومحمّد محفّل،دراسات في تاريخ الرومان، م.س،ص٨٣.

[٢]- أحمد عتمان، الأدب اللاتيني ودوره الحضاري، م.س، ص٢٠٠.

[٣]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، م.س، ص١٥، ١٦.

ثلاثمائة سنة، تحمل كاهنة ولدين توأمين للإله مارس، وترضعهما ذئبة، فيبني أحدها واسمه رومولوس مدينة يكرّسها لمارس، ويدعوها روما نسبة لاسمه، ولهذه المدينة أعطيت ملكا لا حدّ له ولا نهاية[١]».

إنّ من أهم الوسائل التي اتّبعها فرجيل لربط الماضي بالحاضر هو الاتجاه المجازي أو حتّى الرمزي، فهو يوحي بالفكرة المستهدفة ولا يصرّح بها. فمثلاً قصد بقصة ديدو التذكير بكليوباترا، وهكذا عندما يلتقي إينياس وتورنوس في مواجهة حاسمة تتبادر على الفور إلى ذهننا المواجهة بين أوغسطس وأنطونيوس في أكتيوم. يقول سيرفيوس في مقدّمة تعليقه على »الإنياذة»: «كان هدف فرجيل أن يقلّد هوميروس ويمدح أوغسطس عن طريق أجداده». ويقول دوناتوس: «إنّ اهتمام فرجيل كان منصبّاً على موضوع البحث عن أصول روما وأوغسطس)» لقد كان هدف فرجيل إذاً هو رسم صورة إينياس على أنّه الجدّ الأوّل والمجيد لأوغسطس الذي نظّمت الملحمة أصلاً لتكريمه[٢]. هذه هي قصّة الإنياذة في خطوط عريضة على مستوى سردها القصصي، ولكن لا يزال هناك المزيد، فهي أيضاً قصّة الرجل والكفاءات اللازمة لجعل روما عظيمة، قادة مثل إينياس يصمدون أمام كلّ الكوارث ويتخلّون عن كلّ أغراضهم الشخصيّة في سبيل واجباتهم، رجال يستطيعون أن يتغاضوا عن حبّ عزيز عليهم مثلما فعل إينياس حين ترك حبيبته ديدو، بينما لم يترك أنطونيوس كليوبترا. وأخيراً ينتقل فرجيل إلى ما وراء روما والإمبراطوريّة الرومانيّة ليتناول الإنسان ومكانه في الكون كما يجب أن يفعل أيّ شاعر عظيم[٣].

وهكذا صارت الإنياذة دستور روما الدائم في نهجها الإمبريالي وبمثابة نشيد البلاد الوطني، الذي يحثّ على التوسّع والسيطرة والاستعمار، وكذبة السلام الروماني هي من أكبر أكاذيب أوغسطس في التاريخ، فالحرب ستشغل موقعاً مركزيّاً من تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، فقد تكوّنت الإمبراطوريّة على مدى أجيال بالدم والحديد، وفترات السلم لم تكن إلّا فترات مؤقّتة، ومن الخطأ تصويرها على أنّها فترات سعيدة في تاريخ روما، بل

---

[١]- فرجيل،الإنياذة، م.س، ص٦٦.

[٢]- أحمد عتمان، الأدب اللاتيني ودوره الحضاري، م.س، ص٢٠١.

[٣]- محمّد الزين ومحمّد محفّل،دراسات في تاريخ الرومان، م.س،ص٨٤.

كانت فترات فاصلة للانتقال إلى الشوط الثاني من النشاطات الحربيّة. فعلى الجبهة الشرقيّة كان إخضاع الفرثيين هدفا أساسيّاً، أمّا على الجانب الغربي فكان لا بدّ من مراقبة الجرمان والعمل على استيعابهم شيئاً فشيئاً، بينما تتالت الانتصارات الفاعلة في شمال أفريقيا على حساب القبائل والشعوب الجبليّة، حتّى إنّ مرحلة الإمبراطور كلوديوس تميّزت بضمّ أقاليم جديدة في بريطانيا، ومناطق الألب، ومناطق الألب الداخليّة، وما بين الدانوب والألب، ودلماسيا Dalmatie (في كرواتيا اليوم)، والدانوب الأوسط، ومناطق أخرى في البلقان بمحاذاة بلغاريا Mesie، وتراقيا Thrace وغلاطية Galatie، وفلسطين وبرقة، كما صارت موريتانيا في دائرة السيطرة الرومانيّة[١].

٣. الإنياذة والنفوذ الروحي للإمبرياليّة على العالم

إنّ إقامة الألعاب المهداة إلى آلهة المنازل (عند الرومان) وإلى عبقريّة الإمبراطور كانت أداة انصهار سياسي وديني للصورة الإمبرياليّة في الساحة المدنيّة[٢]. وما يؤكّد تلك الحقيقة أنّ فرجيل كان الشاعر الوحيد سواء من اليونان أو الرومان الذي شقّ طريقه نحو الكنيسة المسيحيّة، رغم أنّه عاش قبلها بفترة، فقد احتلّ مكانة كبيرة بين دعاتها كما احتلّ مكانة في الفنّ المسيحي حتّى دعي «**نبي الوثنيين**»[٣] حتّى إنّ ترنيمة تقول إنّ القديس بولس زار قبره وذرف الدمع عليه. ومرّة بعد أخرى يظهر اسمه في طقوس الكنيسة كواحد من الأنبياء؛ لأنّه في قصيدة مبكّرة كتبها عن طفل سوف يولد ويعيد العصر الذهبي وسيادة السلام، ففسّر المسيحيّون أنّها إشارة واضحة إلى السيد المسيح[٤]، لم يكن السيد المسيح مقصوداً في هذه الإشارة، وإنّما كان أوغسطس هو المقصود فيها في إطار عبادة الإمبراطور، إذ رغب أوغسطس أن تعبده شعوب الإمبراطوريّة كنوع من رابط متين يجمع بينها، إذ تشكّل عبادة الإمبراطور جزءاً من العبادة العامّة خاصّة تجاه الأباطرة الأحياء، ما يعكس شعوراً بالانصياع للإمبراطوريّة حتّى لو لم يكن معلّلاً. إنّها صياغة واضحة للعلاقات القويّة التي نسجت بين

---

[١]- باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص١٢+ ١٦.

[٢]- باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٣٩.

[٣]- مقدّمة المترجم لكتاب: فرجيل،الإنياذة، م.س، ص٩.

[٤]- أديث هاملتون،الأسلوب الروماني، م.س،ص١٨٨، ١٨٩.

المواطنين والسلطة التي قامت لتحافظ على عالم يحكمه النظام ويتناسب مع نظام الكون[١].

لقد استلهم أوغسطس فكرة المسيح المنتظر، ذلك الطفل الذي يولد، وينهي الحروب، وينشر السلام، من أتباع النبي موسى عليه السلام، وأنبياء بني إسرائيل؛ ابتداء من حزقيال وأشعيا إلى يوحنا المعمدان (النبي يحيى عليه السلام)، حيث نودي في الناس أنّ المسيح المنتظر سوف يجيء ويضع نهاية لهذا الظلم والجور[٢]، فوجد أوغسطس أن يكون ذلك الشخص المنتظر، فوجّه الأدباء في هذا الاتجاه، وهكذا تورّط أدباء عصر أوغسطس في الترويج لأفكار دينيّة رغم أبيقوريّتهم، فالشاعر هوراس رغم تكوينه الأبيقوري إلاّ أنّه طالب بتجديد المعابد وكتب الترانيم لأوغسطس. بينما ركّز فرجيل على تاريخ المدينة الخالدة، وأخذ يدوّن أسطورتها الأهمّ «ملحمة الإنياذة» في سياق التجربة الدينيّة. أمّا أوفيد اهتمّ بالتقويم الديني[٣]، وبهذا أرسى الإمبراطور صورة كون يرتكز على روما، كانت هذه المدينة المنتصرة وسيّدة العالم العاصمة الوحيدة، مركز الإمبراطوريّة، والرأس المرئي الذي لا هويّة له لأراضي تسيطر عليها وتقوم بتنظيمها[٤]. وبهذا صارت قصائد فرجيل التي تمجّد روما المقدّسة مقدّسة مثلها على نحو ما، حتّى عند بعض أتباع الديانات السماويّة، فقد سمحت الأديرة المعاديّة للتعاليم الوثنيّة بنسخها. ولا يشعر أتقياء المسيحيين بخطيئة في استطلاع المستقبل باستخدام الإنياذة بفتح الإنياذة وقراءة أوّل سطر تقع عليه أعينهم[٥]. بينما تحوّل فرجيل إلى ساحر في الموروث الثقافي لأوروبا، بحكم أنّ إبداعه في نظر الأوروبيين كان أمراً خارقاً للمألوف، حتّى إنّ أحد الكتب التي تبحث في معجزاته ترجم إلى عدّة لغات في أوروبا خلال القرون الوسطى[٦]، ثمّ تحوّل بعدها إلى أديب مهذّب لطيف، حتّى إنّه كان بمثابة المرشد لدانتي في جحيم العالم السفلي[٧].

---

[١]- باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٣٧.

[٢]- سيّد الناصري، تاريخ الإمبراطورية الرومانيّة السياسي والحضاري، ط٢، دار النهضة العربيّة، القاهرة ١٩٩١م، ص٩٥.

[٣]- جفري بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، مراجعة عبد الغفار مكاوي، مجلّة عالم المعرفة، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد ١٧٣، الكويت ١٩٩٣م، ص٧٨.

[٤]- باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٣٨.

[٥]- أديث هاملتون،الأسلوب الروماني، م.س،ص١٨٨، ١٨٩.

[٦]- مقدّمة المترجم لكتاب: فرجيل،الإنياذة، م.س، ص٩.

[٧]- أديث هاملتون،الأسلوب الروماني، م.س،ص١٨٩.

لقد وصلت الإمبرياليّة وفرض فكرة السيطرة حتّى إلى الدين، وكما كانت الدولة تحكم تبعاً لسيطرة رجل، فإنّ إعادة بناء المؤسّسة الدينيّة يجب أن تمرّ بمساحة خاصّة بالإمبراطور، نموذج التقوى والمختار من قبل الآلهة. إنّ التقديس الإمبراطوري قد حمل صورة سلطة ما فوق بشريّة، لكنّها ليست سلطة إلهيّة، لكنّها تأمن أو تتمتّع بسلام الآلهة. فالسلطة الرومانيّة بفضل الأباطرة الأحياء والأباطرة المؤلّهين بعد وفاتهم كانت توالف دقيق مع العالم اللامرئي الذي تطالب معاينته ورعايته من أجل جماعة المواطنين الرومان وشعوب الإمبراطوريّة. والحوار المميّز مع الكائنات الإلهيّة كان علامة تفوّق فردي من قبل من تكون الإمبراطوريّة بين يديه، ففي شخص القياصرة تتركّز الامتيازات التي تقوم على ممارسة مهمّة تعتبر هرقليّة، وصورة القوّة المدهشة ذات الطبيعة الدينيّة، فشعب أوغسطس بتأثير التأليهات قد تطوّر طبيعيّاً إلى نوع من القرابة الإلهيّة، أو ما يمكن أن نطلق عليه شعب الآلهة المختار[1].

[١]- باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٢٩، ٣٠.

الخاتمة

احتلّت روما أجزاء واسعة من العالم القديم بحجّة الدفاع عن النفس، وكانت نقطة التحوّل الأساسيّة في حياتها هو انتصارها على هانيبال في معركة زاما سنة ٢٠١ ق.م. لقد أسهم هذا الانتصار في حماية شبه الجزيرة الإيطاليّة من أيّ عدوان قد تتعرّض له روما ويهدّدها بالزوال، كما أتاح هذا النصر للرومان تحقيق أحلامهم الخفيّة في السيطرة على العالم. وهكذا ولدت الإمبرياليّة الرومانيّة في أعقاب معركة زاما، أي قبل ميلاد الإمبراطوريّة الرومانيّة سنة ٢٧ ق.م بزمن ليس بقليل، وبالتالي إنّ تدمير قرطاجة عن بكرة أبيها سنة ١٤٦ ق.م، وتدمير كورنثا في التاريخ نفسه، وتدمير نيمونس في سنة ١٣٣ ق.م، هي من نتائج التوسّع والسيطرة الإمبرياليّة الرومانيّة في عالم البحر المتوسّط. وإذا كانت الحرب الأهليّة التي اشتعلت في روما خلال القرن الأخير من عصرها الجمهوري، قد حالت دون استمرار نهجها في التوسّع والسيطرة، فإنّ ميلاد الإمبراطوريّة أتاح لروما أن تنتهج هذا النهج الإمبريالي مجدّداً. والنتيجة التي يتمحور حولها البحث أنّ نظاماً إمبرياليّاً كهذا بحاجة إلى ثقافة ودستور ونهج وأيديولوجيا، وهكذا وجد أوغسطس في الأدب خير وسيلة للترويج للإمبرياليّة الرومانيّة، فوظّف الشعراء والكتّاب والمؤرّخين لهذا الغرض، فكانت قصيدة الإنياذة في النهج، وإنّ حبكتها وفحواها جعلت منها دستور روما الخالد، بينما صار شاعرها هوميروس روما.

لائحة المصادر والمراجع

١. أحمد عتمان، الأدب اللاتيني ودوره الحضاري، مجلّة عالم المعرفة، العدد ١٤١، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سبتمبر ١٩٨٩م.

٢. أديث هاملتون،الأسلوب الروماني في الأدب والفنّ والحياة، ترجمة: حنا عبود، منشورات وزارة الثقافة- المعهد العالي للفنون المسرحيّة، دمشق ١٩٩٧م.

٣. أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام، ج٢، روما وإمبراطوريّتها، ترجمة فريد داغر وفؤاد أبو ريحان، ط٢، منشورات عويدات، باريس-بيروت ١٩٨٦م.

٤. باتريك لورو، الإمبراطوريّة الرومانيّة، ترجمة جورج كتّوره، دار الكتاب الجديد المتّحدة، بنغازي ٢٠٠٨م.

٥. جفري بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، مراجعة عبد الغفار مكاوي، مجلّة عالم المعرفة، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد ١٧٣، الكويت ١٩٩٣م.

٦. خليل سارة، دراسات في تاريخ الإغريق، مقدّمة في التاريخ السياسي والحضاري، دمشق ٢٠٠٤م.

٧. رجب سلامة عمران، الفكر العسكري الروماني بين الدفاع والهجوم والتوسّع والاستعمار حتّى نهاية العصر الجمهوري، مطبعة دار الروضة، القاهرة ٢٠١٠م.

٨. سيّد أحمد الناصري، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة السياسي والحضاري، ط٢، دار النهضة العربيّة، القاهرة ١٩٩١م.

٩. عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، دار مرايا للطباعة والنشر والتوزيع، دبي ٢٠٢٠م.

١٠. عبد الله السليمان، حروب الجمهوريّة القرطاجيّة من التأسيس حتّى السقوط سنة ١٤٦ ق.م، الهيئة العامّة السوريّة للكتاب، دمشق ٢٠١٥م.

١١. عبد الله السليمان، رؤية في منهجيّة الكتابة التاريخيّة في العصور الكلاسيكيّة، دمشق، مجلّة المعرفة، العدد ٦١١ آب ٢٠١٤م.

١٢. فرجيل، الإنياذة، ترجمة عنبرة سلام الخالدي، ط٢، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٨م.

١٣. محمّد الزين ومحمّد محفّل، دراسات في تاريخ الرومان، ج٢، ط١٠، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠١م.

١٤. محمّد كامل عياد، تاريخ اليونان، ج١، ط٣، دار الفكر، دمشق ١٩٨٠م.

١٥. مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، أسباب النهوض والانحطاط، ترجمة عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ٢٠١١م.

١٦. نور الدين حاطوم، صلاح مدني، أحمد طربين، نبيه عاقل، موجز تاريخ الحضارة، ج١: حضارات العصور القديمة، مطبعة الكمال، دمشق ١٩٦٥م.

عبادة الإمبراطور عند الرومان

محمد مرتضى[1]

مقدّمة

كانت الإمبراطوريّة الرومانيّة قد تعرّضت لأقسى أنواع الحروب الأهليّة طوال قرن كامل من الزمن، فقدت فيها نخبها الاجتماعيّة وكثيراً من قادتها وجنودها، الذين ماتوا في الزحف على روما أو في الدفاع عنها، لا ضدّ خطر أجنبي، بل في اقتتال داخلي بين جيوش رومانيّة، وتحت رايات رومانيّة، وبزعامة قادة رومان، ولما استتبّ الأمر لأغسطس في نهاية المطاف سنة ٣١ ق.م في أعقاب معركة أكتيوم البحريّة، وانتهت حمى الحرب الأهليّة، كان الدين الروماني ومعه الأخلاق الرومانيّة في أدنى مستوياتهما. ولما كان أغسطس يسعى إلى توحيد الدولة وبعث الروح فيها من جديد، وجدَ أنّ خير وسيلة لذلك هو إحياء ديانات الرومان القديمة، حتّى أنّه رمّم ٨٢ معبداً لها؛ ولما كان أغسطس قد احتكّ في الشرق (بلاد اليونان والشرق القديم وآسيا الصغرى) مع أناس يقدّسون حكّامهم، وجد أنّه من الأفضل أن يقتبس هذه العبادة، عبادة الإمبراطور.

لقد كانت ذكرى يوليوس قيصر (خاله الأكبر ووالده بالتبنّي) ما تزال ماثلة أمام ناظري أغسطس عندما عبث بالتأليه وتعرّض للاغتيال، فإنّه تأنّى كثيراً قبل أن يطلب من الرومان أن يعبدوه، وذلك في الوقت الذي انتشرت فيه عبادته وهو على قيد الحياة، في سورية، ومصر، وآسيا الصغرى، وبلاد اليونان، وبريطانيا، وفرنسا. لكنّ الموقف كان حرجاً في روما، فأخذ الإمبراطور يروّج لقدسيّة منصب الإمبراطور والدولة، وقدسيّة يوليوس قيصر، ونَشر عبادته، كما أنّه لم يتوانَ عن اعتلاء أعلى مناصب الكهنوت الروماني، لا بل إنّه اقتبس شخصيّة «المخلّص» التي نادى اليهود بقرب ظهوره، وفوق هذا وذاك أشرف على الألعاب والاحتفالات الدينيّة، وحاول أن ينسب نفسه للإله أبوللون، بأسطورة مشابهة للأسطورة التي نسب فيها الإسكندر المقدوني نفسه إلى الإله زيوس Zeus. وقد كلّلت هذه الجهود الحثيثة

[١]- أستاذ تاريخ الفلسفة الغربيّة في جامعة المعارف (لبنان).

باعتراف مجلس الشيوخ الروماني بألوهيّة أغسطس في ١٧ أيلول ١٤م، وهكذا صار ابن المرابي إلهاً. لكن سرعان ما ستتحوّل هذه العبادة التي كان يرمي مؤسّسها منها إلى وحدة الإمبراطوريّة، إلى ديانة رومانيّة مثلها مثل باقي الديانات الرومانيّة الوثنيّة الأخرى، وسيجد فيها الأباطرة المصابون بالجنون ضالّتهم المنشودة، حيث لم يكتفوا بتأليه أنفسهم، ورفع أرواحهم إلى السماء ودرجات«الآلهة»، بل إنّهم أشاعوا منذ عهد نيرون عقيدة الرجعة، وهي عقيدة نادى مناصروها أنّ نيرون سيعود.

أوّلاً: البدايات

لقد تعلّمت روما نتيجة احتكاكها بالإغريق أن تنسب ألقاب الشرف المقدّسة إلى الأفراد، ففي سنة ٢١٢ ق.م أقيم احتفال على شرف مارسليوس Marcellus في سيراكوزة، وفي سنة ١٩٥ ق.م منح فلامينيوس Flaminius في مدينة خاكليس Chalcis مرتبة الكهنوتيّة التي بقيت طوال ثلاثة قرون شاغرة، وفي مدينة أفيسوس كان هناك هيكل لآلهة روما Roma ، ولـ سرفيوس أزوريكوس Servilius Isauricup الذي كان قنصلاً من سنة ٤٦ حتّى سنة ٤٤ ق.م. وكان فيروس Verres الشهير موضع تبجيل في جزيرة قبرص. وقدّمت آيات الشرف لشيشرون وشقيقه كوينتوس Quintus، ولكنّهما رفضاها، ورغم هذا الرفض كان شيشرون يتباهى بلقب العرّاف. وقبل سنة أو سنتين من ميلاد السيد المسيح عليه السلام، أقيم احتفال لـبولس فابيوس ماكسيموس Paullus Fabius Maximus ارتبط بعيد أبوللون سمينثوس SmithemApollo، وقد ارتبط الاسمان حتّى ظلّ الاحتفال بهما معاً قائماً تحت اسم سمينثا-بولس في مدينة طروادة لمدّة قرنين بعد ذلك[1]، وهكذا بدأ الرومان يتقبّلون فكرة تقديس بعض الأفراد في مجتمعهم.

كما كان من عادة الرومان تأليه موتاهم، إذ كانوا يطلقون عليهم اسم الآلهة مانيس Manes، وقد تأثّر الرومان كثيراً في أواخر العصر الجمهوري بعادات الإغريق في تكريم حكّامهم، وإقامة التماثيل لهم وعبادتهم، إذ نظروا إلى الفكرة بافتنان ورهبة. أمّا أوّل حاكم روماني فرض على الناس أن يقدّسوه وهو على قيد الحياة؛ كان سولا Sulla (١٣٨- ٧٨ ق.م) الذي اعتبر

[١]- جفري بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، مراجعة عبد الغفار مكاوي، مجلّة عالم المعرفة، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد ١٧٣، الكويت ١٩٩٣م، ص٧٩.

محبوب الآلهة[١]. أمّا بومبي (١٠٦ – ٤٨ ق.م) فقد قلّد الإسكندر المقدوني (الذي وافق على الألوهيّة لأغراض سياسيّة وغير سياسيّة)، وكان يوليوس قيصرJulius Caesar يلهو بالتأليه، فذهب ضحيّة استهتاره، ورغم ذلك ستُسبغ عليه صفة الألوهيّة بعد اغتياله بسنتين[٢].

ثانياً: يوليوس قيصر وتأليه الحاكم الفرد

إنّ ألقاب الشرف الدينيّة والامتيازات التي أغدقت على يوليوس قيصر، أغدقت عليه لبواعث مختلفة؛ منها الاعتراف بقوّته والاستجابة لرغبته والتزلّف إليه والرهبة منه، ولعلّ بعض هذه الألقاب والامتيازات غير صحيح اختلقه المعجبون به أو المنافقون أو الراغبون في إثارة السخط عليه، ومع هذا، وبعد إغفال الزائف منها، فلم يسبق أن تمتّع بمثلها حاكم روماني مطلقاً رغم مجافاة جانب منها للتقاليد الرومانيّة.

ومهما يكن من أمر، فإنّ الألقاب شبه الإلهيّة والامتيازات ذات الطابع الديني ما تزال مثار نقاش بين المؤرّخين؛ إذ يرى فريق منهم أنّها نشأت عن سياسة دينيّة مرسومة ترمي إلى تأليهه رسميّاً، وأنّ هذا التأليه كان وسيلة لدعم نظام الحكم الملكي المزمع إقامته في روما اقتداء بما فعله ملوك الشرق الهلنستي. ورغم كثرة هذه الألقاب وتلك الامتيازات، إلاّ أنّه لم يؤلّه رسميّاً أثناء حياته[٣]، رغم أنّه قد عثر على العديد من النقوش في بلاد الإغريق وآسيا الصغرى تصف قيصر بأنّه إله[٤].

أمّا في روما فقد كان مجلس الشيوخ السبّاق في هذا النفاق، إذ كان أوّل ما أصدر في هذا الصدد توصية بوضع عجلة قيصر الحربيّة في مواجهة تمثال الإله جوبتير بالمعبد القائم فوق الكابيتول، وإقامة تمثال له في نفس المعبد تظهر فيه صورة الأرض (المعمورة) تحت قدميه. وترمز العجلة الحربيّة إلى موكب نصره، بينما يخلّد تمثاله الآخر ذكرى انتصاره في طول البحر المتوسط وعرضه. وإذا كان هذا التمثال قد حمل نقشاً يوصف فيه قيصر بأنّه

[١]- رمزي النعمات، الطقوس الجنائزيّة الوثنيّة في سورية خلال الحكم الروماني (٦٤ ق.م – ٣٢٥م)، رسالة مقدّمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، جامعة دمشق ٢٠١٧م، ص٩١.

[٢]- جفري بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، م.س، ص٧٩.

[٣]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ الروماني، عصر الثورة: من تيبريوس جراكوس إلى أكتافيانوس أغسطس، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٨م، ص٣٢١.

[٤]- إبراهيم نصحي، التاريخ الروماني ١٣٣- ٤٤ ق.م، ج٢، منشورات الجامعة الليبيّة كليّة الآداب، طرابلس ١٩٧٣م، ص٦٩١.

نصف إله Hemitheos، إلاّ أنّ الدكتاتور أمر بطمسه؛ لأنّ الشعب الروماني لم يستسغ بعد فكرة تأليه الأحياء. وقد تزايد التزلّف إليه وتكاثرت الامتيازات التي منحت له وألقاب الآلهة التي خلعت عليه، وبخاصّة بعد انتصاره في معركة موندا نيسان ٤٥ ق.م، حيث وصل نبأ هذا النصر إلى العاصمة روما في يوم عيد الباريليا parilia حيث كان يحتفل بتأسيس روما (٢١ نيسان ٧٥٣ ق.م)، وعندئذ أوصى مجلس الشيوخ بأن تقام مهرجانات الملعب الكبير تمجيداً لقيصر، وكأنّه هو مؤسّس المدينة الثاني، وأعقب ذلك قرار بمنحه لقب المحرّر؛ أي محرّر الدولة من العبوديّة بانتصاره على الأعداء في تلك المعركة. ولما كان قد قُرن بالمؤسّس الأوّل للمدينة فقد نصب له تمثال في معبد الإله كويرينوس Quirinus؛ الإله الذي ساد الاعتقاد بأنّه هو روميلوس مؤسّس روما بعد أن رُفع إلى السماء وأُلّه، وقد نقش على التمثال كلمتان (إلى الإله الذي لا يقهر) وهي عبارة وصف بها الإسكندر المقدوني من قبل، ولعلّها استعيرت في وصف قيصر، ومن الجائز أنّها أضيفت بعد موته لا أثناء حياته[١].

والأهمّ من ذلك أنّ قيصر سكّ صورته على النقود والعملة الرسميّة لأوّل مرة في تاريخ الدولة الرومانيّة سنة ٤٥ ق.م بأمر من مجلس الشيوخ، وهي التي لم تكن ترسم عليها سوى صور الآلهة، ولم يسبق أن سكّت وهي تحمل صورة إنسان ما يزال على قيد الحياة، وربما كان قيصر يتشبّه بالإسكندر[٢]. أمّا القرار بأن يحلف الناس اليمين بروحه الحارسة، والاحتفال بيوم ميلاده واعتباره عيداً تقام فيه الصلوات وتقدّم القرابين سنويّاً من أجل سلامته وطول بقائه، وتنظيم المهرجانات كلّ أربع سنوات تكريماً له، وإضافة يوم من أجله إلى كلّ عيد رسمي وكبير تمجيداً له، كلّها امتيازات تتضمّن معنى التشبّه بالآلهة أو اقترانه بها[٣]. كما قام قيصر بتعيين كاهن خاصّ لنفسه في حياته، ولا شكّ أنّ هذا العمل كان شأنه شأن تكوين جماعة كهنوتيّة إضافيّة من عشيرة يوليوس قيصر، ومن المعلوم أنّ الكهنة كانوا يعيّنون لإقامة شعائر عبادة إله، وبالتالي إنّ تعيين كاهن خاصّ لقيصر في أثناء حياته-وهو أمر لم يسبق له مثيل- كان يعني رفع قيصر لمرتبة الآلهة[٤].

---

[١]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ الروماني، م.س، ص٣٢٢.

[٢]- إبراهيم نصحي، التاريخ الروماني، ج٢، م.س، ص٦٩١.

[٣]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ الروماني، م.س، ص٣٢٣- ٣٢٤.

[٤]- إبراهيم نصحي، التاريخ الروماني، ج٢، م.س، ص٦٩٢.

لقد توّج قيصر في حياته نصف إله روماني من قبل مجلس الشيوخ، أو ربمّا إله، وسواء كان عنده طموح لأن يمسي ملكاً لروما أم لا، كان هذا التتويج الديني من مستلزمات المنصب الملكي، لكنّ الأجل لم يطل به فسرعان ما تعرّض للاغتيال في ١٥ آذار سنة ٤٤ ق.م[١]. ومهما يكن من أمر مقتله، فإنّ ظاهرة تأليه الأباطرة الرومان الحقيقيّة تبدأ معه، فالقائمة الطويلة من ألقاب الشرف والامتيازات ذات الطابع الديني، التي ألقيت عليه، كانت تمهيداً لتأليهه الحاكم الفرد رسميّاً، اقتداء بما فعله ملوك الشرق القديم[٢]. وبما فعله الملوك السلوقيّون في الشرق الهلنستي، حيث ألهوا ملوكهم بعد موتهم في البداية، ثم ألّهوا الملك الحاكم وزوجته وهما على قيد الحياة[٣].

إنّ الاشمئزاز الذي أثاره لهو قيصر بتأليه نفسه سرعان ما تبدّد مع قراءة مارك أنطونيوس لوصيّة قيصر في حفل تأبينه في العشرين من آذار، إذ عدّد أنطونيوس مناقب الفقيد وما قدّمه للشعب الروماني من جلائل الأعمال، وكيف أنه خصّ هذا الشعب بقسم كبير من ثروته، فقد منح كلّ مواطن روماني ٣٠٠ سسترتيوس Sestertius، ووهب شعب روما جنائنه وحدائقه خلف نهر التيبر[٤]، وهكذا تبدّلت المشاعر تجاه قيصر، ونجح أنصاره في السيطرة على روما، وأخيراً تمّ تأليهه بشكل رسمي من قبل مجلس الشيوخ الروماني، بعد حادثة اغتياله بسنتين، وشاع تقديسه في مختلف أرجاء الإمبراطوريّة الرومانيّة[٥].

لما آلت الأمور إلى مارك أنطونيوس M. Antonius لم يجد خجلاً في أن يكون ديونيسوس-أوزريس زوج كليوبترا-إيزيس ملكة مصر، وإمعاناً في هذه الألوهيّة أطلقا على طفليهما اسم الشمس والقمر[٦]. ورغم ما أثارت هذه الخطوة من امتعاض عند الشعب الروماني، إلاّ أنّها كانت الخطوة الثانية على طريق عبادة الإمبراطورemperor worship عند

[1]- Gradel I., Emperor Worship and Roman Religion., Published in the United States by Oxford University Press Inc., New York, 2002, p.109.

[٢]- وعد جمال الدين، الأديان الوثنيّة في سورية في العصر الروماني من ٤٦ قبل الميلاد - ٣٩٥ ميلاديّة، رسالة مقدّمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، جامعة دمشق ٢٠١٠م، ص١٢٦.

[٣]- رمزي النعمات، الطقوس الجنائزيّة الوثنيّة في سورية، م.س، ص٩١.

[٤]- محمّد الزين، محمّد محفل، دراسات في تاريخ الرومان، ج٢، ط٨، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٥م، ص٦.

[٥]- وعد جمال الدين، الأديان الوثنيّة في سورية، م.س، ص١٢٦.

[٦]- جفري بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، م.س، ص٧٩.

الرومان، فبعدما خطا قيصر الخطوة الأولى، خطا أنطونيوس الخطوة الثانية، إلّا أنّ الأمر سرعان ما سيحسم مع أوكتافيانوس، فبعد أن حسم الحرب الأهليّة التي دارت رحاها بينه وبين أنطونيوس لصالحه، كان عليه أن يعيد الأمور إلى نصابها، فوجد في الدين خير وسيلة لذلك، حتّى لو اقتضى الأمر تأسيس دين جديد.

ثالثاً: تأسيس أغسطس لعبادة الإمبراطور

لقد أسهم كلّ من قيصر وأنطونيوس في تمهيد الطريق أمام أغسطس الذي بدأ بتمهيد الجو لتأليه الحاكم وعبادة الإمبراطور، فرغم أنّ عادة تقديس الأباطرة والحكّام قد ظهرت في روما قبل وصوله إلى الحكم، إلّا أنّه استفاد منها ببراعة، إذ عمل على ترسيخها بخطوات مدروسة، ومتأنية، ومختلفة التوقيت في أماكن مختلفة من الإمبراطورية الرومانيّة، وذلك من خلال تشجيعها أحياناً وردعها أحياناً أخرى[١]، وقبل الإسهاب في الخطوات التي اتخذها أغسطس في سبيل تهيئة الجو لعبادة الإمبراطور في روما، تجد الإشارة إلى ضرورة التعرّف على شخصيّته، حيث لا يختلف اثنان على أنّ شخصية أوكتافيانوس/ أغسطس معقّدة ومتعدّدة الجوانب، لقد كانت شخصيّته خليطاً من تيّارات وأفكار متناقضة؛ فهو بطل الحرب، ونبيّ السلام في آن، وهو المصلح ومدبّر المؤامرات الدامية، وهو الرحيم بالناس وصاحب فكرة الاستئصال الكلّي لأعدائه، وهو الثوري العنيف، والسياسي والدبلوماسي المهذّب، وهو صاحب الدعاية الفاحشة المشهّرة بالناس، وهو الشيخ الوقور والكاهن الأعظم حامي حمى الأخلاق والتقاليد والعرف الروماني[٢]. إنَّ فهم هذه الشخصية المتناقضة والغريبة والمعقّدة سيسهّل علينا فهم كثير من سياساته الدينيّة وغير الدينيّة.

إنّ ما يهّمنا في هذا البحث هو تأليه الحاكم وعبادة الإمبراطور، فكيف هيّأ الرجل الأمر؟

بعد أن وضع أوكتافيانوس يده على السلطة في الدولة الرومانية، وسيطر على كلّ مفاصلها، أراد أن يجعل مظهر سلطته الدستوريّة شرعيّاً أكثر من ذي قبل، فنزل في سنة ٢٧ ق.م عن جميع مناصبه وأعلن عن عودة الجمهوريّة، وصرّح برغبته (وهو في ٣٥ من عمره) باعتزال

[١]- وعد جمال الدين، الأديان الوثنيّة في سورية، م.س، ص١٢٦.

[٢]- سيّد أحمد على الناصري، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة السياسي والحضاري، ط٢، دار النهضة العربيّة، القاهرة ١٩٩١م، ص٩٢.

الحياة العامّة، وأكبر الظن أنّ هذه المسرحية قد أعدّت من قبل، فقد كان أوكتافيانوس من أولئك الرجال الحذرين الذين يعتقدون أنّ التظاهر بالأمانة هو خير أساليب السياسة، بشرط أن تمارس في حكمة جمّة وحسن تدبير، وقد لقي هذا الزهد المصطنع كلّ تحبيذ من مجلس الشيوخ؛ فزاد تعلّقهم بأوكتافيانوس، وقابلوا تنازله عن حقوقه بنزولهم هم أيضاً عمّا لهم من حقوق، وتوسّل مجلس الشيوخ إليه أن يظلّ هادياً للدولة ومصرّفاً لأمورها، وأحاطوه بهالة من التقدير، لا بل من التقديس؛ حيث منحوه لقب «أغسطسAugustus»، ولم يكن هذا اللفظ يستعمل من قبل إلاّ في وصف الأشياء والأماكن المقدّسة وبعض الأرباب المبدعة أو المكثرة[١]، ومعناه الجليل، المبجّل، المعظّم، المقدّس. وقد لاقى هذا اللقب رواجاً عظيماً حتّى طغى على كلّ أسماء وألقاب أوكتافيانوس الأخرى، كما أنّ هذا اللقب خلع عليه هالة من القداسة وحباه بحماية الدين والآلهة، وزيادة في تكريمه منحه مجلس الشيوخ الروماني حقّ زرع شجرة غار أمام بيته لتكون رمزاً لانتصاراته الأبديّة[٢]. وهكذا تأسّست في عهده ملكيّة الحقّ الإلهي، كما أنّه اتخذ لنفسه لقب قيصر، وابن الإله (أي ابن الإله يوليوس قيصر)، وأمير مجلس الشيوخ[٣]، وبهذا كلّه وضع أوكتافيانوس/ أغسطس أول مدماك في دين عبادة الإمبراطور.

في الواقع كان المجتمع الروماني قبل مجيء أغسطس مجتمعاً محطّماً خلقيّاً واجتماعيّاً، مثله مثل أي مجتمع قد خرج من حرب أهليّة دامية ضروس، فلم يعد يبال أو يمارس الشعائر الدينيّة التي خلّفها له الأوّلون. ورغم أنّ آلهة الرومان القديمة لم تكن قد ماتت تماماً، لكنّ الظروف الجديدة قد ساعدت على مولد آلهة جديدة، ورغم أنّ الديانة القديمة بقيت محلّ احترام وتقدير من جانب الدولة، إلاّ أنّ ذلك بقي على الصعيد الرسمي فقط. وفي ظلّ هذه الظروف المعقّدة ولدت عبادة الدولة في شخص الربّة روماRoma وجوبتير الكابيتولي Juppiter Capitolinus. ولم يكن هذا الاتجاه السياسي الديني جديداً على الشعب الروماني الذين كانت ديانته دائماً وأبداً تعبيراً عن تعصّبه القومي. إذ ظهرت عبادة

[١]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح أو الحضارة الرومانيّة، ج٢، مج٣، ترجمة: محمّد بدران، بيروت ١٩٨٨م، ص١٢.

[٢]- محمّد الزين، محمّد محفل، دراسات في تاريخ الرومان، ج٢، م.س، ص٣٧.

[٣]- وعد جمال الدين، الأديان الوثنيّة في سورية، م.س، ص١٢٧.

الدولة أوّلاً، ما سيمهّد الطريق أمام عبادة حاكم هذه الدولة. ولما كانت الجماهير الرومانيّة تتوق إلى الخلاص والاستقرار، مثلها مثل أي جماهير خرجت من ظروف ومحن صعبة، فإنّ حركات البعث والتجديد تجد في مثل هذه الأحوال المناخ المناسب للنمو والظهور، وسرعان ما سينال أبطالها صفة القداسة. ولما كان الدين من أهم دعائم المجتمع الروماني، فإنّ إصلاحه أصبح أمراً ملحّاً، وإحياء شعائره أضحى واجباً، لاسيّما بعدما ناله على أيدي الفلاسفة الملحدين والمثقّفين التشكيكيين[١].

رغم أنّ أغسطس كان يؤمن بالخرافات، مثله مثل كلّ أبناء الشعب الروماني، إلاّ أنّه من الصعب أن نصفه بالمتديّن، غير أنّ حاسّته السياسيّة أشارت عليه أن يقيم لحكمه أساساً دينيّاً[٢]، لذلك حرص كلّ الحرص على إحياء الدين الروماني، وعندما قام أغسطس بهذه الخطوة وضع المدماك الثاني في دين عبادة الإمبراطور، إذ نال صفة القداسة بعمله هذا، فخصّته بعض المدن الإيطاليّة بمحلّ لائق في هياكلها، منذ سنة ٣٦ ق.م[٣]. ثمّ أولى أمر الآلهة اهتماماً بالغاً، ففي سنة ٢٩ ق.م أغلق معبد جانوس Ianus ليزيح كابوس الحرب عن صدور الناس، وفي السنة التالية ٢٨ ق.م عهد إلى مجلس الشيوخ بحقّ تجديد المعابد، حيث استطاع فيما بعد أن يفاخر بأنّه جدّد اثنين وثمانين معبداً. كما شيّد معابد جديدة من بينها معبد الإله أبوللون، إله الشمس والموسيقا، الذي أشرف على الانتصار النهائي في موقعة أكتيوم البحريّة، وكان شعاراً ممتازاً للعهد الجديد، كما أقام معابد جديدة ليوليوس قيصر، ولجوبتير إله الرعد، وللإله مارس، وللربّة فينوس، وللربّة فستا[٤]. وكان اسم أغسطس قد أضيف إلى أسماء الآلهة في الترانيم الرسميّة التي كانت تنشد في روما منذ سنة ٢٧ ق.م، حتىّ أصبح يوم مولده يوماً مقدّساً لا عيداً فحسب[٥]، وأطلق اسمه على شهر ميلاده، فصار شهر آب/ سكستيليس Sextillis يعرف بشهر أغسطس[٦].

---

[١]- سيّد أحمد على الناصري، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٩٢، ٩٣

[٢]- جفري بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، م.س، ص٧٨.

[٣]- محمّد الزين، محمّد محفل، دراسات في تاريخ الرومان، ج٢، م.س، ص٤٣.

[٤]- جفري بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، م.س، ص٧٨.

[٥]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٢، مج٣، م.س، ص٣٦.

[٦]- محمّد الزين، محمّد محفل، دراسات في تاريخ الرومان، ج٢، م.س، ص٤٣.

رابعاً: دور الشرق في تأليه الإمبراطور

كان للشرق دور كبير في صناعة ديانة عبادة الإمبراطور وإعطائها المقوّمات الفلسفيّة والشعائر والصورة اللاهوتيّة المطلوبة[١]، إذ كان يُنظر إلى أغسطس في الولايات الشرقيّة (المقاطعات الآسيويّة، والمدن الإغريقيّة) على أنّه وريث الملوك الهلنستيين المؤلّهين منذ أيام الإسكندر المقدوني، فتمّ التعبّد له دون اعتراضات على اعتباره تجسيداً للإله[٢]. لقد كان الشرق-على الأقلّ- معبداً موقوفاً لعبادته جنباً إلى جنب مع عبادة الدولة الرومانيّة متمثلة بالربّة روما Roma et Augustus، وصارت العبادة الإمبراطوريّة في الولايات رمزاً لسلطة روما وأغسطس معاً[٣]. ولما زار أغسطس آسيا الصغرى وبلاد اليونان في سنة ٢١-١٩ ق.م، استقبل فيها على أنّه إله حيّ، حيث وجد عبادته قد انتشرت فيها انتشاراً سريعاً، وكانت النذور تقدّم إليه، والخطب ترحّب به بوصفه (المنقذ)، و(ناقل الأنباء السارّة)، و(الإله ابن الإله)؛ أي إنّه الإله المنقذ ابن الإله يوليوس قيصر. وقال بعض الناس إنّه هو المسيح الذي طال انتظاره، أقبل يحمل السلام والسعادة لبني الإنسان. وقد جَعَلت مجالس الولايات الكبرى عبادته المحور الذي تدور عليه احتفالاتها، وعيّنت مجالس الولايات والبلديّات طائفة جديدة من الكهنة يدعون بالأغسطسيين[٤]، وعرفوا أيضاً بكهنة أغسطس Augustales؛ لخدمة الإله الجديد، والقيام بمراسم عبادة الإمبراطور، ومهمّة هؤلاء تدبير الأموال اللازمة للإنفاق على هذه العبادة[٥]. وأبدى أغسطس استياءه من هذا كلّه ظاهراً، ولكنّه كان في قرارة نفسه راضياً كلّ الرضا عمّا يدور في هذه الولايات[٦].

لقد كانت الأمور في الشرق مناسبة، فلم يجد أغسطس حرجاً أن يصبح في مصر الملك المقدّس. وكذلك الأمر في بلاد اليونان؛ حيث كان تكريم الحكّام يتمّ إمّا بصنع تماثيل وإمّا

[١]- سيّد أحمد على الناصري، تاريخ الإمبراطورية الرومانيّة، م.س، ص١٠٢.

[٢]- وعد جمال الدين، الأديان الوثنيّة في سورية، م.س، ص١٢٧.

[٣]- سيّد أحمد على الناصري، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص١٠٢.

[٤]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٢، مج٣، م.س، ص٣٦.

[٥]- رستوفتزف، تاريخ الإمبراطورية الرومانيّة الاجتماعي والاقتصادي، ترجمة زكي علي ومحمّد سليم سالم، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة ١٩٥٧م، ص١٥٤.

[٦]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٢، مج٣، م.س، ص٣٦.

بتأسيس ألعاب على شرفهم وباسمهم أو عبادتهم[١]، إذ كانت تخصّص لهم معابد وكهنة وأضاحي. كما كان في بلاد اليونان جمعيّات مختلفة لشتّى الأغراض تسمّى الكونيا Konia، وقد كُيفت هذه الجمعيّات بحيث تتناسب مع عبادة الحاكم[٢]. ونظّمت عبادة الإمبراطور في سورية في عهد أغسطس، وكان من تقاليد عبادة الإمبراطور في سورية إطلاق صفات الآلهة على الملوك الأحياء أو الأموات، مثل لقب سوتير Soter بمعنى الحامي، وثيوس Theos بمعنى الإله، وثيوس إيبفانيس Epiphanes Theos بمعنى الإله المتجلّي. وكانت عبادة الإمبراطور في سورية موزّعة على ثلاثة مراكز، الأوّل في أنطاكية، والثاني في طرسوس في كيليكيا، والثالث في مدينة صور، وكان لكلّ مركز معبد خاصّ به وكاهن أعلى مهمّته الإشراف على طقوس عبادة الإمبراطور، وكان لمركز أنطاكية سلطة على بقيّة المراكز، وكان كاسندروس Dexandros أوّل كاهن كبير في سورية قد حصل من أغسطس المؤلّه على لقب: «صديق الشعب الروماني». وقد اعتمدت أنطاكية على سلطتها السياسيّة في نشر عبادة الإمبراطور الروماني في الشرق، حيث كانت تماثيل الإمبراطور معروضة في معابد الإله زيوس والإله حدد والربّة أرتميس في مدينة دورا أوروبوس السوريّة على ضفة نهر الفرات. ومن المؤكّد وجود معبد مخصّص لعبادة الإمبراطور في مدينة تدمر في قلب البادية السوريّة، من خلال نقشين عثر عليهما في المدينة، يؤكّدان ذلك[٣]. وسرعان ما انتقلت عبادة الإمبراطور إلى الولايات الرومانيّة في الغرب الأوروبي، حيث أقيم في لوجدونوم Iugdunum (ليون الفرنسيّة حالياً)، وكذلك في كولون (كيلن الألمانيّة) معابد مخصّصة لعبادة الإمبراطور[٤].

خامساً: جهود أغسطس لتهيئة الجو في روما لعبادة الإمبراطور

كان أغسطس حذراً كلّ الحذر في روما، فلم يشأ أن يُرجع الرومان لاقتراف الإثم مرّة أخرى في حقّ الحاكم[٥]، فما لقيه رفع يوليوس قيصر في حياته إلى مصاف الآلهة، وإطلاق

[١]- رمزي النعمات، الطقوس الجنائزيّة الوثنيّة في سورية، م.س، ص٩١.

[٢]- جفري بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، م.س، ص٧٩، ٨٠.

[٣]- رمزي النعمات، الطقوس الجنائزيّة الوثنيّة في سورية، م.س، ص٩١، ٩٢.

[٤]- سيّد أحمد على الناصري، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص١٠٢.

[٥]- جفري بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، م.س، ص٧٩.

لقب «جوبتير يوليوس» عليه من اشمئزاز وكراهية كثير من الرومان له، ماثلاً أمام ناظر عينيه[١]، فتريّث مطوّلاً، ولم يسمح لنفسه أن ينال شرف التأليه فيها، إذ لا بدّ لاسمه أن يقترن باسم روما واللارات Lares، ومن روما أخذ لقب (Divi Fil Ius) أي ابن الإله (والمقصود هنا ابن الإله يوليوس قيصر)، ويوحي هذا بأنّه تشبّه بالإله هرقل Heracles الذي هو ابن إله أيضاً بعد أن ضمّه مجمع الآلهة إليه نظراً لخدماته في سبيل الإنسانيّة[٢].

وبما أنّ روما التي لم تكن تعرف مثل هذه العبادات الهلنستيّة، ولم تألف تأليه الحكام، فجرت العادة أن يصلّي الرومان لأجل عائلاتهم وعائلة أغسطس بصورة مشتركة[٣]. وهكذا وجد أغسطس في الديانة المنزليّة الرومانيّة الركيزة الأهمّ في روما وإيطاليا، والتي اعتمد عليها في وضع مدماك جديد في عبادة الحاكم، فقد ارتبط تقديس الإمبراطور في البيوت الإيطاليّة بعبادة أرباب المنازل وبعبادة ربّ الأسرة الرومانيّة، ولم يكن في هذه العبادة شيء عسير على شعب ظلّ عدّة قرون يؤلّه الموتى من آبائه، ويبني لهم المذابح ويسمّي مقابر أسلافه هياكل[٤]، لكن علينا أن نتذكّر دائماً أنّ التأليه في روما للأموات، وليس للأحياء.

ولما كان أغسطس قد لاحظ نفور سكّان روما من تأليه قيصر لنفسه في حياته، فقد حرص أن يتجنّب تأليه الإمبراطور وهو على قيد الحياة، وألّا يكون التأليه إلّا بالنسبة للأباطرة الذين توفّوا، أمّا بخصوص الإمبراطور الموجود على قيد الحياة، فيكون التقديس لمنصبه وليس لشخصه، وهكذا فإنّ تبجيل وتعظيم وتقديس إمبراطور ما، لا يكون ذلك من أجله، إنّما يبجّل ويعظّم ويقدّس الرومان في شخصه روما والمنصب الإمبراطوري فيها. إنّ التقديس هو لعبقريّة الإمبراطور وللقوى الإلهيّة الساهرة على حياته وعلى أسرته، وتستحقّ هذه القوى الإلهيّة الساهرة على حياة الإمبراطور أن تعبد؛ وذلك لأنّ الإمبراطور هو الذي يُقرّ السلام والحرب في الإمبراطوريّة، ولأنّه مؤسّس وراعي مدنها، ولأنّه يعتبر أباً للوطن، وهو مسبّب وضامن سعادة المواطنين[٥].

[١]- نور الدين حاطوم، وأحمد طربين، صلاح مدني، نبيه عاقل، موجز تاريخ الحضارة، ج١: حضارات العصور القديمة، مطبعة الكمال، دمشق ١٩٦٥م، ص٥٧٨.

[٢]- جفري بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، م.س، ص٧٩، ٨٠.

[٣]- محمّد الزين، محمّد محفل، دراسات في تاريخ الرومان، ج٢، م.س، ص٤٣.

[٤]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٢، مج٣، م.س، ص٣٦.

[٥]- نور الدين حاطوم وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، م.س، ص٥٧٩.

وإمعاناً في الدعاية الدينيّة لنفسه وترويجاً لنظامه السياسي الجديد، اعتمد أغسطس على إقامة الاحتفالات الدينيّة والشعبيّة، حيث احتفل بأبهة وإجلال طوال ثلاثة أيام وثلاث ليال، سنة ١٧ ق.م، بالأعياد القرنيّة أو المئويّة Ludi Saeclares التي كانت تحيي ذكرى تأسيس روما، وذلك باستمطار البركات السماويّة على المدينة الخالدة وعلى سكّانها[١]، تلتها سبعة أيام أخرى حافلة بحفلات المسارح والملاعب، وقد نظم الشاعر هوراس قصيدة/ ترنيمة رائعة بهذه المناسبة عرفت باسم Carmen Saeculare، واستغلّ أغسطس هذه المناسبات لتكريم الثالوث الإلهي الإغريقي (أبوللون، فينوس، مارس) في هياكلهم على تلّة البلاتين، حيث كان يعتقد أنّه مدين للإله أبوللون بانتصاره في معركة أكتيوم، ولمّا كان ابناً لقيصر بالتبنّي فقد كرّم الربّة فينوس بوصفها الإله الأمّ لأسرة يوليوس قيصر، كما أنّه كرم الثالوث الإلهي الآخر على تلّة الكابيتول والمؤلّف من (جوبتير، يونو، منيرفا)[٢]. ولم يأل أغسطس جهداً في كسب عشّاق التيّارات الدينيّة الجديدة، وعبادة الآلهة الوافدة من الشرق، أو المجسّمة لأحلام الناس، فأقام العديد من المعابد والمحاريب لربّات الخير والبركة مثل فورتونا الحظ، وباكس Pax ربّة السلام، ومركوريس ربّ الخير الوفير[٣].

كما اتخذ أغسطس خطوات عمليّة أكثر عندما تسلّل إلى الجهاز الكهنوتي الروماني القديم بعد أن جعل نفسه عضواً في قائمة الخمسة عشر كاهناً، وكان رجلاً صبوراً، إذ رفض أن ينتزع منصب الحبر الأعظم Pontifex Maximus من ليبدوس Lepidus زميله في الحكومة الثلاثيّة السابقة مع أنطونيوس، فقد آثر أن ينتظر حلول أجله حتّى يكرس نفسه في هذه الوظيفة السامية وفقاً للقوانين المرعيّة سنة ١٢ ق.م، وهكذا تربّع أغسطس على أعلى الكراسي الكهنوتيّة في الدين الروماني دون أن يمسّ الشرعيّة بشيء[٤]، مع ضرورة التذكير بمهمّة الحبر الأعظم بإقامة الألعاب والاحتفالات الدينية وما يرافقها من موسيقا وشعر أيام العطل، وتوزيع قمح على سكّان العاصمة، ومن خلال عمليّة توزيع القمح تمّ ربط شخص

[١]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام، ج٢، روما وإمبراطوريّتها، ترجمة فريد داغر وفؤاد أبو ريحان، ط٢، منشورات عويدات، باريس-بيروت ١٩٨٦م، ص٤٠٢.

[٢]- محمّد الزين، محمّد محفل، دراسات في تاريخ الرومان، ج٢، م.س، ص٤٢، ٤٣.

[٣]- سيّد أحمد على الناصري، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٩٧- ٩٩.

[٤]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، ج٢، م.س، ص٤٠٢.

الإمبراطور بالإله نيميس Nemesis، وبالتالي بدأت تنسج الخيوط بين عبادة الإمبراطور وعبادة هذا الإله[١].

كما عمل أغسطس على نشر عبادة الإله يوليوس Divus Julius (أي يوليوس قيصر) في معظم الولايات الرومانيّة تمهيداً لعبادته، وذلك بأن جمع كلّ الاتجاهات الدينيّة والعقلانيّة في عبادة الإله يوليوس قيصر، وغذّاها بالروايات والأساطير حتّى نمت وترعرعت مستغلاً العواطف والأماني الوطنيّة للشعب الروماني، عندما ذكّرهم بأنّ إنياس جدّ الرومان لم يكن سوى ابن ربّة الجمال فينوس، التي ينحدر منها أبوه يوليوس قيصر، والذي أشيع أنّه ظهر في شكل نجم في سماء الكون. كما أنّ أغسطس شيّد لقيصر معبداً AedesDivi Iulli في ساحة المدينةForum تماماً كما فعل لجدّته الكبرى فينوس. ولم ينس أن يبني محراباً للإله مارس المنتقم Mars Ultor في ساحة أغسطس أيضاً Forum Augusti؛ لأنّ هذا الإله هو الذي انتقم لمقتل يوليوس قيصر واقتصّ ممّن تلطّخت أيديهم بدمائه[٢].

إنّ اهتمام أغسطس بعبادة يوليوس قيصر ينمّ عن دهاء عال، إذ كان يعلم أغسطس علم اليقين بأنّ الإله يوليوس قيصر سوف يتحوّل إلى الإله أغسطس بعد موته، ولهذا الغرض بنى أغسطس لنفسه قبراً جميلاً في شكل ضريح جميل Mausoleum في قلب ساحة الإله مارس[٣]. وهكذا كانت عبادة قيصر من الركائز المهمّة التي اعتمد عليها أغسطس في إشاعة عبادة الحاكم في روما[٤]. كما قام بترميم المعابد والأماكن المقدّسة، بما فيها المعابد الكبرى، مثل معبد جوبتير الكابيتولي، وهو مركز عبادة الدولة الرسميّة، ومعبد الربّ كويرينوس وهو رومولوس بعد تأليهه، ومعبد الأمّ الكبرى[٥]، وبعد أن رمّم المعابد وأعاد إليها رونقها وأضفى على المزارات الدينيّة والأساطير التي تمثّلها أو ترمز إليها بهاء لم تعهده منذ عهد بعيد، ملأ الوظائف الكهنوتيّة الشاغرة[٦]؛ فبعد أن ظلّت وظيفة كاهن الإله مارس

[١]- رمزي النعمات، الطقوس الجنائزيّة الوثنيّة في سورية، م.س، ص٩١.

[٢]- سيّد أحمد على الناصري، تاريخ الإمبراطورية الرومانيّة، م.س، ص١٠١.

[٣]- سيّد أحمد على الناصري، تاريخ الإمبراطورية الرومانيّة، م.س، ص١٠١.

[٤]- محمّد الزين، محمّد محفل، دراسات في تاريخ الرومان، ج٢، م.س، ص٤٣.

[٥]- سيّد أحمد على الناصري، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٩٧.

[٦]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، ج٢، م.س، ص٤٠١.

شاغرة لأكثر من نصف قرن مُلئت مرّة أخرى، وقام الكهنة بتقديم القرابين، وانتعشت المعابد وتجدّدت الطقوس الدينيّة[١]. وهكذا دفع أغسطس التيّارات الدينيّة من قصره لتتفرّغ إلى أجهزة الدولة كافّة، تمتزج بتفكير الناس، أو بعبارة أخرى كان على كلّ الجماعات والقنوات الدينيّة المتفرّعة أن تصبّ في مصبّ واحد ألا وهو أغسطس، وهذا يذكّرنا بمقرّ الملك في كريت الذي كان معبد الدولة وبيت الملك في الوقت نفسه، أو بمركز الفرعون المصري، وملوك بابل وآشور[٢].

والأهمّ من هذا وذلك أنّ هناك مجموعة من الوثائق الدينيّة التي تعود لقائمة الكهنة الخمسة عشر، ونقش على نصب تذكاري، وقرارين من قرارات مجلس الشيوخ، وترنيمة هوراس سالفة الذكر، والتي يستشفّ منها جميعاً أثر سيطرة الموت والحياة الجديدة، والتطهّر والتجديد، والدين والخصب، والأخلاق. وهكذا استطاع الترويج لنفسه دينيّاً باحتراف شديد، حتّى أن شعراء عصره رغم أبيقوريّتهم قد ضلعوا في الترويج له، فهوراس رغم تكوينه الأبيقوري، إلاّ أنّنا نجده يطالب بتجديد المعابد ويكتب الترانيم له، وفرجيل ركّز على تاريخ المدينة الخالدة وأخذ يدوّن أسطورتها الأهمّ «ملحمة الإنياذة» في سياق التجربة الدينيّة. أمّا أوفيد اهتمّ بالتقويم الديني[٣].

كما حاول أغسطس أن يلصق اسمه بعد كلّ هذا بالربّات، فنسمع عن عبادة الربّة فورتونا أوغسطسا Fortuna Augusta، وباكس أوغسطسا، ومركوريوس أغسطس، وغير ذلك، محاولاً إقناع الرومان بطريقة غير مباشرة بأنّ اسم أغسطس كلمة مباركة ومقدّسة بديلاً للخير والرفاهية. ويكاد الدارس أن يجد وجهاً كبيراً للشبه بين أغسطس وبين الربّة روما، لقد كانت روما ربّة قديمة تتميّز بشراستها وحبّها للقتال، ولكنّها في العهد الجديد ارتدت رداء السلام، وأصبحت ربّة الرخاء تعمل من أجل البشر جميعاً، وبالتالي انتقاها أغسطس وألصق اسمه بها، وأصبحت تعرف باسم روما أغسطساRomaAugusta ، وكذلك فستا Vesta ربّة الموقد، وقد انتقلت من معبدها القديم في قلب المدينة إلى قصر أوغسطس فوق تل البلاتين، كما

[١]- جفري بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، م.س، ص٧٨.

[٢]- سيّد أحمد على الناصري، تاريخ الإمبراطورية الرومانيّة، م.س، ص٩٧.

[٣]- جفري بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، م.س، ص٧٨.

تجمّعت اللاريس حول أغسطس الذي أصبح تجسيداً للشعب الروماني، والذي صوّرته التيّارات الجديدة في شكل ربّ اسمه Populus Romanus أي الشعب الروماني[١]. وبعد هذا الحجم الهائل في الحشد النفسي للشعب الروماني على مختلف الأصعدة، أصدر مجلس الشيوخ الروماني قراره في ١٧ أيلول ١٤م، بتأليه أغسطس كصورة تجسيديّة للإله على الأرض ولقبه بالمخلّص[٢]، وهكذا صار حفيد المرابي إلهًا[٣].

سادساً: عبادة الإمبراطور وعقيدة المخلّص

إنّ صورة المخلّص التي اقترنت بأغسطس لم تكن صورة «نبي» محضة، وإنّما صورة اختلط فيها الشعر بالنبوّة، على اعتبار مقولة أنّ الشعر «وحي إلهي»، وما دعم ذلك الطرح هو القصيدة التي كتبها أغسطس نفسه، والتي تحمل عنوان الأنشودة العالميّة، والتي لا تطالعنا إلّا ويهبّ من سطورها شذى «العصمة» الأخلاقيّة، فاليراع الذي قد سطّرها إنّما قد سطّرها كتسبيحة يطالب فيها مراعاة الشرف والفضيلة وينادي بالحبّ وبالسلام. ولعلّ هوراس كان متحمّساً لألوهيّة أغسطس، فيحدثنا عنه كبانٍ لمحراب السلام Ara Pacis، وبالتالي ليس هو، بنظره، إلّا صورة تجسيديّة للإله على الأرض[٤]. كما عثر علماء الآثار على بقايا أماكن معزولة أغلب الظن أنّها استخدمت لممارسة الشعائر الصوفيّة الغامضة والسرّية. وهناك من يقارن بين هذا التيّار الصوفي الانتظاري الذي ساد في روما خلال هذه الحقبة من الزمن، وبين الموجة الدينيّة التي أحدثها التراث اليهودي حول أنبياء بني إسرائيل ابتداء من حزقيال وأشعيا إلى يوحنّا المعمدان (النبي يحيى عليه السلام) إذ نودي في الناس أنّ المسيح المنتظر سوف يجيء ويضع نهاية لهذا الظلم والجور، ويبدأ على يديه عهد جديد مبارك يتحقّق فيه للناس المسرّة وللأرض السلام، وربما جاءت هذه الدعوة من الشرق القديم وسادت في روما، ومن هنا سيتمّ ربط عقيدة المخلّص بعبادة الإمبراطور بصورة متينة[٥].

---

[١]- سيّد أحمد على الناصري، تاريخ الإمبراطورية الرومانيّة، م.س، ص٩٧- ٩٩.

[٢]- إبكار السقّاف، الدين عند الرومان والإغريق والمسيحيين، ط١، مؤسّسة الانتشار العربي، بيروت ٢٠٠٤م، ص٢٧٤.

[٣]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٢، مج٣، م.س، ص٣٦.

[٤]- إبكار السقاف، الدين عند الرومان، م.س، ص٢٧٤.

[٥]- سيّد أحمد على الناصري، تاريخ الإمبراطورية الرومانيّة، م.س، ص٩٥.

لكن منذ أن توفيّ أغسطس شاعت عبادته، ولم يعد «رسولاً» وإنّما إلهاً، حيث أصدر مجلس الشيوخ قراراً بأنّ تعبده روما منذ ذلك الوقت، وأن تعدّه من الآلهة الرسميين لها، وصار من الممكن أن تجد في كلّ عائلة رومانيّة من يعبده، حيث سمّي أب أرض الأجداد Father of the Fatherland، وحامي دين الأجداد، وأب موطن الآباء، وكثرت ألقابه، لذلك كرّست له المعابد والكهنة، كان إلهاً لروما وسائر المدن الكبرى في الولايات الرومانيّة[1]، وصار القسَم برأسه من أكثر أنواع القسَم تديّناً، كما كرّست صورته للعبادة حتّى على النقود[2].

يرى ديورانت أنّ ذلك كلّه كان أمراً طبيعيّاً ومقبولاً ولا غبار عليه عند الأقدمين، لأنّه لم يدر بخلدهم قطّ أنّ ثمّة ثغرة تفصل على الدوام بين الآلهة والبشر، فما أكثر ما كانت الآلهة تتّخذ لنفسها أشكالا آدميّة، وما أكثر البشر الذين ألّهوا من أمثال هرقل والإسكندر وقيصر، فهل أوغسطس أقلّ منهم؟ ويرى ديورانت أنّ الأقدمين لم يكونوا، وهم يفعلون هذا، من الغفلة والبلاهة بالدرجة التي يرميهم بها من يفعلون فعلهم في هذه الأيام، فلقد كانوا على علم تامّ بأنّ أغسطس بشر، فإذا ألّهوا روحه أو روح غيره، فإنّهم لم يكونوا يستعملون لفظ إله deus, theos إلّا بالمعنى الذي نستعمل نحن فيه لفظ قدّيس في هذه الأيام. والحقّ أنّ تقديس الموتى وليد التأليه الروماني، وأنّ الصلاة للبشر المؤلّه لم تكن تبدو لهم في ذلك الوقت أكثر سخفاً ممّا تبدو الصلاة للقدّيس في هذه الأيام[3].

طبعاً مع احترامنا لوجهة نظر ديورانت إلّا أنّ الواقع كان مختلفاً عمّا تفضّل به، لقد قذفت أمواج الحروب الأهليّة العاتية بشخصيّات شهيرة إلى مراكز السلطة، ورفعت رياح التمرّد بعضها إلى قمّة الحكم، فظهرت عبادة الفرد Cult of Personality نتيجة لتعلّق أماني المواطنين واعتماد وجودها على أحد من هذه الشخصيّات الكبرى أو الجنرالات الأشدّاء الذين أحاطتهم بسياج من الحبّ والأمل، وكانت على استعداد أن تموت من أجلهم لعلّهم يخلّصون البلاد من حالة الفوضى ويتحقّق على أيديهم السلام والرخاء. فقد برز في ساحات روما أسماء حفظها التاريخ مثل سولا وقيصر وأنطونيوس وأوكتافيوس، وسرعان ما ربطت

[1]- Gradel I., Op. Cit., 2002, p.110.

[٢]- وعد جمال الدين، الأديان الوثنيّة في سورية، م.س، ص١٩٢.

[٣]- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج٢، مج٣، م.س، ص٣٦.

الجماهير بين هؤلاء القادة كأبطال للحقّ ورسل للسلام والرخاء، وبين رسالة الآلهة وأبطال الأساطير القديمة من أمثال هرقل ومركوريوس وأبوللون، وأصبحت الجماهير تؤمن بأنّ هؤلاء القادة والجنرالات يحملون على عواتقهم رسالة الآلهة، بل يقومون بدورها عندما هبطت إلى الأرض، وللمرّة الأولى والأخيرة، سرعان ما مزجوا بين فكرة المخلّص المختار وبين هؤلاء القادة، بل إنّ الناس كانوا على استعداد لعبادتهم إذا ما حقّقوا السلام والرخاء. وهكذا بلغت التيّارات الدينيّة الفلسفيّة أقصى رواج لها في أعقاب الحرب الأهليّة الرومانيّة[١]، وفي عهد السلام الأغسطسي دخلت في نطاق التفكير الديني الروماني عقائد جديدة، محورها ربّ يموت وبعد الموت يبعث وبعد أن يبعث يصعد جسداً إلى السماء، أي اكتمال تبلور عقيدة المخلّص، وإن من يصعد إلى السماء لا شك أنّه كان صورة تجسيديّة للإله على الأرض، حلّ على الأرض ليخلّص الإنسان من العذاب، ومن ثمّ فهو المخلّص[٢].

ومن يبحث عن دليل قاطع على تأييد أغسطس لعقيدة أنّه «المخلّص» و«المنقذ»، لا بالمعنى السياسي فحسب، بل بالمعنى الديني كذلك، يجد دليله المنشود في اهتمام أغسطس وعنايته بالإله أبوللون Apollo، والذي عرف عند اليونان والرومان على السواء بأنّه الربّ المنقذ، ولهذا السبب اهتمّ به أغسطس وبعبادته، وخصّص له مساحة كبيرة بجوار قصره المسمّى باسم بيت ليفيا Casa Liviae فوق تلّ البلاتين؛ لكي تقام له الألعاب الدينيّة المعروفة باسم Epiphanes Apollo، كما أشيع أنّ أبوللون هو الجدّ الأكبر لعائلة يوليوس قيصر التي ينتسب إليها أغسطس Gens Julia. بل أكثر من هذا، حيث حيكت الأقاصيص المصطنعة عن أبوللون، الذي تسلّل ليلاً في صورة ثعبان كبير إلى فراش آتيا (والدة أغسطس) وضاجعها فحملت وأنجبت وليدها العظيم[٣]. وهكذا يكون أغسطس قد نسج أسطورة شبيهة نوعاً ما بأسطورة الإسكندر المقدوني، فكما ادّعى أغسطس أنّه من نسل أبوللون، كان الإسكندر قبله ادّعى أنّه من نسل زيوس[٤]. ولم يكفّ أغسطس عن التسبيح بحمد

[١]- سيّد أحمد على الناصري، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٩٦.

[٢]- إبكار السقّاف، الدين عند الرومان، م.س، ص٢٧٢.

[٣]- سيّد أحمد على الناصري، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص١٠٠.

[٤]- خليل سارة، تاريخ الوطن العربي القديم في العصور الكلاسيكيّة، منشورات جامعة دمشق ٢٠٠٩م، ص٤٠، ٤١.

أبوللون طوال حياته، والثناء عليه، لأنّه آزره ونصره على أعدائه، لاسيّما يوم أكتيوم، فبعد انتهاء الحرب نجده يقيم بجوار معبده، ويعمل معه على إصلاح المجتمع الروماني[١]. ولم يتوقّف تقديس الإله أبوللون عند أغسطس بل سيمتدّ تقديسه إلى من جاء بعده من أباطرة الرومان، حيث سنقرأ عن ترنيمة أُنشدت للإمبراطور تيتوس Titus وزيوس وآلهة روما تنتهي بعبارة «نعماك يا أبوللون، نعماكَ يا تيتوس مخلّصنا»[٢].

في الواقع لم يترك أغسطس تيّاراً دينيّاً واحداً إلاّ وجنّده لتدعيم مركزه وفرض سطوته المقدّسة على المجتمع الروماني، بما فيها فكرة «الهادي المنتظر» أو «المسيح المخلّص»، التي بشّر بها بنو إسرائيل، والتي كانت سائدة في ذاك العصر، ليس في روما فحسب بل في الشرق القديم كلّه، فنشر من يبثّ بين الناس بأنّه هو هذا «الهادي المنتظر»، وأنّ «المسيح المخلّص» قد جاء فعلاً، وهو موجود في قصره فوق تلّ البلاتين، وأنّه بدأ عصراً جديداً. ومن يقرأ مناجاة الشاعر هوراس للربّ مركوريوس يكاد يحسّ بأنّ الشاعر يناجي أغسطس في شخص هذا الربّ. صحيح أنّنا لا نجد شاعراً واحداً يتحدّث علانية عن تقمّص أغسطس لشخص «المسيح المنتظر»، ولكنّهم تحدّثوا عن «المخلّص» الذي حرّر روما من أغلالها وضمّد جراحها ثمّ قادها بعيداً عن الهاوية، تحدّثوا عن مبعوث الآلهة الذي جاء بالهدى والسلام والرخاء والوئام، تحدّثوا عن ذلك وهم يلمّحون إلى أغسطس، وكلّ لبيب بالإشارة يفهم[٣].

وهكذا تمّ الاعتقاد بأنّ أغسطس هو ذلك «المسيح المخلّص»، حتّى رسخت الفكرة أنّ أغسطس صورة إله في الموروث الثقافي الروماني، وأنّ مكانه الطبيعي في السماء لا على الأرض، وكذلك استحوذت على التفكير الروماني هذه الأفكار حتّى قام شاهد بعد شاهد يشهد أنّه رأى رأي العين المخلّص أغسطس الذي قد مات يُرفع جسداً حيّاً إلى السماء. وأمام موجة الشكّ بهذا الادّعاء ظهرت موجة من القاسمين (وعلى رأسهم نوميروس أتيكس) الذين أقسموا أنّهم رؤوا بأمّ عينهم المخلّص أغسطس يرتفع بعد موته جسداً حيّاً

[١]- سيّد أحمد على الناصري، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص١٠٠.

[٢]- جفري بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، م.س، ص٧٩.

[٣]- سيّد أحمد على الناصري، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٩٩.

إلى السماء، وقد صدّق أبناء العصر الإمبراطوري الروماني هذا القسم، كما آمنوا من قبل بألوهيّة قيصر بعد مقتله، ومناداتهم له (ربّنا قيصر)[١]. في الواقع يوجد عند جميع الناس -بما فيهم كبار الشخصيّات السياسيّة التي تتعلّق بالمنطق والعقلانيّة- مكان في قلوبهم للروحانيّة والغيبيّات الدينيّة بما في ذلك السحر والتنجيم، ويتمثّل ذلك واضحاً في تعاليم الفيلسوف بوسيدونيوس poseidonius وأتباع المدرسة الرواقيّة المتأخّرة، إذ لعب السحر والتنجيم والفلك دوراً مهمّاً، وامتزجا معاً كالروح والجسد، على الرغم من أنّ الأوّل كان غيباً والآخر عقلانيّاً[٢]. فشخص مثل أوفيد عكف على تخليد قصّة تأليه يوليوس قيصر، وما تلاها من تأليه أغسطس في ديوانه مسخ الكائنات، مشيراً إلى أنّ قيصر المؤلّه بعد موته-وهو في السماء- كان يتابع أعمال أغسطس، ابنه (بالتبنّي)، وقد سلّم بتفوّق أغسطس عليه، موازناً بينه وبين الإله ساتورنوس الذي سلّم بتفوّق ابنه الإله جوبتير عليه أيضاً[٣].

لقد استطاع أغسطس أن يقنع الناس بأنّه مؤلّه وبأنّه «المخلّص» و«المنقذ» و«الطاهر»، ولمّا انتقل إلى عالم الخلود لم يجزع مواطنوه بل قالوا إنّه ربّ جاء إليهم بالهدى، وبلّغ رسالته، وأدّى الأمانة ثمّ عاد من حيث أتى إلى عالم الآلهة والخلود. وسرعان ما تبلورت عبادته كهنوتاً، وخرج المبشّرون بها إلى أنحاء الإمبراطوريّة كافّة كما يشهد بذلك الأدب والفن الروماني[٤]. وهكذا صادق العصر الإمبراطوري على تأليه أغسطس وأقيمت له في جميع أرجاء الإمبراطوريّة معابد، فيها يشهد الناس بشخصيّة تجسيديّة رفعت جسداً إلى السماء[٥]. ونسجوا بينه وبين أبوللون، حيث ساد الاعتقاد بأنّ أبوللون قد ظهر في جسد أغسطس، وبأنّ الإمبراطور ما هو إلّا أبوللون في صورة البشر. وسرعان ما تلقّف عشّاق المذاهب الصوفيّة الغامضة هذه الفكرة وهلّلوا لها، بل صاغوها في الشكل الكهنوتي الذي يريدون، وكان الإغريق أكثر المهلّلين لهذه الفكرة؛ لأنّهم كانوا صنّاع الآلهة والعبادات،

---

[١]- إبكار السقّاف، الدين عند الرومان، م.س، ص٢٧٤.

[٢]- سيّد أحمد على الناصري، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص٩٥.

[٣]- أوفيد، مسخ الكائنات (ميتامورفوزس): ١٥: ٤٧٠. ٨٦٠. تعريب وتقديم: ثروت عكاشة، مراجعة: مجدي وهبة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة ١٩٨٤م.

[٤]- سيّد أحمد على الناصري، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص١٠٢.

[٥]- إبكار السقّاف، الدين عند الرومان، م.س، ص٢٧٤.

ولاسيّما في العصر الهلنستي. ولما كان أبوللون في الأصل إلهاً إغريقيّاً قبل أن يكون رومانيّاً، فقد اعتبر الإغريق ذلك انتصاراً للهيلينيّة، أي إنّ ثقافتهم نجحت فيما فشلت جيوشهم في تحقيقه، وهو الانتصار على الرومان[١].

سابعاً: واقع عبادة الإمبراطور

لقد صارت عبادة الإمبراطور واقعة لا مفرّ منها في الدين والمجتمع الروماني، حتّى أنّ مركز الحاكم ومكانته وسلطته أدّت إلى أنّه صار يحاط أثناء الاحتفالات العامّة والمواكب الرسميّة بحشد من دلائل التكريم والتعظيم، لم تكن تختلف في الكثير عن العبادة الفعليّة، وقد أصبحت عقيدة عبادة الأباطرة الراحلين والطقوس التي تقام أمام روح الإمبراطور الذي ما زال على قيد الحياة تهيئ لديانة من نوع خاصّ يسمح للجميع بأن يشتركوا في طقوسها، وأن يعبرّوا بها جميعاً -بغض النظر عن الجنس أو الوطن أو اللغة - عن حبّهم العميق وولائهم لرأس الإمبراطوريّة. وهذا ما يفسّر العادة التي لوحظت كثيراً في التكريس باسم الإله المحلّي مقروناً باسم الإمبراطور، فقد كان الإمبراطور القاسم المشترك الأعظم لأضعاف مضاعفة من الآلهة والأرواح، كما كانت عبادة الأباطرة أحد العوامل الرئيسة التي توحّد ولاء الجنود تجاه الإمبراطور المتربّع على رأس الدولة. وقد كرّست مختلف التقدمات في المناسبات الرسميّة الإمبراطوريّة، سواء من قبل العوام أو الجنود كسكب الخمور وإحراق البخور وتقديم الحلوى وذبح الأضاحي أو تلاوة للصلوات والابتهالات، كما ورد في برديّة فيرال دورونوم في عدّة مناسبات[٢].

في الواقع لم تكن طقوس العبادة التي كانت تخصّ الإمبراطور الروماني بعد موته تختلف كثيراً عن طقوس عبادة الآلهة الأخرى، فقط أن عبادة الإمبراطور كانت منظّمة بشكل أدقّ ولاسيّما في المقاطعات الرومانيّة، ففي قرطاجة (عاصمة ولاية إفريقيا الرومانيّة) على سبيل المثال كان يجتمع مجلس المقاطعة؛ وهو الهيئة المسؤولة عن المقاطعة بكاملها برئاسة الكاهن الأعلى للمقاطعة Sacerdos Provinciae، الذي يُنتخب من بين أبرز الرجال لمدّة عام كامل، وكان عليه الاهتمام بكل الأمور المتعلّقة بعبادة الإمبراطور. كان يوجد إلى

[١]- سيّد أحمد على الناصري، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة، م.س، ص١٠٠.

[٢]- وعد جمال الدين، الأديان الوثنيّة في سورية، م.س، ص١٢٧.

جانب مجلس المقاطعة كهنة مدن Flamines الذين كان عليهم العناية بعبادة الإمبراطور في المدن[١]. في الواقع لقد حصلت هذه العبادة على أهمّية خاصّة في أطراف الإمبراطوريّة، كما في بريطانيا حيث ظهرت منذ البداية عبادة كلوديوس Claudius، وفي آسيا حيث تنازعت المدن على أحقّيتها في لقب راعية المعبد Neo Koros في العبادة الرسميّة للمقاطعة[٢].

أمّا عن فلسفة هذه العبادة فهي أنّه تبعاً للنظام الإمبراطوري الجديد، صار الإمبراطور رجلاً فوق القانون، وحاكماً مطلقاً، وبما أنّه فوق القانون فكيف يحاكم القانون من هو فوقه؟، لذلك كان الإمبراطور لا يحاكم ما دام حيّاً، ولكن متى ما طوته في راحتها راحة الزمن، فسرعان ما ينعقد مجلس الشيوخ ليبحث فيما قد أتاه هذا الإمبراطور في حياته من أعمال، وباسم الشعب يحاكمه، فإذا حكم عليه بالإدانة تبطل جميع أعماله وتحطّم تماثيله، ويمحى من حيثما حفر له اسم، أمّا إذا حكم له، وهذا ما يحدث غالباً، فإنّ مجلس الشيوخ يقرّ أعماله، ويصدر قراراً بأنّ الإمبراطور قد أتى من الأعمال ما بسببها ارتقى إلى مصاف الأرباب[٣].

ولما كان أغسطس أوّل الأباطرة المؤلّهين، بناءً على قرار مجلس الشيوخ، فلم يجد خلفه تيبيروس Tibrius صعوبة في تشييد معبد لأوغسطس الإله عند سفح تلّ البلاتين في روما، كما أوعز للولايات في سنة ١٥م بتشييد المعابد لأوغسطس الإله. وهكذا توطّدت عقيدة عبادة الأباطرة وانتشرت بسرعة، بدليل أنّه سنح لسكّان ولاية آسيا أن يشيّدوا منذ سنة ٢٣م-أي قبل وفاة تيبيروس بأربع عشرة سنة- معبداً لتيبيروس نفسه في مدينة أزمير، كما عبد معه كلّ من أمه، وكانت لا تزال على قيد الحياة، ومجلس الشيوخ. وبعد موت كلوديوس رُفع إلى مصاف الآلهة، وكذلك حدث مع نيرون Nero (٥٤- ٦٨م). وكان يشرف على طقوس هذه العبادة الجديدة في المعابد، التي أقيمت لها وحملت أسماء الأباطرة المؤلّهين، فئة من الكهنة كانوا ينتقون من بين أفراد أسر الأباطرة، أو من بين أهمّ الأسر الأرستقراطيّة الرومانيّة[٤].

---

[١]- فينفريد إلليغر، قرطاجة مدينة البونيين والرومان والمسيحيين، ط١، ترجمة: عبد مرعي، روافد للثقافة، دمشق ٢٠٠٨م ، ص١٧٧.

[٢]- جفري بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، م.س، ص٨٠.

[٣]- إبكار السقّاف، الدين عند الرومان، م.س، ص٢٧٢.

[٤]- نور الدين حاطوم وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، م.س، ص٥٨٠.

ثامناً: عبادة الإمبراطور وعقيدة العودة

مع موت نيرون ظهرت عقيدة الرجعة، فبعد أن مات هذا الإمبراطور راحت الشفاه تتحدّث أنّه صعد إلى السماء، ثمّ استرسلت الأحاديث مؤكّدة أنّه قبل أن يزول هذا الجيل، جيل العالم الروماني-الهلّيني، سيرُى نيرون عائداً هابطاً إلى الأرض من السماء. وهكذا نشأت عقيدة العودة؛ لأنّ الزمن المحدّد لهبوط نيرون إنّما هو جيل واحد، والجيل الواحد لا يتجاوز الثلاثين سنة، وهو الزمن المخصّص لهذه العودة، ولم يلتفت هؤلاء إلى انتهاء هذا الأجل، فلم يهبط نيرون من السماء إلى الأرض، ورغم ذلك استمرّ الإيمان بعقيدة العودة، فإن كان العهد الأغسطسي عهد «المخلّص»، و«بعثه جسداً حيّاً إلى السماء»، فإنّ الإيمان بعودة المخلّص إلى الأرض إنّما هي نتيجة حتميّة لمنطق العصر الإمبراطوري الروماني، فالدين الروماني في هذا العهد، عهد المولد اليسوعي، كان يتّخذ هذه الصورة الجديدة ملوّنة بهذه العقائد أو المعتقدات[١].

تاسعاً: الدور السياسي لعبادة الإمبراطور

لقد كانت عبادة الإمبراطور بالطبع ديناً سياسيّاً؛ فلم يكن في استطاعة آلهة الأولمب أن يقيموا إمبراطوريّة موحّدة، بمعنى إمبراطوريّة مقدّسة قوّية، لذلك سدّ الأباطرة الرومان هذه الثغرة ثيوقراطيّة الدولة، حيث أصبح الإمبراطور في روما إلهاً لأنّه إمبراطور، وهو مركز العبادة على نحو ما كان عليه إنياس Aeneas مركز الإنياذة بوصفه رمزاً لروما[٢]. في الواقع لم تكن السياسة والدين في الحضارات القديمة، ومنها الرومانيّة بوجه خاصّ، أمرين منفصلين عن بعضهما، فكما شعر أيّ إنسان في أيّ مقاطعة رومانيّة بأنّه عضو في الإمبراطورية الرومانيّة، كان يشعر أنّه مواطن في مدينته. وحسب النموذج الروماني، كان في كلّ مدينة من مدن الإمبراطوريّة الرومانيّة معبد أو عدّة معابد للثلاثي الإلهي الروماني: جوبتير، يونو، منيرفا، ويمكن أن يضاف إلى ذلك معبد آخر أيضاً مخصّص لإلهة المدينة روما ولأوغسطس، أو للبيت الإمبراطوري، اليولي – الكلاودي[٣]. وهكذا كان الدين ممزوجاً بالسياسة، وهذا أمر

[١]- إبكار السقّاف، الدين عند الرومان، م.س، ص٢٧٤.

[٢]- جفري بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، م.س، ص٨٠.

[٣]- فينفريد إلليغر، قرطاجة، م.س، ص١٧٧.

طبيعي ومنطقي وربمّا ضروري في أحيان كثيرة، لكن ما لم يكن منطقيّاً هو حجم الانهيار في الدين والسياسة الرومانيّة في صالح عبادة الفرد الحاكم.

لقد اعتاد الإمبراطور تيبيروس كلّما خرج من مجلس الشيوخ أن يقول: «هؤلاء الرجال كم هم مستعدّون أن يكونوا عبيداً»[١]، أولم يقرّع تيبريوس أحد رجال حاشيته المنافقين عندما تحدّث عن «واجبات الإمبراطور المقدّسة»، إذ عنّف الإمبراطور ذلك «المجتهد» وكان توبيخه لنفاقه الذي يشير إلى ألوهيّة المستقبل لا ألوهيّة الحاضر[٢]. إنّ من يدرس الأخلاق والسياسة عند الرومان سيدرك حجم الانهيار الذي وصل له الدين والمجتمع الروماني، فأعضاء مجلس الشيوخ الروماني بدل أن يكونوا حرّاس التقاليد الرومانيّة والأعراف الموروثة ودين الدولة، هبطوا إلى أعماق لا قاع لها، وقبلوا صاغرين أن يبدّلوا عقيدتهم السياسيّة من إيمانهم بجمهورية أرستقراطيّة، إلى عبادة الحاكم الفرد، وقبلوا أن يتحوّلوا إلى حفنة من المطبّلين والمزمّرين للإمبراطور على كلّ صعيد، بما في ذلك الدين والعبادة. وتقدّم لنا الدكتورة أديث هاملتون مثلاً رائعاً على هذا التبدّل العميق، ففي نهاية الشغب الدموي الذي دبّره نيرون لإشاعة الفوضى في روما، وبعد أن غصّت الشوارع بالدماء، وجلّلت الجنازات كلّ الشوارع بالسواد، فإنّ هؤلاء الذين فقدوا أعزّ الناس عليهم، زيّنوا منزل الإمبراطور بالغار، وطبعوا القبل على يده. واقترح روماني قنصل منتخب بضرورة تشييد معبد لنيرون المقدّس، الذي ارتقى فوق شروط الطبيعة البشريّة وصار جديراً بالعبادة الدينيّة[٣].

لقد قبل سبتيموس سيفروس Septimius Severus (١٩٣- ٢١١م) هذه الألوهيّة بشيء من الشكّ لعلمه أنّها لم تكن إلاّ الوجه الآخر لما كان يظهره الناس من اعتراض صامت على ما كان يصدر عنه من تصرّفات قاسية وصارمة. ومهما يكن من أمر لقد أصبحت فكرة الألوهيّة جزءاً من شخصّيته المعقّدة، كما كان يرى فيها تعبيراً سياسيّاً يرضي رغبته في

[١]- أديث هاملتون، الأسلوب الروماني في الأدب والفنّ والحياة، ترجمة: حنا عبود، منشورات وزارة الثقافة- المعهد العالي للفنون المسرحيّة، دمشق ١٩٩٧م، ص٢٢٥.

[٢]- جفري بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، م.س، ص٧٩، ٨٠.

[٣]- أديث هاملتون، الأسلوب الروماني، م.س، ص٢٢٥.

السيطرة على الدولة والهيمنة على الجنود والشعب[١]. في الواقع إنّ جميع الأباطرة الرومان الذين أقرّوا هذه العقيدة، ورضوا أن يرفعوا إلى مصاف الآلهة، لم يكونوا ينشدون من وراء عبادتهم، من قبل رعاياهم سواء في الولايات الشرقية أم في الغربيّة، سوى هدف سياسي بحت؛ هو إبقاء تبعيّة هذه الولايات للإمبراطور، واستمرار سكّانها خاضعين لسلطته. ومن البدهي أنّه عندما يرى سكّان تلك الولايات أنّ عبادتهم للإمبراطور الروماني تستدعي عدم الخروج أو الثورة على الحكم الروماني، فإنّ النتيجة الحتميّة لذلك أن تقلّ محاولات هؤلاء السكّان للتخلّص من ذلك الحكم. وهكذا ضمن الأباطرة الرومان بالسماح لرعيّتهم بعبادتهم استمرار ولاء الأقاليم غير الرومانيّة وتبعيّتها للإمبراطورية الرومانيّة، فعقيدة عبادة الإمبراطور كانت تستهدف، والحالة ما ذكرنا، غاية سياسيّة بحتة، وهي توطيد وترسيخ دعائم الحكم الروماني للولايات[٢].

أمّا المصابون بجنون العظمة من أمثال كاليغولا Caligula ونيرون ودومتيان Domitianus (٨١- ٩٦م) فهم وحدهم الذين طالبوا بأن يعبدوا في حياتهم، وأن ينظر إلى كلّ منهم بوصفه سيّداً وإلهاً Deus & Dominus أي ملك للعبيد وإله للفانين. وهنا كان ردّ القدّيس يوحنّا (صاحب الإنجيل المعروف) على ادعاءات دومتيان أن جعل توما يؤكّد أنّ المسيح هو السيّد الحقّ. وكما أّن بنية السماء تعكس في الأعمّ الأغلب بنية الأرض، فقد كان مجمع الآلهة يصوّر على أنّه نوع من مجلس الشيوخ السماوي الأعلى، مضافاً إليه أعضاء مختارون لجدارتهم. ومن ثمّ ظهرت عمليّة تأليه الأباطرة الممتازين بعد وفاتهم، حتّى أن فسباسيان Vespasian القائد المتبلّد، عندما شعر بسكرات الموت تقترب، وكان قد احتفظ لآخر لحظة بروح الدعابة، صاح «آه يا عزيزي، وأسفاه! أظن أنّني صائر إلى أن أكون إلهاً».. ! [٣]. أمّا كاليغولا فقد ذهب إلى حدّ السفسطة، بما أنّه كان ينحدر معاً من أنطونيوس ومن أغسطس، أعلن أنّه سينتقم من أيّ قنصل لا يحتفل بذكرى معركة أكتيوم، وينتقم منه كذلك إن فعل.

[١]- جان بابليون، إمبراطورات سوريّات، تاريخ فترة التأثير السوري في الإمبراطوريّة الرومانيّة، ترجمة يوسف شلب الشام، العربي للطباعة والنشر، دمشق ١٩٨٧م، ص١٢٨. وانظر: ص١١٤.

[٢]- نور الدين حاطوم وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، م.س، ص٥٧٦.

[٣]- جفري بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، م.س، ص٨٠.

كما وضع أخته دروسيلا بعد وفاتها في مقام الآلهة، ثمّ قرّر أنّ البكاء عليها جريمة لأنّها إلهة، وعدم البكاء جريمة كذلك لأنّها أخت قيصر[١].

لقد تزايدت أهمّية عبادة الإمبراطور ودورها في السياسة الرومانيّة في أواخر أيام الإمبراطوريّة الرومانيّة، لدرجة أصبحت فيها تمثّل المقياس لولاء المواطنين للدولة، وظهر ذلك بشكل واضح إبّان الصراع الوثني-المسيحي[٢]، ففي عهد الإمبراطور ديكيوس Decius الذي اعتلى العرش سنة ٢٤٩م بدأت موجة جديدة من ملاحقة المسيحيين مشبعة بقيم التقاليد الرومانيّة القديمة، كما أراد هذا الإمبراطور أيضاً تجديد المعتقد القديم الذي اعترته بعض الثغرات، لذلك أصدر مرسوماً يلزم كلّ مواطن روماني بالمشاركة الفعّالة في احتفال أضحية للإمبراطور والإمبراطوريّة، وبالطبع لم يكن المرسوم موجّهاً خصوصاً ضدّ المسيحيين لكن أصبحوا الآن مجبرين أن يفضوا بما عندهم[٣]. ويرى كثيرون أنّ من بين أسباب اضطهاد الأباطرة الرومان للمسيحيين أثناء انتشار المسيحيّة في العالم الروماني هو رفض معتنقي هذا الدين السماوي الجديد المشاركة في عبادة الأباطرة المؤلّهين[٤].

إنّ التأكيد على ديانة عبادة الإمبراطور في القرون الأخيرة من عصر الإمبراطوريّة الرومانيّة، كان ردّاً على الديانة المسيحيّة، حتّى أنّها (أي ديانة عبادة الإمبراطور) استفحلت في القرن الرابع الميلادي، إذ كان معتنقو ديانة عبادة الإمبراطور أغسطس موجودين في روما وفي مدن الإمبراطوريّة الأخرى، ويبدو أنّ الفضل في الترويج لهذه العبادة يعود إلى الوثني الذكي أورليوس فيكتور Aurelius Victor الذي كان يخشى أن يصدر قرار يمنع الأديان الوثنيّة دفعة واحدة في الإمبراطوريّة الرومانية بعدما تمّ الاعتراف بالمسيحيّة ديانة رسميّة في الإمبراطوريّة البيزنطيّة، فيكتور عندما كاد أن يصبح رئيس بلدية روما praefectus urbi كتب السيرة الذاتيّة القصيرة لأباطرة روما، ولا بدّ أنّه كان يعرف روما حسناً، ومعلوماته عن عبادة أغسطس ربمّا كانت قائمة على مشاهدته لهذه التجمّعات المخصّصة لعبادته. وتجدر

[١]- مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، أسباب النهوض والانحطاط، ترجمة عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ٢٠١١م، ص١٣٨.

[٢]- وعد جمال الدين، الأديان الوثنيّة في سورية، م.س، ص١٢٨.

[٣]- فينفريد إلليغر، قرطاجة، م.س، ص٢١٠.

[٤]- نور الدين حاطوم وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، م.س، ص٥٨٠.

الإشارة إلى أنّ أغسطس كان قد رفض التقديس لشخصه في روما، حيث كان يذكر دائماً السابقة المؤسفة لقيصر، وبالتالي جميع الطوائف التي قدّسته في روما لم تكن دستوريّة، ولم يكن هناك أحد مكره على عبادة الإمبراطور. إنّ جميع الطوائف البلديّة قائمة على المبادرة المحليّة، في الواقع لقد أصبحت عبادة الإمبراطور واسعة الانتشار، وكان التشجيع عليها زائداً عن الحاجة، وكان الاستسلام لها أكثر من كاف[١]. واستمرّت عبادة الإمبراطور في القرن الثالث الميلادي إلى أن غيّر أورليان Aurelian مبدأ الحكم مضيفاً إليه نعمة من إله، ممّا مهّد الطريق أمام الإمبراطوريّة المسيحيّة على الرغم من أنّ شخصيّة الإمبراطور قسطنطين ظلّت تتلقّى التنوير والتبجيل[٢].

عاشراً: عبادة الإمبراطورات

لم تنحصر عادة التأليه هذه بالأباطرة فقط، بل تمّ تأليه الإمبراطورات أيضاً كأزليا ابنة الإمبراطور تيتوس، وسابينا Sabina زوجة الإمبراطور هادريان، وفوستينا Faustina ابنة الإمبراطور أنطونيوس بيوس وزوجة الإمبراطور ماركوس أوريليوس، وتيتيانا زوجة الإمبراطور برتينكس Pertinax سنة ١٩٣م[٣]. أمّا الإمبراطورة جوليا دومنا فقد كان قليلاً على هذه الزوجة أن تندمج بجلالة الإمبراطور القدسيّة عن طريق لقبها أوغستا، وتقاسمه بذلك مكانته وسلطانه، فقد لقّبت بأمّ القياصرة وأمّ المعسكرات، على غرار فوستين، تكريماً لها من الجنود على أساس أنّها الحامية التي تظلل بوصايتها فيالق الإمبراطوريّة المبعثرة في ثكناتها البعيدة، وأنّها كانت أمّ الوطن -كما كانت ليفي من قبل- وأمّ مجلس الشيوخ -وكاد أن يكون هذا اللقب تهكّماً صارخاً-فأرادت أن تكون أمّ الآلهة نفسها، إمّا لأنّها كانت تريد من وراء ذلك أن تحتل المركز المخّصص لها في مجمع الآلهة في الكابيتول، وإمّا لأنّ نسبة الإلهي كان يرفعها فوق مذابح الوطن كلّه. لم تكفها الألقاب التقليديّة ولم تشبع شعورها بالتعطّش الدائم إلى حمل المزيد من الألقاب والأوصاف، فكان لا بدّ من أن تدمج شخصيّتها بشخصيّات إلهيّة فوق مستوى البشر، وأن تعلن ذلك بشكل صريح وبوضوح

[1]- Gradel I., Op. Cit., 2002, pp.111, 112.

[٢]- جفري بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، م.س، ص٨٠.

[٣]- وعد جمال الدين، الأديان الوثنيّة في سورية، م.س، ص١٢٧.

لكلّ الناس[١]، فاقترنت بالعديد من الربّات، فغدت جونو ريجينا Juno Regina وفينوس Venus، وفيستا Vesta (حارسة الموقد البيت الروماني واتخذت عرشها بين كاهنات فيستا)، وسيبيل (إله الظلام التي يمثّلها الهلال) وإيزيس، وفي احتفالات العبادة الإمبراطوريّة رفعت إليها الصلوات[٢].

إنّ هناك معلومات مؤكّدة عن تأليه جوليا دومنا، إذ تبيّن أنّ السيّدة كانتريا لونجينا زوجة الشاعر بومبونيوس باسولوس قد أنهت حياتها بالانتحار، وكانت كانتريا هذه كاهنة مرتبطة بعبادة الإمبراطورة أثناء حياة هذه الأخيرة وليس بعد موتها، فالأمر لا يتعلّق إذاً بنوع من التقريض قرنت جوليا دومنا على أساسه بالآلهة المحسّنة بطريقة إصلاحيّة، وإنّما يتعلّق الأمر بعبادة حقيقيّة تقدّم فيها الأضاحي البشريّة تكريماً لشخصها، وبكهنوت خاصّ بها يدور نشاطه الديني حول تقديس ألوهيّتها[٣]. كما خُصّص كذلك يومٌ للاحتفال بميلاد جوليا مايسا. كما اقترنت الإمبراطورة جوليا ماميّا والدة الإمبراطور ألكسندر سيفيروس بالإلهة جونو، وتنوّعت التقدمات المخصّصة للإمبراطورات المؤلّهات ما بين صلاة وابتهال إلى تقديم الأبقار كقرابين لإرضائهن[٤].

---

[١]- جان بابليون، إمبراطورات سوريّات، م.س، ص١٢٩، ١٣٠

[٢]- وعد جمال الدين، الأديان الوثنيّة في سورية، م.س، ص١٢٧.

[٣]- جان بابليون، إمبراطورات سوريّات، م.س، ص١٣٢.

[٤]- وعد جمال الدين، الأديان الوثنيّة في سورية، م.س، ص١٢٧.

خاتمة

ومن خلال ما تقدّم يمكن أن نخلص إلى النتائج الآتية:

أوّلاً: يُعدّ الدين عنصراً مهمّاً في ثقافة الشعوب في الحضارات القديمة، ويبدو أنّ أغسطس قد أدرك تلك الحقيقة.

ثانياً: لقد سعى أغسطس إلى توظيف الدين في سبيل توطيد أركان عرشه وخدمة وحدة الإمبراطوريّة الرومانيّة.

ثالثا: لقد استفاد أغسطس من التجربة التي قام بها يوليوس قيصر في تأليه نفسه، إذ أخذ منها الدروس والعبر، فتفادى الأخطاء التي وقع بها.

رابعاً: لقد ساعد الشرق بمختلف أقطاره أغسطس على وضع أسس عبادة الإمبراطور بما ألهمه من مقوّمات فلسفيّة وشعائر وصورة لاهوتيّة مطلوبة.

خامساً: لقد اتخذ خطوات غاية في التأنيّ وفي منتهى الدقّة في روما حتّى تمكن في نهاية المطاف من تكريس عبادة الإمبراطور فيها.

سادساً: لقد سعى أغسطس في عقيدة المخلّص التي ادّعاها إلى محاكاة نبوءات بني إسرائيل، فادّعاها لنفسه.

سابعاً: لقد ظهرت عدّة محاولات في القرن الرابع الميلادي هدفها تكريس عبادة الإمبراطور في مواجهة الدين المسيحي.

ثامناً: لم تقتصر عبادة الإمبراطور على الأباطرة الميّتين بل انتقلت للأباطرة الذين ما زالوا على قيد الحياة.

تاسعاً: لم تقتصر عبادة الإمبراطور على الإمبراطور نفسه بل امتدّت إلى الإمبراطورات.

لائحة المصادر والمراجع

١. إبراهيم نصحي، التاريخ الروماني ١٣٣- ٤٤ ق.م، ج٢، منشورات الجامعة الليبيّة كليّة الآداب، طرابلس ١٩٧٣م.

٢. إبكار السقّاف، الدين عند الرومان والإغريق والمسيحيين، ط١، مؤسّسة الانتشار العربي، بيروت ٢٠٠٤م.

٣. أديث هاملتون، الأسلوب الروماني في الأدب والفنّ والحياة، ترجمة: حنّا عبود، منشورات وزارة الثقافة- المعهد العالي للفنون المسرحيّة، دمشق ١٩٩٧م.

٤. أندريه إيمار، جانين أوبوايه، موسوعة تاريخ الحضارات العام، ج٢، روما وإمبراطوريّتها، ترجمة فريد داغر وفؤاد أبو ريحان، ط٢، منشورات عويدات، باريس-بيروت ١٩٨٦م.

٥. أوفيد، مسخ الكائنات (ميتامورفوزس)، تعريب وتقديم: ثروت عكاشة، مراجعة: مجدي وهبة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة ١٩٨٤م.

٦. جان بابليون، إمبراطورات سوريّات، تاريخ فترة التأثير السوري في الإمبراطوريّة الرومانيّة، ترجمة يوسف شلب الشام، العربي للطباعة والنشر، دمشق ١٩٨٧م.

٧. جفري بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، مراجعة عبد الغفار مكاوي، مجلّة عالم المعرفة، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد ١٧٣، الكويت ١٩٩٣م.

٨. خليل سارة، تاريخ الوطن العربي القديم في العصور الكلاسيكيّة، منشورات جامعة دمشق ٢٠٠٩م.

٩. رمزي النعمات، الطقوس الجنائزيّة الوثنيّة في سورية خلال الحكم الروماني (٦٤ ق.م – ٣٢٥م) رسالة مقدّمة ليل درجة الماجستير في التاريخ القديم، جامعة دمشق ٢٠١٧م.

١٠. رستوفتزف، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة الاجتماعي والاقتصادي، ترجمة زكي علي ومحمّد سليم سالم، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة ١٩٥٧م.

١١. سيّد أحمد على الناصري، تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة السياسي والحضاري، ط٢، دار النهضة العربيّة، القاهرة ١٩٩١م.

١٢. عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ الروماني، عصر الثورة: من تيبريوس جراكوس إلى أكتافيانوس أغسطس، دار النهضة العربيّة، بيروت ١٩٨٨م.

١٣. فينفريد إلليغر، قرطاجة مدينة البونيين والرومان والمسيحيين، ط١، ترجمة عبد مرعي، روافد للثقافة والفنون، دمشق ٢٠٠٨م.

١٤. محمّد الزين، محمّد محفل، دراسات في تاريخ الرومان، ج٢، ط٨، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٥م.

١٥. مونتسكيو، تأمّلات في تاريخ الرومان، أسباب النهوض والانحطاط، ترجمة عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ٢٠١١م.

١٦. نور الدين حاطوم، وأحمد طربين، صلاح مدني، نبيه عاقل، موجز تاريخ الحضارة، ج١: حضارات العصور القديمة، مطبعة الكمال، دمشق ١٩٦٥م.

١٧. وعد جمال الدين، الأديان الوثنيّة في سورية في العصر الروماني من ٤٦ قبل الميلاد - ٣٩٥ ميلاديّة، رسالة مقدّمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، جامعة دمشق ٢٠١٠م.

١٨. ول. ديورانت، قصة الحضارة، قيصر والمسيح أو الحضارة الرومانيّة، ج٢، مج٣، ترجمة: محمّد بدران، بيروت ١٩٨٨م.

19. Gradel I., Emperor Worship and Roman Religion., Published in the United States by Oxford University Press Inc., New York, 2002.

هذا الكتاب

يهدف هذا المشروع إلى إعادة قراءة التاريخ الحضاري للغرب برؤية موضوعيّة تعتمد على التحليل والنقد، وذلك من خلال الغوص في أعماق هذه الحضارة والبحث عن أصولها وجذورها الأولى وامتدادها وتجلّياتها عبر القرون والعصور المختلفة وتسجيل مالها وما عليها؛ للاستفادة من الإيجابيّات والابتعاد عن الهفوات والسلبيّات سيما ونحن نعيش على أبواب تغييرات حضارية عالميّة تغيّر الخارطة الثقافية.

إننا لا نهدف من خلال هذا المشروع إلى إعادة كتابة تاريخ الغرب من جديد، إذ هذا أمر تكفّله الغرب بجدارة، بل إنّ هدفنا هو إعادة قراءة هذا التاريخ لإعادة رسم حاضرنا بالاعتماد على ثقافتنا وهويتنا الإسلاميّة .

نتمنّى لكم رحلة معرفيّة ممتعة...



المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية
http://www.iicss.iq
islamic.css@gmail.com